

الحديقة المنسية

كيت مورتين

ترجمة: رفيدة جمال

مكتبة 854

رواية



أدب أسترالي معاصر

المكرهسة

مكتبة | 854
سُر مَنْ قَرَأَ

الْحَدِيقَةُ الْمَنَسِيَّةُ

عنوان الكتاب: الحديقة المنسية

THE FORGOTTEN GARDEN

المؤلف: كيت مورتن Kate Morton

ترجمة: رفيدة جمال

مراجعة لغوية: محمود شرف

مكتبة
t.me/t_pdf

مركز
المحرسة

للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة

ت، ف:- 002 02 28432157



mahrousaeg



almahrosacenter



almahrosacenter



www.mahrousaeg.com



info@mahrousaeg.com



mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٠٢١ / ١٩٦٨

الترقيم الدولي: 978-977-313-834-9

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية

محفوظة لمركز المحرسة

2021

© Kate Morton, 2008

مكتبة | 854
سُرَّ مَنْ قَرَأَ

الْحَدِيقَةُ الْمَنْسِيَّةُ

كيت مورتن

ترجمة: رفايدة جمال

رواية

الطبعة الأولى 2021

مكتبة
t.me/t_pdf

21 6 2022



إدارة المكتبة والأرشيف
الجمهورية العربية السورية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

مورتن، كيت، 1976 -

الحديقة المنسية: رواية/ كيت مورتن؛ ترجمة: رفيدة جمال.-ط1
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021

661 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 9-834-313-977-978

1 - القصص الاسترالية

أ-جمال، رفيدة (مترجم)

ب- العنوان

899ز153

رقم الإيداع 2021/1968

إلى أوليفر ولويس
الأعلى من ذهب أرض الجنّيات

الجزء الأول

قال الأمير الشاب للعجوز: "ولكن لماذا يجب أن أجلب ثلاث شعرات من شعر ملكة الجنيات؟ لماذا لا أجلب عددًا آخر؟ شعرتين أو أربعًا؟".

مالت العجوز إلى الأمام ولم تتوقّف عن الغزل. "ثلاثة ليس مجرد رقم يا بني. ثلاثة هو رقم الزمن، أليس هناك ماضٍ وحاضر ومستقبل؟ ثلاثة هو رقم العائلة، أليس هناك أم وأب وطفل؟ ثلاثة هو رقم الجنّيات، ألا نبحث عنهم بين البُوط، والرماد، والزعرور".
أوماً الأمير الشاب؛ فالعجوز كانت تقول الحقيقة. "إذن، لا بُدَّ أن أجلب ثلاث شعرات لكي تنسجي ضفيري السحرية".

من قصة "الضفيرة السحرية"

بقلم إيليزا ماكبيس.

مكتبة
t.me/t_pdf

(1)

لندن، إنجلترا، 1913

كان المكان مُظلمًا حيث قبعت الطفلة، لكنها امتثلت لأوامر السيدة التي كانت قد أخبرتها أن تنتظر، لم يكن الوضع آمنًا بعد، ووجب عليهما التزام الصمت والهدوء. كانت الفتاة الصغيرة تعلم أن الأمر لعبة كالغُمِيضَة. أصاحت السمع من وراء البراميل الخشبية، ورسمت في ذهنها صورًا مثلما علّمها أبوها، وسمعت رجالًا، يغدون هنا وهناك ويصيحون، ظنّت أنهم بحّارة. أصواتٌ فُظّة عالية غاصّة بالبحر والملح. وتناهى من بعيد نفيرُ أبواق السُّفُن الضّخمة، وصفير الصفيح، وطرطشة المياها بفعل ضربات المجاديف، وفي الأعلى نعقت نوارس رمادية ذات أجنحة مبسوطة تمتصُّ ضوء الشمس الساطع.

لقد قالت السيدة إنها ستعود، وتمنّت الطفلة أن تعود قريبًا؛ فقد انتظرت وقتًا طويلًا، حتى أن الشمس توسّطت كبد السماء، وتسلّل الدفء إلى رُكبتَيْها عبر فستانها الجديد. أصغت إلى سطح

السفينة الخشبي ربما تسمع حفيف تئورة السيدة، وكعب حذائها يدقُّ بعجل؛ إذ كانت تمشي بسرعة دوّمًا، بطريقة لم تفعلها أمّها قط. أخذت تتساءل، بطريقة الأطفال الغامضة اللامبالية، أين ماما، ومتى ستأتي. كانت تعرف من تكون السيدة؛ إذ سمعت جدّتها تتحدث عنها. كانت تُدعى (المؤلّفة)، وتعيش في كوخ صغير على الطرف البعيد من العزبة، خلف المتاهة. ما كان يجب عليها أن تعرف ذلك. كانت الأم والجدة قد حدّرتاها من اللعب في المتاهة المليئة بأشجار العُليق، ومن الاقتراب من الجرف. لكن أحيانًا، حينما لم يكن هناك أحد، كانت الطفلة تحب أن تعصي الأوامر.

رقصت المئات من ذرّات الغبار في ضوء الشمس الفضي المُتسلّل بين البرميلين. ابتسمت الطفلة، ونسيت السيدة، والجرف الصخري، والمتاهة، وماما. مدّت إصبعها تحاول الإمساك ببقعة من الغبار، وضحكت من طريقة تجمّع الذرّات قبل انحرافها بعيدًا.

تغيّر الآن الضجيج خلف البقعة التي تختبئ فيها. سمعت جلبة حركة، ولغط أصوات مليئة بالانفعال. مالت نحو ستار الضوء، وضغطت وجهها على الخشب البارد للبراميل. وبعين واحدة نظرت إلى سطح السفينة، أبصرت أرجلًا وأحذيةً وأطراف تنانير، وقصاصات ورقٍ ملوّن رفيع يتطاير هنا وهناك، ونوارس تنقضُّ على سطح السفينة تلتقط الفُتات.

مالت السفينة الضخمة فدوى صرير طويل خفيض قادم من أحشائها، وعبرت الذبذبات ألواح السطح إلى أنامل الطفلة. ترقّبت وحبست أنفاسها، وفردت راحتيها بجانبها، ثم ارتفعت السفينة وابتعدت عن رصيف الميناء. نفير البوق، ودوّت موجة من التهليل والصيحات تهتف "رحلة سعيدة". كانوا في طريقهم إلى أمريكا، إلى مكان يُسمّى نيويورك، حيث وُلد بابا. منذ فترة سمعتها يتهامسان

عنه، ماما تخبر بابا أنه يجدر بهم الذهاب في أسرع وقت ممكن، وأنه لا يمكنهما التأجيل أكثر من ذلك.

ضحكت الطفلة مُجدِّداً؛ إذ انزلت السفينة إلى المياه كحوتٍ عملاق، مثل مويي ديك⁽¹⁾ في القصة التي كان يحكيها لها والدها مراراً. لم تعجب ماما بقراءته لتلك القصة؛ قالت إنها قصصٌ مُخيفَةٌ، وستضع برأسها أفكاراً لا يمكن إخراجها. كان بابا يضع قُبْلَةً على جبين ماما حينما تقول ذلك، ويخبرها أنها على حَقٍّ، وأنه سيكون أكثر حرصاً في المستقبل. لكنه ما انفكَّ يحكي لها قصص الحوت الضخم. وحكايات أخرى، كانت تفضّلها الطفلة، من كتاب القصة الخيالية، عن العجائز العمياوات، والفتيات اليتيمات، والرحلات الطويلة عبر البحر. وأخبرها أن تُبقي تلك القصص طيَّ الكتمان، ولا تخبر بها ماما، وأن تظلَّ سرَّهما.

وفهمت الطفلة ضرورة إخفاء الأسرار عن ماما. لم تكن ماما على ما يرام، كانت مريضةً من قبل ميلاد الصغيرة. وكانت الجَدَّة تطلب منها أن تكون مُطيعَةً، وتُحذِّرها من إزعاج ماما، وإلا سيصيبها مكروهٌ، وسيكون ذلك بسببها. كانت الطفلة تحبُّ أمَّها، ولا تريد أن تجعلها حزينة، ولا تتمنى أن يلحق بها مكروهٌ؛ لِذَا ظَلَّت تُخفي أسراراً، مثل القصص الخيالية، واللعب بالقرب من المتاهة، وتلك المرة التي أخذها بابا لتزور المؤلَّفة في الكوخ الواقع على الطرف البعيد من العِزبة.

"آها! وَجَدْتُكِ!"... سَمِعَتْ صوتاً بجانب أذنها، رُفِعَ البرميل جانباً، وغَمَرَتْها الشمس بغتَةً؛ فَضَيَّقَتْ عينيها، وأخذت تطرف، حتى تحرك صاحب الصوت ليحجب الضوء. كان صبياً كبيراً، وخمَّنت أنه في الثامنة أو التاسعة من عمره. قال: "أنتِ لستِ سالي".

هزَّت الفتاة الصغيرة رأسها بالنفي.

(1) رواية للكاتب الأمريكي هيرمان ملفيل صدرت في عام 1851.

"مَنْ أَنْتِ؟"

لم يُسمح لها بالبوح باسمها لأحد. هكذا كانت قواعد اللعبة التي تلعبها هي والسيدة.

"هَيَّا أَخْبِرِينِي."

"إِنَّهُ سِرٌّ."

جَعَدَ أَنْفَهُ فَتَجَمَّعَ النَّمَشُ عَلَيْهِ. "لِمَاذَا؟"

هَزَّتْ كَتْفَيْهَا. لم يكن مُفْتَرَضًا أَنْ تتحدث عن السيدة. كان بابا ينصحها دومًا بذلك.

"إِذَا، أَيْنَ سَالِي؟" قالها الصبي في نفاذ صبر، وهو يتلَفَّت يَمِينًا ويسارًا. "أَنَا واثق أنها جَرَّت من هذا الطريق."

قهقهة بعيدة جاءت من أسفل سطح السفينة، وصوتٌ تَدَافُع خطواتٍ هاربة. تَهَلَّل وجه الصبي، وشرع يركض. "بسرعة! إنها تهرب."

أمالت الفتاة الصغيرة رأسها على البرميل، وراقبته وهو يحاول شق طريقه بين الحشد في مُطَارَدَة مُتَحَمِّسَة لثورة بيضاء مُتَطَابِرَة. تَلَهَّفَتْ أصابع قدميها لتلحق به. لكن السيدة أخبرتها أن تنتظر. أخذ الصبي يبتعد، وهو يتفادي رَجُلًا بدينًا يعلو وجهه شارب مُصْفُفٌ بعناية، فتجهَّم وانقلبت ملامح وجهه إلى سلطعون مُجْفِل. ضحكت الطفلة. ربما كان كلُّ شيء جُزءًا من اللعبة ذاتها؛ فالسيدة تُشبه الأطفال أكثر من الكبار الذين تَعْرِفُهُمْ، ربما كانت تلعب أيضًا.

تسلَّلت الطفلة من وراء البرميل، ووقفت ببطء. شعرت بألم في قدمها اليسرى؛ إذ لم تُحرِّكها منذ فترة طويلة. انتظرت برهةً لكي يعود إليها الإحساس، وراقبت الصبي وهو يعطف نحو الزاوية ويختفي. وبدون تردُّدٍ انطلقت وراءه. قدماها تهترآن، وقلباها يدقُّ كالطبل في صدرها.

(2)

بريزبن⁽¹⁾، 1930

أقاموا أخيراً حفل عيد ميلاد "نيل" في بناية آل فورستر، الواقعة في لاتروب تيراس. اقترح "هيو" إقامة الحفل في قاعة الرقص الجديدة بالقرية، لكن نيل -مُقتنِعَةً بكلام أمِّها- قالت إنه من السُّخف تكبُّد نفقاتٍ غير ضرورية، ولا سيَّما في ظل هذه الأوقات العصيبة. أذعن هيو، لكنه أصرَّ على أن تشتري نيل الرباط الخاص الذي يعلم أنها ترغبه لفستانها من مدينة سيدني. أقتنعت "ليل" بالفكرة قبل وفاتها. مالت عليه، وأمسكت بيده، وأرته إعلان الجريدة، ومعه عنوان شارع بيت، وأخبرته كيف كان الرباط رائِعًا، وأنه سيعني الكثير لنيلي، وأنه ربما يبدو مبالغًا فيه، لكن يمكن أن يُعاد شغله في فستان الزفاف عندما يحين الوقت. ثم ابتسمت له، وعادت كأنها صبيّة في السادسة عشرة مُجدِّدًا، فبهت ولم ينطق حرفًا.

(1) عاصمة ولاية كوينزلاند باستراليا.

عكفت ليل ونيل على خياطة فستان عيد الميلاد لعدة أسابيع وقتذاك. في الأمسيات، حينما كانت نيل تعود من محل بيع الصحف، وبعد الانتهاء من تناول الشاي، والفتيات الصغيرات يتجادلن بكسلٍ على الشرفات، والبعوض يملأ هواء الليل الحار حتى أن طينه يدفع المرء للجنون، اعتادت نيل على أن تجلب سلة الخياطة، وتجذب مقعدًا بجانب أمها طريحة الفراش. كان هيو يسمعهن أحيانًا، تضحكان على شيء ما حدث في محل بيع الصحف؛ ربما مُشادّة ماكس فيتسيمنز مع أحد الزبائن، أو آخر شكوى مرضية من السيدة بلاكويل، أو طرائف نومي نانسي براون. كان يتباطأ عند الباب، ويعيد ملاء غليونه بالتبغ، ويصغي إلى نيل وهي تحكي، بصوت خفيضٍ ووجنتها تتوردان بالسرور، شيء قاله داني؛ وعدًا قطعه حول المنزل الذي سيشتريه من أجلها حينما يتزوَّجان، والسيارة التي يتمنّاها، ويظنُّ أن أباه يمكن أن يشتريها مقابل سعر بسيط، وأحدث جهاز خلاط من متجر ميكورتر.

كان هيو يحبُّ داني؛ ووجدته مناسبًا لنيل، لا سيّما وأن الاثنان لم ينفصلا منذ التقائهما. ذكّرتَه رؤيتُهُما سوياً بسنواته الأولى مع ليل. كانا سعيدَيْن كعصفورين، والمستقبل المجهول مُنبَسِّطًا أمامهما. كانت زيجة سعيدة. وبرغم أن الدهر ابتلاههما بنوائبه، قبل ميلاد الفتيات، كانت الأمور تُحلُّ بطريقة أو بأخرى...

بعدما ملأ هيو غليونه، وانتهى عُذرُ تَلَكُّئِهِ، سار إلى بقعة هادئة مُعْتَمَةٍ في الشرفة الرئيسية ليجلس فيها في سلام، بعيدًا عن أصوات البنات المشاكسات، والتي كانت كل واحدة منهن أكثر جموحًا من الأخرى. جلس واضعًا مَدْبَّتَهُ على إفريز النافذة تحسُّبًا لاقتراب البعوض. وغاص في أفكاره التي تتَّجه بثبات دومًا نحو السرِّ الذي خبَّأه طوال تلك السنوات.

يشعر أن الوقت قد حان. لقد استطاع إخماد وطأة السنوات الماضية، لكنها بدأت تتناقل مؤخرًا. كانت في الحادية والعشرين من عمرها تقريبًا، امرأة بالغة تستعد لخوض حياتها، حُطبت ثم ستتزوج، ولديها الحق في معرفة الحقيقة. كان يعلم ما ستقوله ليل حول الموضوع، وهو السبب الذي دفعه إلى عدم إخبارها. آخر شيء يرغبه أن تقلق ليل، أن تقضي أيامها الأخيرة تحاول إثناءه عن فعل ذلك، مثلما كانت تفعل مرارًا في الماضي.

أحيانًا، حينما كان لا يدري كيف سيخبرها بالسّر، كان يضبط نفسه يتمنى لو كان ذلك قد حدث لإحدى الفتيات الأخريات. كان وقتها يلعن نفسه لاعترافه بأن لديه ابنة يُفَضِّلُها، حتى على نفسه. لكن نيلى كانت دومًا مُمَيِّزة. على العكس من الفتيات الأخريات، كانت تُسَمِّمُ بالشجاعة والجرأة والخيال الجامح. وكثيرًا ما فُكِّرَ أنها تشبه ليل، وهي فكرة غير منطقية بالطبع.

كانوا قد ربطوا شرائطَ بيضاءَ وحمراءَ بالعوارض؛ لتتماشى مع لوني فستانها وشعرها. كانت القاعة الخشبية القديمة مقبولةً، برغم أنها لم تتمتع برونق البنايات الجديدة المبنية بالطوب في البلدة. وفي الناحية الخلفية بالقرب من المنصة، هيأت شقيقات نيل الأربع الصُغريات الطاولة لاستقبال هدايا عيد الميلاد، وبدأت كومة كبيرة تتشكّل. وتجمّعت معًا بعض السيدات من الكنيسة لإعداد العشاء، وأخذت إيثيل مورتمير تعزف على البيانو نغمات رقصة رومانسية من الحرب. احتشد الشبان والشابات في البداية في تجمّعاتٍ مُتوتّرة عند الجدران، وبينما أخذت الموسيقى تصدح والفتيان الأكثر جرأةً يستعدّون، شرعوا في الانقسام إلى أزواجٍ، وبدؤوا الرقص. أخذت الشقيقات الصغيرات

يراقبن بلهفة حتى استُدعيتنَ للمساعدة في حمل صواني الشطائر من المطبخ إلى مائدة العشاء.

وعندما حان وقت الخُطْب، لمعت الوجنات وكَفَّت الأحذية عن الرقص. نقرت مارسي ماكدونالد، زوجة القسِّ، على كأسها، والتفت الجميع نحو هيو، والذي كان يفتح قطعة ورقية صغيرة أخرجها من جيبه. ثم تنحنح ومَرَّرَ يديه على شعره المُصْفَف. لم يكن بارِعًا في إلقاء الخُطْب العامة. لم يكن رجلًا اجتماعيًا، وكان يحب الاحتفاظ بآرائه لنفسه، ويترك -بسرور- الحديث لرفاقه الأكثر فصاحةً. لكن الابنة تبلغ الحادية والعشرين مرة واحدة في العمر، والواجب يُحْتَم عليه أن يتكلَّم في هذه المناسبة. كان شديد التمسُّك بالواجب، ويكُنُّ احترامًا للقوانين، في الأغلب على كل حال.

ابتسم حينما صاح أحد رفاقه من الميناء يضايقه، ثم طوى الورقة في راحة يده وأخذ نَفَسًا عميقًا. شرع يقرأ النقاط في قائمته، واحدة تلو الأخرى، والتي كُتِبَتْ بخطِّ أسود بالغ الصَّغر: كم هو وليل فخورين بنيلى، وكم شَعْرًا بالسعادة حينما جاءت، وكم كانا مُعجَبَيْن بداني. ثم قال إن ليل كانت مسرورةً بشكل خاص لأنها عَلِمَتْ بِالخِطْبَةِ قبل وفاتها.

عندما ذكر وفاة زوجته، ألمته عيناه ولم يَنْبَسْ بينت شفة. صمت لبرهة، وجابت عيناه وجوهَ أصدقائه وبناته، ثم استقرَّتْ لحظةً على نيل والتي كانت تبتسم وداني يهمس بشيء في أذنها. وبينما قُطِب جبينه، تصاعدت همهمات متسائلةً من الجميع إن كان سيعلن عن أمرٍ مُهمٍّ، لكن اللحظة مَرَّت. تهلَّلت أساريه مُجدِّدًا، وأعاد الورقة إلى جيبه. ثم قال مبتسمًا إنه حان الوقت لوجود رجل آخر في العائلة ليوازن الأمور.

مكتبة
t.me/t_pdf

تحرَّكت السيدات في المطبخ على الفور، يُقدِّمن فناجين الشاي للضيوف، لكن هيو تباطأ لبرهة، تاركًا الناس يسيرون أمامه، مُتَقَبِّلًا تَرَبِيتَهُمْ على كتفه، وهتافهم "أَحَسَّنْتَ يا صديقي"، واندفعت إلى رأسه صلصلة الفناجين والأطباق. كان خطابه قد سار جيِّدًا، لكنه لم يهدأ. وأخذت نبضات قلبه تتزايد، وشرع يتصبَّب عَرَقًا برغم أن الجو لم يكن حارًّا.

كان يعلم السبب بالطبع. لم تنتهِ مسؤوليات الليلة بعد. عندما لاحظ نيل تنسلُّ بمفردها عبر الباب الجانبي، المُفضي إلى بسطة السُّلَم الصغيرة، أدرك أن هذه هي فرصته. تنحنح ووضع فناجان الشاي على طاولة الهدايا، ثم اختفى من ضجيج الغرفة الدافئ إلى هواء الليل المنعش.

وجدها واقفةً بجانب الجذع الأخضر الرمادي لشجرة كافور وحيدة، وفكَّر هيو أن شجر الكافور سيغطي، يومًا ما، كلَّ التلال والوديان على كلا الجانبين. لا بُدَّ وأن منظر تلك الجذوع الرمادية بديعٌ في الليالي المقمرة. وَقَفَ هناك، يرتَّب أفكاره. كان يحاول التهرُّب من واجبه. كان ضعيفًا.

خُفَّاشان أسودان حلَّقًا بصمتٍ عبر السماء المُظلمة، وشرع هيو ينزل الدرجات الخشبية الواهنة، وسار على العشب الرطب المُبلَّل بالندى. لا بُدَّ وأنها سمعته وهو قادم -ربما شَعَرَتْ به- إذ التفتت وابتسمت وهو يقترب منها. قالت إنها كانت تفكَّر في أمها، مُتسائلَةً من أيِّ نَجْمٍ كان يُراقبها.

عندما سمع ذلك كان على وشك البكاء. تمنَّى لو لم تذكر ليل الآن. فقد جعله ذلك يدرك أنها كانت تراقب، غاضبةً ممَّا سيفعله. كان بوسعه سماع صوت ليل، وكل جدالهما القديم. لكنه اتَّخذ قراره. لقد كان هو مَنْ بدأ الأمر بِرُمُوتِهِ، برغم أنه لم يتعمَّد ذلك. كان قد اتخذ

الخطوة التي وضعتها على هذا الطريق، وكان مسؤولاً عن إعادة الأمور إلى مسارها الصحيح. إن للأسرار طُرُقًا خاصَّةً تكشف بها عن نفسها، وبالطبع كان من الأفضل أن تعرف الحقيقة منه.

أمسك يَدَي نيل الرقيقتَيْن الناعمتين بيديه الخشتين وطَبَعَ عليهما قُبْلَةً، ثم ضغط عليهما بشدَّة. كانت ابنته، وأولى بناته. ابتَسَمَت له، وهي تتأَلَّق في فستانها الرقيق المزركش بالشرائط. ابتسم لها بدوره. ثم قادهما لتجلس بجواره على جِذَع يتساقط منه صَمَغٌ أبيض ناعم، ومال ليهمس في أذنها. نَقَلَ إليها السَّرَّ الذي أخفاه هو وأمُّها طيلة سبعة عشر عامًا. وانتظر وملاح وجهدا تضطرب بالإدراك، وتتغيَّر على الفور وهي تستوعب ما يخبرها به. وراقبَ عالمها وهو يتهاوى، والشَّخص الذي كانت عليه يتلاشى في لحظة.

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة



(4)

بريزبن، 2005

بدا البيت، الرابض على جانب التلّ، خلف مركز التّحف الضخم الواقع على سلسلة التلال، كأنه يعرف أن سيده قد رحلت. وبرغم أنه لم يحزن عليها بطريقة حرفيّة، غرق في صمتٍ مُقيم. لم تكن نيل تميل إلى الناس أو الحفلات (كانت فئرانُ المطبخ أعلى صوتًا من الحفيدة)؛ فتعوّد المنزل على الوجود الهادئ دون جلبة أو صخب. لذا كانت صدمةً وقحةً حينما توافدَ الناس دون سابق إنذار، وشرعوا في التّجوّل في جنبات المنزل والحديقة، يسكبون الشاي ويُسقِطون الفتات. واصطبر المنزل على هذه الإساءة الأخيرة.

بالطبع نظّمت الخالات كلّ شيء. كانت كساندرا قد ارتضت بتدبّر حالها، وتكريم جدّتها سرًّا، لكنّ الخالات رفضن، وأصررن على السهر على جثمانها؛ فالعائلة تريد أن تقدّم التعازي، وكذلك أصدقاء نيل. بالإضافة إلى أن ذلك كان هو عين الصواب.

عَجَزَتْ كساندرا على دحض هذه الثقة القاطعة. كانت تُجَادِلُ سابقًا، لكن ليس الآن. بالإضافة إلى أن الخالات كُنَّ قُوَّةً كاسِحَةً، ويمتلكن طاقةً تفوق أعمارهنَّ (حتى الصغرى منهن، الخالة هيتي، لم تكن أقلَّ من ثمانين عامًا). ومن ثَمَّ تَخَلَّتْ كساندرا عن هواجسها، وقاوَمَتِ الإلحاح بمصارَحَتِهِنَّ بأن نيلي لم يكن لديها أصدقاء، وبأشرت بتأدية المهام المُكَلَّفَة بها: ترتيب فناجين الشاي وأطباقه، والعثور على أشواك الكعك، وإزالة بعض التحف الخاصة بنيل لإفساح مكان لأبنائهن. وتركت الخالات يرحن ويجنن بزهو وثقة.

في الواقع لم تَكُنْ خالاتِ كساندرا بالمعنى الحرفي، كُنَّ شقيقات نيل الصُغْرِيَّات، خالات والدة كساندرا. لكن ليزلي لم تَكُنْ تطيقهن، وبسرعة أخذن كساندرا تحت جناحهن عَوْضًا عنها.

ظَنَّتْ لوهلةٍ أن أمها ربما تحضر الجنازة، ربما تصل إلى المَحْرَقَة عند بدء المراسم. كانت تبدو أصغرَ من عمرها الفعليُّ بثلاثين عامًا، تجذب نظرات الإعجاب إليها كدأبها: حسناء، وشابَّة، ولا مبالية- لكنها لم تحضر. واعتقدت كساندرا أنها سترسل بطاقةً عليها صورة ليس لها علاقة بالمناسبة، وتكتب عليها شيئًا بَخَطٍ يَدٍ كبير مُتَشَابِكٍ يجذب الانتباه، وفي الأسفل تُوقِّع بِقُبُلَاتٍ وافرة.

غاصت يَدَا كساندرا في الحوض، وحرَّكَتِ المحتويات.

"أعتقد أن الأمر سار بشكل رائع" قالت فيليس، الشقيقة الأكبر بعد نيل والأكثر تحكُّمًا، "كانت نيل ستحب ذلك".

نظرت كساندرا بشكٍّ.

أردفت فيليس، مُتَوَقِّفَةً لبرهة عن التجفيف: "أقصد كانت ستحب ذلك فور أن تكفَّ عن إصرارها أنها لم تكن تريد أحدًا منذ البداية". ثم قالت فجأةً بصوتٍ يفيض حنانًا وأمومة: "وماذا عنكِ؟ كيف حالك الآن؟".

"أنا على ما يرام".

"تبدين نحيفةً. هل تأكلين؟".

"ثلاث مرّات في اليوم".

"أنتِ بحاجة إلى الامتلاء قليلاً. سوف تأتين لتناول الشاي مساء الغد، سادعو العائلة، وأعد فطيرة الراعي⁽¹⁾".

لم تجادلها كساندرا.

قالت فيليس وهي تجول بنظرها بحدَرٍ في المطبخ العتيق، وتلقي نظرة على غطاء الموقد المُتدبّي: "هل أنتِ خائفة من المكوث بمفردكِ هنا؟".

"كلّاً، لست خائفة...".

قالت فيليس -وأنفها يتغصّن- بتعاطفٍ كبير: "لكنكِ وحيدة. وهذا أمرٌ طبيعي، كنتما صديقتين مُقرّبتين: أنتِ ونيل، أليس كذلك؟". لم تنتظر التأكيد، بل وضعت يداً لَوْحَتها الشَّمْسُ على ساعد كساندرا، وأردفت تقول بحيوية: "لكنك ستكونين بخير، وسأقول لك السبب. من المُحزن أن تفقدي شخصاً تهتمين لأمره، لكن الحزن لا يكون كبيراً حينما يكون طاعناً في السنّ؛ فهذه سنّة الحياة. يكون الحزن غير مُحتمَل حينما يكون صغيراً...". ولم تكمل جملتها، وتوتّرت كتفاها، واحمرّت وجنتاها.

قالت كساندرا بسرعة: "أجل، هو كذلك". توقّفت عن غسل الفناجين، ومالت ترمُقُ نافذة المطبخ المُطلّة على الفناء. سألت رغبة الصابون أسفل أصابعها، على الخاتم الذهبي الذي ما زالت تضعه. "لا بُدَّ أن أزيل الأعشاب الضارّة. ستسدُّ زهورُ "أبو خنجر" المَمَرَّ إن لم

(1) فطيرة لحم مُغطّاة بطبقة من البطاطس المهروسة، وتُعرّف أيضاً بفطيرة الكوخ.

أعتن بها". التَقَطَتْ فيليس المَقْتَرَحَ بامتنانٍ، وقالت: "سأرسل تريفور لكي يُسَاعِدَكَ". ثم أحكمت أصابعها العجوز حول ذراع كساندرا وهي تقول: "هل السبت القادم مناسب؟".

حينئذٍ ظهرت الخالة دوت، وهي تجرُّ قدميها من غرفة الجلوس، وتحمل صينية أخرى عليها فناجين شاي مُتَسَخَّة. وضَعَتها على المنضدة، وضَعَطَت بظهر يدها الممتلئة على جبهتها وهي تقول: "أخيراً"، ثم طرفت بعينيها لكساندرا وفيليس عبر نظارتها الزجاجية السميقة، وقالت: "كانت تلك آخرهم"، تهادت إلى المطبخ، واختلست النظر إلى وعاء كعكٍ دائري، وقالت: "إنني أتصوّر جوعاً".

قالت فيليس، مُنتَهَرَةً الفرصة لتحويل جوِّ عدم الارتياح إلى عتاب: "لقد أكلتِ اللَّثَوَّ يا دوت".

"منذُ ساعة".

"وماذا عن مرارتكِ؟ خِلْتِكِ ستراقبين وزنكِ".

"أنا افعل" قالت دوت، وهي تُسَوِّي وتشدُّ خصرها الكبير بيديها. "فقدتُ ثلاثة كيلو جرامات منذ الكريسماس"، ثم أعادت إحكامَ الغطاء البلاستيكي، ونظرت في عيني فيليس المُتَشَكِّكَتَيْن وهي تقول: "لقد فعلت حقاً".

كَبَحَت كساندرا ابتسامة، واستمرت في غسل الفناجين. كانت فيليس ودوت ممتلئتي الجسم، كل الخالات كُنَّ كذلك. وقد توارثنَ ذلك عن أمهنَّ، والذي ورثته بدورها من أمها. كانت نيل الوحيدة التي أفلتت من هذه اللعنة العائلية؛ فتوارثت هُزالَ أبيها الأيرلندي. وكانت رؤية نيل الطويلة النحيفة مع شقيقاتها البدينات القصيرات مشهدًا يستوقف النظر.

كانت فيليس ودوت ما زالتا تتجادلان، وعلمت كساندرا بخبرتها أنها إن لم تجِدْ إلهاءً فستتصاعد الشَّحْناءُ بينهما حتى تقذف إحداهما (أو كليهما) منشفة الشاي، وتعصفان بالمنزل في سُخْطٍ عظيم. لقد رأت ذلك يحدث من قبل، لكنها لم تفهم بعدُ كيف يُمكن لعِبارَة قيلت بطريقة مُعيَّنة، أو تَواصُلُ بصريٍّ لِبرُهةٍ - استئنافٍ خلافٍ بدأ منذ عدَّة سنوات. ولأنها كانت طفلةً وحيدة؛ وجدت كساندرا أن هذه الطرق المُنهكة للتواصل بين الأقارب تثير دهشتها وذعرها على حَدِّ سواء. ومن حسن الحظ أن الخالات الأخريات كُنَّ مع أفراد عائلتهن، ولم يستطعن إبداء آرائهن.

تنحنت كساندرا وقالت: "ثُمَّ شَيْءٌ أريد الاستفسار عنه". ثم رفعت صوتها قليلاً، وقد نجحت في جذب انتباههما. "عن نيل. شيء قالته في المستشفى". التفتت إليها فيليس ودوت بوجناتٍ مُتورِّدة. ويبدو أن ذِكرَ شقيقتهما قد هدأ من تَشَاخُنِهما، وذَكَرَهما بسبب وجودهما في هذا البيت يُجَفِّفان فجاجين الشاي. قالت فيليس: "شيء عن نيل؟".

أومأت كساندرا برأسها إيجاباً، وهي تقول: "في المستشفى، وهي على وشك الموت، تحدّثت عن امرأة. كانت تدعوها بالسيدة، المؤلِّفة. يبدو أنها ظنَّت أنهما كانتا على متن سفينة؟".

زَمَّت فيليس شفيتها، وأردفت كساندرا: "كان عَقْلُها شارِداً، لم تكن تعرف ماذا تقول. ربما شخصية رأتها في التلفزيون. ألم يكن هناك مسلسل تُفضُّله، تدور أحداثه في سفينة؟".

"أوه فيل" قالت دوت، وهي تهزُّ يديها.

"أنا واثقة أنني أتذكّر أنها تحدّثت عنه...".

قالت دوت: "هيا يا فيل. لقد رحلت نيلي. ليس هناك داعٍ لكل هذا".

عقدت فيليس ذراعينها على صدرها، وزفرت بشك.

قالت دوت برفق: "علينا إخبارها. ما من ضررٍ. ليس الآن".

"تخبراني ماذا؟" أخذت كساندرا تنقل بصرها بينهما. ها قد بدأ سؤالها مُشاحنةً عائليَّةً أخرى، لم تكن تتوقَّع أن تُميطَ اللثام عن هذه اللحمة الغريبة من السريَّة. تبادلَت الخالتان النظرات، كأنهما نسيئا وجودها. فقالت كساندرا بالحاح: "تخبراني ماذا؟".

رفعت دوت حاجبيها نحو فيليس وهي تقول: "من الأفضل أن نخبرها نحن عن أن تعرف هي بطريقة أخرى". أو مأت فيليس بشكل غير ملحوظ، ونظرت في عيني دوت، وابتسمت بتجهمٍ. معرفتهما المشتركة جعلتهما حليفين مُجددًا.

أخيرًا قالت فيليس: "من الأفضل أن تأتي وتجلسي يا كاس. وأنت يا دوتي العزيزة من فضلك ضعي الإبريق، وأعدِّي لنا الشاي اللذيذ". تبيعت كساندرا فيليس إلى حجرة الجلوس، وجلست على أريكة نيل. أراحت فيليس مؤخرتها العريضة على الناحية الأخرى، وجذبت خيطًا محلولًا. "لا أعرف من أين أبدأ، لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن فُكِّرتُ في الموضوع برُمَّته".

تساءلت كساندرا عن أي موضوع تتحدَّث؟

"ما سأخبرك به هو سرُّ عائلتنا الكبير. كُلُّ عائلةٍ لديها سرٌّ، كوني واثقةً من هذا، وبعض الأسرار أكبر من الأخرى". وتجهَّمت وهي تنظر إلى المطبخ. "والآن ما الذي أحر دوت طويلًا؟ إنها بطيئة كسلحفاة".

"ما الأمر يا فيل؟".

تنهدت وهي تقول: "قطعْتُ على نفسي وعدًا أنني لن أخبر أحدًا آخر قطُّ. لقد أثار الأمرُ كُلُّه انقسامًا كبيرًا في عائلتنا بالفعل. يا ليت أبي احتفظ به لنفسه. لقد ظنَّ المسكين أنه فعل الصواب".

لم تُجِب فيليس بشكل مباشر على السؤال. كانت تلك قِصَّتْهَا، وكانت ستحكيها بطريقتها، وكما وردت في زمنها الجميل. "كُنَّا عَائِلَةً سعيدة. لم نكن نمتلك الكثير، لكن كُنَّا سعداء. أمي وأبي ونحن الفتيات. كانت نيلى أكبرنا، كما تعلمين، وكانت تفصل بيننا وبينها عشر سنوات تقريبًا بسبب الحرب العالمية الأولى". ابتسمت ثم أردفت: "لن تُصدِّقي ذلك، لكن نيلى كانت قُرَّةَ عين العائلة وقتذاك. عشقناها جميعًا واعتبرناها، نحن الفتيات الصغيرات، أُمَّنا، لا سِيمًا بعد مرض الوالدة، والتي أَخَذَتْ نيلى توليها عنايةً فائقةً".

كان بوسع كساندرا أن تتخيَّل أن نيلى تفعل ذلك، أمَّا بخصوص كَوْنِ جَدَّتِهَا حَادَّةِ الطبع قُرَّةَ عين العائلة... "ماذا حدث؟".

"لم يعرف أحدٌ لوقت طويل. لقد أرادت نيلى ذلك. تغيَّر كل شيء في عائلتنا، ولم يعلم أحدٌ السَّبَبَ. تحوَّلت شقيقتنا الكبرى إلى شخص آخر، وبدا أنها توقَّفت عن حُبِّنا. ولم يكن ذلك بين عَشِيَّةٍ وضُحاها، لم يكن تحوُّلاً فوريًّا. بل أخذت تنسحب شيئًا فشيئًا، وتُحرِّر نفسها من صُحبَتِنَا. وتألَّمتنا جميعًا بسبب هذا التحوُّل الغامض، ولم يُعدَّ أبي يتحدث في الموضوع مهما ضَيَّقنا عليه بأسئلتنا. لقد كان زوجي، رحمه الله، مَنْ أَوْضَحَ لَنَا الأُمُورَ في نهاية المطاف. لكنه لم يتعمَّد ذلك، لم يكن الأمر كأنه شَرَعَ في اكتشاف سِرِّ نيلى. بل كان مُجِبًّا للتاريخ، هذا كل ما في الأمر. حينما وُلِدَ تريفور اعتزم أن نصنع شجرة عائلة. كان ذلك في عام 1947، نفس عام ميلاد أمك". توقَّفت ونظرت إلى كساندرا بدهاء، كأنها تنتظر أن تُخْمَنَ كساندرا ما سيأتي ذِكْرُهُ. لكنها لم تفعل.

"في أحد الأيام دخل دوج إلى مطبخي. أتذكَّر ذلك كوضوح النهار، وقال إنَّه لم يستطع العثور على أي ذِكْرٍ لميلاد نيلى في السَّجِلِّ الرسمي.

قلت له: بالطبع لا، نيلي وُلِدَت في ماريبورو⁽¹⁾، قبل انتقال العائلة إلى بريزبن. حينها أوماً وقال إن ذلك ما حسبه، ولكن حينما أرسل يطلب تفاصيل من ماريبورو، أخبروه بعدم وجود هذا الاسم لديهم". نظرت فيليس نظرةً ذات مغزى إلى كساندرا. "وهذا هو الأمر، نيل لم توجد قَطُّ. على الأقل رسمياً".

رَفَعَت كساندرا عينها إلى دوت التي جاءت من المطبخ، وناولتها فنجان الشاي. "لستُ أفهم".

قالت دوت، وهي تجلس على كرسي بذراعين بجانب فيليس: "بالطبع أنتِ لا تفهمين يا عزيزتي. ولزمن طويل لم نفهم نحن كذلك". ثم هزَّت رأسها وأطلَقَت زفرةً. "إلى أن تحدَّثنا مع چون. في زفاف تريفور، أليس كذلك يا فيلي؟".

أومات فيليس بالإيجاب، وقالت: "أجل في عام 1975. كنتُ غاضبةً للغاية من نيل. كان أبي قد تُوفِّي مؤخراً، وابني الأكبر تزوَّج، ابن شقيقة نيلي، ولم تُكَلِّف نفسها عناء القدوم. بل سافرت؛ وهذا ما جعلني أثرثر مع چون. ولا أمانع القول إنني كنت أشتكي من نيل". ارتبكت كساندرا، لم تكن بارعةً قَطُّ في تذكُّر الشبكة الضخمة من أصدقاء الخالات وأفراد العائلة. "مَن هي چون؟".

أجابتها دوت: "إحدى قريباتنا، من جانب أمي. بالتأكيد التقيتِ بها يوماً ما. تكبر نيل بعام أو عامين، وكانتا أعزَّ صديقتين في شبابهما". قالت فيليس بزفرة: "لا بُدَّ وأن چون كانت مُقَرَّبة للغاية منها؛ إذ كانت الإنسانية الوحيدة التي أخبرتها نيل متى حدث". تساءلت كساندرا: "ما هو الذي حدث؟".

مكتبة
t.me/t_pdf

(1) مدينة تقع في كوينزلاند.

مالت دوت إلى الأمام وهي تقول: "أبي أخبر نيل...".

قاطعتها فيليس بسرعة: "أبي قال لنيل شيئاً لم يكن عليه أن يخبرها به. برغم أن المسكين كان يفعل الصواب، لكنه ظلّ نادماً عليه بقيّة حياته، لم تعدّ الأمور بينهما قطّ كما كانت في السابق".

"ومع ذلك ظلّ يُحبُّها دائماً".

"لقد أحببنا جميعاً" قالت فيليس بغضب.

قالت دوت، وهي تشيح بعينيها تَبْرُماً: "ألن تعترفي بذلك يا فيل حتى الآن؟ كانت نيل الابنة المفضّلة لديه، بريئة وبسيطة - ويا للعجب - تغيّرت بعد ذلك".

لم تُعقّب فيليس؛ لذا أردفت دوت، مسرورةً من كونها أمسكت بزمام الحديث: "حدث ذلك في ليلة عيد ميلادها الحادي والعشرين. بعد الحفل...".

قاطعتها فيليس مُجدِّداً: "لم يكن بعد الحفل، بل أثناءه"، ثم التفتت إلى كساندرا قائلةً: "ربما ظنّ أن ذلك هو الوقت المناسب لإخبارها، كانت تبدأ حياةً جديدة. وكانت قد خُطبت وتستعدّ للزواج، ليس من جدّك، بل من شخص آخر".

قالت كساندرا باندهاش: "حقاً؟ لم تقل شيئاً مُطلقاً".

"حبّ حياتها، إن أردتِ رأيي. فتى من المنطقة، ليس مثل آل".

نطقت فيليس اسم "آل" بنفور. ليس بسراً أن الخالات اعترضن على زوج نيل الأمريكي. لم يكن شيئاً شخصياً، بل كان نابغاً من كراهية السكّان للجنود الأمريكيين واستيائهم من تدفّقهم إلى بريزبن أثناء الحرب العالمية الثانية، بأموال وفيرة وأزياء عسكرية أنيقة، وفرارهم سراً مع نساء المدينة.

"وماذا حدث بعد ذلك؟ لماذا لم تتزوّجه؟"

قالت فيليس: "لقد فَسَخْتَ الخِطْبَةَ بعد الحفل بشهور قليلة، وأثار ذلك الاستياء؛ كُنَّا جميعًا نحب داني، وقد تحطّم قلب المسكين، وفي النهاية تزوّج من امرأة أخرى، قبل نشوب الحرب العالمية الثانية. لم يُكْتَبْ له التَّمَتُّعُ بالزواج؛ إذ لم يعد قطُّ من القتال مع اليابانيين".

تساءلت كساندرا: "هل طلب منها والدّها ألا تتزوّجه؟ هل كان ذلك ما أخبرها به في تلك الليلة؟ عدم الزواج من داني؟".

قالت دوت ساخرة: "كلّا. أحب والدي داني كثيرًا. بل إن حبّه له فاق مَحَبَّتَه لأزواجنا".

"إذن لماذا فَسَخْتَ الخطبة؟".

أجابت فيليس: "لم تفصح عن السبب، بل إنها لم تخبره. وكدنا نُجَنُّ كي نعرف السبب. كل ما عرفناه أن نيل لم تتحدّث مع أبي، ولم تتحدّث مع داني".

"أجل، إلى أن تحدّثت فيلي مع چون" قالت دوت.

"بعد قرابة خمسة وأربعين عامًا لاحقًا".

"وماذا قالت چون. ماذا حدث في الحفل؟" تساءلت كساندرا.

أخذت فيليس رشفةً من الشاي، ورفعت حاجبيها نحو كساندرا وهي تقول: "أخبرَ أبي نيل أنها ليست ابنته".

"هل تَبَنَّاها؟".

تبادلت الخالتان النظرات، ثم قالت فيليس: "ليس بالضبط".

"من الأفضل أن نقول إنه عثر عليها" قالت دوت.

"خُطِفَتْ".

"حُيِّسَتْ".

قَطَبَتْ كساندرا جبينها. "عُثِرَ عليها أين؟".

أجابت دوت: "على رصيف ميناء ماريبورو، حيث اعتادت السفن الضخمة على المجيء من أوروبا. بالطبع لا يعرفون أن ثمة موانئ أضخم، ومعظم الناس يسافرون هذه الأيام بالطائرة...".

قاطعت فيليس حديثها "وجدها أبي. كانت حينها طفلة صغيرة. وكان ذلك قبل نشوب الحرب العالمية الأولى مباشرة. كان الناس يغادرون أوروبا في حشود، ونُرْحَب باستقبالهم هنا في استراليا. كان أبي وقتذاك رئيس الميناء، ووظيفته التأكد من وصول هؤلاء المسافرين إلى وجهتهم. لم يكن أكثرهم يتحدث الإنجليزية. وكما فهمتُ، في ظهيرة أحد الأيام، كان هناك هَرَجٌ ومَرَجٌ، ورست سفينة على الميناء بعد رحلة مُرَوَّعة قادمة من إنجلترا: إصابات بالتيفود، وضربات شمس. وحينما وصلت كان على متنها المزيد من الحقائب والأشخاص غير المُسجّلين. كانت فوضى مُزعجة، لكن أبي نجح في تنظيم الأمور بالطبع، كان دومًا بارعًا في حفظ النظام، لكنه انتظر فترةً أطول من المعتاد للتأكد، وأمر الحارس الليلي أن يعرف ما حدث، ويقدم تفسيرًا لوجود حقائب إضافية في المكتب. وبينما هو ينتظر، لاحظ وجود شخص ما على الرصيف: طفلة لم يتجاوز عمرها الرابعة، جالسة على حقيبة سفر".

قالت دوت، وهي تهزُّ رأسها: "كانت وحيدة تمامًا".

"بالطبع حاول أبي معرفة مَنْ تكون، لكنها لم تخبره. قالت إنها لا تعرف، ولا تستطيع التذكُّر. ولم يكن ثمة اسمٌ مُلصقٌ على حقيبة السفر، ولا يوجد شيء داخلها يُمكنه أن يساعد، على حدِّ علمه. كان الوقت متأخرًا، والظلام يزحف، وبدأت حالة الجوّ تسوء. كان أبي يعلم أنها لا بُدَّ وأن تكون جائعة، وفي النهاية لم يكن أمامه سوى أن يأخذها

معه إلى البيت. ما الذي يمكن فعله غير ذلك؟ لم يستطع تركها على الرصيف الغارق في مياه الأمطار طيلة الليل، أليس كذلك؟".

هزّت كساندرا رأسها، مُحاولَةً تَخْيَلُ أن نيل التي تعرفها هي نفسها الطفلة المُرهَقَة الوحيدة في قِصَّة فيلي.

"وكما قالت چون، ذهب في اليوم التالي إلى العمل، مُتوقِّعًا وجود أقارب يبحثون عنها، وشرطة، وتحقيق...".

قالت دوت: "لكنه لم يجد شيئًا من هذا القبيل. ومَرُّ الأيام ولم يحدث شيء، ولم يَقُلْ أحدٌ شيئًا".

"بَدَا الأمر كأنها لم تترك وراءها أثرًا. بالطبع حاولوا معرفة مَنْ كانت، ولكن أعداد الواصلين إلى الميناء كل يوم كانت كبيرة... وكانت مُمَّة أعمال ورقية كثيرة؛ لذا كان من السهل إغفال شيء ما".
"أو شخص ما".

تَنَهَّدت فيليس قائلة: "لذا احتفظ بها أبي وأمي".

"هل كان بوسعهما أن يَفْعَلَا شيئًا غير ذلك؟".

"وتركاها تعتقد أنها تنتمي إليهما".

"تنتمي إلينا".

قالت فيليس: "إلى أن بلغت الحادية والعشرين من عمرها. وقرَّر أبي إخبارها بالحقيقة، وأنها كانت لقيطة، ولم يكن بحَوَازَتِها شيءٌ يُثَبِّتُ هُوِيَّتَها عدا حقيبة سفر".

ران الصمت على كساندرا، وهي تحاول استيعاب هذه المعلومات. لَفَّتْ أصابعها حول فنجان الشاي الدافئ وهي تقول: "لا بُدَّ وأنها شعرت بالوحدة".

قالت دوت: "بالطبع. كل هذا الطريق بمفردها. أسابيع وأسابيع على هذه السفينة الضخمة، ثم تصل إلى رصيف لا ينتظرها أحدهم عليه".

"وبعد ذلك أيضًا".

"ماذا تقصدين؟" تساءلت دوت بعبوس.

زمت كساندرا شفقتها. ماذا تقصد؟ وتراءى لها السبب في لمحة عين. اليقين بوحدة جدتها، كأنها في تلك اللحظة لمحت جانبًا مهمًا من نيل لم تعرفه قط من قبل. أو بالأحرى، فهمت بغتة جانبًا من نيل تعرفه جيدًا: عزلتها، واستقلالها، وطبعها الحاد. "لا بدّ وأنها شعرت بوحدة ساحقة حينما أدركت أنها ليست من تكون".

قالت فيليس مندهشة: "بالفعل. لم أدرك ذلك في البداية. حينما أخبرتني چون، لم أفهم أن ذلك غير كثيرًا من الأمور. لم أفهم السبب الذي جعل نيل تترك هذا الموضوع يؤثر عليها بشكل سلبي. لقد أحبها أبي وأمي وعشقناها نحن الشقيقات الصغيرات، لم يكن بوسعها أن تتمنى عائلة أفضل". ثم مالت على ذراع الأريكة، ووضعت يدها على رأسها، وفرغت صدغها الأيسر بشكل متعب. "ومع مرور الوقت، بدأت أدرك أن الأشياء التي نعتقد أنها بديهية هي أشياء مهمة: العائلة، والنسب، والماضي... إنها الأشياء التي تبني هويتنا، وأبي سلبها من نيل. لم يكن يقصد ذلك، لكنه فعل".

قالت كساندرا: "لكن لا بدّ وأن نيل شعرت بالراحة لأنك علمت بذلك الموضوع في النهاية. بالتأكيد هون عليها الأمور بطريقة ما".

تبادلت فيليس ودوت النظرات.

"بالتأكيد أخبرتها أنك عرفت؟".

تَجَهَّمَت فيليس وقالت: "كدتُ أفعل عِدَّةَ مرَّاتٍ. ولكن حينما يأتي ذِكْرُ الموضوع لم يَكُن بوسعي العثور على الكلمات المناسبة، لم أستطع أن أفعل ذلك بنيل. لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ دون أن نخبرنا حرفًا. لقد بنَّت حياتها على السِّرِّ، وكافَّحت للاحتفاظ به في سُوَيْداء قلبها. شعرت... أنه من القسوة هدم هذه الجدران. كأنك تسحبين البساط من تحت قدميها للمرة الثانية". ثم هزَّت رأسها مُستأنفةً: "وربما كانت تلك حُجَّةً واهية. نيل يمكن أن تكون شرسة متى أرادت، وربما لم تواتني الشجاعة لفعل ذلك".

قالت دوت بصرامة: "ليس لهذا الأمر علاقة بالشجاعة أو الجُبْن. لقد اتفقنا جميعًا أن ذلك كان أفضلَ خيار. أرادت نيل أن يكون الأمر هكذا".

قالت فيليس: "أظن أنكِ على صواب. على كل حال أنا أتساءل فحسب. لم يكن الأمر عدم وجود فرص، على سبيل المثال: اليوم الذي أعاد فيه دوج حقيبة السفر إليها".

أخذت دوت تشرح لكساندرا: "قبل وفاته بوقت قليل، أمر أبي زوج فيلي أن يسلم نيل الحقيبة. لكنه لم يخبرنا ماذا تكون. وهذا هو دَيْدَنُ أبي: كاتِمٌ للأسرار مثل نيل. كما ترين لقد خَبَّأها بعيدًا طيلة تلك السنوات. كل شيء ما زال بالداخل، مثلما عُثر عليها".

قالت فيليس: "والأمر الغريب أنني بمجرد أن رأيت الحقيبة ذاك اليوم فكَّرت في قصة چون، وعرفت أنها لا بُدَّ وأن تكون الحقيبة التي وجدها أبي مع نيل على رصيف الميناء منذ سنوات طوال. ومع ذلك، طيلة فترة وجودها في الناحية الخلفية من مخزن أبي، لم أُعْرِها أيَّ اهتمام. لم أربط بينها وبين نيل وأصولها. وإن حدث ولمحتها كنت أتساءل بتعجُّبٍ عمَّا يريدُه أبي وأمِّي من هذه الحقيبة السخيفة

الصغيرة ذات الجلد الأبيض، والأبازيم الفضية، والتي كانت في حجم طفل...".

وبرغم أن فيلي أخذت تصف الحقيبة، لم تكن في حاجة إلى ذلك؛ إذا كانت كساندرا تعلم أوصافها بدقّة.

والأهم من هذا، أنها كانت تعرف محتوياتها.

(5)

بريزبن، 1976

كانت كساندرا تعلم المكان المتجهتان إليه بمجرد أن أنزلت والدتها زجاج النافذة، وأمرت عامل محطة البنزين بأن "يملأها". قال الرجل شيئاً، وضحكت أمها بدلال. غمز بعينه لكساندرا، ثم استقرتاً على ساقَي أمها الطويلتين البنيتين المحشورتين في سروال جينز قصير مقصوص. اعتادت كساندرا على تحديق الرجال في أمها، ولم تُعره انتباهاً كبيراً. التفتت لتنظر إلى الجهة الأخرى من النافذة بجوارها، وأخذت تفكر في جدتها نيل؛ إلى حيث هما ذاهبتان. السبب الوحيد الذي يجعل أمها تدفع أكثر من خمسة دولارات ثمن بنزين السيارة، هو القيام برحلة مدتها ساعة على جنوب شرق الطريق السريع إلى بريزبن.

كانت كساندرا تهاب نيل دائماً. لم يزد لقاءها بها عن خمس مرات (على حسب ما تذكر)، لكن نيل لم تكن من الأشخاص الذين يمكن نسيانهم بسهولة. كانت أكبر إنسانة طاعنة في السن رأتها كساندرا

في حياتها. ولم تكن تبتسم مثل الآخرين، ممّا جعلها تبدو مهيبّة، وتبعث على الرهبة. لم تتحدّث ليزلي عنها سوى مرة واحدة، حينما كانت كساندرا مُستلقيةً في فراشها، وسمعت أمّها تتشاجر مع حبيبها السابق لين، وتنعت نيل بالساحرة، وبرغم أن كساندرا توقّفت عن الإيمان بالسحر وقتذاك، لم تفارق الصورة خيالها.

كانت نيل تبدو كساحرة بالفعل، بشعرها الطويل الفضي المعقود في حزمة خلف رأسها، وبمنزلها الخشبي الضيق المطلي باللون الأصفر الليموني المقشّر، والواقع على جانب التلّ في بادينجتون، وحديقته المليئة بنباتات مفرطة في النمو، وبقطط الجيران التي تتبعها في كل مكان، وبنظراتها المسلّطة عليك بثبات، كأنها على وشك إلقاء تعويذة.

أسرعت بهما السيارة، والتي كانت نوافذها مُغلّقة، على طريق لوجان، وددنت ليزلي مع الراديو، أغنية فرقة آبا الجديدة، التي كان يذيعها دائماً برنامج كاونداون الإذاعي. بعد عبور نهر بريزبن تجاوزت السيّارة وسط المدينة، مُتّجهةً نحو بادينجتون ذات التلال التي نُحِتت فيها أشكال حديدية مموّجة من الفطر. كان بيتُ نيل يقع بعيداً عن لاتروب تيراس، أسفل منحدر حاد، في منتصف شارع ضيّق.

أوقفت ليزلي السيارة وأطفأت المحرّك. جلست كساندرا لبرهة، كانت الشمس الساخنة تتسلّل عبر الحاجب الزجاجي إلى ساقها، اللتين التصق جلدُهُما بمشعّ المقعد. حينما ترجّلت أمّها عن السيارة وثبت بدورها، ووقفت بجانبها على الرصيف، تُحدّق إلى الأعلى، بشكلٍ لا إرادي، في المنزل الشاهق المُغطّى بالألواح الخشبية الطويلة.

امتدّ ممرّ خرسانيّ مُتشقّق ربيعٍ على جانب واحد. ثمّة باب رئيسي، يُفضي إلى الأعلى، لكن أحدهم شيّد حاجزاً حول الدّرج منذ سنواتٍ مضت فحجب المدخل، وقالت ليزلي إنه لم يعد يُستخدم، وأردفت

أن نيل أرادت ذلك؛ فهذا يمنع الناس من القدوم فجأة، مُعتقدين أنهم مُرحَّبٌ بهم. كانت البالوعات قديمةً ومُتهالِكةً، وفي المنتصف حفرة كبيرة يعلوها الصدا، تسمح بتصريف مياه الأمطار عند هبوب العواصف. وفكَّرت كساندرا، بينما هبَّت نسمة دافئة أرسلت صلصلةً في الأجراس الهوائية، أنه لا علامة على سقوط المطر اليوم.

قالت ليزلي، وهي تنظر من فوق نظارتها الشمسية الكبيرة ذات اللون البرونزي، وتهزُّ رأسها: "ربَّاه! حفرة بريزبن العَفِنة. حمدًا لله أنني خرجت من هنا".

سَمِعَا ضجَّةً قادمة من مُقدِّمة الممرِّ. قِطَّة مَلَسَاء بُنْيَّة اللون رمقت القادمين بنظرة غير مُرحَّبة. صرير مفصَّلات على البوابة، خطوات أقدام، ثم ظهرت هيئة ذات رأس فضي بجانب القطة. جذبت كساندرا نَفْسًا. كان الأمر يشبه مواجهة شيء من صُنع خيالها.

وقفن جميعًا يتبادلن النظرات، وخيَّم الصمت على الجميع. وشعرت كساندرا بأنها تشهد طقسًا غامضًا لا تفهمه من طقوس الكبار، وتساءلت عن سبب استمرارهم في الوقوف، ومن سيقوم بالخطوة التالية. حينها كسرت نيل حاجز الصمت قائلة: "ظننت أنك وافقتِ على الاتصال أولًا في المستقبل؟".

"تسرُّني رؤيتك أيضًا يا أمي".

"أنا مشغولة بتصنيف صناديق المزاد. الأشياء في كل مكان، ولا توجد غرفة للجلوس فيها".

قالت ليزلي: "سنتدبِّر الأمر". ثم فرقعت أصبعيها نحو كساندرا. "حفيدتُك عطشى، الجو حار جدًا هنا".

تحرّكت كساندرا بقلق، ونظرت إلى الأرض. ثمّة شيء غريب في
تصرّف أمها، عصبية لم تعتدّ عليها، ولم تستطع البوح بها. سمعت
جدّتها تفر ببطء.

"حسنًا. من الأفضل أن تدخلًا" قالتها نيل.

لم تكن نيل تُبالغُ حيالِ الفوضى. كانت أرضية الحجرة مُغطّاةً
بأكوام من الصحف المجمعدة. وعلى المنضدة، والتي كانت كجزيرة
وسط بحر من ورق الصحف، تراصت قطع لا تُعدُّ ولا تُحصى من
الخزف الصيني والزجاج والكريستال. فكّرت كساندرا أن هذه الأشياء
تُسمى التُحف، وسرت من نفسها لتذكّرها المصطلح.

"سأضع إبريق الشاي" قالت ليزلي، مُتجهّةً نحو الجانب الآخر من
المطبخ.

صارت نيل وكساندرا بمفردتيهما، وحطّت عينا المرأة العجوز على
كساندرا بطريقتها الغريبة.

قالت أخيرًا: "صرت أطول قامة. لكنك ما زلت نحيفة".

كان ذلك صحيحًا، كان الأطفال دومًا في المدرسة يخبرونها بذلك.

قالت نيل: "كنت نحيفةً مثلك. هل تعرفين ماذا كان أبي يطلق
عليّ دومًا؟".

هزّت كساندرا كتفها.

"ذات الرجلين الرفيعتين. لحسن الحظّ أنهما لم يتهشّما إلى نصفين".
شرعت نيل في سحب فناجين الشاي من خطاطيف مُعلّقة بخزانة
قديمة الطراز. "شاي أم قهوة؟".

هزّت كساندرا رأسها، شاعرةً بالارتباك؛ فبرغم أنها بلغت العاشرة في شهر مايو، كانت ما تزال فتاة صغيرة، ولم تعتدّ بعد على مشروبات الكبار.

قالت نيل بلهجة تحذير: "ليس لديّ عصير فاكهة أو مشروبات فوّارة، أو أشياء من هذا القبيل".

أخيراً نطقت كساندرا: "أحب الحليب".

طرّفت نيل بعينها ثم قالت: "في الثلاجة، أحتفظ بكميّة وفيرة منه للقطط. الزّجاجة ملساء، حذار من أن تُسقطيها على أرضيّتي".

بعدما قدّم الشاي، أخبرت ليزي ابنتها بأن تنطلق بسرعة؛ فالיום كان مُشرقًا ومُشمسًا، وليست بحاجة إلى أن تُحبسَ في الداخل. وقالت الجدة إن بوسعها اللعب أسفل المنزل، بشرط: عدم إتلاف أي شيء، وبالتأكيد ممنوع دخول شقّة الطابق السّفليّ.

كانت إحدى الفترات الأسترالية الخانقة حيث الأيام منظومة معًا دون فجوات بينها. لا تفعل المراوح شيئًا سوى تحريك الهواء الساخن في الجو، وحشرات الزّيز⁽¹⁾ تُهدّد بإصابة المرء بالصّمم، والتّنقّس عسير، ولا شيء أمام المرء سوى الاستلقاء على ظهره، وانتظار مرور شَهريّ يناير وفبراير، ومجيء عواصف مارس، ثم أخيراً هبّات نسيم مُستهلّ إبريل.

لكن كساندرا لم تعرف ذلك. كانت طفلةً قادرةً على التكيّف على التّغيّرات المناخية الصعبة مثل جميع الأطفال. صكّت البابَ المُزوّد بشيش، وسارت في الممرّ المُفضي إلى الحديقة الخلفية. أبصرت زهور

(1) أو حشرة السيكاد، منتشرة في جميع أنحاء العالم، لكنها أكثر انتشارًا في الأماكن الجافّة كالصحاري.

الياسمين الهندي المتساقطة والتي تَحَمَّصَت بِفِعْلِ أَشَعَّةِ الشَّمْسِ،
سوداء جافَّة منكمشة. بعثرتها بحذائها وهي تمشي. وشعرت ببعض
المتعة في مُشَاهَدَتِهَا تتناثر على الأسمت الذي لَوَّنَتَهُ الشَّمْسُ بلون
ذهبي.

جلست على مقعد حديديٍّ صغير في الحديقة في البراح، وأخذت
تنظر إلى الحديقة الغربية التي تمتلكها جَدَّتُهَا الغامضة، والمنزل المرفَّع
بالألواح الخشبية وراءها. وتساءلت عما تتحدَّث أمُّها وجَدَّتُهَا، وما
سبب هذه الزيارة. أخذت تُقَلِّبُ الأسئلة في ذهنها، لكنها لم تستطع
العثور على إجابة.

بعد فترة، وجدت أن الحديقة مصدر إلهام كبير، وسرعان ما
نسيت الأسئلة، وشرعت في قطف قرون زهور البَلَسَمِ المنتفخة،
بينما أَخَذَت قِطَّةً سوداء تُرَاقِبُهَا من بعيد، مُتَظَاهِرَةً بِعَدَمِ الاكتراث.
وعندما جمعت مجموعة مُعْتَبَرَةً، تسَلَّقَت إحدى الفروع المنخفضة
لشجرة المانجو الواقعة في الزاوية الخلفية من الفناء، وبدأت تُفَرِّقُ
القرون التي تجمَّعت بلُطْفٍ في يدها، واحدة تلو الأخرى، مستمتعةً
بالحبوب الباردة اللَّزِجَةَ التي تناثرت بين أصابعها، ودهشة الهِرَّةِ
حينما سَقَطَت قشور القرون بين مخالبها، واندفاعها نحوها تحسبها
جُنْدُب.

عندما أفرغت كساندرا جميع القرون، مَسَحَت بيدها على سروالها
القصير، وأخذت تَجُولُ بعينيها في المكان. على الجانب الآخر من
السياح الشائك أبصرت مبنى ضخماً مُسْتَطِيلَ الشَّكْلِ، أبيض اللون.
كانت تعرف أنه مسرح بادينجتون، لكنه مُغَلَّقُ الآن. في مكان ما
بالقرب من منزل جَدَّتِهَا ثَمَّةٌ متجَرُّ للأشياء المُسْتَعْمَلَةَ، زارته مرَّةً
واحدة في إحدى زيارات ليزلي المفاجئة إلى بريزبن، حيث تركتها مع
نيل وذهبت لتقابل أحدهم.

تَرَكتها نيل تُلَمَّع طقم فناجين شاي فضي. استمتعت كساندرا بالأمر؛ رائحة "سيلفو" مُلَمَّع الفضة، ومراقبة قطعة القماش وهي تستحيل إلى لونٍ أسود، ولمعان إبريق الشاي. بل إن نيل شرحت بعض العلامات الموجودة عليه. الأسد يدلُّ على فِضَّة خالِصة، ورأس النمر يدلُّ على أنه صُنِع في لندن، والحرف يدلُّ على السنة التي صُنِع فيها. كانت مثل شفرة سِرِّيَّة. في ذلك الأسبوع، أخذت كساندرا تُنقَّب في البيت، أَمَلَّةً في العثور على الفِضَّة حتى تُلَمَّعها وتَفُكَّ رموزها أمام ليزلي. لكنها لم تجد أي شيء. لقد نَسِيَت الآن مدى استمتاعها بهذه المَهْمَّة.

وبينما اليوم يجرُّ أذياله، وأوراق شجرة المانجو تتدلَّى بفعل الحرارة، ونعيق الغربان يتضاءل. عادت كساندرا أدراجها عبر مَمَرِّ الحديقة. كانت أمُّها ونيل ما زالتا في المطبخ، بإمكانها رؤية ظِلِّي هيكليهما الخارجي من الباب المُزَوَّد بشيش؛ فاستأنفت مسيرها إلى الجانب الآخر. كان هناك بابٌ خَشْبِيٌّ ضخم جرَّار، وحينما جذبت المقبض انفتح كاشِفًا عن منطقة مُعتمَّة باردة أسفل المنزل.

تناقض الظلام الداخلي مع السطوع الخارجي، وبدا اجتياز العتبة كالعبور نحو عالم آخر. ارتجفت كساندرا شاعِرَةً بالإثارة وهي تخطو نحو الداخل. كانت مساحةً فسيحة، لكن نيل ملأتها؛ فتكدَّست صناديق مختلفة الأحجام والأشكال على الأرض، وارتفعت إلى السقف من الجوانب الثلاثة، وبطول الجانب الرابع استندت نوافذ وأبواب غريبة الشكل، بعضها بألواح زجاجية مكسورة. وظلُّ المدخل المساحة الوحيدة الفارِغة، والذي كان يتوسَّط الجدار الأبعد، ويُفضي إلى الغرفة التي تدعوها نيل "بالشقة". حدَّقت كساندرا في الداخل، ورأت أنها كانت في نفس حجم غرفة النوم تقريبًا. رفوف مؤقتة، مُثَقَّلة بالكتب القديمة، تمتدُّ بين جدارَيْن، وثُمَّة فراش مَطْوِيٌّ في الزاوية، وعليه لحاف مشغول بألوان حمراء وبيضاء وزرقاء. نافذة صغيرة وحيدة سمحت

بدخول الضوء، لكن أحدهم ثبّت عليها ألواح خشبية بمسامير. وظنّت كساندرا أن السبب هو إبعاد اللصوص. لكنها لم تفهم الغرض من هذه الغرفة.

شعرت بالحاجة الملحة للاستلقاء على الفراش، والشعور ببرودة اللحاف أسفل جلدها الدافئ، لكن نيل كانت حازمةً: "يمكنها أن تلعب في الأسفل، لكن ممنوع دخول الشقة"، وكساندرا اعتادت على الامتثال للأوامر. عوّضًا عن دخول الشقة والاضطجاع على الفراش، استدارت مُبتعدة. وعادت إلى بقعة أسمنتية رسم عليها طفلٌ - في زمنٍ بعيد- مربّعات الحجلة. راحت تبحث عن حصة مناسبة في أطراف الغرفة، قبل أن تستقرّ على حصةٍ ملاءٍ دون زوايا مُدبّبة لترميها في المربّعات. ألقت بها، فهبطت في منتصف المربع الأول، وشرعت تثبّ. كانت على وشك القفز على رقم سبعة حينما اخترق صوتٌ جدّتها -الحاد كزجاج مكسور- الأرضيّة قادمًا من الطابق الأعلى. كانت تقول: "كيف تكونين أمًّا؟".

"لستُ أسوأ ممّا كنتِ أنتِ عليه".

وقفت كساندرا دون حراك على قَدَمٍ واحدة في منتصف المربع وهي تنصت. خيّم الصمت، أو على حدّ علمها. والأكثر احتمالاً أنّهما أخفضا صوتيهما مُجددًا، مُتذكّرتان أن الجيران كانوا على بُعْدٍ أمتارٍ قليلة. كان لين دومًا يُذكّر ليزي حينما يتشاجران أنه ليس هناك داعٍ لأن يعلم الغرباء مشاكلهما. ويبدو أنّهما لم يُمانعا أن تسمع كساندرا كل كلمة.

بدأت تتمايل، وفقدت توازنها، وخفضت قدمها لجزء من الثانية، ثم رفعتها مُجددًا. حتى تريسي واترز، والتي اشتهرت بين فتيات الصف الخامس بكونها أكثر حُكّام الحجلة صرامةً، ستسمح بذلك،

ستدعها تستمر في الجولة، لكن كساندرا فقّدت حماسها للعب. شعرت باضطرابٍ من نبرة صوت أمها، وبدأت بطنها تؤلمها.

طوّحت بالحصاة جانبًا، ووثبت خارج المربعات. لم تُردّ الخروج لأن الجو كان ساخنًا. وشعرت بأنها تريد القراءة، أن تهرب إلى قصص "الغابة المسحورة"، أو "الشجرة النائبة"، أو "المغامرون الخمسة"⁽¹⁾. وتخيّلت كتابها الذي يرقد على سريرها حيث تركته هذا الصباح، للدقّة: بالقرب من الوسادة. ووبّخت نفسها لأنها لم تُحضِرْه معها. سمعت في ذهنها صوت لين، مثلما تفعل دومًا عندما تقترف شيئًا غيبيًا. ثم فكّرت في رفوف نيل، الكتب القديمة التي تُزيّن جدران الشقة. بالتأكيد لن تُمانع نيل لو اختارت كتابًا وجلست لتقرأه. ستكون حذرةً، ولن تُلحِق به الضرر، وستتركه مثلما وجدته بالضبط.

كانت الشقة مُفعمّةً برائحة الغبار والزمن. حدّقت كساندرا في ظهور الكتب، حمراء وخضراء وصفراء، وانتظرت أن يشدّها عنوانٌ ما. قطعة مُرقّطة تمّطت فوق الرفّ الثالث، جالسةً أمام الكتب في حزمة من ضوء الشمس. لم تلاحظها كساندرا من قبل، وتساءلت متعجّبة من أين جاءت، وكيف دخلت الشقة دون أن تراها. بدت القطعة كأنها شعرت بنظرتها، فاعتدلت على قدميها الأماميتين ونظرت إلى كساندرا نظرة كبرياء. ثم قفزت بحركة انسيابية واحدة إلى أرضية الغرفة، واختفت أسفل الفراش. راقبتّها كساندرا وهي تذهب، مُتسائلةً كيف هو شعور الحركة بخفّة، والاختفاء تمامًا. طرفت بعينيها. ربما لم تختف تمامًا في النهاية. من المكان الذي اندفعت إليه القطعة تحت اللحاف، أبصرت شيئًا صغيرًا أبيض اللون مستطيل الشكل.

جثت كساندرا على الأرضية ورفعت حافة اللحاف، وأمّعت النظر أسفله. ثمة حقيبة سفر صغيرة وقديمة، مال غطاؤها، فاستطاعت

(1) جميعها قصص أطفال للكاتبة الإنجليزية إنيد بليتون.

رؤية بعض محتوياتها: أوراق، وقماش أبيض، وشريط أزرق. هبط عليها اليقين بغتة، شعور أنها يجب أن تعرف بالضبط ما الذي مُسِّكُه، حتى لو كان ذلك يعني حَرْقَ المزيد من قواعد نيل. خفق قلبها وهي تسحب الحقيبة للخارج، وتسند الغطاء على الفراش. ثم تشرع في تَفْحُص الأشياء بداخلها. فرشاة شعر فضية قديمة وبالتأكيد ثمينة، حُتِمَ عليها رأس نمر صغير؛ ممَّا يَدُلُّ على أنها صُنِعَت في لندن، وفستان أبيض صغير وجميل، قديم الطراز لم تَرَه كساندرا من قبل، ولم تَرَ فتاةً تلبسه، ستسخر منها فتيات المدرسة لو ارتدت شيئاً ممثلاً، وحزمة أوراق مربوطة معاً بشريط أزرق باهت. فَكَّتْهَا لترى ما يقبع أسفلها. صورة، رسم بالأبيض والأسود. أجمل امرأة وقعت عليها عينا كساندرا، تقف أسفل قوس حديقة. كلاً، ليس قوساً، بل مدخلاً مُورِقاً، مُفضِياً إلى غابة أشجار. ثم شعرت فجأةً أنها متاهة. قفزت الكلمة الغريبة إلى عقلها بشكل كامل.

عشرات الخطوط السوداء الصغيرة المتشابكة كالسحر كوَّنت الصورة، وتساءلت كساندرا ما هو شعور إبداع هذا الشيء. كانت الصورة مألوفة بشكل غريبة، في البداية لم تفهم كيف كان ذلك مُمكنًا. ثم أدركت أن المرأة تشبه شخصاً من كتاب الأطفال. مثل رسمٍ من القصص الخيالية القديمة، الخادمة التي تتحوَّل إلى أميرة حينما يتعرَّف عليها أمير وسيم برغم ملابسها الرثَّة.

وضعت الرسم على الأرض بجوارها، وأخذت تتفحص بقية الحزمة. كانت ثَمَّة مظاريف بداخلها خطابات، ومُفكِّرة مليئة بالصفحات التي غطَّأها أحدهم بخطِّ طويل متشابك. وفكَّرت كساندرا أنها ربما كُتِبَت بلغة أخرى؛ فلم يكن باستطاعتها قراءة المكتوب. كُتِيبَت وصفحات مُمزَّقة من مجلَّات طُوِيَت في الخلف، مع صورة فوتوغرافية قديمة لرجل وامرأة وطفلة ذات جديلتين طويلتين. لم تتعرَّف كساندرا على أي واحد منهم.

أسفل المُفكِّرة وجدت كتاب القِصص الخيالية. كان غلافه أخضر اللون من الورق المُقَوَّى، وكُتِبَ عليه بلون أصفر ذهبي: "الحكايات الخيالية للفِتية والفِتيات"، بقلم إيليزا ماكيبس. رَدَدَت كساندرا اسم المُؤلِّفة، مستمتعةً بالحفيف الغامض على شَفَتَيْهَا. فَتَحَت الكتاب، وعلى الغلاف الأمامي رأت صورةً لِحِيَّةٍ تجلس في عَشِّ طائرٍ مَجْدولٍ. كان شَعْرُهَا طويلاً مَسْتَرَسِلاً، وتُطَوِّقُ رأسها هالَةً من النجوم، ونبت من ظهرها جناحان كبيران شبه شَفَافَيْنِ. عندما نظرت عن كثب، أدركت كساندرا أن وجه الحِيَّةِ يُشبهُ الوجه في الرسم. وأسفل العَشِّ كُتِبَت عبارة بَخْطٍ مُتَشَابِكٍ تقول "راويتكم، الأنسة ماكيبس". بانتفاضة استمتاع، اتَّجَهَت إلى الحكاية الخيالية الأولى. كانت الأوراق صفراء، متأكِّلة الأطراف بفعل الزمن، ذات ملمس مغبر، وحينما فركت الطرف المطوي بدأ يتحلَّل قليلاً، واستحال عُباراً.

لم تتمالك كساندرا نفسها؛ فتكوَّرت على جانبها في منتصف الفراش الصغير. كان المكان الأمثل للقراءة، باردًا وهادئًا وسريًا. اعتادت كساندرا على الاختباء حينما تقرأ، برغم أنها تجهل السبب، كأنها لا تستطيع التخلُّص من الإحساس بأنها كسولة، وأن استسلامها التام لشيء مُمتِع كان بالقطع خاطئًا، وكان هذا يُشعرها بذنب كبير.

لكنها استسلمت بالفعل، وتركت نفسها تسقط في حفرة الأرنب إلى قصَّةٍ سريَّةٍ غامضة عن أميرة شجاعة تعيش مع عجوز عمياء في كوخ على أطراف الغابة المُظلمة. أميرة تتحلَّى بالشجاعة أكثر من كساندرا.

كانت قد أوْشَكَت على الانتهاء من القصة ولم يتبقَّ أمامها سوى صفحتين، حينما استرعى انتباهها وقع خطوات أقدام على ألواح الأرضية بالأعلى.

كانتا قادمَتَيْنِ. نهضت بسرعة ووَثَّبت على الأرض. تَمَنَّت لو تختفي، وتكتشف ما سيحدث للأميرة. لكن لا مَهْرَبَ. سَوَّت الأوراق، وألقت

بكل شيء في الحقيبة ودفعتها أسفل الفراش. وأزالت كل دليل على عسيانها. ثم تسَلَّت من الشَّقَّة، والتقطت حَصاةً وتوجَّهت نحو مُرَبَّعات الحَجَلَة مُجَدِّدًا. حينما ظهرت أُمُّها ونيل عند الباب الجَرَّار، أفنعتهما بملامحها أنها كانت تلعب الحجلة طوال فترة الظهيرة.

"تعالى هنا يا طفليتي" قالت لِزلي.

نَفَضَت كساندرا سروالها القصير، وذهبت تقف بجوارها. تعجَّبت حينما طَوَّقَتها أُمُّها بذراعها.

مكتبة

t.me/t_pdf

"هل استمتعتِ باللعب؟"

"أجل" قالت كساندرا بحذر. هل اكتشفت شيئاً؟

لكنَّ أُمُّها لم تكن غاضبة، بل بَدَت مُنْتَصِرَة، ونظرت إلى نيل وهي تقول: "ألم أخبرك؟ إنها تعرف كيف تعتني بنفسها".

لم تُعَقِّب نيل وأردَقَت لِزلي: "ستمكنين مع جدِّتكِ نيل لفترةٍ قليلة يا كاسي. استمتعي بالمغامرة".

شعرت كساندرا بالدهشة، لا بُدَّ وأن أُمُّها لديها بعض الأمور في بريزبن. "هل سأتناول العشاء هنا؟"

"أعتقد كلَّ يوم، حتى آتي وأخذكِ".

شعرت كساندرا فجأةً بالأطراف الحادَّة للحصاة التي كانت تمسكها، ونقلت نظرها من أُمُّها إلى جدِّتها. هل كانت هذه لعبة؟ هل كانت أُمُّها تمزح؟ انتظرت لترى إن كانت لِزلي ستنفجر ضاحِكَةً. لكنها لم تفعل. بل أخذت ترمق كساندرا بعينين واسعتين زرقاوين. لم تنبس كساندرا بكلمة. وفي النهاية استطاعت أن تقول: "لم أحضر منامتي". ابتَسَمَت والدتها بسرعةٍ ابتسامَةً عريضةً وبارتياج، ولمحت كساندرا بطريقة ما أن لحظة الرفض قد مرَّت. "لا تقلقي يا حلوتي. لقد أعددتُ لكِ حقيبةً في السيارة. هل ظنَّنتِ أن أتركك دون حقيبة؟".

طيلة الحوار كانت نيل واقفةً بِتَصَلُّبٍ دون حراك، تُراقب ليزلي بنظرة ظنَّتها كساندرا أنها استنكار. ظنَّت أن جدتها لم ترغب في بقائها. كان لين يقول إن الفتيات الصغيرات يجلبن دومًا المشاكل. أسرعت ليزلي نحو السيارة، ومالت على النافذة الخلفية المفتوحة، وسحبت حقيبةً مَبِيَّتٍ. وتساءلت كساندرا متى حَزَمْتَهَا؟ ولماذا لم تدعها تحزيمها بنفسها؟

"خُذي يا فتاة" قالت ليزلي وهي تقذف بالحقيبة نحو كساندرا، ثم أردفت: "ثمَّة مفاجأة بالداخل، فستان جديد. ساعدني لين في اختياره". ثم اعتدلت وقالت لنيل: "أعدك بأنه أسبوع أو أكثر، إلى أن أسوي الخلاف بيني وبين لين". ثم بعثرت شعر كساندرا وهي تقول: "جدتُكِ نيل تُرحب بإقامتِكِ معها. ستحظين بعطلةٍ صيفيَّةٍ حقيقيَّةٍ رائعة في المدينة الكبيرة، جديرة بأن تحكي عنها للأطفال الآخرين حينما تعودين إلى المدرسة".

ابتسمت نيل، لكنها لم تكن ابتسامَةً سعيدة. كانت كساندرا تعرف مغزى هذه الابتسامة. كانت دومًا تفعلها حينما تعدها أمها بشيء ترغبه بشدَّة، لكنها تعلم أنها لن تجلبه. طبَّعت ليزلي قُبْلَةً على خدَّها، واعتصرت يدها ثم، بطريقة ما، ذهبت، قبل أن تحتضنها كساندرا، أو أن تُخبرها بأن تقود بأمان، أو أن تسألها متى ستعود بالتحديد.

فيما بعد، أعدت نيل العشاء، وكان مُكوَّنًا من نقانق، وبطاطس مهروسة، وبازلأء مُعلَّبة طرية. تناولتا العشاء في الغرفة الضيقة الواقعة بجوار المطبخ. لم تكن نوافذ منزل نيل عليها شيش مثل

منزل لين في ساحل بورلي⁽¹⁾، بل أبقت نيل مذبذبةً بلاستيكية على إفريز النافذة بجانبها. حينما يقترب البعوض أو الذباب، كانت تسحبها بسرعة وحنكة، حتى أن القطة، التي كانت غافيةً على حجرها، لم تكن تتحرك قيد أملة.

كانت المروحة ذات العمود القصير الموضوعة على قمة الثلاجة تُقلِّب الهواء الثقيل الرطب جيئةً وذهابًا وهما تتناولان الطعام. كانت كساندرا تجيب على أسئلة جدتها، التي تلقيها بين الحين والآخر، بأدبٍ بقدر استطاعتها، وفي النهاية انتهت معاناة تناول العشاء. ساعدت كساندرا في تجفيف الأطباق، ثم أخذتها نيل إلى الحمام، وشرعت في صب الماء الفاتر في حوض الاستحمام.

قالت نيل بنبرة عمليّة: "الأسوأ من حَمَامٍ بارد في الشتاء: حَمَامٌ ساخن في الصيف". ثم سحبت منشفةً بُنيَّةً من الخزانة، ووضعتها على السيفون وهي تقول: "حينما تصل المياه إلى هذا الخطِّ أغلقها"، وأشارت إلى تشقُّقٍ في البورسلين الأخضر، ثم وقفت، وعدلت رداءها وسألتها: "هل ستكونين على ما يرام؟".

أومات كساندرا بالإيجاب وابتسمت، وأمّلت أن تكون إجابتها صحيحة، فالكبار أحيانًا يكونون مُخادعين، وهي تعلم أن الكبار لا يُحبُّون أن يعلن الأطفال عن مشاعرهم، ولا سيَّما مشاعرهم السلبية على كل حال. كان لين يُذكِّرها أن الأطفال المُؤدِّبين يجب أن يبتسموا ويحتفظوا بأفكارهم السلبية لأنفسهم. ولكن نيل كانت مُختلفةً، لم تعرف كساندرا كيف أنها تعلم ذلك، لكنها استشعرت أن قواعد نيل كانت مختلفة. في الوقت نفسه، كان من الأفضل التصرُّف بحذر.

كان ذلك هو السبب الذي أثنأها عن ذكر غياب فرشاة الأسنان. كانت ليزي دومًا تنسى هذه الأشياء حينما يقضون وقتًا خارج المنزل،

(1) ساحل يقع في ضاحية بورلي هيدز بكوينزلاند.

لكن كساندرا أدركت أنها لن تتحمّل أسبوعًا أو أكثر بدونها. عَقَدَت شعرها في حزمة، وربطته على مقدّمة رأسها بشريط مطاطي. في بيتها كانت ترتدي قُبْعَةَ الاستحمام الخاصّة بأمها، لكنها لم تعرف إن كانت نيل تمتلك واحدةً، ولم تسألها. تَسَلَّقت حوض الاستحمام وجلست في المياه الفاترة، وضَمَّت ركبتيها لأعلى، وأغمضت عينيها. أصغت إلى صوت المياه وهي تترقرق في جوانب الحوض، وأزيز المصباح، وطنين بعوضة في مكان ما بالأعلى. ظلّت هكذا لبعض الوقت، ثم خرجت بتردّدٍ حينما لاحظت أنها لو تأخّرت أكثر من ذلك ربما تأتي نيل لتبحث عنها. جَفَّقَت نفسها، وعَلَّقَت المنشفة بعناية على المشجَب، وعدلت الأطراف، ثم ارتدت منامتها.

وجدت نيل في الغرفة المُشمِسة، تفرش السرير بالأغطية وتضع بطانية. قالت وهي تربت على الوسادة: "ليس من المعتاد النوم على هذا الفراش. الحشية ليست ممتازةً، والزنبك صلبٌ بعض الشيء، لكنك مُجرّد طفلة. ستشعرين بالراحة". أومأت كساندرا برزانة وهي تقول: "لن يستمرّ ذلك وقتًا طويلًا. أسبوعًا أو أكثر، حينما تحلّ أمي المشكلة مع لين". ابتسمت نيل بتجهّم. ونظرت في أرجاء الغرفة ثم إلى كساندرا وقالت: "هل تحتاجين إلى شيء آخر؟ كوب ماء؟ مصباح؟" رغبت كساندرا أن تسألها إن كانت لديها فرشاة أسنان احتياطية، لكنها لم تستطع صياغة الكلمات المطلوبة في شكل سؤال؛ فهزّت رأسها بالنفي.

"هيا إلى الفراش إذن" قالت نيل وهي ترفع طرف البطانية.

انزلقت كساندرا مُطيعةً، وسحبت نيل أغطية الفراش. واندهشت كساندرا من نعومتها، وعَبَقها برائحة غريبة لكنها مقبولة.

تَرَدَّدَت نيل ثم قالت: "حسنًا... طابت ليلتك".

"طابت ليلتك".

ثم أطفأت المصباح، وصارت كساندرا وحيدة.

في الظلام تناهَى إلى أذنيها ضوضاء غريبة مختلطة؛ حركة المرور من تلال بعيدة، وتلفزيون في أحد المنازل المجاورة، ووقع خطوات نيل على ألواح أرضية حجرة أخرى. خارج النافذة، كانت الرِّيح تصفر، ولاحَظَت كساندرا أن الهواء يَعبُقُ برائحة الكافور والقار. ثمَّة عاصفة قادمة.

تكوَّرت بِشدَّة تحت الأغطية. لم تُحبِّ كساندرا العواصف؛ لا يمكن التنبؤُ بها. ومثَّنت أن تخمد قبل أن تبدأ. وعقدت اتفاقاً صغيراً مع نفسها: إذا استطاعت العَدُّ إلى عشرة قبل سماع صوت السيارة التالية على التَّلِّ القريب، سيكون كلُّ شيء على ما يُرام، وستمرُّ العاصفة بسرعة، وستأتي أمُّها لتأخذها في غضون أسبوع.

واحد. اثنان. ثلاثة... لم تَغشَّ، لم تتعجَّل... أربعة. خمسة... لا شيء حتى الآن، أوشكت... ستة. سبعة... تسارعت أنفاسها، ما زالت لم تسمع صوت سيارات، هذا جيّد... ثمانية...

فجأة هبَّت من رقادها. وتذكَّرت أن ثمَّة جيوباً داخل الحقيبة. لم تنسَ أمُّها، لا بُدَّ وأنها وضعت فرشاة الأسنان هناك للحماية. انسلت من الفراش، وهبَّت رِيحٌ قوية طوَّحت بالأجراس على اللوح الزجاجي للنافذة. سارت ببطء بقدمين حافيتين باردتين بسبب تيار الريح الذي تسلَّل بين ألواح الأرضية. زمجرت السماء أعلى المنزل مُنذرةً بالسوء، ثم تحوَّلت بشكلٍ مُثيرٍ للدهشة إلى برق. كان الأمر خطيراً، وذكَّرت كساندرا بالعاصفة التي قرأت عنها في الحكاية الخيالية في الظهيرة، العاصفة الغاضبة التي تَبَعَت الأميرة الصغيرة إلى كوخ العجوز.

جَثَّتْ عَلَى الْأَرْضِ، تُفْتَشُ فِي الْجُيُوبِ وَاحِدًا تَلُو الْآخَرَ، أَمَلَةً أَنْ تَحْتَسَّسَ أَنْمَالَهَا الشَّكْلَ الْمَأْلُوفَ لِفَرشَاةِ الْأَسْنَانِ. هَطَلَتْ قَطْرَاتُ مَطَرٍ كَبِيرَةٍ بِصَوْتِ عَالٍ عَلَى السُّطْحِ الْحَدِيدِيِّ الْمَمُوجِ. كَانَتْ مُتَقَطَّعَةً فِي الْبَدَايَةِ، ثُمَّ اشْتَدَّ تَوَاصُلُهَا حَتَّى أَنْ كَسَانَدْرَا لَمْ تَسْمَعْ أَيَّ فَجَوَاتٍ بَيْنَهَا. لَا يُضِيرُ أَنْ تَتَفَحَّصَ مَجْدِّدًا الْجِزْءَ الرَّئِيسِيَّ مِنَ الْحَقِيبَةِ وَهِيَ بَيْنَ يَدَيْهَا، فَرشَاةِ الْأَسْنَانِ كَانَتْ صَغِيرَةً، رُبَّمَا وَضَعْتَهَا أُمُّهَا فِي مَكَانٍ عَمِيقٍ. تَوَغَّلَتْ يَدَاهَا، وَسَحَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الدَّخْلِ. لَكِنِهَا لَمْ تَجِدْ فَرشَاةِ الْأَسْنَانِ. هَدَرَ الرَّعْدُ بِصَوْتِ رَجٍّ الْمَنْزِلِ، فَسَدَّتْ أذُنَيْهَا. نَهَضَتْ وَطَوَّقَتْ نَفْسَهَا بِذِرَاعَيْهَا، وَأَدْرَكَتْ بِغَمُوضٍ مَدَى ضَالَّتِهَا وَهَشَّاشَتِهَا. جَرَّتْ نَحْوَ الْفِرَاشِ، وَانْدَسَّتْ تَحْتَ الْأَغْطِيَةِ.

أَخَذَ الْمَطَرُ يَهْطِلُ عَلَى الْأَفَارِيزِ وَالنَّوَاغِذِ بِغِزَارَةٍ، وَفَاضَتْ الْبَالُوعَاتُ الْمَتَدَلِّيَّةُ الَّتِي بَاغَتْهَا هَذَا الْإِنْهَامَارُ. اسْتَلَقَتْ كَسَانَدْرَا أَسْفَلَ غَطَاءِ السَّرِيرِ دُونَ حَرَكَاتٍ، تَحْتَضِنُ جِسْمَهَا. وَبِرَغْمِ الْهَوَاءِ الرُّطْبِ الدَّافِئِ أَقْشَعَرَ جِلْدَهَا. عَلِمَتْ أَنَّهَا لَا بُدَّ وَأَنْ تَحَاوِلَ النَّوْمَ، سَتَكُونُ مُنْهَكَةً فِي الصَّبَاحِ، وَلَا أَحَدٌ يُحِبُّ أَنْ يَقْضِي وَقْتَهُ مَعَ شَخْصٍ عَابَسٍ. حَاوَلَتْ، لَكِنَّ النَّوْمَ لَمْ يَمَسَّ جَفْنَيْهَا. شَرَعَتْ تَحْصِي الْخَرْفَانَ، وَتُغْنِي أَغَانِي صَامِتَةٍ عَنِ الْغَوَاصَاتِ الصَّفْرَاءِ، وَالْبَرْتِقَالِ وَاللِّيمُونِ، وَالْحَدَائِقِ أَسْفَلَ الْبَحْرِ، أَخَذَتْ تَحْكِي لِنَفْسِهَا قِصَصًا خَيَالِيَّةً. لَكِنَّ اللَّيْلَ امْتَدَّ كَدِهْرٍ أَبَدِيٍّ.

وَبَيْنَمَا لَمَعَ الْبَرْقُ، وَهَطَلِ الْمَطَرُ، وَشَقَّ الرَّعْدُ السَّمَاءَ، أَخَذَتْ كَسَانَدْرَا تَبْكِي. دَمُوعٌ حُبِسَتْ طَوِيلًا وَانْتظَرَتْ الْإِفْلَاتِ، وَهِيَ تَسِيلُ آخِرًا تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ وَالْمَطَرِ. كَمْ مَرًّا مِنَ الْوَقْتِ قَبْلَ أَنْ تَعِي وَجُودَ شَبَحٍ يَقِفُ عِنْدَ الْمَدْخَلِ؟ دَقِيقَةٌ؟ عَشْرَةٌ؟ حَبِسَتْ نَشِيجَهَا حَتَّى أَحْرَقَهَا. ثُمَّ سَمِعَتْ صَوْتَ نَيْلٍ يَهْمَسُ: "جِئْتُ لِي أَتَأَكَّدُ أَنَّ النَّافِذَةَ مُوَصَّدَةً." فِي الظَّلَامِ حَبِسَتْ كَسَانَدْرَا أَنْفَاسَهَا، وَمَسَحَتْ عَيْنَيْهَا بِطَرَفِ الْمَلَاءَةِ. اقْتَرَبَتْ نَيْلٌ مِنْهَا الْآنَ، وَاسْتَشْعَرَتْ كَسَانَدْرَا الْكَهْرِبَاءَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي تَنْبَعِثُ مِنْ وَجُودِ شَخْصٍ آخَرَ قَرِيبٍ دُونَ تَلَامُسٍ.

"ما الأمر؟".

رفض حَلْقُ كساندرا -الذي كان ما زال مُتَجَمِّدًا- أن يدع الكلمات تمرُّ منه.

"هل السبب العاصفة؟ هل أنت خائفة؟".

هزَّت كساندرا رأسها.

جلَسَتْ نيل بتخشُّبٍ على طرف الفراش، وهي تحبُّك رداء النَّوم حول خصرها. لمع لسان آخر من البرق، ورأت كساندرا وجهَ جدِّتها، وتعرَّفت فيه على عيني أمها بطرفيها المسحوبين قليلاً.

أخيراً هدأ النشيج، فقالت عبر دموعها: "فرشاة أسناني. ليست معي فرشاة أسناني".

نظرت نيل إليها لوهلة، مشدوهةً، ثم أخذتها بين ذراعيها. أجفلت الطفلة في البداية، مندهشة من مباغته الحركة غير المتوقَّعة، لكنها استسلمت مُنحنيَّةً إلى الأمام، وأراحت رأسها على جسد نيل الناعم الذي يتضوُّع برائحة الخُزامى، كتفاها ترتجفان وهي تذرف دموعاً دافئة على منامة نيل.

"لا بأس" همست نيل، وهي تُمسِّد شعر كساندرا. "لا تقلقي. سنجد فرشاةً أخرى". ثم أدارت رأسها تنظر إلى المطر الذي أخذ يتدفَّق على النافذة، وأراحت وجنتها على رأس كساندرا. "لقد نجوت، هل تسمعيني؟ ستكونين بخير. سيكون كل شيء على ما يرام".

وبرغم أن كساندرا لم تصدِّق أن الأشياء ستكون على ما يرام، هدأت كلمات نيلي من روعها. شيء في صوت جدِّتها يوحي بأنها فهمت، بأنها كانت تعرف كم هو مُخيف قضاء ليلة عاصفة وحيداً في مكان غريب.

(6)

ماريبورو، 1913

برغم عودته من الميناء في وقت متأخر، وجد الحساء دافئًا في المنزل. هذه هي ليل، بارَكها الرَّبُّ، لا تُقدِّم الحساء باردًا لزوجها. شرب آخر ملعَقة، ثم تراجع للخلف مستندًا إلى المقعد، وأخذ يفرك عنقه. في الخارج، كان الرعد يُدمِّم من بعيدٍ على النهر وفي المدينة. ارتعش ضوء المصباح من تيار هوائي غير مرئي، فألقى بظلاله على الغرفة. تَبَعَت نظرة هيو المُحدِّقة المُتعبَة الظلال على الطاولة، وحول أسفل الجدران، وعلى الباب الرئيسي. الظلام الراقص على جلد حقيبة السفر البيضاء اللامعة.

لديه العديد من حقايب السفر المفقودة. لكن طفلة؟ كيف بِحَقِّ السماء تُترِك طفلة وحدها على رصيف الميناء؟ بل كانت طفلةً لطيفةً أيضًا، على حَدِّ عِلْمِهِ، تَسُرُّ الناظرين: شَعْرٌ أحمر كالذَّهَبِ،

وعينان زرقاوان غامقتان. إن عينيها تقولان إنها مُصِغِيَّةٌ وتفهم كلَّ ما يُقال، وما لا يُقال.

انفتح باب غرفة النوم، وظهرت هيئةُ ليلِ الناعمة المألوفة. أغلقت خلفها البابَ بهدوء، وشرعت تمشي في الردهة. أعادت خُصَلَةً مُجَعَّدَةً مُشَاكِسَةً وراء أذنها، نفس الخُصَلَةَ المُجَعَّدَةَ العنيدة التي كانت تفلتُ من مكانها طيلةَ الوقت الذي عرفها فيه. قالت حينما وصلت إلى المطبخ: "لقد غَفَّت الآن. كانت خَائِفَةً من الرعد، لكنها لم تستطع مُقاوَمَةَ النَّوْم. يا لها من حَمَلٍ صغير مسكين! كانت في غاية التعب". أخذ هيو طبقه إلى المنضدة الطويلة، وغمره في المياه الفاترة، وقال: "لا عَجَبَ، فأنا نفسي مرهق".

"تبدو كذلك. اترك غسيل الأطباق لي".

"لا بأس يا حبيبي ليل. اذهبي أنتِ، لن أتأخر".

لكن ليل لم تذهب، وشعر بها خلفه، وأحسَّ بأن لديها شيئاً لتقوله. الكلمات بارزة رغم أنها لم تنطق بها، وشعر هيو بتوتُّر في عنقه. أحسَّ بأن موجة الأحاديث السابقة ستأتي مجدداً، كانت كامنة لفترة، تتهيأ للهجوم عليهما مرة أخرى. حينما تحدتت ليل، خرج صوتها خفيضاً: "لست بحاجةٍ إلى التحدُّث بتحفُّظٍ معي يا هيو".

تنهَّد قائلاً: "أعلم".

"سأتكلَّم بوضوح، كما فعلتُ سابقاً".

"بالطبع".

"آخر شيء أريده منك أن تُعامِلني كمريضة".

التفت ليواجهها وهو يقول: "لا أقصد ذلك يا ليل". رآها تقف في الطرف البعيد من المنضدة، تضع يديها على ظهر المقعد. كان يعلم أن هذه الوقفة من المفترض أن تُقنِعَه بثباتها، كأنها تقول: "لم يتغيَّر أي

شيء"، لكن هيو يعرفها جيّدًا. كان يعلم أنها تتألّم، ويعلم أيضًا أنه ليس بيديه شيء ليعيد الأمور إلى نصابها الصحيح. مثلما كان د. هانتلي يخبرهما دومًا، بعض الأشياء ليس مُقدَّرًا لها أن تَحْدُثَ، لكن هذا لم يُخَفَّفَ من ألمه أو ألمها.

ذهبت إليه ووقفت بجانبه، وخبطته برفقٍ بخاصرتيها. تشمّم رائحة جلدها الجميلة الحزينة التي تشبه الحليب. قالت له: "هيا، اذهب إلى الفراش. سأوافيك حالًا". قالتها ببهجةٍ مُصطنَعة جعلته يشعر بقشعريرة، لكنه امتثل لأمرها.

كانت صادقةً في كلماتها، لم تتأخّر عنه. راقبها وهي تخلع أعباء النهار عن جلدها، وتلبس رداء النوم. ورغم أنها كانت توليه ظهرها، رأى كيف ينساب الرداء على نهدتها، وبطنها التي كانت ما تزال مُنتَفخةً.

اختلست إليه النظر، وأمسكت به ينظر إليها. تغيّرت ملامح وجهها من الهاشاشة إلى الدفاع. "ما الأمر؟".

"لا شيء". ركّز النظر في يديه، في القروح وحروق الحبال التي اكتسبها جرّاء عمّله لسنواتٍ على أرصفة الموانئ. "كنتُ أفكّر فيمن تكون تلك الفتاة الصغيرة، أظنُّ أنها لم تقل اسمها، أليس كذلك؟".

"قالت إنها لا تعرف. مهما سألتها، كانت تنظر لي بجديّة، وتقول إنها لا تستطيع التذكّر".

"هل تعتقدين أنها تخدعنا؟ بعض المسافرين المُتهرّبين بارعون في الخداع".

قالت ليل بتوبيخٍ: "هيو! إنها ليست مُسافِرةً مُتهرّبة، إنها مُجرّد طفلة".

هزَّ رأسه وهو يقول: "على رسلك يا عزيزتي ليل. كان مجردَ تَساؤل. لا أُصدِّق أنها نسيت اسمها".

"لقد سمعتُ عن ذلك من قبل. إنه يُسمَّى فقدان الذاكرة. لقد حدث لوالد روث هافيني، بعد سقوطه في البئر. وهذا ما يُسبِّبه السقوط وما شابه".

"هل تظنَّين أنها سقطت؟".

"لم أَرَ كدماتٍ على جسدها، لكن من المُحتمَل، أليس كذلك؟".

"سوف أستطلع عن الأمر غداً"، قالها هيو وضرب لسانُ من البرق جوانب الغرفة. تحركَ من مكانه، واستلقى على ظهره وحدِّق في السقف، ثم قال بهدوء: "حتمًا تنتمي لمكانٍ ما".

"أجل" أطفأت ليل القنديل، وساد الظلام الغرفة. "لا بُدَّ وأن أحدهم يفتقدها كثيرًا". وتقلَّبت إلى الناحية الأخرى كدأبها كُلَّ ليلة، وأدارت ظهرها لهيو حتى لا يرى حزنها. واختنق صوتها في غطاء الفراش وهي تقول: "إنهم حقًا لا يستحقُّونها. هؤلاء المُهمِّلون الملعين. كيف يفقد شخص طفلة؟".

راقبت ليل النافذة الخلفية حيث كانت الفتاتان الصغيرتان تجريان هنا وهناك أسفل جبل الغسيل، تضحكان والملاءات الرطبة الباردة تُدغِدُ وجهيهما. كانتا تُغنيان مُجددًا إحدى أغنيات نيل، والتي كانت الشيء الوحيد الذي لم تَنسَه، الأغنيات، إنها تعرف الكثير منها. أسماها نيل، مثل اسم والدة ليل، إليانور، فقد كان لا بُدَّ وأن يُطلقا عليها اسمًا، أليس كذلك؟ لم تُخبرهما الطفلة العنيدة باسمها. كُلُّما حاصرتها ليل بالأسئلة، كانت تقول بعينين زرقاوين واسعتين إنها لا تتذكَّر.

بعد مُضيّ أسابيع قليلة على وجودها معهما، كُفّت ليل عن إلقاء الأسئلة عليها. بل كانت مسرورة لعدم معرفتها؛ فلم تتخيّل اسمًا آخر يليق بها خلاف الاسم الذي أطلقاه عليها: نيل. كان يناسبها للغاية بلا شكّ، كأنه مُقدّر لها. بدّلاً جهديهما لمعرفة مَنْ تكون، ومن أين جاءت. وبرغم أنها أخبرت نفسها في البداية أنهما كانا يعتنيان بها لبعض الوقت ويحميانها، حتى يأتي أهلها، تَيَقَّنَت ليل، مع كل يومٍ يُمُرُّ، أنهم لن يأتوا.

ودارت الأيام في مدارها الروتيني المعتاد. كانوا يتناولون الفطور في الصباح، ثم يذهب هيو ي إلى العمل، وكانت هي ونيل تشرعان في أعمال المنزل. أحبّت ليل وجودَ ظلِّ آخر، واستمتعت بأن تُعرّف نيل على الأشياء، وتشرح لها طريقة عملها، ولماذا. وكانت نيل تطرح أسئلةً كثيرة: لماذا تختبئ الشمس في الليل؟ لماذا لا تقفز ألسنة اللهب خارج المدفأة؟ لماذا لا يسأم النهر ويُغيّر مجراه؟ وكانت ليل تجيبها بصبرٍ وحُبٍّ، وترقّب وجهها الصغير وهو يتشرّب الأجوبة ويفهمها. وللمرة الأولى في حياتها شعرت ليل بأنها مُفيدةٌ ومطلوبة، وبأنها مُكتملةٌ.

وكانت الأمور تسير على أطيّب حال مع هيو ي أيضًا. التوتر الذي ساد بينهما السنوات القليلة المُنصرِمة أخذ في التلاشي. توقّفا عن التّعامُل بتحفُّظ كغريبين. بل إن الضحكات عاودت ثغريهما أحيانًا، ضحك تلقائي غير مُفتَعَل مثلما كان من قبل. واعتادت نيل على العيش مع هيو ي وليل كأنهما عائلتها الحقيقية. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى اكتشف أطفال الجيران وجودَها بينهم، وأحبّوا اللعب معها. كانت بيث ريفيز الصغيرة يوميًا فوق السور. وأحبّت ليل صوتَ الفتاتين وهما تركضان سويًا. لقد انتظرت طويلًا هذه الأصوات الصغيرة كي تصيح وتضحك في فنائها الخلفي.

كانت نيل تتمتع بخيال خصب مُدهش. وكثيراً ما أصغت ليل إليها وهي تصفُ ألعاباً طويلةً خيالية. فتحوّل البيتُ بفنائِه الواسع إلى غابةٍ سحريةٍ ذات أشجارٍ عُليقٍ ومتاهات، بل وكوخٍ واقع على حافةٍ منحدر. وأدركت ليل أن الأماكن التي تصفُها نيل توجد في كتاب القصص الخيالية الذي وجداه في حقيبة السفر البيضاء؛ فتناوبا في قراءته عليها ليلاً. في البداية ظنّت ليل أنها قصصٌ مخيفة، لكن هيو ي أقنعها بالعكس. أمّا نيل فلم تُبدِ أيّ انزعاج.

وبينما وقفت ليل تراقب من نافذة المطبخ، عرفت ماذا ستلعب الفتاتان اليوم. كانت بيث تصغي، وعيناها مُتسعّتان، بينما نيل تقودها عبر متاهة خيالية، وترفرف في فستانها الأبيض، وأشعة الشمس تُحيل جدائلها الحمراء الطويلة إلى اللون الذهبي.

ستفتقد نيل بيث حينما ينتقلون إلى بريزن، لكنها بالتأكيد مُتيقّنة من أنها ستعقد صداقاتٍ جديدةً هناك؛ فالأطفال يفعلون دوماً ذلك، والانتقال كان مُهمّاً. لقد أخبرا الناس أن نيل كانت قريبتهما من الشمال. لكن عاجلاً أو آجلاً، ستبدأ تساؤلات الجيران عن أسباب عدم ذهابها إلى ديارها، وإلى متى ستمكث معهما.

كلّاً، كان الأمر واضحاً بالنسبة لليل. إنهم بحاجة إلى بداية جديدة، في مكان جديد لا يعرفهم فيه أحد، مدينة كبيرة لا يطرح سُكّانها أسئلةً كثيرة.

(7)

بريزبن، 2005

في صباح يوم ربيعِيّ، بعد أسبوع من وفاة نيل، اخترقت رياحُ نَشْطَةِ الشُّجيرات، ولَفَّت الأوراقَ فَرَفَرَفَتْ جوانبها السُّفليَّة الشاحبة باتجاه الشمس، كأطفال يندفعون فجأة نحو النور بجسارة وزُهوء.

برد قَدْحُ القهوة الذي تركته كساندرا على الإفريز الأسمنتي بعد رشفتها الأخيرة ونسيته هنالك. واضطر سرب من النمل النشط، والذي عرقله وجود الكوب في طريقه، إلى المراوغة، فصعد على حافة القدح وعبر المقبض إلى الجهة الأخرى. لم تلاحظ كساندرا النمل. كانت تجلس على المقعد الهزَّاز في الفناء الخلفي، بجانب حوض الغسيل القديم، مُرَكِّزَةً جُلَّ اهتمامها على الجدار الخلفي للمنزل. كان بحاجة إلى طبقة طلاء. من العسير تصديق أن خمس سنوات قد مرَّت بالفعل على آخر طلاء. كان الخبْرَاءُ يوصون بضرورة طلاء المنزل المُغْلَف بالألواح الخشبية كُلَّ سبع سنوات، لكن نيل لم تقتنع بكلامهم. طيلة الوقت

الذي قضته كساندرا مع جدّتها، لم يتمّ طلاء المنزل بشكلٍ كامل. وبرّرت نيل ذلك بأنها لا تُحِبُّ إنفاقَ أموالها كي تمنح الجيران منظرًا جديدًا.

رغم ذلك كان الجدار الخلفي أمرًا مُختلِفًا، مثلما قالت نيل؛ إذ كان الجدار الوحيد الذي تقضيان الوقت في النظر إليه؛ لذا، بينما تَقَشَّرَت الجدران الجانبية والجدار الأمامي بفعل شمس كوينزلاند القوية- ظلَّ الجدار الخلفي مُحْتَفِظًا بجماله. كل خمس سنوات، كانت تُخرج خريطةً الألوان، وتُبذَل طاقةٌ كبيرة، ووقت طويل في مناقشة مزايا اللون الجديد. في السنوات التي أمضتها كساندرا في البيت، كانت ألوان الجدار هي الفيروزي، والبنفسجي، والقرمزي، والأزرق المخضّر. وذات مرّة طُلي بالألوان مُتعدّدة، رغم عدم موافقة نيل.

كانت كساندرا في التاسعة عشرة من عمرها وكانت الحياة جميلة. كانت في منتصف عامها الثاني بكلية الفنون، وقد تحوّلت غرفة نومها إلى مرسم، حتى أنها كانت تضطرُّ إلى تَسْلُقَ لوح الرسم للوصول إلى سريرها كل ليلة. كانت تحلم بالانتقال إلى ملبورن⁽¹⁾ لدراسة تاريخ الفن. لم تتحمّس نيل للخطة، وكانت تخبرها متى جاء ذكر الموضوع: "يمكنك دراسة تاريخ الفن في جامعة كوينزلاند. لست بحاجة للانتقال إلى الجنوب".

"لا يمكنني العيش في المنزل إلى الأبد يا نيل".

"ومن قال ذلك؟ فقط انتظري فترة قليلة، ثبتني موطنٌ قَدَمِك هنا أولًا".

أشارت كساندرا إلى قَدَمِها قائلة: "تَبْتُهُمَا".

(1) ثاني أكبر مدن أستراليا بعد سيدني.

لم تبتسم نيل، بل قالت: "المعيشة في ملبورن باهظة، وليس في استطاعتي تحمّل تكاليف الإيجار هناك".

"لم يكن عملي كنادلة في حانة بادو على سبيل التسلية".

"حقًا! بالنقود التي يدفعونها هناك، يمكنك الالتحاق بملبورن بعد عشر سنوات أخرى".

"أنتِ مُحِقَّةٌ".

أمالت نيل ذقنها ورفعت حاجبًا مُتَشَكِّكًا، وهي تتساءل إلى أين يقود هذا الاستسلام المفاجئ.

"لن أدخِرَ أموالًا كافيةً لنفسي أبدًا" عصّت كساندرا على شفقتها السفلي، قابضةً على ابتسامةٍ مُفَعَمَةٍ بالأمل. "لو كان هناك شخص يمكنه أن يُقرِضني بعض الأموال، شخصٌ طيّب يرغب في مساعدتي لكي أحقق أحلامي..."

التقطت نيل صندوقًا من الخزف الصيني كانت ستأخذه إلى محلّ الثُحف. "لن أقف مكتوفة اليد هنا وأدعك تورطينني يا فتاتي".

استشعرت كساندرا بارقةً أملٍ في الرفض الصلّد: "هلاً تحدثنا عن هذا الأمر لاحقًا؟".

أشاحت نيل بعينيها تبرُّمًا وهي تقول: "أعتقد أننا سنفعل. وحينها سنعيد ذات الكلام مرارًا وتكرارًا"، وأطلقت زفرة، مُشيرةً إلى إغلاق الموضوع، على الأقل الآن، ثم سألتها: "هل لديك كل ما تحتاجينه للجدار الخلفي؟".

"سأتحقّق من ذلك".

"لا تنسي استخدام الفرشاة الجديدة على الألواح، لا أريد أن أهدق في شعيراتٍ خَسنةٍ في الخمس سنوات المقبلة".

"سمعاً وطاعة يا نيل. كما أنني سأغمس الفرشاة في علبة الطلاء قبل وضعها على الألواح، أليس كذلك؟"
"فتاة مشاغبة".

حينما وصلت نيل إلى المنزل من متجر التُحف في ظهيرة ذاك اليوم، اتَّجَهَتْ نحو زاوية المنزل ووقفت بلا حراك، تُقيِّم الجدار الذي اكتسى بطلاء جديد لامع. تراجعت كساندرا إلى الوراء، وزَّمت شفيتها، مانعةً ضحكة ستفلت، وانتظرت.

برغم أن اللون القرمزي كان مُدهشاً، التفاصيل السوداء التي أضافتها كساندرا في الأطراف البعيدة هي التي استرعت انتباهَ جدَّتها. كان التشابه غريباً: نيل جالسة على مقعدها المفضل، تحمل فجائاً من الشاي يتصاعد منه البخار.

"يبدو أنني رسمتُك في الجدار يا نيل. لم أقصد ذلك، تحمَّستُ قليلاً".

لم تستطع كساندرا قراءة أسارير نيل.

"سأرسم نفسي جالسةً بجوارِك تماماً. وبتلك الطريقة ستتذكَّرين، وأنا في ملبورن، أننا مازلنا رفيقتين".

ارتجفت شفتي نيل على نحو طفيف، وهزَّت رأسها وجلست بجوار الصندوق الذي جلبته معها من الجناح، ثم أطلقت زفرةً عالية وهي تقول: "أنتِ بالتأكيد فتاة مشاغبة". ثم ابتسمت رغماً عنها واحتضنت وجه كساندرا بيديها. "لكنكِ فتاتي المُشاغبة المُفضَّلة، وأنا أُحبُّكِ هكذا...".

جلبة، وطُرد الماضي وتبدَّد إلى ظلالٍ كدُخانٍ على يَدِ الحاضر الزاهي الصاخب. طرفت كساندرا بعينيها ومسحتهما. أزيز طائرة بالأعلى، بقعة بيضاء في بحر من الأزرق الصافي. من المستحيل تخيُّل

وجود أناس داخلها يثرثرون ويضحكون ويأكلون، بعضهم ينظر إلى الأسفل مثلما هي تنظر إلى الأعلى.

سمعت جلبة أخرى، قريبة الآن. وَقَعُ أقدامٍ تَجْرُ على الأرض.

"مرحبًا يا كساندرا الصغيرة". ظهرت هيئة مألوفة على جانب المنزل، وقف للحظة لالتقاط أنفاسه. كان "بين" أبيض الشعر، أحمر الأذنين، ذا لحيّةٍ مُتَشابِكة. كان طويل القامة منذ سنوات بعيدة، لكن الزمن يُغيّر الناس بطريقة لا يدركونها. كان الآن قصيرًا كقزم مسحور. ابتسمت كساندرا، مسرورةً لرؤيته. لم تكن نيل تحبُّ الأصدقاء، ولم تُخفِ نفورها يومًا من البشر، وحاجتهم الملحة لاكتساب حُلفاء. لكنها توافقت هي وبين. كان تاجرًا في متجر التُّحف، وكان مُحامياً ذات يوم، ثم حوّل هوايته إلى حِرْفَة حينما تُوفيت زوجته، واقترحت عليه شركته بلطف أن وقت التّقاءِ قد حان، وشرأوه لأثاث مُستعملٍ هدّد بطرده من المنزل. وحينما كبرت كساندرا كان بمثابة أب لها، يُسديها النصائح التي كانت تُقدِّرها وتستخفُّ بها على حدِّ سواء، ولكن منذ عودتها للعيش مع نيل، صار صديقها كذلك.

سحب بين مقعد قصير باهت قابل للطّي، موضوع بجوار حوض الغسيل الأسمنتي وجلس بحذرٍ؛ فقد تضرّرت ركبته وهو في مقتبل العمر في الحرب العالمية الثانية، وأورثه ذلك عناءً كبيرًا، لا سيّما حينما يسوء الطقس. غمز من فوق حافة نظارته المستديرة وهو يقول: "اختيارك ممتاز. بقعة جيدة، جميلة ومعزولة".

"كانت بقعة نيل المُفضّلة"، بدا صوتها غريبًا على أذنيها، وتساءلت متى كانت آخر مرة تحدّثت بصوتٍ عالٍ لأحدهم، وأدركت أن ذلك حدث خلال العشاء في بيت فيليس منذ أسبوع مضى.

"هذا صحيح. كان يمكن الاعتماد عليها لمعرفة أفضل مكان للجلوس".

ابتسمت كساندرا وهي تقول: "أترغب في تناوُل فنجان من الشاي؟".
"أجل".

عبرت الباب الخلفي إلى المطبخ، ووضعت الإبريق على الموقد. كانت المياہ ما زالت دافئةً منذ المرة السابقة التي غلّتها فيها.
"خبريني بأحوالك".

هزّت كتفيها. "أنا بخير". وعادت لتجلس على الدرجة الأسمنتية بالقرب من مقعده.

زَمَّ بين شفّتيه الشاحبتين، وابتسم ابتسامة خفيفة حتى أن شاربه تشابك مع لحيته. "هل أمك على اتّصالٍ بك؟".

"أرسلت بطاقة".

"حسنًا إذن...".

"تقول إنها كانت ترغب في القدوم، لكنها كانت مشغولةً هي ولين. كايلب وماري...".

"مفهوم. المراهقون يشغلونك دومًا".

"لم يعودوا مُراهقين. ماري بلغت الحادية والعشرين لتوها".

"أطلق بين صفيّرًا. "ما أسرع مرور الأيام!".

تصاعدَ صوت غليان إبريق الشاي.

عادت كساندرا إلى الداخل، ووضعت كيسَ الشاي، وراقبته وهو يحيل المياہ إلى لون بُنيّ. من العجيب أن ليزي صارت أمًّا مثالية في المرة الثانية. إن الزمن قادر على كشف المزيد من عجائب الحياة.

صَبَّتْ بعض الحليب، وتساءلت إن كان ما زال صالحًا للشرب. كانت قد اشترته، قبل وفاة نيل، وقد خُتِمَ على اللاصق يوم 14 سبتمبر. هل انقضى هذا التاريخ؟ لم تكن مُتَيْقِنَةً. رائحته ليست حامضة. حملت القدح، وناولته إلى بين. "آسفة... الحليب...".

أخذ رشفةً منه ثم قال: "أفضلُ شاي تَذَوَّقْتُهُ طيلة اليوم".

نظر إليها لهنيهة وهي تجلس، وبدا على وشك أن يقول شيئًا، لكنه عدل عن ذلك. تنحنح ثم قال: "كاس، جئت في مهمّة رسمية واجتماعيّة أيضًا".

لم تندهش أن تتبع وفاة نيل مهمّة رسمية، لكنها شعرت بالدوار من المفاجأة.

"لقد أمرتني نيل بأن أعلن عن وصيتها. أنتِ تعلمين طبعها، قالت إنها لم تُحِبَّ فكرة إفشاء أمورها الشخصية إلى غريب".

أومأت كساندرا. هذه نيل التي تعرفها.

أخرج بين من جيب سترته مظروفًا أكل الدهرُ حوافه، وأحاله من اللون الأبيض إلى الأبيض المائل إلى الصُفرة.

"كُتِبَت هذه الوصية منذ زمن بعيد". حدّق في المظروف ثم قال: "تحديدًا في عام 1981". كَفَّ عن الكلام، كأنه ينتظرها أن تملأ الصمت. وعندما لم تتكلّم، استأنف قائلاً: "أغلبها كلام مباشر مفهوم". سحب المحتويات، لكنه لم ينظر إليها، بل انحنى إلى الأمام، حتى استقرَّ ساعده على رُكْبَتَيْهِ، وتدلّت وصية نيل من يده اليمنى. "لقد ترَكْتَ جَدُّكَ لِكِ كل شيء يا كاس".

لم تندهش كساندرا. ربما تأثرت، وشعرت بالوحدة فجأة، لكنها ليست مندهشة؛ فلمن سترك كل شيء إذن؟ ليس إلى ليزي بالتأكيد. وبرغم أن كساندرا كَفَّت عن لوم والدتها منذ أمدٍ بعيد، لم تستطع

نيل أن تغفر لها قطُّ. قالت ذات مرّة لأحدهم، حينما ظنّنت أن كساندرا لم تكن تسمعها، إن هَجَرَ طِفْلَةَ هُوَ تَصْرُفٌ بَارِدٌ مُتَهَاوِنٌ، لا يستحقُّ الغفران.

"هناك المنزل بالطبع، وبعض الأموال في حساب التوفير. وجميع تَحْفِهَا". تَرَدَّدَ، ثم حدَّقَ فيها، كأنه يُعَايِنُ استعدادها لشيء آخر سينطق به. "وثمة شيء آخر"، ألقى نظرة جانبية على الأوراق. "العام الماضي، بعدما تَمَّ تشخيص جدِّتك، طلبت مني أن أزورها لتناول الشاي معها ذات صباح".

تذكَّرت كساندرا. كانت نيل قد أخبرتها حينما أحضرت طعام الإفطار أن بين سيزورها، وأنها تحتاج إلى أن تراه على انفراد. طلبت من كساندرا أن تُفَرِّزَ بعض الكتب في متجر التَّحَفِ، برغم مرور سنوات على قيام نيل بدور نشيط في الجناح.

استأنف الكلام: "أعطتني شيئًا ما ذاك اليوم، مظروف مختوم. وأخبرتني أن أضعه مع وصيَّتها، وأن أفتحه فقط حينما... زَمَّ شفَّتيه. "حسنًا أنتِ تعلمين".

ارتجفت كساندرا قليلاً حينما مَسَّت ذراعيها نَسْمَةً باردة مُبَاغِتَةً.

لَوْحَ بيده. اهتزَّت الأوراق، لكنه لم يَنْبَسْ ببنت شَفَّة.

قالت وقد شعرت بقلقي يتعاظم في صدرها: "ما الأمر؟ هيا أخبريني يا بين. سأكون بخير".

نظر إليها مندهشًا من كلامها، وأربكتها ضحكته وهو يقول: "لست بحاجة إلى القلق يا كاس. ليس الأمر سيئًا. بل العكس صحيح". وفكَّر للحظة ثم قال: "إن الأمر لغز أكثر منه مشكلة".

زفَّرت كساندرا، حديثه عن الألغاز لم يُخَفِّفْ من قلقها شيئًا.

"فَعَلْتُ كَمَا طَلَبْتُ. وَضَعْتُ الْمَظْرُوفَ جَانِبًا لَمْ أَفْتَحْهُ إِلَّا بِالْأَمْسِ. وَحِينَمَا رَأَيْتُ مَا بِهِ لَمْ أُصَدِّقْ". ابْتَسَمَ ثُمَّ قَالَ: "بِالدَّخْلِ كَانَ صَكُّ مَلِكِيَّةٍ مَنْزِلَ آخِرٍ".

"منزل مَنْ؟"

"منزل نيل".

"نيل لا تملك منزلًا آخر".

"بل تملك بالفعل. وهو ملكك الآن".

لم تكن كساندرا تميل إلى المفاجآت، لم تحب قَطُّ مُبَاغَتَهَا وَلَا عَشَائِئِهَا. كَانَتْ فِيهَا سَبْقٌ تَحِبُّ الْاسْتِسْلَامَ إِلَى الْأُمُورِ غَيْرِ الْمَتَوَقَّعَةِ، لَكِنْ الْآنَ الْفِكْرَةُ نَفْسَهَا تُثِيرُ خَوْفَهَا عَلَى الْفُورِ، وَتَعَلَّمُ جَسَدُهَا كَيْفَ يَسْتَجِيبُ لِلتَّغْيِيرِ. التَّقَطَّتْ -بِذَهْنِ شَارِدٍ- وَرَقَةً جَافَةً وَاقِعَةً بِجَوَارِ حِذَائِهَا، وَثَنَتْهَا نِصْفَيْنِ، ثُمَّ إِلَى نِصْفَيْنِ آخَرَيْنِ.

لم تذكر نيل وجود منزل آخر طيلة الفترة التي عاشا فيها سويًا، حينما كانت كساندرا في طور المراهقة، وحينما عادت. لماذا لم تأتِ على ذكر هذا الأمر؟ لماذا أخفت سرًّا كهذا؟ وماذا أرادت من ورائه؟ استثمار؟ لقد سمعت كساندرا الناس يتحدثون في مقاهي لاتروب تيراس عن ارتفاع أسعار العقارات، والمحافظ الاستثمارية، لكن نيل كانت دومًا تسخر من الشباب في المدن الداخلية الذين يصرفون مبالغ كبيرة على أكواخ بادينجتون الصغيرة الخاصة بعمَّال الخشب. بجانب أن نيل تقاعدت منذ زمن طويل. لو كان ذلك المنزل استثمارًا؛ لماذا لم تبغِه إذن واستخدمت الأموال للإنفاق منها؟ إن صفقات الثَّخَفِ الْقَدِيمَةِ لَهَا مَزَايَاهَا، لَكِنَّ عَائِدَهَا الْمَالِيَّ ضَعِيفٌ، لَا سَيِّمًا مُؤَخَّرًا. لَقَدْ اذْخَرَتْ نَيْلٌ وَكَسَانْدْرَا مَا يَكْفِيهِمَا لِلتَّقَوُّتِ، وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ أَمْوَالًا كَثِيرَةً. وَكَانَتْ هُنَاكَ فُرْصٌ سَانِحَةٌ لِلِاسْتِثْمَارِ، لَكِنْ نَيْلٌ لَمْ تَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ.

"أين يقع هذا المنزل؟ أهو قريب؟". قالت أخيراً.

هزَّ بين رأسه نافيًّا، وابتسم بارتباك. "وهذا هو سبب غموض الأمر برُمَّته. هذا المنزل يقع في إنجلترا".
"إنجلترا؟".

"المملكة المتحدة، أوروبا، الجانب الآخر من العالم".

"أعلم أين تقع إنجلترا".

"في كورنوال⁽¹⁾ على وجه الدقَّة، في قرية تُسمَّى تريجينا. ليس لديّ سوى صكوك الملكية، لكنه مذكور باسم (كوخ الجرف). ويبدو من العنوان أنه جزء من تركة ريفية أكبر. بإمكانني البحث عن المزيد من المعلومات إذا شئت".

"لكن لماذا أرادت...؟ كيف..."، زفرت كساندرا. "متى ابتاعته؟".

"صكوك الملكية مختومة بتاريخ 6 ديسمبر 1975".

عقدت ذراعيها فوق صدرها. "لم تذهب نيل مُطلقًا إلى إنجلترا".

قال بين بدهشة: "بل فعَلت. ذهبت في رحلة إلى المملكة المتحدة، في منتصف السبعينيات. ألم تذكرها مُطلقًا؟".

هزَّت كساندرا رأسها ببطء.

"أتذكّر حينما ذهبت. لم أكن أعرفها جيّدًا، كان ذلك قبل مجيئك بشهور قلائل، حينما كانت ما تزال تملك متجرًا صغيرًا بالقرب من شارع ستافورد. كنتُ قد ابتعتُ قطعًا قليلة منها، وهكذا تعرّفنا، بل وكدنا نكون أصدقاء. تغيّبت قُرابةَ شهر. أتذكّر هذا لأني تعاقدتُ معها على شراء مكتبٍ مصنوع من خشب الأرزِ بالتقسيط، قبل مغادرتها مباشرة، كنت سأهديه إلى زوجتي في عيد ميلادها، وهو ما

(1) مقاطعة إنجليزية تقع جنوب غرب إنجلترا.

لم يحدث في النهاية. كل مرة كنت أذهب لكي أستوفي القسط، أجد المتجر مُغلقًا. وبالطبع أثار ذلك حنقي؛ إذ كان ذلك هو عيد ميلاد چانيس الخمسين، وكان المكتب هديةً مُمتازة. حينما دفعتُ العربون، لم تذكر نيل أنها ستسافر. بل حرصت على توضيح شروط التقسيط، وصرّحت أنها كانت تتوقّع تسديد الأموال أسبوعيًا، وأنني سأخذ المكتب خلال شهر. قالت إن متجرها لم يكن مكانًا للتخزين، وإن لديها بضاعة قادمة وتحتاج إلى مساحة".

ابتسمت كساندرا، هذه نيل التي تعرفها.

"كانت مُصرّةً على نحو قاطع، وهذا ما جعل الأمر يبدو غريبًا حينما لم تكن هناك كل هذا الوقت. بعدما كَظمتُ غيظي في البداية، شعرت بالقلق، بل وفكّرتُ في استدعاء الشرطة". هزّ يده. "ولم أحتج إلى ذلك، كما تبين بعد. في زيارتي الرابعة أو الخامسة التقيتُ مُصادفةً بجارة نيل -أو التي كانت تجمع بريدها- أخبرتني أن نيل كانت في المملكة المتحدة، لكنها استاءت حينما سألتها لماذا غادرت فجأةً ومتى ستعود. قالت الجارة إنها كانت تفعل ما طُلب منها بالضبط ولا تعرف المزيد. ومن ثمّ ظللتُ أنتظر، جاء موعد عيد ميلاد زوجتي وانقضى، ثم ذات يوم فُتحَ المحلُّ، وجاءت نيل".

"اشتريت المنزل أثناء رحلتها".

"يبدو الأمر كذلك".

أحكمت كساندرا سُرتّها الصوفيّة حول كتفيها. إنها لا تفهم. لماذا سافرت نيل في هذه الرحلة فجأة، وابتاعت منزلًا، لم تُعد له قطُّ؟ "أم تخبرك مُطلقًا بشيء عنه؟".

رفع بين حاجبيه. "إننا نتحدّث عن نيل. إنها ليست بالشخص الذي يضع ثقته بسهولة في الآخرين".

"لكن كنتما مُقَرَّبَيْن. لا بُدَّ وأنها ذَكَرَت الأمر في وقت ما!" هزَّ بين رأسه. واستمرَّت كساندرا تُلحُّ: "لكن حينما عادت. حينما جلبت أخيراً المكتب، ألم تسألها عن سبب مُغادرتِها فجأة؟".

"بالطَّبع سألتها، عدَّة مرَّات على مرَّ السنوات. علمت أن الأمر كان في غاية الأهمية. فقد تغيَّرت منذ عودتها".
"كيف تغيَّرت؟".

"صارت أكثر تشبُّثًا وغموضًا. وأنا واثق أنني لا أقول ذلك بسبب إدراكي المتأخَّر للأمر. بعد بضعة شهور اقتربتُ من اكتشاف الموضوع. كنت أزورها في متجَرِّها ووصل خطاب، مختوم بختم بريد ترورو⁽¹⁾. أخذتُ الخطاب إليها. حاولت التَّصرُّف على طبيعتها، لكنني كنت أعرفها جيِّدًا حينها، كانت تبدو مُتحمِّسَةً لتلقِّي الخطاب. واعتذرت لتتركني".

"ماذا كان؟ ومَن أرسله؟".

"أعترف أنه اعتراني الفضول. لم أقرأ الخطاب نفسه، لكنني فتحتُ المظروف لاحقًا، حينما وجدته على مكتبها؛ لكي أعرف مَن أرسله. حفظتُ العنوان المكتوب على الخلف، وكان لديَّ صديقٌ قديم في المملكة المتحدة بحث عنه لأجلي. كان عنوان مُحقِّق".

"أتقصد مُخبرًا سرِّيًّا؟".

أوما برأسه.

"هل هم موجودون على أرض الواقع؟".

"بالطَّبع".

"لكن ماذا أرادت نيل من مُحقِّق إنجليزي؟".

(1) مدينة بكورنوال.

هَزَّ بَيْنَ كَتْفَيْهِ. "لَا أَعْرِفُ. رُبَّمَا لَدَيْهَا لَغْزٌ كَانَتْ تَحَاوُلُ حَلَّهُ. كُنْتُ أَحُومُ حَوْلَ الْمَوْضُوعِ، وَأَرْمِي إِشَارَةً هُنَا وَهُنَاكَ لِفَتْرَةٍ، مُحَاوِلًا اسْتِخْلَاصَ مَعْلُومَةٍ مِنْهَا، لَكِنْ مُحَاوِلَاتِي بَاءَتْ بِالْفَشْلِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ تَرَكْتُ الْمَوْضُوعَ تَمَامًا، تَيَقَّنْتُ أَنَّ كُلَّ شَخْصٍ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَكُونَ لَدَيْهِ أَسْرَارُهُ الْخَاصَّةُ، وَلَوْ شَاءَتْ نَيْلٌ لِأَخْبَرْتَنِي. وَالْحَقُّ أَنَّنِي مَا زِلْتُ أَشْعُرُ بِالذَّنْبِ عَلَى هَذَا التَّلَصُّصِ". هَزَّ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ: "أَعْتَرَفْتُ أَنَّنِي كُنْتُ أَرْغَبُ بِشِدَّةٍ فِي الْمَعْرِفَةِ. لَقَدْ شَغَلَتْ ذَهْنِي لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، وَهَذَا... لَوْحٌ بِالصِّكِّ" وَهَذَا أَنْهَى فِضُولِي. إِنْ جَدَّتْكَ قَادِرَةٌ عَلَى إِثَارَةِ ذَهُولِي حَتَّى الْآنَ".

أَوْمَأَتْ كَسَانْدْرَا بِذَهْنِ شَارِدٍ. كَانَ عَقْلُهَا فِي مَكَانٍ آخَرَ، يَرْبِطُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ. حَدِيثٌ بَيْنَ عَنِ أَسْرَارِ نَيْلٍ وَغَمُوضِهَا. وَكُلَّ الْأَسْرَارِ الَّتِي قِيلَتْ فِي يَوْمِ السَّهْرِ عَلَى جَثْمَانِ جَدَّتَيْهَا لِتَقْدِيمِ التَّعَاذِي، بَدَأَتْ تُحَبِّكُ مَعًا: نَسَبَ نَيْلِ الْمَجْهُولِ، وَوُصُولِهَا إِلَى مِينَاءِ بَحْرِيٍّ وَهِيَ طِفْلَةٌ، وَحَقِيقَةُ السَّفَرِ، وَالرَّحْلَةَ الْغَامِضَةَ إِلَى إِنْجَلْتْرَا، ثُمَّ هَذَا الْمَنْزِلَ السَّرِيِّ...

أَلْقَى بَيْنَ رِوَاسِبِ قَدْحِ الشَّايِ فِي أَصِيصِ زَهْوَرِ الْجِيرَانِيَوْمِ الْحَمْرَاءِ. "مَنْ الْأَفْضَلُ أَنْ أَنْصَرِفَ. سَيُزَوِّرُنِي رَجُلٌ لِمُعَايِنَةِ بُوْفِيهِ مِنْ خَشَبِ الْمَاهُوجِنِيِّ فِي غُضُونِ خَمْسِ عَشْرَةِ دَقِيقَةٍ. صَفْقَةٌ لَعِينَةٌ أُرِيدُ الْإِنْتِهَاءَ مِنْهَا. هَلْ تَرْغِبِينَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَرْكَزِ؟".

هَزَّتْ كَسَانْدْرَا رَأْسَهَا قَائِلَةً: "سَأَحْضُرُ بِنَفْسِي يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ".

"لَا تَتَعَجَّلِي الْعُودَةَ يَا كَاس. أَخْبَرْتُكَ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ، يَسْعَدُنِي الْإِعْتِنَاءُ بِجَنَاحِكَ مَتَى أَرَدْتِ. سَأَجْلِبُ لَكَ أَيَّ أَمْوَالٍ يَحْتَفِظُ بِهَا الْمَرْكَزُ حِينَمَا أَنْتَهِي فِي الْأَصِيلِ".

"شُكْرًا يَا بَيْنَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ".

نَهَضَ وَدَفَعَ مَقْعَدَهُ إِلَى الْخَلْفِ إِلَى مَكَانِهِ، وَتَرَكَ الصِّكَّ أَسْفَلَ فَنَجَانَ الشَّايِ. كَانَ عَلَى وَشِكِّ الْإِخْتِفَاءِ حَوْلَ الزَّوَايَةِ بِجَانِبِ الْمَنْزِلِ،

حينما تردّد والتفت قائلاً: "اعتني بنفسك الآن. هذه الرياح تصير أقوى ويمكن أن تعصف بك".

ارتسم قلقٌ يفيض بالعطف على جبهته، ولم تستطع كساندرا النّظرَ في عينيه. كانتا تُطلّان على أفكاره، وهي لا تتحمّل أن تراه يتذكّرهما بالطريقة التي كانت عليها.

"كاس؟".

"أجل. سأفعل".

لوَحّت له وهو يغادر، أنصتت لصوت محرك سيارته وهي تتلاشى في الشارع. برغم أن تعاطفه كان حَسَنَ النّيّة، كان دائماً يحمل معه اتهاماً، خيبة أمل خفيفة؛ لأنها عجزت عن استعادة ذاتها القديمة. لم يخطر بباله أنها ربما اختارت البقاء في هذا الوضع، وأنه بينما يرى ذلك تحفُّظاً ووحدة، رآته كساندرا محافظَةً على ذاتها، وأن المرء يكون آمناً حينما لا يملك شيئاً ليخسره.

جرّت أصبع قدمها من حذائها الخفيف على الممرّ الخرساني، ونفضت عن عقلها الأفكار القديمة المحزنة. ثم التقطت الصّكّ. ولاحظت، للمرة الأولى، الملاحظة الصغيرة التي كُتبت على مقدمته. خط نيل المتشابك القديم، المتعدّر قراءته. قرّبت الصك منها، ثم أبعدته. وببطءٍ حاولت قراءة الكلمات: إلى كساندرا، التي ستفهم السبب.

(8)

بريزبن، 1975

ألقت نيل نظرةً سريعةً مجددًا على الوثائق، وجواز السفر، والتذكرة، والشيكات السياحية، ثم أغلقت محفظة سفرها، ووبّخت نفسها. لقد صار الأمر وسواسًا قهريًا. إن الناس يسافرون بالطائرة كل يوم، أو هكذا أقنعت حالها. يشدّون أنفسهم إلى مقاعد داخل علبة صفيح عملاقة تُقذف بهم إلى السماء. أخذت نفسًا عميقًا، وهذّأت روعها، ألم تكن تنجو دومًا؟

اتّخذت طريقها إلى المنزل، وتفحصت أقفال النوافذ وهي تمرّ. جابت عيناها المطبخ، وتأكدت من إغلاق الغاز والمُجمّد ومقابس الكهرباء. أخيرًا، حملت حقيبتَي السفر، وخرجت من الباب الخلفي وأغلقتة وراءها. بالطبع كانت تعلم جيّدًا سبب عصبيتها، لم يكن خوفًا من نسيان شيء ما، أو حتى رعبها من السقوط من السماء. بل لأنها كانت عائدةً بعد كل هذا العمر إلى وطنها، إلى بيتها.

لقد حدث الأمر بشكلٍ مبالغٍ في النهاية. توفي هيو منذ أشهر قلائل، وها هي تفتح باب ماضيها. لا بُدَّ وأنه كان يعلم أنها ستفعل ذلك. حينما أظهر حقيبة السفر لفيليس، وأمرها بتسليمها إليها حينما يموت، لا بُدَّ وأنه خَمَّن ذلك.

وبينما كانت واقفةً على جانب الطريق في انتظار سيارة أجرة، أَلَقَتْ نيل نظرة خاطفة على منزلها الأصفر الشاحب، والذي كان يبدو شاهِقَ الارتفاع من هذه الزاوية. لم يكن يشبه أيَّ منزل ذهبَت إليه من قبل؛ إذ كان الدرج الخلفي الصغير مُغْلَقًا لسنوات، ومَظَلَّاتِه مُقَلِّمَةٌ مطليَّةٌ باللون الزهري والأزرق والأبيض، ونافذتاه العلويتان مائلتين. أحبته برغم ضيقه، وشكله المربع غير الأنيق. وأحَبَّتْ غرابته، وطبيعته المُرَقَّعة، وخُلُوهُ من الأصالة بشكل واضح. رأت أنه ضحية الزمن وتوالي المُلَّاك، الذين كان يعتزم كل واحد منهم على وضع بصمته الخاصة على واجهته الصامدة.

ابتاعت المنزل في عام 1961، بعد وفاة آل، وعودتها هي ولزلي من أمريكا. كان حينها منزلًا مهجورًا، لكنَّ مَوْقِعَهُ على مُنحَدَاتِ بادينجتون خلف مسرح البلازا القديم جعلها تشعر أنها كانت قريبة من بيتها. وكافأ المنزلُ شُعُورَهَا، بل منحها دَخْلًا جديدًا. عثرت على غرفة مُظَلِّمَةٌ بالأسفل مليئةٌ بالأثاث المكسور، وأبصرت منضدة ذات أرجل حلزونيَّة وجانبين بمفصَّلات يمكن طيُّهما. كانت حالتها سيئَةً للغاية، لكن نيل لم تفكِّر مرَّتين، اشترت بعض ورق الصَّنْفرة وطلاء اللك⁽¹⁾، وشرعت تُعيدها للحياة.

عَلِّمَهَا هيو كيفية تلميع الأثاث. حينما عاد من الحرب، ووُلِدَتْ شقيقاتها، اعتادت نيل على اتِّباعه في عطلات نهاية الأسبوع. صارت مُسَاعِدَتَهُ، وتعلَّمت الفرق بين وصلات التَّعشيق ووصلات المَشْط،

(1) طلاء يستخدم لتغطية المعادن والأخشاب والخزف الصيني.

والفرق بين صمغ اللك والورنيش. واستمتعت بفرحة إصلاح شيء مكسور. لكن مرَّ وقتٌ طويل منذ أن فعلت ذلك، وكانت قد نسيت، إلى أن وقعت عيناها على المنضدة، بل إنها عرفت كيفية القيام بهذه العملية، والتي نسيت أنها أحبُّها كثيراً. كادت تبكي وهي تفرك طلاء اللك على الأرجل، وتشمُّ الدهان المألوف، لكنها لم تكن ممَّن يكون جذب انتباهها زهورُ جاردينيا ذابِلةً بالقرب من حقيبة السفر، وتذكَّرت أنها نسيت أن تُدبِّر شخصاً ليرعى الحديقة. لقد وافقت الفتاة التي تعيش خلف منزلها على وضع الحليب للقطط الزائرة، كما اتَّفقت مع امرأةٍ أخرى على جَمْع بريد جناح التُّحَف، لكنها نسيت تماماً أمرَ النباتات. تمَّنت أن تنسى كبرياءها، وتطلب من إحدى شقيقاتها، تتصل بها من المطار، أو حتى من الجانب الآخر من العالم. ربما يصددهم ذلك كثيراً، الصدمة التي اعتادوا توفُّعها من شقيقتهم الكبرى نيل.

من الصعب تصديق أنَّهنَّ كُنَّ مُقَرَّبَاتٍ في يومٍ ما. كُنَّ من بين الأشياء الكثيرة التي سرقتها منها اعترافُ والدها، وخَلَفَتْ خسارتُهنَّ جُرْحاً عميقاً في نفسها. كانت قد بلغت الحادية عشرة حينما وُلِدَتْ أولاهُنَّ، وسرعان ما شعرت نحوها برابطة قوية. لقد عرفت، حتى قبل أن تخبرها الأم، أن من واجبها الاعتناء بالشقيقات الصغيرات، وحمايتهن. كانت تجد مكافأتها في إخلاصِهِنَّ المُتمثِّل في إصرارِهِنَّ على أن نيل تُهدِهِنَّ حينما يتألَّمْنَ، واختبائهن بأجسادهن الصغيرة المكتنزة في حضنها بعد كابوس، وتسلُّهن إلى فراشها لإمضاء الليل الطويل بجانبها.

لكنَّ سرَّ الأب غير كل شيء. قذفت كلماته بكتاب حياتها في الهواء وبعثرت صفحاته، فلم تستطع تجميعها لكي يحكي قصتها. وجدت أنها لا تستطيع النظر إلى شقيقاتها الصغيرات دون أن ترى اغترابها،

ورغم ذلك لم تستطع إخبارهنَّ بالحقيقة. لو فعلت سيدمُرُ ذلك شيئاً بديهيّاً داخلهنَّ. ارتأت أنه من الأفضل أن يعتقدن أنها غريبة عن التعامل معها كأنها دخيلة.

أبصرت سيّارةَ أجرة ذات لون أسود وأبيض تدخل إلى الشارع فمدّت يدها لتلوّح لها. حمل السائقُ حقيبة السفر بينما ركبت في المقعد الخلفي.

"إلى أين يا عزيزتي؟" قال، وهو يصفق الباب.

"المطار."

أوماً برأسه، وانطلقت السيارة عبر متاهة شوارع بادينجتون.

حينما بلغت الحادية والعشرين، همس والدها في أذنها بالاعتراف الذي سلبها ذاتها.

"لكن مَنْ أكون؟" قالت.

"أنتِ هو أنتِ. نفس الشخص كالعادة. أنتِ نيل، ابنتي نيل."

لم ترغب في أن تسمع أكثر عن رغبته في أن يظلّ الوضع هكذا، كانت تعرف أن الواقع تغيّر لدرجات قليلة، وتركها بعيدةً عن مدار الجميع. هذا الشخص الذي كانت عليه، أو اعتقدت أنها كانت عليه، لم يوجد حقّاً. لم يَكُنْ هناك نيل أوكونر.

"مَنْ أكون حقّاً؟" سألته مُجدِّداً بعدها بأيام. "أرجوك أخبرني يا أبي." هزّ رأسه وقال: "لا أعرف يا نيلي. أنا وأمك لم نعرف قط، ولم نشغل بالنا".

حاولت ألا تشغل بالها أيضاً، لكن السؤال شغل كلَّ حيِّز من تفكيرها. لقد تغيّرت الأمور، وعجزت عن النظر في عيني أبيها. لم يكن الأمر أنها لم تعد تُحبُّه، بل لأن الراحة اختفت. عاطفتها الخفيفة نحوه، الراسخة بفعل الزمن، صار لها ثِقَلٌ وصوت. كانت تهمس حينما

تنظر إليه: "أنتِ لستِ ابنته". لم تُعد تصدق أنه يُحبها كما يحب شقيقاتها مثلما يقول، مهما كَرَّرَ على مسامعها.

وحيثما سألتها أجبها: "بلا شكُّ أحبُّكِ". امتلأت عيناه بالدهشة الممزوجة بالألم، وأخرج منديله وجَفَّفَ عينيه. "لقد عَرَفْتُكِ أَنْتِ أَوَّلًا يا نيلي. وأحببتكِ أكثرَ منهنَّ". لكن هذا لم يكن كافيًا. كانت أكذوبة، كانت تعيش في أكذوبة، ورفَضَتْ أن تكون كذلك بعد الآن.

وفي غضون شهور قليلة، تفكَّكت بانتظامٍ أوامرُ حياتها التي كانت مُمتدَّةً أمامها. استقالت من وظيفتها في محل بيع الصحف، والذي يديره السيد فيتسيمنز، وعثرت على وظيفة جديدة: مُرشدة في مسرح البلازا الجديد. حزمت حقيبتَيها الصغيرتين، ورتَّبت لتتشارك في شقَّةٍ مع إحدى معارف صديقاتها. وفسخت خطبتها من داني. لم تفعل ذلك بطريقةٍ صحيحة، فلم تسعفها الشجاعة لاتخاذ هذه الخطوة بشكل صريح. بل تفكَّكت في عدَّة أشهر؛ إذ كانت ترفض مُقابلته معظم الوقت، وحيثما كانت توافق على اللقاء كانت تتصرَّف بشكلٍ بغضب. جعلها جُبْنُها تكره نفسها أكثر، كراهية ذاتٍ مُطمئنِّة، والتي أَكَّدَتْ لها شكوكها أنها تستحقُّ كُلَّ ما يحدث لها.

وقد لزمها وقتٌ طويلٌ كي تتجاوز الانفصال عن داني. وجهه الضحوك، وعيناه الصادقتان، وابتسامته المريحة. بالطبع أراد أن يعرف السبب، لكنها عجزت عن الإفصاح. هل تخبره أن المرأة التي أحبَّها، ومَمَّنَى الزواج منها، لم تُعد موجودة؟ كيف تتوقَّع أن يحترمها بعد هذا القول، ويرغب في الارتباط بها، سيدرك على الفور أنها منبوذة، وأن عائلتها الحقيقية تخلَّصوا منها.

دارت السيارة الأجرة إلى ألبيون مُتَّجِهَةً شرقًا إلى المطار. "إلى أين تسافرين؟" سألتها السائق، وعيناه ترمقان عيني نيل في مرآة الرؤية الخلفية.

"لندن".

"عائِلَتُكَ هناك".

نظرت نيل من النافذة المُلَطَّخة، وقالت بنبرة مُفَعَمَةٍ بالأمل:
"أجل".

لم تُخِبرِ ليزلي بأمر السفر. فَكَّرَت في الأمر، وتخيَّلت نفسها ترفع سَمَاعَةَ الهاتف وتطلب رقم ابنتها، الذي كتبتَه على الهامش في ملف الأرقام، لكنها في كل مرة تطرد هذه الفكرة من رأسها. في أغلب الاحتمالات ستعود إلى البيت قبل أن تدرك ليزلي سفرها. لم تتساءل نيل كيف بدأت المشكلة مع ليزلي؛ فهي تعرف جيِّدًا. كانت بدايتهما سيئة، وظلت كذلك. كان ميلادها بمثابة صدمة لها: الوصول العنيف، والصراخ، والقطعة الزاعقة الحيَّة، وكل الأطراف والأصابع المذعورة. ليلة تلو الليلة كانت نيل ترقد مستيقظةً في المستشفى الأمريكي، تنتظر أن تشعر بالرابطة التي يتحدث عنها الناس، أنها كانت مرتبطة بقوة وإلى الأبد بهذا المخلوق الصغير الذي كبر داخلها. لكن الشعور لم يأتِ قَطُّ. مهما حاولت بقوة، ومهما أرادته بشدة، ظلت نيل منعزلة عن تلك القطة البرية الصغيرة الشرسة التي ترضع من صدرها ومُهمَّزُقه وتَخمِشُه، دومًا تريد أكثر ممَّا تستطيع نيل إعطاءه. من ناحية أخرى كان آل مفتونًا، ولم يلاحظ أن الرضِيعَة مثَّلت رُعبًا لنيل. على عكس معظم الرجال في زمنه، كاد يطير فرحًا حينما حمل ابنته كحمامة صغيرة بين ذراعيه، وكان يأخذها لتمشِّي معه في شوارع شيكاغو الواسعة. أحيانًا كانت نيل تراقبه، وهي ترسم على شفيتها ابتسامةً بلاستيكية، بينما هو يحدِّق بِحُبِّ في ابنته الرضِيعَة. كان ينظر إليها، وكانت نيل حينها ترى في عينيه، اللتين اغرورقتا بالدموع، انعكاسَ خوائها.

وُلِدَتْ لِزلي بِشِراسَةِ تجري في دمائها، والتي فَجَّرَتْها وفاة آل عام 1961. حينما أَخْبَرَتْها نيل، رأت في عيني ابنتها سيناريو الانفصال القاسي. وخلال الأشهر القليلة التالية، شرعت لِزلي، والتي كانت تبدو لُغْزًا بالنسبة لنيل، تنسحب شيئًا فشيئًا إلى يقينها الذي يُملي عليها احتقار أمها والابتعاد عنها. وكان هذا أمرًا مفهومًا بالطبع، إن لم يكن مقبولًا، فقد كانت في الرابعة عشرة، وهو عمر حسَّاس، وكان والدها قُرَّةَ عينها. لم تساعد العودة إلى استراليا في تحسين الوضع بينهما. لم تسمح نيل بمشاعر لوم الذات. لقد بذلت كل ما في استطاعتها وقتذاك، لم تكن أمريكية، والدة آل تُوقِّيت منذ سنوات قليلة مَضَّت؛ لذلك كانتا وحيدَتَيْن، وغريبتين في أرض غريبة.

حينما غادرت لِزلي المنزل وهي في السابعة عشرة من عمرها، تشقُّ طريقها نحو شرق استراليا، ثم إلى سيدني، شعرت نيل بالراحة لذهابها. وفكَّرت في أنها تخلَّصت أخيرًا من الحزن الذي استقرَّ في قلبها لمدة سبعة عشر عامًا، والذي كان يهمس أنها أم سيئة. بالطبع لم تكن ابنتها تطيقها، كان يبدو أن الأمر مُتوازت، لم يكن يجدر بها أن تنجب من المقام الأول. برغم حنان ليل، انحدرت نيل من أم سيئة، هجرت طفلتها دون ذرَّةٍ من تأنيب الضمير.

ولم يَبدُ الأمر سيئًا بدرجة كبيرة. بعد اثني عشر عامًا صارت لِزلي قريبةً من المنزل الآن، تعيش في الساحل الذهبي مع آخر رفيقٍ لها، وابنتها الوحيدة، كساندرا. التقت نيل بالطفلة بضع مرَّات. والله وحده يعلم مَنْ الأب، وأحجمت نيل عن الاستفسار. مهما كانت هُويَّة هذا الشخص، لا بُدَّ وأنه شخص عاقل؛ إذ أن الحفيدة لم تَرثُ شِراسَةَ أمها. كان العكس صحيحًا. كانت طفلة شاخَت رُوحها قبل الأوان. كانت صامتة، وصبورة، ورزينة، ومُخلِصَةً لأمها، طفلة جميلة حقًا: عينان زرقاوان، مسحوبتان إلى الأسفل يلمع فيهما الوقار والجديَّة، وثغر

جميل ظنّت نيل أنه سيكون أكثر جمالاً لو أنها ابتسمت بفرحة تلقائية.

توقّفت السيارة الأجرة خارج أبواب شركة طيران كوانتس. وبينما نعدت نيل السائق أجرته، نفضت عن ذهنها كل الأفكار عن ليزلي وكساندرا. لقد قضت ما يكفي من حياتها محجوبةً بفعل الندم، غارقة في الأكاذيب والهواجس. والآن حان وقت الأجوبة، أن تعرف من هي. خرجت من السيارة ونظرت إلى الأعلى، بينما طائرة تحلّق على مستوى خفيضٍ تزار فوقها.

"رحلة سعيدة يا عزيزتي" قالها السائق، وهو يحمل حقيبتها إلى عربة الحقائب المنتظرة.

"نعم ستكون كذلك".

كانت متيقّنة من ذلك؛ فها هي الإجابات أخيراً قد باتت في متناول يديها. بعد حياة قضتها كظُلٍّ، ستصير أخيراً إنساناً من لحم ودم.

كانت حقيبة السفر البيضاء الصغيرة، أو بالأحرى محتوياتها، هي المفتاح. كتاب القمص الخيالية الذي نُشر في لندن في عام 1913، والصورة على الغلاف الداخلي. كانت نيل قد تعرّفت على وجه الراوية على الفور. جزء سحيق وقديم من عقلها أرسل إليها الأسماء قبل أن يسترجعها ذهنها الواعي، أسماء ظنّت أنها تنتمي إلى لعبة في الطفولة. السيدة، المؤلّفة. تعرف الآن أن السيدة كانت حقيقية، بل وتعرف كذلك أن اسمها هو إيليزا ماكبيس.

ومن الطبيعي أنها حسبت في البداية أن إيليزا ماكبيس هي أمها الحقيقية. كانت قد استفسرت في المكتبة، وكانت تضغط على

قبضتها المضمومتين وهي تنتظر، أملّة أن يكتشف أمين المكتبة أن إيليزا ماكيبس لديها ابنة مفقودة، وقضت حياتها تبحث عن ابنة مفقودة. لكنه بالطبع كان حلاً ساذجاً للغاية. لم يجد أمين المكتبة معلوماتٍ عنها، وكل ما استطاع معرفته أن الكاتبة التي تحمل هذا الاسم لم تنجب أطفالاً قط.

كما لم تفصح قوائم المسافرين عن أي معلومات مهمة. فقد تحرّرت نيل عن كل سفينة غادرت لندن ذاهبة إلى ماريبورو في أواخر عام 1913، لكن اسم إيليزا ماكيبس لم يظهر في أي قائمة. وتراءى لها أنها ربما كانت تكتب تحت اسمٍ مُستعار، وأنها حجزت رحلةً باسمها الحقيقي، أو حتى باسمٍ وهميٍّ، لكن هيو لم يخبر نيل أيّ سفينة وصلت على متنها، وبدون هذه المعلومة كان من المستحيل تضيق قائمة الاحتمالات.

لكن ذلك لم يفلّ عَزَمَها. كانت إيليزا ماكيبس امرأةً مُهمّةً، ولعبت دوراً في ماضيها. وبرغم أنها تذكرها بصعوبة؛ إذ كانت ذكرياتها قديمة ومكبوتة طويلاً، كانت حقيقية. كانت على متن سفينة، تنتظر، تختبئ، تلعب. وبدأت تسترجع أشياء أخرى أيضاً. كأنّ ذكرى المؤلفة قد رفعت غطاءً عن ذكريات مُدبّبة شرعت تطفو على السطح: متاهة، امرأة مُسنّة كانت تخيفها، رحلة طويلة عبر المياه. عرفت نيل أنه عبر إيليزا ستعرف حقيقتها، والعثور على إيليزا كان يتطلّب السفر إلى لندن.

حمدت الله أنها تمتلك الأموال اللازمة للطيران، وشكرت أباه، والذي يرجع إليه الفضل في حصولها على هذه الأموال. داخل حقيبة السفر البيضاء، مع كتاب الحكايات الخيالية، وفرشاة الشعر، وفتان الطفلة الصغيرة، وجدت نيل خطاباً من هيو، ومعه صورة فوتوغرافية وشيكٌ مصرفي. لم يكن المبلغ كبيراً على كل حال؛ فأبوها لم يكن رجلاً

ثَرِيًّا، لكنه كان مبلغًا كافيًا ليُحدِثَ فارقًا. قال في خطابه إنه رغب في أن تحصل على شيء إضافي، لم يرد أن تَعَلَّمَ به الفتيات الأخريات. لقد مَدَّ لَهَنَ يَدَ العَوْنِ ماليًّا خلال حياته، لكن نيل رفضت دومًا المساعدة، وظنَّ أنه بهذه الطريقة لا يمكنها أن ترفض. ثم اعتذر، وكتب أنه كان يأمل يومًا ما أن تسامحه، رغم أنه لم يسامح نفسه قط. وربما يسعدّها أن تعلم أنه لم يتغلب على شعوره بالذنب قط، وأن ذلك قد أضناه. لقد قضى حياته يتمنى أنه لم يخبرها، وأنه لو كان يمتلك ذرَّةً من الشجاعة لتَمَنَّى ألا يحتفظ بها، لكن ذلك معناه أنه كان يتمنى أن تكون نيل خارج حياته، وهو كان يفضل أن يَظَلَّ مُذنبًا عن التخلّي عنها.

كانت قد رأت الصورة الفوتوغرافية من قبل، برغم أن ذلك ليس من زمن بعيد. كانت باللونين الأبيض والأسود، بل الأدقُّ أنها بالبنّي والأبيض، التَّقِطَّتْ منذ عقودٍ مضت. كان في الصورة: هيو، وويل، ونيل، قبل أن تأتي شقيقاتها، ويزيد صخب العائلة وضحكاتهم وأصواتهم العالية. صورة تمَّ التقاطها في استوديو تصوير، ويبدو عليهم الذعر قليلًا، كأنه تمَّ انتزاعهم من الواقع، وتمَّ تصغيرهم، ثم أُعيد وضعهم داخل منزل دُمى مليء بإكسسوارات غريبة. حينما نظرت نيل إلى الصورة، دَاخَلَهَا يقينٌ أن بإمكانها تذكُّر اللحظة التي أُخِذَتْ فيها. لا يمكنها تذكُّر الكثير من طفولتها، لكنها تتذكَّر بوضوح النُّفُورَ الذي شعرت به على الفور نحو ذلك الاستوديو، والرائحة الكيميائية لتحميض الأفلام. وضعت الصورة جانبًا والتقطت خطاب والدها مُجدِّدًا.

كلِّمَا قرأت هذا الخطاب، ازداد تَعَجُّبُهَا من اختياره للكلمة: ذنبه. ظنَّت أنه يقصد شعوره بالذنب لأن اعترافه قد عصف بحياتها، لكنها لم تكن مستريحةً للكلمة. ربما كان من الأفضل أن يستخدم كلمة آسف أو نادم، لكن مذنب؟ كانت اختيارًا غريبًا؛ فبرغم أن نيل تمَنَّتْ

مرارًا أَّلا يحدث ذلك، واكتشافها أنه من المستحيل المضي قُدَّمًا في حياة كانت تعرف أنها زائفة، لم تتخيَّل مُطلقًا أن والديها يستحقَّان اللوم. ففي نهاية المطاف، قاما بفعل ما شعرا أنه صوابٌ، أو ما كان صوابًا؛ فمنحاهما بيتهما، وأغدقا عليها حبَّهما حينما كانت بلا بيت أو حب. اعتقاد والدها أنه مُذنبٌ، وتخيُّله أنها ربما تعتقد ذلك، كان أمرًا يَقُضُّ مضجعها. ولكن فات أوان السؤال عن مقصده من تلك الكلمة.

مكتبة
t.me/t_pdf

(9)

ماريبورو، 1914

مرّت سِتَّةُ أشهرٍ على وجود نيل معهما، حينما وصل خطاب إلى مكتب الميناء من رجلٍ لندني يُدعى هنري مانسيل، كان يبحث عن طفلةٍ حمراءِ الشعرِ زرقاءِ العينين في الرابعة من عمرها، اختفت منذ ثمانية شهور تقريبًا، ويعتقد أنها كانت على متن سفينة كانت مُتَّجِهَةً إلى استراليا. كان يبحث عنها نيابة عن عائلة الطفلة.

واقفًا بجوار مكتبه شعر هيو بقدميه تتهاويان، وعضلاته ترتخي. ها قد جاءت اللحظة التي كان يخشاها، والتي كان مُتَيَقِّنًا من قدومها. وبرغم ما ظنَّته ليل، كان متأكَّدًا أن الأطفال، ولا سيَّما إن كانوا مثل نيل، لا يضيعون دون أن ينتبه أحدٌ. جلس على المقعد، وأخذ صدره يعلو ويهبط، وهو ينظر بسرعة من النوافذ. فجأة أحسَّ بالخرج، كأنَّ عَدُوًّا خَفِيًّا يُرَاقِبُه.

مرّر يده على وجهه ثم على عنقه. ماذا سيفعل بحق السماء؟ كانت مجرد مسألة وقت قبل وصول رفاقه الآخرين، ورؤية الخطاب. ورغم أنه كان الوحيد الذي رأى نيل تنتظر وحدها على رصيف الميناء، لن يبقوهم هذا العذرُ آمين لفترة طويلة. سينتشر الخبر في المدينة -كالعادة- وسيخبر أحدهم شخصًا، والذي بدوره سيخبر آخر، وهكذا. سيدركون أن الفتاة الصغيرة كانت تمكث مع آل أوكونر في شارع كوين، تلك الطفلة التي تتحدّث بطريقة غريبة، تبدو مثل الفتاة الإنجليزية الصغيرة المفقودة. كلاً، لا يستطيع المخاطرة بقراءة أحدهم لمحتويات الخطاب. راقب هيو نفسه، وارتعشت يداه قليلاً. طوى الخطاب بإحكام إلى نصفين، ثم إلى نصفين آخرين، ووضعه في جيب معطفه. سيهتم به الآن.

جلس وشعر بتحسّنٍ مُجدِّداً. إنه بحاجة إلى وقت ومكان للتفكير، وإقناع ليل بأن الوقت قد حان لإرجاع نيل. كانت خطتهما للانتقال إلى بريزبن في طور التمهيد. أرسلت ليل خطاباً إلى المالك بشأن الإخلاء، وشرّعت في حزم الأمتعة، وأذاعت الخبر في المدينة حول وجود فُرصٍ عظيمة لهيو في بريزبن وعليهما انتهازها. لكن الخطط يمكن إلغاؤها، بل يجب إلغاؤها؛ إذ أن ثمة شخصاً يبحث عن نيل، وهذا يُغيّر الأمور، أليس كذلك؟

كان يعرف ما ستقوله ليل عن ذلك: إن هؤلاء الناس الذين فقدوها، هذا الرجل، هنري مانسيل، لا يستحقُّون نيل. ستتوسّل إليه وتستعطفه، وتُصرُّ أنهما لا يستطيعان تسليم نيل إلى شخص متهاون بهذا الشكل. لكن هيو سيجعلها تفهم أنهما لا يملكان الخيار، وأن نيل ليست ابنتهما، ولم تكن قطُّ، إنها تنتمي لشخص آخر. بل إنها ليست نيل إطلاقاً، واسمها الحقيقي يبحث عنها.

حينما صعد الدرجات الأمامية في أصيل ذلك اليوم، وقف هيو للحظة يستجمع شتات أفكاره، وهو يستنشق الدخان اللاذع الخارج من المدخنة، وشعر بالسرور لأنه قادم من النار التي تدفئ بيته. وبدا كأن قوة خفية تُثبِّتُه في مكانه. وانتابه شعور غامض بأنه يقف على عتبة، إن عبرها سيتغير كل شيء. أخذ نَفَسًا عميقًا، وفتح الباب والتفت فتاتاه تنظران إليه. كانتا جالستين بجوار المدفأة: نيل على حجر ليل، وشعرها الطويل الأحمر ينساب في جدائل مبتلّة، بينما ليل عاكفة على تمشيطة.

"بابا!" قالت نيل، بوجه مُتحمِّسٍ مُتورِّدٍ بفعل الدفاء. ابتسمت ليل له من فوق رأس الصغيرة. هذه الابتسامة التي تسلبه قلبه ولبّه، منذ أن حَطَّت عيناه عليها، حينما كان يلفُّ الحبال أسفل كوخ المرفأ الخاص بوالدها. متى كانت آخر مرة رأى هذه الابتسامة؟ كانت قبل الإجهاض المتكرَّر.

بأدَلِّها الابتسامَ، ثم جلس على حقييته، وامتدَّت يده داخل جيبه حيث استقرَّ الخطاب، وشعر بنعومته تحت أنامله. والتفت نحو الموقد الذي يعلوه إبريق ضخم يغلي، ثم قال بصوت مبحوح: "رائحة العشاء طيبة".

قالت ليل، وهي مُسِّد ضفائر نيل: "حساء السمك الذي كانت تُعدُّه أُمِّي. هل تعاني من شيء؟".

"ماذا؟".

"سأحضر لك الليمون والشعير".

"أُمُّ بَسِيط. لا حاجة لتكبُّد العناء".

"لا عناء. ليس لك" ابتسمت مُجدِّدًا وربتت على كتفي نيل. "هيَّا يا صغيرتي، سأذهب لأعدَّ الشاي. اجلسي هنا حتى يَجِفَّ شَعْرُكَ".

لا أريد أن تُصابي بالبرد مثل أبيك". ورمقت هيو بعينين مفعمتين بالرّضا، اخترقتا قلبه؛ فأشاح بنظره.

طيلة العشاء شعر هيو بثقلِ الخطاب في جيبه، كأنه يرفض أن يُنسى. وكانت يدها تنجذبان إليه مثل مغناطيس ينجذب لمعدن. كان يضع السكين على الطاولة، فتسلّل أصابعه إلى معطفه، لتتحسس الورقة الناعمة، حُكّم الإعدام على سعادتهما. خطاب من رجل يعرف عائلة نيل. حسناً، على الأقل هذا ما يقول.

اعتدل هيو فجأة، متسائلاً لماذا تقبل على الفور مزاعم هذا الغريب. فكّر ثانية في محتويات الخطاب، واستذكر الأسطر من ذاكرته، وتفحصها بدقّةٍ بحثًا عن دليل، وغمره على الفور فيضان الارتياح البارد. لم يكن ثمة شيء في الخطاب يشير على وجه اليقين أنه كان يقول الحقيقة. هناك مخادعون في الخارج يتآمرون ويضعون الخُطَطَ المُعقّدة. وهناك أسواق يباع فيها الفتيات الصغيرات في بعض البلاد، يعلم أن النخاسين البيض كانوا دومًا يترقّبون الفتيات الصغيرات لبيعهن...

لكنّ الأمر بدا سخيّفًا. حتى وهو يتشبّث باستماتةٍ بهذه الاحتمالات، كان يعلم أنها بعيدة.
"هيوي؟"

نظر إليها بسرعة، كانت ليل تراقبه بطريقة مُضحكة.
"تبدو شارِدَ الذهن"، ثم وضعت راحتها الدافئة على جبهته وهي تقول: "أتمنى ألا تكون مصابًا بالحمى".
"أنا بخير" قالها بصوت صارم أكثر من اللازم. "أنا بخير يا حبيبتى ليل".

زَمَّتْ شَفْتَيْهَا. "سَأخِذُ هَذِهِ الْأَنْسَةَ الصَّغِيرَةَ إِلَى الْفِرَاشِ. قَضَتْ يَوْمًا مُرْهَقًا بِالخَارِجِ".

كما لو كانت نيل تنتظر هذه الإشارة، استسلمت لتشاؤم كبير، ثم قالت برضا بعدما انتهت: "طابت ليلتك يا أبي". وقبل أن يفهم تكوَّرت في حِجْرِهِ كَهِرَّةٍ صَغِيرَةٍ دَائِفَةٍ، وَلَفَّتْ ذِرَاعَيْهَا حَوْلَ رَقَبَتِهِ. وللمرة الأولى شعر بخشونة بشرته وشعيراته على خَدَّيْهِ. فَرَدَّ ذِرَاعِيهِ وَطَوَّقَ ظَهْرَهَا الضَّئِيلَ كَعَصْفُورٍ، وَأَغْلَقَ عَيْنِيهِ، ثُمَّ هَمَسَ فِي أَذْنِهَا: "طابت ليلتك يا حبيبتى نيلي".

أخذ يراقبهما وهما تذهبان حتى اختفيتا في الغرفة الأخرى. إنهما عائلته؛ فبطريقة يعجز عن شرحها، حتى لنفسه، هذه الطفلة، نيل، بجديلتها الطويلتين، منحته هو وليل القوة والسمود. كانوا عائلة الآن، عروة وُنُقَى لا تنفصم.

وها هو الآن يُفَكِّرُ فِي كَسْرِهَا.

سمع صوتًا في الردهة فرفع رأسه. كانت ليل واقفةً تراقبه أسفل النقش الشَّبكيَّ الخشبي، وقد أضفى الضوء على شعرها الأسود لونًا أحمر، وعكسَ بريقًا في عينيها العميقتين، فأضحتا قمرين أسودين أسفل رموشها الطويلة، وعلى ثغرها ارتسمت ابتسامة مفعمة بعاطفة قوية تعجز عن وصفها الكلمات.

ابتسم هيو بدوره بتردد، وتسَلَّلت أصابعه مرة أخرى إلى جيبه، ومَرَّتْ بِصُمْتٍ عَلَى سَطْحِ الْخَطَابِ. افتقرت شفاته بصوت خافت، تستشعر كلمات لا يرغب في نطقها، لكنه ليس مُتَيَقِّنًا إن كان في استطاعته التوقُّف.

كانت ليل قد وصلت إلى جواره حينها، وأصابعها على معصمه ترسل هِزَاتٍ سَاخِنَةً فِي عُنُقِهِ، وَيَدُهَا الدَائِفَةُ عَلَى خَدِهِ. "هيا إلى الفراش".

يا لعذوبة تلك الكلمات. صوتها يشي بوعد.

انسابت يده إلى يدها، وأمسكت بها بحزم وسار إلى حيث تقود.
وحيثما مرَّ من أمام المدفأة ألقى بالخطاب فيها. اشتعلت الورقة
بأزيزٍ مجرد أن أمسكت بها النيران، وشعر بذنب لبرهة. لكنه لم
يتوقَّف، استأنف سيره، ولم ينظر إلى الوراء مُطلقًا.

(10)

بريزبن، 2005

قديمًا، قبل أن يصير متجرًا للتُحَف، كان البلازا مسرحًا تجريبيًا كبيرًا، اشتهر في ثلاثينيات القرن العشرين. كان بسيطًا من الخارج؛ كأنه صندوق أبيض ضخم قُدَّ من جانبِ تَلِّ بادينجتون، أمَّا الداخل فكان شيئًا آخر: سقف مُقنَطَرٌ، لونه أزرق غامق، وسُحْبٌ مقصوصة، مع إضاءة خلفية لإضفاء إحساس بضوء القمر، بينما مئات المصابيح الصغيرة تومض كالنجوم. أحرز المسرح نجاحًا باهرًا لعقود، في زمن كان الترام يصلصل بطول البيوت المتلاصقة، والحدائق الصينية منتشرة في الوديان، ورغم تغلُّبه على عوامل الزمن كالنيران والفيضان، وقع، بهدوء وبسرعة، ضحية التلفزيون في الستينيات.

كان جناح نيل وكساندرا يقع مُباشرةً أسفل الجزء الأمامي من خشبة المسرح، على الناحية اليسرى. رفوف على شكل جحور أرانب حجبها قِطْعٌ لا تُعدُّ ولا تُحصَى من تُحَف، وأشياء مختلفة، وكتب

قديمة، وتشكيلة منتقاة من التذكارات. منذ زمن بعيد شرع التُّجَّار الآخرون يطلقون عليه مازحين "مَغارة علاء الدين"؛ فالتصق الاسم به، وعُلِّقَت عليه لافتة خشبية صغيرة كُتبت عليها بلون ذهبي "مغارة علاء الدين".

جلست كساندرا على مقعدٍ بلا ظهرٍ، ثلاثيِّ الأرجل، بين متاهة الرفوف، ووجدت صعوبة في التركيز؛ فلقد كانت تلك المرة الأولى التي تطأ قدمهاها المركز بعد وفاة نيل، وشعرت باستغراب وهي تجلس بين التُّحَف التي جمعناها سَوِيًّا. من الغريب أن البضاعة ما زالت موجودةً بينما نيل رحلت، كأنها خانتها بطريقة ما. ثمة ملاعق لَمَعَتها نيل، وبطاقات أسعار كُتِبَ عليها بخطُّ عنكبوتيٍّ غير مقروء، والمزيد من الكتب. كأني تاجر لديه نُقْطُ ضَعْفٍ، كانت الكتب نقطة ضعف نيل؛ إذ كانت مُوَلَّعَةً بشكل خاص بالكتب التي كُتبت في نهاية القرن التاسع عشر، في أواخر العصر الفيكتوري⁽¹⁾، حيث النصوص المطبوعة الفَخْمَة ذات الرسومات التوضيحية السوداء والبيضاء. وكان الكتاب يروق لها أكثر إن كان يحمل رسالةً من المُرسِل إلى المُتلَقِّي، لمحة عن ماضيه؛ نبذة عن الأيدي التي تناقلته حتى شَقَّ طريقه إليها.

"طاب صباحك".

رَفَعَت كساندرا عينيها لترى بين يديها بكوبٍ ورقيٍّ من القهوة، وسألها: "هل تقومين بجرد البضاعة؟". رفعت برفق خصلات ناعمةً من شعرها عن عينيها، وأخذت من يده المشروب وهي تقول: "أنقل الأشياء من هنا إلى هناك. العمل الروتيني المألوف". أخذ بين رشفةً من قهوته، ورمقها بنظرة من فوق كوبه، ثم قال: "لديَّ شيء لك".

(1) عصر الملكة فيكتوريا التي حكمت المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا من عام 1837 حتى عام 1901.

ثم مدَّ يده أسفل صدره المحبوك وأخرج ورقةً مطويَّةً من جيب قميصه.

فتحت كساندرا الصفحة وبسطت تجاعيدها. كانت ورقةً مطبوعة بيضاء مقاس A4، وفي منتصفها صورة بالأبيض والأسود مُتفاوتة الحجم لمنزل. وتبيَّنت أنه عبارة عن كوخ، ربما حجري، وعلى أسواره لطخات، أو ربما نباتات مُتسلِّقة. كان السطح مكسوًّا بالقرميد، وظهرت مدخنة حجرية خلف القمة، يعلوها فُوَّهتان مثبتتان بشكل ينذر بالخطر.

بالطبع تعرَّفت على المنزل، لم تكن بحاجة إلى الاستفسار. قال بين: "اعتراني الفضول؛ فقممت ببعض البحث. استطاعت ابنتي التي تعيش في لندن الاتصال بشخصٍ ما في كورنوال، وأرسلت لي هذه الصورة عبر البريد الإلكتروني".

إذن هذا هو شكل سِرِّ نيل الكبير؛ المنزل الذي ابتاعته عبر نزوة، واحتفظت به لنفسها طيلة ذلك الوقت. والعجيب أنها شعرت بأن الصورة تؤثر عليها. كانت كساندرا قد تركت صكَّ الملكية على طاولة المطبخ طيلة نهاية الأسبوع، وكانت تنظر إليه كلَّ مرَّةٍ تَمَرُّ فيها بجواره، ولم تفكر في شيء آخر، لكن رؤية هذه الصورة جعل الأمر حقيقياً للمرَّة الأولى. وتوالت الحقائق إلى ذهنها بشكل حاد: نيل، التي ذهبت إلى قَبْرِها وهي لا تعلم حقيقة أصلها، ابتاعت منزلاً في إنجلترا، وتركته إلى كساندرا، مُعتقِدةً أنها تفهم لماذا فعلت ذلك.

"إن روبي بارعة في اكتشاف الأشياء؛ لذا أمرتها بجمع المعلومات عن المُلَّاك السابقين. ظننت أننا لو عرفنا مَنْ باع المنزل إلى جَدَّتِكَ سنفهم السبب". سحب بين مُفكِّرةً حلزونية صغيرة من جيبه، وعدل من وضع نظارته ليقراً الصفحة. "هل يُذكَرُ الاسمان ريتشارد وچوليا بينيت بشيء؟".

هزَّت كساندرا رأسها نافيةً، وكانت لا تنفك تنظر إلى الصورة.

"وفقًا لروبي ابتاعت نيل هذا المنزل من السيد والسيدة بينيت، والليذان ابتاعاه في عام 1971. كما اشترى منزل العزبة المجاور، وحوّلاه إلى فندق بلاكهرست". نظر إلى كساندرا بأمل.

مُجَدِّدًا هَزَّت رَأْسَهَا بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تَعْرِفُ شَيْئًا.

"مُتَأَكِّدَةٌ؟"

"لم أسمع به من قبل."

استرخت كتفاه، ثم أغلق المفكرة، وأسند ذراعه على أقرب خزانة كتب. "للأسف هذا كل ما استطعت الوصول إليه من معلومات". ثم حَكَّ لحيته وقال: "من الطبيعي أن تترك نيل لغزًا كهذا. مَنْ يصدق؟ منزل سري في إنجلترا؟"

ابتسمت كساندرا وقالت: "شكرًا على الصورة، واشكُرُ ابنتك نيابة عني".

"يمكنك أن تشكرها بنفسك حينما تكونين على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي". هزَّ كوبه الورقي، ثم حدَّق في فتحة الاحتساء لكي يتأكَّد من فراغه. "متى ستذهبين؟"

اتَّسَعَت عينا كساندرا وقالت: "أتقصد إلى إنجلترا؟".

"إن الصورة جيدة، لكنها ليست مثل مُعَايِنَةِ المكان على أرض الواقع، أليس كذلك؟".

"أظنُّ أنه يجدر بي الذهاب إلى إنجلترا؟".

"لِمَ لا؟ نحن في القرن الحادي والعشرين، يمكنك الذهاب إلى هناك والعودة في غضون أسبوع، حينها ستعرفين حقًا ما عليك فعله بهذا الكوخ".

برغم صك الملكية الذي ظلَّ مُنْبَسِطاً على طاولتها، استغرقت كساندرا في التفكير في كوخ نيل بشكل نظري، حتى أنها لم تفكر فيه بشكل عملي: ثمة كوخ في إنجلترا ينتظرها. جرّت قدميها على الأرضية الخشبية الباهتة، ثم حدّقت عبر أهدابها إلى بين. "هل تعتقد أنه يجدر بي بيعه؟".

"أظنُّ أنه يتوجَّب عليكِ رؤيته أولاً قبل اتخاذ هذا القرار الكبير". طوَّح بكوبه إلى سلة المهملات الممتلئة بجانب مكتب من خشب الأرز. "لن يضيرك أن تلقي نظرة عليه. لا بُدَّ وأنه يعني الكثير لنيل، لأنها احتفظت به طيلة هذا الوقت".

فكرت كساندرا في كلامه. الطيران إلى إنجلترا، بمفردها، فجأة. "لكن الجناح...".

"أف! سيعتني مُوظِّفو المركز بصفقات البيع، وسأكون هنا". أشار إلى الرفوف المثقلّة بالكتب. "لديكِ بضاعة تكفي لعشر سنوات قادمة". ثم رَقَّ صوته وهو يردف: "لماذا لا تسافرين يا كاس؟ لن يضير أن ترحلي قليلاً. روبي تعيش في شقَّة ضيقة في جنوب كنسينجتون⁽¹⁾، تعمل في متحف فيكتوريا وألبرت⁽²⁾. سترافقك وتعتني بك".

تعتني بها! دومًا كان الناس يَعْرضون الاعتناء بكساندرا. ذات مرة، منذ سنوات مضت، كانت بِالغَةَ، ولديها مسؤوليات، واعتنت بالآخرين.

"ما الذي ستخسرينه؟".

(1) منطقة حيوية وباذخة في غرب وسط لندن.

(2) أكبر وأهم المتاحف الرائدة في عالم الفن والتصميم. أسَّسته الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت في عام 1852.

لا شيء، ليس لديها شيء لتخسره، ولا أحد لتفقدده. فجأة شعرت بالإرهاق من الموضوع. فرسّمت ابتسامة إذعانٍ خفيفة، وأضافت "سأفكر في الموضوع".

"أحسنتِ" ربت على كتفها وشرع في الذهاب. "كدت أنسى، عرفت شيئاً آخر، ليس عن نيل ومنزلها، لكنها مُصادقةٌ غريبة على كل حال، باعتبار دراستك للفن، وكل تلك اللوحات التي اعتدت رسمها".

شعرت بالدهشة وهي تسمع بين يتحدث عن سنوات حياتها، وشغفها، بشكل عادي كأنه أمر من الماضي السحيق. نجحت في إبقاء ابتسامة خفيفة على شفتيها.

"منزل نيل يوجد ضمن تركة كانت تمتلكها عائلة مونتراشيه".

لم يعنِ الاسم شيئاً لكساندرا؛ فهزّت رأسها بمعنى أنها لا تفهم.

رفع حاجبه وقال لها: "الابنة، روز، تزوّجت من شخصٍ يدعى ناثانيال وواكر".

عقدت كساندرا حاجبيها وقالت: "الفنان... الأمريكي؟".

"أجل، كان يرسم لوحاتٍ زيتيةً في الأغلب، تعلمين هذه الأشياء، السيدة الفلانية وكلابها الستة المفضّلين. تقول ابنتي إنه رسم لوحة للملك إدوارد في عام 1910، قبل وفاته، والتي تعتبر في رأيي ذروة مجده، برغم أن روبي لا توافقني الرأي؛ إذ قالت إن لوحاته الزيتية لم تكن أفضل أعماله، بل يُغلّفها الجمود قليلاً".

"لقد مرّ وقتٌ منذ أن...".

"إنها تُفضّل رسوماته. هذه هي روبي، تحب أن تسبح عكس تيار الأفكار الشائعة".

"رسومات؟"

"رسومات توضيحية، مثل صور المجلات، بالأبيض والأسود".

جذبت كساندرا نَفَسًا حادًّا وهي تقول: "مثل رسومات قصة (المتاهة والثعلب)".

رفع كتفيه وهزَّ رأسه.

"لقد كانت رسومات رَائِعَةً ومُدْهِشَةً ومُفْصَلَةٌ يا بين!". لقد مرَّ وقت طويل منذ أن فَكَّرْتَ في تاريخ الفن، أدهشها حماسها واندفاعها.

"لقد درست ناثانيال وواكر بإيجاز في مُقَرَّرٍ دراسيٍّ عن أوبري بيردزلي⁽¹⁾ ومُعاصريه. أظنُّ أنه كان فَنَانًا مُثِيرًا لِلجَدَل، لكنني لا أتذكَّر السبب".

"هذا ما تقوله روبي. سوف تنسجمان سويًّا. حينما ذَكَرته كانت مُتَحَمِّسَةً للغاية، وقالت إن ثَمَّة القليل من رسوماته التوضيحية في المعرض الجديد في متحف فيكتوريا وألبرت، والواضح أنها رسومات نادرة".

قالت كساندرا، وهي تتذكَّر الآن: "لم يرسم الكثير. أحسب أنه كان أكثر انشغالًا بلوحاته الزيتية، الرسومات التوضيحية كانت مُجرَّد هواية. على كل حال، لاقت رسوماته ثناء النقاد. أعتقد أننا نمتلك واحدة هنا، في أحد كُتُب نيل". قالتها ثم صَعَدَتْ على صندوق حليبي مقلوب، ومَرَّت بسبَّابتها على قِمَّة الرف، وتوقَّفت حينما وصلت إلى ظهر كتابٍ لونه فُرْمُزِيٌّ عليه كتابة ذهبية باهتة.

فتحته، وكانت لا تزال واقِفَةً على الصندوق، وتصفَّحت بحرص لوحة الألوان في المُقدِّمة. "ها هي"، ودون أن تبعد عينيها عن الصفحة، نزلت وهي تقول: "أنين الثعلب".

(1) رسام إنجليزي، كان أحد أبرز رواد الحركة الجمالية بجانب الكاتب أوسكار وايلد والرسام جيمس ويسلر.

وقف بين بجوارها، وعدل من وضع نظارته بعيداً عن الضوء.
"مُعقّدة، أليس كذلك؟ لا تروقني، لكن هذا فن بالنسبة لك. بإمكانني
أن أرى سبب إعجابك به".

"إنه جميل، وحزين بعض الشيء".

انحنى بين أكثر على الكتاب وهو يقول: "حزين؟".

"مليء بالأسى، بالاشتياق. ليس بوسعي أن أشرح أفضل من ذلك،
ثمّة شيء في وجه الثعلب، كأنه غياب". هزّت رأسها. "إنني عاجزة عن
الشرح".

ضغط بين على ذراعها، ومتم بشيء حول إحضار شطيرة لها في
وقت الغداء، ثم رحل، وهو يجرّ قدميه نحو جناحه، على وجه الدقّة
نحو العميل في جناحه الذي كان يعبث بقطّع تُرياً وترفوردي.

ظلت كساندرا تتأمّل الصورة، مُتسائلةً لماذا شعرت بهذا اليقين
حيال حزن الثعلب. بالطبع هنا تكمن براعة الفنان وإبداعه عبر
وضع الخطوط السوداء الرفيعة بدقّة لاستدعاء هذه المشاعر المُعقّدة
بوضوح...

زمت شفيتها. يُذكّرُها هذا الرسم باليوم الذي وجدت فيه كتاب
الحكايات الخيالية، حينما كانت تشغل وقتها أسفل منزل نيل، وأمها
بالأعلى تتهيأ لهجرها. حينما أمعنت كساندرا في الماضي، أدركت أن
شغفها بالفن يعود جذوره إلى ذلك الكتاب. لقد فتحت الغلاف
الأمامي وغاصت في الرسوم الرائعة المخيفة السحرية. وتعبّبت من
شعور الهروب من حدود الكلمات الصارمة والتحدّث عوضاً عن ذلك
بهذه اللغة المتدفّقة.

ولبعض الوقت، وهي تكبر، عرفت سحر الإمساك بالقلم، والإحساس
السعيد أن الزمن يفقد معناه وهي تتأمّل لوح الرسم. لقد قادها

شغفها بالفن إلى الدراسة في ملبورن، وإلى الزواج من نيكولاس، وإلى كل شيء آخر بعد ذلك. من الغريب أن حياتها ربما كانت لتتغير تمامًا إن لم تَرَ حقيبة السفر البيضاء، وإن لم تستشعر الدافع الفضولي لفتحها وإلقاء نظرة على الداخل.

شَهَقَتْ كساندرا. لماذا لم تفكر في الأمر من قبل؟ فجأة عرفت تمامًا ما الذي ستفعله، وأين ستبحث. المكان الوحيد الذي ربما يميّط اللثام عن المفاتيح الضرورية لأصول نيل الغامضة.

لقد طرأ على بال كساندرا أن نيل ربما تخلّصت من الحقيبة، لكنها استبعدت الفكرة لوجود سبب وحيد على الأقل؛ وهو أن جدّتها كانت تاجرّة تُحَفِّ، وجامعّة لها، وليس من طبيعتها تدمير شيء قديم ونادر أو التخلّص منه. والأهم من هذا كله، لو كان كلام الخالات صحيحًا، لم تكن الحقيبة مُجرّد تحفة قديمة، بل مرساة. كانت تُمثّل كلّ ما يربط نيل بماضيها. إن كساندرا تفهم أهمية المرساة، وتعلم جيّدًا ما يحدث للمرء حينما ينقطع الجبل الذي يربطه بحياته. لقد فقدت مراساتها مرّتين. المرة الأولى حينما كانت في العاشرة من العمر حينما هجرتها ليزلي، والمرة الثانية وهي شابة (هل حدث هذا حقًا منذ عشر سنوات؟) حينما اختفت مُجددًا الحياة التي تعرفها في ملح البصر.

فيما بعد، حينما استرجعت الأحداث، علمت كساندرا أن حقيبة السفر هي التي عثرت عليها، مثلما فعلت المرة الأولى.

بعد ليلة قضتها في تمشيط غرف الضيوف الاحتياطية في منزل نيل، وإحساسها بالتشوّت، برغم نواياها الطيبة، بذكري أو أخرى، شعرت بالإعياء الشديد؛ عظامها مُنهكّة، وعقلها مكدود. عطلة نهاية الأسبوع

أجهدتها كثيراً. وبسرعة وبعمق أثقلها إرهاب القصص الخيالية؛ الرغبة السحرية للاستسلام إلى النوم.

عوضاً عن الذهاب إلى غرفتها بالطابق السفلي، تكوَّمت، دون خلع ملابسها، تحت غطاء فراش نيل، وغاص رأسها في الوسادة الملساء. كانت رائحتها مألوفةً بشكل مدهش؛ مزيج من بودرة الخُزامى، وطلاء الفضة، ومسحوق غسيل بالموليف. شعرت كأنها تضع رأسها على صدر نيل. نامت بعمق وبدون أحلام. وحينما استيقظت في صباح اليوم التالي، أحسَّت أنها نامت أكثر من ليلة واحدة.

تسلَّل شعاع الشمس إلى الغرفة، عبر فجوة بين الستائر، كضوء منارة. راقبت كساندرا، وهي مستلقية على الفراش، ذرَّات الغبار الطافية. كان يمكن أن تمُدَّ يدها نحو الغبار ليحطَّ على بنانها، لكنها لم تفعل. عوضاً عن ذلك، تَبَعَتْ نظرتها الشعاع، وأدارت رأسها نحو البقعة التي يشير إليها. كانت بقعة في أعلى خزانة الملابس، التي انفتحت أبوابها بالليل، كاشِفةً، على الرِّفِّ العلوي، أسفل مجموعة من الحقائب البلاستيكية المليئة بملابس مُعدَّة لمؤسَّسة القديس فينيس الخيرية، عن حقيبةٍ سَفَرٍ بيضاء قديمة.

(11)

المُحيطُ الهِنديُّ، تسعمائة ميل بعد رأس الرجاء الصالح، 1913

استغرق السفر إلى أمريكا وقتًا طويلًا. أخبرها أبوها في الحكايات التي يقصُّها أنها كانت أبعدَ من الجزيرة العربية؛ لذا كانت الفتاة الصغيرة تعلم أن الوصول إلى هناك يستغرق مائة يوم وليلة. توقَّفت عن إحصاء الأيام، لكنها تعرف أن وقتًا طويلًا قد انقضى بعدما صعدت سطح السفينة؛ حتى أنها شعرت أنها لن تتوقَّف قطُّ. كانت تلك الحالة تُسمَّى التَّكيُّف بعد البقاء مدة طويلة في عرض البحر. وكانت تعرف عنها كل شيء من حكايات مويي ديك.

شعرت بالحزن وهي تُفكِّر في مويي ديك؛ فالرواية تُذكِّرها بأبيها وحكاياته عن الحوت الضخم، والصور التي تركها تلقي نظرةً عليها في المرسم، صور رسمها عن محيطات مُظلمة وسفن عملاقة. كانت

الطفلة تعرف أنها تُسمَّى رسومًا توضيحية، كانت تستمتع بالكلمة الطويلة وهي تتردّد في ذهنها، ويومًا ما ربما توضع في كتاب حقيقيّ يقرؤه الأطفال الآخرون. لأن تلك هي صنعة أبيها؛ كان يضع الصور في كتب الحكايات، أو كما فعل في إحدى المرات. كان يرسم صورًا للناس أيضًا، لكن الطفلة لم تحب العيون التي تتبع المرء أينما يذهب في الغرفة.

أخذت شفتها السفلى ترتجف بالطريقة التي تفعلها أحيانًا حينما تفكر في بابا وماما، وعضّت عليها. في البداية أخذت تبكي بكاءً شديدًا. لم تستطع منع نفسها، لقد افتقدت والديها. لكنها لم تبك كثيرًا بعد ذلك، ولم تبك مطلقًا أمام الأطفال الآخرين؛ ربما اعتقدوا أنها صغيرة لا تصلح للعب معهم، حينها أين ستذهب؟ بالإضافة إلى أن ماما وبابا سيلحقان بها قريبًا. تعلم أنهما سيكونان بانتظارها حينما تصل السفينة إلى أمريكا. هل ستكون المؤلفّة هناك أيضًا؟

قطّبت الطفلة مُفكِّرةً. طيلة الوقت الذي حاولت فيه التكيّف وحفظ توازنها على سطح السفينة وعدم التعرّض لدوار البحر لم ترجع لها المؤلفّة. وقد أثار هذا دهشتها؛ إذ أن المؤلفّة وجّهت لها بعض التعليمات الصارمة بخصوص البقاء سويًا دائمًا، وتجنّب الانفصال مهما كان الأمر. ربما كانت مختبئة. ربما كان كل شيء جزءًا من لعبة ما.

لم تكن الطفلة واثقة. شعرت بالامتنان لأنها قابلت ويل وسالي على سطح السفينة في صباح اليوم الأول، وإلا لم تكن تعرف أين ستنام، وكيف ستحصل على الطعام. ويل وسالي وأشقاؤهما وشقيقاتهما، كانت أعدادهم كثيرة، حتى إنها عجزت عن إحصائهم، يعرفون جميعًا كيفية العثور على الطعام. أخذوها إلى كل الأماكن على السفينة التي ربما يوجد فيها أطباق إضافية من اللحم البقري المملّح. (لم تُحبّ المذاق كثيرًا، لكن الولد الصغير سخر منها، وأخبرها أنها ربما لم تُكنّ

مُعتادَةً عليه، لكنه كافي لحياة الكلاب). في الغالب، كانوا يعطفون عليها. المرة الوحيدة التي غضبوا منها حينما رفضت إخبارهم اسمها. لكن الفتاة الصغيرة تعرف كيف تلعب الألعاب، وكيف تمثّل للأوامر، والمؤلّفة أخبرتها أن تلك هي أهم قاعدة.

امتلكت عائلة ويل مجموعةً من أسيرة ذات طوابق في الأسطح السفلية من السفينة، مع الكثير من الرجال والنساء والأطفال الآخرين، لم ترَ الطفلة من قبل حشدًا من الناس يجتمعون في مكان واحد. وكانت لعائلة ويل كذلك أمٌ تسافر معهم، وكان يطلقون عليها "ماما". لم تكن تشبه والدتها في شيء، فلم يكن لديها وجه ماما المليح أو شعرها الأسود الجميل، الذي مُشّطه بوبي كل صباح. بل كانت هذه الأم تشبه النسوة اللاتي كانت تراهنّ أحيانًا حينما تمُرُّ العربية عبر القرية، ترتدي جونلة رثّةً، وحذاءً يحتاج الرتق، ويدها مُشققتان مثل قفّاز ديفيس القديم الذي يرتديه في الحديقة.

حينما أخذ ويل الفتاة إلى الأسفل، كانت الأم تجلس على سرير سُفليّ، تُرضعُ طفلًا، بينما رقد آخر يبكي بجوارها.

"مَن هذه؟" قالت.

"لَمْ تَبْحِ باسمها. قالت إنها تنتظر شخصًا ما، وأنها يجب أن تختبئ".

"تختبئ!" ثم أشارت إلى الطفلة بالاقتراب وهي تقول: "مَمَّ تختبئين أيّتها الطفلة؟".

لكن الفتاة الصغيرة لم تنبس بكلمة، بل هزّت رأسها.

"أين عائلتها؟".

"أظنُّ أنها لا تملك عائلة، على حدِّ علمي. كانت مختبئةً حينما عثرت عليها" قال ويل.

"هل هذا صحيح أيتها الطفلة؟ هل أنتِ وحدك؟".

فكَّرت الفتاة الصغيرة في السؤال، ورأت أنه من الأفضل أن تردَّ بالإيجابِ عَوْضًا عن التحدُّث عن المؤلِّفة؛ فأومأت.

"فتاة صغيرة مثلك، وحيدة تمامًا في عرض البحر" هزَّت السيدة رأسها ودفعت بخشونةِ الطفل الباكي. "هل هذه حقيبتك؟ أحضرها إلى هنا إذن، ودعي ماما تلقي نظرةً صغيرةً عليها".

راقبت الطفلةُ السيِّدةَ وهي تحلُّ الأقفال وترفع قِمةَ الحقيبة. أزاحت جانبًا كتاب الحكايات الخيالية، والفتان الجديد الثاني، لتكشف عن مظروفٍ أسفله. تسلَّل أصبعها تحت الختم وفتحته. وانتزعت من الداخل كومة صغيرة من الأوراق.

اتَّسَعَت عينا ويل. "نقود" رمق الفتاة الصغيرة. "ماذا سنفعل بها يا أمي؟ هل نخبر الحَمَّال؟".

حشت السيدة النقود داخل المظروف، وثنته إلى ثلاث طَيَّاتٍ ودسَّته في مُقدِّمة رداؤها. ثم قالت أخيرًا: "لن نُخْبِرَ أحدًا على متن السفينة إلَّا حين أُقرَّر أنا. ستبقى معنا حتى نصل إلى البر الآخر، ونعرف حينها مَنْ ينتظرونها. وسيشكروننا على اعتنائنا بها". ثم ابتسمت، كاشِفةً عن فجواتٍ سوداءٍ بين أسنانها.

لم يَكُنْ للطفلةِ علاقةٌ بالأم؛ لذا كانت سعيدة. كانت السيدة مُنهمكةً مع الرضيعين، وكان أحدهما مُلتصِقًا دائميًا بصدرها. كانا يرضعان، أو كما أخبرها ويل، برغم أن الفتاة الصغيرة لم تسمع عن هذا الشيء قط، ليس في الناس على كل حال، فقد رأت الحيوانات الصغيرة وهي ترضع في مزارع القصر. وكان هذان الرضيعان مثل خنزيرين صغيرين، لا يفعلان شيئًا سوى الصراخ والشرب والتسمين. وبينما انهمكت الأم مع الرضيعين، اعتنى الآخرون بأنفسهم. أخبرها ويل أنهم اعتادوا على ذلك؛ لأنهم كانوا يفعلون ذلك في البيت. لقد جاؤوا من مكانٍ

يُسَمَّى بولتون⁽¹⁾، وحينما لم يكن هناك رُضْعُ يحتاجون الرعاية كانت أهمهم تعمل في مصنع القطن طيلة اليوم. وهذا هو سبب سعالها المستمر. فهَمَّت الفتاة الصغيرة؛ كانت أمها أيضًا عليله، بالرغم من أنها لم تكن تَسَعَلُ بنفس طريقة هذه السيدة.

في الأمسيات ثَمَّة مكان كانت تجلس فيه الطفلة مع الآخرين، يستمعون إلى الموسيقى التي تنساب من سطح السفينة، ووقع الأقدام على الأرضيات اللامعة. وكان هذا هو ما يفعلونه الآن، يجلسون في زاوية مُعْتَمَةٍ يصغون. في البداية، رغبت الفتاة الصغيرة في الذهاب والمشاهدة، لكن الأطفال الآخرين سخروا منها قائلين إن الأسطح العليا ليست لأمثالهم، وأن هذه البقعة أسفل سُلَّم الطاقم كانت أقرب مكانٍ لطابق الأغنياء.

صمتت الفتاة الصغيرة، لم تُصَادِفَ قَطُّ قواعدَ شبيهةً. في منزلها كان يُسمح لها الذهاب أينما شاءت، باستثناء واحد. المكان الوحيد الذي كانت ممنوعةً من الذهاب إليه كان المتاهة المؤدية إلى كوخ المؤلفة. لكن هذا لم يكن نفس الشيء، ووجدت أنه من الصعب فهم قصد الصبي. أمثالهم؟ هل يقصد الأطفال؟ ربما لم يكن مسموحًا بتواجد الأطفال في السطح العلوي.

لم ترغب في الصعود الليلة. شعرت بالتعب، والذي لازمها لعدة أيام، وجعل قدميها ثقيلتين كحطب الغابة، ودرجات السلم تبدو مرتفعة. شعرت بالدوار أيضًا وبسخونة أنفاسها وهي تمرُّ من بين شفتيها.

"هيا" قالها ويل، صَجِرًا من الموسيقى. "لنبحث عن اليابسة" نهضوا متدافعين، ووقفت الطفلة أيضًا، وحاوَلت حِفْظَ توازنها. كان ويل وسالي والآخرين يتحدثون ويقهقهون، وانسابت أصواتهم إليها

(1) بلدة كبيرة تقع في مقاطعة مانشستر، وكانت تعتبر مركزًا رئيسيًا لصناعة المنسوجات.

كالموجات. حاولت فهم ما يقولونه، وشعرت بانتفاضة في رجليها، وطنين في أذنيها. فجأة وجدت وجه ويل قريباً منها يسألها بصوت عالٍ: "ما الأمر؟ هل أنت بخير؟".

فتحت فمها لتجيبه، لكن تهاوت ركبتيها وسقطت. وكان آخر ما وقعت عليه عيناها، قبل أن يرتطم رأسها بالدرجة الخشبية: القمر الساطع المكتمل، يتلأأ فوقها في السماء.

فتحت الطفلة عينيها، ورأت بالقرب منها رجلاً صارماً بوجنتين مليئتين بالنتوءات وعينين رماديتين. ظلت ملامح وجهه ثابتة وهو يقترب منها، وانتزع أداة صغيرة مسطحة تشبه المجداف من جيب قميصه وهو يقول: "افتحي".

وقبل أن تعلم ما يحدث، كان المجداف الصغير على لسانها وكان الرجل يتفحص فمها.

قال: "حسنًا، بخير". سحب الآلة وعدل صداره ثم قال: "تنفسي".

فعلت كما قال، وأوماً. "إنها بخير" قالها مُجدِّدًا. أشار إلى شابٍ شعره بلون القش، والذي تعرّفت عليه الطفلة حينما استيقظت مُبكرًا. "إنها حيّة. بحقّ الربّ... أخرجوها من العيادة قبل أن تسوء حالتها".

قال الرجل الآخر وهو يزفر: "لكنها خبّطت رأسها حينما غابت عن الوعي يا سيدي. بالتأكيد يجب أن ترتاح قليلًا...".

"لا تمتلك أسرةً كافية للراحة، يمكنها أن تستريح حينما تعود إلى مقصورتها".

مكتبة

t.me/t_pdf

"لا أعرف أين مكانها...".

أدار الطبيب عينيه مُتبرِّمًا وهو يقول: "إذن سَلِّها يا رجل".

قال الشاب بصوت خفيض: "إنها الطفلة التي حدَّثتُكَ عنها يا سيدي. يبدو أنها فقدت ذاكرتها. لا بُدَّ وأن ذلك حدث حينما سقطت".

حدَّق الطبيب في الطفلة وسألها: "ما اسمك؟".

فكَّرت الفتاة الصغيرة في السؤال. سمعت كلماته، وفهمت ما يطلبه منها، لكنها عجزت عن الإجابة.

"ما هو؟" قال الرجل.

هزَّت الطفلة رأسها وقالت: "لا أعرف".

تنهَّد الطبيب وقال بسخط: "لا أملك الوقت أو المكان لها. لقد شُفِيت من الحُمى. ومن رائحتها تبدو أنها قادمة من المكان المُخصَّص للمسافرين الفقراء".

"أجل سيدي".

"إذن؟ لا بُدَّ وأن هناك شخصًا سيبحث عنها".

"نعم يا سيدي، ثَمَّة صَبِيٌّ بالخارج، والذي أحضرها في ذلك اليوم. جاء ليطمئنَّ عليها الآن، أظن أنه شقيقها".

نظر الطبيب إلى الشاب وسأله: "أين والداها؟".

"يقول الصبي إن أباه في استراليا يا سيدي".

"والأم؟".

تنحج الرجل الآخر ومال على الطبيب وقال: "تُوفِّيت منذ ثلاثة أيام".

"حُمى؟".

"أجل".

عقد الطبيب حاجبيه وأطلق تنهيدةً قصيرةً وهو يقول: "حسنًا،
أدخله".

دفع أمامه صبيًا نحيفًا كفروع شجرة، له عينان سوداوان بلون
الفحم. "هل هذه الطفلة تخصُّك؟" سأله الطبيب.

"أجل يا سيدي" قال الصبي: "أعني، إنها...".

"كفى، لا أريد سماع قصص درامية. لقد زالت عنها الحمى،
وشفيت الخبطة التي في رأسها. لن تتكلم كثيرًا الآن لكنها ستتحسَّن
قريبًا. ربما كان ذلك لجذب الانتباه نظرًا لما حدث لأمك. وهو ما
يحدث أحيانًا، ولا سيَّما مع الأطفال".

"لكن يا سيدي...".

"قلتُ كفى. خُذها بعيدًا". ثم التفت إلى أحد رجال طاقم السفينة
وهو يقول: "أعطِ الفراش لشخصٍ آخر".

كانت الفتاة الصغيرة تجلس بجانب سور السفينة تُراقب المياه.
قَمَمٌ مُدْبِيَةٌ بيضاء من الأزرق تتموَّج أسفل لمسات الريح. كان البحر
متلاطمَ الأمواج عن المعتاد، واستسلم جسدها للحركة الدائرية.
شعرت بالوحشة، لم تشعر بالمرض، بل شعرت بالغرابة. كأنَّ غشاوةً
بيضاء صافية استقرَّت في رأسها وملأته، رافضة الابتعاد.

راودها هذا الشُّعور منذ استيقاظها في العيادة، منذ أن فحصها
الرجال الغُرباء ثم أرسلوها مع الصَّبيِّ، والذي أخذها إلى الأسفل نحو
بقعةٍ مُظلمةٍ مليئةٍ بالأسرة والحشايا وحشدٍ من الناس أكبر ممَّا رآته
من قبل.

سَمِعَتْ صوتاً عند كتفها. كان الصبي. "لا تَنْسَيِ حَقِيبَتِكَ".

"حقيبتى؟" حدّقت الطفلة في حقيبة السفر الجلدية البيضاء التي قدّمها لها الصبي.

قال الصبي وهو ينظر نحوها باستغراب. "ماذا! لقد جُنبتِ حقّاً! خلّتكِ تتظاهرين بسبب ذلك الطبيب. لا تقولي إنك لا تتذكري حقيبتك! كنتِ تحرسينها بحياتكِ طيلة الرحلة، وكِدتِ مُمزّقيننا إن تجاسر أحدنا ونظر داخلها. لم تريدي أن تغضب مؤلّفَتكِ العزيزة". تردّدت الكلمة الغريبة بينهما، وشعرت الطفلة بوخزٍ غريب أسفل جلدها. ثم قالت: "المؤلّفة؟".

لكنّ الصَّبِيَّ لم يُجِب، بل صاح "يابسة!"، ثم جرى وهو يميل على السور الذي يُطوّق السطح "هناك يابسة! هل ترينها؟".

ذهبت الطفلة لتقف بجواره، ويدها تتشبّث بمقبض الحقيبة البيضاء الصغيرة. رمقت بحذرٍ أنفه الذي يُغطّيه النَّمَش، ثم التفتت لتنظر في اتجاه أصبعه الممدود. من بعيد رأت خطأً طويلاً من الأشجار ذات لونٍ أخضرٍ باهتٍ.

"هذه استراليا" قال الصَّبِيُّ، وعيناه تجوبان الساحل البعيد. "أبي في انتظارنا هناك".

استراليا! فكّرت الفتاة الصغيرة. كلمة أخرى لا تعرفها.

"سنحظى بحياة جديدة هناك، ومنزلٍ خاصٍّ، وربما قطعة أرض. هذا ما يقوله أبي في خطاباتهِ. يقول إننا سنفلح الأرض، وبنني حياةً جديدةً لأنفسنا. سنفعل ذلك حتى إن لم تكن ماما معنا"، قال العبارة الأخيرة بصوتٍ خافت. ثم صمت لبرهة قبل أن يلتفت إلى الفتاة الصغيرة، ويشير برأسه نحو الشاطئ قائلاً: "هل هنا يعيش أبوك؟".

فكّرت الفتاة الصغيرة في سؤاله: "أبي؟".

أدار الصبي عينيه تَبْرُمًا وهو يقول "والِدُكَ، الرجل الذي ينتمي إلى والدتك".

رَدَدَت الفتاة الصغيرة "أبي"، لكن الصبي لم يكن يسمعها، فقد رأى إحدى شقيقاته وجرى نحوها وهو يصيح عن اليايسة التي رآها. وأمأت الفتاة الصغيرة حينما رحل، بالرغم من أنها لم تكن تعرف ماذا يقصد. قالت بِشْكُ: "أبي. هذا هو المكان الذي يوجد فيه أبي".

انتشرت صيحة "يايسة" على سطح السفينة، وبينما انشغل الناس حولها، أخذت الطفلة الحقيبة البيضاء إلى بقعة بجانب كومة من البراميل، ركن منعزل انجذبت إليه لسبب مجهول. جلست وفتحت الحقيبة على أَمَلٍ أن تجد بها بعض الطعام. لكن لم تجد شيئًا؛ لذا استقرت على كتاب الحكايات الخيالية الموضوع على مقدّمة المحتويات الأخرى. وبينما أخذت السفينة تقترب من الشاطئ، ولاحت من بعيد نقاطٌ صغيرة تَبَيَّن أنها نوارس، فتحت الكتاب على حِجْرِها، وحدّقت في صورة جميلة مرسومة بالأبيض والأسود لسيدةٍ وغزال، جنبًا إلى جنب في غابة شائكة. ورغم أنها لا تستطيع قراءة الكلمات، أدركت الطفلة بشكل ما أنها تعرف حكاية هذه الصورة، عن أميرة صغيرة اجتازت البحر للبحث على شيء عزيز مُخَبِّأ يَخْصُ شخصًا تحبُّه جدًا.

(12)

فوق المحيط الهندي، 2005

مالت كساندرا على الجدار اللّدين الخشن البارد في مقصورة الطائرة، ونظرت عبر النافذة إلى المحيط الأزرق الشاسع المُمتدّ أمامها حدّ البصر. إنه المحيط ذاته الذي اجتازته الصغيرة نيل منذ أمّدي بعيد. كانت تلك المرة الأولى التي تسافر فيها كساندرا إلى ما وراء البحار. وبرغم أنها ذهبت إلى نيوزلندا ذات مرة، وزارت عائلة نيك في تاسمانيا⁽¹⁾ قبل زواجهما، لم تسافر أبعد من تلك المسافة قطّ. لقد تحدّثت هي ونيك عن الانطلاق إلى المملكة المتحدة لسنوات قليلة، ووضّعا خطة بموجبها سيكتب نيك الموسيقى للتلفزيون البريطاني، وتعمل هي في مجال تاريخ الفن. لكن الخطة لم تدخل حيّز التنفيذ، ودفنت الحلم منذ زمن بعيد، أسفل ركام الأحلام الأخرى.

(1) أكبر جزيرة في استراليا.

وها هي الآن تسافر على متن طائرة بمفردها إلى أوروبا. بعدما تحدّثت مع بين في معرض التحف، وبعدها أعطها صورة المنزل، وبعدها وجدت حقيبة السفر، تَبَيَّن أن ذهنها يتسَّعُ لقليل من الأشياء الأخرى. بدا أن اللغز يلاحقها، ولا تستطيع الفكك منه، مهما حاولت. والحق أنها لم تَرُدُّ، بل أعجبها الانهماكُ المُستمرُّ. لقد أحبَّت البحث عن نيل الأخرى، الطفلة التي لم تعرفها.

في الواقع، لم تعتزم السفر مباشرة إلى إنجلترا بعدما عثرت على حقيبة السفر. بل فضَّلت الانتظار، واختبار شعورها لمدة شهر، وربما تُخطِّط للقيام برحلة لاحقًا. لا تستطيع الانطلاق إلى كورنوال لمجرد نزوة. لكن حينها راوَدَها ذاك الحلم، نفس الحلم الذي يزورها طيلة عشر سنوات. كانت تقف في منتصف حقلٍ لا ترى شيئاً على مرمى البصر. لم يكن بالحلم أثرٌ ضَّغينة، بل شعور بالأبدية. هناك نباتات عادية لا تثير المُخيِّلة، وأعشاب قَصِيَّة باهتة طويلة تلامس أطراف أصابعها، ونسيم خفيف مستمرُّ يُحدِثُ حفيفًا فيها.

في البداية، منذ سنوات مضت حينما كان الحلم طازجًا، عرفت أنها تبحث عن شخص ما، وأنها لو سارت في الاتجاه الصحيح ستجده. لكنها فشلت برغم تواتره. أحد التلال المتموجة يُستبدل بآخر، تنظر بعيدًا في اللحظة غير المناسبة، ثم تستيقظ فجأة. بمرور الوقت، تغير الحلم ببطء شديد وبشكل غير محسوس حتى أنها لم تلاحظ ذلك. لم يتغيَّر المكان، بل ظل كما هو. لكن شعور الحلم، اليقين أنها ستعثر على ما ظنَّته يَنسَلُ من بين يديها، حتى عرفت في إحدى الليالي أنه لم يكن هناك شيء، لا ينتظرها أحد، وأنها مهما سارت وتوغَّلت، ومهما بحثت بدأب، ومهما اشتدَّت رغبتها في العثور على الشخص الذي كانت تبحث عنه، تظل وحيدة...

في صباح اليوم التالي، استمر الشعور الموحش المصاحب للحلم، لكن كساندرا اعتادت على آثاره الثقيلة، ومضت في حياتها كالعادة. ومرّ اليوم برتابته المعهودة، إلى أن ذهبت إلى مركز التسوق القريب لشراء الخبز للغداء، لكنها توقّفت عند شركة السفريات. من المثير للسخرية أنها لم تلاحظ وجودها من قبل، ودون أن تعرف السبب وجدت نفسها تفتح الباب، وتقف على حَصِيرَةٍ وَبَرِيَّة، وصف من الموظفين بانتظارها لتتكلّم.

تذكّرت كساندرا لاحقًا شعورها بالدهشة الباهتة في تلك اللحظة. لقد بدت أنها شخص من لحم ودم في النهاية، كائنٌ حقيقيٌّ، يتحرّك حولها بشرّ آخرون، بغضّ النظر عن شعورها في أحيان كثيرة أنها تعيش شبه حياة في العتمة.

فيما بعد، وقفت لهنيهةً في البيت تستعيد أحداث الصباح، محاولةً عزّل اللحظة التي اتّخذت فيها القرار. كيف ذهبت إلى المحلّات لشراء الخبز وعادت بتذكرة طيران. ثم ذهبت إلى غرفة نيل، وسحبت حقيبة السفر من مخبئها، وأخذت كل شيء موجودًا فيها: كتاب الحكايات الخيالية، الرسم التوضيحي المكتوب على ظهره اسم إيليزا ماكبيس، والمفكّرة التي ملأ صفحاتها خطّ نيل المتشابك.

أعدت قهوة بالحليب وجلست على فراش نيل، محاولةً فكّ رموز خطّها غير المقروء، وتحويله إلى كلمات مفهومة في ورقة. كانت كساندرا بارعةً في فكّ شفرات الملاحظات القديمة المكتوبة بخطّ اليد، وكانت تلك براعة أخرى بجانب كونها تاجرة تحفّ، لكن الكتابة قديمة الطراز كانت تتبع مَطًّا مُعَيَّنًا، بينما خطّ نيل فوضويٌّ، بشكل مُتعمّد. وما يزيد الأمر سوءًا أن المفكّرة أفسدتها المياه في وقتٍ ما، فالتصقت الصفحات معًا وتجمّعت أطرافها، وإن عجّلت بفكّها ستخاطر بتمزيق الصفحات وضياع المكتوب فيها إلى الأبد.

كانت عمليَّةً بطيئةً، لكن كساندرا أدركت أن نيل كانت تحاول إماطة اللثام عن غموض هويَّتها.

أغسطس، 1975. اليوم جلبوا لي حقيبة سَفَرٍ بيضاء. وبمجرد أن وقَّعت عيناها عليها عرفتُ ما هي. تظاهرت بعدم الاكتراث. لا يعرف دوج وفيليس الحقيقة، ولم أرغب في أن يروا ارتبائي. أردتُ أن يظنَّ أنها مجردُ حقيبة سَفَرٍ قديمة أراد أبي أن يأخذها. وبعدها رحلاً، جلست أنظر إليها لبعض الوقت، محاولَةً التذكُّر، مَن أنا، ومِن أين أتيت. بالطبع كان الأمر بلا جدوى؛ لذا في النهاية قُمتُ بفتحها.

كانت ثَمَّة خطاب من أبي، اعتذار، وأسفله أشياء أخرى. فستان طفلة -أعتقد أنه يخصُّني- وفرشاة شعر فضية، وكتاب حكايات خيالية. تعرَّفتُ عليه فوراً، وقلبت الغلاف ورأيتها، المؤلِّفة. جاءت الكلمة كاملة التشكيل. أنا واثقة أنها المفتاح لماضي. لو عثرت عليها، سأجد أخيراً نفسي. وهذا هو ما أنتوي فعله. في هذه المفكِّرة سأدوِّن مسار رحلتي، والتي سأعرف في نهايتها اسمي ولماذا فقدته.

قلبت كساندرا بلهفةٍ وحرص الصَّفحاتِ المُتَشابِكة. هل قامت نيل بفعل ما اعتزمت عليه؟ ووجدت مَن تكون حَقًّا؟ أكان ذلك السبب الذي دفعها لشراء المنزل؟ المدخل الأخير كُتِبَ بتاريخ نوفمبر 1975 وكانت نيل وصلت لِتَوْها إلى بريزبن:

سأعود بمجرد ترتيب الأمور هنا. سأحزن لأني سأترك منزلي في بريزبن، ومعرضي، ولكن ما قيمة ذلك مقارنةً بعثوري أخيراً على هويَّتي الحقيقية؟ ولقد اقتربت للغاية. أعرف ذلك. والآن بعد أن صار الكُوخُ ملكي، أعلم أن الإجابات النهائية قادمة. إنه ماضي، وذاتي، ولقد اقتربت من العثور عليه.

كانت نيل تُخطِّط لمغادرة استراليا لسببٍ مُهمِّ. فلماذا لم تفعل؟ ماذا حدث؟ لماذا لم تكتب يومياتٍ أخرى؟ نظرت كساندرا مُجدِّداً إلى

التاريخ، نوفمبر 1975، وشعرت بوخز في جلدها. كان هذا التاريخ قبل شهرين من قدومها لتمكُّث معها. لقد وعدتْها ليزلي بأنها لن تتغيَّب سوى أسبوع أو أكثر، والذي امتدَّ إلى أَجَلٍ غير مُسمَّى، إلى أن صار إلى الأبد.

وضعت كساندرا المُفكِّرة جانِبًا وهي تستوعب أخيراً. لقد اضطلعت نيل بأعباء الأُمومة دون إبطاء، لقد منحت كساندرا بيتًا وعائلة، وصارت لها أُمًا، ولم تَدَعِ كساندرا -ولو للحظةٍ واحدة- تعرف شيئًا عن خُطِطِها التي بوصولها -هي: كساندرا- لم تتحقَّق.

أشاحت بعينها عن نافذة الطائرة، وسحبت كتاب الحكايات الخيالية من الحقيبة المحمولة، ووضعتَه على حجرها. كانت تجهل السبب الذي دفعها لإحضار الكتاب معها، وظنَّت أن مرجع ذلك الرابطة بينه وبين نيل؛ فقد كان هذا الكتاب موجودًا في حقيبة السفر البيضاء، إنه همزة الوصل بين نيل وبين ماضيها، وأحد الممتلكات القليلة التي رافقتْها في رحلتها إلى استراليا. بالإضافة إلى أنه ثَمَّة شيء حول الكتاب نفسه. إن له تأثيرًا غير عادي علي كساندرا، وهو ذات التأثير حينما كانت في العاشرة من عمرها، واكتشفته للمرة الأولى في الشقة السفلية بمنزل نيل: العنوان، والرسومات، بل وحتى اسم المؤلِّفة: إيليزا ماكبيس. حينما همست كساندرا بالاسم شعرت بقشعريرة غريبة تغزو عمودها الفقري.

وبينما امتدَّ المحيط اللا نهائي تحت الطائرة، فتحت كساندرا القصة الأولى وشرعت في قراءتها. كانت بعنوان "عينا العجوز" والتي تعرَّفَت عليها منذ ذاك اليوم الصيفي الساخن منذ سنوات طويلة.

عَيْنَا الْعَجُوزِ

بقلم إيليزا ماكبيس

يُحكى أنه في أرضٍ نائيةٍ عند البحر المتلألئ، عاشت أميرةٌ كانت تجهل أنها أميرة. فحينما كانت طفلةً صغيرةً دُمّرت مملكتها، وقُتلت عائلتها. وحدث أن الأميرة الصغيرة كانت تلعب في ذاك اليوم خارج أسوار القلعة، ولم تعرف بأمر الهجوم إلا حينما بدأ الليل يُرخي سُدوله، فكفّت عن اللعب، لتجد أن منزلها قد تدمّر. سارت الأميرة الصغيرة وحدها لبعض الوقت، حتى انتهت أخيراً إلى كوخٍ يقع على أطراف الغابة المظلمة. وبينما كانت تفرع الباب، انشقت السماء بالمطر الغزير، غاضبةً من الدمار الذي شهدت عليه.

كانت تعيش في الكوخ عجوزٌ عمياءٌ أخذتها الشفقة بالفتاة، واعتزمت أن تؤويها وتربّيها كابنتها. وكان كوخُ العجوز بحاجة إلى عمل كثير، لكن الأميرة لم تتدمر قط؛ لأنها تمتلك قلباً نقيًا. إن أسعد الناس مَنْ ينشغل بالهم؛ فعقولهم ليس بها مكان للحزن والأسى.

وهكذا رَضِيَتِ الأَمِيرَةُ بِحَالِهَا. أَحَبَّتْ تَعَاقِبَ الفِصُولِ، فَكَانَتْ تَغْرَسُ البِذُورَ وَتَرعى المَحْصُولَ. وَرغم أَنهَا كَبِرَتْ وَصَارَتْ أَمِيرَةً حَسَنَاءَ، لَمْ تَعْرِفْ ذَلِكَ، لِأَنَّ العَجُوزَ لَمْ تَمْلِكْ مَرَأَةً وَلَا مَنْصَدَةً زِينَةً؛ فَلَمْ تَتَعَلَّمِ الأَمِيرَةَ اسْتِخْدَامَ المَرَأَةِ أَوْ الزِينَةَ.

وَفِي إِحْدَى اللَيَالِي، وَكَانَتْ الأَمِيرَةُ قَدْ بَلَغَتْ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهَا، جَلَسَتْ هِيَ وَالعَجُوزُ فِي المَطْبَخِ تَتَنَاوَلَانِ طَعَامَ العِشَاءِ. "مَاذَا حَدِثْ لِعَيْنِيكَ يَا عَزِيزَتِي العَجُوزُ؟" سَأَلَتْ الأَمِيرَةَ، وَالتِي كَانَتْ تُودُّ أَنْ تَعْرِفَ مِنْذُ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ.

التفتت العجوز نحو الأَمِيرَةَ، وَكَانَ مَكَانَ عَيْنِهَا جِلْدٌ مُتَغَضَّنٌ وَقَالَتْ: "لَقَدْ سُلِبَ مِنِّي بَصْرِي".
"مَنْ سَلَبَهُ؟"

"حِينَمَا كُنْتُ صَبِيَّةً، أَحَبَّنِي وَالِدِي كَثِيرًا، حَتَّى أَنَّهُ اقْتَلَعَ عَيْنِي؛ لَكِي لَا أَرَى أَبَدًا المَوْتَ وَالدَّمَارَ فِي العَالَمِ".

"لَكِنْ لَمْ يَعْذُ بَوْسَعِكَ رُؤْيَا الجَمَالِ أَيضًا يَا عَزِيزَتِي العَجُوزُ". قَالَتْهَا الأَمِيرَةُ وَهِيَ تَفَكَّرُ فِي المُنْتَعَةِ الَّتِي شَعَرَتْ بِهَا مِنْ مَرَاقِبَةِ تَفْتُحِ زَهْورِ حَدِيقَةِ العَجُوزِ.

"كَلَّا، وَأَهْمَنِّي لَوْ أَرَاكِ يَا جَمِيلَتِي وَأَنْتِ تَكْبِرِينَ". قَالَتْ العَجُوزُ.

"هَلْ يَمَكُنُنَا البَحْثُ عَنِ عَيْنِيكَ فِي مَكَانٍ مَا؟".

ابْتَسَمَتِ العَجُوزُ ابْتِسَامَةً حَزِينَةً وَقَالَتْ: "كَانَ الرِّسُولُ سَيَعِيدُ إِلَيَّ عَيْنِي حِينَمَا أَصِلُ إِلَى سَنِّ السَّتِينِ. لَكِنْ فِي اللَّيْلَةِ المَوْعُودَةِ، وَصَلَتْ جَمِيلَتِي وَفِي أَعْقَابِهَا عَاصِفَةٌ هُوجَاءَ، وَلمَ اسْتَطَعْتُ مُقَابَلَتَهُ".

"هَلْ يَمَكُنُنَا أَنْ نَبْحَثَ عَنْهَا الآنَ؟".

هَزَّتِ العَجُوزُ رَأْسَهَا وَهِيَ تَقُولُ: "لَمْ يَنْتَظِرِ الرِّسُولُ، وَأَخَذَ عَيْنِي إِلَى بئرِ سَحِيقٍ فِي أَرْضِ الأَشْيَاءِ المَفْقُودَةِ".

"هل يمكننا الذهاب إلى هناك؟".

"وا حسرتاه. الطريق ناءٍ، والدَّرب مليء بالأخطار والحرمان".

وتمرُّ الأيام وتتعاقب الفصول، وتصير العجوز أكثر ضَعْفًا وشُحوبًا. وفي يوم من ذات الأيام، بينما كانت الأميرة في طريقها لقطف ثمار التَّفَاح لتخزينها لفصل الشتاء، مرَّت بالعجوز، وهي جالسة تبكي تحت شجرة التفاح. أجفلت الأميرة وتوقَّفت، لم ترَ العجوزَ تَنْتَحِبُ من قبل. وبينما كانت تستمع لها، أدركت أن العجوز كانت تتحدَّث إلى طائر مهيبٍ لونه رماديٌّ وأبيض ذو ذيلٍ مُقَلَّم وهي تقول: "عيناى! عيناى! إنَّ أجلي قريبٌ، ولن أَسْتَرِدَّ بصري ما حييت. خَبَّرني أيُّها الطائر الحكيم كيف سأعرف طريقى في العالم الآخر وأنا لا أستطيع أن أرى نفسي؟".

بخفَّةٍ وبهدوء، عادت الأميرة إلى الكوخ؛ فقد عَلِمَت ما توجَّب عليها فَعَلَهُ. لقد ضحَّت العجوزُ بعينيتها في سبيل حماية الأميرة، والآن يجب أن توفي لها هذا الدين. ورغم أن الأميرة لم تطأ قدماها خارج حدود الغابة، لم تتردَّد قطُّ. كان حُبُّها للعجوز عظيمًا؛ فلو اجتمعت كلُّ حَبَّات رمل البحر من أوله إلى آخره، لن تبلغ عُمقَ مُحَبَّتِها.

وحيثما لاحت تباشير الصباح، استيقظت الأميرة، واتَّخَذَت طريقها إلى الغابة، ولم تتوقَّف إلَّا عندما وصلت إلى الشاطئ. ومن هناك أبحرت، وعبرت المحيط الشاسع إلى أرض الأشياء المفقودة.

كان الطريقُ طويلًا وشاقًّا، واحتارت الأميرة؛ فالغابة في أرض الأشياء المفقودة تختلف تمامًا عن الغابة التي كانت تعيش فيها؛ فالأشجار قاسية ومُدبَّبة، والحيوانات مُخيفة، وأغنيات الطيور تبعث الرِّجفَةَ في قلبها. وكلِّما اشتدَّ خوفها، زاد ركضها، إلى أن توقَّفت أخيرًا، وقلبها يدقُّ بعُنْفٍ في صدرها. تاهت الأميرة ولم تعرف إلى أين تذهب. وكادت تفقد الأمل، إلى أن ظهر أمامها طائر مهيب لونه رمادي وأبيض وقال لها:

"أرسلتني العجوز حتى أرشدك بأمانٍ إلى بئر الأشياء المفقودة وهناك ستقابلين حبيبك".

تنفست الأميرة الصُّعداء وانطلقت خلف الطائر، وكانت مَعِدَتُها تَقْرُصُها؛ لأنها لم تعثر على طعام في هذه الأرض الغريبة. بعد فترة، مرّت بسيِّدةٍ عجوز جالسة على جذع شجرة ساقط، ما إن رأتها حتى قالت: "كيف حالكِ أيتها الجميلة؟".

"أنا أتصوّر جوعًا. لكني لا أعرف أين أجد الطعام".

أشارت السيدة إلى الغابة، وفجأة أبصرت الأميرة ثمارَ الثُوبِ تتدلى من الشجر، وعناقيد جوز تنمو على أطراف الفروع.

"شكرًا لكِ أيتها المرأة الطيبة" قالت الأميرة.

"لم أفعل شيئًا سوى أنني فتحت عينيك وأرَيْتُكِ ما كنتِ تعلمين أنه هناك".

ظَلَّتِ الأميرة تمشي وراء الطائر، وقد شبعت الآن، ولكن وهي تمشي تَغَيَّرَ الطقس وهبَّت رياحٌ باردة.

بعد فترة، مرّت الأميرة بعجوز ثانية، تجلس على جذع شجرة، قالت لها: "كيف حالكِ أيتها الجميلة؟".

"إنني أشعر بالبرد القارس، لكني لا أعرف أين أجد ملابس دافئة".

أشارت المرأة العجوز إلى الغابة، وفجأة أبصرت الأميرة عُلْيَقًا من الوَرْدِ البرِّيِّ، بتلاته ناعمة ورقيقة. فارتدته وشعرت بالدفء.

"شكرًا لكِ أيتها المرأة الطيبة" قالت الأميرة.

"لم أفعل شيئًا سوى أنني فَتَحْتُ عينيك وأرَيْتُكِ ما كنتِ تعلمين أنه هناك".

أخذت الأميرة تمشي وراء الطائر، وقد شعرت بالدفء الآن، لكن بدأت تشعر بالألم في قدميها إثر المشي الطويل.

بعد فترة، مرّت الأميرة على عجوزٍ ثالثة تجلس على جذع شجرة، قالت لها: "كيف حالك أيتها الجميلة؟".

"أشعر بالتعب لكني لا أعرف أين أجد عربة".

أشارت السيدة العجوز إلى الغابة، وفجأة أبصرت الأميرة غزالًا بُنيًا بَرَّاقًا يحيطُ بِجِديهِ طَوْقٌ ذَهَبِيٌّ. نظر الغزال إلى الأميرة، بعينين سوداوين حكيمتين، ومدّت الأميرة طَيِّبَةً القلب يدها إليه. تقدّم الغزال نحوها، وأحنى رأسه حتى تمتطي ظهره.

"شكرًا لكِ أيتها المرأة الطيبة". قالت الأميرة.

"لم أفعل شيئًا سوى أنني فتحت عينيك وأريتك ما كنتِ تعلمين أنه هناك".

سارت الأميرة والغزال وراء الطائر، وتوغّلوا في الغابة المُظلمة، وبمرور الأيام فهمت الأميرة لُغَةَ الغزال الرقيقة الهادئة. وأخذًا يتحدثان ليلةً تلوَ الليلة، وعلمت الأميرة أن الغزال كان يختبئ من صيادٍ ماكر أرسلته ساحرٌ شرّيرٌ لقتله. وشعرت الأميرة بالامتنان الكبير لطيبة الغزال، ووعده بأن تحميه من الأشرار.

لكن الوعود وحدها لا تكفي؛ ففي صبيحة اليوم التالي استيقظت الأميرة مُبْكَرًا، فلم تجد الغزال في مكانه المعتاد بجوار النيران. وفي أعلى الشجرة غرّد الطائر الأبيض والرمادي باضطراب، فهبّت الأميرة بِخِيفَةٍ على قدميها، وهي تتبع الطائر. وحينما دَنَّت من نبات العُليق القريب، سمعت الغزال يبكي. أسرعَت الأميرة إليه، ووقّعت عيناها على سهمٍ مُصَوَّبٍ في خاصرته.

قال الغزال: "لقد وجدّنتني الساحرة. بينما كنت ألتقطُ حبّات جوز من أجل رحلتنا، وأمرت الرّماة بالتصويب عليّ. ركضتُ بأسرع ما يمكنني، لكن حينما وصلت إلى هذه البقعة خانتني قواي".

ركعت الأميرة بجوار الغزال، وشعرت بحزن كبير وهي ترى أمه، فأخذت تبكي بجواره، وسالت دموعها على جروحه فشُفِيت في الحال؛ لأن دموعها كانت تحمل الصّدق والنور.

وفي الأسابيع التالية عكّفت الأميرة على رعاية الغزال، وبمجرّد أن استعاد عافيته، استأنفوا المسير إلى أن وصلوا إلى حدود الغابة الواسعة. وحينما عبروا صَفَّ الأشجار أخيراً، أبصروا الساحل أمامهم والبحر اللامع وراءه.

قال الطائر الرمادي الأبيض: "بئر الأشياء المفقودة يقع قريباً من ناحية الشمال".

انقضى اليوم واستحال الغسق إلى ظلّمة، لكن حصى الشاطئ كان يلمع كالفضة تحت ضوء القمر، وينير لهم الطريق. ساروا باتجاه الشمال حتى أبصروا أخيراً على قِمّة صخرة سوداء وَعَرّةٍ بِئرِ الأشياء المفقودة. ودّعهما الطائرُ الرّماديُّ الأبيض، وطار بعيداً بعدما أدّى مَهْمَّتَه على أكمل وجه.

حينما وصلت الأميرة والغزال إلى البئر، التفتت الأميرة إلى رفيقها النبيل وقالت وهي تربت على عنقه: "ليس بوسعك أن تأتي معي إلى أسفل البئر يا عزيزي الغزال؛ لأنها مَهْمَّتِي وحدي". وهكذا استجمعت الأميرة شجاعَتها التي اكتشفتها طوال رحلتها، وقفزت في فتحة البئر، وأخذت تسقط وتهوي نحو القاع.

أخذت الأميرة تتقلّب بين النوم والأحلام، حتى وجدت نفسها تمشي في حقلٍ يُغطّيه عشبٌ لامعٌ بفعل أشعة الشمس، وأشجاره تغني.

فجأةً، ظهرت من العدم جِنِيَّةٌ جميلة ذات شعر طويل مسترسل يتلأأ كالذهب اللامع، وابتسامة مشرقة تملو شفيتها. شعرت الأميرة على الفور بالسلام والهدوء يغمران قلبها.

"لقد قطعِ مسافةً طويلةً للغاية أيتها المسافرة المتعبّة" قالت الجنية.

"فعلتُ ذلك كي أعيد لصديقةٍ عزيزةٍ عينيها. هل رأيتِ الكرّتين اللّتين أتحدّثُ عنهما أيتها الجِنِيَّةُ البهيّة؟".

بدون كلمة، فتحت الجِنِيَّةُ يدها، وهناك استقرّت عينان جميلتان لشابّةٍ لم ترَ أيَّ شرٍّ في العالم قطّ.

قالت الجِنِيَّةُ: "بوسعك أن تأخذيهما، لكنّ صديقتك العجوز لن تستخدمهما أبداً".

وقبل أن تسألها الأميرة ماذا تقصد، استيقظت لتكتشف أنّها كانت مُستَلْقِيَةً بجانب الغزال العزيز على قِمّةِ البئر. وفي يديها كانت حزمة صغيرة مُغطّاة بها عينيّ العجوز.

ولمُدّة ثلاثة شهور، اجتازا أرض الأشياء المفقودة، وعبرا البحر الأزرق العميق، وعادا إلى بلاد الأميرة. وحينما اقتربا من كوخ العجوز، الواقع على طرف الغابة المظلمة المعروفة، أوقفهما صيادٌ وصدّق على نبوءة الجنية. فبينما كانت الأميرة مُسافِرةً في أرض الأشياء المفقودة، انتقلت العجوزُ بسلاّمٍ إلى العالم الآخر.

وحينما سمعت الأميرة ذلك أخذت تبكي، فرحلتها الطويلة كانت بلا طائل، لكن الغزال الحكيم الطيب، طلب من رفيقته الجميلة أن تُكفِكَفَ دمعها. "لا تحزني. فالعجوز لم تكن بحاجة إلى عينيها كي تخبرها من كانت، إنها تعرف بِحُبِّكِ لها".

شعرت الأميرة بالامتنان لكلمات الغزال الطيبة، فمدّت يدها وأخذت تربّت على وجنته الدافئة. وفجأة تحوّل الغزال إلى أميرٍ وسيم، واستحال طوقه الذهبى تاجًا، وقصّ على الأميرة كيف أن الساحرة الشريرة ألقت عليه بتعويذة، وسحرتَه في جسد غزال، وأن هذا السحر لم يكن ليبتُل إلا إذا وقعت في حُبّه فتاةً حسناء تبكي على قدره.

تزوَّج الأمير والأميرة، وعاشا حياةً مُفعمَةً بالسعادة يملؤها النشاط والعمل في كوخ العجوز الصغير، وكانت عينا العجوز تراقبهما للأبد من جَرّةٍ على المدفأة.

(13)

لندن، 1975

كان رجلاً هزياً مَحْنِيّ الظَّهر. يرتدي سروالاً لونه بيچ، عليه بُقْعٌ دُهْنِيَّةٌ عند الرُّكْبَتَيْنِ، وقد برز من حذائه العملاق كاحلاه الرفيعتان، وانتثر على قَرَوَّةِ رأسه المَلْسَاءِ شَعْرٌ أبيض. كان يبدو كشخصٍ خرج من قِصَّةِ خيالية للأطفال.

أشاحت نيل بوجهها عن النافذة وتأمّلت مُجَدِّدًا العنوان في مُفكِّرَتِهَا. كان هناك مكتوبٌ بخطِّ يدها الرَّدِيءِ: متجر السيد سنيلجروف للكتب القديمة، رقم 4، سيسل كورت، أمام شارع تشرينج كروس، أبرز خبير إنجليزي في القصص الخيالية والكتب القديمة بشكل عام. ربما يعرف شيئاً عن إيليزا؟

زوّدها أمناً المكتبة المَرَجِيَّةُ المركزيّة باسمه وعنوانه في اليوم السابق. لم يعثروا على معلوماتٍ كافيّةٍ بخصوص إيليزا ماكبيس، لكنهم أخبروها أن السيد سنيلجروف يستطيع مساعدتها في البحث عن المزيد

من المعلومات. ورغم أنه ليس رجلاً اجتماعياً، كانت خبرته بالكتب القديمة لا تضاهى. وعلقت إحدى أمينات المكتبة مازحةً أنه يبدو عجوزاً كالدهر، وربما قرأ كتب الحكايات الخيالية فور صدورها من المطبعة.

مسّ نسيمٌ لطيفٌ عنقها العاري فعقدت معطفها بإحكامٍ حولَ كتفيها، ثم أخذت نفساً عميقاً، ودفعت الباب. رنّ جرسٌ نحاسيٌّ مُعلّقٌ على عضادة الباب، فالتفت رجل عجوز. كان يرتدي نظارة ذات عدستين سميكتين تلمعان كمرأتين مستديرتين، وعلى جانبي رأسه تدلّت أذناه الكبيرتان بشكل ملحوظ، واللتان كان يستعملهما شعراً أبيض. أمال رأسه وظنّت نيل للوهلة الأولى أنها انحناءة، آثار أخلاقٍ باقية من الأيام الخوالي. وحينما ظهرت عيناه الشفافتان الرماديتان فوق حافة نظارته أدركت أنه كان يحني رأسه ليراها بشكل أفضل.

"السيد سنيلجروف؟"

جاء صوته كصوت مدير مدرسة سريع الغضب: "أجل، نعم هو. تفضلي بالدخول. فأنت تتركين الهواء البارد يدخل".

تقدّمت نيل إلى الأمام، بعدما تأكّدت أن الباب انغلق وراءها. اندفع تيار خفيف، تاركاً الهواء الدافئ يعيد استقراره.

سألها الرجل: "الاسم".

"نيل. نيل أندروز".

نظر إليها ثم قال مُجدّداً وهو ينطق كلّ كلمة بدقّة: "اسم الكتاب الذي تبحثين عنه".

"بالطبع" نظرت نيل مُجدّداً إلى مُفكّرتها. "برغم أنني لا أبحث عن كتاب".

رمقها السيد سنيلجروف ببطء صبور. أدركت نيل أنه ضَجِرٌ منها بالفعل، وقد أدهشها ذلك؛ هي التي كانت مُعتادَةً على لعب دور الضَّجِرَةِ. جَلَبَتِ الدهشة معها تَلَعُّمًا مُزِعِجًا: "بـ.. بمعنى"، ثم توقَّفت محاولَةً استجماع شتات نفسها: "إنني أَمَلِكُ بالفعل الكتاب مَحَلَّ السُّؤال".

جذب السيد سنيلجروف نَفَسًا حَادًّا، وانغلق منخاراه الكبيران. "سَيِّدِي طالما تملكين الكتاب بالفعل، لا حَاجَةَ بِكَ إلى خدماتي المتواضعة". ثم أوماً وقال: "طاب يومك". أدار رأسه وعاود انتباهه إلى رَفِّ الكُتُبِ الشاهق بجانب الدَّرَجِ.

لقد طُرِدَت. فتحت نيل فمها ثم أغلقته ثانية، واستدارت لتغادر، ثم توقَّفت. كلاً. لقد قطعت مسافة طويلة لكشف لغزها، وهذا الرجل يمثّل أفضل فرصة لإيضاح بعض الحقائق عن إيليزا ماكيبس، والسبب الذي جعلها تُرافقها إلى أستراليا في عام 1913. شدّت قامتها، ثم عبرت ألواح الأرضية، ووقَّفت بجانب السيد سنيلجروف. تنحنحت عمداً، وانتظرت.

لم يُدِرْ رأسه، بل استمرَّ في وضع الكتب على الرفوف. "ما زلتِ هنا"، كانت جملة وليست سؤالاً.

"أَجَلٌ" قالت نيل بحزم "لقد قطعت مسافةً طويلة لأريك شيئاً، ولن أغادر إلا إن فَعَلْتُ ذلك".

قال بتنهيدة: "أخشى يا سَيِّدِي أنكِ تهدين وقتك مثلما تُهدرين وقتي الآن. لا أبيع كُتُبًا مقابلَ عُمُولَةٍ".

قالت نيل بصوت غاضب: "وأنا لا أرغب في بيع كتابي. كل ما أطلبه هو أن تفحصه بعينيك الخبيرتين". احمرَّت وجنتاها، وكان ذلك إحساساً غريباً؛ فلم تكن ممَّن تتخضَّبُ وجناتهم خجلاً.

أدار السيد سنيلجروف رأسه، وأخذ يُقيّمها بنظرة باهتة باردة مُرهقة. واحتشد على شفّتيه شبه انفعال (لم تعرف ماهيته). ثم بصمت، وبأقل حركة، أشار إلى مكتب صغير يقع خلف المكتب الرئيسي للمتجر.

هرعت نيل إلى المدخل؛ فموافقته كانت كإحسان صغير يمتنّ له المرء. وهَدَدَت دمعهُ ارتياحٍ بِكسرٍ حصون دفاعاتها؛ ففتحت حقيبتها أَمَلَةً أَنْ تجد منديلاً قديمًا لتمنعها من النزول. ماذا يحدث بِحَقِّ السماء؟ لم تكن شخصًا عاطفيًا، بل تعرف كيف تسيطر على مشاعرها. على الأقل، كانت دومًا كذلك. ولكن منذ أن سَلَمَها دوج الحقيية مؤخرًا، ووجدت كتاب الحكايات الخيالية بداخله، والصورة على الغلاف، حينها بدأت تتذكّر أشياء وشخصًا، مثل المؤلّفة، وملحات من ماضيها، تلمحها عبر ثقوب صغيرة في نسيج ذاكرتها.

أغلق السيد سنيلجروف الباب الزجاجي خلفه، وسار على السجاد الفارسي المُغطى بطبقة غبار رقدت طويلًا هناك. اجتاز طريقه بين تلال من الكتب المتنوعة التي رُبِّت كالمناهة على أرضية المتجر، ثم تهاوى على المقعد الجلدي عند الطرف البعيد من المكتب. تحسّس سيجارة من جيبه الرثّ وأشعلها.

"حسنًا..." طفت الكلمة في سحابة دخان. "هيّا إذن، أريني هذا الكتاب".

كانت نيل قد قامت بتغليف الكتاب في منشفة مطبخ حينما غادرت بريزبن. رأت حينها أنها فكرةٌ سديدة؛ فالكتاب عتيقٌ ومُينٌ، وبحاجةٍ إلى الحماية، لكن هنا، في الضوء المُعتم في مكتب السيد سنيلجروف، أخرجها الغطاء.

فكّت الشريط، وأزالت قطعة القماش المُربّعة ذات اللونين الأحمر والأبيض، ومنعت نفسها من دفعها عميقًا في حقيبتها. ثم سلّمت

الكتاب عبر الطاولة إلى أصابعه المنتظرة. ران صمتٌ لم يخرقه سوى تكتكة ساعةٍ غير مرئية. انتظرت نيل بقلق، بينما أخذ يقلّب في الصفحات واحدة تلو الأخرى. لم ينبس ببنت شفة.

ربما كان يلزمه توضيحٌ أكثر. "كنتُ أمل أن...".

"صمتًا" رفع يده الشاحبة، والسيجارة محشورة بين إصبعيه تُهدّد بالتخلّي عن طرفها الرمادي. انحشرت كلمات نيل في حلقها. لقد كان بلا ريب أوقح إنسانٍ تعاملت معه لسوء الحظ، وبالنظر إلى طبيعة بعض زملائها من تجّار الأشياء المستعملة كان هذا ينمُّ عن شيء. لكنه كان فرصتها الأفضل للعثور على معلومات في أمس الحاجة إليها. فلم يكن أمامها سوى الجلوس، كالمعاقبة، تراقب وتنتظر، بينما السجارة البيضاء استحالت اسطوانة من الرماد.

أخيرًا، انفصل الرماد وسقط بخفّةٍ على الأرض، وانضمَّ إلى الأشلاء الترابية الأخرى التي ماتت بصمتٍ مُماثلٍ منذ أمدٍ بعيد. ارتجفت نيل التي كانت ربّة بيتٍ حريصة على النظافة.

جذب السيد سنيلجروف نفّسًا أخيرًا جائعًا، وسحق طرف السجارة المنتهية في منفضةٍ طافحةٍ بالأعقاب. وبعد وقتٍ مرٍّ كالدهر، سعل وقال: "من أين حصلتِ عليه؟".

هل كانت تتخيّل الرعشة في صوته؟ "أعطيتُ إيّاه".

"ممّن؟".

كيف لها أن تجيب على هذا السؤال؟ "أعتقد من المؤلّفة نفسها. لا أتذكّر حقًا، لقد أعطى لي وأنا بعدُ طفلة".

كان يراقبها بدقّة الآن. شفتاه مُطبّقتان، تختلجان قليلًا. "لقد سمعت عنه بالطبع، لكنني لم أرَ نسخةً منه قطُّ طوال حياتي".

كان الكتاب يرقد على الطاولة الآن، ويد السيد سنيلجروف تجري على غلافه ببطء. أغلق جفنيه بارتعاشٍ وأطلق تنهيدةً عميقةً راضيةً، كأنه مسافر في الصحراء عثر أخيراً على نبع ماء. اندهشت نيل من هذا التَّغَيُّرِ في تَصْرُفِهِ، فتنحنحت وتمسَّكت بكلمات: "إذن هو كتاب نادر؟".

"أجل" قال بهدوء وهو يفتح عينيه مُجدِّداً. "أجل. فريد من نوعه؛ لأن هناك نسخة واحدة منه فحسب كما ترين. والرسوم لناثانيال وواكر. إنه من الكُتُبِ القليلة التي رسمها". فتح الغلاف وحدَّق في الواجهة. "إنه كتاب فريد حقاً".

"وماذا عن المؤلِّفة؟ هل تعرف شيئاً عن إيليزا ماكبيس؟" حَبَسَتْ نيل أنفاسها، بينما جعد أنفه العجوز المُغْضَن. تجاسرت على الأمل. "إنها مُحَيَّرَةٌ. لم أتمكَّن من العثور سوى على تفاصيل شحيحة".

نهض السيد سنيلجروف وحدَّق بشوق في الكتاب، قبل أن يتَّجِهَ إلى صندوق خشبي موضوع على الرَّفِّ خلفه. كانت أدراجة صغيرة، وحينما فتح أحدها، رأت نيل أنه مكتظُّ حتى حافَّتِه ببطاقات مستطيلة صغيرة. أخذ يقلِّب فيها، وهو يغمغم لنفسه، حتى سحب واحدة أخيراً.

"ها هي". تحرَّكت شفتاه وهو يتحقَّق من البطاقة، ثم علا صوته: "إيليزا ماكبيس... ظهرت قصصها في عدَّة مجلَّات... ولها كتابٌ واحدٌ منشور"، نقر أصبعًا على كتاب نيل قائلاً: "هذا هو. لا توجد أعمال نقدية كُتِبَتْ عنها... سوى... آه، نعم".

اعتدلت نيل في جلستها وهي تقول: "ماذا؟ ماذا وجدت؟".

"مقال في كتاب يذكر إيليزا. ويحوي معلومات قليلة عن سيرتها الذاتية حسبما أتذكَّر". سار يجرُّ قدميه إلى خزانة الكتب الممتدَّة من الأرض إلى السقف. "مقال حديث كُتِبَ منذ تسع سنوات، وطبقاً

للبطاقة لا بُدَّ وأنه في مكان ما هنا..." ثم مرَّ أضعه على الرِّفِّ الرابع، وتردَّد، ثم استمر، ثم توقَّف. "ها هو". تأوَّه وهو يسحب الكتابَ وينفخ عنه الغبار. ثم قلبه وحَدَّق في ظهره الذي كُتِب عليه العنوان وهو يقول: "كُتِّب القَصص الخيالية والروايات في أواخر القرن التاسع عشر ومُسْتَهْلُ القرن العشرين، بقلم د. روجر ماكناب". بلَّل أضعه ثم قلبَ إلى الفهرست، وأخذ يتعقَّب القائمة "ها هي، إيليزا ماكبيس، صفحة 47".

دفع الكتابَ مفتوحًا عبر الطاولة إلى نيل. تقافزَت نبضات قلبها، وشعرت بسخونة. أخذت تقلِّب حتى وصلت إلى الصفحة السابعة والأربعين، وقرأت اسم إيليزا في بداية المقال. أخيرًا تتقدَّم في بحثها. ها هي سيرة ذاتية تُجسِّد لها الشخص الوحيد الذي تَعَلَّم أنها مرتبطة به بشكل ما. قالت والكلمات تتلاحق في حلِّها: "شكرًا لك، شكرًا لك". أوما السيد سنيلجروف، وهو مُحَرِّجٌ من امتنانها. ثم أشار برأسه نحو كتاب الحكايات الخيالية وهو يقول: "لا أظنُّ أنَّك تبحثين عن محلٍّ لبيع هذا الكتاب؟".

ابتسمت نيل ابتسامةً خفيفةً وهزَّت رأسها نافية. "للأسف لا يمكنني مُفارقته. إنه إرث عائلي".

دقَّ الجرس ووقف شابٌّ على الناحية الأخرى من باب المكتب الزجاجي، يُحدِّق بِشَكِّ نحو أكوام الرفوف المتدلية. أوما السيد سنيلجروف باقتضابٍ قائلاً: "حسنًا، إذا غَيَّرتِ رأيك تعرفين أين تجدينني"، ثم نظر من فوق نظارته إلى الزبون الجديد، وزفر سريعًا وهو يقول: "لماذا يتكون الباب مفتوحًا بهذا الشكل"، ثم شرع يتَّجه نحو المكتب الرئيسي للمتجر، وهو يقول بينما يمرُّ بجانب مقعد نيل: "كتاب الحكايات الخيالية والروايات بثلاثة جنيهاً. يُمكنك الجلوس هنا واستخدام المكتبة لفترة قصيرة، اتركي الأموال على المكتب وأنتِ

تغادرين". أومات نيل بالموافقة، بينما الباب ينغلق وراءها. شرعت تقرأ ونبضات قلبها تخفق بقوة.

اشتهرت إيليزا ماكيس، وهي كاتبة كانت تعيش في العقد الأول من القرن العشرين، بقصصها الخيالية التي ظهرت بانتظام في العديد من المجلّات في السنوات من عام 1907 إلى عام 1913. وقد قامت بكتابة خمس وثلاثين قصة، غير أن هذه القائمة غير مكتملة والنطاق الفعلي لإنتاجها غير معروف. في أغسطس من عام 1913 نشرت دار هوبيز البريطانية كتابًا يحوي مجموعة من قصصها الخيالية المزيّنة بالرسومات التوضيحية. وحقق مبيعات كبيرة، ونال آراء نقدية إيجابية، ووصفت جريدة التايمز القصص بأنها تتسم "بمتعة غريبة تبعث في القارئ أحاسيس الطفولة الساحرة والمخيفة أحيانًا". وقوبلت الرسومات التي رسمها ناثنال وواكر بحفاوة خاصّة، ويعتقد البعض أنها من أفضل أعماله⁽¹⁾. لقد كانت تحوّلًا عن لوحاته الزيتية المشهور بها الآن.

تبدأ قصة إيليزا ميلادها في الأول من سبتمبر عام 1888 في لندن. وتشير سجلات الميلاد الخاصة بذلك العام أن لديها أخًا توأمًا، وأنها قضت اثني عشر عامًا من حياتها في منزلٍ مُستأجرٍ في 35 شارع كنيسة باترسي. تُعتبر أصول إيليزا أعقد ممّا يوحى به نسبها المتواضع. كانت والدتها جورجيانا سليلّة عائلةٍ أرستقراطية، تقطنُ في عزبة بلاكهرست بكورنوال. تسببت جورجيانا مونتراشيه في فضيحةٍ عائليةٍ حينما هربت، في عمر السابعة عشرة، من قصر العائلة مع شابٍّ أقلّ من طبقتها الاجتماعية.

(1) انظر توماس ر. كولينز، رسم الماضي (هاميلتون هادسون، 1959)، وريналد كويت، أشهر الرسامين (دار ويكيليف، 1964).

وُلِدَ والد إيليزا، چوناثان ماكبيس، في لندن عام 1866، لأبٍ مُعَدِّمٍ، يعمل في بوارج نهر التيمز، وأمٍّ فقيرة. وكان ترتيبه الخامس بين تسعة أطفال عاشوا في الأكواخ وراء أرصفة ميناء لندن. وبرغم أنه تُوِّفِّي في عام 1888 قبل ميلاد إيليزا، يبدو أن قصَّصها تُعيد تصوير الأحداث التي ربما شهدها چوناثان ماكبيس خلال طفولته على النهر. على سبيل المثال، في قصة (لعنة النهر)، نجد أن وَصْفًا للرجال الميَّتين المُعلَّقين على المشانق المسحورة قائمٌ بلا شكٍّ على المشاهد التي رآها چوناثان ماكبيس في صباه عند رصيف الميناء الذي كانت تُنْفَذُ عنده عمليات الإعدام. وربما انتقلت هذه القصص إليها من أمِّها چورچيانا، من المُحتمَلِ بشكل مُعدَّل، واحتفظت بها ذاكرةً إيليزا حتى شَرَعَتْ تنقلها على الورق.

ويظلُّ لقاء چوناثان وچورچيانا أمرًا مُلغِزًا. فجانِب التَّكْتُم الذي أحاط بموضوع هروبها، لم تترك چورچيانا معلوماتٍ عن الأحداث التي أفضت برحيلها. والمحاولات التي جرت لمعرفة الحقيقة باءت بالفشل بسبب جهود عائلتها المثابرة لإخفاء القِصَّة. لم تكن هناك تغطيةً كبيرةً في الصُّحف، ولا بُدَّ للمرء أن يبحث في مصادر أخرى، مثل الخطابات والمذكَّرات الحديثة، لكي يجد أثرًا لما كان بالتأكيد فضيحةً كبيرة وقتذاك. وتسجَّل شهادة وفاة چوناثان أن مهنته كانت "بَحَّارًا"، غير أن طبيعة عمله غير واضحة. وهناك اعتقادٌ أن حياة چوناثان في البحار ربما جلبته إلى شواطئ كورنوال الصخرية لفترة قصيرة، وأنه رُجِّمًا التقى مُصادفةً بابنة اللورد مونتراشيه، الشهيرة بجمالها في المقاطعة، في الخليج الصغير الواقع في عزبة العائلة.

ومهما كانت ظروف التقائهما، بلا ريب وقَعَا في الحب. ولسوء الحظ، لم يُقدَّر للزوجين الشابَّين العيشُ سويًا في سعادة لفترة طويلة؛ فموت چوناثان المبغت والغريب بعد أقل من عشرة أشهر من هروبها لا بُدَّ وأنه دَمَّر چورچيانا، والتي كانت وحيدةً في لندن، غير

متزوَّجة، وحبلى، بدون عائلة أو أموال. غير أن چورچيانا لم تضرب أو تتخبط، فتركت قيودَ طبقتها الاجتماعية، وبعد ميلاد التوأمن، هجرت اسم مونتراشيه أيضًا. وعملت في مكتب ه.ج. بلاكووتر للمحاماة، ولدى اتحاد محامي لنكولن إن، في منطقة هولبورن.

وثمة دليل على أن خطَّ چورچيانا الجميل كان موهبةً وجدت لها مُتنفِّسًا في شبابها. فسجَّلات عائلة مونتراشيه، والتي تمَّ التبرُّع بها إلى المكتبة البريطانية عام 1950، تحوي عددًا من برامج إعلان عن حفلات مسرحية كتبها إيليزا بخطِّ دقيق ورسومات فائقة، وفي كل زاوية منها كتبت اسمها بخطِّ صغير. بالطبع كانت مسرحيات الهواة شائعةً في العديد من المنازل الكبرى، غير أن برامج الحفلات المسرحية في بلاكهرست في ثمانينيات القرن التاسع عشر كانت تتمُّ بانتظامٍ كبير وجدِّيَّة أكثر من المعتاد.

لا نعرف الكثير عن طفولة إيليزا في لندن، بخلاف المنزل الذي وُلدت فيه وقضت فيه سنواتها الأولى. لكن حياتها ربما كان يُغلفها الفقر وشظفُ العيش. وكان مرض السُّل يطارد چورچيانا في منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر. ولا بُدَّ أنها أصيبت بضعفٍ عامٍّ وانقطاع النَّفس، وبالتالي توقَّفت عن العمل المعتاد في السنوات اللاحقة. وتُدعَّم سجَّلات ه.ج. بلاكووتر هذا الاحتمال.

لا يوجد دليل على أن چورچيانا استشارت طبيبًا بخصوص مرضها، لكن الخوف من التَّدخُّل الطبي كان سائدًا في تلك الفترة. خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان يجب تبليغ السلطات البريطانية بالمصابين بالسُّل، وألزم القانونُ ممارسي الطبِّ بالتبليغ عن المرضى. خاف الفقراء من إرسالهم إلى المصحَّات (والتي كانت تشبه السجون)؛ فتحاشوا طلب المساعدة. ولا بُدَّ أن مرض چورچيانا قد ترك أثرًا بالغًا على إيليزا، عمليًا وإبداعيًا. ومن المؤكَّد أنه تطلَّب منها المساهمة

ماليًا في المنزل. كانت الفتيات في المجتمع الفيكتوري بلندن يعملن في وظائف وضيعة؛ مثل خادمت في البيوت، أو بائعات فاكهة أو زهور، ويشير تصوير إيليزا لمُعاصِرِ الغسيل والأحواض الساخنة في بعض قصصها إلى أنها اطلّعت بشكلٍ وثيق على مهنة الغسيل. وربما تشير كذلك الكائنات الشبيهة بمصّاصي الدماء في قصة (مطاردة الجنيّة) إلى الاعتقاد السائد في مُستَهَلِّ القرن التاسع عشر أن مرضى السُّل كانوا عُرضَةً للتحوُّل إلى مصّاصي الدماء بسبب الأعراض المُصاحبة من حساسيةٍ نحو الضوء الساطع، والعينين الحمرأوين المُنتَفِختَيْن، والبشرة الشاحبة، والسعال الدموي المميّز.

ولا نعرف هل قامت جورجيانا بالاتصال بعائلتها بعد وفاة جوناثان، وبعد تدهور صحّتها. لكني أعتقد أنه احتمالٌ غير وارد. ويشير خطابُ أرسله لينوس مونتراشيه إلى أحد أقربائه، يعود تاريخه إلى ديسمبر 1900، أنه وصلت إليه أنباء أن إيليزا ابنة أخته الصغيرة تعيش في لندن، وأنه شعر بالصدمة حينما علم أنها عاشت عشر سنوات في تلك الظروف المُؤلمة. ربّما توقّعت جورجيانا أن عائلة مونتراشيه لن تغفر لها هروبها. ولو أخذنا بصحّة ما جاء في خطاب شقيقها، هذا الخوف لا أساس له:

بعد سنوات طوالٍ من البحث في الخارج، واجتياز البحار والتنقيب في البلاد، اكتشفتُ أن شقيقتي الحبيبة كانت قريبةً للغاية طيلة الوقت، بل وسمّحت لنفسها أن تعاني من الفاقة والحُرمان! لتعرف إذن أنني كنت صادقًا حينما أخبرتك عن طبيعتها، وكيف أنها لم تعبأ بحبنا لها وتلهّفنا على عودتها إلينا سالمة...

ورغم أن جورجيانا لم تُعد سالمةً قطُّ إلى عائلتها، قُدِّر لإيليزا العودة إلى قصر عائلة والدتها. ماتت جورجيانا في يونيو من عام 1900، وكانت إيليزا في الحادية عشرة من عمرها. وتذكر شهادة

الوفاة أن سبب الوفاة هو السُّلُّ، وأنها كانت في الثلاثين من عمرها. بعد وفاة والدتها، أرسلت إيليزا للعيش مع عائلة أمها على شاطئ كورنوال. ولا تتوافر لدينا تفاصيل حول الطريقة التي تمَّ بها هذا الشَّمْلُ العائلي، لكن برغم الظروف المؤسِّفة التي عَجَّلَتْ به، لا بُدَّ وأن هذا التَّغْيِيرُ بالنسبة لإيليزا الصغيرة كان حَدَثًا مُبْهِجًا. الانتقال إلى عزبة بلاكهرست، بقصرها الضخم وحدثاتها الجميلة، لا بُدَّ وأنه منحها شعور الأمان والطمأنينة بعد أخطار شوارع لندن. وقد صار البحر استعارةً مُكرَّرةً في قصصها ليمثِّل التَّجَدُّدَ والخلّاص.

ومن المعروف أن إيليزا عاشت مع عائلة خالها حتى عمر الخامسة والعشرين، لكن لا يُعرف أين ذهبت بعد ذلك. تكوَّنت نظريات عديدة بالنسبة لحياتها بعد عام 1913، لكن لم تثبت صِحَّتُها بعدُ. ويشير بعض المؤرِّخين إلى أنها ربما ماتت بالحمى القرمزية التي اجتاحت سواحل كورنوال عام 1913. ويعتقد البعض الآخر، الذين حَيَّرَهم نَشْرُ قِصَّتِها الأخيرة (فرار طائر الوقواق) في عام 1936 في جريدة (أصوات أدبية)، أنها قضت وقتها في التنقُّل والسفر، والسعي إلى حياة المغامرة بصحبة قصصها الخيالية. غير أن هذا الافتراض لم يَلْقَ اهتمامًا أكاديميًّا، وبرغم هذه النظريات يظلُّ مصير إيليزا ماكيبس وكذلك تاريخ وفاتها أحدَ ألغاز العالم الأدبي.

هناك رسم بالفحم لإيليزا ماكيبس، مرسوم بيد فنان اللوحات الشهير ناثانيال وواكر. وقد وُجِدَ هذا الرسم بعد وفاته بين أعماله غير المنهية، وكان بعنوان (المؤلِّفة)، وهو مُعلَّقُ الآن في متحف تيت بلندن. ورغم أن إيليزا ماكيبس نشرت مجموعةً واحدة فقط من القصص الخيالية، يفيض كتابُها بالمجاز والاستعارات والدلالات السيكلوجية؛ ومن ثمَّ يستحقُّ دراسة نقدية متأنيةً. وبينما نجد في حكاياتها المُبَكِّرة مثل (الطفلة المسحورة) تأثراً قوياً بتراث القصص الخيالية الأوروبية، تعكس القصص اللاحقة مثل (عيني العجوز)

أصالةً، وربما ذاتيةً. ومثل العديد من كاتبات العَقْدِ الأول من هذا القرن، سقطت إيليزا ماكبيس ضحيةً النُّقْلَةِ الثَّقافية التي طرأت بعد أحداث عالمية حاسمة في مُستَهَلِّ القرن (الحرب العالمية الأولى، وحركة حَقِّ الاقتراع للنساء على سبيل المثال) ولم تَنَلْ انتباه القُرَّاء. ضاعت العديد من قصصها خلال الحرب العالمية الثانية، وحينما سُرِّقَت من المكتبة البريطانية المَجَلَّات والدُّورِيَّات النادرة. ونتيجة لذلك؛ لا تتوافر لدينا اليوم الكثير من المعلومات عن إيليزا وحكاياتها الخيالية. ويبدو أن أعمالها، والمؤلَّفة نفسها، اختفت من على وجه الأرض، وضاعت مثل العديد من الأشباح الأخرى في العقود الأولى من القرن.

(14)

لندن، 1900

أعلى مَتَجَرِ الخردوات الذي يمتلكه السيد والسيدة سويندل، في منزلهما الضيق بجوار نهر التيمز، كانت هناك عُرفَة صغيرة، تُشبه الخزانة. كانت مُظْلَمَةً ورطبة وتفوح منها رائحةٌ عَفِنَةٌ (بسبب المصرف السيئ وعدم وجود تهوية)، ذات جدران حالَ لَوْنُهَا، تتشقق في الصيف، وتُسْرَبُ البَرْدُ ومياه المطر في الشتاء، ومدفأةٌ سُدَّتْ مدخنتها منذ وقت طويل. ورغم تلك الحالة المُرِيَّة، كانت تلك الغرفة الواقعة على مَتَجَرِ آل سويندل البيت الوحيد لإيليزا ماكيبس وشقيقها التوأم سامي. كانت تمنحهما القليل من الأمان والطمأنينة في حياةٍ خَلَّتْ من كليهما. وُلِدَا في خريف خوف لندن، وكُلُّمَا كبرت إيليزا ازداد يقينها أن هذه الحقيقة هي التي شَكَّلَتْها وكوَّنت شخصيتها. چاك السَّفَاح⁽¹⁾ سيكون عَدُوَّهَا الأول في حياةٍ ستمتلئ بالسَّفَاحين.

(1) اسم أطلقته الصحف البريطانية على قاتل مُتَسلسِل ارتكب جرائم قتل وحشية عام

أكثر شيء أحبَّته إيليزا في الغرفة، وربما كان الشيء الوحيد الذي أحبَّته فيها بخلاف كونها مأوى، كانت فَجْوَةٌ في القرميد، أعلى رَفِّ الصنوبر القديم. كانت تشعر بالامتنان لأن التمليط الأخرق لأحد عمَّال البناء منذ أمدٍ بعيد، وعبور الفئران، خَلْفًا فَجْوَةٌ واسعة جميلة في المِلاط. فكانت إيليزا تستلقي مُمدَّدةً على بطنها، وتفرد جسدها على الرف، وتضغط عينيها على القرميد، حينها كانت تلمح منعطف النهر القريب. من نُقْطَةِ المراقبة الخَفِيَّةِ هذه استطاعت أن تراقب، دون أن يلحظها أحدٌ، الحياة الصاخبة تروح وتأتي أمامها. وهكذا تحقَّق هدفها إيليزا: أن ترى ولا تُرى. ورغم أن فضولها لا يشبع، لم تحب المراقبة. لقد فَهَمَت أنه إذا لوحظ المرءُ كان هذا أمرًا خطيرًا، وأن بعض المراقبة تشبه السَّرِقَةَ. تعرف إيليزا هذا لأنها كانت تعشق تخزين الصور في مُخَيَّلَتِهَا لكي تعيد تشغيلها وترديدها وتلوينها كما تشاء، وحبَّكها في قصص شَقِيَّةٍ، وشطحات خيال سترعب أبطالها الحقيقيين لو علموا بها.

وكان هناك العديد من الناس كي تختار منهم. الحياة عند منعطف النهر متدفِّقة دومًا. كان النهر شريان الحياة في لندن، يرتفع وينخفض في مَدِّ وَجَزْرِ لا يتوقَّفان، ينقل الصالح والطالح على حدِّ سواء، من المدينة وإليها. ورغم أن إيليزا كانت تحب المَدَّ الذي يحمل على متنه سُفُنَ الفحم، والمَّلَّاحون يُجَدِّفون إلى الأمام وإلى الخلف، والحَمَّالون يفرغون الشحنات من عمَّال المناجم، كان النهر يعود إلى الحياة عند الجزر. حينما تنحسر المياه بشكلٍ كافٍ للسيد هاكمان وابنه لكي يَشْرَعَا في سحب الأجساد التي تحتاج جيوهُها إلى التنظيف، حينما يفتِّش نَبَّاشو الوحل في الطَّمِي التَّتِنِ عن حبال أو عظامٍ أو مسامير نحاسية، أي شيء يمكن استبداله بمال. كان للسيد سويندل فريقه الخاص من

نَبَاشِي الوحل ورقعته الخاصة من الطين، مُرْبَع عَفِنُ يحرسه كأنه يحوي ذهب المَلِكَة نفسها. وَمَن يتجاسر على عبور الخَطِّ الفاصل رَمَا يَقْصُ السيد هاكمان جيبه المُشْبَع بالماء في المَرَّة القادِمة التي ينخفض فيها النهر.

كان السيد سويندل يُطَارِد سامي دومًا لكي يَلْتَحِقَ بفريق نَبَاشِي الوحل. قال إن من واجب الصَّبِي الإيفاء بِدَيْنِ سَيِّده الذي أحسن إليه. فبرغم أن سامي وإيليزا استطاعا بِشِقِّ الأَنفَس توفير ما يغطي نفقات الإيجار، كان السيد سويندل يُدْكَرُهُمَا دومًا أن حُرِّيَّتَهُمَا مَرهُونَةٌ بعدم الوشاية بهما عند السلطات. "رجال الإصلاحية الذين يبحثون هنا وهناك سيسعدهم معرفة أن يتيمين صغيرين، مثلكما، تُرْكَا يعملان بمفرديهما في العالم الكبير". وكان يُنهي عبارته باللازمة الشائعة "سوف يهتُمُّون بالتأكيد". "بموجب القانون يجب أن أُسَلِّمَكُما بمجرّد أن تُلْفِظ أُمَّكُما أنفاسها الأخيرة".

كانت إيليزا حينئذٍ تقول: "أجل يا سيد سويندل. شكرًا لك يا سيد سويندل. هذا كَرَمٌ بِالِغُ منك".

"أف! ولا تنسيا ذلك أيضًا؛ فبفضل طبيتي وطيبة زوجتي ما زلتما هنا" ثم بعدها ينظر إلى الأسفل بأنفه المُرتَجِف، وبخُبْثٍ يُضِيِّق الخناق عليهما: "لو عمل هذا الصبي، ببراغته في العثور على الأشياء، في رقعتي الطينية، سوف أقتنع أنكما تستحقَّان المكوث هنا. لم أقابل قَطُ صَبِيًّا بحاسَّةٍ ممتازة مثله".

كان هذا صحيحًا؛ فسامي يمتلك موهبة العثور على الكنوز. منذ أن كان طفلًا، كانت الأشياء الثمينة تبدو أنها تخرج من مَكَمَنِهَا وتسقط عند قدميه. قال السيد سويندل إنه حَظُّ الحمقى، وأن الله يرقى الحمقى والمجانين، لكن إيليزا تعرف أن ذلك ليس صحيحًا. لم يكن سامي أحمق، بل كان يرى أفضل من الآخرين لأنه لا يضيع وقته في

الكلام. لم يكن ينطق بكلمة أبدًا. ولا مرّة طيلة اثنتي عشرة سنة. لم يَحْتَجْ إلى ذلك، ليس مع إيليزا. كانت تعرف دومًا ما يفكّر فيه وما يشعر به. كان تَوَامَهَا في النهاية، نصفان يُكْمِل أحدهما الآخر.

وهكذا عرفت أنه كان يخاف من طين النهر، فَهَمَّتْه برغم أنها لم تشاركه خوفه. كان الهواء مُخْتَلِفًا حينما يقترب من حافة المياه؛ ثمّة شيء في أبخرة الطين، وانقراض الطيور، والأصوات الغريبة التي تتردّد بين ضفّتي النهر العتيق. كانت إيليزا تعرف أيضًا أن من مسؤوليّتها رعاية سامي، ليس لأن أمّها تخبرها بذلك (كانت نظرية أمها غير المفهومة تقول إن ثمّة رجلًا شريرًا - لم تذكر اسمه قطّ - كان يختبئ، عازِمًا على العثور عليهما). منذ نعومة أظافرهما علمت إيليزا أن سامي بحاجة إليها أكثر منها، حتى قبل أن يُصَابَ بالحُمّى، وكانت على وشك فقدانه. شيء ما في تكوينه جعله هَشًّا ضعيفًا. وقد علم الأطفال الآخرون بذلك حينما كانوا صغارًا، ويعلمونه الآن أيضًا وهم بالغون. بطريقة ما شعروا بأنه لم يكن واحدًا منهم.

ولم يكن واحدًا منهم، بل كان طفلًا مسحورًا. كانت إيليزا تعرف كل شيء عن الأطفال المسحورين. قرأت عنهم في كتاب الحكايات الخيالية الذي ظلّ لزمّن في متجر الخردوات. كانت هناك صور أيضًا. جِنِّيَاتٌ وأرواحٌ مثل سامي بالضبط، بشعره الأحمر الناعم، وأطرافه الطويلة الرفيعة، وعينه الزرقاوين المستديرتين. كما تقول الأم، البراءة والسكون جَعَلَتَا سامي بعيدًا عن الأطفال منذ أن كان وليدًا؛ فبينما كانت إيليزا تبكي من أجل الرضاعة، لم يَبِكِ سامي قطّ. كان يرقد في درجه، ينصت، إلى ما يبدو أنها موسيقى جميلة تسري في الهواء لا يسمعها أحدٌ غيره.

استطاعت إيليزا إقناع آل سويندل أن سامي لا يجب أن يلتحقَ بنبّاشي الطين، بل كان أكثر براعةً في تنظيف المداخن عند السيد

سوتبورن. وذكَّرتهما بأنه لم يكن هناك صبيان كُثر في عمر سامي ما زالوا يعملون بالتنظيف، لا سيَّما بعد صدور قوانين تجريم عمل الأطفال في تنظيف المداخن، وما من أحدٍ في كنسينجتون كُلهَا قادر على تنظيف المداخن الصَّيِّقة مثل صبيِّ نحيفٍ يملك مرفَقَيْن مُدَبَّبَيْن مخلوقين خَصِيصًا لتسلُّق المزالق المُتربِّة المُعتمَمة. بفضل سامي، كان السيد سوتبورن دومًا محجوزًا بالكامل، وبالتأكيد هناك أجرٌ مُنتظَّم، وهذا أفضل من عثور سامي على شيءٍ ثمينٍ في الطين.

وبرغم اقتناع آل سويندل بهذه الأسباب، وسرورهما بالأموال التي يجلبها سامي، مثلما كانا سعيدَيْن عندما كانا يأخذان أموال الأم وهي على قيد الحياة، حينما كانت تقوم بأعمال كتابية عند السيد بلاكووتر، لم تكن إيليزا واثقةً إلى متى ستظلُّ تُروِّضهما. السيدة سويندل بالأخص لم تكن ترى أبعدَ من طمعها، وكانت تحبُّ إطلاق تهديدات مُبطَّنة عن رجال الإصلاحية الذين يجوبون الأرجاء بحثًا عن الأطفال المُشرِّدين في الشوارع. كانت السيدة سويندل تهاب دومًا سامي. كان الخوف بالنسبة لها الرَّدَّ الطبيعيَّ على الأشياء غير المفهومة. ذات يوم سمعتها تهمس للسيدة باركر، زوجة حامل السوط في مراكب الفحم، تقول إنها قد سمعت من السيدة تير، القابِلة التي ولَّدت التوأمين، أن سامي وُلِدَ والحبل السُّرِّيُّ مُلتفُّ حول عنقه، وأنه ما كان يجب أن يُولَد لولا أن هذا كان من عمل الشيطان. قالت إن أمَّ الصبي عَقَدت صفقةً معه في الطابق السُّفليِّ. ونظرة واحدة على الصبي ستثبِّت الأمر؛ نظراته الثابتة العميقة، والهدوء في جسده، على النقيض من الأطفال الآخرين في سنِّه. حقًّا، كان هناك شيء غير مريح على الإطلاق في سامي ماكبيس.

هذه القصص المُبالغ فيها جعلت إيليزا تغالي في حماية أخيها التوأم. أحيانًا في الليل، حينما ترقد في الفراش تُنصتُ إلى الزوجين سويندل يتناقشان، وابنتهما الصغيرة هاتي تصرخ، كانت تُحبُّ تخيِّل

أشياء مُخيفَة تحدث للسيدة سويندل. ربما تسقط، صُدْفَةً، في النيران وهي تغسل، أو تنزلق أسفل معصِرَة الملابس، وتُعَصَّر حتى الموت، أو تغرق في قدر مليء بالشحم المغلي، الرأس أوَّلًا، ثم القدمان النحيفتان، العضوان الوحيدان المُتَبَقِّيَّان لكي يشهدا على نهايتها البشعة...

تحدَّث عن الشيطان تجده حضر على الفور. عند الزاوية المؤدِّيَة إلى شارع كنيسة باترسي⁽¹⁾، جاءت السيدة سويندل تَحْمِلُ على كتفها حقيبة مليئةً بالمغانم. يومٌ مليء بالربح قَصَّته في مُلاحقة الفتيات الصغيرات اللاتي يرتدين الملابس الجميلة. ابتعدت إيليزا عن الشَّقِّ، ووَثَّبَت من على الرِّفِّ، مُسْتخدِمَةً حافَّة المدخنة لتهبط بسلاسة.

كانت مَهْمَةً إيليزا غسل الفساتين التي تجلبها السيدة سويندل. أحيانًا حينما كانت تغلي الفساتين على النيران، منتهيةً لئلا تُمَرَّقَ الأشرطة التي اتَّخَذَت شكل خيوط العنكبوت، كانت تتساءل عمَّا تَعْتَقِدُه تلك الفتيات حينما يرين السيدة سويندل وهي تلوِّح أمامهن بحقيبة مليئة بقطعِ بَرَّاقَةٍ من الزجاج الملوَّن. فلم تكن الفتيات يقتربن قَطُّ ليكتشفن الحيلة. بالقطع لا. فور أن تنفرد بهنَّ في الزقاق، تخلع عنهن الفساتين الجميلة بسرعة حتى أنهن لا يَجِدُن الوقت الكافي للصراخ. وفكَّرت إيليزا أن الكوابيس ربما تزورهنَّ بعد ذلك، مثل الكوابيس التي تزورها حول سامي وهو ينحشر في مدخنة. لقد شعرت بالأسف من أجْلِهِنَّ، لا بُدَّ وأن السيدة سويندل في المطاردةِ شيء مُخيفٌ، لكنَّه كان خطأهُنَّ. لا تكفُّ إيليزا عن الاندهاش من أن الفتيات الصغيرات اللاتي وُلِدْنَ في منازل كبيرة، ولديهن عرباتُ أطفالٍ فخمة، وفساتين مُخرِّمة- يَقَعْنَ ضحايا للسيدة سويندل مقابل هذا الثمن البخس: حقيبة من الحلوى. كُنَّ محظوظات لأنَّهنَّ لم يفقدن سوى الفستان وراحة البال. ثمَّة خسائر أشنع في أَرِقَّة لندن المظلمة.

(1) باترسي حي يقع بوسط لندن.

بالأسفل، صَفَّقَ الباب الرئيسي.

"أين أنتِ أيتها الفتاة" جاء الصوت يتدحرج على الدرَج، كُرَّةً ساخِنَةً من السُّمِّ. غاص قلب إيليزا وهي تدرك أن الصيد كان جيِّدًا، وهي حقيقة تُبَشِّرُ بالسوء لقاطني 35 شارع كنيسة باترسي. "هيا انزلي وأعدِّي طعام العشاء وإلا ستُحتَجَزين". هرعت إيليزا تهبط الدرج إلى متجر الخردوات. مرَّت نظرتها بسرعة على الأشكال المُعتمَمة، مجموعة من الزجاجات والصناديق والتي أحالها الظلام إلى أشكال هندسية غريبة. بجانب منضدة المتجر، تحرك أحد الأشكال. كانت السيدة سويندل منحنيةً مثل سلطعون الطين تُنقَب في حقيبتها، وتغربل فساتين مُختلِفة مزركشة بالأربطة. "لا تقفي هناك تُحدِّقين مثل شقيقك الأبله. أشعلي المصباح أيتها الفتاة الغبية".

"الحساء على النار يا سيدة سويندل" قالت إيليزا وهي تهرع لتضيء المصباح. "والفساتين تكاد تَجِفُّ".

"من الأفضل أن تكون كذلك، إنني أخرج يومًا تلو الآخر وأحاول كسب النقود، وكل ما تفعلينه هو غسل الفساتين. أحيانًا أظنُّ أنه من الأفضل أن أقوم بغسلهم بنفسي. وأطردك أنتِ وأخيك"، ثم أطلقت تنهيدةً كريهة، وجلست في مقعدها. "تعالى إلى هنا واخلعي عنِّي هذا الحذاء". وبينما جَثَّت إيليزا على ركبتيها على الأرض لتطلق سراح الحذاء الضيق، انفتح الباب مُجدِّدًا وظهر سامي، مُغبرًّا وأسودَ بدون كلمة، مدَّت السيدة سويندل يدها النحيلة وأشارت بِخِفَّةٍ بأصابعها. دبَّ سامي يده في جيب مُقدِّمة سرواله، وسحب عُملَتَيْنِ نحاسيَّتين وضعهما في يدها. حدَّقَت فيهما السيدة سويندل بارتياحٍ قبل أن تركز إيليزا جانبًا بقدمها المُتعرِّقة، وتتَّجه نحو صندوق المال. وب نظرة شَكُّ من فوق كتفها، سحبت المفتاح من صدرها وأولجته في

القفل. كَوَّمت العملات الجديدة فوق الأخرى، وحرَّكت شفتيها وهي تحصي المجموع.

جاء سامي بجوار الموقد وأحضرت إيليزا طبقين. لم يأكلَا قَطُّ مع آل سويندل. كانت السيدة سويندل تقول إن ذلك ليس مُناسِبًا، حتى لا يَظُنَّا أنهما من أفراد العائلة؛ في النهاية كانا خادِمَيْن أكثر منهما مُستأجِرَيْن. شرعت إيليزا في غَرْفِ الحِساء وَصَبَّه عبر المنخل مثلما تُصِرُّ السيدة سويندل؛ فهي لن تُبَدَّرَ اللحم على حقيرين ناكِرَيْن للجميل.

همست إيليزا: "أنت مُتعب. لقد بدأت منذ الصباح الباكر."

هزَّ سامي رأسه. لم يكن يحب أن تقلق عليه.

رمقت إيليزا السيدة سويندل، حتى تتأكَّد أنها ما زالت توليها ظهرها، قبل أن ترمي قطعةً صغيرة من العرقوب في طَبَقِ سامي. ابتسم ابتسامَةً خفيفة، وبحذر، والتقت عيناه الواسعتان بعيني إيليزا. أبصرت كَتْفِيهِ اللَّتَيْن تَهَدَّلتا من أعمال اليوم الشاقة، ووجهه المَلُوث بسخام مداخن الأثرياء، وامتنانه -برغم ذلك- لقطعة صغيرة من لحم لا يُؤكَل. تمنَّت لو تَلَفُ ذراعيها حول جسده الصغير ولا تتركه أبدًا.

"يا سلام! يا لها من صورة جميلة" قالت السيدة سويندل وهي تغلق صندوق المال بصوت مسموع. "السيد سويندل المسكين بالخارج يحفر في الطين بحثًا عن الكنوز التي تضع الطعام في فَمِكما الجاحِدَيْن..." وأشارت بأصبعها النحيل نحو سامي... "بينما صبيُّ صغير مثلك يتصرَّف كيفما يشاء في منزله. هذا ليس عدلًا، ليس عدلًا أبدًا. حينما يعود رجال الإصلاحية سوف أخبرهم بذلك."

"هل السيد سوتبورن لديه أعمال كثيرة لك غداً يا سامي" قالت إيليزا بهدوء. أوماً بالإيجاب. "واليوم الذي بعده؟" إمءاءة أخرى.

"هذه نقود كثيرة هذا الأسبوع يا سيدة سويندل". كم كان صوتها مُهادِنًا! وكم كان أثره لا يُذْكَر. "يا للوقاحة! كيف تَجْرئين على الرَّدِّ عَلَيَّ! لولاي أنا والسيد سويندل لَطُرِدُكما من هنا، وذهبتما تَفْرُكُان أرضيَّات الإصلاحية وأنتما تبكيان".

جذبت إيليزا نَفْسًا. أحد الأشياء الأخيرة التي فعلتها الأم كان الحصول على تَعَهْدٍ من السيدة سويندل بالسَّمَّاح لسامي وإيليزا بالملكوٲ كمستأجِرَيْن طالما استمرَّ في دفع الإيجار، وساهما في المنزل. قالت إيليزا بحَذَرٍ: "لكن يا سيدة سويندل. أمي قالت إنَّكِ تَعَهَّدتِ...".

"تعهَّدتُ؟ تعهَّدتُ؟" تدفَّقَت فقاعات اللُّعاب الغاضبة من زاويتي فَمِها. "سوف أتعهَّد لك. أنا أتعهَّد أن أضربكِ ضَرْبًا مُبرِّحًا"، نهضت فجأة ومَدَّت يدها إلى حزامِ جلدِي مُعلِّقٍ بجانب الباب. نهضت إيليزا ووقفت بثباتٍ، رغم أن قلبها كان يخفق كالطبل. تقدَّمت السيدة سويندل إلى الأمام، ثم توقَّفت، وتلاعَبَت على شفيتها ابتسامَةً قاسية. وبدون كلمة التفتت نحو سامي قائلة: "أنت. تعال هنا".

"لا" قالتها إيليزا بسرعة ونظرتها تندفع في وجه سامي. "لا. أنا آسفة يا سيدة سويندل. لقد كانت وقاحةً مني. أنا... أنا سوف أعوِّضُكِ. غدًا سأكنس المحلَّ، وأدعك الدَّرَج الأمامي... سوف... سوف.."

"تنظِّفين المرحاض، وتتخلَّصين من الجرذان في العليَّة".

"أجل" كانت إيليزا تومئ. "كل الأشياء".

بسَطَت السيدة سويندل الحزام باستقامة أمامها، أفقُ مُمتدٍّ من الجلد. واختلَّست النظر من أسفل رموشها، إلى إيليزا ثم إلى سامي والعكس. أخيرًا، حرَّرت أحدَ طرفي الحزام، وعلَّقته مُجددًا في مكانه بجوار الباب.

وابِلٌ من الراحة المَدُوخة. "شكرًا لكِ يا سيدة سويندل".

كانت يدا إيليزا ترتجفان قليلًا، وهي تُمرّر طبق الحساء إلى سامي، وتلتقط المغرفة لتصبّ لنفسها طبقًا.

"توقّفي" قالت السيدة سويندل وهي تنظر إليها. "أنتِ" قالت السيدة سويندل، وهي تشير إلى سامي. "نظّف الزجاجات الجديدة، ورثبها على الرف. لن يكون هناك حساءٌ إلّا حينما تنتهي." ثم التفتت إلى إيليزا وقالت: "وأنتِ أيتها الفتاة، اصعدي إلى الأعلى واغربي عن وجهي." وارتجفت شفتاها وهي تقول: "لن تتناولي الطعام اليوم. لن أطعم مُتمرّدةً".

حينما كانت أصغر سنًا، أحبّت إيليزا أن تتخيل أن أباهما سوف يظهر يومًا ما وينقذهما. بعد قصّة الأم وچاك السفاح، كانت إيليزا تُفضّل قصّة الأب الشجاع. أحيانًا، حينما تؤلمها عيناها من الضغط عليهما على القرميد، كانت تستلقي على ظهرها أعلى الرف، وتتخيّل أباهما الشجاع. تقول لنفسها إن قصّة أمّها غير صحيحة، لم يغرق في البحر، بل ذهب بعيدًا في رحلة مُهمّة، وسيرجع يومًا ما لإنقاذهما من آل سويندل.

ورغم أنها تعرف أن كل هذا محض خيال، مثل ظهور الجنيّات والأقزام من المدفأة، كانت تتخيّل عودته مُتعةً كبيرة. تتصوّره واقفًا خارج منزل آل سويندل، مُمتطيًا صهوة جواده، وليس في عربة، بل على جوادٍ أسود ذي ساقين طويلتين قويّتين يُغطّيها شعْرٌ لامع. وجميع مَنْ بالشارع يتوقّفون عمّا يفعلونه، ويحدّقون في الرجل الوسيم الذي يرتدي معطفه الأسود. السيدة سويندل بوجهها الضئيل البائس، سوف تترك غسيل الملابس الجميلة التي انتزعتها هذا الصباح، وستنادي على السيدة باركر لتأتي وتشاهد كل ما يحدث. وسوف

تَعْلَمَان أن هذا الرجل كان وَالِدَ سَامِي وإِيلِيْزَا، جَاء لِإِنْقَاذِهِمَا، وَأَنَّهُ سَوْف يَأْخُذُهُمَا إِلَى النَهْرِ، حَيْث تَنْتَظِر سَفِينَتَهُ، وَأَنَّهُمْ سَوْف يَعْبرُونَ الْبَحْر وَيَصِلُونَ إِلَى أَمَاكِن نَائِيَةٍ مَجْهُولَةٍ.

أحيانًا، فِي مَنَاسِبَات نَادِرَةٍ حِينَمَا كَانَت إِيلِيْزَا تُقْنِعُ أُمَّهَا بِأَنْ تُقْصَّ حِكَايَات، كَانَت أُمُّهَا تَتَحَدَّثُ عَنِ الْبَحْرِ، لِأَنَّهَا رَأَتْهُ بِأُمَّ عَيْنِيهَا، وَتَكْتَسِي قِصَصَهَا بِأَصْوَات وَرَوَائِح كَانَت سَحْرِيَّةً بِالنِّسْبَةِ لِإِيلِيْزَا؛ الْمَوْجَات الْمُتَلَاطِمَةُ، وَالْهَوَاءُ الْمَالِحُ، وَحَبَات الرَّمْلِ النَّاعِمَةُ الْبِيضَاءُ، وَليست رَوَاسِبُ سَوْدَاءٍ لَزْجَةٌ مِنْ طِينِ النَهْرِ. لَكِنِ الْأُمُّ لَمْ تَكُنْ تُشَاطِرُهَا مَعْظَمَ الْوَقْتِ فِي قِصِّ الْحِكَايَات؛ لِأَنَّهَا كَانَت مُعْتَرِضَةً عَلَيْهَا، وَخَاصَّةً قِصَّةَ الْأَبِ الشَّجَاعِ. كَانَت تَقُولُ: "يَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفِي أَنْ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ الْوَاقِعِ وَالْخِيَالِ يَا حَبِيبَتِي لِيْزَا. الْقِصَصُ الْخِيَالِيَّةُ تَنْتَهِي بِسُرْعَةٍ. لَا تَوْضِّحْ أَبَدًا مَا يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ، بَعْدَمَا يَتَزَوَّجُ الْأَمِيرُ وَالْأَمِيرَةُ".

"لَكِن مَآذَا تَقْصِدِينَ يَا أُمِّي" كَانَت إِيلِيْزَا تَسْأَلُهَا.

"مَآذَا يَحْدُثُ لُهُمَا حِينَمَا يَشُقَّان طَرِيقَهُمَا فِي الْعَالَمِ، وَيَجْمَعَانِ الْأَمْوَالَ، وَيَهْرَبَانِ مِنْ شُرُورِ الدُّنْيَا".

لَمْ تَفْهَمْ إِيلِيْزَا قَطُّ. كَانِ الْكَلَامُ يَبْدُو غَيْرَ مُتْرَابِطٍ، لَكِنْهَا لَمْ تَقُلْ ذَلِكَ لِأَنَّهَا لَقَدْ كَانُوا أَمْرَاءَ وَأَمِيرَاتٍ، لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى شَقِّ طَرِيقِهِمْ فِي الْعَالَمِ، بَلِ الذَّهَابِ إِلَى قِلَاعِهِمُ السَّحْرِيَّةِ.

"لَا تَنْتَظِرِي أَحَدًا كِي يُنْقِذَكِ" كَانَت أُمُّهَا تُرَدِّفُ، وَفِي عَيْنِيهَا نَظْرَةٌ حَامِلَةٌ. "إِنَّ الْفِتَاةَ الَّتِي تَتَوَقَّعُ أَنْ يَنْقِذَهَا أَحَدُهُمْ لَا تَتَعَلَّمُ أَبَدًا أَنْ تَنْقِذَ نَفْسَهَا. حَتَّى بِالْوَسَائِلِ، سَوْفَ تَجِدُ شَجَاعَتَهَا نَاقِصَةً. لَا تَكُونِي هَكَذَا يَا إِيلِيْزَا. يَجِبُ أَنْ تَعْتَرِي عَلَى شَجَاعَتِكَ، وَتَتَعَلَّمِي أَنْ تَنْقِذِي نَفْسَكَ، وَلَا تَعْتَمِدِي عَلَى أَحَدٍ أَبَدًا".

وَحِيدَةٌ فِي الْغُرْفَةِ الْعُلْوِيَّةِ، يَمْلُؤُهَا الْمَقْتُ تَجَاهَ السَّيِّدَةِ سُوِينْدَلِ وَالْغَضَبِ مِنْ عَجْزِهَا، زَحَفَتِ إِيلِيْزَا دَاخِلَ الْمَدْفَأَةِ الْمَهْجُورَةِ. بِحَرَصٍ

وِبِطْءٍ، مَدَّت ذراعها بأعلى ما تستطيع، وتحسّست بيدي مفتوحة
القرميد المفكوك، وحرّرتة من مكانه. في الفجوة الصغيرة وراءه، تلمّست
أصابعها مُقدّمة الآنية الفخارية الصفراء، وسطحها البارد، وحوافها
المستديرة. ثم أخرجتها بهدوء، حريصة على عدم الإتيان بحركة يتردّد
صداها عبر المدخنة ويصل إلى أذني السيدة سويندل المترقّبتيّن. كانت
آنية احتفظت بها أمّها سرّاً لسنوات. قبل وفاتها بأيام، وفي لحظة
نادرة من لحظات استعادة وعيها، أخبرت الأم إيليزا بالفجوة السريّة،
وأمرتها أن تجلب ما بها. أطاعتها إيليزا؛ فأحضرت الآنية إليها، وعيناها
تتسعان بالدهشة من هذا الشيء السري الغامض. استشعرت أناملها
وَخِزاً خَفِيئاً وهي تنتظر أن تفتح أمّها الآنية. كانت حركاتها خرقاء في
أيامها الأخيرة، وغطاء الآنية كان مُغلّقاً بإحكام بسدادة شمعيّة. أخيراً
تَشَقَّقَت من القاعدة.

شهقت إيليزا في ذهول؛ فداخل الآنية كان دبّوس زينة، لو رآته
السيدة سويندل ستذرف دموعاً ساخنة على وجهها الكريه. كان في
حجم البنس، وكانت حافّته الخارجية المزخرفة مُبطّنةً بالمجوهرات
التي تتلألأ بألوان حمراء وخضراء وبيضاء. في البداية اعتقدت إيليزا
أنه مسروق. لم تتصوّر أن تقترب أمّها هذا الفعل، لكن من أين لها
هذا الكنز العظيم؟ من أين أتت به؟

تزاخمت أسئلة كثيرة في رأسها لكنها لم تنطق حرفاً. ولن يهّم إن
فعلت، فأمرها لم تكن تصغي. كانت تحدّق في الدبوس بنظرة لم ترها
إيليزا من قبل. أخيراً قالت بكلمات متلعثمة: "هذا الدبوس عزيزٌ
عليّ. عزيزٌ للغاية" دفعت الأم بالآنية إلى يد إيليزا، كأنها لا تحتمل أن
تلمسها. كانت الآنية مصقولة، ناعمة، باردة تحت أصابعها. لم تعرف
إيليزا كيف تجيب. الدبّوس، تعبيرُ الأم الغريب... كل هذا كان مُباغِثاً.

"هل تعرفين ما هذا يا إيليزا؟"

"دُبُوس زينة. رأيته من قبل ترتديه السيدات الثَّرِيَّات."

ابتسَمَت الأُمُّ بِوَهْنٍ، وَظَنَّتْ إيليزا أنها إجابة خاطئة. "أو ربما قلادة؟ انفصلت عن سلسلتها؟".

"إجابتك الأولى صحيحة. إنه نوعٌ خاصٌ من دبوس الزينة"، صَغَطَت يدها معًا "هل تعرفين ما وراء الزجاج؟".

نَظَرَت إيليزا إلى شكل من الخيوط الحمراء الذهبية. "نسيج؟" ابتسَمَت الأُمُّ مُجَدِّدًا. "نوعًا ما، لكنها ليست خيوطًا".

"لكن بإمكانني أن أرى الخيوط، مَجْدولَةٌ معًا على شكل حزمة".

"إنها خُصَلاتٌ شَعْرٍ يا إيليزا، مأخوذة من نساء في عائلتي. شَعْر جَدَّتِي، وشعر أُمِّها، وهكذا. إنه تقليدٌ مُتَّبَعٌ. وهذا يُسَمَّى دُبُوس الحداد".

"لأنه يُلبَسُ فَقط في الصباح⁽¹⁾؟".

مَدَّت الأُمُّ يدها وربتت على طرف جديدة إيليزا. "لأنه يُذَكِّرنا بمن فقدناهم، مَنْ جاءوا قبلنا وجعلونا ما نحن عليه".

أومأت إيليزا برزانة، مُدْرِكةً برغم أنها لم تكن تعرف كيف، أن أُمِّها أوَّلَتها ثِقَةً خاصَّةً.

"هذا الدبوس يُقدَّرُ بأموال كثيرة، لكن لم أستطِعْ بَيْعَهُ قَطُّ. لقد سَقَطَتْ ضحيَّةُ الزَّمنِ وعواطفي، لكن هذا لا يجب أن يُوقِفَكَ أنتِ".

"أُمِّي؟".

"أنا مريضة يا طفلي. وعمًا قريب ستعتنين بنفسك وبسامي. وربما حينها سيكون من الضروري بيع هذا الدبوس".

(1) في اللغة الإنجليزية كلمتي الصباح والحداد لهما نفس النطق morning و mourning.

"كَلَّا، يا أمي...".

"ربما يصبح ضروريًا، والخيار لك لتقرّري هذا. لا تدعي تردّدي يُرشدك، هل تفهميني؟".

"أجل يا أمي".

"لكن إن حدث وبِعته يا إيليزا كوني حذرةً وأنتِ تفعلين ذلك. لا تبيعيه بشكل رسمي، لا يجب أن يكون له سِجِلٌ رسمي".

"لِمَ لا؟".

نظرت الأم إليها وفهمت إيليزا هذه النظرة. لقد نظرتها إلى سامي عدّة مرّاتٍ حينما يُقرّر أن يكون أمينًا. "لأن عائلتي ستعرف" سكتت إيليزا. قلّما تحدّثت أمها عن عائلتها وماضيها. "سوف يُبلغون بسرّته...".

قطّبت إيليزا.

"بالخطأ يا طفلي، لأنه ملكي. لقد أعطتني إيّاه أمي في عيد ميلادي السادس عشر، لقد ظلّ مع عائلتي لفترة طويلة قبل ذلك".

"لكن لو كان ملكك يا أمي، لماذا لا يجب أن يعرف أحدٌ أنك تملكينه؟".

"هذا البيع سوف يكشف مكاننا، وهذا لا يجب أن يحدث"، ثم أمسكت يدي إيليزا، وعيناها متّسعَتان، ووجهها شاحبٌ وضعيف جراء الكلام. "هل تفهمين؟".

أومات إيليزا بالإيجاب، لقد فهمت، تقريبًا. كانت الأم قلّقة من الرجل الشرير، الذي كانت تُحذّرها منه طيلة حياتهما، الذي يمكن أن يكون في أي مكان، يتوارى في الزوايا، يترقّب فرصة الإمساك بهما. لطالما أحبّت إيليزا القصص، برغم أن الأم لم تسهب في التفاصيل لكي تشبع فضولها. وهكذا أخذت إيليزا تكسو تحذيرات الأم بالتفاصيل؛

فالرجل لديه عينان باردتان، وسَلَّةُ أفاعٍ، وشفتان تلتويان حينما يسخر.

"هل أُحضرُ لكِ الدواء يا أمي؟".

"أنتِ فتاة طيبة يا إيليزا".

وَضَعَتِ إيليزا الأنية الفخارية على الفراش بجوار أمها، وجَلَبَتِ زجاجة صبغة الأفيون. حينما عادت مَدَّتِ الأُمُّ يدها ثانيةً لتربت مُجَدِّدًا على الخُصَلَةِ الطويلة التي فلتت من جديلة إيليزا. "اعتني بسامي. اعتني بنفسك... وتذكّري دومًا أنه حتى الضعفاء يصبحون أقوياء بالعزيمة والإرادة. يجب أن تتحلّي بالشجاعة حينما... إن حدث لي أي مكروه".

"بالطبع يا أمي، ولكن لن يحدث لكِ شيء" لم تُصدّقِ إيليزا هذا ولا الأم. كان الجميع يعلمون ما يحدث لمرضى السل.

تناوَلَتِ الأم رشفَةً من الدواء، ثم مالت إلى الخلف على الوسادة، مُتَعَبَةً من المحاولة. شعرها متناثر حولها، يكشف عن عنق شاحب بندبة وحيدة صغيرة لم تتلاشَ قَطُّ، وهي التي ألهمت إيليزا بقصّتها حول لقاء أُمِّها بالسَّفَاح. قصة أخرى من القصص التي لم تَدَعِ أُمُّها تسمعها.

بعينين مغمضتين، تحدّثت الأم بهدوء، في عبارات سريعة موجزة: "حبيبتي إيليزا. سأقول هذا الكلام مرّةً واحدة. إذا عُثِرَ عَلَيْكِ وتوجّب عليكِ الهرب، حينها فقط، خُذي الأنية. لا تذهبي إلى دار كريستي، ولا تذهبي إلى محلات المتاجر الكبيرة. لديهم سِجِلَات. بل اسألي عن دار السيد باكستر. سيخبرك كيف تجددين السيد چون بيكنيك، والذي سيعرف ماذا سيفعل". ارتعش جفناها بإجهااد جراء هذا الحديث الطويل. "هل تفهمين؟".

أومأت إيليزا.

"هل تفهمين؟"

"أجل يا أمي أفهم."

"وحتّى يحين هذا الوقت، انسي أنها موجودة. لا تلمسيها، لا تُظهرها لسامي، ولا تُخبري مخلوقًا عنها. و... إيليزا...".

"نعم يا أمي؟"

"حذارٍ من الرجل الذي أتحدث عنه".

وقد برّت إيليزا بوعدّها لأمها، تقريبًا. أخرجت الآنية مرّتين فقط للنظر إليها، لكي تتحسّس أصابعها حافّة الدبوس، مثلما فعلت أمّها، وتشعر بسحره، وقوته التي لا تُقدّر بثمن، قبل أن تغلق الغطاء بسرعة وبحرص بالشّمع، وتعيدها إلى مكانها. وبرغم أنها أخرجت الآنية اليوم، لم يكن ذلك بسبب النظر إلى دبوس الحداد. فقد أضافت إيليزا إلى الآنية الفخارية. بالداخل كان كنزها، كان مستقبلها. انتزعت الصرّة الجلدية الصغيرة وأمسكت بها بإحكامٍ في راحة يدها. استمدّت القوة من صلابتها. لقد كانت جليّة وجدها سامي في الشارع وأعطاهما لها. لعبة طفلة ثريّة، سقطت منها ونُسيت، ووُجدت وأُعيد استخدامها. خبأتها إيليزا منذ البداية. وعلمت أنه لو رآها آل سويندل، سيحرصان على وضعها بالأسفل في محلّ الخردوات. وقد رغبت إيليزا في الصرّة أكثر من أي شيء آخر. كانت هديّة، وكانت ملكها. وهي لم تملك هدايا من قبل.

كان ذلك قبل أسابيع من عثور إيليزا على فائدة لاستخدامها أخيرًا؛ فقد وجدتها تصلح كمخبأ لعملاتها السريّة، تلك التي لا يعلم عنها آل سويندل شيئًا، والذي يدفعها لها ماثيو رودن، صائد الجرذان.

كانت إيليزا تتمتع ببراعة في صيد الجرذان، برغم أنها لم تُحِبَّ فِعْلَ ذلك؛ فالجرذان كانت تحاول أن تعيش في مدينة لا تُحَابِي الطَّيِّبِينَ أو الوديعين. حاولت أَلَّا تُفَكِّرَ فيما ستقوله أمها، فقد كانت دومًا رحيمة بالحيوانات، وَعَوَظًا عن ذلك أخذت تُذَكِّرُ نفسها أنها لا تملك خيارات كثيرة؛ فهي وسامي في أَمَسِّ الحاجة إلى نقود تَخْصُمَا، أموال سَرِيَّة لا يعلم عنها آل سويندل شيئًا.

جَلَسَتْ إيليزا على حافة المدفأة، والآنية الفخارية على حِجْرِهَا، ثم نفضت يديها الملوَّتَتَيْنِ بالسُّخَامِ في الجانب السُّفْلِيَّ المخفي من فستانها. لا يجب أن تمسحهما في مكان تراه السيدة سويندل، وتبدأ تشعر بالشُّكِّ. بعدما نظَّفت يديها، فتحت الصُّرَّةَ، وفكَّت الشريط الحريري الناعم، وبيبطءٍ وسَّعَتِ الفتحة واختلست النظر إلى الداخل.

أنقذي نفسك، واعتني بسامي، هكذا قالت الأم. وقد اعتزمت إيليزا على فعل ذلك. كانت هناك أربع عملات من فئة الثلاث بنسات داخل الصُّرَّة. اثنان آخران وسوف يكون معها ما يكفي لشراء خمسين برتقالة. كان ذلك كل ما يحتاجه للشروع في بيع البرتقال. العُمَلَاتُ التي دَبَّرَها ستكفي لشراء الكثير من البرتقال وسيكون معهما أموالهما الخاصَّة، مشروعهما الصغير. سوف يعثران على مكانٍ جديدٍ آمِنٍ يعيشان فيه، بعيدًا عن عيون آل سويندل اليَقِظَةِ الحاقدة المُراقِبَةِ، والتهديد الذي يُلَوِّحان به دومًا بتسليمهما إلى رجال الإصلاحية.

وَفَعُ أقدامٍ على بَسْطَةِ السلم.

دفعت إيليزا النقود في الصُّرَّة، وحزمتها، وألقت بها في الآنية. كان قلبها يتقافز، وضعت الآنية مجددًا إلى مكانها داخل المدفأة، سوف تختمها بالشمع لاحقًا. وقفزت في الوقت الصحيح، وجلست ببراءة على طرف سريرها الهزاز.

انفتح الباب وظهر سامي، كان ما زال لونه أسود من السُخام. بدا في غاية النحول وهو يقف عند إطار الباب، يحمل بيده شمعةً واحدة يرتعش فتيلها، حتى أن إيليزا حَسِبَتْه خدعةً من الضوء. ابتسمت له فجاء نحوها، ومدَّ يده في جيبه وقَدَّمَ لها ثمرة بطاطس صغيرة سرقها خلصة من خزانة الأطعمة الخاصة بالسيدة سويندل.

"سامي!" صاحت إيليزا بتوبيخ وهي تأخذ الثمرة الطريّة. "تعلم أنها تقوم بإحصائهم. سوف تكتشف أنك من أخذتها".

هَزَّ سامي كتفيه، وبدأ يغسل وجهه في طبق المياه بجوار الفراش.

"شكرًا لك" قالتها وهي تضع الثمرة في سَلَّةِ الخياطة حينما لم يكن يراقبها. ستقوم بإرجاعها في الصباح.

"الجوُّ بارد" قالت وهي تخلع مئزرها تاركةً ملابسها التحتية. "لقد جاء البردُ مُبَكَّرًا هذا العام". قفزت إلى الفراش، وهي ترتعش أسفل البطانية الرمادية الخفيفة.

بقميصه الداخلي وسرواله القصير، قفز سامي بجوارها. كانت قدماه باردَتَيْنِ كالثلج. حاولت تَدْفِئْتَهُمَا بقدميها. "هل أَقْصُ عليك حكاية؟".

شعرت برأسه يتحرك، وشعره يَمَسُّ برفقٍ وَجَنَّتَيْهَا وهو يومئ. وهكذا شرعت في قِصِّ حكايتها المفضّلة: "يُحكى أنه في برد الليل والشوارع مظلمة خاوية، وكان التوأمان يدفعان ويتلوّيان داخل بطن الأميرة الصغيرة، سمعت خلفها وقع أقدام، وعرفت على الفور هذه الخطوات الشريرة...".

ظَلَّت تَقْصُ على مسامعه هذه الحكاية لسنوات، لكنها كانت تحرص على ألا تسمعها الأم؛ لأنها ستخبرها أنها تزعج سامي بهذه

القصص الطويلة. لم تكن تفهم أن الأطفال لا يخافون من الحكايات، وأن حياتهم مليئة بأشياء أكثر رُعبًا مما تحتويه القصص الخيالية.

انتظمت أنفاسُ شقيقها القليلة وَعَلِمَت أنه سقط في سُباتٍ عميق. توقَّفت عن الكلام، وأمسكت بيده. كانت بارِدَةً ونحيفة. شعرت بخَفَقَةٍ من الدُّعْرِ في صدرها. أحكمت قبضتها على يده، وأصغت إلى صوت أنفاسه. "سوف يكون كُلُّ شيء على ما يرام يا سامي" همست، مُفكِّرةً في الصُّرَّة الجلدية، والأموال بداخلها. "أَعِدُّكَ أن أبذل جهدي ليحدث ذلك".

(15)

لندن، 2005

حينما وَصَلت كساندرا إلى مطار هيثرو كانت روبي، ابنة بين، في انتظارها. امرأة بدينة في أواخر الخمسينيات من عمرها، ذات وجه أحمر، وشعرٍ قصيرٍ رماديٍّ مستقيم. كانت شخصًا يلاحظه الناس بسهولة؛ إذ أن لها طاقة تملأ الجو من حولها. وقبل أن تجد كساندرا الوقت لتعبّر عن دهشتها من وجود هذه الغريبة في المطار لتُحييها، اختطفت روبي حقيبة السفر منها، وأحاطتها بذراع ممتلئ، وقادتها نحو الباب الزجاجي للمطار إلى موقف السيارات المليء بالدخان.

كانت سيَّارَتُها القديمة، ذات الباب الخلفي، تعبق من الداخل برائحة المسك وزهرة لم تستطع كساندرا معرفة اسمها. حينما وضعنا جِزَامِي الأمان، انتزعت روبي من حقيبة يدها كيسًا من سكاكر العِرق سوس مختلفة الأشكال وعَرَضتَه على كساندرا، والتي أخذت مُكعَّبًا مُخَطَّطًا ذا ألوان بُنيَّة وبيضاء وسوداء.

"إنني مُدْمِنَةٌ عليها" قالت روبي، وهي تقذف بحبَّةٍ وَرْدِيَّةٍ في فمها وتكسرهما. "مُدْمِنَةٌ حَقًّا. أحيانًا لا أكاد أفرغ من واحدةٍ إلَّا وأقذف بأخرى في فمي". راحت تمضغ بقوةٍ للحظة، ثم ابتلعتها. "الحياة قصيرة على الاعتدال، أليس كذلك؟".

برغم الوقت المتأخَّر كان الطريق مُكْتَنَظًّا بالسيارات. أسرعَت السيارة على الطريق السريع الليلي، والذي اصطَفَّت على جانبيِّه عواميد الإنارة المحنيَّة مُلقِيَّة بوهجٍ برتقاليٍّ على الطريق المُعَبَّد بالقار. وبينما أخذت روبي تقود بسرعة، وتضغط على الفرامل عند الضرورة القصوى، وهي تومئ وتهزُّ رأسها للسائقين الآخرين الذين يتجاسرون على الاقتراب من طريقها، راحت كساندرا تحدِّق خارج النافذة، وتتعبَّ ذهنياً الحلقات أحاديَّة المركز للحركات المعمارية للندن. كانت تحبُّ التفكير في المدن بهذه الطريقة. القيادة من الحافة إلى المركز كانت تشبه الانطلاق في كبسولة زمنية إلى الماضي. فنادق المطار العصرية، والطرق الرئيسية الواسعة المُمهَّدة تتحوَّل إلى المنازل المُطليَّة بالحصى، ثم المربعات السكنية للعمارات، وأخيراً، قلب البيوت المتلاصقة المبنية على الطراز الفيكتوري.

بينما كانتا تقتربان من وسط لندن، قرَّرت كساندرا أن تُخَيِّرَ روبي باسم الفندق الذي حجزت فيه لمدةً ليلتين قبل مغادرتها إلى كورنوال. نَقَبَت في حقيبتها عن المَلَفِّ البلاستيكي الذي تحتفظ فيه بوثائق السفر. "هل نحن بالقرب من هولبورن⁽¹⁾ يا روبي؟".

"هولبورن؟ كلاً. إنها في الجهة الأخرى من المدينة. لماذا تسألين؟".

"لأن فندقي يقع هناك. يمكنني أن أستقلَّ سيارةً أجرةً بالطبع، لا أتوقع أن تُقلِّيني كل هذه المسافة".

(1) منطقة في حي كامدن في مدينة ويستمنستر بلندن.

نظرت روبي إليها طويلاً، حتى أن كساندرا قلقت لعدم انتباهها إلى الطريق. "فندق؟ لا أعتقد ذلك" ثم غيرت السرعة، وضغطت على الفرامل في الوقت المناسب كي تتحاشى الاصطدام بشاحنة زرقاء أمامها. "ستمكثين معي، انتهى الموضوع".

قالت كساندرا، وبريق المعدن الأزرق ما زال واضحاً في ذهنها: "كلاً، لا أستطيع، لا أريد أن أسبب لك أي إزعاج". بدأت تُرخي قبضتها على مقبض باب السيارة. "بجانب إلى أنه فات أوان إلغاء الحجز".

التفتت روبي نحوها مُجدِّداً، وكان حزام الأمان يضغط على صدرها الكبير حتى كاد يقفز من بلوزتها، وقالت: "لم يفت بعد. سأقوم به نيابةً عنك. وليس هناك إزعاج. لقد أعددت لك فراشاً وانتظرتُ زيارتك"، ثم ابتسمت وهي تقول: "سيقتلني أي لو علم أنني أرسلتك إلى فندق!".

حينما وصلتا إلى جنوب كنسينجتون، دارت روبي بسيارتها إلى الخلف وأوقفتها في مساحة صغيرة للغاية، وحبست كساندرا أنفاسها، يُخرسها الإعجاب بثقة هذه المرأة القوية. "ها قد وصلنا"، قالت وهي تنزع مفاتيح التشغيل، وتشير نحو صف من البيوت المتلاصقة البيضاء على الجهة الأخرى من الطريق. "ما أجمل العودة إلى البيت!".

كانت الشقة بالغّة الصُّغر، تقع بعد طابقين في منزلٍ مبني على الطراز الإدواردي⁽¹⁾، والباب الرئيسي لونه أصفر. كانت تحتوي على غرفة نومٍ واحدة، وحجرة استحمام صغيرة ومرحاض، ومطبخ صغير مُلحق بغرفة الجلوس. أعدت روبي الأريكة كفراش لكساندرا.

"للأسف إنه فندقٌ ثلاث نجوم. سأعوّضك في الإفطار!"

(1) طراز معماري يتسم بالزخرفة القليلة، ظهرَ في المملكة المتحدة خلال فترة حكم الملك إدوارد السابع (1901-1914).

رمقت كساندرا بِشَكِّ المطبخ الصغير، وضحكت روبي حتى اهتزت بلوزتها الخضراء الليمونية. مسحت عينيها ثم قالت: "يا إلهي! كلاً! لا أقصد أن أعد الإفطار. لماذا نعاني وهناك شخص آخر يمكن أن يؤدي المهمة بشكل أفضل؟ سنذهب إلى مقهى"، ثم نقرت زر تشغيل إبريق الشاي. "هل ترغبين بفنجان من الشاي؟".

ابتسمت كساندرا بوهن. ما أرادته حقاً أن تترك عضلات وجهها تسترخي من هذه الابتسامة المُجاملة. ربّما يعود سبب ذلك لأنها كانت فوق سطح الأرض لفترة طويلة، أو ربّما بسبب ميلوها الانطوائية إلى حدّ ما، لكنها كانت تستخدم كلّ ذرّة من جهدها لكي تتظاهر بالنشاط. فنجان من الشاي سيعني 20 دقيقة أخرى على الأقل من الابتسامات والإيماءات. كان الرّب في عونها وهي تبحث عن أجوبة على أسئلة روبي اللحوحة. فكّرت لهيئة بتوقٍ مُذنبٍ في غرفة الفندق على الجانب الآخر من المدينة. ثم أدركت أن روبي كانت تغمُرُ بالفعل كيسيّ شاي في فنجانين، فقالت لها: "سيكون الشاي رائعاً".

قالت روبي وهي تُناولها فنجاناً ساخناً: "إذن تفضّلي". جلّست على الناحية الأخرى من الأريكة وابتسمت، بينما سحابة من الهواء المُعبّق برائحة المسك تحيط بها. "لا تكوني خجلى" قالتها وهي تشير إلى علبة السُكّر، ثم أضافت "وأخبريني كلّ شيء عنك. يا له من أمر مثير هذا المنزل في كورنوال!".

بعدما آوت روبي إلى الفراش أخيراً، حاولت كساندرا أن تخلد إلى النوم. كانت مُرهقة. اختلطت حولها الألوان والأصوات والأشكال، لكن النّوم كان مُراوِغاً. راحت صور وحوارات تدور بسرعة في ذهنها، تيار لا نهائي من الأفكار والمشاعر لا يربطه شيء سوى: نيل وبين،

وجناح التَّحَف، وأُمُّها، ورحلة الطائرة، والمطار، وروبي، وإيليزا ماكيبس
وحكاياتها الخيالية...

استعصى عليها النوم؛ فدفعت عنها الأغطية ونزلت من على
الأريكة. كانت عيناها قد تكيَّفَتَا على الظلام فسارت إلى النافذة
الوحيدة في الغرفة. كان إفريزها الواسع يبرز من أعلى المبرِّد، وإذا
أزاحت جانبًا الستائر سيناسبها المكان تمامًا، فتستند على جدار
سميك، وتضم قَدَمَيْهَا مَعًا. انحنَت إلى الأمام على ركبتيها ونظرت
إلى الخارج، على الحدائق الفيكتورية القليلة بأسوارها الحجرية التي
التهمها نباتُ اللبلاب، ونحو الشارع الخلفي. انسلَّ ضوء القمر بهدوء
على أرضية الغرفة.

وبرغم انتصاف الليل، لم تكن لندن مُظلمَةً. وفكَّرت أن مدينةً
مثلها، لن يُخَيِّمَ عليها الظلام قَطُّ في ذلك الوقت، ليس بعد الآن.
لقد قتل العالمُ الحديث وقتَ الليل. وبالتأكيد كان ذلك مُختلِفًا ذات
يوم؛ إذ كانت مدينةً واقِعَةً تحت رحمة الطبيعة. مدينة تستحيل فيها
الشوارع بالليل إلى سوادٍ مُدْلِهِمٍّ، والهواء إلى ضباب. لندن في زمن چاك
السَّفَّاح.

كانت تلك لندن زمن إيليزا ماكيبس، لندن التي قرأت عنها
كساندرا في مُفكِّرة نيل، الشوارع التي يغشاها الضباب، وتلوح الخيول
في الأفق، والقناديل المتوهِّجة التي تَبِينُ ثم تختفي. نظرت إلى الأسفل
نحو الأزقة الخلفية الضيِّقة المُمهَّدة بالأحجار المستديرة خلف شقَّة
روبي، يمكنها أن تتخيَّل الآن: خيالون أشباحٌ يُروِّضون حيواناتهم المُخيفة
في الحارات المزدهمة، ورجال المصايح يجلسون على مُقدِّمة العربات،
والبائعون، وبائعات الهوى، ورجال الشرطة واللصوص...

مكتبة
t.me/t_pdf

(16)

لندن، 1900

تَسَلَّلَ الضَّبَابُ كَثِيفًا أَصْفَرَ اللون، كَمَخْفُوقِ البَاذِلَاءِ، طَوَالَ اللّيل، وهبَطَ على سَطْحِ النهر، وافترَشَ بِثِقَلِ الشُّوَارِعِ، وامتدَّ حَولَ البيوت، وزحفَ أسفلَ حواجز الأبواب. راقبته إيليزا من فتحة القرميد. تحت عباءته الصامتة، استحالت البيوت، ومصابيح الغاز، والجدران إلى ظلالٍ مُفزَعَةٍ ضَخْمَةٍ، تترنَّحُ جيئةً وذهابًا بينما السحب الكبريتية تتحرك حولها.

تركت لها السيدة سويندل كومةً من الغسيل، ولكن إيليزا رأت أنه ليس هناك فائدة تُرجى من غسل أي شيء في هذا الضباب، فالأبيض سيتحوّل إلى رماديّ بنهاية اليوم. كان يكفي تعليق الملابس في الخارج مُبلَّلةً، ولكن غير مغسولة. وهذا ما فعلته؛ ستدّخرُ بذلك قطعة صابون، ويوفّر لها الوقت. فإيليزا لديها أمور أفضل تفعلها حينما يكون الضباب كثيفًا: الاختباء والتسلُّل.

كانت لعبتها المفضلة هي السَّفَاح. في البداية كانت تلعبها بمفردها، ومع مرور الوقت لَقَّنت سامي قواعدها، وصارا يتبادلان الآن أدوار الأمِّ والسَّفَاح. لا تعرف إيليزا أيهما تستمتع به أكثر. أحيانًا تفضل دور السفاح بسبب قُوَّته المُطلَقة؛ والتي تجعل جلدتها ينضح بمتعة مُدنيَّة، وهي تزحف وراء سامي، وتكتم قهقهتها مُتهيئةً للإمساك به...

لكن ثَمَّة شيءٌ مُغويٌّ في لعب دور الأمِّ أيضًا: أن تمشي بهدوء وبحذر، وترفض النظر من فوق كتفها، وتأبى الانطلاق رَاحِضَةً، وتحاول استباق وقع الأقدام خلفها، بينما نبضات قلبها تتقاذف لتغطِّي عليها، وتتركها دون تحذير مناسب. كان الخوف مُمتِعًا؛ يجعلها تستشعر وخزًا خفيفًا في جلدتها.

وبرغم أن آل سويندل خارج المنزل يبحثان (كان الضباب هَدِيَّةً لِسُكَّانِ النهر الذين يعيشون على الكفاف بوسائل مُنَعِدِمَة الضمير)، نزلت إيليزا الدَّرَجَ بهدوء، وحرصت على تحاشي صرير الدرجة الرابعة؛ فقد كانت سارة، الفتاة التي تعتنى بابنة آل سويندل، هاتي، من النوع الذي يتملِّق أرباب عملها بتقديم تقارير ماكرة حول إخفاقات إيليزا.

توقَّفت إيليزا في نهاية الدَّرَج، وأنعمت النظر في الكُتَل والأشكال الظلِّيَّة للمتجر. زحف الضباب على القرميد، وانتشر في الغرفة، وحلَّق بِثِقَلٍ على المعروضات، وتشبَّثَ لونٌ أصفر بمصابيح الغاز المرتعشة. كان سامي في الزاوية الخلفية، يجلس على كرسيٍّ بلا ظهر ينظِّف الزجاجات. ولاحظت إيليزا أنه كان غارقًا في أفكاره؛ على وجهه ارتسم قناع أحلام اليقظة. اختلست نظرةً سريعةً لتتأكَّد أن سارة لم تكن مُختَبِئَةً، ثم سارت نحوه بهدوء.

"سامي!" هَمَسَتْ وهي تقترب منه.

لم يسمعها.

"سامي!".

توقفت رُكْبَتُهُ عن الاهتزاز، ومال حتى ظهر رأسه من واجهة المتجر. شعره المستقيم تدلَّى جانِبًا.

"هناك ضبابٌ بالخارج".

مِلامِحُهُ الثابتة عَكَستِ عِلْمَهُ بالعِبارَةِ. هَزَّ كَتْفِيهِ ببطء.

"ضبابٌ كثيفٌ كوحلٍ بالوعة، أخفى مصابيح الشارع كلها. جَوٌّ مثاليٌّ للعبة السَّفَاح".

جذب هذا انتباهَ سامي. صمت لهُنيْهَةً يفكّر، ثم هَزَّ رأسه. وأشار إلى مقعد السيد سويندل الذي انحسرت داخله حشيةٌ مُلَطَّخة، من أثر ضغط عظام ظهره عليها، ليلَةٌ تلو الليلة، حينما يعود من الحانة.

"لن يعرف بأمر ذهابنا. لن يعود إلَّا بعد فترةٍ طويلة، وكذلك هي". هَزَّ رأسه مُجدِّدًا، بحماسٍ أقلَّ هذه المرَّة.

"سينشغلان طوال الظهيرة، لن يُفوتَا فُرْصَةَ كَسْبِ المزيد من الأموال". أوشكت إيليزا على إقناعه بالموافقة. لقد كان جزءًا منها في النهاية، وكانت دَوْمًا قَادِرَةً على قراءة أفكاره. "هَلُمَّ، لن نتأخَّر. سنذهب إلى النهر ثم نعود مُجدِّدًا"، كادت تنجح، "بإمكانك اختيار الدور الذي ترغبه".

ونجحت العبارة الأخيرة؛ كانت تعلم أنها ستفي بالغرض. نظر إليها سامي بعينيه الكئيبتين، ثم رفع يده، وگَوَّر قبضته الصغيرة الشاحبة كما لو أنه يُمَسِّكُ سِكِّينًا.

وقف سامي بجوار الباب، ينتظر عشر ثوانٍ لتتسلَّل إليزا بعيدًا. خَفَضَتْ رأسها أسفل حبال غسيل السيدة سويندل، ودارت حول عربة جامع الخِرَق، وشَقَّتْ طريقها نحو النهر. دَقَّ قَلْبُهَا كَالطَبْل من الإثارة. كانت تَجِدُ مُتَعَةً في الشعور بالخطر. تَلَطَّمَتْ أمواجٌ من الخوف المثير أسفل جلدها وهي تتسلَّل، وتمشي بين الناس، والعربات التي تَجْرُهَا الخيول، والكلاب، وعربات الأطفال، الغارقة في الضباب. وطوال الوقت كانت تُرهِفُ سمعها لوقع الأقدام المُتَسَلِّة خلفها، تحاول الظفر بها.

على النقيض من سامي، أَحَبَّتْ إليزا النهر، كان يجعلها تشعر بأنها قريبة من أبيها. لم تخبرها أمها بمعلومات إضافية عن الماضي، لكنها قالت لإليزا ذات مرة إن والدها ترعرع في منعطفٍ مختلف من النهر. كان يعمل في سفينةٍ لنقل الفحم قبل انضمامه إلى طاقم بحَّارة آخر وانطلاقه إلى أعالي البحار. كانت إليزا تحب التفكير في كل ما رآه عند منعطف النهر، بالقرب من رصيف الإعدام، حيث كان يُسَنَقُ القراصنة، وتبدلُ أجسادهم متأرجحةً من الأغلال، قبل أن يأتي المَدُّ ثلاث مَرَّات ويغمرها. كانوا يطلقون عليها في الماضي رقصة الشنق.

ارتجفت إليزا وهي تتخيَّل الأجسادَ المَيِّتَةَ، وتتساءل عن معنى أن يلفظ الإنسان أنفاسه الأخيرة وهو مشنوق، ثم وبَّخَتْ نفسها لَتَشْتَّتِ أفكارها، فتلك هَفْوَةٌ كان يَزَلُّ فيها سامي. وكان هذا في صالحه؛ لذا وجب عليها أن تحتاط بشكل أكبر.

الآن أين خطوات سامي؟ أَجْهَدَتْ لتصغي وتُرْكُز. وسمعت... نعيق نوارس بجوار النهر، وصرير حبال صارية، وتمدُّ خشب هيكل سفينة، ودرجة عربة ناقلة، وصيحة صائد الحشرات: "أَمْسِكْهُمْ أَحْيَاءً"، ووقع خطوات حثيثة لامرأةٍ مُسْتَعَجِلَةً، وهتاف صبي يبيع الصحف...

فجأةً، سمعت خلفها صوت اصطدام، وصهيل حصان، وصياح رجل.

تعالّت دَقَاتُ قَلْبِهَا، وكادت تلتفت مُتلهِّفَةً لرؤية ما حدث. لكنها توقّفت في الوقت المناسب، وإن كان ذلك أمرًا ليس سهلاً عليها؛ إذ كانت فضوليّة الطّبع، مثلما كانت أمّها تخبرها بذلك دائماً. كانت تهزُّ رأسها وتقطع بلسانها وتخبرها أنها لو لم تكفّ عن الفضول سينتهي أمرها وهي تجري نحو جَبَلٍ من صنيع أوهامها. لكن إن كان سامي بالقرب منها ورآها وهي تنظر خلسةً ستخسر، وهي كادت تقترب من النهر. اختلّطت رائحة طَمِي نهر التّمر برائحة الضباب الكبريتية. ها قد أوشكت على الفوز، عليها أن تواصل قليلاً فحسب.

سمعت جلبّةً وراءها، ورنين الجرس بالقرب. ربما اصطدم الحصان الأخرق بعربة شاحِدِ السّكاكين. إن الخيول تُجنُّ قليلاً في الضباب. يا له من حيوان مزعج! ما الفرصة التي لديها لكي تسمع سامي لو هاجمها الآن؟

ظهر السور الصخري عند طرف النهر يلفّه الضباب.

ابتسمت إيليزا ابتسامَةً عريضة، وشرعت تجري الياردات القليلة المتبقّية.

كان الجَرِيُّ مُخالفًا للقواعد، لكن لم يكن بوسعها منع ذلك. ضربت يداها الصخور القذرة وصرخت بمُتعةٍ. لقد نجحت، لقد فازت، تفوّقت على السّفّاح مُجددًا.

تسلّقت إيليزا الجدار وجلست عليه بانتصار، تُواجه الشارع الذي جاءت منه. دقّت كعبيها على الصخر، وأمّعت النظر باحثَةً عن طبقة ضباب تأخذ شكل سامي الزاحف. يا للمسكين. لم يكن بارِعًا مثلها في الألعاب. كان يأخذ وقتًا أطول ليتعلّم القواعد، ولا يُتقن جيّدًا الدور الذي يلعبه. لم يكن بارِعًا في أمور التّظاهر مثل إيليزا.

وبينما هي جالسة، اندفعت إليها روائح الشارع وأصواته. ومع كل نَفَسٍ تَذَوَّقَتْ الضباب الزيتي، وارتفع صوتُ الجرس الذي سمعته منذ برهة. كان الناس يبدون مُتحمِّسين من حولها، وأخذوا يندفعون جميعًا نحو اتجاهٍ واحد كما فعلوا حينما أصيب ابنُ جامع الخِرَقِ بإحدى نوبات الصَّرَعِ، أو حينما يأتي عازف الأرغن النُّقال.

بالطبع! إنه عازِفُ الأرغن النُّقال، هذا يُفسَّرُ مكان سامي.

قفزت إيليزا من السور، وخطَّ حذاؤها على صخرة بارزة أسفله.

لم يكن بوسع سامي مقاوَمة الموسيقى. بالتأكيد كان واقفًا بجوار العازف، يُحَمِلُ بِقَمِّ مفتوحٍ قليلًا في الأرغن، وقد تَبَخَّرَت من ذهنه كُلُّ الأفكار حول السَّفَاح واللعبة.

تَبَعَتِ النَّاسَ المُحتَشدين، ومَرَّت من أمام متجر بائع التبغ، وصانع الأحذية، ومكتب الرهونات. ولكن بينما أخذ الحشدُ يتزايدُ، وتلاشى صوت الجرس، لم تسمع إيليزا صوتَ الأرغن؛ فحَثَّت حُطَّاهَا.

استقرَّ في قلبها فَرَعٌ مجهول، وشقَّتْ بمرفقِها طريقًا بين الحشد الواقف، سيدات أنيقات في تنانيرهنَّ، ونبلاء في معاطف الصباح، وصبيّة الشوارع، وغسّالات، وموظفون، وأخذت تتفحَّص الوجوه بحثًا عن سامي.

انتشرت الأنباء من منتصف الحشد، وأمسكت إيليزا شذراتِ تَمَّ تَبَادُلُهَا في همسات محمومة فوق رأسها: حسانُ أسود ظهر من المجهول، صبيٌّ صغير لم يره قادمًا، الضباب الرهيب.

ليس سامي، لا يمكن أن يكون هو. لقد كان وراءها بالضبط، كانت تسمع خطواته...

اقتربت الآن، واستطاعت أن ترى عبر الضباب. حبست أنفاسها، وهي تتقدم نحو الصفوف الأولى من المتفرجين. أبصرت أمامها مشهداً مُروِّعاً.

استوعبت المشهد دفعةً واحدة، وفهمته على الفور: الحصان الأسود، والجسد الضئيل لصبي يرقد بجوار مدخل محلّ الجزار، شعره مُخضَّبٌ بلونٍ أحمرٍ غامق، وعيناه الزرقاوان شاخصتان، وقد شُجَّ صدره برفسة الحصان.

كان الجَزَّار قد خرج من محله وركع بجوار الجسد. "لقد مات. ليس هناك أمل، يا للمسكين".

نظرت إيليزا إلى الحصان. كان مُضطرباً، خائفاً من الضباب، والحشد، والضوضاء. يلهث بأنفاس كبيرة حارة، واضحة؛ لأنها حلت محلّ الضباب قليلاً.

"هل يعرف أحدكم اسمَ هذا الصبي؟".

تحرك الناس يلتفتون، ويرفعون أكتافهم، ويهزّون رؤوسهم. ثم أحد الأصوات يقول بترددٍ: "سأبحث عمّن يكون".

التقت عينا إيليزا بعيني الحصان السوداوين البراقّتين. وقف الحصان صامتاً، كما لو أن العالم وكل ضجّته تدور حولها. حدّقا لبعضهما، وفي تلك اللحظة شعرت أنه رأى ما بداخلها. ملح الخواء الذي انفتح بسرعة، والذي ستحاول ملئه طيلة حياتها.

قال الجزار: "لا بدّ وأن أحدهم يعرفه".

ران صمتٌ على الحشد، كان الجوّ غريباً. كانت إيليزا تتعلّم أنها يجب أن تشعر بالكراهية نحو الحيوان الأسود، يجب أن تمقت رجليّه القويّتين، وفخذيه الصّلبتين الملساوين، لكنها لم تفعل. تسمّرت عيناها

على عينيه، وشعرت بالتقدير، كما لو أن الحصان فهم خواءها الذي لن يفهمه أحد.

"حسنًا" قال الجزار ثم أطلق صفيراً، وجاء غلام صغير يعمل معه. "أحضر العربة واحمل الصبي". هرع الغلام إلى الداخل ثم عاد بعربة خشبية. وبينما كان يحمل عليها جسد الصبي المهشّم، شرع الزبال يكنس الطريق التي تلطّخت بالدماء.

"أظن أنه يعيش في شارع كنيسة باترسي" جاء صوتٌ بطيء ثابت. بدا أنه أحد الرجال من شركة المحاماة التي كانت الأم تعمل بها، لم يكن صوت شخصٍ أرستقراطي، لكنه يبدو متأنقاً بين من يسكنون بجانب النهر.

رفع الجزار رأسه ليرى من أين يأتي الصوت. رجلٌ طويل يرتدي نظارةً ومِعطفاً أنيقاً ولكن مُتآكلٌ تقدّم إلى الأمام من الضباب. "لقد رأيته هناك منذ يوم". سرّت همهمةً بين الواقفين وهم يستوعبون هذه المعلومة. ونظروا مرةً أخرى إلى جسد الصبي المتهشّم. "هل تعرف أي منزل أيها السيد؟".

"للأسف لا أعرف".

أشار الجزار إلى الصبي قائلاً: "خُذه إلى شارع كنيسة باترسي واسأل لا بُدَّ وأن أحدهم يعرفه هناك".

أوماً الحصان لإليزا، وأحنى رأسه ثلاث مرّاتٍ، ثم تنهّد ونظر بعيداً.

طرفت إليزا بعينيها وقالت بصوت هامس: "انتظر".

نظر الجزار إليها. "ماذا؟".

التفتت الأعين إلى الفتاة الصغيرة ذات الجديلتين الطويلتين من الشعر الذهبي. رمقت إيليزا الرجل الذي يرتدي نظارة. كانت العدسات برآقةً وبيضاء حتى أنها لم ترَ عينيه.

رفع الجزارُ يده لإسكات الناس وهو يقول "هل تعرفين اسم هذا الغلام البائس يا فتاة؟".

قالت إيليزا: "اسمه سامي ماكيس، وهو أخي".

كانت الأم قد ادَّخَرَت بعض الأموال لجنائزها، ولم تدَّخر شيئًا لطفليها. وكان هذا طبيعيًا، هل يوجد أب أو أم يتوقَّعان موتَ أطفالهما في سنِّ صغيرة؟

"سيُدفنُ في مقبرة الفقراء خارج كنيسة القديس برايد"، قالت السيدة سويندل، لاحقًا في ظهيرة نفس اليوم. كانت ترتشف الحساء ثم أشارت بالملعقة نحو إيليزا، والتي كانت تجلس على الأرض. "سيفتحون الحفرةَ مُجددًا يوم الأربعاء، وحتى ذلك الوقت أعتقد أننا سنحتفظ بالجُثة هنا". مَضَّغَت ما بداخل فمها، ومَطَّت شفرتها السفلى. "بالطبع بالأعلى؛ فالرائحة الكريهة ستُبعِدُ الزبائن".

كانت إيليزا قد سَمِعَت عن مقبرة الفقراء في كنيسة القديس برايد، والحفرة الكبيرة، التي يُعادُ فتحها كلَّ أسبوع، وكومة الجُثث، والقسيسِ يؤدِّي قُدَّاسَ الجنازة سريعًا كي ينقذ نفسه من الرائحة الكريهة. قالت إيليزا: "كلَّا، ليس في كنيسة القديس برايد".

توقَّفت الصغيرة هاتي عن مضغ الخبز. وتركت الكتلة تستريح خلف خدِّها الأيمن بينما تنظر، بعينين مُتسعَتَيْن، من أمها إلى إيليزا.

اعتصرت أصابع السيدة سويندل الرفيعة الملعقة وهي تقول: "كلَّا؟". قالت إيليزا: "أرجوكِ يا سيدة سويندل، دعيه يحظَّ بجنازة

مُنَاسِبَةً كجِنَازَةِ أُمِّي". وَعَضَّتْ عَلَى لِسَانِهَا كِي لَا تَبْكِي. "أُرِيدُهُ أَنْ يَكُونَ مَعَ أُمِّي".

"عَجَبًا! تَرِيدِينَ ذَلِكَ؟ وَرَبِّمَا تَرِيدِينَ كَذَلِكَ عَرَبِيَّةٌ مَوْتِي يَجْرُهَا حِصَانٌ؟ وَمَجْمُوعَةٌ مِنَ النَّدَابِينَ؟ وَرَبِّمَا تَظُنِّينَ أَنَّنَا سَنَقُومُ بِدَفْعِ رَسُومِ الْجِنَازَةِ أَنَا وَالسَّيِّدِ سُوَيْنِدَلْ". زَفَرَتْ بِأُذُنَيْهَا مُسْتَمْتِعَةً بِالْحَوَارِ الْفِظِّ. "لَسْنَا مُؤَسَّسَةً خَيْرِيَّةً أَتَيْتِهَا الْفَتَاةُ. سَيُذْفَنُ الصَّبِيُّ بِمَقْبَرَةِ كَنِيسَةِ الْقَدِيسِ بَرَايِدِ، وَهِيَ مُنَاسِبَةٌ لِأَمْثَالِهِ، إِلَّا إِنْ كَانَ مَعَكَ نَقُودٌ".

"لَا أُرِيدُ عَرَبِيَّةٌ مَوْتِي يَا سَيِّدَةَ سُوَيْنِدَلْ، لَا نَدَابِينَ. أُرِيدُ فَحَسَبَ أَنْ يُذْفَنَ فِي قَبْرِ خَاصٍّ بِهِ".

"وَمَنْ تَقْتَرِحِينَ أَنْ يُرْتَّبَ كُلُّ هَذَا؟".

أَزْدَرَدَتْ إِيْلِيْزَا لِعَابِهَا وَهِيَ تَقُولُ: "شَقِيقُ السَّيِّدَةِ بَارَكِرْ حَانُوْتِي، رُبَّمَا يُمْكِنُهُ فَعَلُ ذَلِكَ. بِالتَّأَكِيدِ لَوْ طَلَبْتِ مِنْهُ يَا سَيِّدَةَ سُوَيْنِدَلْ...".

"وَأَبَدُّدُ مَعْرُوفًا عَلَيْكَ وَعَلَى شَقِيقِكَ الْغَبِي؟".

"لَيْسَ غَبِيًّا".

"غَبِيٌّ لِأَنَّ الْحِصَانَ دَهَسَهُ".

"لَمْ يَكُنْ خَطَأَهُ، بَلْ كَانَ الضُّبَابُ".

عَبَّتِ السَّيِّدَةُ سُوَيْنِدَلْ الْمَزِيدَ مِنَ الْحَسَاءِ عِبْرَ شَفَتَيْهَا السُّفْلَى.

"إِنَّهُ حَتَّى لَمْ يَرِغْبُ فِي الْخُرُوجِ".

"بِالتَّطَبُّعِ لَمْ يَرِغْبُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ طَبْعَهُ. بَلْ كَانَ مِنْ طَبْعِكَ أَنْتِ".

قَالَتْ السَّيِّدَةُ سُوَيْنِدَلْ.

"مَنْ فَضَّلَكَ يَا سَيِّدَةَ سُوَيْنِدَلْ، يُمْكِنُنِي أَنْ أُدْفِعَ".

ارْتَفَعَ حَاجِبَاهَا وَقَالَتْ: "عَجَبًا! هَلْ تَسْتَطِيعِينَ؟ بِالْوَعُودِ الْفَارِغَةِ؟".

فَكَرَّتْ إيليزا في الصُّرَّةِ الجليدية، وقالت: "أنا... أنا معي بعض النقود".

فتحت السيدة سويندل فمها وسال الحساء. "بعض النقود؟".

"القليل من النقود".

"حسنًا أيتها الحقيرة"، وتقلَّصت شفتاها وهي تقول: "كم؟".

"شَلن".

انفَجَرَت السيدة سويندل في ضحكٍ فَجٍّ غريبٍ مُفْرِعٍ، حتى أن طفلتها الصغيرة شرعت تصرخ. "شَلن؟". بصَّقت. "شَلن لن يشتري مسامير لإغلاق التابوت".

فَكَرَّتْ إيليزا في دبوس الزينة الذي يخصُّ أمَّها، يمكنها أن تبيعه. صحيح أنها وَعَدَت أمَّها بألا تُفَارِقَهُ قَطُّ إلا إذا ظهر الرجل الشرير، لكن بالتأكيد في موقف كهذا...

كانت السيدة سويندل تَسَعَلُ الآن، تختنق في مَرَجِها غير المُتَوَقَّع. ضربت على صدرها النحيل، ثم أجلسَت الصغيرة هاتي على الأرض. "كُفِّي عن مُوَأثِكِ، لا يمكنني التفكير".

جلست للحظة، ثم ضيَّقَت عينيها باتجاه إيليزا، وأومات قليلًا وخُطَّةً تختمر بعقلها. "كُلُّ تَوَسُّلاتك جعلتني أعقد العزم على التأكد -بشكلٍ شخصي- أن ينال الصبي ما يستحقُّه: سيُدْفَنُ بمقبرة الفقراء". "أرجوك...".

"وسأخذ الشَّلنَ نظير أتعابي".

"لكن يا سيدة سويندل...".

"كفى! هذا سيُلَقِّنك درسًا؛ لأنك حقيرة، تُخَبِّئِ النقود. انتظري حتى يعود السيد سويندل إلى البيت ويسمع عن ذلك، ستدفعين

الثلثين". ثم ناوَلت إيليزا طَبَقَهَا قائلة: "الآن اجلبي لي طبقًا آخر، وخذِي هاتي إلى الفراش".

كانت الليالي هي الأسوأ. اتَّخَذت صَجَّة الشارع طبيعةً مُبَهَّرَجَةً، وشرعت الظلال تطوف دونما سبب، وجدت نفسها وحدها في الغرفة الضيقة لأول مرة في حياتها؛ فسقطت ضحيةً كوابيسها، والتي كانت أسوأ من أي شيء تَخَيَّلته في قصصها.

بالنهار، كان العالم ينقلب رأسًا على عقب، كثوب مُعلَّقٍ على حبل الغسيل. نفس الشكل والوزن واللون، لكن بشكلٍ خاطئ. وبرغم أن جسد إيليزا اعتاد على تأدية مهامه الروتينية كل يوم، أخذ عقلها يتجوَّل في أراضي مخاوفها. مرَّةً تلو المرَّة، تتخيَّل سامي أسفل حُفْرَةِ كَنِيسَةِ القِدِّيس برايد، راقِدًا، بأطراف مهشَّمة، مُلقَى بين أجساد موتى مجهولين، محبوبسًا أسفل التراب، عيناه مفتوحتان، فمه يحاول أن يصيح أن ثَمَّة خطأ، أنه لم يكن ميِّتًا على الإطلاق.

نَفَّذت السيدة سويندل ما أرادت، ودُفن سامي بمقبرة الفقراء. كانت إيليزا قد أخرجت دبوس الزينة من مخبئه، وذهبت إلى منزل جون بيكنيك، لكن في النهاية لم تُواتها الشَّجَاعَةُ لبيعه. وقفت خارج المنزل لنصف ساعة كاملة، تحاول اتخاذ القرار. كانت تَعَلِّمُ أن بيع الدبوس سيجلب لها ما يكفي من الأموال لدفن سامي بشكلٍ لائق. لكنها تعلم أيضًا أن السيد والسيدة سويندل سوف يسألان عن مصدر الأموال وسوف يعاقبانها بلا رحمة لاحتفاظها بهذا الكنز الثمين.

لكن لم يكن الخوف من آل سويندل هو ما جعلها تُقرَّر عدم بيعه. بل ولا حتى صوت أمها التي جعلتها تَعِدُّها أن تبيع الدبوس في حالة ظهور الرجل الشبح. بل خافت أن يكون المستقبل أكثر سوءًا

من الماضي. أن يأتي يوم، مُخَبِّأً في السنوات الضبابية القادمة، يكون فيه الدَّبُّوس أملها الوحيد للنجاة.

غَادَرَت دون أن تطأ قدماها منزل السيد بيكنيك، وَعَجَلَت بالعودة إلى متجر الخردوات، والدبوس يحرق بثقبٍ مذنبٍ جيبتها. وقالت لنفسها إن سامي سيفهم، وأنه يعرف مثلها ثمن الحياة على منعطف النهر.

ثم طَوَّت ذكراه بهدوء؛ لَفَّتْهَا في طبقاتٍ من مشاعر الفرح والحب والالتزام، التي لم تَعُد بحاجة إليها، ورمتها في أعماق روحها. لا بُدَّ وأن تتجرَّد من تلك الذكريات والعواطف. يموت سامي صارت إيليزا شبه إنسان. صارت روحها بارِدَةً، ومُظْلِمَةً، وخاوية، كغرفةٍ خَلَّت من ضوء الشموع.

فيما بعد، لم تعرف إيليزا متى واتها الفكرة للمرة الأولى. لم يكن هناك شيئاً مُخْتَلِفًا في اليوم المُحدَّد. فتحت عينها في عتمة الغرفة الصغيرة مثلما تَعَوَّدَت كُلَّ صباح، ورقدت ساكِنةً، تحاول الدخول مُجَدِّدًا في جسدها بعد ليلة طويلة مُضْنِيَّة.

أزاحت البطانية جانِبًا ونهضت. وضعت قدميها الباردتين على الأرض. سقطت ضفيريها على كتفها. كان الجوُّ بارِدًا، وقد استسلم الخريف للشتاء، والصبح مُظْلِمًا كالليل. أشعلت فتيل الشمعة، ثم نظرت إلى فستانها المُعلَّق على ظهر الباب.

لماذا فَعَلْتَهَا؟ ما الذي جعلها تَمُدُّ يدها وراء الفستان نحو القميص والبنطلون القصير المُعلَّقين في الخلف، وتتحسَّس ملابس سامي؟

لم تعرف إيليزا قَطُّ، لكنها شعرت أن ذلك كان صوابًا، كأنه الشيء الوحيد الصحيح لتفعله. كانت رائحة القميص مألوفةً كملابسها، وفي

نفس الوقت مختلفة، وحينما ارتدت البنطلون القصير، استمتعت بشعور غامض على كاحليها العاريين، بلمس الهواء البارد على جلدٍ اعتاد الجوارب. جلست على الأرض وربطت حذاء سامي، كان يناسبها تمامًا.

ثم وقفت قبالة المرأة الصغيرة ونظرت، بينما ضوء الشمعة يهتز بجوارها. بادلها النظر في المرأة وجه شاحب، شعر طويل أحمر ذهبي، عينان زرقاوان يعلوهما حاجبان خفيفان. ودون أن تشيح عينيها عن المرأة التقطت مقص الخياطة الموضوع في سلة الغسيل، ومدت ضفيرتها. كان شعرها كثيفًا، وكان عليها أن تخترقه. أخيرًا، سقطت الضفيرة في يدها، وتحرر الشعر على رأسها أشعث حول وجهها. استمرت في القص حتى كان شعرها مساويًا لطول شعر سامي، ثم اعتمرت قبعتها.

كانا توأمين؛ لم تندهش وهي ترى أن شكليهما صار واحدًا. جذبت إيليزا نفسًا، وابتسمت، ببطء. ابتسم سامي إليها بدوره. مدت يدها ولمست الزجاج البارد للمرأة، لم تعد وحدها.

طق... طق...

طرف مكنسة السيدة سويندل على السقف بالأسفل، دعوتها اليومية لبدء الغسيل.

التقطت إيليزا ضفيرتها الطويلة الحمراء من الأرض، محلولة من مكان فصلها عن الرأس، وربطت خيطًا حول طرفها. فيما بعد، ستضعها مع دُبُوس الزينة. لم تعد بحاجة إليها بعد الآن. أضحت ذكرى من الماضي.

(17)

لندن، 2005

تَعرِف كساندرا أن الحافلات ستكون باللون الأحمر بالطبع، وذات طابقيين، لكن رؤيتها تندفع على ميدانيّ كنسينجتون وبيكاديليّ سيركس من نوافذها العلوية كان شيئاً مُدهِشاً. مثل السقوط في قصة أطفال، أو أحد الأفلام الكثيرة التي تفرّجت عليها حيث سيارات الأجرة السوداء التي لها شكل الخنفساء تنطلق مُسرّعةً على الجادات المرصوفة، والشرفات التي بُنيت على الطراز الإدواردي تصطفُ في الشوارع العريضة، والرياح الشمالية تَمُدُّ سُحُبًا خفيفة عبر سماء خفيفة.

كانت في لندن التي شاهدتها في ألف فيلم، ألف قصة، لأربع وعشرين ساعة حتى الآن. حينما استيقظت أخيراً من نومها الذي أرهقه السفر، وجَدَت نفسها وحيدة في شقّة روبي الضيّقة، وشمس النهار تَنحَدِر بين الستائر لتلقي بشعاع رفيع على وجهها.

على مقعد صغير بلا ظَهْر بجانب الأريكة- الفِراش، وجدت ملحوظةً من روبي تقول:

افتقدتُكِ على الإفطار! لم أرغب في إيقاظك، تناوَلِي ما تجدينه. الموز في طبق الفاكهة، والبقية في الثلاجة، برغم أنني لم أُلْقِ عليها نظرةً مُؤخَّرًا، ربما كانت مُخيفة! هناك مناشف في خِزانةِ الحَمَّامِ إذا أَرَدتِ الاستحمام. أنا في مُتحَفِ فيكتوريا وألبرت حتى السادسة. يجب أن تأتي وتشاهدي المعرض الذي أنسَّقه الآن. ثمة شيء مُهمٌ للغاية يجب أن تريه!

ملحوظة: تعالي مُبكرًا بعد الظُّهر. الاجتماعات التَّعَسَّة طيلة الصباح.

وهكذا في الساعة الواحدة، وبمَعِدَّةٍ تَحْتِجُ وَقَفَّت كساندرا في منتصف طريق كرومويل، منتظرةً تَوَقُّفَ السَّيَّارات التي تنساب بشكلٍ أَبَدِيٍّ عبر شرايين المدينة كي تَعْبُرَ إلى الجهة الأخرى. وَجَدت أمامها مُتحَفَ فيكتوريا وألبرت ضَخْمًا وَفَخْمًا، وقد أَلْقَتْ ظلال النهار عباءتها بسرعة على مُقَدِّمَتِهِ الحجرية. صرْحًا عملاقًا من الماضي، تعرف أن بداخله الكثير والكثير من الغُرَفِ الحافلة بالتاريخ. آلاف الأشياء، خارج الزمان والمكان، تردَّد بهدوء صدى أفراح وأتراح حيوات مَنسِيَّة. التقت بروبي مُصادَقَةً وهي ترشد مجموعة من السُّيَّاح الألمان إلى مقهى المتحف الجديد. همست روبي بصوتٍ عالٍ وهم يتعدون: "صدقًا، أنا مع وجود مقهى في المبنى، أحبُّ القهوة الجيدة كالجميع، لكن لا شيء يثير غيظي أكثر من هؤلاء الذين يمرون مرور الكرام على معرضي بحثًا عن الكعك السحري الخالي من السكر والمشروبات الكحولية المستوردة!".

ابتَسَمَت كساندرا بذنبٍ قليل، أَمَلَةً أَنْ لَا تَسْمَعَ روبي مَعِدَّتَهَا وهي تصرخ احتجاجًا على الروائح الشبيهة بالمنبعثة من المقهى. كانت ستتوجّه إلى هناك بالفعل.

"أعني كيف يُفوّتون فرصةً مُعايَنة الماضي عن كُثب؟" وأشارت بيدها إلى صفوف الخزائن الزجاجية التي تراصّت فيها كنوز مجموعتها. "كيف يجرؤون؟".

هزّت كساندرا رأسها وكتّمت قرقرةً. "لا أعرف".

تنهّدت روبي بشكل استعراضيّ. "أنتِ هنا الآن ولا يهمني هؤلاء المدّعين. كيف حالك؟ هل ما زلتِ تشعرين بتعب السفر؟".

"أنا بخير... شكرًا".

"هل حظيتِ بنومٍ جيد؟".

"الأريكة كانت مُريحةً للغاية".

قالت روبي وهي تضحك: "لا حاجة بكِ إلى الكذب. رغم أني أقدرُ مُجامَلتِكِ. على الأقل منعتك الأريكة من النوم طيلة اليوم. وإلا كنتُ سأتصلُ وأوقظك. لم أكن لأتركك تُفوّتين هذا". ابتَسَمَت ثم قالت: "لا أصدّق حتى الآن أن ناثانيال وواكر عاش يومًا في نفس المكان الذي يقع فيه الكوخ! بل من المُحتمَل أنه رآه وألهمه. وربما دخله" بعينين لامعتين مستديرتين، طوّقت روبي بذراعها كتف كساندرا وشرّعتا تجوبان الممرّات. "هيا، سيروك هذا!".

برجفة خفيفة، تهيّأت كساندرا لتتظاهر بالحماس لما سثريه روبي لها.

"ها هم" أشارت روبي بانتصارٍ نحو صَفٍّ من الرسومات التخطيطية المحفوظة في خزانة. "ما رأيك؟"

شَهَقَتْ كساندرا، ومالت إلى الأمام لتحظى بنظرةٍ أفضل. ليست بحاجة إلى التَّظَاهُرِ بالحماس. كانت الرُّسومات المعروضة صادمةً ومُثيرةً لها. "ولكن من أين...؟ كيف استطعت...؟" رَمَقَتْهَا كساندرا بنظرةٍ شَكِّ، فَصَفَقَتْ رُوبِي بيديها مَعًا بِمُتَعَةٍ واضحة. "لم أعرف أنها موجودة".

"لم يعرف أحد" قالت رُوبِي بجذل. "لا أحد سوى المالكَّة، وأؤكد لك أنها لم تفكِّر فيهم كثيرًا منذ وقت طويل".

"كيف حَصَلَتْ عليهم؟".

"بالصُّدْفَةِ البحتة يا عزيزتي. بالصُّدْفَةِ البحتة. حينما فكَّرتُ للمرة الأولى في المعرض، لم أرغب في عرض الأشياء الفيكترورية القديمة المُعتادة التي يراها الناس لعشرات السنين؛ لذا وضعت إعلانًا موثَّقًا صغيرًا في كُلِّ المجلَّات المُتخصِّصة التي أعرفها. كان إعلانًا واضحًا للغاية، ويقول: مطلوب للإعارة: أشياء فَنِّيَّةٌ مُهمَّةٌ من نهاية القرن التاسع عشر، كي تُعرَضَ في معرضٍ مُتخَفٍ لنندن برعاية كبيرة. ويا للعَجَب! تلقَّيتُ مكالِمَاتٍ هاتِفِيَّةً في اليوم الأول الذي نُشر فيه الإعلان. معظمها زائفة بالطبع، على غرار لوحات الجِدَّة مافي للسماء، وهَلُمَّ جَرًّا، لكن ثَمَّة قِطْعٌ ذَهَبِيَّةٌ بين الحُطام. سوف تندهشين من عدد النفائس التي ظلَّت موجودةً برغم العناية البسيطة".

فكَّرتُ كساندرا أنه نفس الشيء مع التُّخَفِ القديمة؛ أفضل المُكتَشَفَاتِ دومًا كانت تلك المُنسِيَّة لعقود، والتي فلتت من تحمُّس أنصار "اصنعها بنفسك".

نظرت رُوبِي مُجدِّدًا إلى الرسومات، ثم ابتسمت لكساندرا وهي تقول: "كانت تلك من بين أنفُسِ المُكتَشَفَاتِ. رسومات غير مُكتملة رسمها ناثانيال وواكر، مَنْ يُصدِّق؟ أقصد، لدينا مجموعة صغيرة

من لوحاته بالأعلى، وهناك بعضها في متحف تيت⁽¹⁾، لكن على حَدِّ عِلْمِي، وعلى حَدِّ عِلْمِ أَيِّ شَخِصٍ آخَرَ، كل هذا هو ما تَبَقَّى. أعتقد أن الباقي...".

"دُمْر، أجل، أعلم" احمرَّت وجنتا كساندرا. "اشتھر ناثانيال وواكر بالتَّخُلُص من الرسوم الأُولَيَّة التي لم يَرْض عنها".

"إذن يُمكنك تَخْيُل كيف شعرتُ حينما سلَّمتني المرأة هذه الرسومات. لقد كنتُ أقود طيلة الطريق من كورنوال اليوم السابق، وأخرج من منزل إلى آخر، رافِضَةً بأدبٍ شَتَّى الأشياء غير المناسبة على الإطلاق. وحقاً..."، ثم أشاحت بعينها تَبَرُّماً وهي تقول: "كانت تُدهِشني الأشياء التي يعتقد الناس أنها تَفِي بالعرض. يكفي القول إنه حينما وصلتُ إلى منزل تلك السيدة كِدْتُ أعود أدراجي. كان بيتًا من البيوت الصغيرة البيضاء التي تقع على شاطئ البحر بأسطح اردوازية رمادية، وكنت على وشك الاستسلام حينما فتَّحت كلارا الباب. كانت قصيرة القامة، كشخصيةٍ خارجة من قَصص بياتركس بوتر⁽²⁾، دجاجة عجوز ترتدي مئزرًا منزليًا. قادتنِي إلى أضيق غرفة جلوس رأيتها في حياتي، شَقَّتِي بجانبها تبدو قَصراً، وأصرَّت على إعداد فنجانٍ من الشاي لي. كنت أفضل الويكسي بعد ذلك اليوم الذي حَظيْتُ به، لكنني استرخيْتُ في مقعدي وانتظرت لتزِيني الشيء عديم القيمة الذي سأضيع وقتي عليه".

"وأعطتك هذه".

(1) متحف مخصص للفنون بلندن تأسس عام 1897.

(2) هيلين بياتركس بوتر كاتبة ورسامة إنجليزية اشتهرت بكتابة قصص الأطفال، واخترعت شخصية (الأرنب بيتر).

"تعرّفتُ عليها على الفور. إنها ليست مُوقَّعة، لكنها تحمل ختمه. انظري إلى أعلى اليسار. وأقسم لكِ شرعتُ أرتجف حينما رأيتها. وكِدْتُ أسكب فنجان الشاي عليها".

"لكن كيف حصّلت هي عليها؟ ومن أين؟".

"قالت إنها كانت بين الأشياء التي تخُصُّ والدتها، والتي تُدعى ماري، انتقلت مع كلارا بعدما صارت أرملةً، وعاشت هناك حتى ماتت في منتصف الستينيات. كلتاهما أرملتان، وأعتقد أنهما كانتا صديقتين مُقربَتَيْن. بالتأكيد كانت كلارا مسرورةً لوجود واحدةٍ مثلي مُتسوّقةً لسماع قصصٍ عن أمّها الغالية. وقبل أن أغادر أصرت على أن تصطحبني إلى الطابق العلوي عبر أخطر دَرَجٍ لكي ألقى نظرة على غرفة ماري". مالت روبي على كساندرا وقالت: "ويا لدهشتي، ربّما ماتت ماري منذ أربعين عامًا، لكن الغرفة بدت كأنها ستصل البيت في أي لحظة. كان شيئًا مُخيفًا ومُمتعًا في آنٍ واحد. فراشٌ فرديٌّ صغير، ما زال قائمًا بشكل مُمتاز، وعلى الطاولة الجانبية جريدة مطوية على الصفحة العلوية بها كلمات متقاطعة شبه منهيّة. وأسفل النافذة كان هناك صندوق مُغلق، يُغري بفتحه!"، مشطت شعرها الرمادي الهائج بأصابعها. "صدّقيني... قاومتُ نفسي بالكاد من عبور الغرفة وتحطيم القفل بيديّ العاريتين".

"هل فتحتِه؟ هل رأيت ما بداخله؟".

"لم يحالفني هذا الحظُّ. ظللتُ أقاومُ بقسوةٍ وقادتني إلى الخارج بعد لحظاتٍ لاحقًا. ورضيت برسومات ناثانيال وواكر وضمانات كلارا بعدم وجود غيرها بين أشياء أمّها".

"هل كانت ماري فتانّة أيضًا؟".

"ماري؟ كلاً، كانت خادمة. في البداية على الأقل. خلال الحرب العالمية الأولى عملت في مصنع ذخائر حربية، وأعتقد أنها تركت

الخدمة - إن جاز التعبير - بعد ذلك. تزوّجت من جزار، وقضت بقية حياتها تصنع السُّجُقَّ الأسود وتُنظِّف ألواح التقطيع. لستُ متأكّدةً أيُّهما أكرهه!".

قالت كساندرا عاقِدةً حاجِبَيْها: "في كلتا الحالتين، كيف حصلت عليها؟ ناثانيال وواكر مشهور بالسرية فيما يخص أعماله، ورسوماته التوضيحية كانت نادرة. لم يُعْطِها لأي شخص، ولم يوقِّع عقود مع ناشرين يرغبون في الاحتفاظ بحقوق الأصول، وهذا بالنسبة للأعمال المكتملة. لا أعرف كيف افترق عن هذه الرسومات غير المكتملة!".

هزّت روبي كتفيها وهي تقول: "استعارتها؟ اشترتها؟ ربما سرقها. لا أعرف، وأعترف أنني لا أمانع كثيراً. أنا راضية باعتباره أحد الألغاز الجميلة في الحياة. حمداً لله أنها حصلت عليهم، وأنها لم تدرك قيمتهم قط، ولم تجدهم يستحقُّون العرض، وبذلك حفظتهم لنا بكل جمالٍ طوال القرن العشرين".

مالت كساندرا لتلقي نظرةً قريبةً على الرسومات. من الواضح أنها كانت مُسوّداتٍ أوْلِيَّةً لرسوم توضيحية في كتاب الحكايات الخيالية. رُسِّمَتْ بسرعة، ومُثابِرَةً بطريقة استطلاعية، مليئة بحماس الفنان لموضوع الرُّسم. حبست كساندرا أنفاسها وهي تتذكّر شعورها حينما بدأت ترسم. "أمر لا يُصدِّق أن تُتاح لك فرصة رؤية عمل في طور الإنجاز. إنه يعطي لمحة عن الفنان، وأعتقد عن العمل المُكتمل أحياناً".

"مثل تماثيل مايكل أنجلو في فلورنسا".

نظرت كساندرا إلى روبي بِشَكٍّ، مسرورة بنباهتها. "لقد أصابني قُشْعريَّةٌ حينما شاهدتُ صورةً تلك الركبة البارزة من الرخام. كما لو أن التمثال ظلَّ عالِقاً بالداخل لفترة طويلة، بانتظار قدوم شخص بارع ليحرِّره".

لمعت عينا روبي بفكرة مُباغِثَة. "أنصتي. ستقضين ليلة واحدة في لندن، هيّا نخرج ونتناول شيئًا. من المفترض أن أقابل صديقي جراي، لكنه سيتفهم. أو ربما سأحضره أيضًا، في الصُحبة بهجّة، في النهاية..."

"عُذراً سيّديتي" جاءت لكنة أمريكية "هل تعملين هنا؟".

رجلٌ طويل أسود الشعر وقف بينهما.

"أجل. كيف أساعدك" قالت روبي.

"أنا وزوجتي نشعر بالجوع، وأحدهم بالأعلى ذكّر أن ثمة مقهى هنا بالأسفل؟".

أدارت روبي عينيها ضجراً، ثم قالت لكساندرا: "هناك محلُّ كارلوشيو الجديد بالقرب من المحطّة. الساعة السابعة، على حسابي."، ثم زمّت شفيتها ورسمت ابتسامة صغيرة. "أجل من هذا الطريق يا سيدي. سأريك إيّاه".

حينما غادرت كساندرا المتحف، ذهبت لتبحث عن غداء متأخر. وتذكّرت أن الوجبة الأخيرة التي تناولتها كانت بالتأكيد العشاء على الطائرة، وحنفّة من سكاكر روبي، وفجائناً من الشاي؛ لا عجب أن معدّتها كانت تصرخ مُحتجّة. تحتوي مُفكّرة نيل على خريطة جيب لمنطقة وسط لندن، وعلى حدّ علم كساندرا، أينما سارت ستجد مكاناً لتأكل. وبينما كانت تُحدّق في الخريطة لاحظت صليباً بالحبر الباهت، على الجانب الآخر من النهر، شارع في منطقة باترسي. شعرت بالحماس يندفع في جسدها. كانت هناك علامة إكس على المكان، ولكن أي مكان بالضبط؟

بعد عشرين دقيقة لاحقاً، جلبت شطيرة تونة، وزجاجة مياه من مقهى في شارع كينجس رود الرئيسي، ثم سارت في شارع فلد نحو

النهر. على الجانب الآخر، انتصبت بشموخ ووضوح المداخن الأربعة لمحطة طاقة باترسي. شعرت كساندرا بحماسٍ غريب يدبُّ في أوصالها وهي تقتفي خطوات نيل.

أشرفت شمس الخريف من مخبئها، وأخذت تُرسل أشعةً فضيَّةً على نهر التمز. لكم شهد هذا النهر: حيواتٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى قُضيت على ضفتيه، وفياتٍ لا حصر لها. ومن هذا النهر غادرت سفينة، منذ سنوات طوال، تحمل على متنها نيل الطفلة، لتنتزعها من حياةٍ معروفةٍ، مُلقيةً بها نحو مستقبل مجهول. مستقبلٍ أضحى الآن ماضيًا، حياةٍ ولَّت. ومع ذلك ما زالت مُهمَّة، لنيل ولكساندرا. هذا اللُّغز كان إرثها. والأهمُّ من هذا، أن حلَّه وقَّع على عاتقها.

(18)

لندن، 1975

أمالت نيل رأسها كي تحظى برؤية أفضل. ظنّت أن برؤيتها للمنزل الذي عاشت فيه إيليزا ربما تتعرّف عليه بطريقة ما، وتشعر بشكل غريزي أنه كان مهمًّا في ماضيها، لكن ذلك لم يحدث. كان منزل 35 الذي يقع في شارع كنيسة باترسي غريبًا تمامًا بالنسبة لها. كان منزلًا عاديًّا يشبه المنازل الأخرى في الشارع. كان يتكوّن من ثلاثة طوابق، ونوافذ ذات إطارات مُنزَلِقة، وأنايب صرّفٍ رفيعة ترتفع على جدران مبنية من القرميد الخشن الذي استحال إلى اللون الأسود بفعل الزمن والسُخام. كان الشيء الوحيد الذي يُميّز المنزل إضافةً غريبة أعلاه؛ فقد بُني جزءٌ من السقف ليكون عُرفَةً أخرى، رُغم أنه دون رؤيتها من الداخل من الصعب معرفة ذلك.

أمّا الطريق فكان موازيًا لنهر التيمز. هذا الشارع القذر الذي تطفح بالوعاته بالقمامة، ويلهو على رصيفه أطفالٌ يسيل المخاط

من أنوفهم، لم يبدُ المكان الذي يُلهمُ كاتِبَةَ قصصِ خياليَّة. كانت تلك أفكارًا سخيْفَةً رومانسيَّة، ولكن حينما تخيَّلت نيل إيليزا اكتست أفكارها بصُورِ حدائق كنسينجتون التي صوَّرها ج. م. باري⁽¹⁾، أو الجمال السُّحري لأكسفورد التي رسمها لويس كارول⁽²⁾ بكلماته.

لكن هذا هو العنوان المذكور في الكتاب الذي ابتاعته من السيد سنيلجروف. كان هذا هو المنزل الذي ولدت فيه إيليزا ماكيبس، والذي قضت فيه سنواتها الأولى.

حَثَّت نيل الخُطى. لم يكن هناك نشاطٌ داخل المنزل؛ فتجاسرت بالاقتراب من النافذة الأمامية. أبصرت غرفةً صغيرةً، ومدفأةً من القرميد، ومطحناً غير مُرتب، ودرَجًا ضيِّقًا يتشبَّث بالجدار بجانب باب.

تراجعت نيل خُطوةً إلى الوراء، حتى كادت تتعثَّر في أصيصٍ داخله نبات ذابل.

وجه في النافذة المجاورة جعلها تقفز، وجه شاحب تُطوِّقه هالة من الشَّعر الأبيض المُجعَّد. أغمضت نيل عينيها وفتحتهما بسرعة، وحينما نظرت مُجدِّدًا كان الوجه قد تلاشى. هل هو شبح؟ طرفت بعينيها مرةً أخرى. لم تؤمن بوجود الأشباح، لم تكن ممَّن يُفزعُهُم الظلام.

انفتح باب منزل رقم 37 بقوة. وظهرت امرأةً ضئيلة، لا يتعدَّى طولها أربعة أقدام، ذات رجلين نحيلتين، تتوكأ على عصا. "من أنتِ أيَّتھا الفتاة؟" قالت بصوت غير واضح ولهجة لندنية. لقد مضت أربعون عامًا تقريبًا منذ أن دعاها أحدهم بفتاة. قالت وهي تتراجع

(1) جيمس ماثيو باري (1860-1937) روائي وكاتب مسرحي اسكتلندي، صاحب شخصية (بيتر بان) الشهيرة.

(2) روائي إنجليزي ومصوِّر فوتوغرافي وعالم رياضيات، من أشهر أعماله (أليس في بلاد العجائب).

مُتَحاشِيَةً النِّبَاتِ الذَّابِلِ: "اسمي نيل أندروز. أنا مُجَرَّدُ زَائِرَةٍ. كُنْتُ أَتَجَوَّلُ. كُنْتُ أَحَاوِلُ أَنْ... " ثُمَّ مَدَّتْ يَدَهَا وَقَالَتْ: "أنا استرالية".

"استرالية" قالت المرأة، وشففتاها الشاحبتان تنسحبان إلى الزوايا في ابتسامة صَمْعِيَّةٍ. "لماذا لم تقولي ذلك؟ زَوْجُ ابْنَةِ أَخِي اسْتِرَالِيٌّ. إِنَهُمَا يَعِيشَانِ فِي سِيدِنِي، رُبَّمَا تَعْرِفِينَهُمَا؟ دِيزْمَنْدُ وَنَانِسِي بَارَكِر؟".

"كَلَّا، لِلْأَسْفِ"، قالت نيل، فَتَغَيَّرَتْ مَلَامِحُ الْعَجُوزِ. "لَا أَعِيشُ فِي سِيدِنِي".

قالت المرأة ببعض الشُّكِّ: "رَبَّمَا لَوْ ذَهَبْتَ إِلَى هُنَاكَ سَوْفَ تَلْتَقِينَ بِهِمَا مُصَادَفَةً".

"دِيزْمَنْدُ وَنَانِسِي. سَأَتَذَكَّرُ".

"لَا يَعُودُ إِلَى مَنْزِلِهِ إِلَّا مُتَأَخَّرًا مَعْظَمَ الْوَقْتِ".

قَطَّبَتْ نِيلُ جَبِينَهَا. هَلْ تَقْصِدُ زَوْجَ ابْنَةِ أَخِيهَا الْقَاطِنِ بِسِيدِنِي؟

"الرَّجُلُ الَّذِي يَعِيشُ بِالْجَوَارِ. إِنَّهُ هَادِيٌّ مُعْظَمَ الْوَقْتِ" ثُمَّ قَالَتْ بِصَوْتِ هَامَسٍ: "رَبَّمَا يَكُونُ زِنْجِيًّا، لَكِنَّهُ يَعْمَلُ بَكْدًا". ثُمَّ هَزَّتْ رَأْسَهَا. "تَخَيَّلِي! رَجُلٌ أَفْرِيْقِيٌّ يَعِيشُ هُنَا فِي مَنْزِلِ 35. لَمْ أَحْلَمْ بِأَنِّي سَأَعِيشُ وَأَرَى هَذَا الْيَوْمَ. سَتَسْتَشِيْطُ أُمِّي غَضْبًا فِي قَبْرِهَا لَوْ عَلِمَتْ أَنَّ نَمَّةً سَوْدَاً يَعِيشُونَ فِي الْمَنْزِلِ الْقَدِيمِ".

تَحَرَّكَ فَضُولُ نِيلِ. "هَلْ عَاشَتْ أُمُّكِ هُنَا أَيْضًا؟".

"أَجَلٌ" قَالَتْهَا الْمَرْأَةُ بِفَخْرٍ. "وَأَنَا وُلِدْتُ هُنَا، فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ بِالذَّاتِ الَّذِي أَثَارَ اهْتِمَامِكِ".

"وُلِدْتَ هُنَا؟" رَفَعَتْ نِيلُ حَاجِبَيْهَا. لَا يَوْجَدُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ عَاشُوا حَيَاتَهُمْ بِرُمَّتِهَا فِي شَارِعِ وَاحِدٍ. "مَتَى كَانَ هَذَا؟ مِنْذُ سِتِّينِ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا؟".

"على وجه التحديد منذ ثمانية وسبعين عامًا". برز ذقنها حتى بان شعرها الفضي في الضوء.

قالت نيل ببطء: "منذ ثمانية وسبعين عامًا. كُنْتُ هنا طيلة هذا الوقت. منذ..." ثم بحساب سريع. "منذ عام 1897؟".

"أجل، ديسمبر 1897. كُنْتُ حينها طفلةً عيد الميلاد".

"هل تتذكّرين شيئًا؟ أعني من طفولتك؟".

غمغمت: "أحيانًا أعتقد أنها الذكريات الوحيدة التي أمتلكها".

"لا بُدَّ وأن المكان كان مُخْتَلَفًا حينها".

قالت المرأة بحكمة: "أجل، وهذا حقيقي".

"إنني أبحث عن امرأة كانت تعيش في هذا الشارع أيضًا. على ما يبدو في ذلك المنزل. ربما تتذكّرينها؟" فتحت نيل حقيبتها، وسَحَبَتْ صورةً كانت قد نَسَخَتْها من غلاف كتاب الحكايات الخيالية. ولاحظت أن أصابعها كانت ترتعش قليلًا. "كانت مرسومةً كصور الحكايات الخيالية، لكن لو دَقَّقْتِ النظر في وجهها...".

مَدَّت العجوز يدها المُتَغَضَّنَةَ وأخذت الصورة، حَدَّقَتْ فيها حتى أن صفوفًا من التجاعيد احتشدت حول عينيها. ثم بدأت تغمغم.

قالت نيل وهي تحبس أنفاسها: "هل تعرفينها؟".

"أعرفها جيّدًا. وسأتذكّرُها إلى أن أموت. كانت تُخيفني حينما كنتُ صغيرةً. كانت تُقْصُّ عليّ كل الحكايات المخيفة حينما كانت تُعرف أن أمِّي لم تكن موجودةً لتُعاقِبِها"، ثم نظرت إلى نيل، وهي تُقْطَبُ حتى أن جبينها تَجَعَّد: "إليزابيث؟ إيلين؟".

قالت نيل بسرعة: "إليزا. إليزا ماكيبس. صارت كاتبةً".

"لم أعرف ذلك. لسْتُ قَارِئَةً بطبيعة الأمر. لا أدري مدى نفع كل تلك الصفحات. كل ما أعرفه أن الفتاة التي في الصورة كانت تحكي قصصًا ينتصب لها شَعْرٌ سَاعِدِيٌّ. جعلتنا نخاف نحن -معظم الأطفال- من الظلام، برغم أننا كُنَّا نعود إليها دائماً طلبًا للمزيد. لا أعلم من أين تعلّمت هذه القصص".

نظرت نيل مُجَدِّدًا إلى المنزل، وحاوَلت أن تفهم إحساس إيليزا وهي فتاة صغيرة تَقْصُّ حكاياتها المخيفة على الأطفال.
"افتقدناها حينما أُخِذت" قالت المرأة وهي تهزُّ رأسها بأسى.
"ظننتُ أنكِ سُررتِ لأنها لم تُعد تخيفك وقتذاك".

"كلًّا"، قالت العجوز وشفتاها تتحرَّكان كأنها تمضغ علكةً. "ليس هناك طفل لا يحب الشعور بالخوف بين الحين والآخر". نَقَرَت عصاها على بقعة من الدرجات التي تَفْتَتُّ طبقاتها، ثم مالت على نيل وهي تقول: "وهذه الفتاة ذاقَت أسوأ خوف، أسوأ بكثير من قصصها. فَقَدَت شقيقها يومًا ما في الضباب. وهذا الحادث لم يُضاهِ أيُّ شيء مُرِعٍ حَكَّته لنا. حصان أسود كبير داس على قلبه مباشرة". هزَّت رأسها ثم قالت: "ولم تُعد الفتاة كما كانت من قبل. أعتقد أنها جُنَّت قليلًا، قَصَّت شعرها، وأخذت تلبس السراويل القصيرة على ما أتذكَّر!".

شعرت نيل بإثارة؛ إذ كانت تلك المعلومات جديدة.

تَنَحَّحَت العجوز، وسحبت منديلًا وبصقت فيه. ثم استأنفت كلامها كأن شيئًا لم يحدث. "انتشرت شائعة تقول إنهم أخذوها إلى الإصلاحية".

قالت نيل: "لم يحدث ذلك. أُرْسِلت لتعيش مع عائلتها في كورنوال".

"كورنوال". سَمِعَت نيل إبريق شاي يصفر من الداخل. "أليس هذا أمراً رائِعاً؟".

"أعتقد بلى".

قالت العجوز بإيماءةٍ نحو المطبخ: "هذا وقت الشاي". ونطقت العبارة كأنها أمرٌ واقع، حتى أن نيل ظنّت لوهلة أنها ستدعوها إلى الداخل، وتُقدِّم لها الشاي، وتقصُّ عليها قصصاً كثيرة عن إيليزا ماكيبس. لكن حينما شرَّعت العجوز تُغلقُ الباب تلاشى الأمل الواهم. "انتظري" قالت نيل وهي تمدُّ يدها لتمسك بالباب.

واربّت العجوز الباب بينما طفق إبريق الشاي يصيح. سحبّت نيل ورقةً من حقيبة يدها، وشرعت تخطُّ عليها. "هذا عنوان ورقم هاتف الفندق الذي أمكث فيه، أيُمكنكِ الاتّصال بي إن تذكّرتِ شيئاً آخر عن إيليزا؟".

رفعت العجوز حاجبها الأبيض، وتوقّفت لهنيهة، كأنها تُعاينُ نيل، ثم أخذت الورقة. كان صوتها مُتغيّراً قليلاً حينما تحدّثت. "لو تذكّرتُ أيّ شيء. سأخبرك".

"شُكراً يا سيّدة...".

"سويندل" قالت العجوز. "آنسة هاريت سويندل. لم ألّتقِ برجلٍ يجعلني أحمل اسمه".

رفعت نيل يدها لتلّوِّح بالتحية، لكن العجوز أغلقت الباب بالفعل. وبينما توقّف الإبريق أخيراً عن الصياح بالداخل، ألقت نيل نظرةً سريعة على ساعتها. إن أسرع، سيكون أمامها المزيد من الوقت للوصول إلى مُتحفِ تيت. هناك سترى اللوحة التي رسمها ناثانيال وواكر لإيليزا، والتي يُطلق عليها (المؤلّفة). سحبّت خريطة لندن السياحية الصغيرة من حقيبتها، ومرّرت أصابعها على موقع

النهر حتى وجدت ميلبانك⁽¹⁾. بنظرة سريعة أخيرة على شارع كنيسة باترسي، ابتعدت نيل، وحافلة لندن الحمراء تتمايل أمام المنازل الفيكتورية التي شهدت طفولة إيليزا.

على جدار المعرض وجدت لوحة المؤلفة مُعلّقة. وكانت مثلما تتذكّرها نيل. خُصلة كثيفة مُسترسلة على كتفها، ياقة بيضاء مكشكشة زُرّت حتى ذقنها وغطت جيدها الجميل. كانت ترتدي قُبعة مختلفة عن الطراز المألوف الذي كانت السيدات يعتمرنه في عصر الملك إدوارد. كانت أطرافها رجوليّة، ودرجة ميلها أكثر أناقة. شعرت نيل بأن السيدة التي كانت ترتدي هذا النوع من القبعات كانت جريئة بطريقة ما، رغم أنها لم تدّر كيف عرفت ذلك. أغلقت عينها. لو حاولت أكثر ستتذكّر الصوت. كان يتسلّل إلى ذهنها أحياناً، صوتٌ فضيٌّ، مليء بالسحر والغموض والألغاز. لكنه كان ينزلق دوماً بعيداً قبل أن تتشبّث به ذاكرتها، وتجعله ملكها يمكنها استحضاره وقتما تشاء.

كان الناس يتحرّكون خلفها، ففتحت عينها مُجدّداً. طالعتها اللوحة فاقتربت منها أكثر. كانت لوحة غريبة؛ فقد رُسمت بأقلام الفحم، كأنها دراسة أكثر منها لوحة. وكان الإطار مُثيراً للانتباه أيضاً. لم تكن إيليزا تواجه الفنان، بل رُسمت وكأنها تمشي بعيداً، كأنها أدارت ناظريها في اللحظة الأخيرة وتجمّدت في تلك اللحظة. ثمّة شيء ساحر في عينها الواسعتين، وقد انفرجت شفتاها كأنها تتحدّث، وكان هناك شيء غير مريح كذلك. لم تكن هناك ابتسامة، كأنّ أحدهم باغتها، أو راقبها، أو حاصرها.

(1) منطقة تقع في وسط لندن، تُطلُّ على نهر التيمز بمدينة ويستمنستر.

تمنّت نيل لو تنطق اللوحة وتخبرها من تكون، وما الذي كانت تفعله معها، ولماذا صعدتًا على متن تلك السفينة، ولماذا لم ترجع لها. شعرت نيل بالخيبة؛ فقد تخيّلت أن رؤيتها للوحة إيليزا ربما ييوح لها بشيء، لكن ذلك لم يحدث. وصحّحت لنفسها، كانت تأمل وليس تتخيّل. كان بحثها كله قائمًا على أمل. كان العالم مكانًا شاسعًا على نحو مُرعب، ولم يكن من السهل العثور على شخصٍ ضاع منذ ستين عامًا، حتى إن كان هذا الشخص هو نفسه.

بدأت الغرفة تفرغ، وألقت نفسها مع الجدران الأربعة المعلقة عليها لوحات موتٍ رحلوا منذ أمدٍ بعيدٍ يحِدِّجونها بنظراتٍ صامتة. كانوا يراقبونها بتلك الطريقة الغريبة الثقيلة للوحات الزيتية؛ الأعين اليقظة التي تتبع المتفرج دائمًا عبر الغرفة. ارتعشت ثم ارتدّت معطفها.

أوشكت على الخروج حينما جذبت انتباهها لوحةٌ أخرى. وبينما سقطت نظرتها على لوحة امرأة ذات شعْرٍ أسود، ووجه شاحب، وشفتين حمراوين مكتنزتين، علّمت نيل من تكون هذه المرأة. وفي لحظة احتشدت آلاف الشذرات من الذكريات التي طواها النسيان، وملاً اليقينُ جميع خلاياها. لم تلاحظ الاسم المكتوب أسفل اللوحة، روز إيلزابيث مونتراشيه، لم تعن لها الكلمات الكثير. ارتجفت شفتها وتقلّص صدرها، وشحّت أنفاسها. همست، وهي تشعر بالحيرة والجدل والهشاشة في آنٍ واحد: "ماما".

حمدًا لله أن المكتبة المرجعية المركزية كانت تفتح أبوابها لوقتٍ متأخرٍ؛ فنيل لم تستطع الانتظار حتى الصباح. أخيرًا، تعرف اسم أمها، روز إيلزابيث مونتراشيه. فيما بعدُ ستعتبر تلك اللحظة في متحفٍ تيت هي الأصل. بسرعة، ودون تحذير أو جلبة، وجدّت أن لها أمًا تعرف

اسمها. طَفَقَتْ تُرَدُّدَ الكلمات مرارًا وتكرارًا، وهي تنطلق مسرعة في الشوارع المُعْتَمَةِ.

لم تكن المرة الأولى التي سمعت بتلك الكلمات. فقد ذكر الكتاب الذي ابتاعته من السيد سنيلجروف عائلة مونتراشيه في الجزء الخاص بإيليزا. خال إيليزا، أصغر فرد في العائلة الأرستقراطية، مالك قَصْر بلاكهرست الذي أُرْسِلَتْ إليه إيليزا بعد وفاة أُمِّها. إنها الرابطة التي كانت تبحث عنها. الخيط الذي يربط بين المؤلِّفة التي تتذكَّرُها وبين الوجه الذي تعرف الآن أنه وجهُ أُمِّها.

تَذَكَّرَتْها أمينة المكتبة من اليوم السابق، حينما كانت تبحث عن معلومات عن إيليزا. قالت بابتسامة عريضة: "إذن هل وجدت السيد سنيلجروف؟".

"أجل" قالت نيل بأنفاس متقطعة.

"وكيف كانت التجربة؟".

"اشتريت منه كتابًا مُفيدًا للغاية".

"هذا هو السيد سنيلجروف، بارِعٌ في البيع". وهزَّت رأسها بإعجاب.

"هل بإمكانك مُساعدتي مُجددًا. إنني بحاجة إلى بعض المعلومات عن سَيِّدة".

طَرَفَتْ أمينة المكتبة بعينها وقالت: "أخبريني بمعلومات أكثر".

"بالطبع. امرأة عاشت في أواخر القرن التاسع عشر".

"هل كانت كاتبةً أيضًا؟".

"كلًا، على حَدِّ علمي" زَفَرَتْ نيل وهي تستجمع شتات أفكارها. "اسمها روز مونتراشيه من عائلة أرستقراطية. ظَنَنْتُ أنني ربما أجد معلومات إضافية في تلك الكتب التي تَذَكَّرُ أسماء النُّبلاء".

"مثل كتاب (ديبريتس⁽¹⁾) أو (موسوعة المشاهير الحاليون)".
"بالضبط".

"الكتابان مُتوقَّران هنا. لكن الأسهل في القراءة هو (موسوعة المشاهير الحاليون)، وهو يذكر بشكلٍ تلقائيٍّ أفراد العائلات الأرستقراطية. ربما ليس هناك مُدخَلٌ مُفردٌ لها، لو كنتِ مَحظوظَةً ستجدينها مذكورةً في مُدخَلِ شَخْصٍ آخر، ربما أبيها أو زوجها. هل تعرفين متى تُوقِّيت؟".
"كلَّا، لماذا؟".

"بما أنك لا تعرفين متى أُدرِجتِ، ستُوقِّرين عليكِ الوقت لو ألقيت نظرةً أوَّلًا على (موسوعة المشاهير المتوقِّفين). تحتاجين إلى معرفة تاريخ وفاتها".

هزَّت نيل رأسها قائلة: "لا يمكنني حتى التَّخمين. سأبحث في (موسوعة المشاهير الحاليين)، وأبدأ بهذا العام ثم الأعوام السابقة حتى أجدَ لها ذِكرًا".
"ربما يستغرق ذلك بعض الوقت، والمكتبة ستغلق عمَّا قريب".
"سأكون سَريعَةً".

هزَّت المرأة كتفيها وقالت: "اصعدي إلى الطابق الأول، وستجدين الوثائق القديمة في مكتب الاستعلامات. القوائم مُرتَّبةٌ أبجديًا".

أخيرًا، تحت خانة عام 1934، وجدت نيل شيئًا. لم تجد روز مونتراشيه، بل لينوس، الخال الذي طالب بإيليزا ماكبيس بعد وفاة جورجيانا. قرأت المُدخَل:

(1) سلسلة كتب بريطانية عن طبقات النبلاء والبارونات.

لورد لينوس سانت چون هنري مونتراشيه، وُلِدَ في 11 يناير 1860، ابن الراحل لورد سانت چون لوك مونتراشيه والراحلة مارجریت إلیزابیث مونتراشيه، تزوّجَ في 32 أغسطس 1888 من أدالین لانجلي، والتي أنجبت ابنةً واحدةً الراحلة روز إلیزابیث مونتراشيه، والتي تزوّجت من الراحل ناثنیال وواكر.

تزوَّجت روز من ناثنیال وواكر. ألا يعني هذا أنه كان والدِها؟ قرأت المدخلَ مرَّةً أخرى. الراحلان روز وناثنیال. إذن تُوفِّيَا قبل عام 1934. هل هذا هو سببُ وجودها مع إلیزا؟ هل كُفِّت إلیزا برعايتها بسبب وفاة أبويها؟

لقد وجدها والدها، هيو، على رصيف ماريبورو في أواخر عام 1913. لو كانت إلیزا وصيَّةً عليها بعد وفاة روز وناثنیال، ألا يعني هذا أنهما تُوفِّيَا قبل هذا التاريخ؟

هل تلقي نظرة على ناثنیال وواكر في (موسوعة المشاهير الحاليين) تحت هذا التاريخ؟ بالتأكيد لديه مدخل. لكن لو كانت نظريتها صحيحة ولم يكن على قيد الحياة في عام 1913، سوف تذهب مباشرة إلى (موسوعة المشاهير المتوفين). أسرع نحو الصفوف وأخرجت (موسوعة المشاهير المتوفين) التي تغطي الفترة من عام 1897 إلى عام 1915. بأصابع مرتعشة قلبت الصفحات بسرعة من الخلف حتى وصلت إلى حرف (و)، ووجدت الاسم:

وواكر، ناثنیال، چيمس، وُلِدَ في 22 يولييه 1883، تُوفِّيَ في 2 سبتمبر 1913، ابن أنطوني سباستيان وواكر وماري وواكر، تزوّجَ من الراحلة المُبجَّلَة روز إلیزابیث مونتراشيه في 3 مارس 1908، لديه ابنة واحدة الراحلة أيفوري وواكر.

تَوَقَّفت نيل فجأةً عن القراءة. كانت ابنةً واحدةً صحيحة، لكن ماذا يقصدون بالراحلة؟ لم تكن مَيِّتة، كانت حيَّةً تُررَّق. وشعرت

فجأة نيل بحرارة المكتبة، وضيق في أنفاسها. روَّحت على وجهها، ونظرت مُجدِّداً إلى المدخل.

ماذا يعني ذلك؟ هل أخطؤوا؟

"هل وَجَدْتِها؟"

رفعت نيل وجهها وأبصرت موظفة مكتب الاستقبال. سألتها: "هل هذه الكُتُبُ تخطئ؟ هل يكتبون معلوماتٍ خاطئة؟"

زمت المرأة شفتيها مُفكِّرةً، ثم قالت: "أظنُّ أنها ليست أفضل المصادر التي يُعتمد عليها. والمعلومات الواردة بها تأتي من الأشخاص أنفسهم."

"وإن كان صاحب المدخلِ مُتوفِّئاً؟"

"مَعذرة؟"

"في (موسوعة المشاهير المتوفِّين) جميع الأشخاص المذكورين في المدخلات مُتوفِّون. مَنْ يعطي المعلومات إذن؟"

هزَّت كتفيها وهي تقول: "أعتقد باقي أفراد الأسرة. أظنُّ أنهم يملؤون آخر استبيان قَدَّمه المدخل. يضيفون تواريخ الوفاة وانتهى الأمر"، ثم أزالَت زَغَبَ قُماشٍ من فوق الرَّفِّ. "المكتبة ستغلق في غضون عشر دقائق. أعلميني إن كان هناك شيء آخر يمكنني المساعدة فيه."

ثمَّة خطأ، هذا هو الأمر. لا بُدَّ أنه يحدث كثيراً؛ فالشخص الذي يكتب هذه المعلومات لا يعرف الأفراد شخصياً. ربما شَرَدَ ذَهْنُ الكاتب للحظة، وكتب كلمة "الراحلة" بالخطأ؛ أموت شخصٌ على قَيْدِ الحياة بكل بساطة بزَلَّةِ قَلَمٍ؟

لم يكن مُجرَّد خطأ مطبعي. كانت تعرف أنها الطفلة المذكورة في المدخل وبالتأكيد لم تكن "راحلة". كل ما تحتاجه هو العثور على

سيرة ذاتية عن ناثانيال وواكر، وستُثبِتُ خطأ هذه المعلومات. لديها اسم الآن، كان اسمها يومًا ما أيفوري وواكر، ولن تعبأ إن كان وَقَعَهُ على أذنها غيرَ مألوف. ليس هناك تفسير للأشياء التي تَعَلَّقُ بالذاكرة أو تنزلق منها.

فجأةً تَذَكَّرَتِ الكتاب الذي ابتاعته في طريقها إلى تيت، كان يتكلَّم عن لوحات ناثانيال. لا بُدَّ وأنه يحتوي على سيرة مُوجَزَةٍ له. سحبتَه من حقيبتها وفتحته مُجدِّدًا.

ناثانيال وواكر (1883-1913) وُلِدَ في نيويورك من والدَيْنِ بولنديَّيْنِ، أنطوني وماريا وواكر (الأصل والكزوك). عمل والده بموائئ المدينة، وكانت أمه تعمل في غسل الثياب، وأنجبت سِتَّةَ أطفال، كان ترتيب ناثانيال الثالثَ بينهم. مات اثنان من أشقائه بالحُمَّى. عمل ناثانيال بالموائئ سائرًا على خُطى أبيه. وفي يوم من الأيام، لاحظَه أحدُ المارَّةِ، ويُدعى والتر إيرفينج الابن، وريث شركة إيرفينج للنفط، وهو يرسم لوحةً لشارع نيويورك. فكلَّف ناثانيال برسم لوحة زيتية له.

وتحت رعايته، اشتهر ناثانيال في مجتمع نيويورك. وفي عام 1907 في إحدى حفلات إيرفينج التقى ناثانيال بالمُبَجَّلَة روز مونتراشيه التي كانت قادمةً من كورنوال لزيارة نيويورك. تزوّجا العام التالي في بلاكهرست، عِزْبَة آل مونتراشيه بالقرب من تريجينا، بكورنوال. وذاع صيت ناثانيال بعد زواجه وانتقاله إلى المملكة المتحدة، ووصل إلى أوج شهرته حينما كلَّف في مستهلَّ عام 1910 برسم اللوحة الأخيرة للملك إدوارد السابع.

في عام 1909 أنجبت روز وواكر من ناثانيال ابنةً واحِدَةً تُدعى أيفوري وواكر. كانت الزوجة والابنة موضوعَيْنِ مُكرَّرَيْنِ في لوحات ناثانيال، وإحدى أَحَبِّ لوحاته تُسمَّى (الأم والطفلة). مات الزوجان الشابَّان في حادثٍ مأساوي في عام 1913 في آيس جيل، حينما اصطدم

القطار الذي كانا على مَنِيهِ بقطارٍ آخر واحترق. ماتت أيْثوري وواكر بالحمى القرمزية بعد أَيَّامٍ من وفاة والديها.

لم يكن هذا مَنطقيًّا. تدرك نيل أنها كانت الطَّفلة المُشارَ إليها في السيرة. كانت روز أمها وناثانيال وواكر أباهما. لقد تذكَّرت روز على الفور. والتواريخ، ميلادها، حتى الرحلة إلى استراليا، مرتبطة بوفيات روز وناثانيال، ليست هناك مُصادقة. بالإضافة إلى العلاقة التي تجمع بين روز وإيليزا.

انتقلت نيل إلى الفهرست ومَرَّرت أصابعها على القائمة. توقَّفت عند لوحة (الأم والطفلة) وذهبت إلى رقم الصفحة، وقلبها يكاد يثب. اختلاجٌ في شفتها السفلى. ربما لا تتذكَّر أنها كانت تُدعى أيْثوري، لكن ما من شكِّ هناك. إنها تعرف شكلها حينما كانت فتاةً صغيرة. كانت تلك صورتها. تجلس على حِجْرِ أمِّها، وقد رسمها أبوها.

لماذا إذن ظنَّها التاريخُ أنها ميَّنة؟ مَنْ زوَّد الموسوعة بهذه المعلومات الخاطئة؟ هل كان خِداعًا مُتعمَّدًا أم هل صدَّقوا ذلك؟ لم يلاحظوا أنها صَعَدَت بالفعل على سطح السفينة المُتَّجِهَة إلى استراليا مع كاتبَة غامضة تكتب قصصًا خيالية.

لا يجب أن تقولي اسمك. سنلعب لعبة. هذا ما قالتها المؤلِّفة. كانت نيل تستطيع سماعها الآن، الصوت الفضِّي، كنسيم مَسِّ سطح البحر. إنه سرُّنا، لا نُخبري أحدًا. كانت نيل حينها في الرابعة من عمرها، شعرت بالخوف، وبالشكِّ، وبالحماس.

استنشقت رائحة طمي النهر المختلف عن البحر الأزرق الشاسع، سَمِعَت نوارس التِمز الجائِعة، والبَحَّارة وهم يصيحون. براميل، مَخْبَأٌ مُظلم، شعاع من الضوء مُحمَّلٌ بالغبار...

لقد أخذتها المؤلِّفة. لم تُهجر إطلاقًا. لقد اختُطِّفت ولم يعرف
جَدَّها. وهذا هو سَبَبُ عدم بَحْثِهما عنها. لقد اعتقدا أنها ماتت.
لكن لماذا أخذتها المؤلِّفة؟ ولماذا اختُفَّت بعد ذلك، تاركَةً إيَّها
وحيدةً على السفينة، وحيدةً في العالم؟

كان ماضيها كدُمِيَّةٍ روسيَّة: سؤالٌ داخلٌ سؤالٍ داخلٍ سؤال.

وكانت بحاجةٍ إلى شَخْصٍ يُمِيطُ اللُّثامَ عن هذه الألغاز الجديدة،
شَخْصٍ يُمَكِّنُهَا التَّحَدُّثَ معه، شَخْصٍ ربما عرفها، أو ربما عرف شخصًا
يعرفها، شَخْصٍ ربما يمكنه أن يُزيح بعض الغموض عن المؤلِّفة، وآل
مونتراشيه، وناثانيال وواكر.

وقَدَّرت أن هذا الشخص لن تجده في أقبِيَّةِ المكتبة المركزية التي
يعلوها التراب. كانت بحاجةٍ إلى الذهاب إلى قلب اللغز، إلى كورنوال،
إلى قرية تريجين، إلى المنزل المُظلم الضخم؛ بلاكهرست، حيث عاشت
عائلتها ذات يوم، وعاشت فيه حينما كانت طفلةً.

مكتبة

t.me/t_pdf

(19)

لندن، 2005

تأخّرت روبي على العشاء، لكن كساندرا لم تُبالِ. كان النادل قد قادها إلى طاولةٍ بجوار نافذة زجاجية كبيرة، فأخذت تراقب العائدين من أعمالهم يشقُّون طريقهم إلى منازلهم. كلُّ هؤلاء الناس كانوا أبطالاً في حيواتٍ تتكشف ببُطءٍ خارجٍ مُحيط حياتها. كانوا يأتون أفواجاً؛ فهناك محطة حافلات أمامها، وعلى الناحية الأخرى من الشارع ما زالت محطة قطار أنفاق جنوب كنسينجتون ترتدي معطفها الأنيق من القرميد الذي بُني على طراز الفن الحديث. وبين الحين والآخر يجرف تيار الزحام حشداً من الناس تدفعهم الرِّيح داخل أبواب المطعم، حيث ينزلقون إلى المقاعد أو يقفون بجوار محلّ الوجبات الجاهزة الساطع بإضاءة قوية ينتظرون عُلباً كرتونيّةً بيضاء من الطّعام الشهي يحملونه إلى بيوتهم للعشاء.

فرَّغت كساندرا إبهامها على الحافَّة المتأكِّلة الناعمة للمُفكِّرة، وأخذت تعيد الجملة في عقلها مُجدِّدًا، وهي تتساءل هل سيستوعبها عَقْلُها بشكلٍ أسهل هذه المرَّة أم لا. لقد كان والد نيل هو ناثانيال وواكر، رسَّام العائلة الملكية. جدُّ كساندرا الأكبر.

كلَّا، مازال عقلها لم يتقبَّل تلك الحقيقة، كأنها ترتدي قُفَّاز شخص آخر، مثلما شعرت حينما اكتشفت ذلك أوَّل مرَّة في أصيل هذا اليوم. كانت تجلس على مصطبة بجوار نهر التيمز، تَفُكُّ شفرات زيارتيَّ نيل لمنزل شارع باترسي الذي وُلِدَت فيه إيليزا ماكيبس، ومُتَحَفِ تيت حيث عُلِّقت لوحات ناثانيال وواكر. هَبَّ النسيم مارًا بِخِفَّةٍ على سطح النهر وركض على الضفتين، كانت كساندرا على وشك المغادرة حينما انجذبت عيناها إلى فقرة مشطوبة بشكل خاصٍّ على الصفحة المقابلة، جملة وُضِعَ تحتها خَطٌّ تقول: روز مونتراشيه كانت أمِّي. لقد تعرَّفْتُ على صورتها الشخصية في اللوحة، وتذكَّرْتُها. ثم سهم، وقفز انتباه كساندرا إلى عنوان كتاب، (موسوعة المشاهير المتوفِّين)، أسفله قائمة من العبارات التي كُتِبَت بسرعة في شكل نقاط:

- تزوَّجت روز مونتراشيه من الرسَّام ناثانيال وواكر في عام 1908.
- ابنة واحدة! أيُّفوري وواكر (وُلِدَت بعد ذلك بفترة- 1909؟ فحص الحُمى القرمزية؟).
- مات روز وناثانيال في عام 1913، في حادث قطار، محطة آيس جيل (نفس العام الذي اختفيَتْ فيه. رابطَةٌ؟).

ثُمَّ ورقة طُوِيَتْ في هوامش المُفكِّرة، نسخة فوتوغرافية مأخوذة من كتاب بعنوان (كوارث القطارات في عصر البخار). سَحَبَتْها كساندرا مُجدِّدًا. كانت ورقة رديئةً، والنَّصُّ فيها باهت، لكنها، لحسنِ الحظ، خَلَّت من البقع التي التهمت باقي المُفكِّرة. وكان عنوانها يقول

"مأساة سكة حديد آيس جيل". وعلى جلبة هادئة تصلها من حانة صغيرة، قرأت كساندرا على عَجَلٍ التقرير المُختَصِر المثير.

في ساعات الليل الأولى من الثاني من سبتمبر عام 1913، غادر قطاران تابعان لشركة سكة حديد ميدلاند محطة كارلايل في الطريق إلى محطة سانت بانكراس، وكان الرُّكَّاب جاهلين بتحركهم نحو هلاكهم. كان خَطًّا شديد الانحدار، يجتاز كالمعتاد قَمَمٍ ومنخفضات المناظر الطبيعية الشمالية المتموجة، وكان كِلَا القطارين يفتقران تمامًا إلى الطاقة اللازمة. تواطأت حقيقتان لتقودا القطارين إلى مصيرهما المشؤوم في تلك الليلة. أولًا: كانت مُحركَاتهما أصغرَ ممَّا هو موصى به للتحرك على ذلك الخَطِّ المنحدِر. ثانيًا: كانا مُزوَّدَيْن بفحمٍ غير مُعْرَبَل، مليء بالشوائب التي منعته من الاحتراق بكفاءة.

غادر القطار الأوَّل محطة كارلايل في الساعة الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة صباحًا، ووصل بعد عَناءٍ إلى قمة آيس جيل؛ فقد بدأ ضغط البخار في الهبوط ثم توقَّفَ القطار. بالتأكيد اندهش الرُّكَّاب من توقُّفه المفاجئ بعد مغادرتَه للمحطة بفترةٍ وجيزة، لكنهم لم يرتعبوا؛ لأنهم في النهاية كانوا في أيدي أمينة، إذ طمأنَّهم الحارس بتأكيدِه أن القطار سيتوقَّف لدقائق قليلة ثم يمضي في طريقه مُجددًا.

والواقع أن تأكيد الحارس أن الانتظار سيكون لفترةٍ وجيزة كان أحد الأخطاء الجسيمة التي تسبَّبت في حدوث الكارثة. فيشير البروتوكول المُتبَّع في السكة الحديد إلى أنه لو كان يعرف المدة التي سوف يستغرقها السائق والوقاد في تنظيف شبكة الفحم الحديدية وإعادة بناء ضغط البخار، كان سيضع بعض الصواعق أو يحمل مصباحًا عند الخَطِّ لكي يشير لأيِّ قطارات قادمة. لكن للأسف، لم يفعل؛ وهكذا تحدَّد مصير الناس على القطارين.

على الخط من بعيد كان مُحركُ القطار الثاني ضعيفًا كذلك. وبرغم أنه يسحب حمولةً أَخْفَ تَسَبَّبَ المُحركُ الصغير والفحم الرديء في صعوباتٍ للسائق. على بُعْدِ أميال قليلة قبل مارلستانج، اتَّخَذَ السائقُ قراره الخطير وترك مقصورته الرئيسية لكي يتفحص المُحركَ أثناء العمل. وبرغم أن هذا التَّصَرُّفَ خطيرٌ بمقاييس اليوم، كان شائعَ الحدوث في تلك الأيام. ولسوء الحظ، في الوقت الذي كان فيه السائق غائبًا عن الكابينة الرئيسية، قابل الوَقَادُ كذلك بعضُ المشكلات؛ حيث فقد حاقِنُ الوقود سرعته، وأخذ مستوى المرجل البخاري في الانخفاض. وحينما انتهى السائق والوَقَادُ، كانت المهمة قد استهلكت اهتمامهما حتى أنهما لم ينتبها إلى المصباح الأحمر الذي يلوِّح به كشك إشارات مارلستانج.

حينما انتهيا وعاد انتباههما إلى الخَطِّ، كان القطار المتوقَّف الأول على بُعْدِ يارداتٍ قليلة. وكان من المستحيل على القطار الثاني التوقَّف في الوقت المناسب. كان الضَّرَرُ فادِحًا ونجم عن المأساة خسائر كبيرة غير مُتوقَّعة. بالإضافة إلى تأثير الاصطدام، انزلق سطح عَرَبَةِ الطُّرود على المُحرك الثاني، وشطر غُرَفَ نوم الدرجة الأولى. كما اشتعل الغاز من نظام الإنارة، واضطربت النيران في العربات المنكوبة، وأخذت معها أرواح التُّعَسَاء الذين كانوا يقفون في وَجْهها.

ارتجفت كساندرا وهي تتصوَّر كيف كانت تلك الليلة المُظلمة من عام 1913: طريق القمَّة المنحدر، الأرض التي لَفَّها الظلام من النوافذ، إحساس توقُّفِ القطار بشكلٍ مُباغت. وتساءلت عمَّا كان روز وناتانيال يفعلانه في لحظة الاصطدام، هل كانا نائمَيْن في عربتهما، أم يُثَرِّران؟ هل كانا يتكلَّمان عن ابنتهما، أيفوري، التي تنتظرهما بالمنزل. كم هو غريبٌ تأثرها بمأساة أجدادها برغم أنها تعرَّفت عليهما للتَّو. وكم كان وَقَعُ الأمر على نيل مُروِّعًا، والتي ما إن اكتشفت ماهية

أبويها الحقيقيين أخيراً، حتى وجدت أنها خسرتهما مُجدِّدًا بتلك الطريقة البشعة.

انفتح باب مطعم كارلوشيو، وحمل معه هَبَّةً من الهواء البارد المُحمَّل بدخان العوادم. رفعت كساندرا عينيها لتجد روبي تَسِيرُ مُسرِعَةً نحوها، ووراءها رجلٌ نحيل برأس أصلع لامع.

"يا له من يوم!" تهاوَّت روبي على المقعد المقابل لكساندرا. "مجموعة من الطُّلاب جاؤوا في اللحظة الأخيرة. ظننتُ أني لن أتخلَّص منهم قَطُّ!" ثم أشارت إلى الرجل النحيل وقالت: "هذا جراي. إنه أكثر لُطفًا ممَّا يبدو".

"كم هي ساحرة طريقة تقديمك يا عزيزتي روبي". ثم مَدَّ يَدًا ناعمة عبر الطاولة وهو يقول: "جرام ويستمان. لقد أخبرتني روبي كلَّ شيءٍ عنك".

ابتسمت كساندرا. كان تصرُّيحه مُثيراً للاهتمام، باعتبار أن روبي تعرَّفت عليها خلال ساعتَي يقظةٍ. ومع ذلك لو استطاع شخصُ القيام بهذه المعجزة، تعرف كساندرا أنها ستكون روبي.

انزلق إلى المقعد وهو يقول: "كم أنتِ محظوظة لترثي منزلاً".

"بالإضافة إلى سِرِّ عائليٍّ شَيِّقٍ" لوَحَّت روبي إلى النادل وبدأت في طلب الخبز والزيتون لهم جميعاً.

استشعرت كساندرا وخزاً خفيفاً في شفيتها حينما جاء ذِكرُ اللغز، وباكتشافها الجديد، هُويَّة والِدَي نيل. غير أنها لم تَبْح بهذا الاكتشاف.

"أخبرتني روبي أنكِ استمتعت بالمعرض" قال جراي وعيناه تلمعان.

"بالطبع، إنها إنسانة، وفنانة أيضاً".

"مُورِّخة فنية" قالت كساندرا بوجنتَيْن مُتوردَتَيْن.

"أخبرني أبي أنك بارعةٌ في الرسم. لقد قُمتِ برسم كتاب للأطفال، أليس كذلك؟".

هزّت رأسها وقالت: "كَلَّا. تركتُ الرسم منذ فترة طويلة، كانت مُجرّد هواية".

"لم تكن مُجرّد هواية كما سمعتُ. أبي يقول...".

"اعتدتُ أن أشخِطَ في دفتر الرسم حينما كنت صغيرة. ولم أَعُد لذلك. لسنوات".

"أحيانًا في مسار حياتنا نُهمِلُ الهوايات" قال جراي بدبلوماسية. "وأُبرهنُ على ذلك بافتنان روبي الذي دام لوقتٍ قصير -لِحُسْنِ الحَظِّ- بالرقص".

"حقًا يا جراي! إن أسلوبك الأخرق في الرقص...".

وبينما شرع جراي وروبي يتجادلان بشأن التزام روبي بقواعد رقصة السالسا، تركت كساندرا أفكارها تعود إلى أصيل ذلك اليوم، منذ سنوات عديدة مَضَّت، حينما أَلقت نيل بدفتر الرسم ومجموعة من أقلام الرصاص على الطاولة التي جلست إليها كساندرا مُنهمكةً في حلّ مسائل الجبر الخاصّة بالفروض المدرسية.

كانت تعيش حينها مع جدّتها ما يزيد عن العام، وشرّعت لِتَوَّها في صفوف المدرسة الثانوية، وكانت تجد صعوبةً في تكوين صداقاتٍ مثلما كانت تجد صعوبةً في حلّ المعادلات الرياضية.

"لا أعرف كيف أُرسم" قالت بدهشة وبتردّد. إن الآباء غير المُتوقّعين يجعلونها دائماً حَذِرةً.

"ستتعلمين. تمتلكين عينين ويديين. ارسمي ما ترين".

تنهّدت كساندرا بصبر. كانت نيل مُفعمّةً بأفكار غير مألوفة. لم تُشبه قطّ الأمّهات الأخرى، وبالتأكيد ليست مثل ليزلي، لكن نواياها

طَيِّبَةً، ولم ترغب كساندرا في جرح مشاعرها. "أظنُّ يا نيل أن الرسم يتطلَّب أكثر من ذلك".

"هراء. إنه اليقين من أنكِ ترين ما هو موجود بالفعل. وليس ما تعتقدين أنه هناك".

رفعت كساندرا حاجبيها بِشَكِّ.

"كل الأشياء تتألَّف من خطوط وأشكال، مثل الشَّفرة، وأنت فقط بحاجة إلى تَعَلُّم قراءتها وتفسيرها"، ثم أشارت نيل عبر الغرفة. "هذا المصباح هناك، أخبريني ماذا ترين".

"هممم... مصباح؟".

قالت نيل: "بالضبط، تلك هي مشكلتك. إن كان كل ما ترينه هو مصباح، فليس لديك فرصة لرسمه. لكن لو رأيت أنه كان مُثَلَّثًا على قِمَّةٍ مستطيل، بأنبوبٍ رفيع يصل بينهما، حينها تكونين قَطَعْتَ نِصْفَ الطريق".

رَفَعَت كساندرا كَتِفَيْهَا بِشَكِّ.

"جاريني فحسب، حاولي".

تَنَهَّدَت كساندرا مُجَدِّدًا، تنهيدة تحمل قَدْرًا لا بأس به من الصبر.

"جَرِّبي ولن تخسري شيئًا، ربما تُبْهَرِكِ النتائج".

وقد كان. لم تَبْدُ مَوْهَبَةً عظيمة في المرَّة الأولى، بل دُهِشَتْ من مدى استمتاعها بذلك. كان الوقت يتلاشى حينما تمسك بدفتر الرسم والقلم...

وصل النادل ووضع علبتين من الخبز على الطاولة. وأوماً حينما طلبت روي نبيذ بروسيكو. وبينما كان يغادر، مَدَّت يدها لقطعة

مُدبَّبةً من خبز الفوكاشيا، وغمزت لكساندرا وأشارت للطاولة. "جَرِّبِه مع الزيتون والخَلِّ البلسميِّ. إنه شهى".

غمست كساندرا قطعة من الخبز في الزيتون والخل.

قال جراي: "هَلُمَّي يا كساندرا، أنقذي عجوزَيْن من الجدل، خَبِّرنا كيف كان يَوْمَكِ".

التقطت كسرة خُبزٍ سَقَطَت على الطاولة.

"هل من شيءٍ مُثيرٍ للاهتمام؟" قالت روبي.

سَمِعَت كساندرا نفسها وهي تبدأ الكلام: "اكتشفت مَن هما والدَا نيل الحقيقيَّان".

هتفت روبي: "ماذا؟ كيف؟ مَن؟".

عَضَّت شفتها، وهي تكبح ابتسامةً تَشِي بِمُتَعَةِ الوعي الذاتي. "إنهما روز وناثانيال وواكر".

"يا إلهي!" فَهَقَّهَت روبي "إنه نفس اسم رَسَّامي يا جراي! يا للغرابة! وكُنَّا نَتحدَّث عنه اليوم، وعاش ذات يوم في نفس القصر مثل... " ثم تجمَّدت وقد شَحَبَ وجهها الأحمر من الإدراك. "هل تعني الرسام ناثانيال وواكر" ازدردت ريقها "جَدُّكَ الأكبر هو ناثانيال وواكر؟".

أومات كساندرا، وهي تبتسم، وشعرت بأنها سخيفة.

انفتح فم روبي. "ولم تكوني تعرفين؟ اليوم، حينما رأيتك في المعرض؟".

هَزَّت كساندرا رأسها بالنفي، وكانت ما زالت تبتسم كالبلهاء. قالت، لكي تزيل الابتسامة من على وجهها: "لم أعرف إلا في أصيل اليوم حينما قرأتُ ذلك في مُفكِّرة نيل".

"لا أصدِّق أنك لم تنطقي بكلمة منذ وصولنا!".

قال جراي: "أعتقد أنه لم يتسنَّ لها الفرصة بسبب حديثك الطويل عن السالسا، كما أن بعض الناس يُفضّلون الخصوصية فيما يتعلّق بحياتهم الشخصية يا عزيزتي روبي".

"حقًا يا جراي! في الواقع لا أحد يُحبُّ الاحتفاظ بأسرار. الشيء الوحيد الذي يجعل السرِّ مُمتعًا هو أنه لا يفترض بك أن تفشيه" ثم هزّت رأسها لكساندرا وقالت: "أنتِ قريبة ناثانيال وواكر. بعض الناس حظههم وافر".

"أشعر بأنه شيء غريب، وغير متوقَّع على الإطلاق".

قالت روبي: "أوافقك الرأي. انظري إلى كمّ الناس الذين يُنقَّبون في التاريخ أملين أن تجمعهم صلّة قرابةٍ باللعين وينستون تشرشل، بينما الحظُّ يرمي تحت قدميك في شكل رسّام شهير".

لم تتمالك كساندرا نفسها من الابتسام.

ظهر النادلُ مُجدّدًا، وصبَّ لهم جميعًا نبيدًا بروسيكو.

"نخب حلّ الألباز" قالتها روبي وهي ترفع كأسها.

وصلت الكؤوس وشربوا جميعًا.

قال جراي: "اغفري لي جهلي. إن معرفتي بتاريخ الفن ليست كبيرة، لو كان لدى ناثانيال وواكر ابنةٌ مفقودة؛ لا بُدَّ وأنهم بحثوا عنها كثيرًا". ثم مدَّ راحتيه نحو كساندرا. "لا أشكُّك في البحث الذي قامت به جدّتك، لكن كيف بحقِّ السماء تختفي ابنةُ فنّان شهير ولا أحد يعرف؟".

وللمرة الأولى لم يكن في ذهن روبي إجابةٌ حاضرة؛ فنظرت إلى كساندرا.

"كما فهِمْتُ الأمر من قراءة مُفكِّرة نيل، تقول كُُلُّ السَّجَّلَاتِ إن أيفوري وواكر ماتت في سِنِّ الرَّابِعَةِ. وهو نفس سِنِّ نيل حينما ظهرت في استراليا".

فَرَكَت روبي يديها. "هل تعتقدين أنها اختُطِّفت، وَمَنْ فعلها جعل الأمر يبدو أنها ماتت؟ يا له من أمر مثير! إذن مَنْ هو؟ ولماذا فعل ذلك؟ ماذا اكتشفت نيل؟".

ابتسمت كساندرا ابتسامَةً يشوبها الاعتذار وقالت: "يبدو أنها لم تنجح قَطُّ في حَلِّ هذا الجزء من اللغز. لست واثقةً".

"ماذا تقصدين؟ كيف تعرفين؟".

"قرأت نهاية المُفكِّرة. لم تعرف نيل".

"لا بُدَّ وأنها اكتشفت شيئًا، كَوَّنت نظرية؟" كان يأسُ روبي مَحسوسًا. "أخبريني أنها كَوَّنت نظرية! تَرَكَت لنا شيئًا لِنَتَابَعَ به من حيث انتهت؟".

"تَرَكَت اسمًا. إيليزا ماكبيس. لقد سافرت نيل ومعها حقيبة سفرٍ بداخلها كتاب القصة الخيالية الذي أذكي بعض الذكريات. لكن برغم أن إيليزا وضَّعت نيل على سطح السفينة. لم تذهب معها إلى استراليا".

"ماذا حدث لها؟".

هزَّت كساندرا كتفيها وقالت: "ليس هناك سِجَّلَاتٌ رسميةٌ تخبرنا ما حدث. تبدو وكأنها اختفت بغتةً في الوقت الذي سافرت فيه نيل إلى استراليا. أيًا كانت خُطَطُ إيليزا، لا بُدَّ وأنها لم تُوفِّق فيها".

رفع النادل الكؤوسَ، وسألهم إن كانوا جاهزين لطلب الطبق الرئيسي.

"أجل. امنحنا خمس دقائق" قالت روبي وهي تفتح قائمة الطعام بتعمُّدٍ وتنهَّدت. "إن الأمر كله مثير للاهتمام بشكل هائل. حينما

أفكر أنك ستذهبين غدًا إلى كورنوال لِتَري الكوخ السَّرِّي! كيف
تحتملين الأمر؟".

سألها جراي: "هل ستَمكُثين في الكوخ؟".

هزّت كساندرا رأسها بالنفي. "أخبرني المحامي الذي كان يحتفظ
بالمفتاح أنه ليس صالحًا للسكن. قُمتُ بحجز غرفة في فندق قريب،
فندق بلاكهرست. إنه المنزل الذي عاش به آل مونتراشيه، عائلة نيل."
"عائلتك" قالت روبي.

"أجل" لم تُفكر كساندرا في ذلك الأمر من قبل. وابتسمت مُجددًا
رغمًا عنها.

انتفضت روبي بحركةٍ مسرحية وهي تقول: "كم أحسدك! سأضحّي
بأي شيء مقابل لغز كهذا في ماضي عائلتي، شيء مثير يستحق
الاكتشاف".

"إنني بالفعل مُتحمّسة. أعتقد أن اللغز يطاردني. ما زِلْتُ أرى نيل
وهي طفلة تُنتزع من عائلتها، تجلس وحيدة على رصيف الميناء.
لا أستطيع إبعاد صورتها عن ذهني. لكم أتمنّى أن أعرف ما حدث
بالفعل، وكيف سافرت إلى الجهة الأخرى من العالم بمفردها". فجأةً
انتبهت كساندرا أنها كانت تتحدّث كثيرًا. "أظنّه أمرًا سخيّفًا".

"كَلّا، على الإطلاق. أعتقد أنه مفهوم تمامًا".

زحفت البرودة على جلد كساندرا من لهجة روبي المُتعاظفة. كانت
تعرف ما ستقوله. تقلّصت معدّتها وحاول ذهنها البحث عن كلمات
لتغيير الموضوع. لكنها لم تَكن سريعة بما يكفي.

"ليس هناك أسوأ من فقدان طفل"، خرج صوت روبي الحنون.
حطّمت كلماتها صدفةً الحماية الواهية لحزن كساندرا، حتى أن وجه
ليو، ورائحته، وضحكته ذات العامين، تحرّروا طُلُقًا.

بطريقةٍ ما نجحت في أن تومئ وتبتسم بوهن، وحاولت منع سيل الذكريات من الانهمار بينما أمسكت روبي بيدها.

"بعدما حدث لطفلك، لا عَجَبَ اعتزامك على اكتشاف ماضي جَدَّتِكَ"، ضغطت روبي على يدها. "إنني أفهم، لقد فقدتِ طفلاً، والآن تأملين أن تجدي آخر".

(20)

لندن، 1900

حالما رأتهما إيليزا تنعطفان إلى شارع كنيسة باترسي عَلِمَت مَنْ تكونان. لمحتهما من قبل تجوبان الشوارع، السيدة العجوز وبرفقتها الفتاة الشابة، ترتديان الملابس الأنيقة، وتقومان بأعمالهنَّ الخيرية بيقينٍ لا يُدَحْضُ، كأنَّ الرَّبَّ قد نزل من السماء وأمرهما بفعل ذلك.

منذ وفاة سامي والسيد سويندل يتوَعَّدُها باستدعاء رجال الإصلاحية، ولم يُفَوِّتْ أي فرصة لكي يهدِّدَها إن لم تَجِدْ طريقةً لكسب المزيد من النقود، ستجد نفسها في الإصلاحية. وبرغم أن إيليزا لم تَدَّخِرْ جهدًا في تسديد إيجار الغرفة، وتوفير القليل في الصُّرَّة الجلدية، تضاءلت موهبتها في صيد الفئران أسبوعًا تلو الآخر.

تناهت إليها من الطابق السفلي طَرْقَةٌ على الباب، فتجمَّدت، أدارت عينيها في الغرفة، ولعنت الشَّقَّ الصَّغِيرَ في قرميد المدخنة المسدودة. إن وجودها في غرفة بلا نوافذ وبالتالي لا رقيب عليها كان أمرًا جيِّدًا

وفي صالحها حينما ترغب في التجسُّس على الشارع، ولكنه بلا فائدة حينما تملكها الحاجة الملحة إلى الهرب.

مُجَدِّدًا عَاوَدَ الطَّرْقُ القَصِيرُ الحَادُّ اللَّحُوخُ، ثم اخترق صوتٌ عالٍ مُتَحَمِّسٌ الجِدَارَ الحَجْرِيَّ. "الأبرشيَّة تنادي".

سَمِعَتِ إيليزا الباب يُفْتَحُ، ورنين الناقوس أعلاه.

"أنا الآنسة رودا سترجن، وهذه ابنة أخي، الآنسة مارجريت سترجن".

ثم السيدة سويندل تقول: "تشرَّفنا بالطبع".

"يا إلهي! يا لكثرة هذه الأشياء القديمة السخيفة، ويا لضيق المكان هنا".

مُجَدِّدًا سَمِعَتِ إيليزا السيدة سويندل تقول بنبرة فَظَّة: "اتبعاني، الفتاة بالأعلى. وانتبها. أي تَلَفٍ سيحدث ستدفعان ثمنه".

سمعت إيليزا وقع أقدام تقترب. أصدرت الدرجة الرابعة صرير ثلاث مرَّات متتالية. انتظرت وقلبها يدقُّ بسرعة كفئران السيد رودن التي تحاول الإمساك بها. بإمكانها تَصَوُّر ذلك، قلبها يخفق في صدرها، كلهب يحركه نسيم خفيف.

ثم انفتح الباب الغادرُ، وتوقَّفت السيدتان. ابتسمت العجوز، وعيناها تنسحبان إلى ثنايا من الجلد، ثم قالت: "سيدات الأبرشية حَصْرَن. أنا الآنسة سترجن، وهذه ابنة أخي، الآنسة سترجن". انحنى إلى الإمام حتى أن إيليزا تراجعت خطوة. "وأنت بالتأكيد الصغيرة إيليزا ماكيبس".

لم تَرَدِّ إيليزا. جذبت قليلاً قبعة سامي، والتي كانت ما زالت ترتديها.

أجالت السيدة العجوز بصرها في الغرفة القذرة المظلمة، ثم قالت وهي تطقق بلسانها: "يا إلهي! لم تبالغي في مأساتك". رفعت يداً مفتوحة وأخذت تُروِّح بها على صدرها الممتلئ. "كلًا، بالتأكيد لم تبالغي"، ومَرَّت من أمام إيليزا وهي تقول: "لا عَجَبَ أن المرض ترعرع هنا، لا توجد نوافذ".

صَوَّبَت السيدة سويندل نظرةً ناريةً لإيليزا، وهي تشعر بالاستياء من إهانة غرفتها.

التفتت العجوز إلى السيدة الشابة التي لم تبرح مكانها عند المدخل وقالت: "أنصحك بوضع مَحْرَمَتِكَ يا مارجريت، لن تتحمَّل طبيعتك الرقيقةُ الرائحةَ هنا". أومأت الفتاة وانتزعت قطعةً مُربَّعةً مُخرَّمةً من كُمِّها، وطوتها إلى نصفين لتكون مُثلَّثًا، ثم وضعتها على فمها وأنفها، وخاطرت بخطوة عبر العتبة.

استأنفت السيدة العجوز كلامها بيقين وورعٍ: "يسرُّني أن أعلن أننا استطعنا توفير مكان لك يا إيليزا. بمجرد علمنا بموقفك، جئنا فوراً لِمَدِّ يد العون. إن سنِّك صغيرٌ على الانضمام للخدمة في الكنيسة، وأعتقد أن طبيعتك مُذنبَة، لكننا نجحنا في تدبُّر الأمر. وبنعمة الرب وجدنا لك مكانًا في الإصلاحية المحليَّة".

شعرت إيليزا بأنفاسها تضيق وتقف في حلقها.

نظرت السيدة سترجن بِشَكِّ من بين رموشها الفُظَّة: "لذا أنصحك بحزم أشياءك حتى نمضي في طريقنا".

لم تُحرِّك إيليزا ساكنًا.

"هيا لا تتباطئي".

"كلًا!" قالت إيليزا.

هَوَت السيدة سويندل بصفعة على قفا إيليزا، واتَّسَعَت عينا السيدة العجوز وهي تقول: "إنكِ لمحظوظة بذلك المكان يا إيليزا. أوْكَدْ لِكِ أَنْ هِنَاكْ أَشْيَاءُ أَسْوَأُ مِنْ الإِصْلَاحِيَّةِ تَنْتَظِرُ الفِتيَاتِ الصَّغِيرَاتِ اللَاتِي يُتْرَكْنَ لِحالهن"، ثم زَفَرَت بازدرَاءٍ وَشَمَخَت بِأَنْفِهَا وَهِيَ تَقُولُ: "هَلُمَّي الآن".

"لن أذهب".

"ربما هي بلهاء" قالت الفتاة الشابة عبر منديلها.

"كلًا، ليست كذلك. بل شريرة" قالت السيدة سويندل.

قالت العجوز: "إن الرَّبَّ لا يترك عباده، حتى الأشرار منهم. والآن يا عزيزتي مارجريت اعثري على ملابس مناسبة للفتاة. وحذار من الرائحة الكريهة".

هزَّت إيليزا رأسها. لن تذهب إلى الإصلاحية ولن تُغَيِّرَ ملابس سامي؛ فقد صارت جزءًا منها الآن. هذا هو الوقت الذي تحتاج فيه إلى أبيها يظهر كالبطل على الأبواب، كي يُخَلِّصَهَا ويأخذها معه، ويُجِرَّ بِهَا بَحْثًا عَنِ المِغَامِرَاتِ.

قالت السيدة سويندل وهي تمسك بمئزر إيليزا الرَّثِّ: "هذا سيفي بالعرض. لن تحتاج سواه إلى حيث ستذهب".

فجأة تَذَكَّرَت إيليزا كلمات أمها، حينما قالت إن الشخص يحتاج إلى إنقاذ نفسه، وأنه حتى الضُّعَفَاءُ يصبِحون أقوىاء بالعزيمة والإرادة. فجأة عَلمَت ما يجب عليها فعله، وبدون تَرَدُّدٍ قفزت نحو الباب.

على الفور اعترضت العجوزُ سَبِيلَهَا بِسرعة مُدهِشَةٍ وَثِقَلِ مُفيدٍ، وتحرَّكَت السيدة سويندل لِتُشكِّلَ حَظًّا دَفَاعِيًّا ثَانِيًا.

دفنت إيليزا وجهها في جسد العجوز البغيض، وغرست أسنانها بكل قُوَّتِها. أطلقت العجوز صرخةً وهي تمسك بفخذها قائلة: "يا لكِ من طفلة متوحِّشة!".

"ستنقل لكِ داء الكلب يا عمَّتي!".

قالت السيدة سويندل: "لقد أخبرتك أنها خَطِرَةٌ. انسي أمر الملابس، لنأخذها إلى الأسفل".

أمسكت كلتاها بذراعي إيليزا والشابة تتقدَّمهم، وهي تلقي بتحذيرات عقيمة عن الدرجات والمداخل، بينما إيليزا تتخبَّط هنا وهناك.

"اهديي يا فتاة!" قالت العجوز.

صرخت إيليزا وهي تكاد تتحرَّر: "النجدة! ليساعدني أحدكم!".

قالت السيدة سويندل بصوتٍ كالفحيح حينما اقتربوا من الدرجة السفلية: "ستنالين عقابك".

فجأة ظهر حليفٌ غير مُتَوَقَّع.

"فأر! رأيت فأرًا!".

"لا يوجد فئران في منزلي!".

صرخت الشابة، وقفزت فوق مقعد وأوقعت بعض الزجاجات الخضراء.

"فتاة خرقاء! ستدفعين ثمن الكسر".

"لكنه خَطْوُك. إن لم يكن منزلك مليئًا بالفئران...".

"كلًا! ليس هناك فئران...".

" لقد رأيته يا عَمَّتِي. شيء بَشِعْ، ضخم كالكلب، بعينين سوداوين صغيرتين برّاقتين، ومخالب طويلة حادّة... " ثم تحشرج صوتها وتهاوّت على المقعد. "أشعر بالإعياء. هذا رعب لا أتحمّله!".

"اهديني يا مارجريت. تحلّي بالشجاعة. فكّري في الأربعين يومًا وليلة التي قضاها المسيح في صحراء يهودا".

شَدَدَت العجوزُ قَبْضَتَهَا القوية على ذراع إيليزا، في الوقت نفسه مالت لتسند الشابة المنهارة والتي شرعت تبكي وتقول: "لكنّ عينيه الصغيرتين وأنفه المُتَشَنِّجُ البشع... " ثم شهقت وهي تقول "ها هو!". التفتت جميع العيون إلى الاتجاه الذي أشار إليه أصبع مارجريت. كان هناك فأرٌ مُرْتَجِفٌ رابِضٌ خلف وعاء الفحم. تمَنَّت إيليزا أن يهرب.

"تعال هنا أَيْتُها الحشرة الصغيرة!" أمسكت السيدة سويندل بخرقة بالية وشرعت في مُطَارَدَةِ الفأر في الغرفة، وهي تضرب في كل الاتجاهات.

كانت مارجريت تصرخ، والسيدة سترجن تحاولُ تهدئتها، والسيدة سويندل تلعن، والزجاج يتهشّم.

فجأة سمعن صوتًا جديدًا عاليًا وبطيئًا يقول: "توقّفنَ على الفور".

تبخّرت كلُّ الأصوات والتفتن جميعًا نحو مصدر هذه الكلمات. عند مدخل الباب وقف رجلٌ يَتَشَحُّ بالسَّواد، وخلفه عربة لامعة، تجمّع حولها الأطفال، وهم يلمسون العجلات ويتعجّبون من المصابيح المتوهّجة في المقدمة. أجال الرَّجُلُ عينيه في المشهد أمامه.

"الآنسة إيليزا ماكيبس؟".

أومأت إيليزا بطريقة حمقاء، ولم تَنبَسْ ببنت سَفّة، وفزعت لأن نُقْطَةَ هُرُوبِهَا الآن سَدَّهَا هذا الغريب الذي يعرف اسمها.

"أنتِ ابنة چورچيانا مونتراشيه؟" ناوَل إيليزا صورة. كانت أمها، وهي شابة، ترتدي ملابس فخمّة. اتّسعت عينا إيليزا، وأومات وهي تشعر بالارتباك.

"اسمي فينياس نيوتن. نيابةً عن اللورد لينوس مونتراشيه لورد عزبة بلاكهرست، جئتُ كي أصطحبك وأعيدك إلى قصر العائلة".

فتحت إيليزا فمها قليلاً، بينما سقط فكا السيّدتين الأخرين. وتهاوت السيدة سويندل على المقعد، ضحيّة نوبة من السكّته المباغّنة. فتحت فمها ثم أغلقته مثل سمكة وهي تُغمغمُ باضطرابٍ: "لورد مونتراشيه...؟ عزبة بلاكهرست...؟ قصر العائلة...؟"

شدّت السيدة العجوز قامتها وهي تقول: "سيد نيوتن، للأسف لن أدعك تدخل وتأخذ هذه الفتاة دون أن أرى أمراً رسمياً. نحن في الأبرشيّة نتحمّل مسؤولياتنا...".

قدّم الرجل ورقة وهو يقول: "كل شيء موجود هنا. لقد تقدّم اللورد بطلب الوصاية على هذه الطفلة القاصر وتمّت الموافقة عليه"، ثم التفت إلى إيليزا غير عابئٍ بملابسها الغريبة وقال: "هَلُمّي يا آنسة. ثمّة عاصفةٌ تقترب وأماننا رحلة طويلة".

أعملت إيليزا عقلها لجزء من الثانية. لم تعبأ بأنها لم تسمع من قبل باسم لينوس مونتراشيه أو قصر بلاكهرست. لم يهّمها إن كان السيد نيوتن هذا يقول الصدق أم لا. لم تهتمّ أن أمها لم تخبرها بشيء حول عائلتها، وأنه كلما كانت تُلحُّ عليها بالحديث كانت أمها تتجهّم. أي شيء كان أفضل من الإصلاحية. وتراءى لإيليزا أن المضيّ مع هذا الرجل، والهروب من قبضتي السيدتين، والتلويح بالوداع لآل سويندل وغرفتهم العلوية الموحّشة الباردة، كان بمثابة إنقاذ نفسها مثلما كان سيحدث لو نجحت وتمكّنت من التحرُّر والهروب من الباب.

هرعت نحو السيد نيوتن، ووقفت بجانب ذراعه واسترقت نظرة لوجهه. لم يبدُ كبيراً من هذه المسافة القصيرة. كان بحجم برمبل متوسط الطول، بشرته مُتورّدة، وأسفل قبعته السوداء الطويلة أبصرت شعراً حوّلتها السنون من اللون البني إلى الفضي.

وبينما كانت السيدتان تتفحصان أمر الوصاية، استعادت السيدة سويندل رباطة جأشها، ونهضت، ورفعت أصبعاً نحيلاً في اتجاه السيد نيوتن، وهي تتوقّف بعد كل ثلاث كلمات. "ليست هذه سوى خدعة. وأنت، يا سيدي، مُحتمل". ثم هزّت رأسها واستأنفت: "لأ أدري ماذا تريد من تلك الفتاة، برغم أن بإمكانني أن أتخيّل جيّداً، لكنك لن تسرقها مني بخدعتك الشريرة".

قال السيد نيوتن بازدراءٍ واضح: "أوكد لك يا سيدي أن الأمر لا ينطوي على أي خدعة على الإطلاق".

"حقاً؟" قفز حاجباها وامتدّت شفتاها في ابتسامة لُعابيّة. "حقاً؟" التفتت بانتصار نحو الأنستين سترجن قائلة: "إنها أكاذيب. كلها أكاذيب، إنه كذّابٌ شرير. ليس لهذه الفتاة عائلة، إنها يتيمة. وهي لي، ملكي أفعل بها ما أشاء"، ثم التوت شفتاها في ابتسامة ظافرة كأنها وصلت إلى نقطة لا يمكن مهاجمتها فيها: "لقد تركتها أمها في عهدي حينما ماتت لأنه لا يوجد مكان تذهبُ إليه" ثم توقّفت بانتصار. "هذا صحيح. لقد أخبرتني أمها أنها ليس لديها عائلة. بالإضافة إلى أنني لم أجد لها عائلةً خلال ثلاث عشرة سنة التي عرفتتها فيها. هذا رجل نصابٌ".

اختلست إيليزا نظرةً إلى السيد نيوتن الذي أطلق تنهيدةً قصيرة ورفع حاجبيه قائلاً: "برغم أنه يدهشني قليلاً أن والدة الأنسة إيليزا لم تتحدّث عن عائلتها، لا يُغيّر ذلك من حقيقة وجودها"، أوماً للسيدة

العجوز: "كل شيء موجود في تلك الأوراق"، ثم توجّه إلى الخارج وفتح باب العربة وهو يقول: "آنسة إيليزا؟".

"سأستدعي زوجي" قالت السيدة سويندل.

تردّدت إيليزا، وهي تفتح يديها وتغلقها.

"آنسة إيليزا؟"

"سيعرف زوجي كيف يتعامل معك".

سواءً كان الرجل يقول الحقيقة أم لا، أدركت إيليزا أن الاختيار كان بسيطاً: العربة أو الإصلاحية. لم يكن لديها سيطرة على مصيرها في تلك اللحظة. كان خيارها الوحيد أن تلقي بنفسها تحت رحمة أحد المتجمّعين هنا. وبنفّس عميق، أخذت خطوة نحو السيد نيوتن وهي تقول: "ليس معي شيء أخذه من هنا...".

"ليستدع أحدكم السيد سويندل!".

ابتسم السيد نيوتن بتجهّم وهو يقول: "لا أظن أن شيئاً هنا له مكان في عربة بلاكهرست".

تجمّع حشدٌ من الجيران. وقفت السيدة باركر فاغرة الفم، وسلّ الغسيل المبتلّ تنقط على خاصرتها، بينما ألصقت الصغيرة هاتي وجنتها الملوّثة بالمخاط برداء سارة.

وقف السيد نيوتن إلى جانب الباب، وبسط يده أمام المساحة الفارغة: "تفضّلي يا آنسة إيليزا".

بنظرة أخيرة على السيدة سويندل المشدوّهة، والأنستين سترجن، تسلّقت إيليزا السلم الصغير الذي تدلّى للأسفل ولامسّ البالوعة، واختفت داخل التجويف المظلم للعربة.



حينما أُغلق الباب أدركت إيليزا أنها لم تكُن بمفردها. أمامها جلس رجل بين ثنايا القماش الأسود للجانب المقابل. رجل يرتدي نظارة أنفية، وبذلةً أنيقة. تقلّصت معدتها. عرفت على الفور أنه الرجل الشرير الذي حدّرتها أمُّها منه، وعلمت أن عليها الفرار. وبينما التفتت بيأس نحو الباب المغلّق، ضرب الرجل الشرير الحاجزَ خلفه، واندفعت العربة إلى الأمام.

(22)

كورنوال، 2005

وَصَعَت كساندرا كيس الشاي في الفنجان، وضغطت على زر تشغيل الإبريق. وبينما كانت يَتَجَهَّز للغليان، حَدَقَت في النافذة. كانت غرفتها تقع في الناحية الخلفية من فندق بلاكهرست، وتُطِلُّ على البحر، وبرغم الظلام استطاعت كساندرا تَبَيَّنَ بعض الحقائق. مرج مُشدَّب أخذ شكل الكُليَّة انحدر بعيدًا عن الشرفة نحو صفٍّ من الأشجار الطويلة، والتي استحالت زرقاء اللون في ضوء القمر الفضي. عرفت كساندرا أن تلك الأشجار كانت تقابل الواجهة العمودية من الجرف. في مكان ما خلف الخليج الصغير كانت تقع القرية نفسها. لم تَرَ كساندرا الكثير منها بعد؛ فقد استغرقت رحلة القطار معظم اليوم، وبحلول الوقت الذي شَقَّت فيه سيارة الأجرة طريقها عبر التلال الخلفية لتريچينا، خَبَا النهار بسرعة مُتَحَوِّلاً إلى ظلام. وحينما ارتقت

السيارة إحدى القمم لَمَحَتْ سريعًا دائرةً من الأضواء المتلألئة في الخليج الصغير بالأسفل، مثل قرية خيالية تتجسّد في الغسق.

شرعت كساندرا تُقلّب صفحات مُفكّرة نيل ذات الحواف البالية، ريثما تغلي المياه في الإبريق. كانت قد طالعتها كثيرًا خلال رحلة القطار، وتخيّلت أن بإمكانها قضاء الوقت في حَلِّ المرحلة الثانية من رحلة نيل، لكنها كانت مُخطئة. كانت النظرية صحيحة، إلا أن تنفيذها على أرض الواقع كان عسيرًا. لقد شغلها الأفكار معظم الرحلة، والتي كانت كثيرةً منذ العشاء مع روبي وجراي. ورغم أن نيك وليو لم يَبْرَحَا ذهنها قَطُّ، الطريقة الصريحة المباشرة التي فُتِحَ بها موضوع وفاتهما أعادت معها صدمة لحظة الانشطار.

كان الأمر مُباغِتًا للغاية. ظنّت أن هذه الأمور تحدث دَوْمًا هكذا. في لحظة كانت زوجةً وأمًّا، وفي اللحظة التالية صارت وحيدة. وكان ذلك في سبيل ساعة رَسْمٍ مُتواصلة. كانت قد أرسلت ليو الرضيع مع نيك إلى المحلّات لشراء سِلْعٍ لا يحتاجون إليها. ابتسم لها نيك وهو يهيئ السيارة، ولوّح ليو بيدٍ صغيرة مكتنزة، ما زالت مُتشبّهةً بكيس الوسادة الحريري الذي يأخذه معه أينما ذهب. ولوّحت لهما كساندرا بذهنٍ شارد، مشغولٍ بالمرسم.

الأسوأ من كل هذا مدى استمتاعها بالساعة ونصف قبل سماعها الطّرق على الباب. لم تلاحظ حتى المدة الطويلة التي تغيّبا فيها...

أنقذتها نيل للمرّة الثانية. جاءت مباشرة، وجلبت معها بين، والذي شرح ما حدث، الكلمات غير المفهومة من شَفَتِي الشُّرطيّ: حادثة، شاحنة مُنحرفة، تصادم. تسلسلُ بغيضٍ من الأحداث العادية المألوفة، التي لم تُصدّق أنها تحدث لها.

لم تخبرها نيل أن الأمور ستكون على ما يرام؛ فهي تدرك أن الأمور لم ولن تكن على ما يُرام أبدًا؛ فجاءت مسلّحةً بالحبوب كي تساعد

كساندرا على النوم، لَتَهْدِيَّ عقلها الراكض وتجعل كل شيء يختفي، حتى لو ساعات قليلة. ثم أخذت كساندرا معها. كانت الإقامة في منزل نيل أفضل. لم يشعر شبحاها بالراحة هناك، ولم يعودا طليقين.

مرّ الزمن بعد ذلك كغشاوة؛ مزيجٌ من الحزن والرعب والكوابيس التي لا يمكن التخلُّص منها بقدم يوم جديد. لم تكن تعرف أيهما أسوأ، الليالي التي كان فيها نيك يملأ أفكارها، وشبحة يتساءل، مرّةً تلو المرة، لماذا جعلتنا نذهب؟ لماذا جعلتني آخذ ليو؟ أم الليالي التي لا يأتي فيها، حينما تكون بمفردها والساعات المظلمة تمتدُّ إلى ما لا نهاية، والخلاص الجزئي لتباشير الصباح ينفلت من بين أصابعها أسرع ممّا كانت تتمنى أن تطارده. ثم كان الحلم. الحقل البغيض الذي يَعُدُّها بالعثور عليهما.

خلال النهار كان يتبعها ليو، وصَجَّةُ ألعابه، وصراخه، يدٌ صغيرة تشدُّها من تنورتها، تتوسَّل أن تحمله على ذراعيها، كم خفق قلبها بفرحة قوية، خاطفة، مُهشِّمة، لكنها حقيقية. لحظة نسيان. ثم ضربة الواقع حينما تلتفت لترفعه ولا تجده هناك.

حاولت الخروج، ظننت أنها ربما تهرب منهما بهذه الطريقة، لكنه لم يكن مُجدياً. أينما تذهب تجد الكثير من الأطفال. في المنتزهات، والمدارس، والمحلات. هل كانت أعدادهم غزيرةً بهذا الشكل دومًا؟ لازمَت البيت، وقضت الأيام في فناء نيل، مُستَلْقِيَةً على ظهرها أسفل شجرة المانجو القديمة، تراقب الغيوم وهي تندفع فوق رأسها. السماء الزرقاء الصافية وراء أوراق الياسمين الهندي، ارتعاش سعف النخيل، بذور صغيرة للغاية على شكل نجومٍ يُطِيرُها النسيم لتمطر على الممرِّ بالأسفل.

لا تفكّر في شيء. تحاول ألا تفكر في شيء. تفكر في كل شيء.

وجدتها نيل على هذا الوضع في ظهيرة أحد أيام أبريل. كان الفصل قد بدأ لتوّه، وتلاشى قَيْظُ الصيف، وآثار الخريف الوشيك تملأ الجو. كانت عينا كساندرا مُغْمَضَتَيْنِ.

أدركت أن نيل كانت واقِفَةً بجوارها حينما تلاشت الحرارة عن جِلْدِ ذِرَاعَيْهَا، واعتلى جفنيها عَتَمَةٌ خفيفةٌ. ثم سَمِعَتْ صوتها يقول: "ظَنَنْتُ أَنَّي سَأَجِدُكِ هُنَا".

لم تَنْبَسْ كساندرا بكلمة.

"هل تعتقدين أنه رُبَّمَا حان الوقت لتفعلي شيئًا يا كاس؟"

"أرجوكِ يا نيل دعيني وشأني".

نَطَقَتْ ببطءٍ أكثر ووضوح: "أنتِ بحاجة إلى الشروع في عمل شيء".

"أرجوكِ..." كانت فكرة الإمساك بقلم تُسَقِّمُهَا، أمَّا بالنسبة لفتح إحدى كِرَاسَاتِ الرسم... كيف تحتمل مُجَازَفَةَ لَمَحِ وَجَنَةِ مُكْتَنِزَةِ، طَرْفِ أَنْفِ مُدَبِّبٍ، زاوية شَفَةِ طِفْلِ يَسْتَحِقُّ التَقْبِيلَ...؟
"تحتاجين إلى عمل شيء ما".

كانت نيل تحاول مساعدتها، لكنَّ جُزءًا من كساندرا أراد أن يصيح في وجه جَدَّتِهَا ويهزَّهَا، ويعاقبها على عَدَمِ فِهْمِهَا. بدلًا من ذلك، تنهَّدت، وجفناها ما زالا مُنْغَلِقَيْنِ، يرتعشان قليلًا. "أسمع الكثير من د. هارفي، لستُ بحاجة لسماعه منك أيضًا".

"لا أقصد علاجياً يا كاس"، وتردَّدت نيل قليلاً قبل أن تُردِفَ: "أعني أنتِ بحاجة إلى البدء في الإسهام".

فَتَحَّتْ كساندرا عينيها، ورفعت يدها لتحجُبَ الوَهَجَ. "ماذا؟".

"لم أعد شابةً يا حبيبتي. أنا بحاجة إلى المساعدة المالية في المنزل والمُتَجَرِّ".

وَمَمَّصَتِ الْعِبَارَاتِ الْجَارِحَةَ فِي الضَّوءِ السَّاطِعِ، كَشْفَرَاتٍ تَرَفُضُ التَّبَدُّدَ. كَيْفَ لِنَيْلٍ أَنْ تَكُونَ بِهَذَا الْبُرُودِ؟ بِهَذِهِ اللَّامِبَالَاةِ؟ ارْتَعَشَتْ كَسَانَدْرَا. أَخِيرًا تَمَكَّنَتْ مِنَ النُّطْقِ، وَكَانَ حَلْفُهَا يُؤَلِّمُهَا مِنَ الْمَجْهُودِ: "عَائِلَتِي مَاتَتْ. إِنِّي حَزِينَةٌ عَلَيْهِمْ".

"أَعْلَمُ" قَالَتْ نَيْلٌ وَهِيَ تَسْتَرِيحُ بِجَوَارِ كَسَانَدْرَا. ثُمَّ أَمَسَّكَتْ بِيَدَيْهَا وَقَالَتْ: "أَعْلَمُ ذَلِكَ يَا فَتَاتِي الْعَزِيزَةَ. لَكِنْ مَرَّةً سِتَّةَ أَشْهُرٍ. وَأَنْتِ لَسْتِ مَيِّتَةٌ".

كَانَتْ كَسَانَدْرَا تَبْكِي الْآنَ. التَّفَوُّهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ بِصَوْتٍ عَالٍ جَعَلَهَا تَبْكِي .

"أَنْتِ هُنَا" قَالَتْ نَيْلٌ بِلُطْفٍ، وَهِيَ تَعْتَصِرُ يَدَهَا. "وَأَنَا بِحَاجَةٍ إِلَى الْمُسَاعَدَةِ".

"لَا أَسْتَطِيعُ".

"بَلْ تَسْتَطِيعِينَ".

"كَلَّا..." شَعَرَتْ بِأَلْمٍ شَدِيدٍ فِي رَأْسِهَا. كَانَتْ مُرْهَقَةً، مُنْهَكَةً. "أَعْنِي لَا أَسْتَطِيعُ. لَا أَمْلِكُ شَيْئًا لِأَعْطِيهِ لِكِ".

"لَا أَحْتَاجُ مِنْكَ أَنْ تَعْطِينِي شَيْئًا. كُلُّ مَا أَحْتَاجُهُ أَنْ تَأْتِي مَعِي وَتَفْعَلِي مَا أَطْلُبُهُ. هَلْ يُمْكِنُكَ الْإِمْسَاكُ بِخَرْقَةٍ تَنْظِيفٍ؟".

ثُمَّ أَخَذَتْ نَيْلٌ تُبْعِدُ شَعْرَ كَسَانَدْرَا عَنْ وَجْهِهَا الْمُبْلَلَتَيْنِ بِالدَّمْعِ. كَانَ صَوْتُهَا حَفِيفًا، فَوْلَازِيًا بِشَكْلِ غَيْرِ مُتَوَقَّعٍ. "سَوْفَ تَتَغَلَّبِينَ عَلَيَّ هَذَا. أَعْرِفُ أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَبْدُو كَذَلِكَ، لَكِنَّكَ سَتَفْعَلِينَ. أَنْتِ نَاجِيَةٌ".

"لَا أُرِيدُ أَنْ أَنْجُو مِنْ ذَلِكَ".

"أَعْلَمُ ذَلِكَ أَيْضًا. وَهَذَا أَمْرٌ لَا بِأَسْ بِهَ تَمَامًا. لَكِنْ أَحْيَانًا لَيْسَ لَدَيْنَا خِيَارٌ...".

انطفأ إبريق الفندق بفرقعةٍ مُنتَصِرةٍ، وصَبَّتْ كساندرا الماء على كيس الشاي، ويدها ترتجف قليلاً. وَقَفَتْ لهُنْيَهَةً، بينما الماء يتلوّن. أدركت الآن أن نيل فهمت بالفعل، كانت تعرف جيّداً الخواء الأعمى المُبَاغِتَ بعد انفصال المرء عن روابطه.

قَلَبَتِ الشاي وتنهَّدت بهدوء بينما انسحب نيك وليو مُجَدِّداً. أُجبرت نفسها على التركيز على الحاضر. كانت في فندق بلاكهرست في تريجينا، بكورنوال، تُصغي لصوت أمواج بحرٍ غريب تتكسّر على رمال شاطئٍ غريب.

وراء القِمَمِ السوداء للأشجار الباسقة، طائرٌ وحيد يطير كنقطة سوداء عبر سماء قائمة، وضوء القمر يتموِّج على سطح البحر البعيد. أضواء متناهية الصُّغَر تتلألأ على الساحل. ظنَّت كساندرا أنها قوارب صيد. في النهاية، كانت تريجينا قرية صيد. غريب هذا، كان مُدهِشاً أن تجد في هذا العالم الحديث مكاناً صغيراً ما زالت تسير فيه الأشياء بالطريقة القديمة، على نطاق صغير، مثلما كانت تتمُّ على مدار أجيال.

أخذت رشفةً من الشاي وزفرت بحرارة. كانت في كورنوال، مثلما كانت نيل من قبل، وقبلها روز وناثانيال وإيليزا ماكيبس. وبينما كانت تهمس بالأسماء، شعرت بوخزٍ خفيفٍ غريب أسفل جِلدها، كأسلاكٍ دقيقةٍ تجذب جميعها في وقتٍ واحد. لديها هدف هنا، ولن تَنغَمِسَ في ماضيها الخاص.

قالت بهدوء: "ها قد وصلتُ يا نيل. هل هذا ما تريدين مني أن أفعله؟".

(23)

عزبة بلاكهرست، 1900

حينما استيقظت إيليزا صباح اليوم التالي، استغرقت برهةً لتتذكّر أين هي. كانت تبدو مُستَلْقِيَةً على زحّافةٍ خشبية ضخمة ذات مظلّةٍ زرقاء مُعلّقة بالأعلى. كانت ترتدي لباس نومٍ سيُغشى على السيدة سويندل فرحًا إذا رآته، وأسفل رأسها تكوّمت ملابس سامي المتّسخة. ثم تذكّرت: نساء الإصلاحية، والسيد نيوتن، ورحلة العربة، والرجل الشرير. كانت في منزل خالها وزوجته، كانت هناك عاصفة، وبرق، ورعد، ومطر. وجه سامي في النافذة.

زحّفت إيليزا على مقعد النافذة ونظرت إلى الخارج. واضطرت أن تميل. كان الشفق قد طوى مطر ورعد الليلة السابقة، وعاد للهواء نقاؤه، وتناثرت الأوراق والأغصان على المرح، وانقلب مقعد حديقة أسفل النافذة.

انجذب انتباهها إلى زاوية بعيدة من الحديقة. تحرك بين النباتات الخضراء شخص ما، رجل، له لحيّة سوداء. كان يرتدي بذلة عملي، وقُبعة خضراء صغيرة غريبة، وحذاءً مطاطياً أسود.

سمعت جلبة خلفها فالتفتت. انفتح باب الغرفة ودخلت خادمة صغيرة ذات شعر معقوص، ووضعت صينيّة على المنضدة الجانبية. كانت نفس الخادمة التي تَلَقّت التويخ في الليلة السابقة.

قالت: "طاب صباحك يا آنسة. اسمي ماري وأحضرتُ لك الإفطار. تقول السيدة هوبكنز إنه يمكنك تناوله في غرفتك هذا الصباح بسبب رحلتك الطويلة في الأيام الماضية".

هرعت إيليزا لتجلس إلى المنضدة الصغيرة، واتسعت عيناها وهي تبصر محتويات الصينية: لفائف خُبزٍ ساخنة يعلوها زُبْدٌ سائِحٌ وفير، وأواني بيضاء مترعة بمربّى فواكه لم ترها من قبل، وسَمَكَتِي رنجة، وكومة من البيض المخفوق، ونقانق تَلَمَعُ بالدهن. غرَّد قلبها.

قالت ماري، وهي تسحب الستائر إلى الخلف: "لقد جَلَبتِ معكِ عاصفة كبيرة الليلة الماضية. وصلتُ إلى منزلي بأعجوبة. تخيلتُ لبرهة أنني سأبيت ليلتي هنا!".

ابتلعت إيليزا لقمة كبيرة من الخبز وسألتها: "ألا تعيشين هنا؟".

ضحكت ماري: "كلّا، ربما يُحبُّ الآخرون هذا المنزل، لكنني لا أُفضّل العيش هنا...". ثم نظرت إلى إيليزا، بخديّين مُتورّدَيْن. "إنني أعيش في القرية مع أبي وأمي وأشقائي وأختي".

"لديك أشقاء؟" قالتها وهي تُفكّر في سامي والخواء ينفث داخلها.

"أجل بالطبع. ثلاثة. اثنان أكبر مني وأخ أصغر. برغم أن باتريك الأكبر لم يَعدْ يعيش معنا، ما زال يعمل في قوارب الصيد مع أبي. يخرج هو وويل وأبي كل يوم، مهما ساءت حالة الطقس. الأصغر، رولي، في

الثالثة من عمره، يمكث في البيت مع أمي والصغيرة ماي". قالت وهي ترتب الحشايا على مقعد النافذة. "نحن آل مارتن نعمل دائماً في البحر. جدّي الأكبر كان أحد قراصنة تريجينا".

"ماذا؟"

"قراصنة تريجينا" قالت وعيناها تتسعان بعدم تصديق. "ألم تسمعي بهم من قبل؟".

هزّت إيليزا رأسها.

"كان قراصنة تريجينا أكثر الناس ترويعاً. كانوا يحكمون البحار في زمنهم، ويحضرون النبيذ والفلفل حينما لا يستطيع الناس في القرية إحضارهم بأنفسهم. لكنهم كانوا يأخذونها من الأغنياء فحسب، مثل ذلك الشخص الذي لا أتذكّر اسمه، الفارق أنهم كانوا يفعلون ذلك في البحر، وليس في الغابة. ثمّة معايرٌ مُتعرّجة في تلك التلال، أحدها يفضي إلى البحر".

"أين البحر يا ماري" قالت إيليزا. "هل هو قريب؟".

نظرت ماري إليها باندهاش مُجدّداً. "بالطبع يا عزيزتي! ألا تسمعيه؟".

صمتت إيليزا وأصاحت السمع. هل تسمع البحر؟

قالت ماري: "اسمعي. ووش... ووش... ووش... هذا هو البحر. يتنفّس كعادته. ألا تسمعيه حقاً؟".

"بإمكاني سماعه. لكنني لم أعلم أنه البحر".

ابتسمت ماري: "لم تعلمي أنه البحر؟ وماذا ظننته بحق السماء؟".

"اعتقدت أنه قطار".

انفجرت ماري ضاحكةً: "قطار! أنتِ فتاةٌ مُسليّةٌ. المحطة بعيدة عن هنا. برغم أن البحر كان قطارًا بالفعل. سأقضُ ذلك على أخوتي". فكَرَّت إيليزا في القصص القليلة التي كانت تحكيها أمُّها عن الرمال، والحصى الفضي، والريح التي تعبق برائحة الملح. "هل يمكنني الذهاب وإلقاء نظرة على البحر يا ماري؟".

"أظنُّكِ تستطيعين. لكن عليك بالعودة حينما تَدُقُّ كوك جرسَ المأدبة. لقد خرجت السيدة هذا الصباح. ولن تكون هنا لتلاحظ". تغيّرت ملامح ماري المسرورة حينما ذكّرت السيدة. "أحرصني على الرجوع قبل عودتها. إنها مُحبّة للقوانين والنظام، ولا يَجِبُ إغضابها". "وكيف أصل إلى هناك؟".

أشارت ماري نحو النافذة وقالت: "تعالى هنا وسأريك يا عزيزتي".

كان الهواءُ هنا مُختلِّفًا، والسماء تبدو أكثر إشراقًا وأكثر بُعدًا. ليست كسماء لندن الرمادية، التي تتوعّد دومًا بالسقوط. هذه السماء رفعتها لأعلى نسائم البحر، كملاءة بيضاء شاسعة في يوم الغسيل، والهواء محبوس أسفلها، يمجج لأعلى ولأعلى.

وقفت إيليزا على حافة جرفٍ تنظر عبر الخليج الصغير نحو البحر الأزرق العميق. نفس البحر الذي أبحر فيه والدُها، والساحل الذي أَلِفَتْه أمُّها وهي بَعْدُ فتاة.

بعثرت عاصفة الليلة السابقة خشبَ الطَّفُو على الشاطئ الأصفر. وبرزت من الحصى أغصان بيضاء رفيعة، غَضَّنها الزمن وصقلها، كقرون حيوانٍ خياليٍّ عظيم. كان باستطاعة إيليزا أن تتذوَّق الملح في البحر، مثلما كانت أمُّها تقول دائماً. شعرت فجأة بالخفة والحرية خارج

حدود المنزل الغريب. أخذت نَفْسًا عميقًا وشرعت تنزل الدرجات الخشبية، تعدو أسرع وأسرع بحماسٍ للوصول إلى الأسفل.

حاملة وصلت إلى الشاطئ، جلست على صخرة ملساء، وشرعت تفكُّ حذاءها، وأصابعها تتسابق بلهفة نحو المهمة. كوّرت أطراف بنظلون سامي القصير إلى ما فوق ركبتها، ثم شقّت طريقها نحو حافة المياه. شعرت بأحجار، ملساء ومُدبّبة على حدّ سواء، دافئة تحت قدميها. وقفت لبرهة، تراقب الكتلة الزرقاء العظيمة ترتفع وتنخفض مرارًا وتكرارًا.

بنفسٍ عميق مالح، قفزت إلى الأمام حتى ابتلت أطراف قدميها وكاحليها وركبتيها. سارت بحذو الشاطئ، تضحك على الفقاعات الباردة بين أصابع قدميها، وتلتقط القواقع والأصداف التي تُعجبها، وقطعة من حجارة البحر على شكل نجمة.

وخلال فترة وجيزة قطعت إيليزا المسافة إلى ساحل الخليج الصغير ذي المنحنى العميق. حينما وصلت إلى نهايته ظهر من بعيد ما يبدو أنه بقعة مُظلمة. برزت صخرة سوداء ضخمة من الجرف ومالت على البحر. كانت الصخرة تشبه نَفْحَةً قويّةً من دخان أسود غاضب جُمّد في زمنٍ ما، وحُكم عليه بالصلابة الأبدية. ربما لم تكن شطرًا من الأرض أو البحر أو الهواء.

كانت الصخرة السوداء زَلَقَةً، لكن إيليزا وجدت إفريزًا عميقًا في حافتها يصلح للوقوف عليها. وضعت قدمها على حافةٍ مُسنّنة وتسلّقت جانب الصخرة، ولم تتوقّف إلى أن وصلت إلى القمة. كانت عاليةً للغاية، حتى أنها حينما نظرت إلى الأسفل شعرت بالدوار قليلًا. زحفت إلى الأمام ببطء على يديها وركبتيها. وأخذت الصخرة تضيق أكثر فأكثر حتى وصلت أخيرًا إلى أبعد نقطة. جلست على القبضة المرفوعة للصخرة وضحكت بأنفاس متقطّعة.

كانت كأنها على قِمة سفينة عظيمة. أسفلها، الزَّبْدُ الأبيض
للأمواج المتصارعة، وأمامها، البحر الرَّحْبُ تتلألاً على صفحته أشعة
الشمس، التي ترتفع وتنخفض مع النسيم، حتى الأفق الممتد الرائق.
تعرف أن فرنسا تقع مُباشرةً أمامها، وخلف أوروبا كان الشرق... الهند
ومصر وإيران وأماكن أخرى غريبة سَمِعْتَهَا تتردَّد على شفاه رجال
نهر التَّمز. وخلف ذلك كان الشرق الأقصى، الجانب الآخر من الأرض.
شعرت إيليزا وهي تراقب البحر الشاسع، وضوء الشمس المتلألئ،
وتفكَّر في الأراضي النائية- بشعور لم تألفه من قبل: دفء، وبارقة أمل،
وغياب الحذر...

مالت إلى الأمام وانحرفت. لم يَعُد الأفق مُمتدًّا. ظهرت سفينة
ضخمة سوداء ذات أشعة كثيرة، عند الخَطِّ الذي التقت فيه السماء
بالبحر، كما لو أنها ستنزلق من على حافة العالم. طرفت إيليزا
بعينيها وحينما فتحتهما مُجددًا تلاشت السفينة. يا لسرعة السفن في
البحر الشاسع! يا لقوَّة أشعتها البيضاء الكبيرة! وخطر لها أن أباهَا
كان يُبحر على سفينة كهذه.

حوَّلت انتباهها إلى السماء. حَلَّق نورس بالأعلى، ينعق، في السماء
البيضاء. تتبَّعت مساره إلى أن جذب عينيها شيءٌ على قِمة الجرف.
كان هناك كوخ، مُخبأً بين الأشجار. لاحظت سطحه ونافذته الصغيرة
المضحكة. وتساءلت كيف هو شعور العيش في ذلك المكان، على حافة
العالم بهذا الشكل؟ هل سيبدو دومًا كأن المرء على وشك السقوط
والانزلاق إلى البحر؟

أجفلت إيليزا حينما تناثرت مياه باردة على وجهها. نظرت إلى
الأسفل حيث البحر المتلاطم. كان المَدُّ قادمًا، والماء يرتفع بسرعة،
وقد غمر الإفريز الذي وقفت عليه.

زحفت عائِدةً على حرف الصخرة، ونزلت بحذر إلى الأسفل، مُلتزِمةً بأعمق حافة حتى تَلَفَّ أصابعها حول الجانب الوعر. وحينما صارت بمستوى المياه توقَّفت. من هذه الزاوية استطاعت أن ترى أن الصخرة لم تكن مَتيَنةً. كانت كأنَّ أحدهم نحت حُفرةً عظيمة. كهفًا. فكَّرت إيليزا في قراصنة تريجينا الذين حَكَّت عنهم ماري، وأنفاقهم. كان هذا هو الكهف، كانت متأكَّدةً من هذا. ألم تُقُلْ ماري إن القراصنة اعتادوا تمرير غنائمهم عبر سلسلة من الكهوف تجري أسفل أجراف صخرية؟

تمايلت إيليزا على مُقدِّمة الصخرة واندفعت على الرصيف المُسطَّح. سارت إلى الداخل خطوات قليلة؛ إذ كان مُظلمًا ورطبًا. هتفت: "مرحبًا!؟". تردَّد صدى صوتها بشكل مُمتِع، واحتضنته الجدران قبل أن يتلاشى إلى المجهول.

لم تَرَ أكثر لكنها شعرت بالحماس. كهفها السري. وعزمت أن تعود في يوم ما بمصباح لترى ما بداخله...

صوت مكتوم، بعيد، لكنه يقترب. كير-ثود، كير-ثود، كير-ثود...

في البداية أخذت تُفكِّر في ماهية الصوت، وثبَّت الخوفُ قدميها، وهي تتساءل أي نوع من وحوش البحر قادم نحوها.

كير-ثود، كير-ثود، كير-ثود... كان الصوت أعلى الآن.

تراجعت ببطء، وبدأت تمشي إلى جانب الصخرة.

ثم، مُخترِقةً قِمَمَ الجرف الصخري، أبصرت حصانين أسودين لامعين يجُرَّان عربة وراءهما. لم يكن وحشًا بحريًّا في النهاية، بل نيوتن وعربته على طريق الجرف، الصوت يتضخَّم وهو يتردَّد بين جدران الصخرة والخليج الصغير.

تذكّرت تحذير ماري. لقد ذهبت زوجةً خالها في الصباح لكن كان يُتَوَقَّع عودتها وقت الغداء، وكان على إيليزا ألا تتأخّر.

تسلّقت الصخرة وقفزت على الشاطئ المليء بالحصى. وركضت عبر المياه الضحلة ثم إلى الساحل. ربطت إيليزا حذاءها وقفزت الدرجات. كان أسفل بنطلونها القصير مُبلِّلاً، وأطرافه تصفّق بعنف كاحليها وهي تعدو بطول الطريق بين الأشجار. لقد تغيّر مكان الشمس منذ مجيئها إلى الخليج، وصار الممرّ الآن مُعتِمًا وباردًا. صار المكان كجحرٍ سرّيٍّ، بيت الجنّيات والعفاريات والأقزام. كانوا يختبئون، يراقبونها وهي تمشي في عالمهم. تفحصت النباتات تحتها، مُحاولَةً ألا تُغلق عينيها، على أمل إمساك واحد منهم من غير قصد. فالجميع يعلمون أن المرء لو لمح جنّيًا سيُلبّي له أمنيّاته.

سمعت جلبة فتجمّدت في مكانها. كتمت أنفاسها. أبصرت أمامها رجلاً، رجلاً من لحم ودم. الرجل ذو اللحية السوداء الذي لمحتّه من نافذة غرفتها هذا الصباح. كان جالسًا على جذع شجرة، وأمامه قطعة قماش مربعة مفتوحة، داخلها قطعة فطيرة كبيرة.

التصقت بجانب الممرّ وشرعت تُراقبه. اشتبكت أطراف أغصان عارية صغيرة بأطراف شعرها القصير وهي تتسلّق بحذرٍ فرع شجرة خفيض، كانت بقعةً مُراقبةً جيّدة. بجوار الرجل عربة يد، مليئة بالتراب. أو كما يبدو. كانت إيليزا تعرف أن تلك مجرد حيلة، وأنه يُخبئ كنوزه أسفل التراب؛ لأنه بالتأكيد كان ملك القراصنة. أحد قراصنة تريجينيا، أو شبح قرصان تريجينيا. رحّالة بحري غير ميّت، ينتظر الانتقام لموت رفاقه. شبح لم تنتهي مهمّته بعد، ينتظر في مخبئه ليأسر الفتيات الصغيرات ويأخذهن إلى زوجته لتخبِزهنّ في الفطائر. كانت تلك السفينة التي رآتها في البحر، السفينة السوداء الضخمة التي اختفت في غمضة عين. كانت سفينةً شبحٍ وهو...

فجأة تهشم فرع الشجرة الذي كانت إيليزا تجلس عليه وسقطت على الأرض، وهبطت على كومة من الأوراق الرطبة. لم يتحرك الرجل قيد أملة. تحركت مقلته عينه اليمنى بشكل طفيف نحو إيليزا وهو مستمر في مضغ الفطيرة. وقفت إيليزا، وفركت ركبتيها، ثم شدت قامتها. وسحبت ورقة جافة من شعرها.

قال ببطء، وهو يلوك الفطيرة التي تحولت إلى غراء في فمه: "أنت السيدة الصغيرة الجديدة. سمعت عن مجيئك. برغم أنه، إن سمحت لي القول، لا تشبهين السيدات النبيلات. لماذا ترتدين ملابس الصبية هذه؟ ولماذا شعرك قصير هكذا؟"

"جنث البارحة. وجلبت معي العاصفة."

"تمتلكين قوة كبيرة برغم صغر سنك."

"حتى الضعفاء يصبحون أقوياء بالعزيمة والإرادة."

اختلج حاجبه الكت وقال: "من أخبرك بهذا؟"

"أمي."

تذكرت إيليزا أنه لا ينبغي عليها ذكر أمها. دق قلبها، وانتظرت لترى ما سيقوله الرجل. حدق فيها، هو يمضغ ببطء، ثم قال: "كانت على حق. إن الأمهات يملكن رؤية ثاقبة في معظم الأمور."

شعرت بالراحة فقالت: "أمي ماتت."

"وكذلك أمي."

"إنني أعيش هنا الآن."

أوما قائلاً: "بالطبع."

"اسمي إيليزا."

"اسمي ديثيس."

"أنتَ عجوزٌ".

"عجوزٌ للغاية".

أَحَدَتِ إيليزا نَفْسًا عَمِيقًا ثُمَّ قَالَتْ: "هل أنت قرصان؟".

ضحكة عميقة بَدَت كدخان مدخنةٍ مُلوّثة. "متأسّف لإحباطك يا طفلي. أنا بُستانيٌّ، مثل أبي مِن قبلي. على وجه التحديد أنا حَافِظُ المتَاهة".

جَعَدَتِ إيليزا أنفها وهي تقول: "حافظ المتاهة؟".

"أحافظُ على المتاهة وأعتني بها". حينما لم تظهر علامات الفهم على وجه إيليزا، أشار ديفيس إلى سياجَيْن طويلَيْن مُتماثلَيْن خلفه، يربطهما بوابَةٌ حديدية. "إنها أُحجِيَّةٌ مصنوعة من أُسُوجَةٍ. والهدف منها العثور على طريق الخروج دون أن يتوه المرء فيها".

أُحجِيَّةٌ يمكن للمرء الدخول فيها؟ لم تسمع إيليزا بمثل هذا الشيء من قبل. "وإلى أين تقود؟".

"إنها مُلتفّةٌ ومُتعرّجة. لو حالفك الحظُّ ستجدين نفسك على الناحية الأخرى من القصر. أمّا لو كنتِ سيئَةَ الحَظِّ... " اتَّسَعَتِ عيناه مُنذِرَةً بالويل... "ربما تموتين جوعًا قبل أن يَنْتَبِهَ أحدٌ أنكِ مفقودة". مال نحوها وهمس: "أحيانًا أُصادفُ عظام هؤلاء الذين لم يُحالفهم الحَظُّ". همست إيليزا بصوت مليء بالإثارة: "ولو نَجَحْتُ في الخروج؟ ما الذي سأجده على الناحية الأخرى؟".

"حديقة أخرى، حديقة خاصة، وكوخ صغير. قائم على حافة الجرف الصخري".

"لقد رأيتُ الكوخ. من الشاطئ".

أومأ. "بالطبع".

"لمن هذا المنزل؟ من يعيش هناك؟".

"لا أحد الآن. لورد أرشيبالد مونتراشيه، جدك الأكبر، بناه حينما كان مسؤولاً عن المكان. وهناك مَنْ يقول إنه كان مَرَصَدًا للمُرَاقَبَة، مَخْفَرًا".

"للمُهْرَبِين، قراصنة تريجيناً؟".

ابتسم. "أجزمُ أن ماري مارتن أخبرتك بذلك".

"هل يمكنني الذهاب ورؤيته؟".

"لن تَتَمَكَّنِي من الوصول إليه قَطُّ".

"بل سأفعل".

وَمَمَّصَتْ عيناه وهو يغيظها بقوله: "لن تستطيعي الخروج مُطْلَقًا من المتاهة. حتى لو فعلت، لن تستطيعي دخول البوابة السرية ومنها إلى حديقة الكوخ".

"سوف أفعل! دعني أجرب، أرجوك يا ديفيس".

قال ديفيس برزانة: "هذا ليس مُمكِنًا يا آنسة إيليزا. لم يدخل أحد إلى المتاهة منذ وقت طويل. إنني أعتني بالمساحة التي أعرفها فحسب، ولم أتجاوزها، والنباتات وراءها مُفْرِطَةٌ في النمو".

"لماذا لم يدخلها أحد؟".

"لقد أغلقها خالك منذ وقت مضى. لم يدخلها أحد منذ... ثم مال إليها وهو يقول: "أمك، كانت تعرف المتاهة كظهر يدها. مثلي أنا تقريبًا".

دَقَّ جَرَسٌ من بعيد.

خلع ديفيس قبعته ومسح العرق من على جبهته وهو يقول: "حَرِيٌّ بكِ الذهاب بسرعة يا آنسة. هذا جرس الغداء".

"هل أنتِ قَادِمٌ لتناولِ غداءك أيضاً؟".

ضحك وقال: "الْحَدَمُ لا يتناولون الغداء يا آنسة إيليزا، ليس أمراً لائِقاً. إنهم يتناولون وجبتهم الرئيسية الآن".

"هل ستأتي لتناول وجبتك إذن؟".

"لا آكُلُ داخل البيت. لم أفعل منذ وقت طويل".

"لماذا؟".

مكتبة

t.me/t_pdf

"لا أُحِبُّ التَّواجُدَ فيه".

لم تفهم إيليزا. "لماذا؟".

مَسَدٌ ديفيس لحيته "أنا أسعدُ حالاً مع نباتاتي يا آنسة إيليزا. بعض الناس يندمجون في المجتمعات والبعض لا. وأنا واحد من الذين لا يندمجون فيها".

"لكن لماذا؟".

تنفَسُ الرجل ببطءٍ كعملاقٍ مُرهَق. "ثُمَّةٌ أماكِنُ تُصِيبُكِ بالقشعريرة، لا تتَّفِقُ مع طبيعة الإنسان. هل تفهمين ما أقوله؟".

فكَّرتِ إيليزا في لقائها البارحة مع زوجة خالها في الغرفة الحمراء الداكنة، وكلب الصيد، والظلال، وضوء الشموع المندفع بغضب على الجدران. أومأت.

"إن ماري الصغيرة فتاة طيبة. وستعتني بكِ في المنزل". قطَّبَ جبينه قليلاً وهو يحدِّق فيها ثم قال: "لا يجب أن تثقي بأحدٍ كثيراً يا آنسة إيليزا. هل تفهمين؟".

أومأت إيليزا بوقار لأن الوقار يبدو واجباً في هذا الموقف. "اذهبي الآن يا آنستي الصغيرة. سوف تتأخَّرين عن طعام الغداء وستُعاقِبُكِ السيدة. إنها لا تُحِبُّ خَرْقَ القوانين".

ابتسمت إيليزا، رغم أن ديفيس لم يفعل. سارت مُبتَعِدَةً ثم توقَّفت حينما رأت شيئاً في النافذة العلوية، شيئاً رآته من قبل في الليلة السابقة. وجهاً صغيراً يُراقب.

"مَن هذه؟"

التفت ديفيس ومال نحو المنزل. أوماً قليلاً في اتجاه النافذة العلوية. "أظنُّ أنها الآنسة روز".

"الآنسة روز؟"

"ابنةُ خالكِ".

اتَّسَعَت عينا إيليزا. ابنة خالها؟

"كُنَّا نراها كثيراً في العِزْبَةِ، كانت شيئاً صغيراً لامِعاً، لكن منذ سنوات هاجَمَها المرض، وكان ذلك نهاية كلِّ شيء. أنفَقَت السيِّدَةُ الوقتَ والأموالَ من أجل شفائها. وكان الطبيب الشاب من المدينة يتردَّد دائماً".

كانت إيليزا ما زالت تُحدِّق في النافذة. رفعت يدها ببطء، أصابعها مُنْفَرِجَةً كنجم البحر. أخذت تُلَوِّح، وراقبت بينما اختفى الوجه بسرعة في الظلام.

ارتسمت على وجه إيليزا ابتسامة صغيرة. قالت وهي تتذوَّق عذوبَةَ الكلمة: "روز". كان اسماً يليق بأميرة في قصَّةٍ خياليَّة.

(24)

كوخ الجرف، 2005

تَخَلَّلَت الرِّيحُ شَعَرَ كساندرا المَعْقُوصِ كذَّيْلِ الفَرَسِ؛ فأخذ يتطاير
كَكُمِّ الرِّيحِ. أَحكَمَت السُّتْرَةَ الصُّوفِيَّةَ حَوْلَ كَتْفَيْهَا وتوقَّفت هنيئَةً
لالتقاط أنفاسها، ثم نظرت إلى الخلف نحو الطريق الساحلي الضيق
المُتَدِّ إلى القرية بالأسفل. أكواخ صغيرة بيضاء ملتصقة كالمحار
بالخليج الصخري، وقوارب صيد زرقاء وحمراء تناثرت على الميناء،
تتمايلُ على الأمواج كنوارس تنقضُّ على فرائسها. حتى الهواء، من
هذا المستوى، كان مُشَبَّعًا بالملح القادم من سطح البحر.

كان الطريق ضيقًا ومُلاصقًا لحافة الجرف حتى أن كساندرا تساءلت
كيف تواتي أحدهم الشجاعة للسير عليه. نمت على جانبيه حشائش
بحرية باهتة طويلة، أخذت تتمايلُ مع الريح. كلما صعدت إلى
الأعلى، ازداد تعلق الرذاذ بالهواء.

أَلَقْتُ نَظْرَةً خَاطِفَةً عَلَى سَاعَتِهَا. لَمْ تَتصَوَّرْ أَنَّ وَصُولَهَا إِلَى الْقَمَةِ سَيَسْتَغْرَقُ كُلَّ هَذِهِ الْمُدَّةِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّعَبِ فِي سَاقِيهَا الَّتِي تَحَوَّلَتْ إِلَى هُلَامٍ فِي مَنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، وَإِرْهَاقِ السَّفَرِ، وَعَدَمِ أَخْذِ قَسْطٍ وَافِرٍ مِنَ النُّوْمِ. كَانَ نَوْمُهَا سَيِّئًا فِي اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ. كَانَتْ الْغُرْفَةُ وَالْفِرَاشُ مُرِيحَيْنِ، لَكِنِهَا رَأَتْ فِي نَوْمِهَا أَحْلَامًا غَرِيبَةً، النَّوْعَ الَّذِي يَتَبَاطَأُ عِنْدَ الِاسْتِيقَاطِ، لَكِنِ يَنْزَلِقُ مِنَ الذَّاكِرَةِ وَهِيَ تَحَاوِلُ الإِمْسَاكَ بِهِ، فَلَا تَتَبَقَى سِوَى شَطَايَا الْقَلْقِ.

فِي سَاعَةٍ مَا خِلالَ اللَّيْلِ أَيْقَظَهَا سَبَبٌ مَحْسُوسٌ. سَمِعَتْ جَلْبَةً، كَأَنَّ أَحَدَهُمْ يَحَاوِلُ فَتْحَ بَابِ غُرْفَةِ نَوْمِهَا. كَانَتْ مُتَيَقِّنَةً مِنَ الأَمْرِ. لَكِنِ فِي الصَّبَاحِ حِينَمَا ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلْمَوْضُفَةِ فِي مَكْتَبِ الِاسْتِقبَالِ، نَظَرْتُ إِلَيْهَا بَدَهْشَةً قَبْلَ أَنْ تَقُولَ، بِنَبْرَةٍ لَا مَبَالِيَةَ قَلِيلًا، إِنْ الْفَنْدُقُ يَسْتَعْمَدُ بَطَاقَاتِ الْكُتْرُونِيَّةِ، وَلَيْسَ مَفَاتِيحَ مَعْدِنِيَّةِ، وَأَنَّهَا رُبَّمَا سَمِعَتْ صَوْتَ الرِّيحِ يَعْبَثُ بِالْقَفْلِ النِّحَاسِيِّ الْقَدِيمِ.

شَرَعْتُ كَسَانْدِرَا فِي تَسَلُّقِ التَّلِّ مُجَدِّدًا. لَا بُدَّ أَنَّهُ لَيْسَ أَبْعَدَ مِنَ ذَلِكَ، أَخْبَرْتَهَا الْمَرْأَةَ فِي مَحَلِّ الْبِقَالَةِ بِالْقَرْيَةِ أَنَّ الذَّهَابَ إِلَيْهِ يَسْتَغْرَقُ عِشْرِينَ دَقِيقَةً سَيْرًا عَلَى الأَقْدَامِ، وَهِيَ تَتَسَلَّقُ مِنْذُ ثَلَاثِينَ دَقِيقَةً حَتَّى الْآنَ. انْعَطَفْتُ نَحْوَ زَاوِيَةٍ وَرَأْتُ سَيَارَةَ مُتَوَقِّفَةً بِجَوَارِ الطَّرِيقِ. أَبْصَرْتُ رَجُلًا وَسَيِّدَةً يَرِاقِبَانِهَا. كَانَ الرَّجُلُ طَوِيلًا وَنَحِيلًا، وَالْمَرْأَةُ كَانَتْ قَصِيرَةً وَمُمْتَلِئَةً الْجِسْمِ. لِوَهْلَةِ ظَنَّتْ كَسَانْدِرَا أَنَّهُمَا يَسْتَمْتَعَانِ بِالْمَنْظَرِ، لَكِنِ حِينَمَا رَفَعَا يَدَيْهِمَا مَعًا وَلَوْحًا، عَلِمْتُ مَن يَكُونَانِ.

"مَرَجِبًا!" هَتَفَ الرَّجُلُ، وَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنْهَا. كَانَ فِي مَنْتَصَفِ الْعَمْرِ، بَرِغْمَ أَنَّ وَجْهَهُ بَدَأَ كَوَجْهَ عَجُوزٍ؛ فَشَعْرُهُ وَلِحْيَتُهُ غَطَّاهُمَا الْبِيَاضُ كَمَسْحُوقِ السُّكَّرِ. "لَا بُدَّ أَنَّكَ كَسَانْدِرَا. أَنَا هَنْرِي جِيمْسُونُ وَهَذِهِ..." ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي تَبْتَسِمُ ابْتِسَامَةً مُشْرِقَةً: "زَوْجَتِي رُوبِنُ."

"سَرَّني لِقَاؤُكَ". قالت روبي على الفور. كان شَعْرُهَا الرمادي قصيراً في قَصَّةٍ أنيقة أبرزت وجنتيها الوردِيَّتَيْنِ اللامعتين المنتفختين كَتَفَاحَتَيْنِ. ابتَسَمَت كساندرا "شكراً على مقابلتي في يوم السبت، أنا مُمتنة لكما".

"لا داعي للشُّكر" قال هنري وهو يربّت على شعره الذي طيَّره الريح. "ليس هناك مشكلة على الإطلاق. أتمنى ألا تُمانِعي أن تأتي روبن...".

"بالطَّبع لا تُمانِعي، لماذا ستمانع؟ لا تُمانِعين، أليس كذلك؟" قالت روبن.

هزّت كساندرا رأسها.

"ألم أخبرك؟ إنها لا تُمانِعي مُطلقاً" جذبت روبن معصم كساندرا وهي تقول: "لا يملك فرصة لإيقافي. سيُخاطِرُ محاكم الطلاق لو حاول".

"زوجتي تعمل سكرتيرةً في الجمعية التاريخية المحليَّة" قال هنري، وصوته يحمل نبرة اعتذار.

"لقد نَشَرْتُ عددًا من الكُتُبَات القليلة حول المنطقة، تدور بشكلٍ رئيسي عن العائلات المحلية، وأهمُّ الأحداث، والمنازل الكبيرة. وأحدث كُتُبٍ صدر لي عن تجارة التهريب. إننا نعمل على رفع جميع المقالات على شبكة الانترنت...".

"لقد اعتزمت على تناولِ الشاي في كُلِّ منزلٍ فُخِمٍ بالمنطقة".

"لكنني عِشْتُ في هذه القرية طيلة حياتي ولم أَرِ الكثيرين يذهبون إلى المكان القديم" ابتَسَمَت روبن حتى لمعت وجنتاها. "لا أمانِعي أن أقول لك إنني فضوليَّة كَقِطَّة".

"لم نعرف أنك كذلك يا حبيبتي" قال هنري مِمَلِّ، ثم أشار إلى التُّلَّ: "يجب أن نذهب سَيراً على الأقدام من هنا، الطريق يمتدُّ إلى الأمام أكثر".

قادت روبن الطريق، وهي تسير بعزمٍ في المَمَرِّ الضَّيِّق الذي جرفت فيه الرياح الأعشاب. وبينما كانوا يصعدون إلى الأعلى، شرعت كساندرا تلاحظ الطيور. حشود من السنونو الصغيرة للغاية بُنِيَّة اللون تنادي أحدها الآخر، وهي ترفرف من فرع طويل إلى آخر. وانتاب كساندرا شعور غريب أنها مُراقِبَة، كأنَّ الطيور كانت تتنافس على مُراقِبَة البشر المُتطَقِّلين. ارتجفت قليلاً، ثم وَبَّخت نفسها لأنها تتصرَّف كطفلة، وتخترع لُغزاً متى كان الجَوُّ مُهيئاً لذلك.

"كان والدي مَن أتمَّ صفقة البيع نيابةً عن جدِّتك" قال هنري، وهو يقصر خطواته الطويلة لكي يمشي بجانب كساندرا. "في عام 1975، عملت محاميً نقلٍ ملكية في الشركة، لكنني أتذكَّر صفقة البيع".

صاحت روبن: "الجميع يتذكَّرونها. كان آخر جزء يُباع من العزبة القديمة. بعض الناس في القرية اقسَموا أن الكوخ لن يُباع قطُّ".

نظَّرت كساندرا إلى البحر وقالت: "لماذا؟ لا بُدَّ أن المنزل به مناظر جميلة...".

نظر هنري إلى روبن التي تَوَقَّفت عن السير لتلتقط أنفاسها، ويدها في منتصف صدرها، ثم قال: "هذا حقيقي. لكن...".

قالت روبن بين أنفاسها اللاهثة: "كانت هناك قصص سيئة عنه في القرية. شائعات وأشياء أخرى... عن الماضي".

"ما طبيعة هذه الأشياء؟".

قال هنري بحزم: "شائعات سخيفة. الكثير من الكلام الفارغ الذي تجدينه في كل قرية إنجليزية".

"انتشرت شائعات تقول أنه كان مسكوناً" همست روبن.

ضحك هنري قائلاً: "أليس كل منزل في كورنوال كذلك؟".

رفعت روبن عينيها الزرقاوين إلى السماء وهي تقول: "إن زوجي رجلٌ واقِعِي".

"وزوجتي رومانسية. كوخ الجُرفِ عبارة عن أحجار وقرميد، كباقي البيوت الأخرى في تريجينا".

قالت روبن وهي تزيح خلف أذنها خُصلَةً من شعرها طيَّرتها الريح: "وتقول إنك من كورنوال!", ثم مالت نحو كساندرا وهي تقول: "هل تؤمنين بالأشباح يا كساندرا؟".

"لا أظنُّ" قالت كساندرا وهي تُفكِّر في الشعور الغريب الذي انتابها وهي تنظر إلى الطيور. "لست من النوع الذي يُفزع بالليل".

قال هنري: "إذن أنتِ فتاة عاقلة. الشيء الوحيد الذي كان يدخل ويخرج من كوخ الجرف في الثلاثين عامًا المنصرمة هو صبيٌّ غريب من أهل القرية". ثم أخرج من جيب سرواله مَحْرَمَةً نُقِشَ عليها حروف اسمه، وطواها إلى اثنين، وجَفَّفَ بها جبهته. "هَلْمِي يا عزيزتي روبن. سنقضي اليوم كله إن لم نتحرَّك وحرارة الشمس تشتدُّ. بقايا صيف هذا الأسبوع".

لم تستمرَّ المُحادثةُ بسبب الدرب المنحدر الضيق، وساروا آخر مائة قدم في صمت. لمعت جدائل مُلتَفَّة من الأعشاب الشاحبة بينما النسيم يداعبها.

أخيراً، وصلوا إلى جدار حجريٍّ بعد عبور كتلة من الشجيرات المتناثرة هنا وهناك. كان يبلغ طوله على الأقل ثلاثة أمتار. حينما اقتربوا منه بدا وجوده مُتَنَافِراً غريباً بعدما ساروا لفترة طويلة دون أن يقابلهم شيء من صنيع إنسان. امتدَّ على بؤابة الدخول قوسٌ حديديٌّ

زَحَفَتْ عَلَيْهَا جَدَائِلُ اللَّبْلَابِ الَّتِي تَكَلَّسَتْ بِفِعْلِ الزَّمَنِ. كَانَتْ هُنَاكَ لَافِتَةٌ تَدَلَّتْ مِنْ طَرَفِهَا لَا بُدَّ وَأَنَّهَا كَانَتْ مُعَلَّقَةً عَلَى الْبُؤَابَةِ، وَقَدْ مَمَّتْ عَلَى سَطْحِهَا أُشْنٌ⁽¹⁾ خَضْرَاءَ بَاهِتَةً وَبُئِيَّةً، مَلَأَتْ ثَغْرَاتِ الْحُرُوفِ الْمُتَشَابِكَةِ. أَحْنَتِ كَسَانِدْرَا رَأْسَهَا لِقِرَاءَةِ الْكَلِمَاتِ: ابْتَعَدَ أَوْ سَتُّجَازِفَ بِحَيَاتِكَ.

قالت روبن: "الجدار إضافة حديثة نوعاً ما".

تنحى هنري وهو يقول: "تقصد زوجتي بكلمة حديثة أن عمره مائة عام فحسب. لا بُدَّ وأن الكوخ قائم منذ ثلاثمائة عام. ألا تدركين أن المكان القديم في حالة إهمال بعض الشيء؟".

"معي صورة فوتوغرافية" قالت كساندرا وهي تسحب صورةً من حقيبة يدها.

رفع حاجبيه وهو يُطالِعُهَا: "أَخِذْتِ قَبْلَ صَفْقَةِ الْبَيْعِ. لَقَدْ تَغَيَّرَ قَلِيلًا مِنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ. لَا أَحَدٌ يَرَعَاهُ". ثُمَّ مَدَّ ذِرَاعَهُ الْأَيْسَرَ لِيُدْفَعَ الْبُؤَابَةَ الْحَدِيدِيَّةَ جَانِبًا وَأَشَارَ بِرَأْسِهِ. "هَلَّا دَخَلْنَا؟".

ساروا فِي مَمَرٍ مُمَهَّدٍ بِالْحِجَارَةِ أَعْلَاهُ تَكْعِيْبَةٌ مِنَ الْأَزْهَارِ الْعَتِيْقَةِ. كَانَ الْجَوُّ بَارِدًا وَهُمْ يَعْبُرُونَ عَتَبَةَ الْحَدِيْقَةِ. كَانَ الْإِنْطِبَاعُ الْعَامُ الظُّلْمَةُ وَالْكَأْبَةُ وَصَمْتًا مُطْبِقًا غَرِيْبًا. حَتَّى ضَجَّةُ الْبَحْرِ الْمَسْمُوعَةِ تَبْدُو رَاكِدَةً هُنَا. كَأَنَّ الْأَرْضَ بَعْدَ الْجِدَارِ الْحَجْرِيِّ كَانَتْ غَافِيَةً، تَنْتَظِرُ شَيْئًا مَا، أَوْ شَخْصًا مَا، يَوْقُظُهَا.

"كوخ الجرف" قال هنري وهم يصلون إلى نهاية الممر.

اتَّسَعَتْ عَيْنَا كَسَانِدْرَا، أَمَامَهَا كَانَ تَشَابُكُ صَخْمٍ مِنْ نَبَاتِ الْعُلْيَقِ الْكثِيفِ الْمَعْقُودِ. وَكَانَتْ أَوْرَاقُ اللَّبْلَابِ الْخَضْرَاءِ الْمُتَعَرِّجَةِ، تَتَشَبَّثُ مِنْ جَمِيعِ النُّوَاحِي، مُمْتَدَّةٌ عِبْرَ مَسَاحَاتِ تَخْتَبِئُ وَرَاءَهَا -بِالتَّأَكِيدِ-

(1) كائنات عضوية تكافئية تتألف من طحالب وفطريات وجراثيم زرقاء.

النوافذ. كان من المستحيل عليها أن تلاحظ المبنى الذي يرقد أسفل نباتات التسلق لولا أنها تعرف أنه موجود.

سعل هنري، ولوّن الاعتذارُ وجهه. "بالتأكيد تُرك دون عناية".

قالت روبن بابتهاج محاولةً إنقاذ الموقف: "كل شيء بالتنظيف يعود إلى حالته الأصلية. لا داعي لليأس. هل رأيت ما يفعلونه في برامج الترميم التلفزيونية؟ إنها موجودة بأستراليا، أليس كذلك؟".

أومات كساندرا بذهن شارد، محاولةً تبينَ حدود السطح. "تفقدته كما تشائين" قال هنري وهو يمدُّ يده في جيبه ليسحب مفتاحًا. كان طويلًا وثقيلًا بشكل مُدهش، وطرفه النحاسي مُزخرفٌ ومموجٌ بشكل جميل. شعرت كساندرا وهي تمسكه أنها تعرفه. لقد أمسكت مفتاحًا مثله من قبل. لكن متى؟ هل كان ذلك في جناح التّحف؟ كانت الصورة قويّة للغاية، لكنّ الذكرى لم تُسعفها.

خَطَّت كساندرا على الدرجة الحجرية بجانب الباب. كان بوسعها أن ترى القفل الذي غطاه اللبلاّب.

"أظنُّ أن هذا سيفلح" قالت روبن، وهي تسحب مقصّ تقليم الحقائق من حقيبتها. رفع هنري حاجبه، فقالت: "لا تنظر لي هكذا يا عزيزي. إنني فتاةٌ ريفيّةٌ، نحن مُستعدّون على الدوام".

أخذت كساندرا المقصّ وشرّعت تقصُّ التّشابك. حينما انتهت توقّفت لبرهة، ثم مرّرت يدها بخفّة على خشب الباب المُشبع بالملح. كان جزءٌ منها يكره أن تمضي، وراضيًا بالتباطؤ على عتبة المعرفة، ولكن حينما نظرت للخلف أوما لها هنري وروبين مُشجّعين، أولجت المفتاح في القفلِ وأدارته بيديها بقوة.

كانت الرائحة أوّل شيء أثار دهشتها. رائحة رطبة، وخصبة، ومُشبعة بِرَوثِ الحيوانات. ذكّرتها بالغابات الاستوائية بأستراليا، والتي

تخفي تحت مظلاتها عالمًا مُعزلاً من الخصوبة الرطبة. نظام بيئي منغلق، حذرٌ من الغرباء.

حَطَّت خطوةً صغيرةً إلى الرُدْهَة. سمح الباب الأمامي بضوءٍ كافٍ كاشِفاً عن بُقَعٍ شبيهةٍ بالطحالب تطفو بكسَلٍ في الهواء الراكد، كانت من الخِفَّةِ والإنهاك بحيث أنها رفضت السقوط. كانت الأرضية خشبيَّةً، ومع كل خطوة تخطوها كان حذاؤها يطلق صوتًا ناعِمًا كأنه يعتذر.

دَلَّقت إلى الغرفة الأولى ونظرت إلى الباب. كانت مُظلمةً، وقد اكتست نوافذها بوسَخٍ عشرات السنوات. وبينما تَكَيَّفَت عيناها على الظلام أدركت أنه كان مطبخًا. في المنتصف انتصبت طاولة خشبية باهتة بأرجل مُستدقَّة، وعلى جانبيها مقعدان من خشب الخيزران. وفي فجوة في الجدار البعيد موقِدٌ أسود، امتدَّت عليه خيوط العنكبوت الكثيفة، وفي الزاوية عَجَلَةٌ غَزَلٍ ما زالت عليها قِطْعَةٌ من الصُوف الأسود.

همست روبن: "إنه يُشبه المُتَحَفَ، ولكن يعلوه المزيد من التراب".
قالت كساندرا: "لا أظن أنني سأعرض عليكِ تناوُلَ فنجان شاي قريبًا".

سار هنري نحو عَجَلَةِ الغزل وأشار إلى زاوية حجرية: "هناك درج".
كان دَرَجًا ضيقًا يرتفع مُباشرةً قبل أن يتحوَّل فجأة إلى بسطة صغيرة. وضعت كساندرا قدمها على الدرجة الأولى، وهي تختبر مدى قُوَّتها. كانت ثابتةً بما يكفي. بدأت الصعود بحذر.

"حذارٍ" قال هنري وهو يتبعها ويدها تُرْفرفان خلف ظهرها في محاولةٍ غامضةٍ حنون من الحماية.

وصلت كساندرا إلى البسطة الصغيرة وتوقَّفت.

"ما الأمر؟" سألها هنري.

"هناك شجرة ضخمة، تسدُّ الطريق تمامًا. إنها تأتي مباشرة من السقف".

نظر هنري من فوق كتفها. "لا أظنُّ أن مقصَّ روبن سيفلح هذه المرة. أنتِ بحاجة إلى مقصَّ تشذيب"، ثم شرع ينزل الدرج. "هل لديك فكرة يا روبن؟ مَنْ يمكنه إزالة الجذوع الساقطة؟"

تبعته كساندرا إلى الأسفل بينما روبن تقول: "ابن بوبي بلاك بارعٌ في هذا الأمر".

أوما هنري لكساندرا قائلاً: "رجل من القرية يقوم بأعمال تنسيق الحدائق. كما أنه أنجز معظم الأعمال في الفندق، ولن تجدي أفضل منه".

قالت روبن: "سأصلُّ به، وأرى إن كان مُتفرِّغًا. سأخرج لالتقاط إشارة من الخارج؛ فقد توقَّف هاتفني تمامًا منذ أن وطئت أقدامنا المكان".

هزَّ هنري رأسه. "لكم تقدَّمت التكنولوجيا منذ أن تلقَّي ماركوني⁽¹⁾ إشارته منذ مائة عام! هل تعلمين أن الإشارة تأتي من الساحل؟ من خليج بولدو؟".

"حقًا؟" وبينما أخذت تتأمل الحالة المزريَّة للكوخ، شعرت بالإحباط. برغم أنها كانت مُمتنةً للقاء هنري، لم تكن مُتيقَّنةً إزاء تظاهرها بالاهتمام بمحاضرتة في التاريخ المُبكر لوسائل الاتصال. أزاحت جانبًا خيوط العنكبوت ومالت على الجدار، وابتسمت له ابتسامةً رزينةً مُهدِّبةً مُشجَّعةً. وكانَّ هنري شعر بحالتها قال: "آسف على الحالة

(1) جوليلمو ماركوني (1874 - 1937) عالم إيطالي مختص في الموجات الكهرومغناطيسية، يرجع له الفضل في اختراع التلغراف اللاسلكي.

التي وصل إليها الكوخ. أشعر أنني مسؤولٌ بدرجة ما لأنني المحامي المسؤول عن المفتاح".

"لم يكن بيدك شيء لتفعله، ولا سيِّمًا أن نيل طلبت من والدك ألا يفعل". ثم ابتسمت وأردفت: "بالإضافة إلى أنه سيكون تعديًا على الكوخ، واللافتة في الخارج واضحة حيال هذا الأمر".

"هذا صحيح، كانت جدُّك حازمةً بخصوص عدم الاستعانة بعمَّال. قالت إن المنزل كان مهمًّا للغاية بالنسبة لها، وإنها تنوي ترميمه بنفسها".

"أعتقد أنها خطَّطت للانتقال إلى هنا بشكل نهائي" قالت كساندرا.

"أجل. حينما علِمْتُ أنني سأقابلك هذا الصباح أقيتُ نظرة على الملفات القديمة. ذكَّرت في خطاباتِها أنها ستأتي إلى هنا بنفسها، ثم أرسلت خطابًا في بداية عام 1976 تقول إن ظروفها تغيَّرت، وإنها لن تعود، ليس بعد فترة طويلة على كل حال، وطلَّبت من والدي الاحتفاظ بالمفتاح، وبذلك ستعرف أين تجده حينما يحين الوقت المناسب". نظر إلى الغرفة. "لكنها لم تأت".

"كلَّا" قالت كساندرا.

قال هنري بحماس مُتجدِّد: "لكنك هنا الآن".

"نعم".

سمِعًا جلبة عند الباب. قالت روبن وهي تضع هاتفها: "اتَّصلتُ بمايكل وأخبرني أنه سيمرُّ هنا صباح الأربعاء ليري ما يمكن فعله". التفتت إلى هنري وهي تقول: "هَلُمَّ الآن يا حبيبي، مارشا تنتظر قدومنا على الغداء وأنت تعرفها حينما نتأخَّر".

رفع هنري حاجبيه: "تتمتَّع ابنتنا بمزايا كثيرة ليس من بينها الصبر".

ابتسمت كساندرا: "شكرًا على كل شيء".

قال هنري: "لا تُفكّري في محاولة تحريك الشجرة بنفسك. مهما اشتدَّ حماسُكِ لإلقاء نظرة على الطابق العلوي".
"أعدِّكِ".

وبينما كانوا يسيرون في الممرِّ المُفضي إلى البوابة الأمامية، التفتت روبن إلى كساندرا وقالت: "إنكِ تشبهينها".

طرقت عينا كساندرا.

"جدتُكِ. عيناكِ كعينَيْها".

"هل التقيتِ بها؟".

"أجل، بالطبع، قبل ابتياع الكوخ. جاءت في ظهيرة أحد الأيام إلى المتحف حيث كنت أعمل. ووجهت أسئلةً بخصوص تاريخ تريجينا، وعلى وجه الدقّة تاريخ بعض العائلات القديمة".

ارتفع صوت هنري من حافة الجُرف: "هَلُمِّي يا عزيزتي روبن. لن تغفر لنا مارشا قطُّ عدم تناول اللحم المُحترق".

"عائلة مونتراشيه؟".

لوحت روبن إلى هنري وقالت: "أجل. الذين كانوا يعيشون في المنزل الكبير. وآل وواكر أيضًا. الرسام وزوجته، والكاتبة التي كانت تنشر قصصًا خيالية".

"روبن!".

"أنا قادمة" نظرت إلى كساندرا "إن صَبَرَ زوجي يشبه مُفَرِّقَةً نارية"، ثم انطلقت بسرعة في إثره. هَبَّ نسيم البحر مُحملاً بعبارات روبن وهي تخبر كساندرا أن تتصلَّ بهما في أي وقت تشاء.

(25)

تريجيننا، 1975

كان مُتَحَفُّ تريجيننا للصيد والتهريب يقع في بناية بيضاء صغيرة على حافة الميناء الخارجي، وقد عُلِّقَت على نافذته الأمامية لافتة كُتِبَت بخط اليد تُبَيِّن ساعات العمل. غير أن نيل لم تلمح بداخله أحدًا طيلة ثلاثة أيام.

أدارت المقبض وفتحت الباب المنخفض الذي تدلَّت عليه الأربطة. خلف المكتب جلست امرأة أنيقة ذات شعر بُنِّيٍّ يسترسل على كتفيها. تراءى لنيل أنها أصغر سنًّا من ليزلي، ولكن طريقتها توحى بعُمُرٍ أكبر. وقفت المرأة حينما رأت نيل، حتى أن ركبتيها سحبت القماش المطرَّز وكومة من الأوراق نحوها. ارتسم على وجهها تعبيرٌ شبيهٌ بلامح طفلة ضُبطت وهي تلتهم علبه كعك. قالت وهي تنظر من فوق نظارتها الكبيرة: "أنا... أنا لم أتوقَّع زوارًا".

لم تَبْدُ مسرورةً برؤية أي شخص. مَدَّت نيل يدها وقالت: "نيل أندروز"، ثم أَلْقَتْ نظرةً خاطفةً على لوحة الاسم الموضوعة على المكتب. "وأنتِ بالتأكيد روبن مارتن؟".

"لا يأتينا زُوَّارٌ كثيرون هنا، لا سيَّما خارج الموسم. سأعثر على المفتاح" لمست الأوراق على المكتب، وأزاحت خُصْلَةً من شعرها وراء أذنها. قالت بصوت حذر: "المعروضات مُتْرَبَةٌ قليلاً. لكنها موجودة من هنا".

تَبِعَتْ نظرة نيل المُحدِّقة ذراعَ روبن. خلف الباب الزجاجي المُغْلَق كانت هناك غرفة مجاورة صغيرة، تحتوي على شَتَّى أنواع الشُّبَّاك والخطاطيف والصنانير، وقد عُلِّقَتْ على جدرانها صور بالأبيض والأسود لسفن وبحارة وخلجان صغيرة محلِّيَّة.

"الواقع أنني أبحث عن معلومات مُحدَّدة. الشخص الموجود في البريد ظنُّ أن بإمكانك مساعدتي".

"أبي".

"مَعذِرَةٌ؟".

"أبي هو مدير مكتب البريد".

"نعم. حسنًا، ظنُّ أن بإمكانك مساعدتي. المعلومات التي أبحث عنها ليست لها علاقة بالصيد أو التهريب. إنها عن تاريخ القرية. على وجه الدقَّة: تاريخ عائلة مُعيَّنة".

تغيَّرت ملامح روبن على الفور وقالت: "لماذا لم تخبريني بذلك؟ إنني أعمل في متحف الصيد هذا للإسهام في القرية، لكن تاريخ تريجينا هو شَغْفي الأول. تفضُّلي". لَمَلَمَتْ الأوراق التي كانت مشغولة بها على المكتب، ودفعت بها إلى يد نيل. "هذا هو نَصُّ المنشور السياحي الذي أعمل عليه، وقد انتهيتُ من مُسوِّدَةٍ مقالٍ صغير

عن المنازل العظيمة. ثمّة ناشِرٌ في فالموث⁽¹⁾ مهتم بالموضوع". نظرت إلى ساعة معصمها الفاخرة ذات السلسلة الفضية. "يُسعدُني التحدُّثُ معكِ لكن لا بُدَّ وأن أذهب الآن...".

"أرجوكِ. لقد قَطَعْتُ مسافةً طويلة ولن أستغرق من وقتك إلا بضع دقائق".

زَمَّت رобен شفيتها، وضيقت عينيها وهي تنظر لنيل وقالت: "بل لديّ فكرة أفضل" قالت وهي تومئ بحزم: "سوف تأتين معي".

لَفَّ الجَوُّ ضبابٌ كثيفٌ بسبب المدِّ العالي، فحجب لون الغسق عن القرية. وبينما أخذتا تمشيان في الشوارع الضيقة، استحال كل شيء إلى ظِلٍّ رماديٍّ. ويبدو أن التَّغْيِيرَ السريع في الظروف أضفى حماسًا على أسلوب رобен. فسارت في خطوات كبيرة حتى كان على نيل -برغم مشيتها السريعة المعتادة- الإسراعُ لمجاراة خطواتها. وبرغم أن نيل تساءلت إلى أين تذهبان بهذه السرعة، أعاق السير الحثيث الحديث، حتى أنها لم تستطع السؤال.

عند قَمَّة شارع، وَصَلَتَا إلى منزل صغير أبيض مُعَلَّق عليه لافتة مكتوب عليها كوخ بيلتشرد. نقرت رобен الباب وانتظرت. لم يكن هناك أضواء بالداخل، ورفعت معصمها قريبًا من عينيها لترى الوقت. "لم يأتِ للمنزل بَعْدُ. دومًا نقول له أن يأتي مُبَكَّرًا حينما ينتشر الضباب".

"من؟".

(1) مدينة تقع على ساحل كورنوال.

رَمَقَتْ روبن نيل كأنها نسيت لهَيْهَةَ أنها كانت معها. "جدي. إنه يذهب كل يوم ليراقب السفن. كان صيِّادًا. تَقَاعَدَ منذ عشرين عامًا، لكنه يُحِبُّ أن يعرف مَنْ خرجوا وأين يصطادون. ننصحه ألا يمكث بالخارج حينما يبدأ الضباب، لكنه لا يُصغي إلينا...".

ثم توقَّفت عن الكلام، ومالت تراقب الطريق. تبعت نيل نظرتها المُحدِّقة، ونظرت إلى رقعة من الضباب الكثيف بدأت تظلم. كان أحدهم قادمًا نحوهما.

"جدي!" صاحب روبن.

"لا تثيري جلبه يا فتاتي" جاء صوتٌ من الضباب. "لا تُثيري جلبه". ظهر من الظلِّمة، وصعد ثلاث درجات خرسانية، ثم أولج المفتاح في القفل، وهو يقول من فوق كتفيه: "لا تَقِفَا هناك ترتجفان كعصفورَيْن. هيا إلى الداخل نستمتع ببعض الدفء الجميل".

في الدهليز الضيِّق، ساعدت روبن جدَّها في خلع معطف المطر الذي اكتسى بالملح، ثم حذاءه الأسود طويل الساق، والذي وضعتَه على طاولة خشبية خفيفة. "أنت مُبتَلُّ يا جدي" قالت بقلق، وهي مُسِكُّ بقميصه المُخَطَّطَ بِمِرْبَعَات. "سأجلب لك بعض الملابس الجافَّة".

قال العجوز، وهو يربت على يَدِ حفيدته: "سأجلس قليلًا بجانب المدفأة، وسأجفُّ تمامًا في الوقت الذي تُعدِّين فيه الشاي".

رفعت روبن حاجبيها قليلًا باتجاه نيل، بينما كان العجوز يجرُّ قدميه نحو الغرفة الأمامية، كأنها تقول: هل ترين ما أتعاملُ معه؟

قالت بهدوء: "إن جدي في التسعين من عمره، لكنه يرفض الانتقال من هذا المنزل. ونحن نحرض على التَّواجُد معه لتناول الطعام كل ليلة. أنا من يوم الاثنين إلى الأربعاء".

"لا يبدو بهذا السن".

"بدأ نظره يضعف، وسمعه ليس على ما يُرام، لكنه يُصرُّ على الاطمئنان على عودة "أولاده" بأمان إلى الميناء، ولا يعبأ بحاله. ليساعدني الرب إن أصابه مكروهٌ في نوبتي". نظرت عبر الزجاج، وأجفلت حينما رأَت العجوز يتعثَّر في السجاد في طريقه إلى كرسي بذراعين. "أتساءل... هل بإمكانك الجلوس معه بينما أشعل نيران المدفأة وأعدُّ الشاي؟ سيطمئن قلبي حينما يجفُّ تمامًا".

لم تستطع نيل أن ترفض وهي تعرف أن روبن ربما يكون لديها بعض المعلومات عن عائلتها. أومأت فابتسمت روبن بارتياح قبل أن تهرع إلى الباب في أعقاب جدِّها.

جلس الجد على مقعدٍ جلديٍّ مذبوغ، وقد بُسِطَ على حجره لحافٌ منزليٌّ. وبينما كانت نيل تنظر إلى اللحاف، فكَّرت لوهلة في ليل والألحفة التي كانتا تصنعانها سوياً لكل واحدة من بناتها. وتساءلت هل تخيَّلت أمُّها هذه الرحلة، هل فهمت السبب الذي دفعها للبحث عن السنوات الأربعة الأولى من حياتها، ومدى أهمية ذلك بالنسبة لها. ربما كان الجواب بالنفي. كانت ليل تعتقد أن المرء يجب أن يرضى بقدره. وكانت تقول ما من فائدة في التساؤل عمَّا حدث، والمهم هو الحاضر. وربما كان هذا كافياً بالنسبة لليل، والتي تعرف حقيقة نفسها.

نهَضت روبن، وفي المدفأة أخذ اللهب يقفز بحماس من غصن إلى آخر. "سأحضر الشاي الآن يا جدي، وأعدُّ العشاء. وصديقتي هنا... نظَّرت بعينيها بتساؤلٍ: "معذرة...".

"نيل، نيل أندروز".

"نيل، ستجلس معك يا جدي. إنها في زيارة إلى تريجينا وهي مهتمة بالعائلات المحلية. هل يمكنك أن تخبرها قليلاً عن حال القرية قديماً؟".

بسط العجوز راحتيه اللتين كُتِبَت عليهما قصة عمر من سَحْبِ الحبال ونَظْمِ الخطاطيف. "سَلِي مَا شِئْتَ. سأخبرك بكل ما أعرفه".

وبينما اختفت روبن في المدخل الخفيض، بحثت نيل عن مكان لتجلس عليه. واستقرت على مقعد مُجْتَحٍ أخضر بجوار المدفأة، تستمتع باندفاع الدفء بينما ضوء النيران يتشاءب جانباها. رفع العجوز وجهه عن الغليون الذي كان مُنْهَمِكًا في مَلِيه، وأوما لها مُشْجَعًا. من الواضح أن الكلمة لها.

تنحنحت نيل ونقلت قدميها قليلاً على السجاد، وهي تتساءل من أين تبدأ. وقررت أن تدخل في صلب الموضوع. "إنني مهتمة بعائلة مونتراشيه".

احترق ثقب الجَدُّ بأزيز، ونفث بقوة ليبدأ غليونه. "سألت عنهم في القرية لكن يبدو أن الجميع لا يعرف عنهم شيئاً".

قال من بين سحائب الدخان: "بل يعرفونهم جيِّدًا، لكنهم لا يتكلَّمون عنهم".

رفعت نيل حاجبيها وقالت: "لماذا؟".

"الناس في تريجينا يحبُّون القصص الجيِّدة، لكننا بشكلٍ عام نؤمن بالخرافات. إننا نثرثر بمرح عن أي موضوع تشائينه، لكن أسألهم عن حوادث وقعت هناك على الجُرْفِ لن ينبسوا ببنت شفة".

"لاحظت ذلك. أليس هذا لأن آل مونتراشيه كانوا أرسقراطيين، طبقة راقية؟".

قهقه العجوز قائلاً: "إنهم يمتلكون الأموال، لكن لا تتحدَّثي عن الطبقة الاجتماعية". ثم مال إلى الأمام وهو يقول: "إنها ألقابٌ كانت تُمنح بإراقة دماء الأبرياء. في ظهيرة أحد أيام عام 1724 هبَّت عاصفة هوجاء، كانت أشرس عاصفة منذ سنوات طويلة. طار سقف المنارة،

وانطفأ لهيب المصباح الزيتي الجديد كأنه شمعة. واحتجب القمر، وامتدَّ ليلٌ أسودٌ كحذائي". زمَّ شفّتيه حول غليونه، وسحب بقوة نَفَسًا طويلًا، كأنه يتهيأ لقصته. "جاءت معظم مراكب الصيد المحلية مُبَكَّرًا، لكن سفينة شراعيَّةً واحدة كانت في المضيق، وكان على سطحها قبطانان وطاقمٌ أجنبي. لم يكن أمامهم أدنى فرصة للنجاة. يقولون إن الأمواج شَقَّتْ طريقها إلى منحدرات شاربستون، وأن السفينة ارتمت على الصخور بقوة شديدة، وتناثرت إلى شظايا حتى قبل وصولها إلى الخليج الصغير. كَتَبَتِ الصُّحُفُ عن الحادث، وقامت الحكومة ببحث واستقصاء، لكنهم لم يستعيدوا سوى قِطْعٍ قليلة من خشب الأرز الأحمر البالي من بَدَنِ السفينة. وبالطبع ألقوا باللوم على التُّجَّار الأحرار المحليين".

"التُّجَّار الأحرار؟"

"المهْرَبون". قالت روبن التي ظهرت وببيديها صينية الشاي.

قال الجد: "لكنهم لم يسرقوا حمولة السفينة. بل كان آل مونتراشيه مَن فعلوا ذلك".

تناوَلت نيل الفنجان من يد روبن. "آل مونتراشيه كانوا مُهْرَبين؟".

ضحك العجوز ضحكة جافَّةً، وارتشف جرعة كبيرة من الشاي. "بل لم يكونوا أشراقًا مثلهم. ربما كان المهْرَبون يسرقون البضائع والأشياء المُثَقَّلَة بالضرائب من السُّفُن المنكوبة، لكنهم أيضًا يقومون بإنقاذ الأطقُم. ما حدث في تلك الليلة في الخليج الصغير ببلاكهرست كان عَمَلٌ لصوِّصٍ. لصوِّصٌ وقتلوا جميع أفراد الطاقم، وسرقوا الحمولة من السفينة، ثم في صبيحة اليوم التالي، وقبل أن يعلم أحدٌ ما حدث، سحبوا السفينة بالجُثث التي فيها إلى البحر وأغرقوها. وجنوا من ذلك ثروةً عظيمة: صناديق من اللؤلؤ، والعاج، ومراوح من الصين، ومجوهرات من إسبانيا".

التقطت روبن القصة، وهي تجلس على مسند القدمين الخاص بجدها والمُغطى بمخمل ناعم. "وفي الأسابيع القليلة التالية، خَضَعَت بلاكهرست لترميم ضخم؛ فشيّدوا طابَقًا ثالِثًا، وزرعوا عددًا من الحدائق. وَمَنَحَ الْمَلِكُ لِقَبِ النَّبِيلِ لِلسَّيِّدِ مونتِراشيه. كنت أكتب عن العزبة لكتيبي الذي يتناول المنازل الكبرى في كورنوال".

"مُدْهِشٌ مَا تَفْعَلُهُ هَدَايَا قَلِيلَةٍ مَخْتَارَةٍ بِعُنَايَةٍ".

هَزَّتْ نِيلَ رَأْسَهَا وَتَحَرَّكَتْ بِعَدَمِ ارْتِيَاكِ. لم يكن هذا الوقت المناسب لكي تذكر أن هؤلاء القتلة واللصوص كانوا أجدادها. "كيف أفلتوا بفعلتهم هذه!".

أَلَقْتُ رُوبِنَ نَظْرَةً عَلَى الْعَجُوزِ، الَّذِي تَنَحَّنِحُ وَهُوَ يَقُولُ: "الآن فقط أقول إنهم لم يفلتوا".

نَقَلْتُ نِيلَ بَارْتَبَاكِ نَظْرَتَهَا بَيْنَهُمَا.

"ثُمَّةٌ عِقَابٌ أَسْوَأُ مِنْ عِقَابِ الْقَانُونِ. تَذَكَّرِي كَلِمَاتِي، ثُمَّةٌ عِقَابٌ أَسْوَأُ بِكَثِيرٍ". تَنَفَّسَ الْعَجُوزُ عِبْرَ شَفْتَيْهِ الْمُحَكَّمَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: "بعد حادثة الخليج الصغير، أُصِيبَ جَمِيعُ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ بِلَعْنَةٍ".

تَرَاوَعَتِ نِيلَ بِظَهْرِهَا إِلَى الْمَقْعَدِ بِإِحْبَاطٍ. هَا قَدْ رَجَعْنَا لِحَدِيثِ اللَّعْنَةِ الْعَائِلِيَّةِ، وَهِيَ الَّتِي ظَنَّنْتُ أَنَّهَا عَلَى وَشِكِ الْحَصُولِ عَلَى مَعْلُومَاتٍ وَاقْعِيَّةٍ. قَالَتْ رُوبِنُ، وَقَدْ شَعَرْتُ بِفَتُورِ حِمَاسِ نِيلَ: "أَخْبِرْهَا عَنِ السَّفِينَةِ يَا جَدِي. السَّفِينَةُ السُّودَاءُ".

سَعِيدًا بِتَبْلِيَّةِ طَلِبِهَا، رَفَعَ الْجَدُّ صَوْتَهُ كَمَطْلَبِ ضَرُورِي لِلسَّرْدِ. "رَبْمَا أَغْرَقَتِ الْعَائِلَةُ هَذِهِ السَّفِينَةَ لَكُنْهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الْفِكَاكَ مِنْهَا لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ. كَانَتْ تَلُوحُ أَحْيَانًا فِي الْأَفْقِ. قَبْلَ أَوْ بَعْدِ هُبُوبِ عَاصِفَةٍ. سَفِينَةٌ شِرَاعِيَّةٌ سُوْدَاءُ ضَخْمَةٌ، سَفِينَةٌ أَشْبَاحَ، فِي الْخَلِيجِ الصَّغِيرِ، تُلَاجِئُ أَحْفَادَ الْمُتَسَبِّبِينَ فِي إِغْرَاقِهَا".

"هل رأيتهَا؟ السفينة؟".

هَزَّ الرجل رأسه. "ظَنَنْتُ مرَّةً، لكنني كنت مُخْطِئًا. حمدًا لله". ثم مال إلى الأمام وقال: "إنها الرياح السَّيِّئَة التي تَهْبُ وتجعل هذه السفينة مرثية. يقولون إن الذي يراها يُكْفِّر عن خسارتها. لو رأيتهَا، تراك. وكل ما أعرفه هو أن من اعترفوا بأنهم رأوها لاقوا حَظًا أسوأ ممَّا يحتمله أي شخص. كان اسم السفينة (چاكارد)، ولكننا نطلق عليها هنا اسم النَّعش الأسود".

قالت نيل: "عزبة بلاكهرست. أعتقد أنها ليست مُصَادَقَةً⁽¹⁾".

"إنها ذَكِيَّة" قال الجد وهو يبتسم من غليونه إلى روبن. "وهناك مَنْ يقول إن هذا هو سبب تسمية العزبة بهذا الاسم".
"وماذا تعتقد أنت؟"

"لقد ظَنَنْتُ دَائِمًا أن الأمر له علاقة بالصخرة السوداء الكبيرة هناك في خليج بلاكهرست. ثَمَّة مَمَرٌ يقود إليها كان يُسْتَخْدَم ليقود من الخليج الصغير إلى مكان ما في العزبة ثم إلى القرية. هَدِيَّة للمُهْرَبِينَ، لكنها كانت هَدِيَّةً مُخِيفَةً. هناك شيء في الزوايا وأشكال النفق. لو ارتفع المَدُّ أكثر من المعتاد، لن ينجو من الداخل. لقد حَصَدَت تلك الصَّخْرَةُ الكثير من الأرواح الشجاعة على مَرَّ السنوات. إذا نظرت إلى ساحل العزبة سترينها. شيءٌ وَحْشِيٌّ مُدَبَّبٌ".

هَزَّتْ نيل رأسها. "لم أَرِ الخليج الصغير، ليس بَعْدُ. حاولتُ زيارة المنزل بالأمس لكن البوابات الأمامية كانت مُوصَدَّةً. سأعود غَدًا وأترك خطابَ تَعْرِيفٍ في صندوق الخطابات. أتمنى أن يَدَعَنِي المَالِكَانُ أَلْقِي نظرة. هل لديكما أيُّ فكرة عَمَّن يكونان؟".

(1) اسم العزبة بلاكهرست Blackhurst مشابه لكلمتي النعش الأسود Black Hearse.

قالت روبن بحكمة: "أشخاصٌ جُدُّد، من خارج القرية، يقولون إنهما سيَحَوِّلان المكان إلى فندق"، ثم مالت إلى الأمام: "يقولون إنَّ المملِكةَ شابةٌ فاتنةٌ تكتب قصصًا غراميةً خادِشَةً للحياء". ثم نظرت بتَرَدُّدٍ نحو جَدِّها وتَوَرَّدت وجنتاها "لم أقرأها بنفسي".

قالت نيل: "رأيتُ جزءًا معروضًا من العزبة في مكتب بيع العقارات بالقرية. منزلًا صغيرًا يُسمَّى كوخ الجُرف الصخري مَطروحًا للبيع".

ضحك العجوز بفضاظة: "وسيكون دائمًا مَطروحًا للبيع. ما من أحقق سيقوم بشرائه. يستلزم الأمر أكثر من الطلاء لتطهير المكان من الشرور التي شهد عليها".

"أيُّ شرور؟".

فجأة لزم العجوز الصمت، بعدما كان يغزل قصصه باستمتاع كبير، وأخذ يتمعَّن السؤال الأخير. اختلَّجَت عيناه وهو يقول: "كان يجب تدمير هذا المكان منذ سنواتٍ مَضت. ثمة أشياء خاطئة كانت تحدث بداخله".

"ما نوع هذه الأشياء؟".

قال وشفته تترتجان: "لا تشغلي بالك بهذا. صدِّقيني، ثمة أماكن لا يمكن أن تعود نظيفةً بمجرد دهان طلاء".

قالت نيل مُندَهشةً من عُنْفِه: "لم أنو أن أشتريه. ظننت أنه ربما توجد طريقة لإلقاء نظرة على العزبة".

"لا حاجة بك إلى المرور بعزبة بلاكهرست لرؤية الخليج الصغير. يمكنك رؤيته من قِمة الجرف الصخري"، ثم رفع غليونه باتجاه الساحل: "اسلُكي طريق القرية من عند المنحدر، وأديري وجهك ناحية شاربستون، وهناك ستجدينه بالأسفل. كان سيصير أجملَ خليج صغير

في جميع أنحاء كورنوال لولا تلك الصخرة الوحشية. ما من علامةٍ على الدماء المسفوكة على ساحله منذ زمن طويل".

فاحت رائحة اللحم وإكليل الجبل، وجلبت روبن أطباقًا وملعقًا من المطبخ. "ستمكثين لتناول العشاء، أليس كذلك يا نيل؟".

"بالطبع ستفعل" قال العجوز وهو يميل بظهره إلى المقعد. "هل تعتقدين أن أرسلها إلى الخارج في ليلة حالكة السواد كهذه".

كان مذاق الحساء شهياً، ولم يتطلب الأمر الكثير من الإلحاح كي تتناول نيل طبقًا ثانيًا. بعد ذلك، انسحبت روبن لغسل الأطباق، وتركت نيل والعجوز بمفرديهما مُجددًا. كانت الغرفة دافئة الآن، وخذاه أحمرين. شعر بنظرتها وأوماً بمرح.

كان هناك شيء مُريحٌ في صحبة ويليام مارتن؛ شيءٌ عازِلٌ في الجلوس في غرفة المعيشة بمنزله. أدركت نيل أنها كانت سَطوَةٌ الراوي. القدرة على استحضار اللون حتى أن كل شيء آخر بدأ باهتًا. لا ريب أن ويليام مارتن حكاءٌ بطبعه. لكنَّ تصديقها للقصص كان مسألةً أخرى. كان يتمتّع بموهبة جليّة في زخرفة القصص وإضفاء تفاصيل حيوية، لكنه كان الشخص الوحيد الذي عثرت عليه ووجدته عاصِرَ الفترة التي تبحث عنها.

قالت، والنيران تُدْفئُ جانبها، حتى أنها آلمتها بشكلٍ مُمتع: "هل عرفتَ حينما كنتَ شابًا سيّدَةً تُدعى إيليزا ماكيبس؟ كانت كاتبّة، وكان لينوس وأدالين مونتراشيه وصيّن عليها".

كان هناك توقُّفٌ محسوس. وقال ويليام بصوت خافت: "الجميع يعرف إيليزا ماكيبس".

جذبت نيل نَفْسًا. أخيرًا. قالت بسرعة: "هل تعرف ما حدث لها؟
أقصد في النهاية؟".

هزَّ رأسه قائلاً: "لا أعرف".

زحف تَحْفُظُ جديد على أسلوب العجوز، احتراسٌ كان غائبًا حتى
الآن. تعرف نيل أن عليها أن تتوخَّى الحذر، لم ترغب في عودته إلى
قوَقَعَتِه، ليس الآن.

"ماذا عن البداية، حينما عاشت في بلاكهرست؟ هل يمكنك إخباري
بأي شيء؟".

"قلت إنني أعرفها. لكن لم تَتَّح لي الفرصة للتعرفُ عليها جيّدًا، لم
يكن مُرَحَّبًا بي في المنزل الكبير. أصحاب المكان لم يُعجِبهم الأمر".

قالت نيل بالحاح: "ممّا يمكنني فهمه: كانت آخر مرّة شوهدت
فيها إيليزا في لندن في أواخر عام 1913. كانت برُفَقَة فتاة صغيرة،
أيثف چوري وواكر، كانت حينها في الرَّابِعَة من عمرها. ابنة روز
مونتراشيه. هل يمكنك التفكير في أي سبب، أي سبب على الإطلاق،
يدفع إيليزا للسفر في رحلة إلى استراليا مع ابنة امرأة أخرى؟".
"كلّا".

"هل لديك أي فكرة عن السبب الذي دفع عائلة مونتراشيه إلى
إخبار الناس أن حفيدتهم كانت مَيِّتَة في حين أنها كانت على قَيَدِ
الحياة؟".

قال بصوت مشروخ: "كلّا".

"إذن كنت تعرف أن أيثفوري على قيد الحياة برغم الأبناء التي
تُثبِتُ عكسَ ذلك؟".

طقطقت النيران. "لا أعرف ذلك؛ لأنه ليس كذلك. الطفلة ماتت
من الحُمى القرمزية".

"أجل أعرف ما قيل في تلك الفترة". شعرت نيل بسخونة في وجهها،
وَأَلَمٍ فِي رَأْسِهَا وَهِيَ تَقُولُ: "أَعْرِفُ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْحَقِيقَةَ".
"كيف تعرفين هذا الأمر؟".

قالت نيل بصوت مُتَحَشِّرِجٍ: "لأنني كنتُ هذه الطفلة. وصلتُ
إلى استراليا حينما كنت في الرابعة من عمري. وَضَعَتْنِي إيليزا ماكبيس
على متن سفينة، حينما ظنَّ الجميع أنني مَيِّتَةٌ، ولم يخبرني أحد عن
السبب".

كان تعبير ويليام صعبًا على التأويل. بَدَأَ عَلَى وَشِكِ الْإِجَابَةِ لَكِنَّهُ
لَمْ يَفْعَلْ.

بدلًا من ذلك، نهض ومَدَّ ذِرَاعِيهِ حَتَّى أَنْ بَطْنَهُ بَرَزَتْ إِلَى الْأَمَامِ،
وَقَالَ بِصَوْتٍ أَجَشٍّ: "أَنَا مُتَعَبٌ. حَانَ مَوْعِدُ دُخُولِي إِلَى الْفِرَاشِ". ثُمَّ
صَاحَ: "رُوبِن؟"، وَمُجَدِّدًا بِصَوْتٍ أَعْلَى: "رُوبِن!".

عادت روبن من المطبخ ومنشفة الشاي في يدها وقالت: "جدي؟
ما الأمر؟".

"سَأُوِي إِلَى الْفِرَاشِ"، وَاتَّجَهَ إِلَى الدَّرَجَاتِ الضِّيْقَةِ الَّتِي انْبَعَجَتْ
مُكَوَّنَةً مَمَرًا خُرُوجًا مِنَ الْغُرْفَةِ.

"ألا تريد فنجانًا آخر من الشاي؟ إننا نحظى بوقت جميل".

وضع ويليام يده على كتف روبن هو يَمُرُّ بِجَانِبِهَا. "أغلقني الباب
جيدًا حينما ترحلين يا فتاتي. لا نريد الضباب أن يستقرَّ بالداخل".

ملأ الارتباك عيني روبن الممتسعتين. جلبت نيل معطفها. وقالت:
"يَجْدُرُ بِي الذَّهَابُ".

"أنا في غاية الأسف. لا أعرف ماذا دهاه. إنه عجوز، ويصاب
بالإرهاق...".

أحكمت نيل إغلاق الأزرار وهي تقول: "بالطبع". كانت تعلم أنها يجب أن تعتذر، في النهاية كان خطأها الذي أثار غضب الرجل، ومع ذلك لم تستطع. شعرت بإحباطٍ لاذِعٍ في حلقها. أخيراً تمكّنت من قول: "شكراً على وقتك"، ثم حطّت من الباب الأمامي إلى الخارج حيث الرطوبة الخانقة.

ألقت نيل نظرة إلى الخلف حينما وصلت إلى سفح التلّ رأت روبن ما تزال تراقبها. رفعت ذراعها لتلوّح حينما فعلت روبن ذلك.

ربما كان ويليام مارتن عجوزاً ومُرَهَقاً، لكن هذا ليس مُبرِّراً ليغادر بهذه الطريقة المُبَاغِثَة. يجب على نيل أن تعرف، لقد تشبّثت بِسِرِّها الشائك طويلاً حتى أنها تستطيع أن تُمَيِّزَ معاناة شخص آخر. إن ويليام يخفي أكثر ممّا يُفصِح، وحاجة نيل إلى كشف الحقيقة تفوق احترامها لخصوصيته.

زَمّت شفيتها وحنّت رأسها تفادياً للبرد، وعزمت على إقناعه بإخبارها كل ما يعلم.

(26)

عزبة بلاكهرست، 1900

كانت إيليزا مُحِقَّةً؛ فاسم "روز" مُناسِبًا للغاية لأميرة في قِصَّة خيالية، وقد تَمَتَّعت روز مونتراشيه بالحظوة الاستثنائية والجمال المناسِبين لهذا الدور. لكن المؤسف أن السنوات الإحدى عشرة الأولى من عُمرها لم تكن قِصَّةً خياليَّة.

انتزع د. ماثيوس من حقيبته الجلديَّة أداةً رفيعةً تُشبه مجدافًا صغيرًا، ووضعها على لسان روز وهو يقول: "افتحي". مالَ إلى الأمام يتفحَّص حَلَقَها، كان وجهه قريبًا للغاية حتى إنها تفحَّصت -كارهةً- شَعْرَ أنفه. "هممم" قال وشُعيراتُ أنفه تَهْتَزُّ.

سعلت روز بوهن والأداة تَنسَجِبُ مُحْتَكَّةً بحلقها. "ما الأمر أيُّها الطبيب؟" خرجت الأم من الظلِّ، أصابعها مُتَشابِكةٌ شاحِبَةٌ على فستانها الأزرق الغامق. اعتدل الدكتور ماثيوس واقفًا. "خيرًا فَعَلتِ في الإرسال في طلبي يا ليدي مونتراشيه. هناك التهابٌ بالفعل".

وبينما أخذ الدكتور ماثيوس يشرح طريقة العلاج، التفتت روز جانبًا وأغلقت عينيها. تثناءً قليلًا. فهي تعلم أنها لن تعيش طويلًا في هذا العالم. أحيانًا، في لحظات الضعف، تتخيّل روز شكل الحياة بعيدةً عن النهاية المحتومة، لو امتدّ المستقبل أمامها مجهولًا، في طريقٍ ذي منحنياتٍ ومُنْعَطَفَاتٍ لا تتوقَّعها، بأحداثٍ هائلةٍ تتضمّن حفلتها الأولى للظهور في المجتمع، وزوجًا، وأطفالًا، ومنزلًا كبيرًا يثير إعجاب السيدات الأخريات. كم تتوق بلهفة إلى هذه الحياة!

لكنها لم تكن تُطَلِّقُ العنان لهذه الأفكار كثيرًا. ما فائدة البكاء على اللبن المسكوب؟ عِوَضًا عن ذلك، كانت تنتظر، وتتعافى تدريجيًا، وتعمل في كتاب القصصات، وتقرأ، حينما تستطيع، عن أماكن لن تراها قط، وحقائق لن تستخدمها قط، في محادثات لن تُجربها قط، وهي تنتظر النوبة الثانية المحتومة التي تُقربها من النهاية، أمله أن يكون المرض التالي أكثر إثارة، وأقل ألمًا، وأكثر جزاءً. مثل تلك المرة التي ابتلعت فيها كُشْتَبَانَ أمها.

لم تكن الحادثة عن عَمْدٍ بالطبع. لو لم يكن برآقًا جميلًا في حامله الفضي الذي اتَّخَذَ شكلَ حَبَّةِ جوز، لم تكن لتُفكِّر في لمسه. لكنها فعلت. ماذا تفعل طفلة ذات ثماني سنوات غير ذلك؟ كانت تُورِّجُحُه على طرف لسانها، مثل المُهْرَجِ في كتاب السيرك لمجندورفر⁽¹⁾، الذي أرجح الكرة الحمراء على أنفه المُدْبَّبِ السخيف. سلوك غير لائق بالتأكيد، لكنها كانت مجردَ طفلةٍ، بجانب أنها ظلّت تفعل هذا الإنجازَ الباهرَ لأشهر دون زلّةٍ.

لكن واقعة الكشتبان أثبتت فائدتها بكل المقاييس. جُلِبَ الطبيب على الفور، طبيب شابٌ جديد شرع مؤخرًا في مُزاوَلَةِ الطَّبِّ في القرية.

(1) لوئار مجندورفر (1847-1925) رسام صور توضيحية وكارتون من أصل ألماني، اشتهر بكتبه الممجّسة.

وفعل كل ما يفعله الأطباء من النَّقْرِ وَاللِّكْرِ، ثم اقترح بصوتٍ مُتَهَدِّجٍ أداةً تشخيصيةً جديدةً ربما تفيد، حيث يمكنه النظر بدقة في معدة روز دون رفع مِبْضَعِهِ، عن طريق تعريضها للتصوير الفوتوغرافي. وقد لاقى هذا الاقتراح استحسان الجميع. فالأب سيتمُّ استدعاؤه من أجل التصوير نَظْرًا لمهارته في استخدام الكاميرا، والدكتور ماثيوس سينشر الصور في مجلةٍ مُتَخَصِّصَة تُسَمَّى "ذا لانسيت"، ونَشْرُ الصُّور سيرسل موجاتٍ من التشويق في دوائر مجتمع الأم.

أما بالنسبة لروز، مَرَّ الكشتبان (بشكل غير لائق) بعد ثمان وأربعين ساعةً لاجِقًا، وكانت سعيدة لنجاحها أخيرًا في إرضاء الأب، حتى لو كان ذلك لفترة قصيرة. لم يتكلَّم كثيرًا، لم يكن ذلك دأبه، لكن روز كانت دقيقةً الملاحظة فيما يتعلَّق بتقلُّب مزاج والدَيْها. وسعادة الأب كانت ترفع من معنوياتها وتُبْهِّجُها كتناول حلوى السوفليه التي تصنعها كوك الطاهية.

"إِذَا سَمَحْتَ لِي يَا لَيْدِي مَوْنْتَرَاشِيه، سَأُنْهِي فَحْصِي."

تَنَهَّدَتْ روز بينما رفع الدكتور ماثيوس رداء النَّوم كي يتفحص معدتها. أَغْلَقَتْ عَيْنَيْهَا بِقُوَّةٍ وَأَصَابِعَهُ الْبَارِدَةَ تَضَغَطَ عَلَى جِلْدِهَا، وَفَكَّرَتْ فِي كِتَابِ الْقِصَاصَاتِ. كَانَتْ الْأُمُّ قَدْ رَتَّبَتْ مَعَ مَجَلَّةٍ دَوْرِيَّةٍ لَنْدِيَّةٍ لِإِرْسَالِ صُورٍ لِأَحْدَثِ صِيحَاتِ الزَّفَافِ، وَبِاسْتِخْدَامِ الشَّرَائِطِ الْمَرْكُشَةِ وَالْأَشْرَطَةِ مِنْ صَنْدُوقِ الْخِيَاطَةِ، زَيَّنَتْ رُوزُ الصَّفْحَةَ بِشَكْلِ جَمِيلٍ. إِنْ عَرُوسَتَهَا سَتَظْهَرُ بِشَكْلِ رَائِعٍ: طَرْحَةٌ مِنَ الدَانْتِيلِ الْبَلْجِيكِيِّ، وَوَلَاكِي قَلِيلَةٌ حَوْلَ الْحَاقَّةِ، وَوَرْدٌ مُجَفَّفٌ لِبَاقَةِ الْأَزْهَارِ. أَمَّا الْعَرِيسُ فَأَمْرُهُ مُخْتَلِفٌ، لَمْ تَعْرِفْ رُوزُ مَعْلُومَاتٍ كَثِيرَةً عَنِ النَّبَلَاءِ. (وَلَا يَنْبَغِي لَهَا؛ لَمْ يَكُنْ لِإِثْقَا لِسَيِّدَةٍ صَغِيرَةٍ أَنْ تَعْرِفَ هَذِهِ الْأُمُورَ). لَكِنْ تَرَاءَى لَهَا أَنْ تَفَاصِيلَ الْعَرِيسِ لَنْ تَهَمَّ كَثِيرًا، طَالَمَا كَانَتْ الْعُرُوسُ تَتَمَتَّعُ بِالْجَمَالِ وَالْبِرَاءَةِ.

"الأمور تبدو مُرْضِيَّة" قال د. ماثيوس، وهو يُعيدُ رداء النوم إلى مكانه. "لحسن الحظ العدوى ليست مُنْتَشِرَةً. لكنني أقترح يا ليدي مونتراشيه أن أتناقش معك بخصوص أفضل معالجة مُمكنة؟".

فَتَحَّت روز عينيها في الوقت المناسب لتبصر ابتسامة الطبيب المُتملِّقة للأم. كم كان مُملًّا، دومًا يسعى لدعوةٍ لتناول الشاي، والفرصة لمقابلة المزيد من أفراد الطبقة العليا في المنطقة ومعالجتهم. بعد الصُور المنشورة لكشتبان روز ذاع صيته بين أثرياء المدينة، وقد اغتنم الفرصة جيّدًا. وبينما كان يضع مسامعه بحرصٍ داخل حقيبته السوداء الكبيرة، تحوّل مَلَلُ روز إلى استفزاز.

"ألن أذهب إلى السماء بَعْدُ يا دكتور؟" سألته ببساطة وهي ترمش بعينيها إلى وجهه المُحمَرِّ. "إنني أعمل على صفحة في كتاب القصصات وسيكون مُخجلاً لو لم أنهها".

ضحك د. ماثيوس ضحكةً أنثوية، واختلس نظرة إلى الأم. "حسنًا يا طفلتي" تلعثم. "ليست هناك حاجة إلى القلق. في الوقت المناسب سوف يُرحَّب بنا جميعًا على مائدة الرّبِّ...".

راقبته روز لهنيهة وهو يشرع في محاضرة مُملّةٍ عن الحياة والموت، قبل أن تُحوّل رأسها لتخفي ابتسامة واهنّة.

يختلف ردُّ فعل كل شخص بالنسبة لتوقُّع الموت المُبكر. فبعض الأفراد يمنحهم نُضجًا يفوق أعمارهم وخبراتهم، حيث القبول الهادئ يُسبِّغُ عليهم شخصيَّةً جميلة وملامح ناعمة. بينما في البعض الآخر يُذكي شرارة جليديَّةً صغيرة في قلوبهم، ربما تختفي أحيانًا، لكنها لا تذوب قَطُّ. ورغم أن روز أحبَّت أن تكون من النوع الأول، عَلِمَت في قرارة نفسها أنها من النوع الثاني. لم تكن فتاةً سيئَةً، بل طوَّرت مهارة فتور الشعور؛ القدرة على الخروج من نفسها وملاحظة المواقف دون أن تُشَتَّتْها الأهواء.

"د. ماثيوس" قاطَعَ صوتَ الأمِّ وصفَه اليائس للفتيات الصغيرات البريئات في السماء. "انتظرنني بالأسفل في عُرفَةِ الجلوس الصباحية. توماس سيُحضِرُ لك الشاي".

"كما تأمرين ليدي مونتراشيه" قال بارتياح لانتهااء المُحادثة اللزجة، وتحاشى عيني روز وهو يغادر الغرفة.

"كان ذلك تَصْرُفًا وَقِحًا يا روز" قالت الأم.

كان العتاب مُخَفَّفًا بسبب قلق الأم الحديث، وعلمت روز أنها لن تَتَعَرَّضَ للتأنيب. لم تتعرَّضَ قَطُّ. مَنْ يغضب من فتاة صغيرة مُوشِكة على الموت؟

تَنَهَّدَت روز قائلةً: "أعلم يا ماما. وأنا آسفة. أشعر بالدوار، والإصغاء إلى د. ماثيوس يزيد الأمر سوءًا".

أخذت الأم يدها وهي تقول: "البنية الضعيفة عبءٌ بغيض صعب التَّحْمُل. لكنكِ ليدي شابةٌ من آل مونتراشيه. والمرض ليس عُذْرًا للتَّصْرُفات السيئة".

"أجل يا ماما".

قالت وهي تضع أناملها الباردة على وجنة روز: "يجب عليّ الذهاب والتحدُّث مع الطبيب الآن. سآتي وأزورك مُجدِّدًا حينما تجلب لك ماري الطعام". ثم اندفعت نحو الباب، وفتانها يحفُّ على السجاد.

"ماما؟" صاحت روز.

التفتت الأم. "ما الأمر؟"

"أريد أن أسألك عن شيء" تردَّدت روز، غير واثقة كيف تباشر الكلام، وهي مُدرِكة أن سؤالها فضوليٌّ. "رأيتُ صبيًّا في الحديقة".

رفعت الأُمُّ حاجِبَها. "صبي؟".

"رأيتُه من النافذة هذا الصباح حينما حرَّكتني ماري إلى مقعدي. كان يقف وراء شجيرة الورد يتحدَّث مع ديفيس، صبيُّ يبدو مُشاغِبًا بشعرٍ أحمرٍ أشعَّتْ".

ضغطت الأُمُّ يَدَها على الجلد الشاحب أسفل عنقها. تنفَّست ببطء وثباتٍ فأثار ذلك اهتمام روز. "لم يَكُن صَبِيًّا ما رأيتِه يا روز". "ماما؟".

"كانت ابنة عَمَّتِكَ، إيليزا".

اتَّسَعَت عينا روز. لم تتوقَّع ذلك؛ لأنه غير صحيح. لم يكن لدى الأُمِّ أيُّ أشقاء أو شقيقات، وبعد وفاة الجَدَّة، كانت هي وأمها وأبوها آخِرَ المُتَبَقِّين من عائلة مونتراشيه. "ليس لديَّ ابنة عَمَّة".

شَدَّت الأم قامتها، وتكلَّمت بسرعة غير عادية. "للأسف لديك اسمها إيليزا وجاءت لتعيش في بلاكهرست". "إلى متى؟".

"للأسف... دائماً".

شعرت روز بالدُّوار أكثر من ذي قبل. كيف يمكن لهذا الولد الشَّقِيَّ رَثُّ الثياب أن يكون ابنة عمتها؟ "لكن ماما... شعرها... أسلوبها... ملابسها كلها كانت مُبتَلَّةً ومُوجِلَّة طَيْرَتها الريح... ارتعدت روز. "كانت هناك أوراقٌ تُغَطِّيها كُلُّها...".

رفعت الأم أصبَعًا إلى شفيتها. والتفتت تُواجه النافذة وارتجفت الشُعيراتُ المُجعَّدة السوداء في مُؤخِّرة عنقها. "ليس أمامها مكانٌ آخر تذهب إليه. اتَّفقنا أنا وأبوك على استضافتها. إحسانٌ لا تستحقُّه، ولن تُقدِّرَه، لكنَّ المرء يجب أن يفعل الصواب".

"لكن ماذا ستفعل هنا يا ماما؟".

"أظن أنها ستُسبَّب لنا إزعاجًا كبيرًا. لكن ليس بوسعنا طردها؛ لذا لا بُدَّ أن نُحوِّلَ الضرورة إلى فضيلة". كانت تنطق بالكلمات كأنها تنتقيها عبر منخلٍ. وبدا أنها شعرت بأنها كلمات جوفاء فلم تُضِف شيئًا.

قالت روز بحذر: "ماما؟".

"سألتُ ماذا ستفعل هنا؟" التفتت الأم لتواجه روز وقالت بصوتٍ حادٍّ: "سأسلّمها لك".

"ماذا؟".

"اعتبري أنها مشروعٌ. ستكون تحت رعايتك. حينما تتعافين، ستكونين مسؤولَةً عن تعليمها آدابَ السلوك؛ فهي فتاة هَمجيّة، لا تتمتع بِدَرّةٍ من الفضيلة أو الجاذبية، يتيمة بلا مُعين يرشدها كيف تعيش في مجتمع مهذبٍ". جذبت الأم نَفْسًا ثم قالت: "بالطبع لا أتوقّع منك أن تصنعي المعجزات".

"أجل ماما".

"هل تتخيّلين يا طفلتي ما تعرّضت له هذه اليتيمة؟ لقد كانت تعيش في لندن وسط الانحطاط والرذيلة".

في تلك اللحظة علمت روز مَنْ تكون إيليزا، كانت ابنةً شقيقةً أبيها، چورچيانا الغامضة، التي أمرت الأم بإرسال لوحتها إلى العليّة، والتي لا يتحدّث عنها الجميع. لا أحد، عدا الجَدّة.

قبل وفاة الجَدّة بشهور، حينما عادت كدُبُّ جريح إلى بلاكهرست، واعتزلت في الغرفة الصغيرة حتى تموت، كانت تفيق من غيبوبتها، وتتحدّث بهذيان عن الطفلين لينوس وچورچيانا. كانت روز تعرف أن

لينوس هو والداها، وبالتالي لا بُدَّ وأن چورچيانا هي شقيقته، التي اختفت قبل ميلاد روز.

في صباح يومٍ صيفيٍّ، كانت روز مُستلقيةً على كرسيٍّ بذراعين بجوار نافذة البرج، ونسيم البحر الدافئ يُدغِدغُ مؤخرَةَ رأسها. كانت تحبُّ الجلوس بجانب جدِّتها، تتأملُها وهي نائمة، كلُّ نَفْسٍ ربَّما كان الأخير. وكانت تراقب بفضول حَبَّاتِ العَرَقِ تلمع على جبين العجوز.

فجأة فتحت الجَدَّةُ عينيها الواسعتين الشاحبتين، اللتين ابيضتا من حياة مريرة. حدَّقت لهنهية في روز، لكنها لم تتعرَّفَ عليها، ثم انزلت نظرتها إلى ستائر الصيف التي تتموَّج بخِفَّةٍ. في البداية أرادت روز دَقَّ الجرس لاستدعاء الأم، بعدما مرَّت ساعات منذ استيقاظها من آخر مرة، وبينما كادت يدها تمتدُّ إلى الجرس، أطلقت العجوزُ تنهيدةً طويلة مُرهِّقة ثقيلة، فرَّغت الهواء، حتى صار الجلدُ النَّحيلُ بين عظامها فجواتٍ.

فجأة أمسكت يدها الذابلة بمعصم روز. "فتاة حسناء" قالت بهدوء شديد، حتى أن روز اضطرَّت إلى الانحناء أكثر بالقرب منها لتسمع الكلمات التالية. "جميلة للغاية، كانت لَعَنَة، أدارت رؤوس الشُّبَّان. لم يستطع منع نفسه، وتعبَّها في كل مكان، مُعتقداً أننا لا نعرف. هربت ولم ترجع، لا كلمة من چورچيانا...".

كانت روز مونتراشيه فتاةً مُهذَّبة تعرف القواعد. كيف لها أن تكون غير ذلك. طريحة الفراش طيلة حياتها، وأسيرة المحاضرات التي تلقيها أمُّها على مسامعها بين الحين والآخر عن القواعد وطبيعة المجتمع المهذَّب. تعلم روز أن السيدة المهذَّبة لا يجب أن تتزيَّن باللؤلؤ أو الماس في الصباح، أو تتجاهل أحدهم، أو تزور رجلاً نبيلًا بمفرده، تحت أي ظرف من الظروف. لكن الأهم من هذا كله، علَّمت أنه

يجب تحاشي الفضيحة بأي ثمن، وأنها كانت شراً يُلطخُ سُمعة السيدة النبيلة.

ورغم ذلك بعدما سمعت جدّتها تذكر عمّتها الهاربة، التي تسبّبت في الفضيحة التي عدّبت العائلة، لم تشعر بشيء شائنٍ على العكس، شعرت بإثارة شريفة تزحف على عمودها الفقري. للمرّة الأولى منذ سنوات تستشعر وَخزَ الحماس في أطراف أصابعها. انحنى أكثر، لتساعد الجدّة على الاستمرار، مُتلهفةً لتوغّل المحادثة نحو زوايا مجهولة غامضة. حتّتها قائلةً: "من يا جدي؟ من تبعها؟ من هربت معه؟".

لكن الجدّة لم تُجِب، رفضت السيناريوهات التي لعبت في ذهنها المناورة. ألحّت روز لكن بلا جدوى. وفي النهاية قنعت بإدارة السؤال في رأسها مرّة تلو المرّة، وصار اسم عمّتها رمزاً للأوقات المظلمة المضطربة، رمزاً لكل ما هو ظالم وشرير في العالم...

"روز" قالت الأم بتقطيب حاولت إخفاءه، لكنّ عينيّ روز الخبيرتين التقطتاها. "هل تقولين شيئاً يا طفلتي؟ أنتِ تهمسين" ثم مدّت يدها لتقيس حرارتها.

مكتبة

t.me/t_pdf

"أنا بخير يا ماما، لكن أفكارى مُشتتة".

"وجهك مُتورّد".

وضعت روز يدها على جبهتها. هل كانت مُتورّدة؟ لا تعرف.

"سأرسل د. ماثيوس ليراك مُجدّداً قبل أن يغادر. الأفضل أن أكون حذرة".

أغلقت روز عينيها. زيارة أخرى من السيد ماثيوس، زيارتان في يوم واحد. كان هذا يفوق قدرتها على التحمّل.

"اليوم لا تبدين بخير، ومن الأفضل أن نؤجل لقاءك بمشروعنا الجديد. سأتحادث مع الطبيب، ولو رأى أنه مناسب؛ ربما تقابلين إيليزا غداً. إيليزا! كيف يُعطى اسم مونتراشيه لابنة بحاراً!."

بحار، كانت تلك معلومةً جديدة. فتحت روز عينيها. "ماما؟".

تورّدت وجنتا الأم خَجَلًا. لقد قالت أكثر ممّا يجب، زلّة لسان غير معتادة على كياستها. "والد ابنة عمّتك كان بحارًا. لا نأتي على ذكره".

"زوج عمتي كان بحارًا؟".

شهقت الأم وقفزت يدها إلى فمها وهي تقول: "لم يكن زوج عمّتك يا روز، هو نكرة بالنسبة لي ولك. لم يكن متزوجًا من عمّتك جورچيانا".

كان ذلك أكثر خزيًا عمّا تخيلت روز. "لكن... ماذا تقصدين يا ماما!؟".

انخفض صوت الأم وهي تقول: "ربما تكون إيليزا ابنة عمّتك يا روز، وليس لدينا خيار سوى تركها تقيم في هذا المنزل. لكنها ذات أصل وضيع، كوني على يقين من هذه الحقيقة. وهي حقًا محظوظة أن وفاة أمها جلبتها إلى بلاكهرست مُجددًا؛ ففي النهاية عانت هذه العائلة من الهوان على يد أمها"، هزّت رأسها ثم استأنفت: "حينما رحلت كاد أبوك يهلك. لا أطيق التفكير ماذا كان سيحدث لولا وجودي هنا وأنا أعتني به خلال الفضيحة". ثم نظرت مباشرة إلى روز. وقالت بصوت مُتهدج خفيف: "إن العائلة التي تبتلى بعارٍ كبيرٍ تتلطّخ سُمعتها إلى الأبد؛ لذا من الضروري أن نعيش أنا وأنت بعِفّةٍ وفضيلة. أعتقد أن ابنة عمّتك إيليزا ستُمثّل مشكلة. لن تكون واحدة منّا قَطُّ، لكن بمحاولتنا ربما نزيل عنها الخزي".

تظَاهَرَتْ رُوزُ بِتَأْمُلِ الْكُفْمِ الْمَزْعُجِ لِرُدَاءِ النُّومِ وَهِيَ تَقُولُ: "هَلْ
يُمْكِنُ لِفَتَاةٍ مِنْ أَسْلِ مِتْوَاضِعٍ أَنْ تَكُونَ لِيَدِي يَا مَامَا؟"
"كَلَّا يَا طِفْلَتِي".

"حَتَّى لَوْ تَبَنَّيْتَهَا عَائِلَةً نَبِيلَةً؟" اخْتَلَسَتْ نَظْرَةً مِنْ بَيْنِ رَمُوشِهَا إِلَى
أُمِّهَا وَهِيَ تَقُولُ: "رَبْمَا تَتَزَوَّجُ مِنْ رَجُلٍ نَبِيلٍ؟".

نَظَرَتْ الْأُمُّ بَعَيْنَيْنِ قَاسِيَتَيْنِ إِلَى رُوزِ، وَتَرَدَّدَتْ قَبْلَ أَنْ تَقُولَ بِيْطَاءٍ
وَبِحَذَرٍ: "رَبْمَا يُمْكِنُ لِفَتَاةٍ ذَاتِ أَسْلِ مِتْوَاضِعٍ -وَلَكِنْ لَاقٍ- أَنْ تَعْمَلَ
بِدَآبٍ عَلَى تَحْسِينِ نَفْسِهَا، حِينَهَا رَبْمَا تَصْبِحُ سَيِّدَةً رَاقِيَةً فِي الْمَجْتَمَعِ".
ثُمَّ جَدَّيْتِ نَفْسًا سَرِيْعًا لِاسْتِعَادَةِ هَدُوثِهَا وَقَالَتْ: "لَكِنْ أَخْشَى أَنْ
هَذَا لَيْسَ مُمَكِّنًا فِي حَالَةِ ابْنَةِ عَمَّتِكَ. لَا يَجِبُ أَنْ نَتَوَقَّعَ الْكَثِيرَ يَا
رُوزَ".

"بِالطَّبْعِ يَا مَامَا".

اِمْتَدَّ السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ لِقَلْقِ الْأُمِّ بَيْنَهُمَا، بَرِغْمَ أَنَّهَا لَوْ سَاوَرَتْهَا
الشُّكُوكُ إِزَاءَ مَعْرِفَةِ رُوزِ بِالْأَمْرِ، لِشَعَرَتْ بِالْخِزْيِ. كَانَ سِرُّ عَائِلِيٍّ آخَرَ
نَجَحَتْ رُوزُ فِي اِكْتِشَافِهِ مِنْ جَدَّتِهَا الْمُحْتَضِرَةِ. سِرٌّ يَفْسُرُ الْكَثِيرَ؛ الْكِرَاهِيَّةُ
بَيْنَ أُمِّهَا وَجَدَّتِهَا، وَالْأَهْمُ مِنْ ذَلِكَ، هَوَسُ الْأُمِّ بِالْأَخْلَاقِ الْقَوِيْمَةِ،
وَتَفَانِيهَا فِي مِرَاعَاةِ قَوَاعِدِ الْمَجْتَمَعِ، وَحِرْصِهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ دَائِمًا مِثَالًا
عَلَى التَّهْذِيبِ وَحُسْنِ السُّلُوكِ.

رَبْمَا حَاوَلَتْ لِيَدِي أَدَالِيْنَ مُونْتَرَاشِيَه طَمَسَ الْحَقِيقَةَ مِنْذُ أَمَدٍ
بَعِيدٍ، وَمَعْظَمُ مَنْ عَرَفُوهَا خَافُوا مِنْ مَحْوِهَا مِنْ ذَاكِرْتِهِمْ، وَمَنْ لَمْ
يَعْرِفُوهَا خَشُوا عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَلَمْ يَتَجَاسَرُوا بِالتَّفَوُّذِ بِكَلِمَةٍ حَوْلَ
أَصُولِ أَدَالِيْنَ، لَكِنْ الْجَدَّةُ لَمْ تَشْعُرْ بِوُخْزِ الضَّمِيرِ. كَانَتْ سَعِيدَةً بِتَدَكُّرِ
الْفَتَاةِ الْقَادِمَةِ مِنْ يُورِكِ، وَالتِّي عَانِي أَبَوَاهَا الْمُتَدَيِّنَانِ مِنْ ظُرُوفِ
قَاسِيَةٍ، وَاقْتَنَصَا الْفُرْصَةَ لِإِرْسَالِ الْفَتَاةِ إِلَى عَزْبَةِ بَلَكَهْرَسْتِ، بِكُورِنُوَالِ؛
كِي تَكُونَ فِي حِمَايَةِ الْجَمِيلَةِ چُورچِيَانَا مُونْتَرَاشِيَه.

توقفتُ ماما عند الباب. "هناك شيءٌ أخير يا روز، أهم شيء".

"أجل يا ماما".

"يجب إبعاد الفتاة من طريق أبيك".

وهي مهمّةٌ ليست بالصعبة؛ فروز يُمكنها أن تحصي على أصابع اليد الواحدة عددَ المرّات التي رأت فيها أباهَا خلال السنة الماضية. على كُلِّ حالٍ، كانت صرامة أمّها مُثيرةً للفضول، فقالت: "ماما؟".

صمتَ بسِيطٍ لاحظته روز بفضولٍ مُتزايد، ثم الرّدُّ الذي أثار المزيد من الأسئلة. "والدِكِ رَجُلٌ مشغول، رَجُلٌ مُهمٌ. ليس بحاجة إلى تذكيره بِعمارِ العائلة"، جذبتَ نَفْسًا سريعًا وهمست: "صدّقيني يا روز، لا أحدَ في هذا المنزل سيستفيد من وجود الفتاة بالقرب من أبيك".

ضغَطت أدالين برِقّةٍ على طرف أصبعها وراقبت ظهور بقعة حمراء من الدماء. كانت تلك المرة الثالثة التي تَخِرُّ أصبعها في دقائق عديدة. كان التطريز يُهدئُ أعصابها، لكنَّ تَوَثُّرها اليومَ كان كبيرًا. وضعت الإبرة جانبًا. حوارها مع روز جعلها مُهتزةً، وتناولها الشاي مع الدكتور ماثيوس أصابها بالتشوّت، والأهم من هذا كله، وصول ابنة چورچيانا. برغم أنها تبدو مُجرّدَ طفلة، لكنها أحضرت معها شيئًا خَفِيًّا، كَتَغَيُّرِ الجو قبل هبوب عاصفة هوجاء. وهذا الشيء يُهدّدُ بإنهاء كل شيء بنته أدالين، بل شرع في الواقع في عمله الخَفِيّ؛ فطيلة اليوم استغرقت أدالين في ذكريات يوم وصولها إلى بلاكهرست. ذكريات جاهَدَت لنسيانها، والتأكّد من أن الآخرين قد فعلوا...

حينما وصلت أدالين في عام 1886، أبصرت مَنزِلًا بَدَا أنه يخلو من الناس. كان أكبرَ مَنزِلٍ وطأته قدمها. وقفت لمدة عشر دقائق على الأقل، تنتظر تعليماتٍ، أو شخصًا يستقبلها، حتى ظهر أخيرًا

في الرُدْهة، شابُّ يرتدي بذلة رسمية، وترتسم على وجهه علامات التَّعَجُّرُف. توقَّف مُنْدهِشًا، ثم ألقى نظرةً على ساعة جيبه.

"لقد جئتِ مُبَكِّرًا" قال بلهجة جعلت أدالين تتساءل عن رأيه فيمن يصلون قبل موعدهم. "لم نتوقَّع قُدومَكِ إلَّا على موعد تناوُل الشاي".

لم تنبس ببنت شفة، غير مُتَيَقِّنَةٍ مِمَّا كان مُتوقِّعًا منها.

زَفَرَ الرَّجُلُ قَائِلًا: "انتظري هنا وسأجد أحدهم ليُريكِ غرفتكِ".

أدرَكت أدالين أنها عبءٌ. "هل يمكنني التَّنزُّه في الحديقة إن سَمَحْتَ لي؟" قالت بصوت متواضعٍ، وبلكنةٍ شماليةٍ أدركت غِلظَتَها في الغرفة الشاسعة الفخمة ذات المرمر الأبيض.

أوماً الرجل باقتضاب. "يمكنكِ هذا".

حمل خادِمٌ صناديقَها بسرعة، فتخفَّفت من عبئها ونزلت الدَّرَج الكبير. وقفت في الأسفل، تُجِيل نظرَها هنا وهناك، تحاول أن تنفِض الشعور المُزعِجَ أنها بشكل ما أخفقت قبل أن تبدأ.

لقد ذكر القسِّيس لامبرتِ عدَّة مرَّاتٍ مدى ثراء عائلة مونتراشيه ومنزلتهم خلال زيارته إلى والدي أدالين. وأخذ يُكرِّر بصدقٍ كم كان شَرَفًا للأبرشية كلها أن يتمَّ اختيار أحدٍ منهم للقيام بهذا العمل المهم، فقد بحث قسِّيس كورنوال كثيرًا، بناءً على أوامر سيدة المنزل، لاختيار أفضل مرشَّحة، والأمر متروك إلى أدالين لإثبات أنها تستحقُّ هذا الشرف العظيم. بالإضافة إلى الأجر السَّخِيَّ تعويضًا لأبويها عن خسارتهما. اعتزمت أدالين على النجاح. طوال الطريق من يوركشر⁽¹⁾ أَلقت على نفسها محاضرات صارمةً صغيرةً في موضوعات مثل "الجوهر

(1) مقاطعة في شمال شرق إنجلترا.

يُغني عن المظهر" و"السَيِّدَةُ الْمُهَذَّبَةُ بأفعالها وليس بمظهرها" لكن داخل المنزل ذبلت تلك المبادئ وتلاشت تدريجيًّا.

سمعت جلبة من فوقها فنظرت إلى السماء، وأبصرت سِرْبًا من الغربان السود يرسمون شكلًا مُعَقَّدًا، وقد انحرف أحدهم عن المسار قبل أن يلحق بالآخرين نحو أشجارٍ بِاسِقَةٍ بعيدة. تَبِعْتَهُم أَدالين، وهي تُكْرِّرُ على نفسها طيلة الطريق دروسًا حول البدايات الجديدة والمُضَيِّ قُدْمًا. كانت مستغرقةً في محاضراتها فلم تَلْحَظْ حدائق بلاكهرست المُدهِشَة. وقبل أن تبدأ في دروسها عن المكانة الاجتماعية والأرستقراطية، وجدت نفسها تقف على حافة جُرفٍ صخريٍّ، والأعشاب الجافَّة تُخْشِخِشُ عند قَدَمَيْهَا. ووراء الجرف امتدَّ البحر الأزرق العميق كقطعة مخمَلٍ.

تَشَبَّثَتْ أَدالين بفرع شجرة قريب. كانت نبضات قلبها تتقافز؛ لم تكن مُعتادةً على المرتفعات.

شيء في البحر جذب انتباهها نحو الخليج الصغير. شابٌّ وشابَّةٌ في قارب صغير، كان جالِسًا بينما وَقَفَتْ تُورِجُ القارب من جَنبٍ إلى جنب، وقد ابتلَّ فستانها الموصلِي الأبيض من كاحليها حتى خصرها، والتصق بساقيها بطريقةٍ جَعَلَتْ أَدالين تَشْهَقُ.

شعرت أنَّ عليها أن تغادر، لكن لم تستطع إبعاد عينيها عنهما. كان شعر الشابَّة الأحمر اللامع طويلًا مُسْتَرَسِلًا، مُبْتَلِّ الأطراف. وكان الشاب يرتدي قُبْعَةً قَشُّ، وحول عنقه جهاز أسود على شكل صندوق. كان يضحك، ويقذف بالماء في اتجاه الفتاة. ثم شرع يزحف نحوها، ومدَّ يده ليمسك قدميها. تأرجح القارب بعنف، وحينما ظنَّت أَدالين أنه سيلمسها، أدارت الفتاة ظهرها وغاصت في المياه بحركة سلسلة طويلة.

لم تكن أَدالين جاهِزَةً لهذا السلوك. ما الذي يدفع شابَّةً إلى فعل ذلك؟ وأين هي الآن؟ مالت أَدالين إلى الأمام لترى. حدَّقَتْ في المياه

المتلألئة حتى ظهر شخص يرتدي الأبيض، ينزلق إلى السطح بالقرب من صخرة سوداء كبيرة. خرجت الفتاة من البحر، وقد التصق الفستانُ بجسدها، وأخذت المياه تقطر منه، ودون أن تدير ظهرها تسلَّقت الصخرة واختفت في مَمَرٍ مَخْفِيٍّ في التل المنحدر، نحو كوخ صغير على قِمَّة الجُرف.

حاولت أدالين أن تتحكَّم في أنفاسها المتقطعة؛ فحوَّلت انتباهها إلى الشاب، بالتأكيد كان هو الآخر مصدومًا. راقب الفتاة وهي تختفي، وكان يُجَدِّف الآن عَائِدًا بالقارب إلى الخليج الصغير. سَحَبَهُ على الحصى، والتقط حذاه وشرع في تَسَلُّق الدرجات. لاحظت أنه كان يعرج ويتوكأ على عصا.

مرَّ الشاب بالقرب من أدالين لكنه لم يرها. كان يصفر لحنًا لم تعرفه، لحنًا سعيدًا مرحًا مُشْبَعًا بأشعة الشمس والملح. لا يضاها يوركشر الكئيبة التي كانت مُتلهِّفَةً إلى الفرار منها. كان طولُ الشابَّ ضعفَ طول الرجال في بلدها وأجمل منهم.

وقفت وحدها على قِمَّة الجرف، وأدركت فجأة مدى سخونة وثِقَلِ ملابس السَّفَر التي ترتديها. بَدَت المياه بالأسفل بارِدَةً، تَمَلَّكَتْهَا فكرةٌ مُخزِيَةٌ قبل أن تقمعهها. ما هو شعور الغوص أسفل السطح والخروج منه، والمياه تتساقط، مثلما فعلت الفتاة الشابة، مثلما فعلت جورجيانا؟

بعد سنوات عديدة، حينما كانت أم لينوس، العجوز الشمطاء، تحتَضِرُ، اعترفت بسبب اختيار أدالين لتكون تحت رعاية جورجيانا. "كنتُ أبحث عن أكثر فأرةٍ تبعث على السَّام والضَّجَر يمكن العثور عليها، تتمتَّع بدرجة عالية من الوَرَع والتَّدِين، على أمل أن يلتصق بعضه بابنتي. لم أَشُكْ ولو للحظة أن يهرب طائري الغالي وتحتلَّ

فأرّة مكانها. هنيئًا لكِ، لقد رَبَحَتِ في النهاية، أليس كذلك يا ليدي مونتراشيه؟".

وقد رَبَحَتِ فعلاً. جاءت أدالين من أصل مُتواضع، وبالعمل الشاق والعزيمة، شَقَّتْ طريقها في العالم، وفاقَت تَوَقُّعَاتِ أبَوَيْهَا حينما أرسلها إلى قرية مجهولة في كورنوال.

وكان عليها الاستمرار في العمل الدَّوْب، حتى بعد زواجها وحصولها على لقب ليدي مونتراشيه. لقد أَمَسَّكَت دَفَّةَ السفينة بنجاح، ومهما تَنَأَّرَ الطين كانت تحرص ألا يعلِّقَ شيءٌ بعائلتها ومَنْزلها الكبير. ولن يتغيَّرَ هذا. صحيح أن ابنة چورچيانا كانت هنا الآن، وهذا ليس بيدها، لكنها ستبذل أقصى جهدها لإبقاء نظام عزبة بلاكهرست كما كان سابقًا.

لكنها شعرت أن بإقامة إيليزا في بلاكهرست ستكون روز هي الخاسرة بشكل ما. كانت بحاجة إلى التخلُّص من هذا الخوف الصغير.

نَفَضَت أدالين عنها الهواجِسَ التي استمرَّت في وَخزِ جِلْدِهَا، وَرَكَزَت على استعادة رِبَاطَةِ جَاشِهَا. لطالما كانت حسَّاسَةً إزاء كُلِّ ما هو مُتعلِّقٌ بـروز، هذا هو ما تَجْنِيهِ حينما تُنَجِبُ طفلًا عليلاً. بجوارها كان أسكريج الكَلْبُ يَنْئُ. كان مُضْطَرِبًا أيضًا طوال اليوم. مَدَّت يدها وربتت على الرأس البارز وهي تقول: "صَه. سيكون كل شيء على ما يرام". فَرَكَت حاجبيه المرفوعين، "سأحرص على هذا".

لم يكن هناك شيء لتخاف منه، فما الخطر الذي يمكن لهذه الفتاة الدخيلة النحيلة ذات الشعر الأصهب والجلد الشاحب القادِمة من أكواخ لندن الفقيرة- أن تُمَثِّلَهُ لأدالين وعائلتها؟ حمدًا لله أنها لم تُشَبِّهِ چورچيانا في شيء. ربما لم تكن هذه المشاعر المضطربة خوفًا على الإطلاق، بل راحة؛ إنها واجهت أسوأ مخاوفها وبتدَّتْها. بوصول إيليزا شعرت أخيرًا بالراحة لمعرفة أن چورچيانا ماتت حقًا، ولن تَعُودَ قَطُّ،

ومكانها طفلةٌ مُشرّدةٌ لا تملك شيئاً من قوى والدتها الغريبة التي تُخضعُ بها الناسَ بسهولة كبيرة.

انفتح الباب، وسمح بهبّةٍ هوائٍ تتصارعُ مع النيران.
"العشاء جاهز يا سيدتي".

لكم تكره توماس، تكرههم جميعاً. فبرغم خضوعهم أمامها، تعرف كيف يفكرون فيها دائماً.

"السيد؟" جاء صوتها البارد الأمر.

"لورد مونتراشيه في طريقه من الغرفة المُظلمة يا سيدتي".

الغرفة المُظلمة التّعسّة، بالطبع هذا مكانه. كانت قد سمعت عربته تُصلصُ على الممرّ بالخارج، وهي تتناول على مَضِضِ الشاي مع د. ماثيوس. وأرهفت إحدى أذنيها تنتظر سماعَ مشيةِ زوجها على الرُدْهة، ثقيلة، خفيفة، ثقيلة، خفيفة، لكن لا شيء. كان لا بُدَّ أن تُخمن أنه ذهب مباشرة إلى غرفته المُظلمة اللعينة.

كان توماس ما زال يُراقبها، فاستعادت ملامحها الهدوء. إنها تُفضّل أن تعاني على يد الشيطان نفسه، عن أن تمنح توماس الرضا لملاحظة تفكك زواجهما. قالت، وهي تلوّح بمعصمها: "اذهب وأشرف شخصياً على تنظيف حذاء السيد من الطين الاسكتلندي البغيض".

حينما وصلت أداين إلى المائدة كان لينوس جالساً، وقد شرع في تناول حسائه. لم ينظر إليها، بل انهمك في تأمل صور بالأبيض والأسود موضوعة على طرف المائدة الطويلة: صور طحالب، وفرشات، وقرميد، مغانم أحدث رحلاته.

حينما رآته، شعرت أداين بالسخط. ماذا سيقول الآخرون لو علموا أن مائدة عشاء بلاكهرست يحدث عليها هذا؟ نظرت بشك نحو توماس والخادم، الواقفين عند الجدار البعيد. لكن أداين لم تكن حمقاء، عَلِمَت أن وراء ملامحهما المحايدة انهمك ذهناهما في الحُكم والملاحظة، يتهيئان للثرثرة مع رفاقهما في المنازل الأخرى عن مدى انحدار السلوك في عزبة بلاكهرست.

جَلَسَت أداين بتصلبٍ في مكانها، وانتظرت الخادم أن يضع الحساء أمامها. ارتشفت مقداراً ضئيلاً أحرق لسانها. وراقبت لينوس، ورأسه مَحْنِيًّا على الصور الفوتوغرافية يتفحصها. كانت الرُقعة الصغيرة في قمة رأسه تتضاءل، وبدت كعُشٍّ صغير جديد لعصفور.

"الفتاة هنا؟" سأل دون أن يرفع رأسه.

شعرت أداين بوخز في جلدها. الفتاة التَّعَسَة. "أجل".

"هل رأيتها؟".

"بالطبع. إنها تقيم بالطابق العلوي".

أخيراً رفع رأسه، وأخذ رشفةً من النبيذ. ثم رشفة أخرى. "وهل هي... هل تشبه...؟".

جاء صوت أداين البارد: "كَلَّا. كَلَّا، لا تشبهها"، كَوَّرت قبضتها في حجرها بِشِدَّة.

جذب لينوس نَفْسًا قصيراً، وقطع قطعةً من الخبز وشرع يأكلها. تحدّث بقمٍ مليء، بالتأكيد نكايَةً فيها. "قال مانسيل هذا".

لو أرادت أن تلقي باللوم على أحدهم لوصول الفتاة سيكون هنري مانسيل. ربما سعى لينوس إلى عودة چورچيانا، لكن مانسيل هو مَنْ أبقى الأمل مُتَّقِدًا. كان المُحَقِّق، ذو الشارب الكَثِّ والنظارة الأنيقة، يأخذ الأموال من لينوس ويرسل إليه تقاريرَ مُعتادةً. كانت أداين

تدعو كل ليلة أن يفشل، وأن تبتعد چورچيانا، وأن يتعلم لينوس أن يدعها وشأنها.

"هل كانت رحلتك جيدة؟" سألته أدالين.

لم يرّد. ركّزت عيناه على الصور مجددًا.

منعها كبرياؤها من إلقاء نظرة جانبية أخرى على توماس. ورسمت على وجهها الهدوء، ونجحت في تناول ملعقة أخرى مليئة بالحساء، الذي برّد الآن. رَفُضَ لينوس لأدالين كان موضوعًا، والذي شرع في ابتعاده بعدَ زواجهما على الفور، لكن إنكاره التام لروز كان شأنًا مُختلفًا. كانت طفلةً، تجري في عروقها دماؤه، ودماء عائلته النبيلة. كيف يظل بعيدًا هكذا، لم تفهم أدالين.

"د. ماثيوس كان هنا اليوم مجددًا. عدوى أخرى".

رفع لينوس عينيه اللتين غَشِيَتَهُمَا لا مبالة. وتناول لُقْمَةً أخرى من الخبز.

"لا شيء خطير، حمدًا لله" قالت أدالين متشبّثةً بنظرته المرفوعة. "لا حاجة إلى القلق الكبير".

ابتلع لينوس قطعة الخبز، ثم قال بجمود: "سأتوجّه إلى فرنسا غدًا. ثمة بوابة في نوتردام... " تلاشت جُمْلَتُهُ، وهو يشعر أنه تمادى في إطلاع أدالين على تحركاته.

ارتفع حاجب أدالين الأيسر قليلًا، قبل أن تعيده إلى وضعه الطبيعي مجددًا. "رائع" قالت وهي تزيح شَفَتَيْهَا إلى الوراء في ابتسامة مُحكّمة، وتُحاولُ مَحَوَ صورةٍ قَفَزَتْ بَغْتَةً: لينوس في القارب الصغير، يُصُوبُ كاميرته نحو جَسَدٍ يرتدي الأبيض.

(27)

تريجيننا، 1975

كانت هناك، الصخرة السوداء التي حكي عنها ويليام مارتن. من قِمة الجرف، راقبت نيل الزَّبَد الأبيض للبحر يتموِّج بالأسفل قبل اندفاعه في الخليج الصغير وابتلاع المَدِّ له. لم يأخذ منها الأمر كثيرًا لتخيُّل الخليج الصغير مكانًا للعواصف الهوجاء، والسُّفُن الغارقة، وعمليات التهريب في منتصف الليل.

قُبالة قِمة الجُرف انتصب صَفٌّ من الأشجار كالجنود، يحجب عنها منزل بلاكهرست، منزل والدتها.

وَضَعَتْ يديها داخل جيبي معطفها. كانت الرياح قويَّة هنا بالأعلى، وحاوَلت بكل قوتها المحافظة على توازنها. كان عُنُقها مُخَدَّرًا، ووجنتاها دافئتين بسبب احتكاك الرياح بها، وباردتين بسبب النسيم. التفتت لتتبع المَمَرِّ، الذي تناثرت فيه الأعشاب، والممتدَّ إلى حافة الجُرف. لم يَطُل الطريق، وكان السبيل ضيقًا. سارت نيل بحرص؛ فقد

كانت ركبناها مُتورَمَّتَيْنِ وبهما كدمات بعد محاولة الدخول الخرقاء إلى عذبة بلاكهرست في اليوم السابق. كانت قد ذَهَبَتْ وهي تنوي تسليمَ خطابٍ تقول فيه إنَّها تاجرَةٌ تُحَفِّ قَادِمَةٌ من استراليا، وتطلب زيارة المنزل في وقتٍ مناسبٍ لمالكيه. لكن حينما وقَّفت بجوار البوَّابات المعدنية الطويلة، استحوذ عليها شيءٌ ما، حاجة قوية للتَّنْفُس. وفي اللحظة التالية تجاهَلت وَقَارَهَا، وتسلَّقت بشكلٍ أُخرَقَ البوَّابَةَ، مُحاولَةً إيجادَ موطنٍ قَدَمٍ في الثنايا المعدنية المزخرفة.

كان سلوكًا سخيِّفًا لامرأةٍ تبلغ نصف عمرها، لكنَّها فَعَلَتْه. كانت فكرة وقوفها بالقرب من منزل عائلتها، مسقط رأسها، وحرمانها حتى من نظرةٍ خاطِفةٍ أمرًا لا يُحتمل. لكنها ندمت على ذلك حينما أدركت أن رشاقتها الجسدية لا تتناسب مع مُثَابَرَتِهَا. شعرت بالخجل والامتنان في نفس الوقت حينما رأتها بالصدفةٍ جوليا بينيت. والحمد لله أن مالِكةَ بلاكهرست الجديدة تَقَبَّلَتْ تفسير نيل ودعتها إلى إلقاء نظرة.

كان شعورًا غريبًا أن ترى المنزل من الداخل. غريبًا، لكن ليس بالطريقة التي تَوَقَّعْتَهَا. وخَيِّمَ عليها صمْتُ التَّوَقُّع. مَشَتْ عبر المدخل، وصعدت الدرج، وألقت نظرة على مداخل الغرف، وهي تُخِبِرُ نفسها مِرارًا: لقد جَلَسَتْ أُمُّكِ هنا، مَشَتْ هنا، أَحَبَّتْ هنا. وانتظرت أن تطلق جدرانُ المنزل بعضَ موجات التَّعَرُّفِ عليها لتغمرها، وانتظرت أن يعترف جزءٌ سحيق من ذاتها أنها كانت في بيتها. لكن ذلك لم يحدث. بالطبع تَوَقَّعُ أحمق، وليس من طبيعة نيل مُطلقًا. لكنه كان موجودًا. حتى أكثر الأشخاص واقعيَّةً سيقعون أحيانًا صَحِيَّةَ الاشتياق لشيءٍ آخر. والآن بعدما رأت الأصل يمكنها إضافة نسيج ملموسٍ للذكريات التي كانت تحاول إعادة بنائها، تتخيَّل محادثات حدثت في الغرف الحقيقية.

على العشب اللامع الطويل وقع نظرها على عصا طولها مناسب. ثمة شعور لطيف بشكل لا يوصف في المشي بهذه العصا؛ إنها تُضفي شعوراً من المثابرة والكُدِّ إلى رحلة المرء، بالإضافة إلى تخفيفها من الضَّغط على رُكبتَيْهَا الْمُتَوَرِّمَتَيْنِ. مَدَّتْ يدها لتلتقطها واستمرت تسير بحرص على المنحدر، بعد الجدار الحجري الطويل. كانت هناك لافتة على البوابة الخارجية، تقع بالضبط فوق لافتة أخرى تُهدِّدُ الْمُعْتَدِينَ، كُتِبَ عليها (للبيع)، ثم رقم هاتف.

إذن هذا هو الكوخ الذي ينتمي إلى عزبة بلاكهرست، والذي ذكرته جوليا بينيت في اليوم السابق، والذي تمنى ويليام مارتن لو يُحْرِقُهُ عن بَكْرَةَ أبيه، والذي شَهِدَ أشياء "لم تكن مناسبة". استندت نيل على البوابة. على ما يبدو لا يوجد به شيء يوحي بالتهديد. كانت الحديقة مُفْرِطَةً في النمو، وقد انسكب الغَسَقُ الوشيك في كل زاوية، مستعداً ليل في البُقَعِ الْمُعْتِمَةِ الباردة. كان هناك مَمَرٌ ضَيِّقٌ يقود نحو الكوخ قبل أن ينطلق يساراً نحو الباب الرئيسي ويستمر في طريقه المُتَعَرِّجِ عبر الحديقة. بالقرب من الجدار البعيد انتصب مَثَالٌ وحيد مُغَطَّى بالأشْنِ الحَضْرَاءِ. صَبِيٌّ عارٍ صَغِيرٌ في منتصف بقعة مليئة بالأزهار، عيناه الواسعتان مُلْتَفِتَتَانِ للأبد نحو الكوخ.

كلًا، لم تكن بُقَعَةٌ مليئةً بالأزهار، بل كان الصبي يقفُ في بِرَكَةِ أَسْمَاكِ.

جاء التصحيح سريعاً ومُؤَكِّدًا؛ ممَّا أدهش نيل، حتى أنها أمسكت بقوةِ البوَابَةِ المُوَصَّدةِ. كيف عرفت؟

ثم أمام عينها تغيَّرت الحديقة. الحشائش والعُليق، عشرات السنين من النمو، تراجعت. أوراق مرفوعة من الأرض، تكشف مَمَرَاتٍ، وأحواضَ زهورٍ، ومقاعد حديقة. دخل الضوء مرة أخرى، وألقى ببُقَعِ ضوئية على سطح البركة. ثم وجدت نفسها في مكانين في آنٍ واحد:

امرأة في الخامسة والستين بِرُكْبَةٍ تُؤْلِمُهَا، تتشبَّث ببوَابَةٍ صَدِئَةٍ...
وظفلة، ذات جدائل طويلة مسترسلة على ظهرها، تجلس على عشبٍ
بارد طري، وتتدلَّى أصابع أقدامها في البركة...

السمكة المكتنزة تخرج فجأة إلى السطح مجدِّدًا، ببطن ذهبي
لامع، والطفلة تضحك بينما تفتح فمها وتقرض أصبع قَدَمِهَا الكبير.
أحَبَّت البركة، كانت تريد واحدةً في المنزل، لكن ماما كانت خَائِفَةً
من أن تسقط وتغرق. كانت ماما تخاف كثيرًا، خصوصًا فيما يتعلَّق
بالفتاة الصغيرة. لو عَلِمَت ماما أين هُما اليوم، سوف تغضب جدًّا.
لكن ماما لا تعرف، كانت تمرُّ بيومٍ سيِّئٍ آخر من أيامها، كانت ترقد
في مخدَعِهَا الْمُظْلِمِ، وَمِنْشَفَةً رَطْبَةً على جبهتها.

سَمِعَت الطَّفْلَةَ صوتًا فرفعت رأسها. لقد خرجت السيدة ومعها
بابا. وَقَفَا لوهلة، وقال بابا شيئًا إلى السيدة، شيئًا لم تستطع الطفلة
سَمَاعَهُ. لمس ذراعها، وشرعت السيدة تتقدَّم قليلًا. كانت تراقب
الطفلة بطريقة غريبة، طريقة ذكَّرتها بِتَمَثَالِ الصَّبِيِّ الذي يقف في
البركة طيلة اليوم، لا يطرف جفناه قط. ابْتَسَمَت السيدة، ابتسامَةً
سحرية، وسحبت الطفلة قدميها من البركة وانتظرت، انتظرت،
مُتَسَائِلَةً ماذا ستقول السيدة...

طار غرابٌ بالأعلى قريبًا منها، وعاد معه الزمن. تَشَكَّلَت مرَّةً
ثانية نباتاتُ العُلْيُقِ واللبلاب، وتساقطت الأوراق، وعادت الحديقة
مُجَدِّدًا مكانًا رطبًا مُبَلِّغًا بالندى تحت رحمة الغسق. وصار تمثال
الصبي أخضر اللون بفعل الزمن.

شعرت نيل بِالْمِ في مفاصلها. تركت قبضتها البوابة وراقبت
الغراب، جناحان عريضان يضربان الهواء وهو يُحَلِّق نحو قَمَّةِ أشجار
بلاكهرست. في الغرب مجموعة من السُحُبِ أُضِيَّت من الخلف

وتوهَّجَت بلونٍ وَرديٍّ في السماء المُظلمة. رمقت نيل بذهولٍ حديقة الكوخ. اختفت الفتاة الصغيرة. أم هي التي اختفت؟
وبينما كانت نيل ممدُّ العصا أمامها مُتهيئةً للعودة إلى القرية، رافقها شعور مُزدوجٌ غريب -ولكن مُحبَّب- طيلة الطريق.

(28)

عزبة بلاكهرست، 1900

في صبيحة اليوم التالي، بينما أخذ ضوءٌ شتويٌّ شاحبٌ يتموِّج على زجاج نافذة غرفة الأطفال، مَلَسْتُ روز على أطراف شَعْرِهَا الأسود الطويل. كانت السيدة هوبكنز قد مَشَّطَتْه حتى لمع، بالطريقة التي تُحِبُّهَا روز، واسترسل على فستانها الرائع، الذي جَلَبْتَهُ من باريس. شعرت بالإرهاق والسخط قليلاً، لكن كان هذا دأبها. لا يُتَوَقَّع من الفتيات الصغيرات ذوات البنية الضعيفة أن يَكُنَّ سعيداتٍ طيلة الوقت، وروز لن تسير عكس هذا الاتجاه. كانت تحب أن يتصرَّف الناس من حولها بحرص شديد؛ فحينما يشعر الآخرون بالتوتر قليلاً يجعلها ذلك أقلَّ بُؤْسًا. بالإضافة إلى أن لديها أسبابًا للشعور بالتعب اليوم. لقد استيقظت طيلة اليوم، تتقلَّب مثل أميرة البازلاء، لكن لم

تكن الحَبَّةُ أسفلَ الحشايا هي التي أبقثها مُسْتَيْقِظَةً⁽¹⁾، بل الأخبار المدهشة التي قالتها أمها.

بعدما غادرت الأم غرفتها، أخذت روز تفكّر في طبيعة الإساءة التي لحقت بسمعة عائلتها، بالأدق الفاجعة التي تَلَّتْ هروب عَمَّتِهَا جورجيانا من المنزل والعائلة. طففت تفكّر طوال الليل في العمّة الشريرة، ولم تتبخّر الأفكار حتى مع تباشير الصباح. استغرقت في التفكير خلال الإفطار، ولاِحِقًا بينما تقوم السيدة هوبكنز بإلباسها، وحتى الآن وهي تنتظر في غرفة الأطفال. كانت تراقب اللهب يخفق على قرميد المدفأة الشاحب، وهي تتساءل إن كانت الظلال البرتقالية الدّاكِنَة تُشِبُّه الباب المُفْضِي إلى الجحيم والذي ستعبر من خلاله عَمَّتُهَا بالتأكيد، حينما سمعت فجأةً وقعَ أقدامٍ في الرُّواق!

كادت روز تَثْبُ من مقعدها، ومَلَّسَتْ على البطانية الصوفية الموضوعة على ركبتيها، وبسرعةٍ استعادت هدوء وجهها مثلما تعلّمت من أمها. أعجبها الحماس القليل الذي تَسَلَّلَ أسفل عمودها الفقري. يا لها من مسؤوليّة كبيرة! فقد عُهِدَ إليها بتلك الفتاة المُتَمَرِّدَة اليتيمة لكي تعيد تشكيلها على صورتها الخاصّة. لم يكن لدى روز صديقة من قبل، ولم يُسَمَحْ لها بحيازة حيوانٍ أليف من أي نوع (كانت أمها قَلِقَةً من داء الكلب). وبرغم تحذيرات الأم، عقدت آمال كبرى على ابنة عَمَّتِهَا هذه. سوف تُحوّلها إلى ليدي، وتغدو رفيقَتَها. ستصير شخصًا يمسح جبهتها حينما تتعب، ومُؤَسِّد يدها عندما تتضايق، ومُشَطُّ شعرها حينما تنزعج. ستكون في غاية الامتنان لتعليمات روز، وفي غاية السعادة لِمَنْحِهَا لمحات من آداب السيدات النبيلات، وستتمثل لأوامرها. ستغدو صديقةً مثاليّةً، لا تُجَادِلُ، لا تتصرّف بطريقة مُضْجِرَة، ولا تتجاسر على مخالفة رأيها.

(1) قصة خيالية يُعتقد أنها من الفلكلور الإسكندنافي، نشرها هانز كريستيان أندرسن عام 1835.

انفتح الباب، وطققت النيرانُ بَظاظَةً من الإزعاج، وسارت الأم في الغرفة، وجولتها الزرقاء تُصدِرُ حفيفًا. ثَمَّةً تَغْيِرُ في أسلوب الأم اليومَ جَدَبَ انتباه روز، وضع ذقنها يشير إلى أن هواجسها حول المشروع كان أكبرَ وأكثرَ تنوعًا ممَّا بدأ. "طاب صباحك يا روز" قالت باقتضاب.

"طاب صباحك يا ماما".

"اسمحي لي أن أقدم لك ابنة عمتك" ثم توقفت لهنيهة. "إيليزا".

ومن مكان ما خلف جولة الأم، دُفعت إلى الأمام الفتاة النحيلة التي ملحتها روز من النافذة في اليوم السابق.

لم تَسْتَطِعِ روز أن تكبح جماح نفسها، وتراجعت قليلًا إلى الذراعين الأيمنين لمقعدها. انزلقت نظرتها من الأعلى إلى الأسفل تتفحص شعر الطفلة القصير الأشعث، وملابسها المزخرفة الشنيعة (بنطلون قصير!)، ورُكبتَيْها البارزتين وحذاءها البالي. لم تنبس ابنة العمّة ببنت شفة، بل حدّقت فيها بعينين واسعتين؛ ممَّا جعل روز تشعر أنها وقاحة كبيرة. كانت الأم مُحِقَّةً. هذه الفتاة (لأنه بالطبع لا تتوقّع أن تفكّر فيها على أنها ابنة عمتها!) حرّمت من أبسط آداب السلوك.

استعادت روز تعبيرها المحايد، ثم قالت بصوت ضعيف إلى حدّ ما: "كيف حالك؟". لكن إيماءة من ماما طمأنتها أن أداءها كان جيّدًا. انتظرت تحيّيها، لكن لم يأتِ شيء. نظرت روز إلى الأم التي أشارت إلى أن تستمر. فحاولت مُجددًا: "وأخبريني يا ابنة عمتي إيليزا، هل تستمتعين بوقتك هنا معنا؟".

نظرت إيليزا إليها كما ينظر المرءُ إلى حيوانٍ غريب عجيب في حديقة حيوان لندن، ثم أومأت.

صوتٌ وَقَعَ أقدام في الرُواقِ منح روز مُهلّةً من إلقاء المزيد من المُجَامَلات على ابنة العمّة الغريبة الصامتة هذه.

جاء صوت السيدة هوبكنز من الباب وهي تقول: "آسفة لمقاطعتك يا سيدتي. د. ماثيوس بالأسفل في الغرفة الصباحية، يقول إنه جلب الصبغة الطبيّة الجديدة التي أرسلت في طلبها".

"دعيه يتركها يا سيدة هوبكنز. لديّ أمورٌ أخرى تستدعي وجودي حالياً".

"بالطبع يا سيدتي، وقد أخبرته بذلك، لكنه كان صارماً بخصوص إعطائك إيّاها شخصياً".

اختلجت رموش الأم بشكل طفيف للغاية، لا يلاحظها سوى من قضى عمره في مراقبة حالتها النفسية. قالت بتجهمٍ: "شكراً لك يا سيدة هوبكنز. أخبري د. ماثيوس أنني سأحضر على الفور".

وبينما تلاشى وقع أقدام السيدة هوبكنز في الرواق، التفتت الأم إلى إيليزا، وقالت بصوتٍ واضحٍ أمر: "ستجلسين صامتةً على السجاد، وتستمعين بحرصٍ لروز وهي تُعلّمك. لا تتحرّكي، ولا تتكلّمي، ولا تلمسي شيئاً".

"لكن يا ماما... لم تتوقّع روز أن تُترَك بمفردها بهذه السرعة.

"هلاً بدأتِ دروسك بإرشاد ابنة عمّتك بخصوص ارتداء الثياب المناسبة؟".

"كما تأمرين يا ماما".

ثم تراجعَت الجونلة الزرقاء المتموّجة، وأغلق الباب، وتوقّفت نيران الغرفة عن النَّفث. التقت عيونهما. كانتا سويّاً بمفرديهما وسوف يبدأ العمل.

"ضعي هذا. ضعيه فوراً". لم تَسِرِ الأمور كما تخيَّلتِ روز على الإطلاق. لم تستمع الفتاة، ولم تُطِعْ، ولم تَرْتَدِعْ حتى حينما هَدَّدَتْها بغضب الأم. لخمس دقائق كاملة أخذت إيليزا تتجوَّل في غرفة الأطفال، تلتقط الأشياء، وتفتحصها، وتضعها مُجدِّداً، تارِكَةً - بلا شك - بصماتٍ أصابعها اللزجة في كُلِّ مكان. في تلك اللحظة كانت تهزُّ مشكَّالاً أرسلته إحدى قريبات أبيها في عيد ميلادها في أحد الأعوام. صاحت روز بحدَّة: "هذا ثمين. إنني أصرُّ على أن تتركه. إنك حتى لا تتعاملين معه بالشكل الصحيح".

أدرَكتِ روز أنها تفوَّهت بشيء خاطئٍ متأخراً جداً. فقد اقتربت ابنة العمَّة منها، وهي ترفع المشكَّال. اقتربت للغاية حتى أن روز ملحت القذارة أسفل أظافرها، القذارة التي تخشاها، والتي أخبرتها أمُّها أنها ستجلب لها المرض. دُعِرتِ روز، وانكَمَشَتْ في مقعدها، ودار رأسها. وأخيراً تمكَّنت من التكلُّم: "لا، ابتعدي".

توقَّفت إيليزا عند ذراع المقعد، وبدا أنها ستجلس هناك على القטיפيَّة. مَدَّتِ روز يَدًا ضعيفةً شاحِبَةً: "قلْتُ لكِ ابتعدي. ألا تفهمين الإنجليزية؟ لا يجب أن تجلسي بجواري".

"لم لا؟"

إذن تملك لساناً. "أنت كنتِ بالخارج. لستِ نظيفة. ربما ألتقطُ منك شيئاً"، ثم انهارت على الوسادة وهي تقول: "أشعر بدوارٍ شديد، إنه خَطْوُك".

قالت إيليزا ببساطة خالية من التَّوسُّل: "ليس خطئي. أنا أيضاً أشعر بالدوار. هذه الغرفة حارَّة كأتون".

تشعر بالدوار أيضاً؟ خرسِتِ روز. كان الدُّوارُ سلاحها الخاص. وما الذي تفعله ابنة العمَّة الآن؟ نهضت مُجدِّداً، وتحركت نحو نافذة الغرفة. راقبَتْها روز، بعينين مُتَّسِعَتَيْنِ هلَعًا. بالتأكيد هي لا تنوي أن...

"سأفتح النافذة" هزّت إيليزا القفل الأول لتحرّره. "ثم سنكون بخير".

اجتاح الرعبُ روز فقالت: "لا، لا!".

"ستشعرين بتحسُنٍ أكبر".

"لكِنّنا في فصل الشتاء. والجوُّ بالخارج مُظلمٌ ومليء بالغيوم. ربّما أُصاب بالبرد".

هزّت إيليزا كتفيها وهي تقول: "وربّما لا".

صُدِمت روز بوقاحة الفتاة حتى أن غضبها فاق خوفها، فقالت بصوتٍ كصوت أمها: "أمركِ بأن تتوقّفي".

جعّدت إيليزا أنفها، وبدا أنها تُحاولُ فهم الأمر. وبينما كتّمت روز أنفاسها، ابتعدت يدا ابنة العمّة عن قفل النافذة. ثم هزّت كتفيها مُجدّدًا، لكن هذه المرة بطريقة أقلّ وقاحة. وبينما عادت إلى منتصف الغرفة، لاحظت روز إحباطًا في كتفي إيليزا. أخيرًا، توقّفت الفتاة في منتصف السجاد، وأشارت إلى المشكال الموضوع على حجر روز. "هل يُمكن أن تُريني كيف يعمل؟ المنظار؟ لا أرى خلاله أيّ شيء".

زفّرت روز بتعبٍ وارتياح وارتباك من هذه المخلوقة العجيبة. حقًا! هل تُوجّه انتباهها إلى هذا الشيء الصغير السخيف مُجدّدًا بهذه البساطة؟! برغم ذلك، كانت ابنة العمّة مُطيعّة، وبالتأكيد تستحقُّ بعض التشجيع الصغير. قالت روز بتكلّفٍ: "أولًا، هذا ليس منظارًا على الإطلاق. بل مشكال. ليس من المُفترض أن تَرَي من خلاله. بل تديرينه وتنظرين إلى الداخل والشكل يتغيّر". رفعته إلى الأعلى وقامت بتجربته، ثم وضعتَه على الأرض ودحرجته نحو ابنة عمّتها.

التقطته إيليزا ووضعتَه على عينها، أدارت طرفه. وبينما خشخت قِطْعُ الزُجاجِ الملوّن هنا وهناك، اتّسعَت ابتسامتها حتى تحوّلت إلى ضحك.

نظرت لها روز بدهشة. لم تسمع ضحكًا كثيرًا من قبل. أحيانًا تسمعه من الخَدَمِ حينما يعتقدون أنها ليست بالقرب منهم. كان صوت الضحكة جميلًا، وعابثًا، وخفيًا، ومَرِحًا، وهادئًا- على النقيض من مظهرها.

سألتها روز: "لماذا ترتدين هذه الملابس؟".

ظَلَّتْ إيليزا تنظر في المِشْكال. ثم قالت أخيرًا: "لأنها ملكي، إنها تخصني".

"تبدو كأنها ملابسُ صبيِّ".

"أجل، كانت كذلك في يومٍ ما. والآن هي ملكي".

وأدهش هذا روز. إن الأشياء تبدو أكثر غرابَةً مع كل دقيقة مَرُّ. "أَيُّ صَبِيِّ؟".

لم تَأْتِهَا أَيُّ إجابة، فقط صوت الزجاج الملون في المِشْكال.

قالت بصوت أعلى هذه المرة: "سَأَلْتُكَ: أَيُّ صَبِيِّ؟".

أخفضت إيليزا ببطء اللعبة.

"تجاهلُ النَّاسِ سُلُوكُ سَيِّئٍ".

"لا أَتْجَاهَلُكَ" قالت إيليزا.

"إِذْنِ لِمَاذَا لا تُجِيبين على سؤالي؟".

هَزَّتْ كَتْفَيْهَا مُجَدِّدًا.

"من الوقاحة أن تهزِّي كتفيك بهذه الطريقة. حينما يتحدث أحدهم إليك، يجب أن تَرُدِّي عليه. والآن أخبريني، لماذا تتجاهلين سؤالي؟".

حَمَلَتْ إيليزا فيها. وبينما راقبتها روز، شيء تَغَيَّرَ في وجه ابنة العمّة. بريقٌ لم يكن موجوداً لمع الآن في عينيها. "لم أتكلّم لأنني لا أريدها أن تعرف أين أكون".

"مَن هي؟".

بحرصٍ وببطءٍ اقتربت إيليزا قليلاً وقالت: "ابنة الخال الأخرى".

"أي ابنة خال؟" إن الفتاة تتكلّم كلاماً غير مفهوم. وبدأت روز تظنُّ أنها كانت بلهاء حقاً. "لا أعرف ما الذي تتحدّثين عنه. ليست هناك ابنة خال أخرى".

"إنها سرٌّ. إنهم يحسونها بالأعلى".

"أنتِ تَحْتَلِقين هذا. لماذا يريد أحدهم أن يُخبئها؟".

"ألم يُخبئوني أنا أيضاً؟".

"إنهم لا يحسوتكِ بالأعلى".

"لأنني لا أمثل خطراً". تسلّلت إيليزا على أطراف أصابعها إلى باب غرفة الأطفال، وفتحته قليلاً ونظرت إلى الخارج ثم شهقت. "ما الأمر؟" تساءلت روز.

"صه!" وضعت إيليزا أصبعاً على شفتيها. "لا يجب أن ندعها تعرف أننا هنا".

"لماذا؟" تساءلت روز بعينين مُتَسَعِّتَيْن.

مَشَتْ إيليزا على أطراف أصابعها عائِدةً إلى طرف مقعد روز. ضوء النيران المتراقص في الغرفة المُظلمة مَنَحَ وَجْهَهَا وَهَجًا مُخِيفًا. قالت: "ابنة خالنا الأخرى مجنونة".

"مجنونة؟".

هَمَسَتْ إيليزا حتى أن روز مالت بالقرب منها لتسمع: "مخبولةٌ تمامًا. لقد حُبِسَتْ في العليَّة منذ أن كانت صغيرةً، لكن أحدهم أخرجها".

"مَنْ؟"

"أحد الأشباح. شبح امرأة عجوز، امرأة مُسنَّة للغاية وبدينة".

"جَدَّتِي" همست روز.

"صه! اسمعي! وقع أقدام".

شعرت روز بقلبيها الواهن يتقافز كضفدع في صدرها.

قفزت إيليزا إلى ذراع مقعد روز وهي تقول "إنها قادمة!".

انفتح الباب، وصرخت روز، وابتسمت إيليزا، وشهقت الأم.

"ماذا تفعلين هناك أيتها الفتاة الشريرة؟!" قالت الأم بصوتٍ كالضحك وهي تنقل نظراتها من إيليزا إلى روز. "السيدات الشابات لا يجلسن مُنفرجاتِ الساقين على الأثاث. لقد أخبرتكِ ألا تتحرّكي" ثم تساءلت بأنفاسٍ مسموعةٍ: "هل تأذيتِ يا عزيزتي روز؟".

هزّت روز رأسها وقالت: "كلاً، يا ماما".

لهنيهة، شعرت الأم بالاضطراب قليلاً، حتى أن روز أحسّت أنها ستبكي. ثم أمسكت إيليزا من ذراعها وسارت بها نحو الباب، وهي تقول بصوتٍ حاداً طبيعياً: "فتاة شريرة! لا عشاء الليلة. ولا عشاء في الليالي القادمة. حتى تتعلّمي الطاعة. أنا سيدة هذا المنزل وأنتِ ستمتثلين لأوامري...".

انغلق البابُ مُجدِّداً، وجلست روز بمفردها مرة أخرى، وهي مندهشة من التحوُّل الغريب في الأحداث: الإثارة في قصة إيليزا، والخوف المُمْتِع الغريب الذي تسلَّل إلى عمودها الفقري، والشبح

الرائع المخيف لابنة الخال الأخرى المجنونة. لكن أكثر ما أثار دهشتها هو الشَّرخ الذي ظهر في أسلوب الأمّ الجامد المألوف. ففي تلك اللحظة، بدا أن الحدود المستقرّة لعالم روز ستتغيّر.

لن تعودَ الحياة كما كانت في السابق. وهذه الحقيقة جعلت قلب روز يدقُّ بفرحةٍ خالصةٍ، ومُباغتةٍ، ليس لها تفسير.

(29)

فندق بلاكهارست، 2005

كانت الألوان مُخْتَلِفَةً هنا. لم تَلَحَظْ كساندرا السطوع الاسترالي إلى أن شاهدت ضوء كورنوال الخفيف. وتساءلت كيف يمكنها أن تنقله باستخدام الألوان المائية، وفاجأها هذا التساؤل. أخذت قَضَمَةً من الخبز المَحْمَصَ المدهون بالزبد ومضغتها بَتَمَعُنْ، وهي تنظر إلى صَفٍّ من الأشجار اصطفت عند حافة الجُرف الصخري. أغلقت عينها، ورفعت سبابتها لتتعمق القِمَم.

سقط ظلٌّ على طاولتها وسمعت صوتًا بجوارها يقول: "كساندرا؟ كساندرا ريان؟" كانت امرأةً رشيقة في أوائل الستينيات تقف بجوار الطاولة، ذات شعر أشقر فِضِّيٍّ، وقد وَصَعَت على جفניה ألوانَ ظلالٍ عيون متعدّدة. "أنا جوليا بينيت مالكة فندق بلاكهارست".

مسحت كساندرا أصبعها الملوّث بالزُّبد في منديلٍ، وصافحتها.
"سُررتُ بلقائك".

أشارت چوليا إلى المقعد الشَّاعِر "هل تمنعين...؟".
"كلًّا بالطبع، تفضلي".

جلست چوليا وانتظرت كساندرا بتردُّدٍ، وهي تتساءل إن كان هذا
جُزءًا من الخدمة الشخصية المذكورة في الكُتَيْبِ السياحي.
"أمل أن تكوني مُستمتِعةً بإقامتِك في الفندق".
"إنه مكانٌ رائع".

ابتسمت چوليا فظَهَرَت غمَّازتان. "إنني أرى جدَّتَك فيك. لا بُدَّ
أنكِ سمعت هذا طيلة الوقت". ابتسمت كساندرا بلطف، وهي
تقاومُ سِرْبًا من الأسئلة يبغى التَّحليق، كيف عرَفَت هذه الغريبة
مَن تكون؟ وكيف تعرف نيل؟ وكيف جمَعَت بينهما؟
ضحكت چوليا ومالت إلى الأمام بتأمُرٍ وهي تقول: "أخبرني عصفورٌ
صغير بوصول الفتاة الأسترالية التي ورثت الكوخ. إن تريجينا قرية
صغيرة، إن عَطَسَتِ عند جرف شاربستون سيعلم الناس عند المرفأ".
عرفت كساندرا مَن المقصود بالطائر: "روبن چيمسون".

"كانت هنا بالأمس، تُحاولُ إقناعي بالانضمام إلى لجنة الاحتفال.
لم تَسْتَطِعْ مُقاومةَ الإفصاح عن أحوال القرية. واستنتجت أنكِ على
صِلَةٍ بالسيدة التي زارتني منذ ثلاثين عامًا، وأنقذتني بتخليصي من
الكوخ. لطالما تساءلتُ متى ستعود جدَّتُكِ. لقد أحببتها. كانت إنسانةً
واضحة كطلقة فَنَّا، أليس كذلك؟".

كان الوصفُ دقيقًا حتى أن كساندرا تساءلت ما الذي قالته أو
فعلته نيل لتصفِّها السيدة بذلك.

"حينما التقيتُ بجَدَّتِكَ للمرة الأولى، كانت تتدلى من شجرة ويستريا كثيفةً بالقرب من المدخل الرئيسي".

اتَّسَعَتَ عينا كساندرا: "حقًا؟".

"تسلَّقتَ الجدار الرئيسي وكانت تَجِدُ صعوبةً في النزول إلى الجانب الآخر. لحسن حَظِّها كنتُ قد تشاجرتُ مع زوجي ريتشارد، للمرة السابعة والتسعين في ذلك اليوم، وأخذتُ أمشي في الأرجاء لتهدئة أعصابي. وأظنُّ أنها ظلَّت مُعلَّقةً هناك فترةً ليست بالقصيرة".

"أكانت تحاول أن ترى المنزل؟".

أومات جوليا قائلة: "أخبرتني أنها تاجرَرة تُحَفِّ مهتمةً بالتحف الفيكنتورية، وطلَّبتَ إلقاء نظرة على الداخل".

اجتاحت كساندرا عاطفةً غامرةً نحو نيل وهي تتخيَّلها تتسلَّق الجدران وتتلاعب بالحقائق، وتتشبَّثُ بما تريد. ضحكتَ جوليا قائلةً: "أخبرتُها أنه مُرَحَّبٌ بدخولها بمجرد نزولها عن الشجرة! كان المنزل في أسوأ حال، بعد عشرات السنوات من الإهمال، قُمنا أنا وريك بتجريد الأشياء حتى أنها بدت أسوأ ممَّا كانت عليه، لكنها لم تهتمَّ. أخذت تتجوَّل في المكان وتتوقَّف عند كل غرفة، كأنها تحاول استظهاره".

"أو تذكِّره". تساءلتَ كساندرا عن مقدار ما حكته نيل لجوليا عن سبب اهتمامها. "هل أريتها الكوخ أيضًا؟".

"كلَّا، لكنني مُتيقِّنة أني ذكِّرتُه لها. ثم عَقَدتُ أصابعي مُتمنيَّةً أن تشتريه" ضحكتَ ثم قالت: "مَمَلَّكنا اليأس لعدم وجود مُشترٍ! كُنَّا مُفلسين كما لو أننا حفرنا حُفرةً أسفل المنزل ولألقينا بكل جنيه فيها. عرضنا الكوخ للبيع لفترة طويلة، وكِدنا نبيعه مرَّتَيْنِ إلى أشخاص من لندن يبحثون عن منزلٍ يَقضون فيه العطلة، لكن لم تَبِمَ صفقتا

البَيْع. حَظٌّ سَيِّئٌ. فَمِنَّا بِتَخْفِيزِ السَّعْرِ، وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ أَحَدًا يَرِيدُ شِرَاءَهُ. مَنَاطِرُ رَائِعَةٌ وَلَا أَحَدٌ مُهْتَمٌّ بِسَبَبِ شَائِعَاتِ قَدِيمَةٍ سَخِيفَةٍ."
"خَبَّرْتَنِي رُوبِنُ."

قَالَتْ جُولِيَا بِمَرَحٍ: "عَلَى حَدِّ عِلْمِي، هُنَاكَ خَطْبٌ مَا بِمَنْزِلِكَ فِي كُورْنُوَالِ، وَرَبْمَا كَانَ مَسْكُونًا. لَدِينَا فِي الْفَنْدُقِ شَبَحْنَا الْخَاصِ. لَكِنَّا تَعْرِفِينَهُ بِالْفَعْلِ، سَمِعْتُ أَنَّكَ التَّقَيْتِ بِهَا اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ؟"

ظَهَرَ الْارْتِبَاكُ عَلَى وَجْهِ كَسَانْدْرَا، فَأَرْدَفَتْ جُولِيَا: "أَخْبَرْتَنِي سَامَانَا مَوْظَفَةَ الْإِسْتِقْبَالِ أَنَّكَ بَلَّغْتِ أَنْ أَحَدَهُمْ عَبَثَ بِمِفْتَاحِ فِي بَابِ غَرْفَتِكَ؟"
"أَجَل. ظَنَنْتُ أَنَّهُ نَزِيلٌ آخِرٌ، لَا بُدَّ وَأَنَّهَا كَانَتْ الرِّيحُ. لَمْ أَقْصِدْ أَنْ أُسَبِّبَ أَيًّا...".

"لَقَدْ كَانَتْ شَبَحْنَا". ضَحَكَتْ جُولِيَا حِينَمَا رَأَتْ تَعْبِيرَ الْحِيرَةِ يَعْلُو وَجْهَ كَسَانْدْرَا. "لَا تَفْزَعِي، لَنْ تُوْذِيكِ. إِنَّهَا شَبِحُ طَيِّبٌ. لَنْ أَحْتَفِظَ بِشَبِحٍ شَرِيرٍ".

شَعَرَتْ كَسَانْدْرَا بِأَنَّ جُولِيَا تَتَلَاعَبُ بِهَا. الْأَمْرُ سَيَّانٌ، مِنْذُ وَصُولِهَا إِلَى كُورْنُوَالِ وَهِيَ تَسْمَعُ عَنِ الْأَشْبَاحِ أَكْثَرَ مِمَّا سَمِعَتْ مِنْذُ أَنْ كَانَتْ فِي الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ وَذَهَبَتْ إِلَى أَوَّلِ حَفْلَةٍ مَبِيَّتِ لَهَا عِنْدَ أَصْدِقَائِهَا. جَارَزَتْ قَائِلَةً: "أُظُنُّ أَنْ كُلَّ مَنْزِلٍ عَتِيقٍ يَلْزَمُهُ شَبِحٌ".

قَالَتْ جُولِيَا: "بِالضَّبْطِ، يَتَوَقَّعُ النَّاسُ ذَلِكَ. كُنْتُ سَاطِعَةً شَبِحًا إِنْ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا بِالْفَعْلِ. فَنْدُقُ تَارِيخِيٌّ كَهَذَا... الشَّبِحُ الْمَقِيمُ كَالْمَنَاشِفِ النَّظِيفَةِ؛ مُهْمٌ لِلْغَايَةِ لِلنَّزْلِءِ"، ثُمَّ مَالَتْ إِلَى الْأَمَامِ وَهِيَ تَقُولُ: "بَلْ إِنْ شَبَحْنَا لَدَيْهِ اسْمٌ. رُوزٌ مُونْتَرَاشِيهِ، كَانَتْ تَقْطُنُ هُنَا مَعَ عَائِلَتِهَا فِي مُسْتَهَلِّ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. بَلْ وَمِنْ قَبْلِ ذَلِكَ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْعَائِلَةَ تَعُودُ أَصُولُهَا إِلَى مِائَاتِ السَّنَوَاتِ. إِنَّ لَوْحَتَهَا مُعَلَّقَةً بِجَوَارِ خَزَانَةِ الْكُتُبِ فِي الْبَهْوِ، الْمَرْأَةُ الشَّابَّةُ ذَاتِ الْبَشْرَةِ الشَّاحِبَةِ وَالشَّعْرِ الْأَسْوَدِ. هَلْ رَأَيْتَهَا؟"

هزّت كساندرا رأسها بالنفي.

"يجب أن تريها. لوحة رسمها چون سينجر سارچنت⁽¹⁾ بعد سنوات قليلة من لوحة شقيقات ويندم".

شعرت كساندرا ببرودة في جلدها وقالت: حقاً! چون سينجر سارچنت بنفسه؟".

ضحكت چوليا. "أمرٌ لا يُصدّق، أليس كذلك؟ سرٌّ آخر من أسرار المنزل. لم أدرك قيمتها إلا بعد سنوات قليلة. طلبنا من صديقي من دار كريستيز للمزادات أن يفحص إحدى اللوحات، وتعرّف عليها. إنني أعتبرها مالاً مُدخراً. برغم أنني لا أحتمل الافتراق عنها. كم كانت جميلة روز! وكم كانت حياتها مأساوية! طفلة رقيقة تغلّبت على المرض لتموت في الرابعة والعشرين في حادثةٍ شنيعة". تنهّدت بعاطفية وهي تقول: "هل انتهيت من تناول الإفطار؟ تعالي معي وسوف أريك اللوحة".

كانت روز مونتراشيه وهي في الثامنة عشرة من عمرها فتاةً حسناء بالتأكيد؛ بشرة بيضاء، شعر أسود كثيف مُسترسِل على ظهرها في جديلة فضفاضة، ونهدٌ بارز كان موضةً تلك الفترة. اشتهر سارچنت بقدرته على اقتناص شخصية من يقوم برسمهم. كانت نظرة روز مُفعمّةً بالعاطفة. شفتان حمراوان مسترخيتان في هدوء، لكنّ العينين يَقِظَتان، تنظران بتركيز إلى الفنان. كانت ملامحها جادةً تُناسب ما تخيلته كساندرا لفتاةٍ قَصّت طفولتها بأكملها سجيناً صَحَّتْها العليلة. مالت على اللوحة لتنظر إليها عن كثب. كانت اللوحة مُثيرةً للاهتمام. كانت روز جالِسةً على أريكة، وعلى حِجرها يقبع كتاب.

(1) من أبرز رسامي اللوحات الزيتية في عصر الملك إدوارد.

كانت الأريكة بعيدةً عن الإطار، حتى أن روز كانت في الواجهة الأمامية من الناحية اليمنى وخلفها حائطٌ ملفوف بورقٍ أخضرٍ وتفاصيلٍ أخرى صغيرة. الطريقة التي رُسم بها الحائطُ أعطته شعورٌ أنه باهتٌ وخفيف، انطباعي أكثر من الواقعيَّة المشهور بها سارجنت. وبرغم أنه كان يستخدم هذه التقنيات، بدا هذا أخفَّ من أعماله الأخرى، وأقلَّ دِقَّةً.

"كانت جميلةً، أليس كذلك؟" قالت جوليا، وهي تبتعد عن مكتب الاستقبال.

أومات كساندرا بذهن شارد. كان التاريخ على اللوحة 1907، لم يَمُضِ وقتٌ طويلٌ قبل تَخْلِيهِ عن اللوحات الزيتية. ربما سَئِم حينها من رسم وجوه الأثرياء.

"أرى أنها قد سَحَرَتِكَ أنتِ أيضًا. الآن صِرْتِ تعرفين سببَ حرصي على اعتبارها شَبَحَ الفندق". ضحكت، ثم لاحظت أن كساندرا لم تفعل. "هل أنتِ بخير؟ تبدين شاحِبَةً قليلًا. هل أَجَلِبُ لِكَ كَوْبَ ماء؟".

هزَّت كساندرا رأسها. "كَلَّا، أنا بخير شكرًا. إنها اللوحة...". ثم زَمَّت شفيتها، وسمعت نفسها تقول "روز مونتراشيه كانت جَدَّتِي الكبرى".

قفز حاجبا جوليا.

"اكتشفتُ ذلك مُؤَخَّرًا" ابتسَمَت كساندرا بإحراج. برغم أن الأمر كان حقيقيًّا، شعرت كأنها مُمَثَّلَةٌ تُلقِي بعض السطور السيئة في مسلسلٍ درامي. "معذرة، تلك هي المرة الأولى التي أرى صورتها. إن الأمر برُمَّتِهِ يبدو حقيقيًّا بشكلٍ مُباغِت".

"يا إلهي! أكره أن أقول لِكَ هذا، لكنكِ مُخَطِّئَةٌ. مستحيل أن تكون روز جَدَّتِكَ الكبرى، أو أن تكون جَدَّةً لأي شخصٍ آخر. ابنتها الوحيدة ماتت حينما كانت مجردَ طِفْلَةٍ".

"من الحُمى القرمزية".

"ملاك صغيرٌ مسكينٌ، كانت في الرابعة من عمرها..." ثم نظرت بِشكِّ إلى كساندرا وقالت: "إذن تعلمين بأمر الحُمى القرمزية، بالتأكيد تعرفين أن ابنتها ماتت".

"أعرف أن الناس يظنون ذلك، لكنني أعلم أيضًا أن هذا لم يحدث في الواقع. مستحيل".

قالت چوليا برفق: "لقد رأيتُ شاهدَ قَبْرِها في مدفن العزبة، وقد كُتِبَت عليه أَرْقُ أبيات الشعر الحزينة. يمكن أن تريه بنفسك إن شئت".

شعرت كساندرا بتورُّدٍ في وجنتيها كدأبها حينما تشعر بأنها على مشارف خلاف. "ربما كان هناك شاهدُ قبر، لكن لا توجد فتاة صغيرة مدفونة هناك. ليست أيقوري وواكر بأي حال".

تردَّدت چوليا بين الاهتمام والقلق وهي تقول: "استمري".

"حينما كانت جدِّي في الحادية والعشرين من عمرها، اكتشفتُ أن أبويها لم يكونا والدَيْها الحقيقيَّين".

"هل كانت مُتبنَّاةً".

"بشكلٍ ما. وُجِدَت على رصيف ميناء استراليا حينما كانت في الرابعة من عمرها، ولم يكن معها سوى حقيبة سفر. وفي سنِّ الخامسة والستين أعطهاها أبوها الحقيقية، وبدأت رحلة البحث عن ماضيها. جاءت إلى إنجلترا وتحدَّثت مع أناسٍ وأعدت البحث، وطيلة الوقت ظلَّت تحتفظ بيوميَّات".

ابتسمت چوليا بتعمُّدٍ. "والتي مَعكِ الآن".

"بالضبط. وبهذا عرفت كيف اكتشفتُ أن ابنة روز لم تُمت. لقد اختطفت".

تَفَحَّصَتْ عينا چوليا الزرقاوان وجه كساندرا، ثم تَوَرَّدَتْ وجنتاها فجأة. "لكن إن كان ما ذكرته صحيحًا، لماذا لم يبحثوا عنها؟ ولماذا لم تكتب عنها الصحف؟ مثلما حدث مع ابن لينبرج⁽¹⁾؟".

"رَبِّمَا رَغِبْتَ العائِلةَ في إِبْقَاءِ الأَمْرِ سِرًّا".

"ولماذا؟ لا بُدَّ وأنهم أرادوا أن يعلم الجميع".

هَزَّتْ كساندرا رأسها مُجَدِّدًا. "ليس وإن كانوا يريدون تَجَنُّبَ فضيحة. المرأة التي أخذتها كانت في وصاية لورد وليدي مونتراشيه، ابنة عمَّة روز".

شَهَقَتْ چوليا وهي تقول: "هل اختطفت إيليزا ابنة روز؟".

فَوَجِئَتْ كساندرا بِرَدِّ فِعْلِ چوليا فقالت: "أتعلمين بأمر إيليزا؟".

"بالتَّبَعِ كانت مشهورة في القرية". ازدردت لعابها ثم قالت: "دَعِينِي أستوضح الأمر. هل تعتقدان أن إيليزا أخذت ابنة روز إلى استراليا؟".

"وَضَعْتَهَا على متن سفينة مُتَّجِهَةً إلى استراليا، لكنها لم تذهب معها. اختفت إيليزا في وقتٍ ما بين لندن وماريبورو. حينما وجد جَدِّي الأكبر نيل، كانت بِمُفَرَّدِهَا على رصيف الميناء. وهذا هو السبب الذي دفعه لأخذها إلى المنزل معه، لم يستطع أن يترك طفلةً بهذا العمر وحدها".

كانت چوليا تُطْفِئُ بلسانها. "يؤلمني التفكير في طفلة صغيرة مهجورة بهذا الشكل. لا بُدَّ وأن جَدَّتِكَ المسكينة شعرت بالفرح لأنها لم تعرف أصلها. وبلا شك هذا يُفسِّرُ سبب حماسها لإلقاء نظرة على هذا المكان".

(1) في عام 1932 اختطفت الطفل تشارلز ابن تشارلز لنبرج، وكان يبلغ من العمر 20 شهرًا وطالب مُخْتِطَفُوهُ فديةً كبيرة، وبرغم أنها دُفعت، عُثِرَ على جُثَّتِهِ مدفونةً بالقرب من منزله.

قالت كساندرا: "وهذا هو السبب الذي دفع نيل لشراء الكوخ. بعدما عرفت عائلتها الحقيقية، رغبت في امتلاك جزء من ماضيها".
"بالطبع" رفعت جوليا يديها ثم أسقطتهما مُجدِّدًا. "هذا الجزء مفهوم. لكني لا أفهم الباقي".

"ماذا تقصدين؟"

"حتى إن كان ما تقولينه صحيحًا، لو كانت ابنة روز على قيد الحياة، واخْتُطِفْتُ، وأرسلت إلى استراليا، لا أصدق أن إيليزا لها علاقة بذلك الأمر. كانت هي وروز مُقَرَّبَتَيْنِ للغاية، صديقتَيْنِ مُخْلِصَتَيْنِ، لم تكونا مُجرَّد ابنة عَمَّةٍ وابنة خال، بل شقيقتين". ثم تَوَقَّفت، وبدأت أنها تُوازِنُ الأمور مُجدِّدًا في ذهنها، ثم زفرت بحسم قائلة: "كلًا، لا أصدق أن إيليزا ترتكب هذه الخيانة".

كان يقين جوليا قاطعًا؛ ممَّا جعل كساندرا تستشعر أن هناك أسبابًا قوية وراءه، وليس مجرد تعاطفٍ نزيه. فسألته كساندرا: "ما الذي يجعلك واثقة بهذا الشكل؟".

أشارت جوليا إلى مقعدَيْنِ من الخيزران عند النافذة البارزة. "تعال، اجلسي لهنيهةً. سأطلب من سامانثا أن تُعدَّ لنا الشاي".

اختلفت كساندرا النَّظر إلى ساعتها. لقد اقترب موعدهما مع البستاني، لكنها شعرت بالفضول من يقين جوليا، والطريقة التي تتحدَّث بها عن إيليزا وروز كصديقتَيْنِ مُقَرَّبَتَيْنِ. جلست على المقعد بينما أشارت جوليا إلى سامانثا: "شاي".

بعدما ذهبت سامانثا، استأنفت جوليا كلامها: "حينما اشترينا بلاكهرست كانت تَعُمَّهُ الفوضى العارمة. لَطَّالَمَا حلمنا بإدارة مكان كهذا، لكن الواقع كان كابوسًا. ليس لديك فكرة كيف يمكن للأمر أن تسوء في منزل بهذا الحجم. لقد استغرق مِنَّا الأمر ثلاث سنوات

لنحرز بعض التَّقْدُم فيه. كُنَّا نعمل بدأب، وكدنا نخسر زواجنا أثناء ذلك. لا شيء يضاهاى انتشار الرطوبة والحفر اللانهائية في السقف لِيُدْفَعَ الزَّوْجَانِ لِلانفصال".

ابتَسَمَت كساندرا وهي تقول: "أستطيع تَخَيُّلَ ذلك".

"هذا حقيقيٌّ للأسف. لقد قَطَنَ في هذا المنزل عائلة واحدة، وأَحَبَّ المنزلُ هذه العائِلةَ، لكنه هُجِرَ في القرن العشرين، بالأدقِّ بعد الحرب العالمية الأولى. كُسيَتِ النوافذ بألواح الخشب، وأُغْلِقَتِ المَدَافِئُ، فضلًا عمَّا أحدثه الجيشُ من أضرار حينما كان هنا في الأربعينيات. صرفنا كُلَّ بنس كُنَّا نمتلكه على المنزل. كنتُ كاتبَةً حينها، أكتب سلسلةً من الروايات الرومانسية في الستينيات. لم أكن مثل چايي كولينز⁽¹⁾، لكنني حَقَّقْتُ بعض الشهرة. وكان زوجي يعمل في البنك، وكُنَّا على ثقة أننا نمتلك أموالًا كافيةً لترميم هذا المكان". ضحكت ثم قالت: "استخفافُ ضخم. في عيد الميلاد الثالث الذي مرَّ علينا ونحن في المنزل، كانت الأموال قد نَفَدَتِ مِنَّا تقريبًا، وزواجنا كان مُعَلَّقًا بخيوط واهنة. بعنا بالفعل معظم الأجزاء الصغيرة من العزبة، وبحلول عَشِيَّةِ الكريسماس لعام 1974 كِدنا نستسلم إلى اليأس، ونعود إلى لندن نجرُّ ذبول الخيبة".

ظهرت سامانثا تحمل صينيةً ثقيلةً، ووضعتها على المائدة، ثم تَرَدَّدَتِ وهي تمُدُّ يدها لمقبض إبريق الشاي.

"سأصُبه بنفسي يا سام" قلت جوليا وهي تُلَوِّحُ لها بضحكة: "لستُ المَلِكَّةَ. حسنًا ليس بَعْدُ"، ثم غَمَزَتِ بعينيها إلى كساندرا وهي تسألها: "سُكَّر؟".

"أجل من فضلك".

(1) چاكلين چيل كولينز (1937-2015) كاتبة إنجليزية اشتهرت بكتابة الروايات الرومانسية.

ناوَلَتْهَا جُولِيَا فَنجَانًا مِنَ الشَّاي، وَارْتَشَفَتْ رَشْفَةً مِنْ فَنجَانِهَا، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ قِصَّتَهَا. "كَانَ شِتَاءٌ قَارِسَ الْبُرُودَةِ فِي عِيدِ الْمِيلَادِ. هَبَّتْ عَاصِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ وَأَفْزَعَتِ النَّاسَ. فَفَقَدْنَا السَّيْطِرَةَ، وَتَلَفَ الدَّيْكَ الرُّومِيُّ فِي الثَّلَاجَةِ السَّاخِنَةِ، وَلم نَتَذَكَّرْ أَيْنَ وَضَعْنَا حَزْمَةَ الشَّمُوعِ الْجَدِيدَةِ. كُنَّا نَبْحَثُ فِي إِحْدَى الْعُرْفِ بِالْأَعْلَى حِينَمَا لَاحِظْنَا الْجِدَارَ". فَكَرَّتْ شَفْتَيْهَا مَعًا فِي تَرْقُبٍ لِعِبَارَتِهَا الْأَخِيرَةِ. "كَانَتْ هُنَاكَ فَتْحَةٌ فِي الْجِدَارِ".

"مِثْلَ فَتْحَةٍ فَأَرَى؟"

"كَلَّا، كَانَتْ فَجْوَةٌ مُرَبَّعَةٌ".

قَطَّبَتْ كَسَانِدْرَا بِشَكِّ.

"فَجْوَةٌ صَغِيرَةٌ فِي الْحَجَرِ. لَطَالَمَا حَلَمْتُ وَأَنَا طِفْلَةٌ بِالْعَثُورِ عَلَى فَجْوَةٍ كَهَذِهِ حِينَمَا كَانَ شَقِيقِي يَعِثْرُ عَلَى دَفْتَرِ يَوْمِيَّاتِي. كَانَتْ فَتْحَةٌ مُخْبِئَةً خَلْفَ قِمَاشٍ سَحَبَهُ إِلَى الْأَسْفَلِ عَامِلُ الطَّلَاءِ فِي ذَاكَ الْأَسْبُوعِ". ثُمَّ أَخَذَتْ جَرْعَةً أُخْرَى كَبِيرَةً بِصُوتٍ مَسْمُوعٍ قَبْلَ أَنْ تُرْدَفَ: "أَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ يَبْدُو سَخِيفًا، لَكِنِ الْعَثُورُ عَلَى فَجْوَةٍ سَرِيَّةٍ كَانَتْ كَالْعَثُورِ عَلَى تَمِيمَةٍ تَجْلِبُ الْحِظَّ الْحَسَنَ، كَأَنَّ الْمَنْزَلَ نَفْسَهُ يَقُولُ: "حَسَنًا، كُنْتُمَا هُنَا لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ بِضَجِيجِكُمْ وَجَلْبِتِكُمْ، وَأَثْبُتُمَا حُسْنَ النِّيَّةِ؛ لِذَا يُمْكِنُكُمَا الْمَكُوثُ". فِي الْوَاقِعِ أَنَّهُ مِنْذُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَبَعْدَهَا أَخَذَتِ الْأُمُورَ تَتَحَسَّنُ. فَظَهَرَتْ جَدَّتُكَ وَطَلَبَتْ شِرَاءَ كُوخِ الْجُرْفِ، وَشَخْصٌ يُدْعَى بُوْبِي بِلَاكٍ شَرَعَ يُرْمِمُ الْحَدِيقَةَ، وَتَعَاقَدَتِ مَعَنَا شَرِكَتَا حَافِلَاتٍ لِنَقْلِ السُّيَاحِ لِحَفَلَاتِ الشَّاي الَّتِي كُنَّا نَقِيمُهَا فِي الْفَنْدُقِ فِي الْأَصِيلِ".

كَانَتْ جُولِيَا تَبْتَسِمُ وَهِيَ تَتَذَكَّرُ وَشَعَرَتْ كَسَانِدْرَا بِالذَّنْبِ لِمَقَاطَعَتِهَا: "لَكِنَ مَاذَا وَجَدْتَ؟ مَا الَّذِي كَانَ فِي الْفَجْوَةِ السَّرِيَّةِ؟"

طَرَفَتْ جُولِيَا بِعَيْنَيْهَا.

"هَلْ كَانَ شَيْئًا يَخْصُ رُوزٌ؟"

"أجل" قالت جوليا وهي تكتُم ابتسامَةً مُتَحَمَّسَةً. "أجل. كانت مجموعةً من كتب القصصات رُبطت بشريط. من عام 1900 إلى عام 1913".

"كُتِبَ قُصَصَاتُ؟"

"اعتادت كثيرٌ من السيدات الشابات على الاحتفاظ بها وقتذاك. كانت هواية أجازتها العائلات، من بين هوايات قليلة للغاية! شكل من أشكال التعبير عن النفس مسموح به للفتيات الصغيرات دون خوف من بيع أرواحهن للشيطان". ابتسمت بحنان وهي تقول: "لم تختلف كُتِبَ قصصات روز عن أي كتب أخرى يمكن أن تجديها في مُتَحَفٍ أو عليَّة في أنحاء البلاد، إنها مليئة بقطع القماش، والرسومات، والصور، والاختراعات، والحكايات الصغيرة، ولكن حينما عثرت عليها توحدتُ بحياة تلك الفتاة التي عاشت منذ قرن تقريبًا؛ آمالها وأحلامها وخيبتها، حتى أنني أحببتها منذ ذلك الحين. إنني أعتبرها ملاك يراقبنا".

"هل كُتِبَ القُصَصَاتُ مازالت موجودةً هنا؟"

أومأت جوليا بطريقة مُذنبَةٍ وهي تقول: "أعلم أنه يجب عليّ أن أتبرّع بها إلى مُتَحَفٍ أو أعطيهم إلى إحدى جمعيات التاريخ المحلي. لكنني أوّمن بالخرافات ولا أحتمل الافتراق عنها. عرضتها لفترة وجيزة في إحدى الخزانات الزجاجية في حجرة الجلوس، وفي كُلِّ مَرَّةٍ المَحْهَأُ كنتُ أشعر بالخجل، كأنني فضحتُ شيئًا خاصًا. فحفظتها في صندوقٍ موضوع في غرفتي الآن؛ لعدم وجود مكان آخر أفضل".

"سيسرُّني إلقاء نظرة عليها".

ابتسمت جوليا بإشراقٍ وهي تقول: "بالطبع يا عزيزتي. سيحدث ذلك. إنني في انتظار مجموعة من النُزلاء سيقومون بالحجزِ خلال النصف ساعة القادمة، وروبن ورطنتني معظم أيام الأسبوع في ترتيبات

الحفل. هل يمكننا أن نلتقي يوم الجمعة على العشاء في شقّتي؟ سيكون ريك في لندن؛ لذا سنحظى حقًا بليلة فتيات. نتأمل كُتَب القصصات ونذرف الدموع. ما رأيك؟".

"رائع" قالت كساندرا وهي تبتسم بِشَكِّ. كانت تلك المرة الأولى التي يدعوها أحدهم للبكاء.

(30)

عزبة بلاكهرست، 1907

حرصت روز على عدم تغيير وضعها على الأريكة؛ كي لا تثير غضب الرّسام، فأخذت تنظر إلى أحدث صفحة في كتاب القصصات. انكبّت تعمل عليها طيلة الأسبوع، متى سمح لها السيد سارچنت بالراحة. كانت هناك قطعة من الساتان بلون زهريّ شاحب مُتبقّية من فستان عيد ميلادها، وشريط من الشرائط التي تربط بها شعرها، وبالأسفل، دُوّنت بخطّ أنيق سطور من قصيدة لورد تينيسن⁽¹⁾: لكن مَنْ رآها وهي تُلوّح بيدها؟ أو تقف بجوار النافذة؟ أو كما تُعرف في الأرجاء، ليدي شالوت؟

(1) ألفريد تينيسن (1809 - 1892) شاعر البلاط البريطاني خلال عصر الملكة فيكتوريا، من أشهر قصائده الغنائية (ليدي شالوت) والتي تحكي القصة المأساوية لشابة نبيلة سجينه برج عال في قلعة كاميلوت.

كم تشبه ليدي شالوت! التي لِعِنَت بقضاء حياتها في غرفتها، ترى العالم من وراء النافذة. ألم تقضِ روز جُلَّ حياتها سجيناً بشكل مُماثل؟ لكن ليس بعد الآن. اتَّخَذَت روز قرارها؛ لن تُكَبِّلَها تحذيرات د. ماثيوس البغيضة، ومخاوف أمها المُحَلِّقَة دوماً حولها. برغم أنها ما زالت ضعيفة، تعلَّمت روز أن الهشاشة لا تجلب سوى المزيد من الهشاشة، وأنَّ تَقَوُّفَها الخانق يوماً تلو اليوم في غرفتها يورث الدوار المؤلم. ستفتح النوافذ حينما تشعر بالحرارة، رُبَّما تُصاب بالبرد، ورُبَّما لا. ستعيش حياتها على أمل الزواج، وإنجاب أطفال، والتَّقدُّم في العمر. بعد طول انتظار، سترى روز كاميلوت في عيد ميلادها الثامن عشر، بل وستمشي في شوارعها. بعد سنوات من التَّوسُّل والرجاء، رضخت الأم، واليوم ستذهب روز، للمرة الأولى، إلى خليج بلاكهرست مع إيليزا.

منذ وصول إيليزا منذ سبع سنوات، كانت تروي على مسامعها قصصاً عن الخليج الصغير. حينما كانت روز مُستَلْقِيَةً في غرفتها المظلمة الدافئة، تتنَفَّس الهواء الراكد لأحدث أمراضها، كانت إيليزا تندفع من الباب حتى أن روز تكاد تَشْمُ رائحة البحر على جلدها. ثم تتسلَّق الفراش بجانبها وتَضَعُ صَدْفَةً، أو حَبَّاراً رخوًا، أو حِصاةً صغيرة، في يدها، ثم تشرع في حكايتها. وفي ذهنها، ترى روز البحر الأزرق، وتشعر بالنسيم الدافئ يتخلَّل شعرها، وتلمس الرمال الساخنة تحت قدميها.

كانت بعض حكايات إيليزا مُختَلِّقَة، وبعضها عرفتها من مكانٍ آخر. فماري، الخادمة، لديها أشقاء يعملون بالصيد، وشعرت روز أنها تُحِبُّ الثرثرة في وقت عملها. بالطبع لم تَكُنْ تُثَرِّثُ مع روز، بل مع إيليزا؛ لأنها كانت مختلفة. جميع الخدم كانوا يتعاملون مع إيليزا بشكل مختلف، يفتقر إلى الكياسة، كأنهم أصدقاؤها.

مؤخراً، ساوَرَتها الشكوك حيالَ ذهاب إيليزا إلى ما وراء العزبة، ربما تحدَّثت مع أحد أهالي القرية؛ فقد اتَّخَذَت حكاياتها الأخيرة مَنحَى

مختلفًا. كانت ثريَّةً بتفاصيل عن السفن، وحوريات البحر والكنوز، والمغامرات وراء البحار. كانت إيليزا تقصُّها بلُغَةٍ حَيَّةٍ تَلدِّدُت بها روز، وفي عينيها ارتسمت نظرة غامرة كأنها تذوّقت الأشياء الشريرة التي تتحدّث عنها.

لكنها تعرف أن أمها ستستشيط غضبًا لو علّمت بأمر ذهاب إيليزا إلى القرية، والاختلاط بالعامَّة. إنها تحنق حينما تتحدّث إيليزا مع الخدم، وبسبب ذلك احتملت روز الصداقة التي تربط إيليزا بماري. لو سألت الأمُّ إيليزا أين تذهب، بالتأكيد لن تكذب، برغم أن روز لا تعرف ردَّ فعل الأم. في كل سنوات المحاولة، لم تستطع الأم العثور على عقاب يردع إيليزا.

إن التهديد بكونها غير مُهدَّبة لم يَغنِ لها شيئًا، وإرسالها إلى الخزانة أسفل الدَّرَج منحها الوقت والهدوء لاختراع المزيد من الحكايات، وجرمانها من الفساتين الجديدة -وهي عقوبة قاسية بالنسبة لروز- لم يُحرزنها، بل على العكس؛ كانت إيليزا مسرورةً للغاية بارتداء ملابس روز القديمة. حينما يأتي العقاب كانت مَحْمِيَّةً بتعويذة سحرية كأنها بطلاة في إحدى قصصها.

مشاهدة محاولات الأم الفاشلة لتأديب إيليزا منح روز مُتعةً محظورة. كانت تقابل كُلَّ أمرٍ بطرْفَةٍ عَيْنَيْنِ زرقاوين فارِغَتَيْنِ من التعبير، أو هِزَّةَ كَتِفَيْنِ لا مبالية، أو العبارة الصَّادِقة "كما تأمرين يا زوجة خالي"، كأن إيليزا لم تَلحَظ حَقًّا أَنَّ سُلوكها يُسبِّب إهانةً. كانت هِزَّةُ الكتفين بالأخصُّ تُثير سُخطَ الأم. لقد حَرَّرت روز منذ أمدٍ طويلٍ من مشروع تحويل إيليزا إلى ليدي مُهدَّبة، وَقَنَعَت بنجاحها في إقناع إيليزا بارتداء ملابس لائِقة. (قَبِلت روز مديحَ ماما وأخرست الصوت الصغير داخلها الذي همس أن إيليزا تخلَّت عن السروال القصير الرَثِّ حينما لم يَعد مُناسِبًا لها). قالت الأم إن مُثَّة شيئًا معطوبًا داخل إيليزا

يَمْنَعُهَا مِنَ الشُّعُورِ بِالخَجَلِ الْمَطْلُوبِ، مِثْلَ شَطِيئَةِ زَجَاجِ تَمْنَعِ الْمَنْظَارِ مِنَ الْعَمَلِ بِشَكْلِ صَاحِبِهِ.

كَأَنَّهَا تَقْرَأُ أَفْكَارَ رُوزِ، تَحْرَكْتُ إِيلِيْزَا بِجَوَارِهَا عَلَى الْأَرِيْكَةِ. ظَلَّتْنَا تَجْلِسَانِ فِي وَضْعٍ سَاكِنٍ لِسَاعَةٍ تَقْرِيْبًا، وَكَانَتْ الْمُقَاوَمَةُ تُشْعُ مِنْ جَسَدِ إِيلِيْزَا. مَرَّاتٍ عَدِيْدَةٌ اضْطَرَّ السَّيِّدُ سَارِچَنْتَ أَنْ يُذَكِّرَهَا بِالْكَفِّ عَنِ عَقْدِ حَاجِيَّتِهَا، وَالثَّبَاتِ عَلَى وَضْعِهَا، وَهُوَ يُعَدِّلُ جِزْءًا مِنْ لَوْحَتِهِ. سَمِعْتَهُ رُوزٌ وَهُوَ يَخْبِرُ الْأُمَّ الْبَارِحَةَ أَنَّهُ قَدْ انْتَهَى بِالْفِعْلِ، لَكِنْ الْفَتَاةُ ذَاتَ الشَّعْرِ النَّارِيَّ تَرْفُضُ الْجُلُوسَ ثَابِتَةً لِفَتْرَةٍ طَوِيْلَةٍ كِي يَلْتَقِطَ تَعْبِيرَاتٍ وَجْهَهَا. ارْتَجَفَتِ الْأُمُّ مِمَّقَتِ حِينَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ ذَلِكَ. كَانَتْ تُفْضِلُ أَنْ تَكُونَ رُوزٌ هِيَ الْوَحِيْدَةُ فِي اللَّوْحَةِ، لَكِنَّ ابْنَتَهَا أَصْرَتْ؛ فإِيلِيْزَا ابْنَةُ عَمَّتِهَا، وَصَدِيْقَتِهَا الْوَحِيْدَةُ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ فِي اللَّوْحَةِ. ثُمَّ سَعَلَتْ رُوزَ قَلِيْلًا، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الْأُمِّ مِنْ بَيْنِ رَمُوشِهَا، وَأَغْلَقَ الْمَوْضُوعَ.

وَبِرْغَمِ أَنْ الْجِزْءَ الثَّلَاثِيَّ الصَّغِيْرَ مِنْ رُوزِ اسْتَمْتَعَ بِسُخْطِ الْأُمِّ، كَانَ إِصْرَارَهَا عَلَى رَسْمِ إِيلِيْزَا فِي اللَّوْحَةِ نَابِعًا مِنْ صَمِيْمِ قَلْبِهَا. لَمْ تَتَّخِذْ رُوزَ صَدِيْقَاتٍ مِنْ قَبْلِ، لَمْ تَسْنَحْ لَهَا الْفُرْصَةَ قَطُّ، وَلَوْ سَنَحْتَ، مَا جَدُوْا اتِّخَاذَ صَدِيْقَاتٍ وَهِيَ الَّتِي لَا تَتَوَقَّعُ إِلَى الْحَيَاةِ؟ مِثْلَ مَعْظَمِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ تَكَيَّفُوا عَلَى الْمَعَانَاةِ، أَدْرَكْتُ رُوزَ أَنَّهَا لَمْ تُشَاطِرِ الْفَتِيَّاتِ الْأُخْرِيَّاتِ فِي مِثْلِ سِنِّهَا اهْتِمَامَاتِهِنَّ. لَمْ تَسْتَهْوِهَا دَحْرَجَةُ الْأَطْوَاقِ، أَوْ تَرْتِيْبِ مَنَازِلِ الدُّمَى، وَكَانَتْ تَضْجَرُ بِسُرْعَةٍ مِنَ الْأَحَادِيْثِ الْمُمِلَّةِ مِثْلِ الْأَلْوَانِ أَوْ الْأَرْقَامِ أَوْ الْأَغَانِي الْمَفْضَلَةِ.

لَكِنْ إِيلِيْزَا لَمْ تَكُنْ تُشَبِّهُ بِبَاقِي الْفَتِيَّاتِ الصَّغِيْرَاتِ. عَرَفْتُ رُوزَ ذَلِكَ مِنْذُ لِقَائِهِمَا الْأَوَّلِ. كَانَتْ إِيلِيْزَا تَمْتَلِكُ طَرِيْقَةً مُدْهِشَةً لِرُؤْيَا الْعَالَمِ، وَتَفْعَلُ أُمُورًا غَيْرَ مُتَوَقَّعَةً عَلَى الْإِطْلَاقِ، أُمُورًا لَا تَحْتَمِلُهَا الْأُمُّ. وَالْأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، وَرَبَّمَا أَفْضَلُ مِنْ قُدْرَتِهَا عَلَى إِثَارَةِ غَضَبِ الْأُمِّ، كَانَتْ حِكَايَاتِهَا. إِنَّهَا تَعْرِفُ الْكَثِيْرَ مِنَ الْحِكَايَاتِ الرَّائِعَةِ الَّتِي لَمْ تَسْمَعْ عَنْهَا رُوزٌ مِنْ

قبل. قصص مُخيفَةٍ يقشَعِرُّ لها جِلْدُها، عن ابنة الخال الأخرى، ونهر لندن، والرجل الشرير وسِكينه اللامع. وبالطبع قِصَّتُها عن السفينة السوداء التي تَسْكُنُ خليجَ بلاكهرست. ورغم أن روز تعلم أنها قصة أخرى من قصصها الخيالية، كانت تستمتع بسماعها. السفينة الشبح التي تَلوَحُ في الأفق، السفينة التي ادَّعت إيليزا أنها رأتها، وأنها تقضي أيامًا صَيْفِيَّةً عديدةً في الخليج على أمل أن تلمحها مرة أخرى.

الشيء الوحيد الذي حاولت روز أن تجعل إيليزا تحكي عنه هو شقيقها سامي. زَلَّ لسانُها باسمه ذات مرة، لكنها التزمت الصَّمْت حينما ألحَّت روز في طلب تفاصيل. كانت أمُّها هي من أخبرتها أن إيليزا كان لديها شقيقٌ توأم، صَبِيٌّ مات بطريقة مأساويَّة.

على مدار السنوات، كانت روز تتخيَّل موته وهي مُستلقية وحدها على الفراش. لقد حَقَّقَت خسارة الصبي الصغير المُستحيل؛ أحرست لسان إيليزا الذي لا يَكْفُ عن الحكي. وحَلَّ "موت سامي" محلَّ "هروب چورچيانا". تخيَّلته وهو يغرق، ويسقط، ويتوه، هذا الصبي الصغير المسكين الذي سبقها في قلب إيليزا.

"لا تتحرَّكي" قالها السيد سارچنت وهو يشير بفرشاة الرسم باتجاه إيليزا. "توقَّفي عن التلَوُّي. أنتِ أسوأ من كَلْبِ الليدي اسكويث".

طرَفَت روز، وحرصت على عدم تغيير تعبير وجهها حينما لاحظت دخول الأب إلى الغرفة. كان يقف وراءَ حاملِ اللوحة، يُشاهدُ بيَقْظَةٍ عملَ الفنان. يقطَّب جبينه ويميل رأسه، لكي يتبع بشكل أفضل ضربات الفرشاة. دُهَشَت روز، لم تتخيَّل قَطُّ أن أباهَا يهتمُّ بالفنون الجميلة. كانت تعلم أن شغفه الوحيد هو التصوير الفوتوغرافي، وحتى هذا جعله مُمِلًّا. لم يكن يلتقط صُورًا للناس، بل للحشرات، والنباتات، والقرميد. لكن ها هو يقف هنا، يحدِّق في لوحة ابنته. شدَّت روز قامتها قليلًا.

لم تَرَ روز أباهَا عن كَثْبٍ في طفولتها سوى مرَّتين. المرة الأولى حينما ابتلعت الكشتبان واستُدعي الأبُّ لالتقاط صورةٍ لمَعْدَتِهَا. والثانية لم تكن مناسبَةً طيِّبَةً.

كانت في التاسعة من عمرها، وكان مُتوقِّعًا حضور د. ماثيوس، ولم تشعر برغبة في رؤيته؛ فاخْتبأت في المكان الوحيد الذي لن يتوقَّع أحدٌ وجودها فيه: غرفة الأب المظلمة.

كان هناك تجويف أسفل المكتب الكبير، وأخذت روز وسادةً لتشعر بالراحة. لكن رائحة الغرفة المُقزَّزة أفسدت عليها هذه الراحة. كانت تُشبه رائحة مستحضرات التنظيف التي اعتاد الخدم استخدامها خلال التنظيف الشامل.

مكثت هناك لخمس عشرة دقيقة أو أكثر، ثم فُتِح باب الغرفة. انسلَّ شعاع رفيع من الضوء عبر ثقب صغير في منتصف عُقْدَةِ خشبية على ظهر المكتب. كتمت روز أنفاسها، وضغطت عينيها على الثقب، وهي تخشى أن ترى الأم ود. ماثيوس قادمين إليها.

لكن لم تكن الأم ولا الطبيب، بل الأب، كان يرتدي عباءة السفر السوداء الطويلة. تقلَّص حَلْقُ روز، كانت تعرف أنه ممنوعٌ عليها دخول غرفة الأب المظلمة. وقف الأب لهنيهة، وصورته الظليَّة السوداء تتناقض مع السُّطوع الخارجي. دخل، وهو يخلع عنه المعطف ويلقي به على مقعد بذراعين. ثم ظهر توماس، ووجنتاه شاحبتان من الخجل.

قال توماس بأنفاسٍ متقطَّعة: "سيدي... لم نتوقَّع قدومك إلَّا...".
"خُططي تَغَيَّرت".

قال توماس، وهو يضيء مصابيح الغاز على الحائط: "كوك تُعِدُّ طعام الغداء يا سيدي. سَاعِدُ المائدة لشخصين، وأبلغ ليدي مونتراشيه بقدمك".
"كَلَّا".

الأمر المباغت جعل روز تلتقط أنفاسها.

التفت توماس فجأة نحو الأب، وانطفأ الثقاب بين أصبعي يده الموضوعة في القفاز، ضحية لبرودة مفاجئة.

قال الأب مُجدِّدًا: "كَلَّا. كانت الرحلة طويلة يا توماس. أحتاج إلى الراحة".

"هل أحضر صينية الطعام يا سيدي؟".

"وزجاجة خمر".

أوما توماس ثم اختفى من الباب، وتلاشى وقع أقدامه في الرواق.

سمعت روز صوت دَقِّ. ضغطت أذنها على المكتب، وتساءلت عن طبيعة الشيء الغامض الخاص بالأب الذي كان يُتَكْتِكُ في الدُرْج. ثم لاحظت أنه كان قلبها، يخفق بقوة في صدرها مُحَدَّرًا، يقفز للنجاة بحياته. لكن ما من مَهْرَبٍ. ليس بعدما جلس الأب على المقعد، وأغلق الباب. وهكذا بَقِيَتْ روز جالِسَةً، تضمُّ رُكْبَتَيْهَا بإحكام على قلبها الغَدَّار الذي يُهدِّد بفضحها.

كانت تلك المرة الوحيدة التي تتذكَّر أنها كانت لوحدها مع الأب. لاحظت كيف طغى حضوره على الغرفة، وكيف أن المساحات التي كانت تبدو ودودةً منذ لحظات، صارت الآن مشحونةً بعواطف ومشاعر لم تفهمها.

وَقَعُ أقدام خفيفة على السجاد، ثم تنهيدة ذكورية ثقيلة جعلت شُعيرات سَاعِدَيْهَا تنتصب.

"أين أنتِ؟" قال الأب بِرِقَّةٍ، ثم مرَّةً أخرى بغضب: "أين أنتِ؟".

كتمت روز أنفاسها خلف شفيتها المحكمتين. هل كان يتحدث إليها؟ هل تكهَّن والدها العالمُ بكل شيء أنها كانت مُختبئةً حيث لا ينبغي أن تكون؟

تنهيدة من الأب، هل هي حزن؟ حُبٌّ؟ تَعَبٌ؟ ثم كلمة (بوبي). خرجت رقيقة هادئة مُنكسرةً من رَجُلٍ مُحطَّمٍ. كانت روز قد تعلَّمت الفرنسية من الأنسة ترانتون، وتعلم أن بوبي تعني دُميمة الأطفال. "بوبي" قالها الأب مُجدِّداً. "أين أنتِ يا عزيزتي چورچيانا؟".

أطلقَت روز أنفاسها، حمداً لله لم يُدرِك وجودها. لكنها شعرت بالحزن؛ فتلك النبرة الرقيقة لا تنطق اسمها. وبينما ضغَطَت روز خَدَّيها على المكتب، وَعَدَّت نفسها أن يوماً ما سينطق أحدهم اسمها بهذه الطريقة...

"صَّعي يدكِ إلى الأسفل" قال السيد سارچنت بغضب. "إذا واصلتِ تحريكها، سأرسُمكِ بثلاثِ أيدي، وستُخلدين بهذا الشكل إلى الأبد".

أطلقت إيليزا تنهيدةً ثَقيلةً، وعقدت يديها خلف ظهرها. شعرت روز بغشاوة على عينيها من الالتزام بوضع واحد، فطرقتِ عِدَّة مرَّات. غادر الأب الغرفة، لكن حضوره تباطأ، نفس الشعور الحزين الذي كان يتبعه دومًا. تركت روز نظرتها تستريح مرَّةً أخرى على كتاب القصاصات. كان القماش بلونٍ زهريٍّ جميل، تعرف أنها درجة تتناسب مع شعرها الأسود.

خلال سنوات مرضها، تاقَت روز إلى شيء واحد فحسب: الهروب من قيود الطفولة والعيش مهما كانت الحياة قصيرةً ومُحطَّمةً، مثلما قالت ميلي ثيل⁽¹⁾ بطلاة روايتها المفضلة. تَعَطَّشَت للوقوع في الحُبِّ،

(1) بطلاة رواية (جناحي اليمامة) للكاتب الأمريكي هنري جيمس.

والزواج، وإنجاب أطفال. أرادت أن تُغادرَ بلاكهرست وتبدأ حياةً من صُنْعِها هي، بعيدًا عن هذا المنزل، وهذه الأريكة التي تُصِرُّ أمُّها على أن تستلقي عليها حتى لو كانت تشعر بأنها بخير. كانت الأم تسميها "أريكة روز"، وتقول: "ضعوا بساطًا جديدًا على أريكة روز، يزيح هذا الشحوبَ عن بشرتها، ويجعل شعرها يبدو أكثرَ لمعانًا".

تعلم روز أن يوم هروبها يقترب. في النهاية وافقت الأمُّ أنها كانت مُهيأةً لمُقابَلَةِ المُتقدِّمين للزواج. وخلال الأشهر القليلة المنصرمة، ربّبت الأم مادبَ غداءٍ متتالية مع عدد من الشباب المؤهلين لذلك (وغير الشباب!). وبعد كل زيارة كانت إيليزا تُسَلِّها لساعاتٍ فتقلدهم وتُدلي بانطباعاتها عنهم، كانت تخبرها أنهم جميعًا حمقى؛ فالرجل النبيل المثالي كان ينتظرها في مكان آخر. لن يُشبه الأب، بل سيكون فنّانًا؛ يملك حِسًّا بالجمال والإبداع، لا يعبأ بالقرميد والحشرات، وسيكون مُنْفَتِحًا واضحًا، وتُشعُّ عيناه ببريقٍ عواطفه وأحلامه، وسوف يقع في حُبِّها هي فحسب.

بجانبتها، زفرت إيليزا بتبرُّمٍ، وهي تقول: "سأرسم نفسي أسرع يا سيد سارچنت".

أدرّكت روز، بابتسامةٍ علّت وجهها الهادئ، أنّ زوجها سيكون مثل إيليزا. الرجل النبيل الذي تنشده سيكون التجسيد المذكّر لابنة عمّتها.

أخيرًا أطلق السيد سارچنت سراحهما. كان تينيسن مُحِقًّا عندما كتب "في الثّبات بلادّة وفي السكون ضجر"⁽¹⁾. أسرعَت إيليزا لخلع الفستان السخيف الذي أصرت زوجته خالها على أن ترتديه من أجل

(1) الأبيات (22-23) من قصيدته الشهيرة (عوليس).

اللوحَة. كان أحدَ فسّاتين روز منذ فصلٍ مضى، شرائط الزينة به تُؤلَمها، وقماش السّاتان يلتصق بجسدها، ولونه الأحمر جعلها تبدو كتمرة فراولة مُنتفحة. يا له من تَبذير عقيم للوقت! وتبديد صباحٍ على رَجُلٍ عجوزٍ نَكيدٍ مُصمِّمٍ على رسم صورتَيْهِما كي تُعلَّقَ بجمودٍ على جدار بارد.

وَتَبَّتْ إيليزا على يَدَيْها ورُكبتَيْها وحدَّقت أسفل فراشها. رفعت طرف لوح من أرضية الغرفة كانت قد حرّرتها منذ زمنٍ مضى. مدّت يدها إلى الداخل وسحبت قصّة (الطفلة المسحورة). مرّرت يدها على الغلاف الأبيض والأسود، وتحسّست أناملها خطّها المُتشابك.

كان ديفيس من اقترح عليها تدوين قصصها على الورق. كانت تساعده في زراعة أنواع جديدة من الورد، حينما طار طائرٌ رماديّ أبيض له ذيل مُخطّطٌ إلى عُصن خفيض بالقرب منها.

قال ديفيس: "طائر الوقواق. يقضي الشتاء في أفريقيا لكنه يعود إلى هنا مع الربيع".

قالت إيليزا: "ليتني كنتُ طائرًا. سأحلّقُ بخِفّةٍ من قِمّة الجُرف وأطير نحو أفريقيا أو الهند أو استراليا".
"استراليا؟".

كانت تلك هي الوجهة التي شغلت ذهنها مؤخرًا. منذ فترة قريبة، هاجر شقيق ماري الأكبر، باتريك، مع عائلته الصغيرة إلى مكان يُسمّى ماريبورو، حيث تعيش عمّته إيلانور منذ سنوات. وبرغم هذه الصّلة العائلية، تحب ماري أن تتخيّل أن الاسم أيضًا جدّبه لاختيار هذا المكان بالذات، الذي يقع في بلاد غريبة، تطفو على مُحيطٍ ناءٍ على الجانب الآخر من الكرة الأرضية. بحثت إيليزا عن استراليا في خريطة حجرة الدّرس، ووجدتها قارةً عملاقة غريبة في المحيط الجنوبي بأذنٍ مُدبّبة وأخرى مكسورة.

قال ديفيس وهو يتوقّف لهَيْهَةَ عن الغرس: "أعرف رَجُلًا ذهب إلى استراليا. حصل على مزرعةٍ تَبْلُغُ مساحتها آلاف الفدادين ولم يستطع زراعةَ شيءٍ فيها".

عَضَّت إيليزا شفيتها وتذوّقت طعم الإثارة؛ فهذه الغرابة تتماشى مع انطباعها حول المكان. "تقول ماري إنَّ لديهم شيئًا يشبه الأرنب العملاق، يسمُّونه الكانجرو. له أَرْجُلٌ طويلة كساقَي رَجُلٍ بالغ!".

"لا أعرف ما ستفعلينه في مكانٍ كهذا يا آنسة إيليزا، أو في أفريقيا أو الهند".

تعلم إيليزا بالضبط ما ستفعله. "سأقوم بجمع القصص القديمة التي لم يَسْمَع بها الناس هنا. سأكون مثل الأخوين جريم⁽¹⁾ اللذين حكيتُ لك عنهما".

عقد ديفيس حاجبَيْه. "إذا أردتِ ذلك عليك إذن بتدوين قصصكِ، وليس قصص الآخرين".

وهكذا فعلت. بدأت بكتابة قصة لروز؛ هديّةً في عيد ميلادها، قصّة خيالية عن أميرة سُجِرَتْ إلى طائرٍ. كانت القصة الأولى التي دَوَّنَتْها على الورق. شعرت بالدهشة وهي ترى أفكارها وخواطرها تتحوّل إلى شيء ملموس. جعل جلدها يبدو حسّاسًا، ومكشوفًا، وهشًّا بشكل غريب غير معتاد. كانت النسائم أكثر إنعاشًا، والشمس أكثر دفئًا. لم تعرف هل أحبَّت الشعور أم نفرت منه.

لكن روز أُعجِبَتْ بقصصها، ولم يكن لدى إيليزا هديّة أكبر لتعطيها لها، وهكذا رأت أن كتابة القصص خيارٌ مثاليٌّ؛ لأنه في السنوات التي انْتُرِعت فيها إيليزا من حياتها الوحيدة في لندن وانتقلت للعيش في عزبة بلاكهرست الفسيحة الغامضة، صارت روز توأمَ روحها. كانت

(1) جيكوب وفيلهلم جريم كاتبان ألمانيان قاما بجمع القصص الشعبية الألمانية.

تضحك وتحلم معها، وتدرّجياً شغلت المساحة التي كان يحتلّها سامي سابقاً، الفجوة الفارغة المُعتمَمة الخاصّة بكلّ توأم. في المقابل، كانت كلّ ما تفعله إيليزا وتُقدِّمه وتكتبه من أجل روز.

الطفلة المسحورة

بقلم إيليزا ماكبيس

يُحكى أنه في زمن بَسَطَ فيه السَّحَرُ قُوَّتَه وسطوته، عاشت ملكة مَمَّنَّت من صميم قلبها أن تُنَجِّبَ طفلاً. كان يملؤها الحزن؛ فالملك كثير الأسفار، يتركها مع وحدتها. تعجَّبت كيف يتركها زوجها، الذي تهواه، ويتحمَّل فراقها كثيراً كل هذه المُدَّة الطويلة.

حدث أنه منذ سنواتٍ مَمَّضت، قام الملك بالاستيلاء على عرش الحاكمة الشرعيَّة، ملكة الجنِّيَّات. وبين عَشِيَّةٍ وضحاها تحوَّلت أرض الجنِّيَّات الجميلة التي يَعْمُها السلام إلى مكانٍ مَهْجورٍ مُوحِشٍ لا يزدهر فيه السحر ولا تَرِنُ فيه الضحكات. غضب الملك واعتزم على أُسْرِ ملكة الجنِّيَّات، وإجبارها على العودة إلى المملكة. وأمر بتخصيص قَفْصٍ ذهبيٍّ لكي يسجنها فيه، ويُجبرها على القيام بالسحر كما يشاء.

وفي يوم من أيام الشتاء، بينما كان الملك بعيداً، جلست الملكة بجانب نافذة مفتوحة، وهي تحدِّق في الأرض التي اكتست بالجليد.

كانت تبكي؛ فكآبة أشهر الشتاء ذكَّرتُها بوحدتها. راحت تتأمل المنظر الشُّتويَّ المُجَدِّبَ، وفكَّرت في عَقَمِها، ورحمها الفارغ إلى الأبد، برغم لهفتها إلى إنجاب طفل. انتحبت وهي تقول: "كم أتمنى أن أنجب طفلةً! ابنةً حسناء ذات قلب صادق وعينين لا تملؤهما الدموع قطُّ. ولن أشعر بالوحدة أبدًا ما حييتُ".

مرَّ الشتاء، وشرَّع العالم يستيقظ من سُباته. عادت الطيور إلى المملكة ونصبت أعاشها، وعادت الغزلان ترعى مرَّةً أخرى بين الحقول والغابات، وفمت البراعم على أغصان الشجر. وبينما حلقت القُبَّرات، بدأت جونلة الملكة تضيق على بطنها، وبعد فترةٍ أدركت أنها حُبلى. لم يكن الملك حينها قد عاد إلى القلعة؛ فعلمت الملكة أن جنينًا شريرة، بعيدةً ومُختبئةً في حديقة الشتاء، لا بُدَّ وأن سمعت نحيبها ولبت أمنيتهما بالسحر.

أخذت بطن الملكة تكبر وجاء الشتاء مُجددًا، وفي عشية عيد الميلاد، وبينما ثلجٌ ثقيلٌ يتساقط على الأرض، شعرت الملكة بالآم المخاض، التي استمرت طيلة الليل، ومع آخر دقَّةٍ في منتصف الليل ولدت ابنتها، ونظرت الملكة إلى وجه الطفلة. كانت مولودةً جميلة، ذات بشرةٍ شاحبةٍ نقيَّة، وشعرٍ أسود، وشفتين حمراوين على شكل بُرعم وردة. "روزالند" قالت الملكة "سأسميك روزالند".

سُجرت الملكة ولم تدع الأميرة روزالند تغيب عن ناظرها. قسَّت الوحدهُ قلب الملكة، وحوَّلتها القسوة إلى امرأةٍ أنانيَّة، وجعلتها الأنانية نَزَاعَةً إلى الشُّكِّ والارتياب. كانت تخاف من كلِّ مُنعطفٍ خشية أن يأتي أحدهم ويسرق الطفلة. كانت تقول في قُرارةٍ نفسها: إنها لي، إنها خلاصي، سأحتفظ بها.

وفي صباح يوم تعميد الأميرة روزالند، دعت الملكة جميع الحكيمات من كل أنحاء المملكة لباركن الأميرة. وطوال اليوم كانت الملكة

تراقب أُمْنِيَّاتِ النِّعْمَةِ وَالْحِصَافَةِ وَالذِّكَاةِ تَنْهَمِرُ عَلَى الطِّفْلِ. وَحِينَمَا زَحَفَ اللَّيْلَ، وَدَعَتِ الْمَلِكَةَ الْحَكِيمَاتِ، وَأَدَارَتْ ظَهْرَهَا لِهَنْيْهَةِ، وَحِينَمَا نَظَرَتْ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى طِفْلِهَا، أَبْصَرَتْ ضَيْفَةً وَاحِدَةً لَمْ تَغَادِرْ. كَانَتْ تَرْتَدِي عِبَاءَةً سَفَرٍ طَوِيلَةً وَتَقِفُ بِجَوَارِ الْمَهْدِ، تَحْدُقُ فِي الرُّضِيعَةِ.

قَالَتِ الْمَلِكَةُ: "لَقَدْ تَأَخَّرَ الْوَقْتُ أَيُّهَا الْحَكِيمَةُ. لَقَدْ تَلَقَّتِ الْأَمِيرَةَ الْمُبَارَكَاتِ، وَالْآنَ يَجِبُ أَنْ تَنَامَ".

خَلَعَتِ الْمُسَافِرَةَ عَنْهَا الْعِبَاءَةَ وَشَهَقَتْ الْمَلِكَةُ. لَمْ تَكُنْ حَكِيمَةً، بَلْ عَجُوزًا شَمْطَاءً ابْتَسَمَتْ فَكَشَفَتْ عَن فَمِ بِلَا أَسْنَانٍ.

قَالَتِ الْعَجُوزُ: "جِئْتُ وَمَعِيَ رِسَالَةٌ مِنْ مَلِكَةِ الْجِنِّيَّاتِ. الطُّفْلَةُ مِنَّا، وَلَا بُدَّ أَنْ تَأْتِيَ مَعِيَ".

صَرَخَتْ الْمَلِكَةُ، وَهِيَ تَنْدَفِعُ نَحْوَ الْمَهْدِ: "لَا، إِنَّهَا ابْنَتِي، طِفْلَتِي الْغَالِيَةُ".

قَالَتِ الْعَجُوزُ: "ابْنَتُكِ! هَذِهِ الطِّفْلَةُ الْبَهِيَّةُ؟" وَشَرَعَتْ تُقَهِّقُهُ بِضِحْكَاتٍ قَاسِيَةٍ جَعَلَتْ الْمَلِكَةَ تَتَرَجَّعُ إِلَى الْخَلْفِ فِي رَعْبٍ. "إِنَّهَا ابْنَتُكَ طَالَمَا تَرَكْنَاكِ تَحْتَفِظِينَ بِهَا. لَقَدْ عَرَفْتُ فِي أَعْمَاقِ قَلْبِكَ أَنَّهَا وُلِدَتْ مِنْ تُرَابٍ سِحْرِيٍّ، وَالْآنَ يَجِبُ أَنْ تَعْطِيَهَا لَنَا".

انْتَحَبَتِ الْمَلِكَةُ؛ فَكَلِمَاتِ الْعَجُوزِ كَانَتْ أَكْبَرَ مَخَافِهَا. "لَا أَسْتَطِيعُ. اِرْحَمِينِي أَيُّهَا الْعَجُوزُ، وَدَعِينِي أَحْتَفِظُ بِهَا وَقْتًا أَطْوَلَ".

كَانَتْ الْعَجُوزُ مُحِبَّةً لِلأَذَى، وَعِنْدَمَا سَمِعَتْ كَلِمَاتِ الْمَلِكَةِ، ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهَا ابْتِسَامَةٌ بَطِيئَةٌ. "سَأَعْرِضُ عَلَيْكَ خِيَارَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَتَخَلَّى عَنِ الطِّفْلِ الْآنَ، وَسَوْفَ تَعِيشُ حَيَاةً طَوِيلَةً سَعِيدَةً، تَقْضِيهَا مَعَ مَلِكَةِ الْجِنِّيَّاتِ".

"وَأَمَّا؟" تَسَاءَلَتِ الْمَلِكَةُ.

"وإِذَا تَحْتَفِظِينَ بِهَا حَتَّى صَبَاحِ عِيدِ مِيلَادِهَا الثَّامِنِ عَشَرَ، عِنْدَمَا يَأْتِيهَا حَبِيبُهَا، وَحِينَهَا سَتَتَرَكُكِ إِلَى الْأَبَدِ. فَكُفِّي جِدًّا؛ فَالاحتفاظ بها لوقتٍ أطولٍ يعني أنكِ ستحبِّينها بشكلٍ أعمقٍ".

"لا أحتاج إلى التفكير. سأختار الخيارَ الثاني".

ابْتَسَمَتِ العجوزُ حَتَّى بَانَتِ الفجوةُ السوداء في فمها. "إنها لكِ إذن، لكن فقط حتى صباح عامها الثامن عشر".

في تلك اللحظة بدأت الأميرة الرضيعَةُ تبكي للمرة الأولى منذ ميلادها. التفتت الملكة لتأخذ الطفلة بين ذراعيها، وحينما نظرت مُجَدِّدًا كانت العجوز قد اختفت.

كَبُرَتِ الأميرة وصارت طفلةً جميلةً، تُشِعُّ فَرَحًا وإشراقًا. سَحَرَتِ البحرَ بغنائها، وَجَلَبَتِ الابتسام على وجوه جميع مَنْ في المملكة، باستثناء الملكة، التي سيطر عليها الخوف. حينما كانت الأميرة تغني لم تَكُنِ الملكة تصغي، وحينما كانت ترقص لم تكن تراها، وحينما تَمُدُّ يدها إليها، لم تكن تشعر بها، كانت مُنْهَمِكَةً في حساب الوقت المتبقي قبل أن تُؤخَذَ منها.

وَمَرُورِ السَّنَاتِ، تَزَايَدَ خَوْفُ الملكة من الحَدَثِ الْمُظْلِمِ البارد الذي يتوارى في الزوايا والأركان. نسي فَمُهَا الابتسام، وتزايَدَتِ التجاعيد على جبهتها. وفي إحدى الليالي، جاءتها العجوز في حلم وهي تقول: "ابنتُكِ تكاد تُتَمُّ العاشرة. لا تَنْسِينَ أن حبيبها سيعثر عليها في عيد ميلادها الثامن عشر".

"لقد غَيَّرْتُ رأيي. لا يمكنني أن أتركها، لن أدعها تذهب".

"لقد وَعَدْتَنِي، ويجب أن تفي بوعدك".

في صباح اليوم التالي، بعدما تأكَّدت من أن الأميرة كانت تحت الحراسة، ارتدت الملكة رداء السفر، وأرسلت في طلب جوادها. برغم

أَنَّ السُّحْرَ كَانَ مُحَرَّمًا فِي الْقَلْعَةِ، كَانَ هُنَاكَ مَكَانٌ وَاحِدٌ مَا زَالَ يُمَارَسُ السُّحْرَ وَالتَّعَاوِيذَ. فِي كَهْفٍ أَسْوَدٍ يَقَعُ عَلَى طَرَفِ بَحْرِ مَسْحُورٍ تَعِيشُ جِنِّيَّةٌ لَيْسَتْ شَرِيْرَةً وَلَا طَيِّبَةً. كَانَتْ مَلِكَةَ الْجِنِّيَّاتِ قَدْ عَاقَبَتْهَا لِاسْتِخْدَامِ السَّحْرِ بِشَكْلِ أُخْرَقٍ؛ فَظَلَّتْ مَخْتَبِئَةً حِينَمَا هَرَبَتْ بَاقِي السَّاحِرَاتِ مِنَ الْبِلَادِ. كَانَتْ الْمَلِكَةُ تَعْلَمُ أَنَّ طَلِبَ مَسَاعِدَةِ هَذِهِ الْجِنِّيَّةِ يُعَدُّ أَمْرًا خَطِيرًا، وَلَكِنهَا لَمْ تَجِدْ أَمَامَهَا سِوَى هَذَا الْأَمْلِ.

ظَلَّتْ الْمَلِكَةُ تَعْدُو بِجِوَادِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالٍ، وَحِينَمَا وَصَلَتْ أُخِيرًا إِلَى الْكَهْفِ كَانَتْ الْجِنِّيَّةُ فِي انْتِظَارِهَا. "تَعَالَى وَأَخْبِرْنِي مَاذَا تَرِيدِينَ".

أَخْبَرَتْهَا الْمَلِكَةُ عَنِ الْعَجُوزِ وَوَعَدَهَا بِالْعُودَةِ لِتَأْخُذَ الْأَمِيرَةَ فِي عِيدِ مِيلَادِهَا الثَّامِنِ عَشَرَ، وَأَصْغَتِ الْجِنِّيَّةُ، وَحِينَمَا انْتَهَتْ قَالَتْ: "لَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أُبْطَلَ لَعْنَةُ الْعَجُوزِ، وَلَكِنْ بوسعي مُسَاعَدَتِكَ".

"إِنِّي أَمُرُّكَ بِذَلِكَ". قَالَتْ الْمَلِكَةُ.

"لَكِنِّي أُحَدِّثُكَ يَا مَلِكَتِي، حِينَمَا تَسْمَعِينَ مَا أَعْرَضَهُ عَلَيْكَ، لَنْ تَشْكُرِينِي عَلَى مَسَاعِدَتِي". ثُمَّ مَالَتْ وَهَمَّسَتْ فِي أُذُنِ الْمَلِكَةِ.

لَمْ تَتَرَدَّدْ الْمَلِكَةُ، أَيُّ شَيْءٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ خَسَارَةِ طِفْلَتِهَا. "سَأَفْعَلُ".

نَاوَلَتْهَا الْجِنِّيَّةُ شَرَابًا سَحْرِيًّا، وَأَمَرَتْهَا أَنْ تَعْطِيَ مِنْهُ لِلْأَمِيرَةَ ثَلَاثَ قَطْرَاتٍ مُدَّةَ ثَلَاثِ لَيَالٍ. "وَسَيَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ كَمَا وَعَدْتُكَ. وَلَنْ تُرْزَعَجَكَ الْعَجُوزُ مُجَدَّدًا؛ لِأَنَّ حَبِيبَ الْأَمِيرَةَ هُوَ وَحْدَهُ مَنْ سَيَعِثُ عَلَيْهَا".

أَسْرَعَتِ الْمَلِكَةُ بِالذَّهَابِ إِلَى قَصْرِهَا، وَقَدْ هَدَأَ ذَهْنُهَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى مِنْذُ تَعْمِيدِ ابْنَتِهَا، وَلِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ظَلَّتْ تَضَعُ ثَلَاثَ قَطْرَاتٍ مِنَ الشَّرَابِ السَّحْرِيِّ فِي كَأْسِ الْحَلِيبِ الَّذِي كَانَتْ تَتَنَاوَلُهُ الْأَمِيرَةُ. وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّلَاثَةِ، حِينَمَا شَرِبَتِ الْأَمِيرَةُ كَأْسَهَا بَدَأَتْ تَخْتَنِقُ، وَسَقَطَتْ مِنْ مَقْعَدِهَا، وَتَحَوَّلَتْ إِلَى طَائِرٍ جَمِيلٍ، مِثْلَمَا تَنْبَأُ الْجِنِّيَّةُ. حَلَّقَ الطَّائِرُ فِي الْغُرْفَةِ، وَأَمَرَتْ الْمَلِكَةُ الْخَادِمَ بِإِحْضَارِ الْقَفْصِ الذَّهَبِيِّ مِنْ مَهْجَعِ الْمَلِكِ. رُجَّ

بالطائر داخله، وأغلق الباب الذهبي، وتنفّست الملكة الصّعداء. لقد كان الملك ذكيًّا؛ فالقفص لا يمكن فتحه بعدما أُغلق.

"أنتِ بأمان الآن يا جميلتي، ولن يأخذنكِ أحدٌ مِنِّي بعد اليوم". ثم علّقت القفص من حُطّافٍ أعلى برج القلعة.

وبعدما حُبِسَت الأميرة في القفص، انطفأت البهجة في المملكة، وغرقت أرض الجِنِّيَّات في شتاءٍ أبديٍّ، وجفّت المحاصيل، وجذبت الأرض الخصبّة. كانت أغنيات الطائر هي ما أبعدت اليأس من قلوب الناس. كان شدوهُ الجميلُ الحزين يخرج من نافذة البرج وينتشر في الأرض الجذباء.

مرَّ الزَّمَنُ كدأبه، وساق الطَّمَعُ الأمراءَ للمَجِيءِ من أماكن بعيدة لإطلاق سراح الأميرة المحبوسة. فقد انتشرت شائعة تقول إن في مملكة أرض الجِنِّيَّات القاحلة قفصٌ ذهبيٌّ مَمِينٌ للغاية، حتى أن كنوزهم بجواره تبدو متواضعة، وبداخله طائرٌ حبيس يشدو أعذب الأغنيات، حتى أن قطعًا ذهبية كانت تَسَاقُطُ من السماء حينما يغني. لكن جميع مَنْ حاولوا فتح القفص كانوا يموتون بمجرد أن يلمسوه. كانت الملكة تجلس ليلَ نهارٍ على كُرْسِيِّها الهَزَّازِ، تحرس القفص لِكَيْلَا يسرق أحدٌ كنزها الثمين. كانت تضحك حينما ترى الأمراءَ المقتولين؛ فالخوف والشكُّ تآمرا أخيرًا وقاداها إلى الجنون.

وبعد سنواتٍ، وصل إلى الغابة من أرض بعيدة الابن الأصغر لِحَطَّابٍ. وبينما كان يقطع الأخشاب، حَمَلَ النَّسِيمُ نغماتٍ حَزِينَةً، فتوقّف عن العمل، يصغي إليها، ولم يُحرِّك ساكنًا كأنه تحوّل إلى حجر. لم يتمالك نفسه، فوضع فأسه جانبًا، وذهب يبحث عن الطائر الذي يشدو بهذه الألحان الحزينة الجميلة. وبينما أخذ يَشُقُّ طريقه عبر الغابة مُفْرِطَةً النُّمُو، ظهرت الطيور والحيوانات لتساعده؛ فشكرهم. كان ابنُ الحَطَّابِ رقيقَ القلب يحبُّ جميع المخلوقات. اخترق نباتات

العُليق، وركض في الحقول، وتسَلَّقَ الجبال، ونام الليالي في تجاويف الشجر، وأكل الفاكهة والجوز، حتى وصل أخيراً إلى أسوار القلعة.

"كيف وَصَلْتَ إلى هذه الأرض المهجورة؟" قال الحارس.

"تَبَعْتُ أغنيةَ طائرِكم الجميل".

"استدِرْ واذهَبْ إِنْ كُنْتَ تُريدُ النِّجاةَ بحياتِكَ. فكلُّ مَنْ في هذه المملكة مَلْعُونٌ، وَمَنْ يلمس قفص الطائر الحزين يموت".

قال ابن الخطاب: "ليس لديَّ شيءٌ أُحِبُّهُ أو أخسره، ويجب أن أرى بنفسِي مصدر هذا الغناء الجميل".

وحدث أنه في هذه اللحظة، بلَغَتِ الأميرةُ الطائرُ عيدَ ميلادها الثامن عشر، وشَرَعَتْ تَشْدُو أجمل الأغنيات وأحزنتها، وهي تنوح على خسارة شبابها وحرَّيتِها.

تنحَّى الحارس جانبًا، وسار الشاب في القلعة، وصعد الدَّرَجَ المُؤدِّي إلى قمة البرج. وحينما رأى ابن الخطاب الطائرَ الأسير، فاض قلبه بالعطف، لم يكن يُحِبُّ أن يرى طائرًا أو حيوانًا أسيرًا. نظر إلى ما وراء القفص الذهبي ورأى فقط بداخله الطائر. مَدَّ يده نحو باب القفص، ومع لمسته انفتح الباب، وحلَّقَ الطائرُ حرًّا.

في تلك اللحظة، تحوَّلَ الطائرُ إلى امرأةٍ حسناء ذات شعرٍ طويل يتموِّج حولها، وتاج من أصداف البحر المتلألئة على رأسها. جاءت الطيور من الأشجار البعيدة ومناقيرها ألقت عليها بقطعٍ لامعة التصقَّت بها حتى اكتسبت بالفضة. وعلى الفور، عادت الحيوانات إلى المملكة، وكبرت المحاصيل، ونَمَت الزهور من التربة العقيمة.

في اليوم التالي، وبينما الشمس ترسل أشعتها المتلألئة على البحر، دَوَّى صوتٌ كالرعد، وظهرت عند بوابات القلعة سِتَّةُ خيولٍ مسحورة تجرُّ خلفها عربةً ذهبيةً. نزلت ملكة الجنيات من العربة، وانحنى

لها كُلُّ الرِّعَايَا. وكان يسير وراءها جِنِّيَّةٌ كهف البحر، والتي أثبَّتَتْ
إِخْلَاصَهَا بِتَلْبِيَةِ أَوَامِرِ مَلِكْتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ، وَضَمَانِ اسْتِعْدَادِ الْأَمِيرَةِ
رُوزَالِنْدٍ حِينَمَا يَأْتِي إِلَيْهَا حَبِيبِهَا. وَتَحْتَ رِعَايَةِ مَلِكَّةِ الْجِنِّيَّاتِ، تَزَوَّجَتْ
الْأَمِيرَةُ رُوزَالِنْدٌ مِنْ ابْنِ الْحَطَّابِ، وَغَمِرَتْ الْفَرِحَةُ قَلْبَ الزَّوْجَيْنِ، وَعَادَ
السَّحَرُ إِلَى الْبِلَادِ، وَتَحَرَّرَ جَمِيعُ مَنْ فِي أَرْضِ الْجِنِّيَّاتِ، وَعَاشُوا سَعْدَاءَ.

مَاعَدَا الْمَلِكَةَ بِالطَّبْعِ، وَالَّتِي اخْتَفَتْ، وَلَمْ يَعْثُرُوا لَهَا عَلَى أَثَرٍ. وَوَجَدُوا
مَكَانَهَا طَائِرًا قَبِيحًا ضَخْمًا، كَانَتْ صَرَخَاتِهِ الْبَشِيعَةَ تُجَمِّدُ الدَّمَاءَ فِي
الْعُرُوقِ. طُريدَ مِنَ الْبِلَادِ، وَطَارَ إِلَى غَابَةِ بَعِيدَةٍ، وَهَنَاكَ قَتَلَهُ الْمَلِكُ
وَالْتَهَمَهُ. أَمَّا الْمَلِكُ فَسَقَطَ فِي حُفْرَةِ الْجَنُونِ وَالْيَأْسِ بِسَبَبِ مُطَارَدَتِهِ
الشَّرِيرَةِ وَالْعَقِيمَةِ لِمَلِكَةِ الْجِنِّيَّاتِ.

مكتبة

t.me/t_pdf

(31)

عزبة بلاكهرست، 1907

سَمِعَت إيليزا طَرْقَةً فَظَنَّتْ عَلَى الْبَابِ فَخَبَّاتُ قِصَّةَ (الطفلة المسحورة) وراء ظهرها. وشعرت بوجنتيها تتوردان بالانتظار. أسرعت ماري بالدخول، وخُصَّلات شعرها المعقوفة أكثر فوضى من قبل. كان شعرها دائماً مُؤَشَّرًا مُمْتَازًا عَلَى مِزَاجِهَا، فَأَدْرَكَتْ إيليزا أَنَّ الْمَطْبَخَ مَشْغُولٌ بِإِعْدَادَاتِ عِيدِ الْمِيلَادِ.

"ماري! كنت أتوقَّع مجيء روز".

زَمَّتْ ماري شَفَتَيْهَا، وَكَانَتْ إِشَارَةً مُتَكَلِّفَةً غَيْرَ مَأْلُوفَةٍ تَدْفَعُ إيليزا إِلَى الضَّحْكِ. "السَّيِّدُ يَرِيدُ أَنْ يِرَاكْ يَا آنَسَةَ إيليزا".

"خالي يريد أن يراني؟" برغم تَجَوُّلِهَا فِي كُلِّ أَنْحَاءِ الْعِزْبَةِ خِلَالَ سِنَوَاتِ إِقَامَتِهَا فِي بِلَاكْهَرَسْتِ، قَلَّمَا قَابَلَتْ خَالَهَا. كَانَ شَخْصًا غَامِضًا

يقضي جُلَّ وقته يجوب أوروبا بحثًا عن الحشرات، الصور التي يسرقها خلسةً ليضعها في غرفته المظلمة.

"هيا الآن يا آنسة إيليزا. أسرعى."

كانت ماري تبدو أكثر جدِّيَّةً. قطعت الردهة بسرعةٍ ونزلت الدَّرَجَات الخلفيَّة الضَّيِّقَة، واضطَّرت إيليزا إلى الركض وراءها مُسرِّعةً. في الأسفل، بدلًا من الانحراف يسارًا إلى الجزء الرئيسي من المنزل، انعطفت ماري يمينًا وهرعت في الممرِّ الهادئ. كان ممرًّا مُعتمًا لوجود مصابيح قليلة. ولاحظت إيليزا عدم وجود لوحاتٍ أيضًا، لم تُجرِّ محاولاتٍ لتزيين الجدران المُعتمَة الباردة.

حينما وصلت إلى الباب البعيد، توقَّفت ماري، وحينما أوشكت على فتحه، اختلست نظرة من وراء كتفها، وضغطت على يد إيليزا ضغطةً خفيفة غير مُتوقَّعة تمامًا.

وقبل أن تستوضحها إيليزا، انفتح الباب وأعلنت ماري حضورها.
"الآنسة إيليزا يا سيدي".

ثم ذهبت وتركتها بمفردها على عتبة عرين الخال. هبت عليها رائحةٌ غريبة للغاية.

كان الخال جالسًا خلف مكتبٍ خشبيٍّ كبير في مؤخِّرة الغرفة.
"هل أرسلتَ لرؤيتي يا خالي؟" انغلق الباب خلفها.

نظر الخال لينوس من فوق نظارته. وتساءلت إيليزا مُجددًا كيف يُمثُّ هذا العجوز، الذي يحمل وجهًا مليئًا بالبثور والبُقَع، بِصَلَة إلى أمِّها الجميلة. ظهر طرف لسانه الشاحب بين شفَتَيْهِ. "سمعتُ أنَّك أحسنتِ صُنْعًا في غرفة الدرس خلال سنوات إقامتِك في بلاكهرست".

"أجل يا سيدي".

"أخبرني رجلي ديفيس أنك مُغرمة بالحدائق".

"أجل يا خالي". منذ يومها الأول في بلاكهرست، شُغِفَت إيليزا بالعزبة. بالإضافة إلى معرفتها بالممرات التي تجري أسفل الأجراف، كانت تحفظ الجزء المُشدَّب المعروف من المتاهة والحديقة الواسعة كمعرفتها بشوارع لندن الضبابية. وفي كل مرة كانت تزورها وتكتشف فيها، كانت الحديقة تنمو وتتغيَّر مع كل فصل.

"إنه أمرٌ مُتوارثٌ في عائلتنا. أمك...!" تحشرج صوته. "في صباها كانت أمك شغوفةً بالحديقة".

حاولت إيليزا استيعاب تلك المعلومة وربطها بذكرياتها عن أمها. واستعدت شظايا صور من الزمن، الأم في الغرفة العلوية بمنزل السيدة سويندل، آنية صغيرة ذات عُشبٍ طيب الرائحة. لم يعيش طويلاً، لا شيء ينمو في ظل تلك الظروف القاسية.

قال الخال وهو يشير بيده: "اقتربي يا فتاة. دعيني أرك في الضوء".

ذهبت إيليزا إلى الجانب الآخر من المكتب ووقفت بجوار رُكبتيه. كانت رائحة الغرفة أقوى الآن، كأنها قادمةٌ من الخال نفسه.

مدَّ يده المرتعشة قليلاً، ولمس بنعومة الأطراف الذهبية من شعر إيليزا الأحمر الطويل. سحب يده كالمسوع.

ارتجف.

"هل أنت مريضٌ يا خالي؟ هل أحضرُ أحدهم للمساعدة؟".

أجابها بسرعة: "كلًا، كلًا". ثم مدَّ يده ليُمسَدَ شعرها مرةً أخرى، وأغمض عينيه. كانت إيليزا قريبةً للغاية حتى أنها رأت مُقلتيه تتحرَّكان أسفل جفنيه، وسمعت قطعةً ضئيلة في حلقه. "لقد بحثنا طويلاً، في كل مكان، لكي نحضر والدتك... لكي نحضر العزيرة جورجيانا إلى المنزل".

"أعلم يا سيدي". قَصَّت ماري عليها كثيراً وقائع تلك الفترة، وأخبرتها عن مدى تَعَلُّق الخال لينوس بشقيقته الصغرى، وقلبه الذي تَحَطَّم حينما رحلت، ورحلاته المُتكرِّرة إلى لندن، والبحث المحموم الذي أفنى شبابه وعكَّر حالته النفسية، وحماسه لمغادرة بلاكهرست كلِّ مرة، والعودة الحتمية المُحبَّطة، وجلوسه وحيداً في الغرفة المُظلمة، يُعاقر الخمر، ويرفض أيَّ نصيحةٍ، حتى من زوجته أدالين، إلى أن ظهر السيد مانسيل مُجدِّداً بخبر جديد.

"سبق السيف العذل" كان يُمَسِّدُ شَعْرَهَا بِقُوَّةِ الْآن، وأخذ يَلْفُه حول أصابعه كالشريط. كان يسحبه، واضطرتَّ إيليزا إلى التَّمَسُّك بحافَّة المكتب لتتحاسى التَّعَثُّر. سَحَرَهَا وجهه، كان شبيهاً بملكٍ مجروح في قِصَّة خياليَّة هَجَّرَه جميع رعاياه. "فات الأوان. لكنك هنا الآن. وحمداً لله سنحت لي فرصة أخرى".

"خالي؟".

سَقَطَتْ يَدُ خالها على حِجْرِهِ وفتح جفنيه. ثم أشار إلى مقعدٍ طويل صغير عند الحائط البعيد، مُحاطٍ بقماشٍ موصلٍ أبيض. "اجلسي".

نظرت إيليزا إليه.

تقدَّم ببطءٍ إلى منصبٍ أسود ثلاثي القوائم بجانب الحائط وقال: "اجلسي. أريد أن التقط لك صورة".

لم يُلْتَقَطْ لإيليزا صورة من قبل، ولم تَعَبْ بالتقاط صورة الآن. وبمجرد أن فَتَحَتْ فَمَهَا لِتُخْبِرَهُ بذلك، انفتح الباب.

"غداء عيد الميلاد..." توقَّفت كلمات زوجة الخال أدالين بحدَّة. قَفَزَتْ يَدُهَا النحيلَة إلى صدرها. شَهَقَتْ وقالت: "إيليزا! ماذا تفعلين هنا يا فتاة؟ إلى الأعلى فوراً. روز تُريدك".

هرعت إيليزا نحو الباب.

وبصوتٍ كالضحك قالت وهي تمرُّ بجانبها: "كُفِّي عن إزعاج خالكِ. أَلَا تَرَيْنَ مَدَى إِرْهَاقِهِ مِنْ أَسْفَارِهِ؟".

إذ جاء اليوم. لم تعرف أدالين كيف سيكون، لكن التهديد كان موجوداً دائماً، يتوارى في الأركان المظلمة؛ فلم تذوق طعم الراحة قط. جرت على أسنانها، ودفعت غضبها إلى عظام مؤخره عنقها. وحاوت إبعاد الصورة عن ذهنها. ابنة جورجيانا، بشعرها المسترسل، تراقب العالم برمته كشبح من الماضي، والتعبير على وجه لينوس، وجهه القديم يتحول إلى وجه شابٍّ أحمق. كيف يجرؤ على التفكير في التقاط صورة فوتوغرافية للفتاة! الأمر الذي لم يفعله قط مع روز ولا أدالين.

"أغلق عيني يا ليدي مونتراشيه" قالت الخادمة، وفعلت كما طلب منها. كانت أنفاس المرأة الأخرى دافئة وهي تمسح الشعر عن جبين أدالين، مريحة بشكل غريب. تمت الجلوس هنا إلى الأبد، حيث الدفء، والأنفاس الحلوة لهذه الفتاة المرححة البلهاء، وما من مزيد من الأفكار الأخرى. "افتحيها مجدداً يا سيديتي. سأجلب لك قرطي اللؤلؤ".

انطلقت الخادمة بسرعة تاركة أدالين وحدها مع أفكارها. انحنى إلى الأمام. كان جبينها أملس، وشعرها أبيضاً. قرصت وجنتيها بقوة أكثر من اللازم، وعادت منتصبة في جلستها لتلقي نظرة فاحصة شاملة. كم هي قاسية الشيخوخة! تغييرات صغيرة تنزلق دون أن يلحظها المرء، تفلت من بين أنامله. رحيق الشباب ينسل من منخل أعمى تتسع ثقوبه شيئاً فشيئاً. همست أدالين إلى المرأة القاسية: "هكذا يتحول الصديق إلى عدو".

"أحضرت لكِ يا سيدتي قرطي اللؤلؤ مع المشبكِ الياقوتي. إنه جميلٌ ومُبهِجٌ في هذه المناسبة السعيدة. من يتصوّر! مأدبة عيد ميلاد الأنتسة روز، ثمانية عشر عامًا! ثم حفل زفاف، تذكري كلماتي...".

بينما استمرّت الخادمة في ثرثرتها، أشاحت أدالين بعينيها، رافضةً النَّظَرَ مُجَدِّدًا على انحسار جمالها وشبابها.

كانت الصورة الفوتوغرافية مُعلَّقة كدأبها، بجانب منضدة الزينة. كم تبدو مناسبة في ملابس عُرسها. لن يُخَمَّنَ أحدٌ مدى ما قاسته لتظهر بشكل هادئٍ في هذه الصورة. أمّا لينوس فيبدو عريسًا نبيلًا، ربما مُتَجَهِّمًا، لكنّ ذلك كان السائد.

تزوَّجًا بعد عام من اختفاء جورچيانا. منذ وقت الخطوبة، عملت أدالين لانجلي بدأبٍ لبناء نفسها من جديد. اعتزّمت أن تصبح امرأةً جديدة باسم مونتراشيه القديم العظيم؛ فنبذت لهجتها الشمالية وأذواق القرى الصغيرة، والتّهَمَت كتب ديبريتس التي تُعلِّم آداب السلوك، وثقّفت نفسها في فنون الأناقة والكياسة. علّمت أدالين أنّ عليها مضاعفة جهودها لتكون سيّدةً راقية إن أرادت مَحْوَ حقيقة أصولها من ذاكرة الناس.

قالت الخادمة: "هل تريدين ارتداء قلنسوتكِ الخضراء ليدي مونتراشيه؟ إنها تُناسب هذا الفستان، وإذا توجّهتِ إلى الخليج الصغير ستحتاجين إلى قُبْعة. هل أتركها على الفراش؟".

لم تتوقَّع أدالين أن تكون ليلة زفافهما بذلك الشكل. لم تعرف إن كانت مُخيِّبةً لِظَنِّ لينوس أيضًا أم لا، بالتأكيد لم تكن لتطرح سؤالًا كهذا. قلّما تشاركا فراش الزوجية بعد ذلك، بل وقّلت تلك المرّات، حينما شرع لينوس في جولاته. كان يقول إنه يلتقط الصور الفوتوغرافية، لكنّ أدالين كانت تعلم الحقيقة.

كم شعرت بحقارتها! لقد فشلت في أن تكون زوجةً وامرأةً. والأسوأ من ذلك، فشلت في أن تكون سيِّدةً مُجتمَع. فبرغم جهودها الكثيرة، لم تُوجَّه إليهما دعواتٌ كثيرة. كانت صحبةً لينوس، حينما يكون في بلاكهرست، تَبَعْتُ على السَّامِ والكآبة؛ يقف وحيدًا معظم الوقت، ويردُّ على الأسئلة بجفافٍ، وعند الضرورة. وعندما كانت أداين تَمْرَضُ أو تشحب أو تشعر بالإرهاق، أرجعت ذلك إلى الكآبة. لكن حينما بدأت بطنها تنتفخ أدركت أنها حُبلى.

"لقد انتهينا ليدي مونتراشيه. قُبَعْتُك على الفراش، وها أنتِ جاهزة للحفل".

قالت بابتسامةٍ واهنة: "شكرًا لكِ يا بوبي. يَمَكِّنُكِ الانصراف".

أغلق الباب، وخلعت أداين الابتسامة، ونظرت إلى وجهها في المرآة مُجدِّدًا.

كانت روز الوريثة الشرعية لمجد آل مونتراشيه. وهذه الفتاة، ابنة جورچيانا، لم تكن سوى مجرد طائر وقواق، أُرسِلت لتحلَّ محلَّ طفلتها الوحيدة، لكي تُبعدها عن العُشِّ الذي كافحت أداين لتجعله ملكها.

لفترة من الزمن كان النظام قائمًا. تأكَّدت أداين أن تكسي روز بفساتين جديدة جميلة، وتوفَّر لها أريكةٌ مُريحة لتجلس عليها، بينما كانت إيليزا ترتدي ملابس روز القديمة. كانت أخلاق روز، وطبيعتها الأنثويَّة مثاليَّة، بينما ظلَّت طبيعة إيليزا غيرَ مُهدَّبة. كانت أداين هادئة.

وفي مرحلة البلوغ تغيَّرت الأشياء، وانزلقت من قبضة أداين. لم تهتمَّ ببراعة إيليزا في حُجرة الدُّرس، الناس لا يُفضُّلون المرأة الذكية، لكن الآن، صارت تقضي نُزهاتها في هواء البحر الطلق، وبشَّرتها تَشِي بالصَّحَّة، وطال شعْرُها، هذا الشعر الأحمر اللعين. كانت تكبر وتنضج.

سمعت البارحة إحدى الخادِمات تتحدَّث عن جمال الأَنسة إيليزا، وكيف أنها أجملُ من أمِّها، الأَنسة چورچيانا. تجمَّدت أدالين في مكانها حينما سمعت الاسم. بعد كل تلك السنوات من الصمت، كان يتربُّص بها الآن في كل زاوية، ويسخر منها، ويذكِّرها بأصلها الوضيع، وفشلها في ملاءمة الطبقة الأرستقراطية، برغم جهودها الدؤوب أكثر من چورچيانا.

شعرت أدالين بنقرةٍ خفيفة في صدغها. رفعت يدها وضغطت برفق. ثمة مشكلة مع روز. كانت هذه البقعة من صدغها حاسَّتْها السادسة. استحوذت أدالين على أمراض ابنتها منذ نعومة أظافرِها. كانت رابطةً لا تنفصمُ بين الأمِّ وابنتها.

والآن صدغها يؤلمها مُجدِّداً. زمت شفيتها بعزم. نظرت إلى وجهها الصارم كأنه ينتمي إلى شخصٍ آخر غريب، سيِّدة منزل نبيل، امرأة ذات سُلطة لا تُقهر. تنفست بقوة. لا بُدَّ أن تحمي روز المسكينة التي لا تدرك أن إيليزا تُمثل تهديداً.

اختمرت فكرةً في ذهنها. لا يمكن إرسال إيليزا بعيداً، لن يسمح لينوس بذلك قطُّ، وستحزن روز، بالإضافة إلى أنه من الأفضل أن تجعل أعداءك بالقرب منك، لكنها ستخلق سبباً للسفر بروز خارج البلاد لفترة من الزمن، إلى باريس أو نيويورك؛ كي تمنحها الفرصة للإشراق بعيداً عن وهج إيليزا الذي يخطف الإبصار، ويحطم كلَّ فرصة أمامها...

سوت جونلتها وهي تتجّه نحو الباب. هناك شيء واحد مُؤكِّد، لن يكون هناك زيارة للخليج الصغير اليوم. كان وعداً أحرق قطعته في لحظة ضعفٍ. وحمداً لله أن الوقت لم يفت لاستدراك الخطأ. لن تسمح لشرور إيليزا أن تُفسدَ روز.

أغلقت الباب خلفها وشرعت تمشي في الردهة، وجونلتها تُصدِرَ حفيفًا. بالنسبة إلى لينوس، ستعرف كيف تشغله. كانت زوجته، ومسؤوليتها تُحتمُّ عليها أن تضمن عدم وجود فرصة لكي يعاني بسبب رغباته الخاصة. سيرحل إلى لندن. ربما تطلب من زوجات المسؤولين في الحكومة أن يستعينوا بخدماته، أو تقترح أماكن تصويرٍ غريبة، وتُرسله بعيدًا. لن تسمح للشيطان أن يَبُتَّ شروره من خلاله.

مال لينوس بظهره إلى الورا على مقعد الحديقة، وعَلَّقَ عصاه المصنوعة من الخيزران أسفل الذراع المُزخرف. كانت الشمس تغرب وقد لَوَّنَ العَسْقُ الحافةَ الشرقية من العِزْبَةِ بلونٍ بُرتقاليٍّ وزهريٍّ. لقد هَطَلَّ المطرُ بكَمِّيَّةٍ وافرة خلال هذا الشهر وتلألأت الحديقة. لكن لينوس لم يَعبَأَ.

على مدار قرون كان آل مونتراشيه خُبراءَ في البَسْتَنَةِ. جاب أجدادُه الكُرَّةَ الأرضيَّةَ بحثًا عن النباتات الغريبة ليعزِّزوا أراضيهم. لكن لينوس لم يَربِثْ هذه المهنة. بل ورثها أخته الصغرى...

لكن ذلك لم يكن صحيحًا بشكلٍ دقيق.

فقد اهتمَّ بالحديقة منذ أَمَدٍ بعيد. حينما كان في صباه يتبع ديفيس في جولاته، مُنْدهِشًا من الزهور الشائكة في الحديقة، والأناناس في الدفيئة، والطريقة التي تظهر بها البراعم بين عشيةٍ وضحاها.

والأكثر إعجازًا من كل هذا، اختفى حَجَلُه في الحديقة. لم تهتمَّ النباتات والأشجار والأزهار بأن قَدَمَه اليُسرى توقفت عن النُموِّ ببضع بوصاتٍ، وصارت أقصرَ من اليمنى، كأنها شيءٌ إضافيٌّ عديم الفائدة، مُعَوِّقَةٌ ومُوقِّسَةٌ وغريبة. كان هناك مكانٌ لكلِّ شيءٍ ولكلِّ شَخِصٍ في حديقة بلاكهرست.

حينما كان في السابعة من عمره، صَلَّى طريقه في المتاهة. كان ديفيس قد حَذَّرَه من التَّوَعُّلِ بمفرده إلى الداخل، وأخبره أن الطريق كان طويلةً، ومُظلمةً، ومليئةً بالعقبات، لكنَّه وقع في شراكِ حماس الطفولة، والمتاهة بأسوارها المورقة الكثيفة، ووعدها بالمغامرة. كان فارسًا، ذاهبًا نحو معركةٍ مع أشرسِ تَيْنَيْنِ في الأنحاء، وسيخرج منتصرًا، ويشقُّ طريقه إلى الناحية الأخرى.

ارمَتِ الظَّلَالُ مُبَكَّرًا في المتاهة. لم يَلْحَظْ لينوس الظَّلَامَ الذي أخذ ينتشر في المكان بسرعة. مع الغَسَقِ عادت التماثيل إلى الحياة. كانت تنظر إليه شَزْرًا من مخابئها، وتحوَّلت الأسوار الطويلة إلى وحوش جائعة، وتلاعَبَت به السياجات المُنخَفِضَة، فكان يَظُنُّ أنه سائرٌ نحو الاتجاه الصحيح، بينما هو في الواقع يعود أدراجه. أم هل كان حقًّا؟

وصل إلى منتصف الحديقة واستسلم تمامًا إلى اليأس. والأسوأ من ذلك أن جَرَسًا نُحاسيًّا مُعلَّقًا برصيفٍ على الأرض وثب وجعله يتعَثَّرُ، وطوَّحه على الأرض؛ فالتوى كاحِلُه السليم ككاحل دُمِيَّةٍ بِالِيَّةِ رخيصة. ولم يَجِدْ مَفْرَأً سوى الجلوس، كاحِلُه يُؤَلِّمه، ودموع الغضب تسيل على خَدَّيْهِ ساخِنَةً.

مَكَّثَ لينوس ينتظر. واستحال الغَسَقُ ظِلْمَةً، وصار النَّسِيمُ البارد برد قارس، وجفَّت دموعه. فيما بعد علم أن أباه رفض إرسال أيِّ شخص يبحث عنه. قال إنه كان صبيًّا، وسواءً كان أعرج أم لا، يجب أن يَعَثُرَ على طريقه ويخرج من المتاهة؛ لأنَّه هو بنفسه، سانت چون لوك، قد فعل ذلك حينما كان في الرابعة من عمره فحسب. إن الصَّبِيَّ بحاجة إلى الصَّرامة لكي يشتدَّ عوده.

بات لينوس يَرْتَعِشُ في المتاهة طيلة الليل، وفي نهاية المطاف أَقْنَعَتْ أُمُّهُ الأبَّ بإرسال ديفيس للبحث عنه.

استغرق شفاء كاحل لينوس أسبوعاً، لكن طيلة الأسبوعين التالين ظلَّ الأب يسوقه إلى المتاهة، ويُجبرُّه على أن يجد طريقه عبرها، ثم يُعَنِّفه لفشله في النهاية. بالليل كان لينوس يحلم بالمتاهة، وبالنهار كان يرسم خرائط لها من ذاكرته. كان يُحاولُ حَلَّها كمسألةٍ رياضيَّةٍ، فلا بُدَّ أن هناك حَلًّا. لو كان جديراً بالاحترام لِشَقِّ طريقه فيها دون أن يَضِلَّ.

بعد أسبوعين، استسلم الأب. في اليوم الخامس عشر، حينما ظهر لينوس لكي يُؤدِّي اختبارَه اليومي، قال أبوه دون أن يبعد الصحيفة عن عينيه: "لقد خيبت أُملي فيك. صبيُّ أحمق لن تستطيعَ عَمَلَ أيِّ شيءٍ" ثم قلب صفحة، وتصفَّح العناوين الرئيسية. "أخرج من غرفتي".

لم يَقْترب لينوس من المتاهة مرَّةً أُخرى. لم يكن بوسعه إلقاء اللوم على الأب والأم لفشله المُخجَل. كانا مُحَقِّقين؛ كيف لصبي أن يَضِلَّ في متاهة؟ لذلك ألقى باللوم على الحديقة. واعتادَ على اقتلاع الجذور، وإزالة الإزهار، ووطأ البراعم الجديدة.

إن البشر تُشكِّلهم عوامِل لا يتحكَّمون فيها، أو سِماتٌ موروثَةٌ، أو طبائعٌ مُكتسَبَةٌ. بالنسبة للينوس شكَّلت شخصيَّته عظام قَدَمه التي رفضت النُموَّ. أخذ يكبر، وجلب العَرَجُ الخَجَل، وأدَّى الخَجَلُ إلى التَّلَعُّم؛ فنشأ صبيًّا صغيراً غير مَحْبوبٍ، واكتشف أن التَّصَرُّفَ بشكل سيِّئٍ هو الذي يجذب الانتباه له؛ فرفض الخروج، وشحبت بشرته، ونحفت قَدَمه السليمة. كان يلقي بالحشرات في فنجان الشاي الذي تتناوله أُمه، ويضع الأشواك في خُفِّ والدِه، ويتلقَّى العقاب بسرور. واستمرَّت حياته على هذا المنوال.

وحينما كان في العاشرة، وُلِدَت شقيقته.

كرهها لينوس فورَ رؤيتها. كانت ناعِمَةٌ ورقيقة ولديها عظام. وحينما حدَّق أسفل فستانها المُخرَّم الطويل اكتشف أنها كامِلَةٌ

التكوين: قدمان صغيرتان غاليتان، متساويتان في الطول، ليست بينهما قطعة لحمٍ مُتَجَعِّدةٍ عديمة الجدوى. والأسوأ من كمالها الجُسْمَانِيّ، كانت سعادتها، وابتسامتها الوردية، وضحكتها الموسيقية. لماذا هي سعيدة بينما لينوس في غاية البؤس؟

اعتزم أن يفعل شيئاً حيال الأمر. فكان يهربُ من مُرَبِّيتِهِ متى أمكنه ذلك، ويتسلَّل إلى غرفة الأطفال ويركع بجوار مَهْدِهَا. فإن نامت، كان يفتعل جَلَبَةً عالية ليخيفها. وإن مَدَّت يدها لَدُمِيَّةٍ، كان يبعدها عنها. وإن مَدَّت ذراعيها، كان يعقد ذراعيه. وإن ابتسَمَت، كان يُحوِّل ملامح وجهه إلى قناعٍ مُرْعِب. لكنها لم تتأثّر، ولم تَبْك، ولم تفقد مَرَحَهَا. وقد أربكه ذلك، واعتزم اختراع عُقوباتٍ مَآكِرَةٍ للصغيرة.

حينما صار مُراهِقًا، تزايد ارتبَاكُه، بذراعَيْنِ طويلَتَيْنِ نَحِيفَتَيْنِ، وشعرٍ أصهبٍ غريبٍ ينبت من دَقْنِه المنقُط، بينما صارت چورچيانا طفلةً جميلةً، محبوبةً من الجميع. فقد رَسَمَت الابتسامَ على وجوه أقربيها، المستأجِرِين. والمزارعون الذين كانوا يكرهون آل مونتراشيه لسنواتٍ أرسلوا سِلَالَ التُّفَّاحِ إلى المطبخ لكي تستمتع بها الأنسة چورچيانا.

وفي يومٍ ما كان لينوس جَالِسًا على إفريز النافذة في المكتبة، يستخدم نَظَّارَتَه المُكَبَّرَةَ الجديدة الأثيرة لتحويل النَّمْلِ إلى رُفَات، حينما انزلق وسقط. لم يتأدُّ، لكن عدسته الغالية تناثرت إلى مئات الشُّظَايَا الصغيرة. كانت لُعبَتَه الجديدة أثيرة لديه، وكان إحباطُه عظيمًا، ورغم أنه كان في الثالثة عشرة من عمره، تفجَّرت دموعه الغاضِبَةُ وأخذ يَنشُجُ بشكلٍ ثقيل. وبَّخَ نفسه على سقوطه بطريقة خرقاء، وعلى غبائه، وعلى عدم وجود أصدقاء لديه، وعلى أنه غير محبوب، وعلى أنه صبيٌّ معطوب.

كانت دموعه غزيرةً حتى أنه لم يدرك أن أحدهم لاحظ سقوطه. شعر بيدٍ تربّت على ذراعه. رفع وجهه ورأى أخته الصغيرة تقف هناك، تمدُّ يدها نحوه بدُميتها المُفضّلة كلودين...

قالت: "لينوس حزين. مسكين لينوس. كلودين ستجعل لينوس سعيدًا".

لم ينبس بكلمة، أخذ الدمية، وكان لا يزال يُحدّق في شقيقته الصغيرة وهي تجلس بجواره. بسخرية متردّدةٍ دفع أحدَ جَفَنَيْ كلودين إلى الداخل. ونظر ليري تأثير هذا التخريب المُتعمّد عليها. كانت تمصُّ إبهامها، وهي تراقبه، بعينين زرقاوين نجلاوين تفيضان بالعطف. بعد هُنَيْهَةٍ مَدَّت يدها، وطَمَسَتْ جَفَنَ الدُمِيَةِ الآخر.

منذ ذلك اليوم فصاعدًا، كانا فريقين. كانت تحتوي نوبات غضب شقيقها، وأسلوبه القاسي، ورواسب الرفض داخله، دون شكوى، سوى التَّقطيب. ترَكَته يتشاجر معها، ويوبُّخها، ولاحِقًا، يعانقها.

تمنّى لو تُركا وحدهما حينها سيصير كل شيء على ما يرام. لكن الأم والأب لم يحتملًا أن يُحبّه أحدهم. كان يسمعها كثيرًا يتحدثان همسًا، أحيانًا بشكل غير لائق، وفي غضون شهر حزم حقائبه للمدرسة الداخلية.

حرص لينوس على الحصول على درجات مُتدنيّة، لكن الأب قد خرج يصطاد ذات يوم مع مدير كلية باليول؛ فضمن له مكانًا في جامعة أكسفورد. الشيء الإيجابي الوحيد الذي خرج به من سنواته في الجامعة كان اكتشافه للتصوير الفوتوغرافي. فقد سمح له مُعلِّمٌ إنجليزي، وكان شابًا حسَّاسًا، باستخدام الكاميرا الخاصة به، ثم نصحه باقتناء واحدة.

وأخيرًا، حينما كان في الثالثة والعشرين، عاد لينوس إلى بلاكهرست. كم كَبُرَتْ دُمِيَتُهُ! ثلاثة عشر عامًا. كانت فارعةً الطول، بأطول شعرٍ

أحمر رآه في حياته. وظلّ لفترة يشعر بالخجل منها؛ كانت قد تغيّرت كثيراً، وكان عليه أن يُعيدَ معرفتها من جديد. لكن في يومٍ ما، حينما كان يلتقط صوراً بالقرب من الخليج الصغير، ظهرت في عدسة الكاميرا. كانت تجلس على قِمةِ الصخرة السوداء، تُواجهُ البحر، وقد تخلّل النسيمُ المالحُ شَعْرَهَا، ولَفَّت ذراعها حول رُكْبَتَيْهَا، وكانت ساقاها عاريتين.

تقطّعت أنفاسه. طرف بعينه، وطفق يراقبها بينما التفتت ببطء، ونظرت مباشرة إليه. لم تكن تشعر بالخجل على الإطلاق. كانت تبدو أنها تنظر إلى ما وراء الكاميرا، تنظر مباشرة إلى عينيه. نفس العينين المتعاطفتين اللتين راقبته وهو يبكي منذ سنواتٍ مَضَتْ. بدون تفكير، اعتصر زِرَّ الكاميرا. وأسَرَ وجهها المثالي.

سحب لينوس بحرصِ الصورةَ الفوتوغرافية من جيبه. كانت صورةً قديمة، ذات حوافٍ متهرّئة. كان آخر ضوءٍ للشمس على وشك الرحيل، لكن لو أمسكها بزاوية صحيحة...

كم عدد المرات التي جلس في هذا الوضع وحملق في الصورة، وتأمّلها بعدما رحلت؟ لقد كانت الصورة الوحيدة التي يمتلكها لها. فحينما رحلت جورجيانا، تسلّل أحدهم إلى الغرفة المظلمة وأزال النيجاتييف. هل كانت الأم؟ أداين؟ إحدى الخادِمات؟ لم تتبقّ سوى تلك الصورة لأن لينوس كان يحملها دومًا أينما يذهب.

لكن الآن ثمة فُرصة ثانية، وهذه المرة لن يُفوّتها. لم يعد طفلاً، بل سيد بلاكهرست. الأم والأب راقدان في قَبْرَيْهِمَا. لا توجد سوى زوجته المُملّة وابنتها العليّة، ومَن هما ليقفا في وجهه؟ لقد خطب أداين ليعاقبَ والديّه على هروب جورجيانا، ووجّهت الخطوبةُ ضربةً قاضية لهما، حتى أن إقامة المرأة في منزله بدت ثمنًا صغيرًا يدفعه.

وحدث ذلك بالفعل. وسيستمرُّ. كان من السهل تَجاهُلُها. كان السَّيِّدُ،
وما يريدُه سيحصل عليه.

إيليزا. سمح للاسم أن يُفْلِتَ من شَفَتَيْه، ويسكن تجاويفَ لحيته.
ارتجفت شفتاه وبرد جِلْدُه.

سيقدِّم إليها هديَّةً تجعلها تشعر بالامتنان له. شيء يعلم أنها
ستحبه، وكيف لا وقد أَحَبَّتْهُ أُمُّها من قبل؟

(32)

كوخ الجُزف، 2005

عبرت كساندرا البوّابة، ودهشت مُجددًا من الصمت المُطبّق الغريب الذي اكتنف الكوخ. ثمة شيء آخر شعرت به. شعورٌ غريب بالتأمّر؛ كأنّ بدخولها من البوّابات وافقت على اتفاق لا تعرف عن قواعده شيئًا.

جاءت في وقتٍ مُبكرٍ عن المرّة الأخيرة، وقد تطايّر ضوء الشمس في الحديقة. لن يصل مُنْسَق الحقائق إلّا بعد خمس عشرة دقيقة أخرى، فأعدت المفتاح إلى جيبتها، وقرّرت استكشاف المكان قليلًا. امتدّ أمامها مَمَرٌ حَجْرِيٌّ ضَيِّقٌ، حجبته الأشن، قبل أن يختفي عند الزاوية، وقد نَمَت أعشابٌ طويلة وسميكة بجانب المنزل، فاضطّرت إلى إزاحتها جانبًا عن السور قبل الدخول.

ذكّرتها الحديقة بفناء بيت نيل في بريزبن. لم يكن يحوي نفس النباتات بالطبع، بل كان خليطًا من نباتات منزلية، وأعشاب، ونباتات

حولية مُلوّنة زاهية. كانت هناك مَمَرَاتُ أُسْمِنِيَّةٍ صغيرة مُتفرّعة، تختلف تمامًا عن الأفنية الخلفية للضواحي الأخرى، بِمَمَرَاتِهَا ذات الأعشاب التي أحرقتها الشمس، وشجيرات الورد، التي تحتاج إلى الرّيِّ، داخل إطارات السيارات المَطْلِيَّة باللون الأبيض.

حينما وصلت كساندرا إلى الناحية الخلفية من الكوخ توقّفت؛ على الممرِّ امتدَّ تشابُكٌ كثيفٌ من نباتات العُليق الشائكة، بلغ ارتفاعها على الأقل ثلاثة أمتار. توغّلت ومالت لترى فوق القمّة. كان الشكل مُنتظماً وخطياً، كأنَّ النباتات نفسها كوَّنت جداراً.

شَقَّت طريقها بطول السياج، وهي تُمرِّرُ أصابعها بخِفَّةٍ فوق أوراق اللبالب المتعرجة. كانت تسير ببطء، فقد كانت التربة التَحْتِيَّة تصل حتى رُكْبَتَيْهَا، وتهدّد بتعزُّرها في كل خطوة. في منتصف الطريق لاحظت فجوةً في العُليق، فجوة صغيرة ولكن كافية لترى أنه لا يوجد ضوءٌ يلمع داخلها، وبالتالي هناك شيء صلبٌ وراءها. مدّت كساندرا يَدَهَا بحذرٍ إلى الداخل، وانحنت أكثر بينما ابتلع السياج ذراعها وكتفها. لمَسَتْ أصابعها شيئاً صلباً بارداً.

كان جداراً حَجْرِيًّا مَكسوًّا بالطَّحالب طبقةً للبقع الخضراء الرطبة على أطراف أصابعها. مسحت كساندرا يدها في بنطلونها الجينز، وسحبت صَكَّ الملكيّة من جيبها الخلفي، والتفتت نحو خريطة الملكيّة. كان الكوخ مرسوماً، مُربَّعٌ صغير في مُقدِّمة الأرض. لكنَّ طبقةً للخريطة، كان خَطُ الملكية الخلفي يمتدُّ بعيداً جداً. أعادت كساندرا نَظْرَ الخريطة ووضعتها في جيبها. لو كانت الخريطة صحيحةً، هذا الجدار كان جزءاً من ملكيّة نيل، وليس حدّه. إنه ينتمي إلى كوخ الجُرف، وكذلك أي شيء يقع على الناحية الأخرى.

استأنفت كساندرا طريقها الشائِك بطول الجدار، أملهً أن تعثر على بوابَةٍ أو باب أو أي شيء يسمح بالدخول. كانت الشمس تشرق

في السماء والطيور خَفَّفَتْ من غنائها. كان الهواء مُثَقَّلًا بِشَدَى حُلُوِّ مُدَوِّخٍ لزهرةٍ ما. وبرغم أنه كان فصل الخريف، شعرت كساندرا بالحرِّ، وهي التي ظنَّت مرَّةً أن إنجلترا كانت بلادًا بارِدَةً لا تعرف الشمس. توقَّفت لتمسح حَبَّات العرق عن جبهتها، وخبط رأسها بشيء مُنخَفِضٍ مُعلَّقٍ. كان غُصْنًا مُتشابِكًا لشجرةٍ تمتدُّ كالذُّراع على الجدار. أدركت كساندرا أنها شجرةٌ تُفَاحٍ حينما رأت الفرعَ يحمل ثمار تُفَاحٍ ذهبيةٍ لامعة. كانت في تمام نُضجِها وتَفوحُ برائحةٍ شهِيَّةٍ؛ فلم تقاوم كساندرا وقطَّفت ثَمرةً.

نَظَرَتْ كساندرا إلى ساعتها، وبنظرةٍ طويلةٍ على سِياجِ العُلْيُقِ، شرعت تعود أدراجها. ستستمر في بحثها عن الباب لاجِحًا، أمَّا الآن حان موعدُها مع البستاني. كان يُحيط بالكوخِ عُزلةً كثيفةً؛ وشعرت كساندرا أنها لن تَسْمَعَهُ من هنا، حتى لو نادى عليها. فتَحَّت الباب الرئيسي ودَخَلَتْ. بدا أن المنزل كان يصغي، ينتظر ليرى ماذا ستفعل. مرَّرت يدها بخفَّةٍ على الجدار الداخلي. قالت برِقَّةٍ: "منزلي. هذا منزلي". أَرَجَعَ الجِدَارُ صدى كلماتها بخُفوتٍ. كم كان ذلك غريبًا، غير مُتوقَّعٍ. تجوَّلت في المطبخ، ومرَّت من أمام عجلة الغزل، ثم دَلَّقت إلى غرفة الجلوس الصغيرة في المُقَدِّمة. كان المنزل مُختلِفًا الآن لأنها كانت مُفَرِّدها. وكان مألوفًا بشكلٍ ما، مثل مكانٍ زارته منذ أمدٍ بعيد.

ارتاحت على كرسيٍّ هزَّازٍ قديمٍ. كانت خبيرةً في الأثاث القديم؛ فعرفت أن الكرسي لن يهوي بها، ومع ذلك شعرت بالاحتراس، كأنَّ مالِكته الشرعيَّة كانت في مكانٍ ما قريب، وربما تعود في أيِّ لحظةٍ لتجد هذه الدَّخيلة في مكانها. وبينما كانت تَمسحُ التُّفَاحَةَ في قميصها، لَفَّت رأسها لتنظر عبر النافذة التي علاها الغبار والتراب. غطَّى اللبالبُ الرُّجَاجَ، لكن بوسعها أن ترى من خلاله الحديقة وراءه. كان هناك تمثالٌ صغير لم تَلَحَظْه من قبل، طفلٌ، صَبِيٌّ، موضوعٌ على صخرة، يحدِّق في المنزل بعينين واسِعَتَيْنِ مُحمَلِقَتَيْنِ.

رفعت كساندرا التُّفَاحَةَ إلى شَفَتَيْهَا. كانت رائحة الشمس قويَّةً للغاية وهي تقضم منها. تفاحة من شجرة في حديقتها، شجرة زُرِعَتْ منذ سنواتٍ مَضَتْ، حتى أنها ما زالت تطرح الثمار، سنَّةً تلوَ السنَّة. كانت حلوةً المذاق، هل طعم التفاح بهذه الحلاوة دائماً؟

تثاءبَت. جعلتها الشمس تشعر بالنعاس. ستجلس ولكن لفترة قليلة، إلى أن يصل البستاني. أخذت قضمَةً أخرى من التفاحة. شعرت بالغرفة أكثر دِفْئًا من قبل، كأنَّ أحدهم دخل الكوخ، وأشعل الموقد، وشرع يُعِدُّ طعام الغداء. ثَقُلَ جَفَنَاهَا وأغمضت عينيها. وفي مكانٍ ما، شدا طائرٌ بنغمةٍ جميلةٍ وحيدةٍ، وأخذت أوراقٌ يَهْزُها النسيم تحفُّ على النافذة، ومن بعيدٍ تناهى صوت أنفاس البحر الثَّابِتَةِ، شهيق، زفير، شهيق زفير، شهيق زفير...

... الأفكار تروح وتأتي في رأسها طيلة اليوم. ذرَعَت المطبخ مُجَدِّدًا، وتوقَّفت عند النافذة لكنها منعت نفسها من النظر إلى الخارج مرة أخرى. بدلًا من ذلك، نظرت إلى ساعة الرِّقْف. لقد تأخَّر. لقد قال إنه سيأتي في غضون نصف ساعة. تساءلت هل يعني تأخُّرُه شيئًا مهمًّا؟ هل لحق به شخص؟ تردَّد؟ هل سيأتي؟

كانت وجنتاها دافِئَتَيْن. وكان الجوُّ داخل الكوخ حارًّا. عادت إلى الموقد وخفَّضت السخونة. وتساءلت هل كان يجب عليها أن تُعَدَّ وجبة.

جلبة في الخارج.

ذاب هدوؤها. كان هنا.

فتحت الباب ودون كلمة دخل.

كان يبدو ضخماً في الرُّواق الضَّيِّق، وبرغم أنها كانت تعرفه جيِّدًا، شعرت بالخجل الآن، ولم تستطع أن تنظر في عينيه. كان هو مُتَوَتِّرًا أيضًا، يمكنها أن ترى ذلك، برغم أنه فعل كل ما بوسعه لإخفاء ذلك. جلسا مُتقَابِلَيْنِ على طاولة المطبخ وضوء المصباح يهتزُّ بينهما. مكان غريب للجلوس في ليلة كهذه، لكن هذا ما حدث. نظرت إلى يديها، وتساءلت كيف تبدأ. كان الأمر يبدو بسيطاً في البداية. لكن الآن الخطوة القادمة تَعَقَّدت بخيوطٍ تنتظر أن يتعثَّرا بها. ربما كانت تلك اللقاءات تتمُّ بهذا الشكل دومًا.

مدَّ يده. جذبت نَفَسًا وهو يُمَسِّكُ بخصلَةٍ طويلةٍ من شعرها بين إصبعيه. نظر إليها فترة طويلة بَدَت كالدَّهر. لم يكن ينظر إلى الشَّعر بقدر ما كان ينظر إلى حقيقة أن شَعْرَهَا هي بين أصبعيه هو.

أخيرًا، رفع عينيه وَحَدَّقَ في عينيهَا. استراحت يَدُه بِخَفِيَّةٍ على وجنتها. ابتسم، وكذا فعلت. تنهَّد بارتياح وشيء آخر. فتح فَمَه وقال...

"مرحبًا؟" صوتٌ قَرَعِ عالٍ. "مرحبًا؟ هل يوجدُ أحدٌ هنا؟".

فتحت كساندرا عينيهَا. سقطت التفاحة من يدها على الأرض.

وَقَعُ أَقْدَامٌ ثَقِيلَةٌ، ثُمَّ رَجَلٌ كان يقف في المدخل، رجلٌ طويلٌ القامةٍ مَتِينُ البنيان في منتصف الأربعينيات من عمره. شعره داكن، وعيناه سوداوان، وابتسامته عريضة.

"مرحبًا" قال وهو يرفع يديه في وضع الاستسلام. "تبدين كأنكِ رأيت شبحًا".

"لقد أَفْرَعَتْنِي" قالت كساندرا بدفاع، وهي تنهض من المقعد.

"أسف" قال وهو يخطو نحو الداخل "كان الباب مفتوحًا. لم ألاحظ أنك كنت تأخذين قيلولاً".

"كلًا. أعني، أجل. لكن لم أقصد ذلك. أردتُ فحسب أن أجلس لفترة لكن...". تضاءل صوتُ كساندرا تدريجيًا، بينما عاد ذهنها إلى الحلم. لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن راودها حلمٌ شَبَقِيٌّ، بل مرَّ وقتٌ طويل للغاية منذ أن فعلت شيئًا شَبَقِيًّا. ليس منذ نيك. حسنًا ليس شيئًا يستحقُّ الذِّكْرَ، أو تريد تذكُّرَه. من أين أتى هذا الحلم بحقِّ السماء؟ ابتسم الرجل ومدَّ يده. "أنا مايكل بلاك، مُنَسَّقُ الحدائق الخارق. لا بُدَّ وأنتِ كساندرا".

"أجل"، واحمرَّت وجنتاها وهو يغلق يده الدافئة الكبيرة على يدها. هزَّ رأسه قليلًا، وهو يبتسم "أخبرني مساعدتي أن الاستراتيجيات أجمل النساء لكنني لم أصدِّقه. الآن أعرف أنه كان صادقًا".

لم تعرف كساندرا إلى أين تنظر، وارتاحت نظرتها على بقعة خلف كتفه الأيسر. هذا الغرلُ الصريح جعلها غير مُرتاحةٍ، لكنَّ حلمها تركها أكثر قلقًا. كان يُمكنها أن تشعر به يتباطأ في زوايا الغرفة. "سمعتُ أن لديك مشكلة مع شجرة؟".

"أجل" طرفت كساندرا بعينيها، وأومات وهي تدفع الحلم جانبًا. "أجل، شكرًا على قدومك".

"ليس بوسعي سوى نَجْدَة فَتاةٍ في مِحْنَة" ابتسم مُجدِّدًا، ابتسامة عريضة ودية.

أحكمت السُّترَةَ أكثر حول جسدها، وحاوَلت أن تبتسم بدورها، لكنها لم تشعر سوى بالتَّحْفُظ. "هناك على الدَّرَج".

تبعها مايكل في الرواق، وانحنى ليرى حول منعطف الدرج. ثم صَفَّر. "شجرة صنوبر عتيقة. يبدو أنها كانت هنا منذ فترة طويلة. ربما وَقَعْتَ في عاصفة 1995".

"هل بوسعك إزالتها؟".

"بالطبع نستطيع"، نظر مايكل من فوق كتفه وراء كساندرا.

"اجلب المنشار الكهربائي يا كريس".

التفتت كساندرا. لم تُدرك أن ثمة شخصاً آخر في الغرفة معهما. رجل آخر يقف وراءها، نحيل وأصغر سنًا. شعره البنيُّ المُجَعَّد الخشن يلتفُّ حول عنقه، بشرته بُنيَّة فاتحة، وعيناه بنيتان. قال وهو يومئ قليلًا: "كريستيان". ثم أخرج يده مُتَرَدِّدًا، ومسحها في بنطلونه الجينز. ومدَّها مُجَدِّدًا. مدَّت كساندرا يدها وصافحته. قال مايكل: "المنشار يا كريس. أسرع". رفع مايكل حاجبيه وكريستيان يرحل. "يجب أن أعود إلى الفندق بعد نصف ساعة، لكن لا تقلقي، سأُنهي العمل الرئيسي وأترك مساعدي الأمين يكمل المهمة". ابتسم إلى كساندرا وهو يُحَمِلُ فيها بنظرة مباشرة مزعجة. "إذن هذا هو مكانك. لقد عشتُ في القرية طيلة حياتي ولم أظن أنه ملكٌ لشخص".

"ما زلتُ أحاول التَّعوُّدَ على الفكرة".

رفع مايكل حاجبيه وهو يستوعب حالة الغرفة الرثَّة. "ماذا تفعل فتاةً استراليةً جميلةً مثلك في منزل كهذا؟".

"لقد ورثته. جدِّي تَرَكَته لي".

"جدُّتُك كانت إنجليزية".

"استرالية. ابتاعت الكوخ في السبعينيات حينما كانت في إجازة".

"تذكر. ألم تعثر على منشقةٍ شايٍ أعجبتها؟".

جلبة عند الباب، وظهر كريستيان يحمل منشارًا ضخماً. "هل هذا ما تريده؟".

قال مايكل وهو يغمز لكساندرا: "إنه منشارٌ بسلسلة. إنه المنشار المناسب".

كان الرواق ضيقًا، وأفسحت كساندرا جانبًا لتدع كريستيان يمرُّ. لم تنظر إلى عينيه، بل تظاهرت بالاستغراق في حافة جدار مُفتتة عند قدميها. الطريقة التي تكلم بها مايكل إلى كريستيان جعلتها تشعر بالحرَج.

قال مايكل، غير مُنتبهٍ لقلق كساندرا: "كريس جديد في هذا العمل. لا يعرف المنشار الكهربائي من منشار الميترى بعد. إنه جديدٌ في المهنة، لكننا سنحوّله إلى حطاب" ابتسم ثم قال: "إنه من آل بلاك، وهذا العمل يجري في عروقه". ثم أعطى شقيقه لكمةً مازحةً، وحوّل الرّجلان انتباههما إلى المهمة.

شعرت كساندرا بالراحة حينما بدأ المنشار في العمل؛ أخيرًا ستهرب عائدة إلى الحديقة. برغم علمها أنه من الأفضل أن تستغلّ الوقت في إزالة نباتات اللبلاب من داخل المنزل، انطفاً اهتمامها. اعتزمت على أن تجد طريقًا عبر الجدار حتى لو استغرق الأمرُ طيلةً اليوم.

توسّطت الشمس كبد السماء، ولم يكن هناك ظلٌّ. خلعت كساندرا سترتها ووضعتها على صخرةٍ مجاورة. رقصت على ذراعيها أشعة الشمس، وشعرت بسخونة في رأسها. تمّنت لو أحضرت معها قُبعة. وبينما كانت تبحث في العُليق، وتضع يدها بحدّرٍ شديد عبر الفجوات، مُتلاشيّة الأشواك، عادت أفكارها إلى الحلم. كان واضحًا

للغاية، كل تفصيلة، ولمحة، ورائحة، حتى المزاج السائد. كان بدون ريبٍ حُلماً شبيهاً، تحفُّه رغبةٌ مُحَرِّمةٌ.

هزَّتْ رأسها قليلاً، وهي تطرد بعيداً براعمَ عواطف مُربِكةٍ غير مرغوبة. عَوْضاً عن ذلك وَجَّهَتْ أفكارها إلى لُغز نيل. في الليلة السابقة، جَلَسَتْ تقرأ المُفكِّرةَ لوقت متأخر. وهي مَهْمَةٌ سهلة القول صعبة الفعل. فبجانب البُقَع والتجاعيد في الصفحات، خَطُّ نيل البائس تدهور أكثر حينما وصلَتْ إلى كورنوال. كانت الكلمات أكثر طولاً وتَشَابُهًا ومليئةً بالشطب. كانت مكتوبةً بشكلٍ أسرع، حتى أن كساندرا راهنت أنها كُتِبَتْ بحماسٍ أكبر.

وبرغم ذلك، كانت كساندرا تحاول. سَحَرَتْهَا قِصَّة الذكريات التي عادت إلى نيل، ويقينها أنها زارت الكوخ وهي طفلة. تحرَّقت شوقاً لإلقاء نظرة على كتب القصص التي عثرت عليها جوليا، يوميَّات والدة نيل المليئة بأفكارها الخاصَّة؛ بالتأكيد ستلقي مزيداً من الضوء على طفولة نيل، وربما تبرز مفاتيح رئيسية لاختفائها مع إيليزا ماكبيس.

صغيرٌ عالٍ حادُّ. رفعت كساندرا رأسها وهي تتوقَّع طائراً ما.

كان مايكل يقف بجوار زاوية المنزل، يراقبها وهي تعمل. أشار إلى العُلْيُق. "نبات رائع هنا".

قالت وهي تقف بارتباكٍ، وتَسَاءَلُ منذ متى وهو يراقبها: "إنها مُجرَّد نباتات تحتاج إلى الإزالة".

ابتسم وقال: "عام الجَزِّ والمنشار. سأذهب إلى الفندق الآن" وأشار برأسه إلى الكوخ. "قُمْنَا بِعَمَلٍ جيِّد. سأترك كريس يُنهي الباقي. سيحاول بالتأكيد، احرصي فحسب على أن ينهيه بالطريقة التي تريدينها". توقَّف وابتسم مُجدِّداً بطريقته الساذجة. "لديك رقم

هاتفني؟ اتصلي بي. وسأريك بعض المعالم المحليّة القليلة وأنتِ في القرية".

لم يكن ذلك سؤالاً. ابتسمت كساندرا ابتسامَةً خفيفةً ونِدِمَت فوراً. ساوَرَتها الشُّكوكُ أن مايكل من النوع الذي يعتبر أيَّ ردٍّ فعلٍ هو موافقة. وتيقّنت من شعورها حينما غمز لها وهو يتوجّه نحو مُقدّمة المنزل.

بتهيئة، عادت كساندرا إلى الجدار. تسلّق كريستيان الفتحّة التي صنعتها الشجرة وجلس على السطح، وكان يقطع الأغصان طويلاً بمنشارٍ يدوي. بينما كان مايكل خالي الدّهْن، كانت هناك كثافة حول كريستيان تفيض على كلّ شيءٍ يفعلُه ويلمسه. حرّك مكانه وأشاحت كساندرا بعينيها بعيداً، مُتظاهِرةً بالاهتمام بالجدار.

استمرّاً في العمل، وامتدّ الصمت بينهما، وتضخّم كلّ صوتٍ آخر: منشار كريستيان يجرُّ إلى الأمام وإلى الخلف، نقر الطيور على قرميد السطح، خريزٌ خافٍ لمياه تجري في مكان ما. كانت كساندرا مُعتادةً على العمل دون كلام، وسعيدة لأن تكون بمفردها، وكانت تُفضّل ذلك في معظم الأحوال. لكنها لم تكُن بمفردها الآن، وكلّما تظاهرا بذلك، تزايد الصمتُ المرَبِكُ.

في النهاية لم تتحمّل، فقالت بصوتٍ عالٍ وصارحٍ أكثر من اللازم: "ثمّة جدار هنا. لقد وجدته منذ قليل".

رفع كريستيان رأسه عن كومة الخشب. وحدّق فيها كما لو أنها تقرأ من الجدولِ الدّوريِّ.

اندفعت قائلةً: "لكنني لا أعلم ما الموجود على الناحية الأخرى. لم أعرّ على بوّابة، والتصميم الذي حصلت عليه جدّتي مع البيع لا يكشف شيئاً. أعرف أن هناك كومةً من النباتات المتسلّقة وفروع الشجر، لكن ظننتُ أنّ بإمكانك أن ترى من عندك".

نظر كريستيان إلى يديه، وبدا على وشك النطق.

قفزت فكرة إلى ذهن كساندرا: يملك يدين جميلتين. دفعتها جانبًا.
"هل يمكنك أن ترى ما هنالك فوق السور؟".

زَمَّ شفّتيه، ونفض يديه على سرواله الـچينز، وأوماً قليلاً.

"حقًا؟ ماذا هنالك؟ أخبرني". لم تتوقَّع أن تقول هذا.

قال وهو يتمسك بالإفريز حتى يقفز إلى الأسفل: "يمكنني أن أفعل أفضل من ذلك. هيّا سوف أريك".

كانت الفتحة صغيرة للغاية أسفل الجدار، ومخفيّةً، حتى أن كساندرا لو ظلت تبحثُ طيلة عامٍ لن تجدها. كان كريستيان جاثمًا على يديه ورُكبتيه، وهو يُكوّم التربة التحتيّة جانبًا. قال وهو يُعاود الوقوف: "السيدات أولًا".

نظرت كساندرا إليه. "ظننتُ أنه ربما هناك بؤابة".

"اعثري عليها وسأتبعك".

"تريدي أن...؟" نظرت إلى الفتحة. "لا أعلم إن كنت أستطيع، أو كيف...".

"على بطنك. إنها ليست ضيقةً مثلما تبدو".

ارتابت كساندرا؛ إنها تبدو فتحةً ضيقةً جدًّا. على كل حال، البحث العقيم طوال اليوم زاد من عزمها؛ إنها بحاجة إلى أن تعرف ما الموجود على الجانب الآخر. فرَدّت جسدها وأصبحت في مستوى الحفرة، ونظرت بشكٍّ إلى كريستيان. "هل أنت متأكد أن هذا آمن؟ هل فعلت ذلك من قبل؟".

فَرَكْ عُنُقَه وهو يقول: "مئات المرات. بالتأكيد، كنت أصغر سنًا وحجمًا، لكن... " اِخْتَلَجَتْ شَفَتَاه من جنب إلى جنب. "أنا أمزح. آسف. ستكونين على ما يرام".

شَعَرَتْ ببعض الراحة فور تحرُّر رأسها، وأدركت أن عنقها لن يُسْحَقَ أسفل جدار من القرميد وتموت. حَشَرَتْ باقي جسدها بأسرع ما يكون، ثم نَهَضَتْ. نفضت يديها ونظرت حولها بعينين مُتْسَعَتَيْن. كانت حديقةً مُسَوَّرَةً. كانت نباتاتها مُفْرِطَةٌ النمو لكنها جميلة. لقد اهتمَّ أحدهم بهذه الحديقة ذات يوم. بقايا مَمْرَيْن يتلويان جيئةً وذهابًا، مجدولين كرباط حذاء رقص أيرلندي. أشجار تحمل ثمارًا امتدَّت على الجوانب، وأسلاك تعرَّجَتْ من قِمَّة أحد الأسوار إلى آخر. أغصان شجرة ويستريا تشابكت بكثافة فشكَّلت مظلةً.

على السور الجنوبي، شجرة عتيقة مليئة بالعُقد كانت تنمو. اقتربت منها كساندرا ولاحظت أنها كانت شجرة تُفَاح، تلك التي ارتفع عُصْنُهَا على الجدار وقطفت منها ثمرة. رفعت يدها لتلمس إحدى الثمار الذهبية. كان يبلغ طولها خمسة أمتار، وقد أخذت شكل نبات البونساي الياباني الذي أهدته نيل إلى كساندرا في عيد ميلادها الثاني عشر. بمرور عشرات السنوات، أخذ الجذع القصير زاوية جانبية، وبذل أحدهم جهدًا لوضع ركيزة أسفل الفرع الكبير ليمتصَّ بعض ثِقَلِهِ. علامة حَرَقٍ في منتصف الشجرة تشير إلى ضربة بَرَقٍ أصابتها منذ سنواتٍ مَضَتْ. مدَّت كساندرا يدها ومرَّرت أصابعها على الحَرَق. "هذا المكان سحري" كان كريستيان يقف في منتصف الحديقة بجانب مقعد طويل حديديٍّ علاه الصدا. "لقد شعرتُ بذلك منذ نعومة أظفاري".

"هل اعتدَّت المجيء هنا؟".

"دائمًا. شعرت أنه مكاني السريُّ. لا أحد آخر يعرف عنه" هزُّ كتفيه. "تقريبًا".

وراء كريستيان، على الناحية الأخرى من الحديقة، لاحظت كساندرا شيئًا يتلألأ على النباتات المتسلقة التي تغطي الجدار. اقتربت أكثر. كان معدنًا يلمع في الشمس. باب، وقد تجعدت عليه محاليق أخذت شكل الحبال، وغطته شبكات العنكبوت. لحق بها كريستيان وسحبًا سويًا جزءًا من العليق. كان هناك مقبض نحاسي أحاله الزمن إلى اللون الأسود. هزته كساندرا. كان الباب مغلقًا.

"تري إلى أين يصل هذا الباب؟".

قال كريستيان: "ثمة متاهة على الجانب الآخر تقود إلى العزبة. إنها تنتهي بالقرب من الفندق. كان مايكل يعمل في ترميمها خلال الأشهر السابقة".

المتاهة بالطبع. كانت تعرف بأمرها. أين قرأت كساندرا عن المتاهة؟ هل كان ذلك في مفكرة نيل؟ أم في أحد الكتيبات السياحية في الفندق؟

حلق يعسوبٌ مرتجفٌ قبل أن يطير بعيدًا. عادا إلى منتصف الحديقة.

"لماذا اشترت جدتك الكوخ؟" قال كريستيان وهو يزيح ورقة سقطة على كتفه.

"لقد ولدت هنا".

"في القرية؟".

ترددت كساندرا، وهي لا تعرف مقدار ما يجب أن تُفصح عنه. "بل في العزبة. بلاكهرست. لم تعرف إلا حينما مات والدها الذي تبنّاها،

كانت في الستين من عمرها. واكتشفت أن والديها هما روز وناثانيل وواكر. كان...".

"فنان. أعرف" التقط كريستيان عصا صغيرة من الأرض. "معني كتاب يحتوي على رسوماته، كتاب الحكايات الخيالية".

"(الحكايات الخيالية للفتية والفتيات)؟".

"أجل" نظر إليها مُنْدهِشًا.

"معني نُسخةٌ أيضًا".

رفع حاجبيه. "تعرفين أنه لم يكن هناك نُسخٌ كثيرة، ليس بمقاييس اليوم. هل تعرفين أن إيليزا ماكيبس كانت تعيش هنا في هذا الكوخ؟".

هزّت كساندرا رأسها. "أعرف أنها نشأت في العزبة...".

"كُتبتْ مُعْظَمَ قصصها هنا في هذه الحديقة".

"أنت تعرف عنها الكثير".

"مُنْذُ فترة قريبة شَرَعْتُ في قراءة حكاياتها مرّةً أخرى. كنتُ شَغُوفًا بها وأنا صغير، حينما عثرت على نسخة قديمة في مَتَجَرِ الأَغْرَاضِ المستعملة. هناك شيء ساحر في هذه القصص، أكثر ممّا يبدو للوهلة الأولى". حَكَّ حذاءه بالتراب ثم قال: "أعتقد أنه أمرٌ سخيف بعض الشيء... رجلٌ بالغٌ يقرأ قصصَ أطفالٍ خياليّة".

"لا أعتقد ذلك" لاحظت كساندرا أنه كان يرفع ويخفض كتفيه، ويديه في جيبيه، كأنه متوتّر. "ما حكايتك المُفضّلة؟".

أمال رأسه، وانحرف قليلًا في الشمس. "عينا العجوز".

"حقًا؟ لماذا؟".

"تبدو مُخْتَلِفَةً عن القصص الأخرى. مليئة بمغزى أكبر بشكل ما. بالإضافة إلى افتتاحي بشخصية الأميرة منذ صِغْري" ابتسم بخجل. "كيف

لا أُعَجَبُ بفتاةٍ دُمِّرَت قلعَتها، وهُزِمَ شعبها، لكنها تَحَلَّت بالشجاعة وانطلقت تبحث عن عيني العجوز المفقودتين؟".

ابتسمت كساندرا أيضًا. كانت قصة الأميرة الشجاعة التي لم تعرف أنها أميرة أول حكاية قرأتها، في يومٍ حارٍّ في بريزبن، حينما كانت في العاشرة من عمرها، وخالفت أوامر جدِّتها، واكتشفت حقيبة السفر أسفل الفراش.

كسر كريستيان العصا إلى نصفين وطوَّح بهما جانبًا. "أظنُّك ستحاولين بيِّع الكوخ؟".

"لماذا؟ هل أنت مهتمٌّ بشرائه؟".

"بالأجر الذي يعطيني إيَّاه مايك؟ لا تأملي كثيرًا". التقت عيونهما لهنيهة.

قالت: "لا أعلم كيف سأقوم بتجهيزه. لم أدرك أنه سيحتاج إلى كل هذا المجهود والعمل. الحديقة. المنزل نفسه"، ثم أشارت إلى الجدار الجنوبي. "ثمَّة فتحةٌ في السقف البائس".

"كم ستمكثين هنا؟".

"لقد حَجَزْتُ في الفندق لمدة ثلاثة أسابيع أخرى".

أومأ. "أعتقد أنه وقتٌ كافٍ".

"هل تظنُّ ذلك؟".

"بالتأكيد".

"ليتني أمتلك نصفَ يقينِكَ. لم تَرَي وأنا أحمل مطرقةً".

مدَّ يده إلى أعلى ليجدِلَ فرعًا شاردًا من شجرة الويستريا بفرع آخر. "سوف أساعدك".

شعرت كساندرا بخديها يتوردان خجلًا، كان يفكر أنها تلمح. "لم أقصد أن... لا أملك..." جذبت نفسًا. "ليست هناك ميزانية للترميم، لا شيء على الإطلاق".

ابتسم، أول ابتسامةٍ مناسبةٍ رأتها على وجهه اليوم. "إنني أتقاضى مبلغًا ضئيلًا بالفعل. فلماذا لا أعمل مقابل لا شيء في مكانٍ أحبُّه؟".

(33)

تريجيننا، 1975

نظرت نيل إلى البحر المضطرب. كان أول يومٍ مُلبّدٍ بالغيوم منذ وصولها إلى كورنوال، وكانت الطبيعة كلها تنتفض. الأكوخ البيضاء تتشبّث بالصخور الباردة، والنوارس الفضيّة تُحلّق في السماء الرمادية التي تعكس البحر المنتفخ.

قالت وكيلة العقارات: "أفضلُ منظرٍ في جميع أنحاء كورنوال".

لم تُعلّق. مَضت تُراقبُ الأمواج الغاضبة من النافذة الصغيرة في السقف المائل.

"هناك غرفة نوم أخرى بجوارك. أقل حجماً، لكنها تفي بالغرض".

بَدَت الموظفة سعيدةً للانصراف، وفي غضون دقيقة، رأتها نيل وهي تخرج من البوابة الأمامية، تُحكِم معطفها.

راقبتُها نيل وهي تحاول إشعال سيجارة مُتجنِّبةً الريح، ثم حوّلت نظرتها إلى الحديقة. لم ترَ الكثير من أعلى، كان عليها أن تنظر عبر نسيجٍ مُتَهَرِّئٍ من النباتات المتسلِّقة، لكنها استطاعت تَبَيِّنَ الرأس الحجري لتمثال الصبي الصغير.

مالت نيل على إطار النافذة المُتربِّب، وشعرت راحَتُها بلمس الخشب الذي اخْشَنَ بفعل الملح. لقد كانت في هذا الكوخ من قبل، وهي طفلة، تعرف هذا الآن. لقد وقفت في هذه البقعة بالذات، في هذه الغرفة، تُراقِبُ نفس البحر. أغمضت عينيها وجاهدت للتركيز بشكل أكبر.

كان ثمة فراشٍ حيث وَقَفَت الآن، فراشٍ لفردٍ واحد، بسيط، بأطراف نحاسية، مقابض باهتة بحاجة إلى التلميع. من السقف تدلَّت شبكة مخروطية الشكل، كالضباب الأبيض الذي يتدلى من الأفق حينما تُحرِّكُ العواصفُ البحرَ البعيد. لحاف ذو غطاء من قطع قماشٍ مختلفة الألوان، بارد أسفل ركبتيها، قوارب صيد تتأرجح على المدِّ، بتلات ورد تطفو على البركة بالأسفل.

كان الجلوس على هذه النافذة التي برزت من باقي الكوخ يشبه التَّدليَّ من قِمَّة الجُرف، كالأميرة التي تحوّلت، في إحدى قصصها المُفضَّلة، إلى طائرٍ وتركت ترفرف داخل قفصها الذهبي...

ثمة أصواتٌ عالية بالأسفل، والدها والمؤلِّفة.

اسمها، أيْفوري، حادٌّ ومُسِنَّ كَنَجْمَةٍ من الورق المُقَوَّى قُطِعَت بِمَقْصٍّ حاد. كان اسمها سلاحًا.

ثمة كلمات غاضبة أخرى كانت تتراشق. لماذا كان بابا يصيح في وجه المؤلِّفة؟ بابا الذي لم يرفع صوتَه قَطُّ.

شعرت الفتاة الصغيرة بالخوف، لا تريد أن تسمع.

أغلقت نيل عينيها بإحكام، مُحاولَةً أن تسمع.

سَدَّتِ الطفلة أذنيها، وأخذت تُغْنِي في ذهنها، وتحكي حكايات، وتفكّر في القفص الذهبي، في الأميرة التي تحوَّلت إلى طائر، والتي كانت ترفرف وتنتظر.

حاولت نيل أن تزيح جانبًا أغنية الطفلة، وصورة القفص الذهبي. في الأعماق الباردة لذهنها، كانت الحقيقة تتوارى، تنتظر أن تقبض عليها نيل بإحكام وتسحبها نحو السطح...

لكن ليس اليوم. فتحت عينيها. انزلقت شظايا الذكريات من ذهنها كالزئبق.

هَبَطَت نيل الدرجات الضيقة.

أغَلَقَت الموظفةُ البوّابَةَ، وسارا سَويًا بصمت إلى مكان وقوف السيارة.

"حسنًا، ما رأيك؟" قالت وكيلة العقارات بنغمة لا مبالية وهي تعرف الإجابة.

"سوف أشتريه."

"رَبِّمًا ثَمَّةً شيءٍ آخر أستطيع..." رفعت الوكيله رأسها عن باب السيارة. "سوف تشتريه؟"

حدَّقَت نيل مُجدِّدًا في البحر العاصف، والأفق الضبابي. كانت تُحِبُّ الاستمتاع بالجو القاسي. حينما تتدَلَّى الغيوم بشكل منخفض ويُهَدِّد المطر بالهطول، تشعر أنها تستعيد عافيتها. تتنَفَّس بعُمقٍ أكبر، وتفكّر بصفاء أكثر.

لا تعرف كيف ستدفع ثَمَنَ هذا الكوخ، أو ما الذي ستُضطرُّ إلى بيعه من أجل شرائه. لكنها مُتَيَقِّنَةٌ أنه يجب عليها أن تمتلكه. لقد

عَرَفَتْ ذلك منذ اللحظة التي تذكَّرت فيها الطفلة عند بركة الأسماك،
الطفلة التي كانت نيل في حياة مختلفة.

أقلَّتها وكيلُ العقارات كلَّ المسافة إلى فندق تريجينيا، مع وعودٍ
قَاطِعَةٍ بالعودة بالعقود بمجرد طباعتها. لديها محامٌ جيِّدٌ يمكن لنيل
الاستفادة منه أيضًا. أغلقت نيل باب السيارة وصعدت درجات البهو.
فكَّرت في الاتصال بمدير البنك الذي تتعامل معه، وتحاول شرح حيازتها
المفاجئة لكوخ في كورنوال، وأخذت تحسب اختلاف التوقيت، هل
كان إضافة ثلاث ساعات وتغيير الصباح إلى مساء؟ كانت مستغرقةً في
التفكير حتى أنها لم تَرَ الشخص المقرب منها إلى أن كادا يصطدمان.
"معذرة" قالت نيل، وهي تتوقَّف بحركة مفاجئة.

كانت روبن مارتن تطرف بعينيها بسرعة خلف نظارتها.

سألها نيل: "هل كنتِ بانتظاري؟".

"أحضرتُ لكِ شيئًا" ثم ناوَلَتْها كومةً من الأوراق. "إنها أبحاثٌ
للمقال الذي أكتبه حول آل مونتراشيه" تحرَّكت بارتباك. "سَمِعْتِكِ
وأنت تسألين جَدِّي عنهم، وأعلم أنه لم يستطع أن... أنه لم يساعدك
كثيرًا"، ثم مَلَّست على شعرها الناعم بالفعل. "ربما تكون مقالاتٍ
غريبةً متنوِّعة، لكن ظننتُ أنها ربما تثير اهتمامك".

"شكرًا لكِ" قالت نيل وهي تعنيها. "وأنا آسفة إن كنتِ...".

أومات روبن.

"هل جَدُّكِ...؟".

"في أحسن حال. في الواقع، كنت أتساءل لو تودَّين القدوم مُجدَّدًا
إلى العشاء. في يوم من الأسبوع المُقبِل. في منزل جدي".

"شكرًا على دعوتك. لكن لا أظنُّ أن جدك سيُرحِّب".

هَزَّت روبرن رأسها وشعرها يتمايل بأناقة. "معذرة، لقد أسأت فهمي".

رفعت نيل حاجبيها.

"كانت فكرته هو. قال إن هناك شيئًا يجب أن يُخبرك به. عن الكوخ وإيليزا ماكيبس".

(34)

نيويورك وتريجينا، 1907

من الأنسة روز مونتراشيه

كونارد لينر، لوسيتانيا

9 سبتمبر 1907

إلى الأنسة إيليزا مونتراشيه،

عزبة بلاكهرست

كورنوال، إنجلترا

عزيزتي إيليزا،

كم هي جميلة لوسيتانيا⁽¹⁾! أكتب لك هذا الخطاب يا ابنة
عمّتي، وأنا أجلس على مقعدٍ علويٍّ، إلى منضدةٍ صغيرةٍ أنيقة في

(1) سفينة بريطانية عابرة للمحيطات، دمرها الألمان عام 1915.

مقهى المقصورة، أُحَدِّقُ في المحيط الأطلسي الأزرق الشاسع، حيث
"فندقنا العائم" الكبير يتَّجه بنا إلى نيويورك.

ثُمَّ جَوُّ من الاحتفال الضخم على سطح السفينة، والجميع
يراودهم الأمل أن السفينة لوسيتانيا ستستردُّ جائزة الشريط الأزرق⁽¹⁾
من ألمانيا. وفي رصيف الإنزال في ليقربول، تحرَّكت السفينة الضخمة
ببطء من مرساها وشرَّعت في رحلتها الأولى، وأخذ الحشد على السطح
يغني: "لن يُستعبد البريطانيين أبدًا" وهم يلوحون بسرعة بأعلام لا
حصر لها، حتى أنه حينما ابتعدت السفينة أكثر وصار القوم على
الساحل مجرد نقاط صغيرة، رأيت الأعلام ما زالت تتحرَّك. حينما
ودَّعتنا السفن الأخرى بإطلاق أبواقها، أحسَّستُ بالقشعريرة وغمرني
الشعور بالفخر. يا لها من سعادة أن يشارك المرء في أحداث فارقة
كهذه! هل سيتذكَّرنا التاريخ؟ أتمنى ذلك. حينما يستطيع المرء أن
يفعل شيئًا، ويشارك في حدث، سيسمو على حدود حياته الواحدة
وقيودها!

أعرف ما ستقولينه حول جائزة الشريط الأزرق، أنه سباق سخيف
اخترعه رجال حمقى يحاولون إثبات أن سفنهم تتفوق على السفن
الأخرى لرجال أكثر حُمقًا! لكن يا عزيزتي إيليزا، أن يكون المرء هنا،
وأن يتنفَّس روح الحماس والانتصار، هو أمر مُنعش للغاية. أشعر
بأنني أكثر نشاطًا ممَّا كنت، وربما لن تصدِّقيني إذا أخبرتك أنني
أتمنى من أعماق قلبي أن تسجل الرحلة رقم قياسي في السرعة،
ونسترد مكاننا الشرعي.

السفينة بأكملها مُجهَّزة بطريقة تجعلك تنسين أنها في البحر.
نقيم أنا وأمي في واحد من الجناحين الملكيَّين الفخمين على سطحها،
وهو يضمُّ عُرفتي نوم، وغرفة جلوس، وغرفة طعام، وحمَّام خاص،

(1) جائزة مخصصة لأسرع عبور للمحيط الأطلسي.

ومرحاض، وحجرة مُؤن، ومُزخرف بشكل جميل، يُدْغرنِي قليلاً بصور قصر فرساي⁽¹⁾ في كتاب الأنسة ترانتون، الذي أحضرته إلى غرفة الدرس منذ صيف بعيد.

وقد استرقتُ السمع لسيدة ترتدي فستاناً رائعاً تقول إنها سافرت كثيراً على متن العديد من السفن، لكن المكان يشبه فندقاً أكثر منه سفينة. لا أعرف من تكون تلك السيدة، لكنني متيقّنة أنها سيّدة مهمّة جداً، لأن أمي كانت تعاني من حالة حُرسٍ نادرة حينما نجد أنفسنا معها. لا تقلقي هذه الحالة لم تَدُم، وأمي لا يمكنها أن تظلّ صامتةً لوقت طويل. سرعان ما أسعفها الكلام وأخذت تعوض الوقت المفقود منذ ذلك الوقت. تقول أمي إن الرُكّاب الآخرين من مشاهير مجتمع لندن، وبالتالي لا بُدَّ وأنهم "ساحرون". وقد وجّهت لي أمي تعليماتٍ صارمةً بضرورة أن أكون دائماً في أحسن حال، حمداً لله أنني أمتلك خزائنيّ ثيابٍ ممتلئتين بأزياء المعركة! لمرةٍ واحدة نتفق أنا وأمي على شيء، برغم أنه ليس نفس الذوق بالتأكيد! أحياناً تلفت نظري إلى رجلٍ نبيلٍ تعتبره شريكاً ممتازاً وأنا دوماً أفزع. لكن كفى، أخشى أن أخسر لقاء ابنة عمّتي العزيزة لو تلكأت طويلاً في سرد هذه الأمور.

عودة للسفينة إذن، كنت أقوم ببعض الاستكشافات، لكي أجعل عزيزتي إيليزا فخورة بي. البارحة صباحاً استطعتُ الهروب من ماما لفترة قصيرة، وقضيت ساعة مُمتعةً في حديقة السطح. فكّرت فيكِ يا عزيزتي، وكيف ستُدّهشين عندما ترين تلك النباتات وهي تنمو على سطح سفينة. ثمّة أحواضٌ في كل مُنْعَطَفٍ وزاوية، ممتلئة بالأشجار الخضراء وأجمل الأزهار. شعرت بالسعادة وأنا أجلس بينها (لا أحد يعرف أكثر مني الخصائص العلاجية للحديقة) وأسلمتُ نفسي لأحلام اليقظة السخيفة. (بإمكانك تخيّل الممرّات التي جالت فيها مُخيّلتني...).

(1) أهم القصور الملكية في فرنسا.

أوه! لكم أتمنى لو رَقَّ قلبك وجئتِ معنا يا إيليزا. سأعاتبك هنا عتابًا قصيرًا رقيقًا؛ لأنني ببساطة لا أفهم. لقد كنت أنتِ، في نهاية المطاف، مَنْ اقترحتِ فكرة سَفَرنا يومًا ما إلى أمريكا، ومشاهدة ناطحات نيويورك وتمثال الحرِّيَّة العظيم. ولا أتخيَّل ما الذي جعلك تتخلَّين عن الفرصة وتمكثين في بلاكهرست مع أبي. لَطالما كنتِ لغزًا بالنسبة لي يا عزيزتي، لكنني أعرفك جيّدًا، وأعلم حينما تزمعين أمرًا يا عزيزتي العنيدة إيليزا. إنني أشتاق إليك، وأتخيَّل مرارًا الأشياء الشريرة التي كُنَّا سنفعلها لو كنت معي هنا (كيف سنُتعبُ أعصابَ ماما المسكينة!). حينما أفكر في الوقت الذي لم أعرفك بعد فيه تعتريني الدهشة؛ يبدو أننا كُنَّا دومًا رفيقتين، وسنواتي في بلاكهرست قبل مجيئكِ كانت فترة انتظارٍ بغيضة.

إن ماما تطلبني. يبدو أن أحدهم ينتظرنا مُجددًا في حجرة الطعام (كم هي مُملة أوقات تناول الطعام يا إيليزا! إنني أضطرُّ إلى التَّجولُ على ظهر المركب بين أوقات الوجبات لتحمل المحاولات المؤدَّبة في الجلسة الثانية!). ماما بلا شكَّ استطاعت أن تصطاد الإيرل⁽¹⁾ الفلاني، أو ابن أحد أصحاب المصانع الأثرياء كرفيقٍ مائِدة. إن عمل الابنة لا ينتهي قطُّ وهي مُحققة في هذا، لن أقابل حبيبي لو ظللتُ حبيسةً. وداعًا يا عزيزتي إيليزا، وأختتمُ بالقول إنه برغم أنكِ لست معي بجسدك، حاضرة بروحك. أعلم أنه عندما تقع عيوني للمرة الأولى على السيدة حرية الشهيرة، واقفة تحرس الميناء، سأسمع صوت ابنة عمّتي إيليزا يقول: "انظري إليها وفكّري في كل ما رأته".

ابنة خالكِ المُخلصة دومًا، روز.

(1) لقب من أصل أنجلوساكسوني يعني عضو في طبقة النبلاء.

أحكمت إيليزا أصابعها حول الطرد الملفوف بورق بُنيّ. كانت تقف عند مدخل متجر تريجينا العام، وراقبت غمامة مُظلمة قائمة تدلت نحو المرأة بالأسفل. الضباب في الأفق يحكي عن عواصف في البحر، والهواء في القرية مُحمّلٌ بندى قَلِق. لم تُحضر إيليزا معها حقيبة، فحينما غادرت المنزل لم تكن قد اعتزمت على القيام برحلة في القرية. تسألّت إليها القصة في وقت ما خلال الصباح، وألحّت بالوصف. لم تكن الصفحات الخمس في مُفكرتها الحالية كافيةً، ومَلَكتها الحاجة إلى قصة جديدة، ومن ثم شرعت في التسوّق المفاجئ.

نظرت مرّةً أخرى إلى السماء المكفّهرة، وشرعت تحت الخُطى بطول الميناء. حينما وصلت إلى مفرق الطريق، تجاهلت الفرع الرئيسي وأخذت تمشي في الدرب المنحدر الضيق. لم تطأه من قبل، لكن ديفيس أخبرها ذات يوم أن مّةً طريقًا مُختصراً من العزبة إلى القرية يحاذي حافة الجُرف.

كانت الطريق وعرةً، والحشائش طويلة، لكن إيليزا أسرعّت في سيرها. توقّفت مرّةً واحدة فقط لتلقي نظرة على البحر المنبسط الصُّلب، يخرق سطحه أسطول من قوارب الصيد البيضاء الصغيرة قادمة لتأوي في بيتها. ابتسمت وهي تراهم، كعصافير صغيرة تعود إلى أعشاشها، تُسرِع بالانطلاق بعد يومٍ قَصّته في استكشاف حافة العالم الشاسع.

يومًا ما ستعبر هذا البحر، مُتجهّةً إلى الناحية الأخرى، مثلما فعل أبوها. كانت هناك العديد من العوالم الرابضة وراء الأفق؛ أفريقيا، والهند، والجزيرة العربية، والنصف الآخر من الكرة الأرضية، وفي تلك الأماكن النائية ستكتشف قصصًا جديدة وحكايات خيالية قديمة.

أشار عليها ديفيس أن تُدوّن حكايتها، وقد فعّلت. لقد ملأت اثنتي عشرة مفكرةً ولم تتوقّف. وكلّما كتبت أكثر، ممت قصصها

وارتفع صوتها، وتموّجت في ذهنها، وازدحم بها رأسها، متلهّفة لكي تطلق سراحها. لم تعرف إن كانت قصصاً جيدة أم لا، لكنها لم تبال. كانت قصصها، وكتابتها جعلتها حقيقيةً بطريقة ما. شخصيات رقصت داخل عقلها، صارت أكثر جرأةً على الصفحة. إنهم يسلكون دروباً جديدة لم تتخيّلها، وينطقون بأشياء لم تعرف أنهم يفكّرون فيها، ويتصرفون بطريقة غير متوقّعة.

ولقصصها جمهورٌ صغير لكنه منفتح. كل ليلة بعد العشاء، تزحف إيليزا إلى الفراش بجانب روز، مثلما كانت تفعل في الصّغر، ثم تشرع في قِصِّ أحدث رواياتها. تصغي روز، بعينين مُتّسعَتَيْن، وهي تشهق وتتنهد في كلّ حَدَثٍ مُناسِبٍ، وتضحك بجَدَلٍ في بعض اللحظات المُرعِبة. لقد كانت روز هي التي تملّقت إيليزا لترسل إحدى قصصها إلى مجلة لندنية تنشر قصص الأطفال.

"ألا تريدان رؤيتهم مطبوعين؟ سيكونون قصصاً حقيقية حينها، وأنتِ كاتبة حقيقية".

"إنها قصصٌ حقيقية بالفعل".

نظرت روز نظرة مأكِرةً قليلاً: "لكن لو شرّعت في نشرهم ستكسبين بعض الأموال ويكون لديك دخلٌ خاصٌ".

تعلم روز أن إيليزا ترغب في الحصول على دخلٍ خاص بها؛ وقد جعلها هذا تهتمُّ. كانت تعتمد اعتماداً كلياً على خالها وزوجته في الأمور المالية، لكن مؤخراً بدأت تتساءل كيف ستمكّن من تمويل أسفارها ومغامراتها التي تعرف أن المستقبل يدّخرها لها.

"وهذا الأمر لن يُسعدَ أمي بالتأكيد" قالت روز وهي تشبك يديها أسفل ذقنها، وتعضُّ شفتيها لتوقّفها عن الابتسام. "ليدي من آل مونتراشيه تكسب قوتها من عرق جبينها!".

لم تكن إيليزا تعباً كثيراً بِرَدِّ فعلِ زوجةِ خالها أدالين كالعادة، لكن فكرة أن يقرأ الآخرون قصصها... منذ أن اكتشفت كتاب الحكايات الخيالية في متجر خردواتِ السَيِّدةِ سويندل، وغاصت في الصفحات الباهتة، فَهِمَّت سَطوةِ القِصصِ وَقُدْرَتَهَا السحرية على ملء الجزء المجرَّح من الناس.

تحوَّل الرِّذاذ الآن إلى زَخَّاتٍ خفيفةٍ وبدأت إيليزا تركض، وهي تضمُّ مُفَكَّرَتَهَا إلى صدرها، بينما خصلات العشب المبتلَّة تلمس جونلَّتْها الرطبة. تُرى ماذا ستقول روز حينما تخبرها أن جريدة مجلة قصص الأطفال ستنشر قصة (الطفلة المسحورة)، وأنهم طلبوا المزيد؟ ابتسمت وهي تجري.

لقد تبقى أسبوعٌ على عودة روز، وإيليزا لم تستطع الانتظار. كم تآقت لرؤية ابنة خالها! كانت روز بخيلةً في الرسائل؛ خطاب واحد في الطريق إلى أمريكا، ولا شيء آخر منذ ذلك الوقت، وانتظرت إيليزا بفارغ الصبر الأخبار من المدينة الكبيرة. كانت تتمنى زيارتها، لكن زوجة خالها أدالين كانت حاسمة.

"دَمَّرِي مُسْتَقْبَلَكِ كما تشائين" قالت ذات مساء حينما آوت روز إلى الفراش. "لكن لن أسمح لكِ بتدمير مستقبل روز بطرُقِكِ غير المَهْدَبَةِ. لن تقابل زوجها المستقبلِي لو لم تُتَّح لها الفرصة للظهور". ثم شَدَّت قامتها بأعلى ما يكون. "لقد قُمتُ بحجز رحلتين إلى نيويورك. واحدة لروز والأخرى لي. ولتحاشي الحرج، سيكون من الأفضل إن ظنَّت أنكِ مَن اتَّخَذتِ هذا القرار".

"ولماذا أكذب على روز؟".

جَذَبَتْ أدالين نَفْسًا وَتَجَوَّفَتْ وجنتاها. "لتجعلها سعيدةً بالطبع، ألا تريد لها السعادة؟".

قصف الرعد ورددت أسوار الجرف صداه، ووصلت إيليزا إلى قمة التل. كانت السماء آخذة في الكفهرار وشرع المطر يهطل بكثافة. ظهر أمامها الكوخ. أدركت إيليزا أنه نفس الكوخ الصغير الرابض على الناحية الأخرى من الحديقة المسورة التي أعطاها لها خالها لينوس لكي تزرعها. أسرع للاحتماء أسفل رواق المدخل، أمام باب الكوخ بينما ينهمر المطر، أسرع وأكثر كثافة، على الإفريز.

لقد مرَّ شهران منذ مغادرة روز وزوجة خالها أداين إلى نيويورك، وبرغم أن الزمن يمرُّ ببطء الآن، انسلخ الشهر الأول بسرعة في دوامة الجو الصحو وأفكار القصص الرائعة. كانت إيليزا تقضي كل يوم بين بُقَعَيْهَا الْمُفْضَلَتَيْنِ في العزبة: الصخرة السوداء أسفل الخليج الصغير، على قمة سطح بحجم مقعدٍ جعلته أمواج المدِّ والجَزْرُ أَمَلَسَ، والحديقة السرية، حديقتهَا، في نهاية المتاهة. ما أجمل أن يكون للمرء مكانه الخاص. حديقة بأكملها تجلس فيها. أحيانًا كانت تحب الجلوس على المقعد الحديدي، صامتة تمامًا، وتصغي إلى حفيف الأوراق التي تهزُّها الرياح على الجدران، والبحر المكتوم يتنفس، والطيور تبوح بقصصها. أحيانًا، تتخيَّل أنها لو جلست صامتة بشكلٍ كافٍ ستسمع الطيور وهي تتنهد بامتنانٍ إلى الشمس.

لكن ليس اليوم. لقد انسحبت الشمس، ووراء حافة الجرف اختلطت السماء بالبحر في اضطرابٍ رماديٍّ. استمرَّ هطول المطر وتنهدت إيليزا. لم يكن هناك فائدة في محاولة شقِّ طريقها في الحديقة والمتاهة، إلا إذا أرادت أن تُغرِقَ نفسها ومُفكِّرتَها. تمتُّ لو كان هناك تجويف في شجرة تحتمي به. بدأت فكرة قصة ترفرف في أطراف مُخَيَّلَتِهَا، أمسكت بها، ورفضت أن تدعها تذهب، واحتفظت بها وهي تكبر، وينمو لها ذراعان وساقان ووجهة واضحة.

مدّت يدها داخل فستانها وسحبت القلم الرصاصي الذي تحتفظ به دومًا أسفل مشدّها. وضعت المفكّرة الجديدة على رُكبتِها المَحنيّة وشرعت تكتب. الريح تهبُّ أقوى هنا في مملكة الطيور، وشرع المطر يتموّج في المكان التي تختبئ به، مُلقِيًا بالردّاذ على صفحاتها الأولى. التفتت إيليزا نحو الباب لكن المطر كان يجدها دومًا. لا فائدة! أين ستكتب حينما يملأ البَلَلُ الجَوّ؟ لن تكون الحديقة والخليج الصغير ملاذَيْن مناسبين حينها. كان هناك منزل خالها بالطبع الذي يحتوي على مئات الغرف، لكنها كانت تجد صعوبة في الكتابة حينما يكون أحدهم بالقرب. حينما تعتقد أنها بمفردها ثم تكتشف وجود خادمة تركع بجوار المدفأة، تجمع الفحم، أو خالها يقبع صامتًا في زاوية مُعتمّة.

هبط على قدميها اندفاعٌ ثقيل من الماء، وأغرق الورق. أغلقت المفكّرة ودقّت كعبيها بنفادٍ صَبِرٍ على الأرضية الحجرية. إنها بحاجة إلى ملجأ أفضل من ذلك. رمقت الباب الأحمر وراءها. كيف لم تنتبه لوجوده من قبل؟ أبصرت طرفًا مُزخرّفًا لمفتاح نحاسيٍّ كبير يبرز من القفل. بدون تردّدٍ، أدارته ناحية اليسار. أصدر دويًا معدنيًا. وضعت يدها على مقبض الباب، كان دافئًا ناعمًا بشكل يصعب تفسيره، وأدارته. طقطقة، وفُتح الباب، كما لو كان بالسحر.

عبرت إيليزا العتبة إلى الرّجَمِ الجافِّ المُظلمِ.

أسفل المظلة السوداء، كان لينوس ينتظر. لم يلمح إيليزا طيلة اليوم؛ فتملّكه الارتباك. لكنها ستأتي، يعرف ذلك، قال ديفيس إنها اعتزمت زيارة الحديقة، وهناك طريق واحد فقط للرجوع من هناك. أغلق عينيه، وعاد بذهنه إلى زمنٍ كانت فيه چورچيانا تختفي يوميًا في الحديقة. لقد طلبت منه مرارًا أن يأتي، ويرى النباتات التي زرعتها،

لكنه كان يرفض دوّمًا. ومع ذلك كان ينتظرها بيقظة حتى تظهر مجدّدًا كل يوم من بين الأسوار. كان يجلس ليتذكّر احتجازه في المتاهة منذ سنوات بعيدة، ويا له من شعور رائع، مزيج غريب من خجله القديم وفرحته لظهور شقيقته.

فتح عينيه وجذب نفّسًا. ظنّ في البداية أنه يتخيّل، لكن كلاً، كانت إيليزا، قادمَةً من هذا الطريق مُستغرِقَةً في أفكارها. لم تره بعدُ. تحرّكت شفتاه الجافّتان بحثًا عن الكلمات التي تمّنى أن ينطق بها. "بُنَيْتِي" ناداها.

رفعت رأسها مُندَهشَةً وقالت وهي تبتسم ببطء: "خالي". لوحت بيدها، واليد الأخرى أمسكت بحزمة بُنْيَةٍ. "لقد باغتني المطر!".

كانت جونلتها مُبلّلة، الحافّة الشفّافة تتشبّث بساقها. لم يستطع لينوس إبعادَ عينيه "أنا... كنتُ أخشى أن تَعَلّقي في هذا الجو".

"أوشكتُ على ذلك. لكنني وجدتُ ملجأً، في الكوخ، الكوخ الصغير على الناحية الأخرى من المتاهة".

شعر مُبتلّ، أطراف جونلة مبتلّة، كاحلان مبتلّان. ازدرد لينوس ريقه، ونكت عصاه في الأرض الرطبة، ودفع نفسه للنهوض.

اقتربت إيليزا: "هل يستخدم أحدُهم الكوخَ يا خالي؟ يبدو غير مُستعمَل".

رائحتها، مطر وملح وتربة. استند على عصاه وكاد يسقط. مدّت يدها لتحفظ توازنه.

"الحديقة يا بُنَيْتِي، أخبريني عن الحديقة".

"أوه يا خالي! يا لِنُموّها! يجب أن تأتي يومًا وتجلس بين الزهور. وترى بنفسك ما قُمت بزراعته".

كانت يداها على ذراعيه دافئتين، وقبضتها حازمة. ثمّنى لو يتخلّى عن بقية حياته كي يوقف الزمن ويظلّ في هذه اللحظة للأبد، هو وعزيرته چورچيانا...

"لورد مونتراشيه!" كان توماس يهرع نحوهما من المنزل. "سيدي، كان ينبغي أن تقول إنك بحاجة إلى المساعدة".

ثم لم تعد إيليزا تمسكه، حلّ توماس محلّها. راقبها وهي تختفي على الدّرج، وتدخل إلى رواق المدخل، ثم تتوقّف لهنيهةً عند كُشك البريد، لتجلب رسائل الصباح، قبل أن يتلّعها منزله.

من الآنسة روز مونتراشيه،

كونارد لينر، لوسيتانيا

7 نوفمبر 1907

، إلى الآنسة إيليزا مونتراشيه،

عزبة بلاكهرست

كورنوال، إنجلترا

عزيرتي إيليزا

كم مرّ الوقت! أمور كثيرة وقعت منذ آخر خطاب أرسلته إليك، لا أعرف من أين أبدأ. أوّلاً، يجب أن أعتذر عن ندرة خطاباتي في الأسابيع الأخيرة. كان شهرنا الأخير في نيويورك عاصفًا، وحينما جلستُ لأكتب لك، ونحن نغادر الميناء الأمريكي العظيم، هبّت علينا عاصفة ظننت أننا لن نعود منها سالمين إلى كورنوال. الرّعد! والعواصف! لقد جلستُ مُستلقيةً في حُجرتي طيلة يومين كاملين، كانت أمي المسكينة

مُرْتَعِبَةً. تَطْلُبُ الأَمْرَ الاعْتِنَاءَ بِهَا عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وَانْقَلَبَ المَوْقِفُ رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ، أُمِّي مَرِيضَةٌ وَرُوزَ العَلِيلَةِ كَانَتْ مُمَرِّضَتَهَا!

بَعْدَمَا تَلَاشَتْ العَاصِفَةُ أُخِيرًا، ظَلَّ الضَّبَابُ لَعْدَةَ أَيَّامٍ يَحِيطُ بِالسَّفِينَةِ كَوَحْشٍ بَحْرِي ضَخْمٍ. وَقَدْ وَضَعَنِي ذَلِكَ فِي جَوْ قَصِيكَ عَنِ الحُورِيَّاتِ وَالسَّفَنِ الضَّائِعَةِ فِي عَرْضِ البَحْرِ.

صَارَتِ السَّمَاءُ صَافِيَةً الآنَ، وَنَحْنُ نَقْتَرِبُ مِنْ إنْجَلْتِرَا.

لَكِنْ انْتظِرِي، لِمَاذَا أَقْدَمْتُ لِكَ تَقْرِيرًا عَنِ الطَّقْسِ وَلِدِيَّ الكَثِيرِ مِنَ الأُنْبَاءِ؟ أَعْرِفِ الإِجَابَةَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ؛ إِنَّنِي أَحُومُ حَوْلَ نَوَايَا الحَقِيقَةِ، أَتَرَدَّدُ قَبْلَ أَنْ أَهْمَسَ بِالحَقِيقَةِ، فَمَنْ أَيْنَ ابْدَأُ...

تَذَكِّرِينَ يَا عَزِيزَتِي إِيْلِيْزَا مِنْ خُطَابِي الأَخِيرِ أَنَّنَا تَعَرَّفْنَا أَنَا وَأُمِّي عَلَى بَعْضِ السَّيِّدَاتِ المُهْمَّاتِ، إِحْدَاهُنَّ لِيَدِي دُودَمُورَ، وَالتِّي اكْتَشَفْنَا أَنَّهَا شَخْصٌ مَهْمٌ حَقًّا، وَالأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا أَحَبَّتَنِي لِلْغَايَةِ، فَقَدْ أُرْسَلَتْ إِلَيْنَا أَنَا وَمَا الكَثِيرِ مِنْ دَعَوَاتِ التَّعْرِيفِ، وَهَكَذَا انْخَرَطْنَا فِي مَجْتَمَعِ نِيُويُورِكِ الرَّاقِي. كُنَّا كَالْفَرَاشَاتِ اللَامِعَةِ، نُحَلِّقُ مِنْ إِحْدَى الحَفَلَاتِ إِلَى الأُخْرَى...

لَكِنِّي مَا زَلْتُ أَتَلَكَّأُ... لَسْتُ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ تَسْمَعِي تَفَاصِيلَ كُلِّ سَهْرَةٍ، وَكُلِّ لَعْبَةٍ بَرِيدِجْ! عَزِيزَتِي إِيْلِيْزَا، بَدُونَ صُجَّةٍ أَكْثَرِ، سَوْفَ أَكْتُمُ أَنْفَاسِي وَأَكْتَبُهَا صَرِيحَةً... لَقَدْ خُطِبْتُ! خُطِبْتُ وَسَأَتَزَوِّجُ! وَأَنَا أَكَادُ أَطِيرُ فَرِحًا مِنَ السَّعَادَةِ، لِدَرَجَةٍ أَنَّنِي لَوْ فَتَحْتُ فَمِي لِلتَّكَلُّمِ لَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ سِوَى تَدْفُوقِ مِشَاعِرِ حُبِّي. وَأَنَا لَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ، لَيْسَ هُنَا، لَيْسَ بَعْدَ. أَرَفُضُ أَنْ أُعَبِّرَ عَنِ تِلْكَ المِشَاعِرِ الرَّائِعَةِ بِكَلِمَاتٍ جَوْفَاءَ عَلَى الوَرَقِ. سَوْفَ أَنْتَظِرُ حَتَّى نَتَقَابَلَ مُجَدَّدًا، وَحِينَهَا سَوْفَ أَخْبِرُكَ بِكُلِّ شَيْءٍ. وَيَكْفِي أَنْ أَقُولَ لَكَ يَا ابْنَةَ عَمَّتِي إِنَّنِي أَطْفُو فَوْقَ سَحَابَةٍ عَظِيمَةٍ مِتْلَأَتَةٌ مِنَ السَّعَادَةِ الغَامِرَةِ. لَمْ يَسْبِقْ لِي أَنْ شَعَرْتُ بِهَذِهِ العَافِيَةِ وَالصُّحَّةِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى. وَأَشْكُرُكَ يَا عَزِيزَتِي إِيْلِيْزَا،

لأنك لَوْحَتِ بعصاك السحرية من كورنوال وحققتِ أغلى أمنياتي! ربما خطيبي (يا لروعة أن أكتب تلك الكلمة، خطيبي!) ليس مثلما ظننتِ، هو وسيمٌ، وذكيٌّ، وطيبٌ، لكنه رجلٌ فقير! (والآن سوف تعرفين لماذا أنا مُتيقِّنة من امتلاكك موهبة التنبؤ). إنه بالضبط الحبيب الذي اخترعته لي في قصة (الطفلة المسحورة)! كيف عرفتِ يا عزيزتي أنني سوف ألتقي بهذا الشخص!

ماما المسكينة مصدومة بعض الشيء (لكنها تحسَّنت الآن)، لم تُكلِّمني لعدَّةِ أيَّامٍ بعدما أعلمتها بخطيبي. فبالطبع كانت تطمح إلى خِطبةٍ أعظم، وأنا لن أفعل ذلك؛ فلا أهتمُّ مثقالَ ذرَّةٍ بجاهٍ أو بمنصب. هذه رغباتها هي، وأعترف أنني شاركتها إيَّها مرَّةً، لكني لا أشاركها الآن، كيف لي وأميري جاء وفتح بابَ قفصي الذهبي؟

إنني أتحرَّقُ شوقاً لرؤيتك مُجدِّداً يا إيليزا لأشاركك سعادتي. لقد اشتقت لك بشدة، ولا أطيق التفكير أنه فور وصولنا إلى إنجلترا سأنتظر أسبوعاً آخر قبل لقائنا. سوف أرسل هذا الخطاب بالبريد بمجرد أن نرسو في ليقربول، تَمَنِّيْتُ أن أجلبه مباشرةً إلى بلاكهرست، عِوَضاً عن المعاناة في الصحبة الموحشة لعائلة ماما!

مُخْلِصَتُكَ وحبیبَتُكَ إلى الأبد، ابنة خالك روز.

لو كانت صادقةً، لوجَّهت أدالين اللوم إلى نفسها. ألم تحضر مع روز كلَّ حفلة باهرة خلال زيارتهما إلى نيويورك؟ ألم تُعيِّنْ بنفسها وصيفةً لتُرافقها في الحفل الراقص الذي أقامه السيد والسيدة إيرفينج في منزلهما الكبير في الجادة الخامسة⁽¹⁾؟ والأسوأ من ذلك، ألم تُعطِ

(1) شارع رئيسي يمر في منطقة مانهاتن بمدينة نيويورك.

روز إيماءة تشجيع حينما اقترب منها الشاب الأنيق ذو الشعر الأسود والشفتان الممتلئتان وطلب أن تُشرفه بالرقص معه؟

"ابنتك حسناء" قالت السيدة فرانك هاستنجز، وهي تتكىء لتهمس في أذن أداين، بينما الشاب والشابة يرقصان. "أجمل فتاة في الحفل الليلة".

تحركت أداين على مقعدها بفخر. (هل كان لا يجدر بها أن تفعل ذلك؟ هل لاحظ اللورد تكبرها؟) "إن جمالها يضاهاى قلبها النقي".
"وناثانيال وواكر رجلٌ وسيم بالفعل".

ناثانيال وواكر. كانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها اسمه. قالت مُفكرَةً: "وواكر". إن للاسم رنينًا صلبًا، بالتأكيد لا بُدَّ وأنها سمعت عن عائلة تُدعى آل وواكر صنعوا ثروتهم من النفط؟ أموال جديدة، ولكن الزمن يتغير، لم يعد هناك خجل في الزواج من ثروة وليس لقبًا. "مَن تكون عائلته؟".

هل تخيلت أداين لمحةً مرحة مكشوفة حرَّكت لهنيهة الملامح المحايدة للسيدة هاستنجز؟ "ليسوا ذوي بالٍ يُذكر". رفعت حاجبًا خفيًا: "فنانٌ صاحبه، بطيش، أحد أولاد إيرفينج الصغار".

احتفظت أداين بابتسامتها التي بهتت. لم يضع شيئًا بعد، كان الرسم هوايةً نبيلة للغاية في النهاية...

ثم جاءت ضربة السيدة هاستنجز القاضية "يقولون إن أحد أولاد إيرفينج التقى به في الشارع! ابن مهاجرين بولنديين. ربما يطلق على نفسه وواكر، لكنني أشكُّ أن هذا هو المكتوب في أوراق الهجرة. سمعتُ حكايات تقول إنه يقوم برسم الرسومات لكسب رزقه!".

"لوحات زيتية؟".

"ليس شيئًا عظيمًا كهذا. بل رسومات بالفحم" امتصت إحدى وجنتيها في محاولة لابتلاع بهجتها. "إن صعوده أمرٌ مُدهش! والداه كاثوليكيَّان، والأب يعمل في الموانئ".

قاومت أدالين الحاجة إلى الصراخ والسيدة هاستينجز تعود بظهرها على المقعد المذهب، وعلى وجهها ابتسامة شماتة. "لكن لا ضرر في أن ترقص شابةً مع رجل وسيم، أليس كذلك؟".

قالت أدالين بابتسامةٍ ناعمةٍ غطت فزعها: "بلى، لا ضرر البتة".

لكن كيف تصدقها وقد عاودتها ذكرى لشابةٍ تقف أعلى منحدر كورنوال، عيناها مُتسعَتان، وقلبها مفتوح وهي تنظر إلى رجلٍ وسيم يبدو واعدًا؟ بالتأكيد مُمةٌ ضررٌ في اهتمامٍ قصير الأجل لرجلٍ وسيم بشابةٍ.

مرَّ الأسبوع، وكان هذا أفضل ما يُمكن أن يُقال عنه. ليلة بعد ليلة، استعرضت أدالين روز أمام جمهور من النبلاء المناسيين. انتظرت وراودها الأمل، مُتلهفةً لترى شرارة اهتمامٍ تلمع في وجه ابنتها. لكن لم تجد سوى الإحباط كُلَّ ليلة. لقد وضعت روز عينيها على ناثانيال، وكذا يبدو هو. سُجرت روز وأُسرت كفتاةٍ تقع في قبضة الهستيريا. قاومت أدالين الحاجة الملحة لصفعها على وجنتيها اللتين توهجتا باتقادٍ أكثر من اللازم.

طارَد وجه ناثانيال وواكر أدالين أيضًا. في كل عشاء، أو رقصة، أو جلسة قراءة كانت تتفحص الغرفة بحثًا عنه. خلق الخوف في ذهنها قالبًا، وبهتت جميع الوجوه الأخرى، وبرزت ملامحه هو فقط. بدأت تراه حتى حينما لم يكن موجودًا. فحلمت بالمرافئ، والقوارب، والعائلات الفقيرة. أحيانًا كان الحلم يحدث في يوركشر، ويقوم والداها بدور عائلة ناثانيال. لم يتخيَّل عقلها المشوش المسكين أن تمرَّ بهذا كله.

وفي إحدى الأمسيات حدث أسوأ شيء أخيراً. كانتا عائدتين من الحفل الراقص، وقد جلست روز صامتةً تمامًا طوال رحلة الرجوع بالعربة. صمتٌ مُميّزٌ ينمُّ عن قلبٍ عقَدَ عزمه، ووضّحت رؤيته، كشخص يلوك سرّاً، يخفيه طيلة الوقت قبل أن يطلق له العنان.

جاءت اللحظة المُفْرِعة حينما كانت روز ترتدي ملابس النوم.

قالت وهي تمسّط شعرها: "ماما، هناك شيء أرغب في إخبارك به" ثم الكلمات التي تخشاها، عاطفة... مصير... إلى الأبد.

قالت أدالين بسرعة، وهي تقاطع روز: "أنت ما زلتِ شابةً. من المفهوم أنكِ تخلطين بين الصداقة والعاطفة".

"لا أشعر بالصداقة فقط يا أمي".

شعرت أدالين بالحرارة أسفل جليدها. "ستكون مُصيبةً إن ارتبطتِ به. إنه فقير".

"يكفيني هو".

إصرارها، ثَقَّتْها المثيرة للغيظ. "هذا دليل على السذاجة، يا بُنيّتي، وصَغِرِ سنُّك".

"لست صغيرة للغاية لكي أعرف ما أريده يا أمي. أنا في الثانية والعشرين من عمري الآن. ألم تُحضريني إلى نيويورك حتى أقابل خطيبي؟".

قالت أدالين بصوت مبحوح. "هذا الرجل ليس خطيبك".

"وكيف تعلمين ذلك".

"أنا أمك" كم تبدو حُجَّتْها ضعيفةً. "وأنتِ جميلة، من عائلة مُهمّة، ومع ذلك ترضين بالقليل؟".

تَنهَّدت رُوز بِرِقَّة، بِطَريقَة بَدَت أَنها تُنهي المَحادِثَة. "إِنني أُحِبُّه يا أُمي".

أغَلَقَت أَدالين عَينَها. يا للشَّباب! كيف تَصمَد أَكثَر الحُجَج مِنطَقيَّةً وَحِكمَةً أَمام قوَّة تلك الكَلِمات؟ إِنْ ابنتَها، كَنزها الثَمين، تَنطَها بِسَهلَة، وَلذلك الشَّخْص!
"وَهو يَحِبُّني يا أُمي، أُخبرني بِذلك".

تَقَلَّص قَلْبُ أَدالين بِالخُوف. إِنْ الفِتاة العَزيزَة تَعمِها أَفكار الحُب الحَمقاء. كيف تَخبِرها أَنَّ قلوب الرِجال لا تُكسَب بِهذه السَهلَة. وَإِنْ حَديث، مِنَ النادر أَنَّ تَظَلَّ وَفِيَّةً.

قالَت رُوز: "سَترين. سَأعيش حَياةً سَعيدَة في النَهاية، مِثلما يَحدث في قِصص إيليزا. أَتَعرِفين أَنَّها كَتَبَت هذا، كَأَنها تَعلَم ما سَيَحدث".

إيليزا! غَلت أَدالين بِالغُضب. حَتى هَنا، وَعَلى هذه المِساَفة، ظَلَّت الفِتاة مَوضِعَ تَهدِيد، تَأثيرَها يَمُتدُّ عَبر البَحر، وَهَمسَها الخِيبِث يَدَمَّر مِستَقبل رُوز، وَيُحَرِّضُها عَلى ارتِكاب أَكبر خُطأ في حَياتِها.

زَمَّت أَدالين شَفتَها. لَم تَسَعدُ رُوز مِنَ أَمراضِها وَعِللِها لَكي تَراقِبَها وَهي تَلقي بِنَفسِها في زَواجٍ سَئِئ. "لا بُدَّ أَنَّ تَبتَعدِي عَنه. سَيَفَهم. بِالتَأكِيد يَعلَم أَنَّ شَيتًا كَهذا غَير مِسمُوح بِهِ".

"لَقَد خُطِبنا يا أُمي. لَقَد طَلَب مِني وَقَبِلتُ".

"أفسَخي الخُطبة".

"لن أَفَعل".

أَسَقَطَ في يَدها. "سَتُنبَذين في المِجتمَع، وَلن يُرَحَّبَ بِك في مَنزَل أَبيكَ".

"إِذَن سَأَمُكثُ هَنا حَيتُ أَنا مُرَحَّبٌ بِي. في مَنزَل ناثانِيال".

كيف أمكنها أن تقول ذلك، ابنتها تقول هذه الأشياء. أشياء لا بُدَّ وأنها تعرف أنها ستحطم قلب أمها. دار رأسها، واحتاجت إلى الاستلقاء.

"أنا آسفة يا أمي" قالت روز بسرعة "لكن لن أُغير رأيي، لا أستطيع. لا تطلبني ذلك".

لم يتكلما في الأيام التالية، عدا، بالطبع، في المناسبات الاجتماعية المألوفة التي لا يمكن تجاهلها. كانت روز تُفكر، وأدالين تُقَطَّب، لكنها ليست كذلك. بل كانت مُستغرقةً في التفكير. كانت أدالين قادرةً على تطويع العاطفة نحو المنطق. لكن المُعادلة الحالية كانت مُستحيلاً؛ لذا تراءى لها ضرورة تغيير بعض العوامل، إن لم يكن في ذهن روز، سيكون في ذهن الخاطب نفسه. لا بُدَّ وأن يصير رجلاً يستحق يد ابنتها، رجلاً يتحدث عنه الناس بمهابةٍ وبِحسدٍ أيضاً.

وعرقت أدالين كيف تُحدث هذا التغيير.

في قلب كلِّ رجلٍ تقبع فجوةٌ، لُجَّةٌ مظلمةٌ من الاحتياج، تتطلب الإشباع قبل أي شيء آخر. وعرفت أدالين أن فجوة ناثانيال وواكر كانت الفخر، الفخر الخطير لرجل فقير، يعيش محاولاً إثبات نفسه، والسُّمو على أصله، وجعل نفسه رجلاً أفضل من أبيه. حتى بدون السيرة الذاتية التي عرضتها باستفاضة السيدة هاستينجز، كلُّما رأت أدالين ناثانيال وواكر أكثر، عرفت أن تلك هي الحقيقة. يُمكنها أن تتبين ذلك من الطريقة التي يمشي بها، ومن حذائه الملمع بحرص، ومن ابتسامته المتحمسة وحجم ضحكته. كانت تلك سمات رجل جاء من الحضيض، ولمح العالم اللامع يتموِّج بعيداً وأعلى من عالمه. رجل يُعلق ملابسه المبهرجة على جلده الفقير.

تعرف أدالين نقاط ضعفه جيداً؛ لأنها نقاط ضعفها أيضاً. كما تعرف بالضبط ما يتوجب عليها أن تفعله. يجب أن تضمّن أن يحظى

بكل امتياز، وأن تكون أكبر أنصاره، وتُروِّجَ فَنَّهُ لَصَفْوَةِ المَجْتَمَعِ،
وتكفَّل أن يكون اسمُه مُرادِفًا لتصوير الطبقة الراقية. بدعمها غير
المشروط، وبوَسامَتِهِ وسحره، بالإضافة إلى زَواجِه من روز، سينجح في
تَرْكِ انطباعٍ قَوِيٍّ.

ولن تجعله أداين ينسى مَنْ كان مسؤولاً عن حَظِّه السعيد.

وضعت إيليزا الرسالة بجوارها على الفراش. لقد حُطِّبَت روز،
وسوف تتزوِّج. لم يجدر أن تُدهِشَها الأخبار؛ فكثيراً ما تحدَّثت روز
عن آمالها نحو المستقبل، ورغبتها في الزواج وتكوين عائلة، وامتلاك
منزل كبير وعربة. ومع ذلك شعرت إيليزا بالدهشة.

فتحت مُفكَّرَتَها الجديدة ومرَّرت أصابعها بخفَّة فوق الصفحة الأولى
التي انتفخت بفقاعات جِراء المطر. رسمت خَطًّا بقلمها الرصاص،
وشاهدته بذهن شارد وهو يتحوَّل من الأسود إلى الأبيض طَبَقًا
لقاعدته الرطبة والجافَّة. شرعت في كتابة قِصَّة، خَرَبَشَت وشَطَّبَت
لبعض الوقت قبل أن تدفع المفكِّرة جانبًا.

أخيرًا، مالت بظهرها إلى الوسادة. ليس ثَمَّة سَبِيلٌ لإنكار ذلك، إنها
تشعر بالدهشة. شيء ما حطَّ عميقًا داخل صدرها، مستدير وثقيل،
حادُّ وقاسٍ. وتساءلت هل هي مريضة. ربما كان ذلك بسبب المطر؟
لقد حدَّرتها ماري كثيرًا من المكوث خارج المنزل لفترة طويلة.

أدارت إيليزا رأسها للنظر إلى الجدار، إلى الفراغ. روز، ابنة خالها،
التي تُسَلِّيها، وتشاركها مؤامراتها، سوف تتزوِّج. مع مَنْ ستشارك
إيليزا الحديقة السَّرِيَّة؟ وقصصها؟ وحياتها؟ كيف ستتصوَّر المستقبل
بشكل مُشرق؟ سنوات مُمتدَّة إلى الأمام، مليئة بالسفر والمغامرات
والكتابة، هل تصير أوهامًا في غمضة عين؟

انزلت نظرتها جانبًا لترتاح على الزُجاج البارد للمرأة. لم تكن إيليزا تنظر إلى المرأة كثيرًا. ثمّة شيء اختفى منذ أن قابلت توأم روحها أخيرًا. نهضت واقتربت من المرأة. وتأملت نفسها.

أدركت فوراً. علمت تمامًا ما فقدته. كان الانعكاس ينتمي إلى فتاة بالغة، لم يكن هناك مكانٌ في زواياه لوجه سامي ليختبئ. لقد اختفى. والآن ستختفي روز أيضًا. من هذا الرجل الذي سرق أعزَّ صديقة لها في طَرْفَةِ عَيْنٍ؟

لم تشعر إيليزا أنها مريضة لهذه الدرجة لولا أنها ابتلعت بُرتقالةً مُرَّصَةً بالقرنفل، واحدة من زينة عيد الميلاد التي صنعتها ماري.

الغيرة. كان ذلك هو الثقل الذي شعرت به في صدرها. إنها تغار من الرجل الذي أعاد لروز عافيتها، والذي فعل بسهولة ما تمنّت أن تفعله هي، والذي جعل عواطف ابنة خالها تتغيّر بسرعة وبشكل تامّ. الغيرة. همست إيليزا بالكلمة الحادة وشعرت بشوكتها المسمومة تخز فمها.

ابتعدت عن المرأة وأغلقت عينيها، واستجمعت قوتها لتنسى الرسالة وأخبارها السيئة. لا تريد أن تشعر بالغيرة، لا تريد أن تأوي تلك الغصة الشائكة. إنها تعلم من قصصها الخيالية المصير الذي ينتظر الشقيقات الشريرات اللاتي سحرتهنّ الغيرة.

مكتبة
t.me/t_pdf

(35)

فندق بلاكهرست، 2005

كانت شَقَّةٌ جوليا تقع أعلى المنزل، ويمكن الوصول إليها عن طريق دَرَجٍ ضيقٍ جدًّا في نهاية رواق الطابق الثاني. حينما غادرت كساندرا غرفتها كانت الشمس قد بدأت لتوها تذوب فوق الأفق، وخيم الظلام على الرواق. طرقت الباب وانتظرت، وهي تُشدُّ قَبْضَتَهَا على عنق زجاجة نبيذٍ أحضرتها معها. قرار اللحظة الأخيرة وهي تعود مع كريستيان عبر القرية.

فتحت جوليا الباب. كانت ترتدي كيمونو زهريًّا لامعًا. قالت وهي تشير إلى كساندرا لتتبعها إلى الغرفة: "تفضلي. إنني أُعدُّ العشاء. أممّنى أن يعجبك الأكل الإيطالي!".

"يعجبني" قالت كساندرا وهي تُسرِعُ وراءها.

سارت في غرفة فسيحة فخمة كانت فيما مضى مكانًا يضمُّ غُرفَ نَومٍ ضيقةً تأوي جيشًا من الخادِمات. على الجانِبَيْنِ نوافذٌ مائِلةٌ تُطلُّ على مناظر رائعة على العزبة طوال اليوم. توقَّفت كساندرا عند المدخل المُفضي إلى المطبخ. كانت جميع الأسطح مُغطَّاةً بأطباق الخَلطِ والأكواب المعيارية، وعلب الطماطم مُعلَّقة من أغطيتهَا، وأحواض يتلأأ فيها زيت الزيتون وعصير الليمون ومُكوِّنات غامضة أخرى.

" كم أنتِ جميلة!" نَزَعَتْ جوليا بقوة سَدَّادة الفلِّين، ثم سحبت كأسًا من الرِّفِّ فوق منضدة طويلة، وصَبَّت فيه النبيذ من ارتفاع مُتكلِّف. لَعَقَتْ من على إصبعها قطرةً من نبيذ الشيراز، ثم قالت وهي تغمز نحو كساندرا: "شخصيًا لا أشرب سوى الـجِن، يجعلك شابَّةً، إنه شراب خالِص". ناوَلت الكأس إلى كساندرا واندَفَعَتْ من المطبخ. "تصرِّفي كأنكِ في منزلك".

أشارت إلى مقعد بمسندَيْنِ في منتصف الغرفة، فجلست عليه كساندرا. كان أمامها صندوق خشبيٌّ مطويٌّ كمنضدة القهوة، وُضِعَتْ على منتصفه كومةٌ من كتب قصاصات قديمة ذات أغلفة جلدية لونها بنية باهتة. دبَّ الحماس والإثارة في كساندرا، واستشعرت خِزْرًا في أناملها المتلهِّفة.

"تصفَّحِها بينما سأضع اللمسات النهائية على عشائنا".

على الفور مدَّت كساندرا يدها على أول كتابٍ ومرَّت راحة يدها بخِفَّةٍ على سطحه. كان الجلد ناعِمًا رقيقًا كالقטיפه، وقد فَقدَ لونه الأخضر. جذبت كساندرا نَفْسًا مُترَقِّبًا، وفتَحَت الغلاف وقرأت، بخطُّ أنيقٍ دقيقٍ: روز إليزابيث مونتراشيه وواكر، 1909. تتبَّعت الكلمات بطرفٍ إصبعها، متحسِّسةً العلامات الباهتة على الورق. تخيَّلت القلم

المُسْتَنَّنَ الذي كتبها. بحرص، قَلَّبَتِ الصفحات حتى وصلت إلى المُدْخَلِ الأول.

عام جديد، يعد بأحداث هائلة. فَقَدْتُ تركيزي منذ أن وصل السيد ماثيوس وأعلن تشخيصه. أَعْتَرَفُ أن نوبات الإغماء في الفترة الأخيرة أزعجتني للغاية، ولم أَكُنِ الوحيدة. نظرت إلى وجه أُمِّي فرأيتُ القلق يرتسم على ملامحها. بينما كان د. ماثيوس يفحصني وأنا راقِدةٌ أُحْمَلِقُ في سقف الغرفة، وأحاول أن أطرد الخوف من قلبي باستدعاء اللحظات السعيدة في حياتي حتى الآن. يوم زفافي، ورحلتي إلى نيويورك، والصيف الذي جاءت فيه إيليزا للمرة الأولى إلى بلاكهرست... يا لسطوع الذكريات حينما تكون حياتك مهْدَدَةً!

فيما بعد، حينما جَلَسْتُ أنا وأُمِّي على الأريكة ننتظر تشخيص د. ماثيوس، أخذت يدي. كانت باردة. نظرت إليها لكنها لم تنظر نحوي. حينها فقط بدأ قلقي يأخذ طابع الجِدِّيَّة. خلال كلِّ الأمراض التي أصابتنني منذ نعومة أظافري، كانت أُمِّي الوحيدة التي تُطْمَئِنُّ رَوْعِي. فلماذا خانتها تلك الثقة الآن؟ وما الذي خَمَّنَتْه فأثار هذا القلق العظيم؟ حينما تنحج د. ماثيوس، اعتَصَرْتُ يَدَ أُمِّي وانتظرتُ. لكن ما قاله كان صَادِمًا لأبعد الحدود.

"أَنْتِ حُبْلَى. أَظُنُّ في شهرك الثاني الآن. بِمَشِيئَةِ الرَّبِّ ستلدين في أغسطس".

عَجَبًا! يا للفرحة التي أثارتها تلك الكلمات؟ بعد أملٍ طويل، وشهور ثقيلة من الإحباط، أخيرًا سيأتي طفلي جميل. وريث لناثانيل، وحفيد لماما، وابن بالمعمودية لإيليزا.

شعرت كساندرا بألمٍ في عينيها. هذا الطفل الذي تحتفي به روز كان نيل، هذا الطفل الذي طال انتظاره والمرغوب بشدَّة كان جَدَّةً

كساندرا العزيزة. كانت مشاعر روز المُفعمّة بالأمل غامرةً. إنها تكتب وهي تجهل كل ما سيحدث بعد ذلك.

أخذت تقلّب بسرعة الصفحات، قصاصات من القماش المزركش والشرائط، وملحوظات قصيرة عن زيارات الطبيب، ودعوات إلى مآدب عشاء مختلفة وإلى حفلات رقص في المنطقة، حتى عثرت أخيراً على ما كانت تبحث عنه، في مُدخل ديسمبر 1909.

لقد جاءت. إنني أكتب هذا المدخل مبكراً عمّا هو مُتوقّع. كانت الأشهر الماضية في غاية الصعوبة، ولم يكن لديّ الوقت أو الطاقة لأكتب، لكن الأمر كان يستحقّ العناء. بعد أشهر عديدة من فقدان الأمل، ونوبات المرض الطويلة، والقلق، وعدم الخروج، أمسكتُ بطفلتي الغالية بين ذراعي. تلاشى كل شيء آخر. إنها مثالية. بشرتها شاحبة بلون القشدة، شفتاها ورديتان ممتلئتان، عيناها زرقاوان عميقتان، لكن الطبيب يقول إن الأطفال يولدون هكذا، وربما تصير سوداء بمرور الوقت. تمنيّت في سرّي أن يكون مُخطئاً. رجوتُ أن تَرث لون آل مونتراشييه الحقيقي، مثل أبي وإليزا: عينا زرقاوان وشعر أصهب. قرّرنا تسميتها أيفوري؛ لأن لون بشرتها وروحها كانا كذلك مثلما سيثبت الزمن بلا شك.

"تفضّلي" قالتها جوليا وهي تمسك بطبقين من الباستا يتصاعد منهما البخار، وتحت ذراعها مطحنةٌ فُلُفٌ كبيرة. "رافيو لي بالصنوبر والجبّ الأزرق". ناوَلتُ طبقاً إلى كساندرا. "حذار، الطبق ساخن قليلاً". أخذت كساندرا الطبق المُقدّم ووضعت المُفكرة جانباً. "رائحته شهية".

"لو لم أصبح كاتبَةً، ثم مُرَمّة، ثم مديرة فندق، لوددتُ أن أصير طاهيةً. نخبك" رفعت جوليا كأس الچن، وأخذت رشفة، ثم تنهّدت. "أحياناً أشعر أن حياتي برُمّتها سلسلة من الحوادث والمصادفات، لا

أَتَذَمَّر. ربما تكمن سعادة المرء في تخليّهِ عن توقُّع السيطرة على الأمور". ثم غرزت الشوكة في مُرْبَعِ باستا. "لكن كفى حديثًا عني، كيف هي الأحوال في الكوخ؟".

قالت كساندرا: "تسير على خير حال، باستثناء أنني كلما أنجزت أكثر أدركت أن هناك المزيد من العمل. الحديقة بريّة جدًا، والكوخ تَعْمُهُ الفوضى، بل تُساوِرُنِي الشكوك إزاء سلامة بنائه. من المفترض أن أجلب معماريًا ليفحصه، لكن الوقت لا يُسعفني، ثمة أشياء كثيرة أخرى تشغلني. إن الأمر بِرُمْتِهِ..."

"مُربِك".

"أجل، إنه مُربِك بالتأكيد، ولكنه أكثر من ذلك، إنه..." توقَّفت كساندرا، وبحثت عن الكلمة المناسبة، ودُهِّشَتْ حينما وجدتِها. "... مثير. لقد وجدت شيئًا في الكوخ يا جوليا".

"وجدتِ شيئًا؟" انعقدت حاجباها. "مثل كَنْزٍ مَخْفِيٍّ؟".

"هذا يعتمد إن كُنْتِ تحبِّين الكنز أخضرَ وخصبًا" عضت كساندرا شَفَتَهَا السُّفلى. "إنها حديقة مَخْفِيَّة، حديقة مُسَوَّرَةٌ تقع خلف الكوخ. لا أظنُّ أن أحدهم وطأها منذ عشرات السنوات، ولا عجب في ذلك، فأسوارها عالية، ومُغَطَّاةٌ تمامًا بالعُليق. لن تُخَمَّنِي قَطُّ أنها هناك".

"وكيف وجدتِها؟".

"بالصُّدفة البَحْتَة".

هَزَّت جوليا رأسها. "لا أظنُّ أن الصُّدفة تلعب دورًا هنا".

"لم أعرف حقًا أنها موجودة هناك".

"أُصدِّقُكَ، لكنني أعتقد أنه ربما تكون الحديقة مَخْفِيَّة عن أَعْيُن مَنْ لا ترغب في أن تراهم".

"على كُلِّ حال، أنا سعيدة لأنها ظهرت لي. إنها مُدهِشَة. برغم أن النباتات مُفْرِطَة النُمو، لكن أسفل العُلْيُق ظَلَّت جميع أنواع النباتات باقية. هناك مَمَرَّات، ومقاعد حديقة، وملقَمات طيور".

"مثل قصة الجميلة النائمة، تَغْطُ في نومٍ عميقٍ إلى أن ينفكَّ عنها السحر".

"بل المُدهِش هنا أنها لم تكن نائمة. لقد ظَلَّت الأشجار تنمو، وتثمر، حتى برغم عدم وجود أحد هنالك ليتذوَّقها. لِيَتَكِ تَرِين شجرة التفاح، يبدو عمرها مائة عام!".

قالت جوليا فجأة، وهي تشدُّ قامتها وتدفع طبقها جانبًا: "إنها كذلك. أو تقريبًا". قَلَبَتْ في كُتُب القُصَصات وهي مُرَّرُ أصبعها على الصفحة تلو الصفحة، وتقلِّب بينها جيئة وذهابًا. ثم قالت وهي تنقر على المُدخل. "وجدتها. بعد عيد ميلاد روز الثامن عشر مباشرة، قبل أن تسافر إلى نيويورك وتقابل ناثانيال" وضعت على طرف أنفها نظارةً فيروزيةً ذات عدسات على شكل مَحَار، وشرعت تقرأ:

الحادي والعشرين من شهر مايو، عام 1907. يا له من يوم! وأنا التي كنت أحسب أنه سيكون يومًا طويلًا أقضيه داخل المنزل. (بعدما تحدّث د. ماثيوس عن حالاتٍ قليلة من الزُكام في القرية، خَشِيَت أُمِّي أن أصاب بالمرض؛ مِمَّا هَدَّد عطلة الأسبوع التي كُنَّا سنقضها في القرية والتي سنحضرها الشهر القادم). لكن كانت لدى إيليزا أفكار أخرى كدأبها، بمجرد ذهاب أُمِّي لحضور مأدبة غداء السيدة فيليمور، جاءت إلى غرفتي ووجنتها متورِّدتان (كم أحسدها على نزهاتها!) وأصرَّت أن أضع جانبًا كتاب القُصَصات (كنت أكتب فيكِ أيتها المُفكِّرة العريضة!) وأن أذهب معها إلى المتاهة لأن هناك شيئًا يجب أن أراه.

في البداية تَرَدَّدْتُ؛ خشيَّةً أن تشي بي إحدى الخادِمات، وأنا لا أريد مُشادَّةً مع أُمِّي الآن، ورحلة نيويورك تلوح في الأفق. لكن عيني إيليزا لمعتا بتلك "النظرة" التي تبديها حينما تكون دبَّرت خُطَّةً ولن تتردَّد، تلك "النظرة" التي قادَّتني إلى ورطات لا تُحصى خلال السبعة أعوام الماضية.

كان حماس ابنة عمَّتي عظيمًا؛ فلم يكن بوسعي الاعتراض. أحيانًا أعتقد أن لديها روحًا تكفيها نحن الاثنين، وكان ذلك من حُسن طالعي نظرًا لنوبات اكتئابي الكثيرة. وقبل أن أفهم ركضنا سويًا وذراعانا مُتشابكتان ونحن نقهقه. كان ديفيس ينتظرنا عند بؤابة المتاهة. كان يتحرَّك بتثاقُل بسبب أصيص ضخمٍ ثَقِيلٍ يحمله معه، وطوال الطريق كانت إيليزا تنظر إلى الوراء، وتعرض المساعدة (والتي كان يرفضها دومًا) قبل أن تقفز إلى جوارِي، وهي تمسك يدي، وتسحبني لتتوغَّل أكثر. ظلَّلنا نسير على هذا الحال عبر المتاهة (كانت إيليزا خبيرةً في ممرَّاتها)، وعبرنا منطقة الجلوس المركزية، ثم مررنا بالجرس النحاسي الذي تقول إيليزا إنه يدلُّ على دخول مَمَرٍ سَرِّيٍّ، حتى وصلنا أخيرًا إلى باب معدني ذي قُفل نحاسي كبير. سحبت إيليزا المفتاح من جيب جونلتها، وقبل أن أجد الوقت لأسألها كيف وَجَدت هذا الشيء بحق السماء، أُولِجَت المفتاح في القفل، ثم أدارته، ودفعت فانفتح الباب ببطء.

في الداخل كانت حديقة، مُماثِلة للحدائق الأخرى في العزبة، لكنها كانت مختلفة. كانت تُطَوِّقها أسوارٌ حجريَّةٌ طويلةٌ من جميع الجهات، عدا بابين معدنيين متقابلين، أحدهما على الجدار الشمالي والآخر على الجدار الجنوبي...

قالت كساندرا: "إذن هناك بابًا آخر! لم أجده".

نظرتُ جوليا من فوق نظراتها: "كانت هناك ترميماتٌ في عام 1912 أو عام 1913... السور الحجري بُني أمام أحدهما، ربما أزالوا الباب وقتذاك. لكن انتظري. أصغي لهذا".

كانت الحديقة أنيقةً ومهيأةً للزراعة، تشبه حقلاً محروثاً ينتظر أن يُبذر بعد مرور شهور الشتاء. في المنتصف مقعد طويل معدنيٌّ مُزخرفٍ بجانب حوض حجري، وعلى الأرضية الكثير من الأقفاص الخشبية المُحمّلة بأصص زرع صغيرة. أخذت إيليزا تجري إلى الداخل كطفلة. تساءلتُ في دهشة "ما هذا المكان؟".

"إنها حديقةٌ أقوم برعايتها. ليتكِ رأيت الحشائش حينما جئت للمرة الأولى. كنا مشغولين للغاية، أليس كذلك يا ديفيس؟".

"أجل يا آنسة إيليزا" قال وهو يضع الأصيص بجوار الحائط الجنوبي.

"سوف تكون حديقتنا يا روز. مكاناً سرّياً نختبئ فيه أنا وأنتِ فقط، مثلما تخيلنا ونحن طفلتان. أربع جدران، أبواب موصدة، جنتنا الخاصة. وحينما تمرضين يمكنك المجيء هنا يا روز. الأسوار تحمي الحديقة من رياح البحر القاسية، وسيمكنك الإصغاء إلى الطيور، وشمّ الزهور، والتّمتع بأشعة الشمس على وجهك".

كان حماسها، وتدفّق مشاعرها، كبيراً، حتى أنني أحببت الحديقة. نظرت إلى أحواض الزراعة، وأصص الزهور، والتي كانت على وشك التبرُّع، وتخيلت الجنة التي تصفها. "وأنا طفلة سمعتهم يتحدّثون عن حديقة مُسوّرة مُخبّأة في العزبة، لكنني تخيلتُ أنها مجرد قصة غير حقيقية".

قالت إيليزا وعيناها تلمعان: "ليست كذلك. إنها حقيقية، وسنعيدها الآن إلى الحياة".

لقد عملت إيليزا وديفيس بدأبٍ وكدِّ في الحديقة. فقد كانت مُهمَّلةً طيلة هذا الوقت، منذ... وقطَّبت، تذكَّرتُ ما سمعته وأنا طفلة. ثم داهمني الإدراك، إنني أعلم لمن كانت تلك الحديقة... قلت بسرعة: "يجب أن تكوني حَذِرَةً يا ليزا، يجب أن نكون حَذِرِينَ. يجب أن نغادر هذا المكان ولا نأتي أبدًا. لو عَلِمَ والدي...".
"إنه يعلم بالفعل".

نظرتُ إليها بحدَّة أكثر من اللازم. "ماذا تقصدين؟".

"خالي لينوس أمر ديفيس بإعطائي الحديقة. أمره بتنظيف الجزء الأخير من المتاهة، وأخبره بإعطاء الحديقة حياةً جديدةً".
"لكن أبي منع الدخول إلى الحديقة المُسوَّرة".

هزَّت إيليزا كتفيها، تلك الإشارة السهلة التي تمَّقتها أمي. "ربما تَغَيَّر قلبه".

تَغَيَّر قَلْبُهُ! إن كلمة (قلب) تُناقض صورتي عن أبي. لم أره يتصرَّف بطريقة مُحمَّلة بالمشاعر قطُّ، عدا المرة الوحيدة، حينما كنت مُختبئةً أسفل مكتبه، وسمعته يبكي على شقيقته، دميته. فجأة أدركتُ الأمر، وشعرت بغصَّةٍ ثقيلة في قلبي. قلت: "لأنك ابنتها".

لكن إيليزا لم تسمعني. نهضت من جانبي، وكانت تسحب قِدرَ البذور نحو حفرة أكبر بجوار الجدار. ثم صاحت: "هذه أوَّل شجرة جديدة لنا. سنحتفل. وهذا هو سَبَبُ أهمِّيَّة مجيئك اليوم. هذه الشجرة ستستمرُّ في النمو، مهما امتدَّ بنا العمر، وتقلِّب الدَّهرُ، وستتذكَّرنا دومًا: روز وإيليزا".

كان ديفيس بجواري حينها، وهو يحمل مجرقةً صغيرة، قال: "رغبت الأنسة إيليزا أن تكوني أوَّل مَنْ يلقي التراب على جذور الشجرة يا آنسة روز".

رَغِبَتِ الأَنَسَةُ إيليزا. وَمَنْ أَكُونُ أَنَا لِأَعَارِضِ هَذِهِ القُوَّةِ الكَاسِحةِ؟
سَأَلَتْ: "ما نوع هذه الشجرة؟".

"شجرة تفاح".

كان لا بُدَّ وأن أعرف؛ كانت إيليزا دائماً تحبُّ الرمزية، والتفاح هو أول فاكهة.

رفعت جوليا عينيها عن كتاب القصصات، وسالت دمعة من عينيها. ونشقت وابتسمت. "إنني أعشق روز. ألا تشعرين بوجودها معنا هنا؟".

ابتسمت كساندرا، لقد أكلت تفاحةً من الشجرة التي ساعدت جدتها الكبيرة في زراعتها، منذ مائة عام تقريباً. توردت وجنتاها قليلاً؛ فأفكار الشجرة جلبت معها أصداء حلم غريب. كانت تعمل طيلة الأسبوع بالقرب من كريستيان، ونجحت في إبعاد الحلم. وظننت أنها تخلصت منه.

"وأنتِ الآن تنظفين نفس الحديقة مجدداً. يا له من تماثل جميل. ماذا ستقول روز لو عرفت؟" انتزعت جوليا منديلاً ورقياً من علبة قريبة ومخّطت. "معذرة" قالت وهي تمسح الماسكرا عن أسفل عينيها. "إنه شيء رومانسي للغاية" ضحكت. "من المؤسف أنه ليس معكِ شخص مثل ديفيس يساعذك".

قالت كساندرا: "ليس ديفيس. لكني معي شخص يساعدي بالفعل. كان يأتي بعد الظهر طوال هذا الأسبوع. قابلته هو وشقيقه مايكل حينما جاء لإزالة الشجرة الساقطة من الكوخ. أظن أنك تعرفينهما. قالت روبن چيمسون إنهما يقومان برعاية الحدائق هنا أيضاً".

"الأخوان من آل بلاك. إنهما ماهران. والحقيقة أنني أستمتع بمراقبتهما. ومايكل هذا جذابٌ ووسيم. لو كنت أكتب، سيكون

مايكل بلاك هو مَنْ أتصوّره حينما أصف الرجل الذي تقع في هواه السّيّئات في قصي".

"وكريستيان؟" رغم محاولتها المستميتة لتبين عدم اكرائها، شعرت كساندرا بوجنتيّها تسخان.

"سيكون بالتأكيد الشقيق الأذكي والأصغر والأكثر هدوءًا، مَنْ يفاجئ الجميع، وينقذ الموقف، ويكسب قلب البطلة".
ابتسمت كساندرا. "لن أسأل مَنْ سأكون".

"قالت چوليا بتنهيدة: "وأنا أيضًا أعرف مَنْ سأكون. المرأة الجميلة المُسنّة التي ليس لديها فرصة مع البطل؛ لذا توجّه طاقتها إلى مساعدة البطلة لتعرف مصيرها".

قالت كساندرا: "لو كانت الحياة مثل القصة الخيالية ستكون أكثر سهولة. لو عرف كلُّ شخص إلى أيّ مُطٍ ينتمي".

"لكن الناس يعرفون، لكنهم يظنون أنهم لا يعرفون. حتى مَنْ يُصرُّ على عدم وجود هذه الأمور يعتبر مبتدلاً، شخصًا مُتحدِّلاً كئيبًا يُصرُّ على تفرُّده!".

أخذت كساندرا رشفة من كأس النبيذ. "ألا تعتقدن أن هناك شيئًا يُسمّى التفرُّد؟".

"جميعنا مُتفرِّدون، لكن ليس بالطريقة التي نتخيّلها" ابتسمت چوليا، ثم لوّحت يدها، وصلّلت أساور يدها. "ما الذي أقوله؟ يا لي من مُستبِدّة! بالطبع هناك تنوعٌ في الشخصيات. على سبيل المثال، لم تكن البستنة مهنة كريستيان بلاك الأصلية. كان يعمل بمستشفى في أكسفورد. كان طبيبًا، لا أتذكّر التخصّص بدقّة، إنه اسمٌ طويلٌ مُعقّد".

شدّت كساندرا قامتها وهي تقول: "وما علاقة طبيبٍ بتهذيب الأشجار؟".

"ما علاقة طبيب بتهديب الأشجار؟" ردّدت جوليا سؤالها مُتعمّدة. "هذا هو قصدي بالضبط. حينما أخبرني مايكل أن شقيقه شرع يعمل معه لم أوجّهه أيّ أسئلة، لكن انتابني الفضول كالعادة. ما الذي يدفع شابًا لتغيير مهنته بهذا الشكل؟".

هزّت كساندرا رأسها "تغيّر القلب؟".

"أظنُّ أن الأمر أكبر من ذلك".

"رُبّما أدرك أنه لا يستمتع بمهنته".

"رُبّما. لكن أظن أنه فكّر في ذلك في وقتٍ ما أثناء سنوات الدراسة الطويلة" ابتسمت جوليا بغموض. "وربّما أنا أهتمُّ أكثر من اللازم، عادةً لازمتني منذ أن كنتُ كاتبة، والعادات القديمة لا تختفي بسهولة. لا يمكن أن أمنع خيالي من التّحليق" وأشارت بأصبع يدها الممسك بكأس الجِزْن نحو كساندرا. "وهذا يا عزيزتي ما يجعل الشخصية مُثيرةً للاهتمام؛ أسرارها".

فكّرت كساندرا في نيل والأسرار التي خبّأتها. كيف تحمّلت أنها اكتشفت أخيرًا مَنْ تكون ولم تُخبر أحدًا؟

"أتمنّى لو رأيت جدّتي كُتبت القصّصات قبل أن تموت. كانت ستعني لها الكثير، كأنها تسمع صوت أمّها".

"كنتُ أفكّر في جدّتيكِ طيلة الأسبوع، منذ أن أخبرتني ما حدث كنتُ أتساءل ما الذي يدفع إيليزا إلى أن تأخذها".

"وماذا تعتقدين؟".

"الغيرة. كلّما أفكّر في الأسباب أعود إلى هذه النقطة. إنها حافِزٌ قويٌّ لعين، وروز تمتلك مقوّمات كثيرة: جمالها، زوجها الموهوب، أصلها. في الطفولة، لا بدُّ وأن إيليزا رأّت روز الفتاة الصغيرة التي تمتلك كل شيء، ولا سيّما الأشياء التي لا تملكها: أبوان ثريان، ومنزل فخم، وطبيعة

طيبة يعشقها الناس. وفي المراهقة، تزوّجت روز بسرعة، ومن رَجُلٍ لا بُدَّ وأنه كان وسيماً، ثم حملت، وأنجبت طفلةً جميلةً... اللعنة، أنا نفسي أشعر بالغيرة من روز! تخيّلِي كيف كان الأمر بالنسبة لإليزا، وهي شخصية غريبة الأطوار بحسب رأي الجميع". جرعت كأسها دفعة واحدة، ثم وضَعته بقوة. "لا أُبرِّر ما فعلته على الإطلاق. بل أقول إنه لا يدهشني".

"إنها الإجابة الواضحة، أليس كذلك؟".

"والإجابة الواضحة عادةً تكون الصحيحة. إن كل شيء موجود في كتب القصص، ولكن يحتاج منك الأمر التنقيب جيّداً. منذ اللحظة التي عرَفت فيها روز أنها حُبلى، ازداد ابتعادُ إليزا. كما أن روز لا تذكُرها كثيراً بعد مَولِد أيثوري. لا بُدَّ وأن ذلك أزعجها؛ فأليزا كانت شقيقتَها، وفجأةً تنسحب، في هذا الوقت بالذات، وتحزم أمتعتها وترحل عن بلاكهرست".

"أين ذهبت؟" قالت كساندرا مندهشة.

قَطَبتِ جوليا: "أظنُّ في مكانٍ ما وراء البحار. ولكن بعدما تحدَّثنا الآن، لست واثقة أن روز كانت تريد أن تقول ذلك فعلاً..." لَوَّحت بيدها. "وهو بعيدٌ عن الموضوع حقًّا. الحقيقة هي أنها ذهبت بعيداً حينما كانت روز حُبلى، ولم ترجع إلَّا بعد ميلاد أيثوري. ولم تُعد علاقتهما كما كانت في السابق".

تثاءبت كساندرا وعدلت من وضع وسادتها. كانت عيناها مُرهَقَتَيْن، لكنها أوشكت على إنهاء قراءة مُدخَل عام 1907، ومن المؤسف أن تضع كتاب القُصاصات جانباً ولم يَبْقَ سوى بضع صفحات. بالإضافة إلى أنها كُلِّما أسرَعَت في قراءتهم، كان ذلك أفضل. برغم أن

چوليا وافقت بلطفٍ أن تعيرها هذه الكتب، علّمت كساندرا أنها لن تتحمّل الافتراق عنهم لوقت طويل. حمداً لله أن خطّ روز كان ثابتاً واضحاً، على النقيض من خطّ نيل المتشابك عسير القراءة. ارتشفت كساندرا جرعةً من الشاي، والذي برّد الآن، وتجاوزت الصفحات المليئة بالقماش، وعيّنات الأشرطة، وقماش الثّل من فستان الزفاف، وتوقيعات مُزخرفة مكتوب فيها: السيدة روز مونتراشيه وواكر، السيدة وواكر، السيدة روز وواكر. ابتسمت؛ ثمة أشياء لا تتغيّر قط. ثم انتقلت إلى الصفحة الأخيرة:

انتهيت نواً من قراءتي الثانية لكتاب (تس سليلة دربرفيلز)⁽¹⁾. إنها رواية مُحيرة، وبكل صدق لم أستمتع بقراءتها. إن أدب هاردي مليء بالوحشية، وأعتقد أنها لا تناسب ذوقي؛ فأنا ابنة أمّي في النهاية، حتى لو أردتُ غير ذلك. اعتناق أنجيل للمسيحية، وزواجه من ليزا لو، ووفاة الطفل المسكين سورو، كل هذه الأحداث أزعجتني. لماذا يُحرّم سورو من مراسم الدفن المسيحية، بالتأكيد لا يجب أن يُكفّر الرضع عن خطايا أبويهم، هل حبّذ هاردي أن يتحوّل أنجيل للمسيحية أم هو كافر؟ وكيف حوّل أنجيل عواطفه من تس إلى شقيقتها بهذا البساطة؟

أعتقد أن تلك الموضوعات حيرت عقولاً أعظم من عقلي، ولم يكن النقد الأدبي بُغيّتي حينما عاودتُ قراءة القصة الحزينة لتس المسكينة. اعترف أنني استعنت برواية السيد توماس هاردي على أمل تقديم بعض النصائح بخصوص ما أتوقّعه حينما نتزوّج أنا وناثانيال. بالأدق، ما المتوقّع مني. يا ويحي! إن التفكير في هذه الأسئلة يجعل وجنتي ساخنتين! بالتأكيد لا أستطيع التعبير عن ذلك بكلمات! (أتخيّل وجه ماما!).

(1) رواية للأديب البريطاني توماس هاردي، نُشرت عام 1891.

للأسف لم يُمدني الكتابُ بالأجوبة التي سَعَيْتُ لها أَمَلَةً. تذكّرت أن الإغواء الذي تعرّضت له تس لم يُذكر بتفاصيل كبيرة. إن لم أتذكّر مصدرًا آخر ألتجئ إليه (لا أعتقد السيد جيمس، أو السيد ديكنز)، لم يتبقَّ أمامي سوى الذهاب معصوبَةً العينين إلى اللُجَّة المظلمة. خوفاً الأكبر هو أن يركّز ناثانيال النظرَ على بطني. بالتأكيد لن يفعل ذلك؟ إن الغرور خَطِيئَةٌ كُبرى، ولكن للأسف لا أستطيع تمألك نفسي؛ فالعلامات على جلدي قبيحة للغاية، وهو يعشق بشرتي الشاحبة.

قرأت كساندرا الأسطر القليلة الأخيرة عدّة مرّاتٍ. ما هي هذه العلامات التي تتحدّث عنها روز؟ علامات خَلْقِيَّة؟ ندوب؟ هل قرأت شيئاً آخر في كتب القصصات يوضّح هذا المدخل؟ حاولت كساندرا لكنها لم تستطع التذكُّر. تأخّر الوقت، وكانت مُنهَكَةً للغاية، وتشوَّشت أفكارها كرؤيتها.

تثاءبت مُجدِّداً، وفرّكت عينيها وأغلقت كتاب القصصات. ربما لن تعرف قطُّ، وفي كل الاحتمالات لا يهمُّ. مرّرت كساندرا أصابعها مُجدِّداً فوق الغلاف المتآكل، مثلما فعلت روز بالتأكيد عدّة مرّاتٍ من قبل. وضعت الكتاب على الكومود وأطفأت الإضاءة. أغلقت عينيها وغابت في حُلْمٍ مألوف؛ عشب طويل، وحقل لا نهائي، وفجأة، على نحو غير مُتوقَّع، كوخ على حافة جُرفٍ يُطلُّ على البحر.

(36)

كوخ بيلتشرد، 1975

انتظرت نيل بجوار الباب، تتساءل: هل تفرع الباب مُجددًا أم لا. وقفت عند العتبة أكثر من خمس دقائق، وساورتها الشكوك أن ويليام مارتن لا يعرف شيئًا عن قدمها على العشاء، وأن الدعوة ربما كانت حيلةً من روبن لإصلاح الأمور بعد لقائهما السابق. تبدو روبن أنها لا تحتمل النفور الاجتماعي، مهما كان سببه أو نتيجته.

قرعت الباب مُجددًا. وتظاهرت بالوقار اللامبالي أمام جيران ويليام الذين ربما يتعجبون من تلك المرأة الغريبة الواقفة على عتبة داره والتي تبدو أنها ستظل تطرق الباب طيلة الليل.

كان ويليام هو مَنْ أزاح المزلاج أخيرًا، ومنشفة الشاي على كتفه البارز، وملعقة خشبية في يده. "سمعت أنكِ ابْتَعَتِ ذاك الكوخ".

"الأخبار الجيدة تنتشر بسرعة".

زَمْ شَفْتِيَه وهو يتأملها. "أنتِ فتاة قاسية، بوسعي معرفة ذلك من مسافة ميل".

"إنها طبيعتي للأسف".

أوماً، وزفر قليلاً، ثم قال: "ادخلي إذن. ستلقين مصرعك وأنتِ واقفة بالخارج بهذا الشكل".

خَلَعَتْ نِيلَ معطفها الواقي من المطر، وَعَلَّقَتْه على مشجَبٍ. تَبَعَتْ ويليام عبر الباب الرئيسي ثم إلى غرفة الجلوس. كان الهواء ثَقِيلاً ورطباً ومُشَبَّعاً بالبخار. شَمَّت رائحة مقرّزة وشَهِيَّة في نفس الوقت. سمك وملح وشيء آخر.

قال ويليام وهو يجرُّ قدميه نحو المطبخ: "إنني أعدُّ حساء السمك على الموقد. لم أسمع قرعك على الباب بسبب الضجّة اللعينة". سَمِعَتْ جلبة أواني ومقالي، ثم سَبَّه فظّة. "ستأتي روبن عمًا قريبًا" جلبة أخرى. "إنها تقضي بعض الوقت مع خطيبها".

ونطق العبارة الأخيرة ببعض النفور. تَبِعَتْه نِيل إلى المطبخ وراقبته وهو يُقَلِّب الحساء الثقيل وقالت: "أأنت غير راضٍ عن خطيب روبن؟".

أسندت المغرفة على سطح الطاولة، واستبدل غطاء الطنجرة، والتقط غليونه. انتزع دُؤَابَةً تبغ من الحافة. "رجُلٌ لا بأس به سوى أنه ليس مثاليًا". أَمَسَكَ يَدَهُ بأَسْفَلَ ظَهْرِهِ المحني، واتَّجَه نحو غرفة الجلوس، ثم قال وهو يَمُرُّ من جوارها: "هل لديك أطفال؟ أحفاد؟".

"طفلة واحدة وحفيدة واحدة".

"إذن تفهمين ما أتحدث عنه".

ابْتَسَمَتْ نِيلَ بَتَجَهُّمٍ لِنَفْسِهَا. مَرَّ اثنا عشر يومًا منذ أن غادرت استراليا، وتساءلت إن كانت ليزلي قد لاحظت غيابها. ربما لا. على أيِّ

حال، فَكَّرَتْ فِي إِرسال بطاقة بريديّة. سَتَحِبُّ الطفلة كساندرا ذلك. أَلَا يُحِبُّ الأَطفال هذه الأشياء؟

جاء صوت ويليام من غرفة الجلوس: "هَلُمَّيْ إِذن يا فتاة، وَأَنسي صُحْبَةَ رَجُلٍ عَجوز".

اختارت نيل نفس المقعد المكسوُّ بالقطيفة مثلما فعَلَتْ في الزيارة السابقة. أومأت لويليام. أوماً لها بدوره. جَلَسَا في صمْتٍ لطيفٍ لمدَّةٍ دقيّقة. كانت الرياح تصفر بالخارج، والألواح الزجاجية للنوافذ تُصَلِّصُ بانتظامٍ، وتبرز نُدرَةَ المحادثة بالداخل.

أشارت نيل إلى لوحةٍ فوق المدفأة، قارب صيد مُخطَّط بلونين: أحمر وأبيض، والاسم مكتوب في الخلف بطول الجانب. "هذا قاربُك؟ ملكة الجِنِّيَّات؟".

"أجل. أعتقد أنه حُبُّ حياتي أحياناً. واجهنا أنا وهو عواصفٍ قويَّة".

"هل ما زِلْتَ تَمْتَلِكُهُ؟".

"كَلَّا، لم يَعدْ معي منذ سنواتٍ قليلة".

امتدَّ صمْتٌ آخر بينهما. ربَّت ويليام على جيب قميصه، ثم سحب كيس التبغ، وشرع يملأ غليونه.

قالت نيل: "كان أبي رئيسَ ميناء. تَرَعَرَعْتُ بين السُّفن" ثم قَفَزَتْ فجأةً في ذهنها صورة هيو، يقف على رصيف بريزبن في وقت ما بعد الحرب، وقد حَجَبَهُ ضوء الشمس التي تُشِعُّ خلفه، ساقان أيرلنديَّان طويلتان ويدان قويتان كبيرتان. "إنه يسري في عروقك، أليس كذلك؟". "بلى".

صَلَّصَتْ النوافذ الزجاجية مُجدِّداً، جَذَبَتْ نيل نَفْسًا. لقد طفح الكيل. إمَّا أن تنتهز الفرصة الآن أو تضيِّعها مُجدِّداً. عليها أن تُصَلِّحَ

الأمر؛ لذا استعدت بحوار صغير. قالت وهي تميل إلى الأمام وتريح مرفقها على رُكبتَيْها: "بخصوص الليلة السابقة يا ويليام، بخصوص ما قُلْتَه. لم أقصد..."

رفع راحة يده الخشنة، والتي كانت ترتجف قليلاً. "لا يهم".
"لكن ما كان يجب أن..."

"لم يكن شيئاً". ثبّت غليونه بين أسنانه الخلفية وبذلك انتهى الموضوع. أشعل عود ثقاب.

مالت نيل بظهرها على المقعد، وفكرت إن كانت تلك هي الطريقة التي يريد بها أن تسير الأمور، ليكن. لكنها عزمت أمرها، لن تُغادر هذه المرة بدون حَلّ قطعةٍ أخرى من اللغز. "أخبرتني روبن أن ثمّة شيئاً تريد إطلاعي عليه".

نفتّ ويليام الرائحة الجميلة للتبغ الطازج عدّة مرّاتٍ ليجعل غليونه يُدخّن. أوماً قليلاً، ثم قال: "كان يجدر بي أن أخبرك الليلة السابقة، لكنك... رَكَز على شيء وراءها، وقاومت نيل الحاجة الملحة للالتفات ورؤية ماذا كان. "لكنك فاجأتني. لقد مرّ زمنٌ طويل منذ أن سمعتُ اسمها".

إليزا ماكيبس. ومضت حروف الاسم غير المنطوقة بأجنحته الفضية بينهما.

"لقد مرّ أكثر من ستين عاماً منذ أن رأيتها آخر مرة، لكن بوسعي تخيلها جيّداً، تنزل من جرف الكوخ بالأعلى هناك، تمشي في القرية، شعرها المُسترسّل على ظهرها". انغلق جفناه وهو يتكلّم، لكنه فتحهما وحدّق في نيل. "ربما لا يمثل لك هذا شيئاً كبيراً، لكن حينها، لم يكن مألوفاً أن يتواضع سُكّانُ البيت الكبير ويختلطوا بأهالي القرية. لكن

إيليزا.. "تنحج قليلاً، وكرّر الاسم "كانت إيليزا تتصرف كأنها شخصٌ عاديٌّ. لم تكن مثل بقيةِهم".

"هل التقيتَ بها؟".

"عرفتها جيّداً، مثلما يعرف المرءُ أمثالهَا. التقيتُ بها حينما كانت في الثامنة عشرة من عمرها. كانت شقيقتي الصُغرى، ماري، تعمل في المنزل، وجلبت إيليزا معها في أحد الأيام التي كانت تقضيها بالخارج".

جاهدت نيل السيطرة على حماسها. أخيراً تتكلم مع شخص عرف إيليزا. والأفضل من ذلك، أن وصفه يؤكّد الإحساس المحظور الذي داعبَ حافةَ ذكرياتها الباهتة. "كيف كانت تبدو يا ويليام؟".

رَمَّ شَفْتَيْهِ وَحَكَ ذِقْنَهُ، فاجأت شُعيراتُ وجهه نيل. ولهنيهة رجعت بنتٌ خمسة أعوام مجدّداً، جالسةً على حجر هيو، ورأسها تستريح على خدّه المُشعر. ابتسم ويليام ابتسامَةً عريضة، وبانت أسنانه الكبيرة التي اصطبغت باللون البُنِّي بِفِعْلِ التَّبْعِ. "لم تكن تشبه أيَّ شخص قابلته من قبل، كانت فتاةً حقيقية. جميعنا هنا نُحِبُّ أن نحكي القصص، ولكن قصصها كانت شيئاً مُختلِفاً. كانت مَرِحَةً وشجاعة وغير مُتوقّعة".

"هل كانت جميلة؟".

"أجل جميلة". التقت أعينُهُما سريعاً. "كانت تمتلك شعراً أحمر طويلاً، يمتدُّ حتى خاصرتها. جدائل تتحوّل إلى اللون الذهبي في ضوء الشمس". أشار بغليونه. "كانت تُحِبُّ الجلوس على الصخرة السوداء في الخليج الصغير، تنظر إلى البحر. كُنَّا نراها في وَضَحِ النَّهَارِ ونحن عائدون من الميناء. كانت ترفع يدها وتلَوِّحُ لنا، وهي تنظر إلى كل العالم مثل ملكة الجنيات".

ابتسمت نيل. ملكة الجنيات. "مثل الاسم المكتوب على قاربك".

تظَاهَرَ وَيْلِيَامُ بِالْأَنهَمَاكَ فِي طَيَّاتِ سُرُوَالِهِ الْقَطْنِي، وَتَنْحَنحُ قَلِيلًا.
أَدْرَكَتْ حِينَهَا أَنهَا لَمْ تَكُنْ مُصَادَفَةً.

"رُوبِنُ سَتَكُونُ هُنَا قَرِيبًا". لَمْ يَنْظُرْ إِلَى الْبَابِ. "سَتُعَدُّ لَنَا الشَّيْءَ".
"لَقَدْ أُسْمِيتَ قَارِبَكَ مِنْ أَجْلِهَا؟".

انْفَرَجَتِ شَفَتَا وَيْلِيَامِ، ثُمَّ أَطْبَقَهُمَا مُجَدِّدًا. تَنَهَّدَ تَنْهِيدَةً شَابًّا.
"كُنْتُ تُحِبُّهَا؟".

ارْتَحَّتْ كِتْفَاهُ. "بِالطَّبْعِ، مِثْلَ جَمِيعِ مَنْ وَقَعَتْ أَعْيُنُهُمْ عَلَيْهَا.
أَخْبَرْتِكَ أَنهَا كَانَتْ مُخْتَلِفَةً عَنْ أَيِّ شَخْصٍ قَابَلْتُهُ. لَمْ يَهْمَهَا اخْتِلَافُ
الطَّبَقَاتِ. كَانَتْ تَتَصَرَّفُ وَفَقًّا لِمَشَاعِرِهَا، وَكَانَتْ مَشَاعِرُهَا كَبِيرَةً".
"وَهَلْ كَانَتْ هِيَ، هَلْ كُنْتُ أَنْتَ وَهِيَ...".

"كَانَتْ لَدَيَّْ خَطِيبَةً حِينَهَا"، ثُمَّ تَحَوَّلَ انْتِبَاهُهُ إِلَى صُورَةٍ مُعَلَّقَةٍ
عَلَى الْجِدَارِ، زَوْجٌ وَزَوْجَةٌ فِي مُقَبَّلِ الْعَمْرِ يَرْتَدِيَانِ مَلَابِسَ الزَّفَافِ.
كَانَتْ تَجْلِسُ، وَهِيَ يَقِفُ وَرَاءَهَا. "كُنَّا أَنَا وَسَيْسَلِي مُرْتَبِطَيْنِ مِنْذُ بَعْضِ
سِنَوَاتٍ وَقَتِّذَاكَ. هَذَا مَا يَحْدُثُ فِي قَرْيَةٍ كَهَذِهِ. يَنْشَأُ الْمَرْءُ بِالْقُرْبِ
مِنْ ابْنَةِ الْجِيرَانِ، وَيَوْمًا مَا يَغْدُوَانِ طِفْلَيْنِ يَتَقَاذِفَانِ الْأَحْجَارَ أَعْلَى
الْجُرْفِ، فَجَاءَهُ تَجَدُّ نَفْسِكَ مُتَزَوِّجًا مِنْذُ ثَلَاثِ سِنَوَاتٍ، وَثُمَّ طِفْلٌ آخَرَ
فِي الطَّرِيقِ". تَنَهَّدَ حَتَّى تَهَدَّلَتْ كِتْفَاهُ، وَبَدَتْ كَنْزَتَهُ الصُّوفِيَّةَ ضَخْمَةً
عَلَيْهِ. "لِقَائِي بِإِيلِيْزَا غَيْرِ عَالَمِي. لَيْسَ بَوَسْعِي وَصْفَ مَا حَدَثَ بِأَفْضَلِ
مِنْ ذَلِكَ. كَانَتْ كَتَعْوِيذَةَ سَحْرِيَّةٍ، اسْتَحْوَذَتْ عَلَى تَفْكِيرِي كُلِّهِ". هَزَّ
رَأْسَهُ. "كُنْتُ مُعْجَبًا بِسَيْسَلِي، أَحْبَبْتُهَا فَعَلًّا، لَكِنِّي نَسِيتُهَا فِي لِحْظَةٍ".
التَقَّتْ عَيُونُهُمَا قَبْلَ أَنْ يَبْعَدَ عَيْنِيهِ سَرِيعًا. "لَا أَفْتَخِرُ بِذَلِكَ، كَانَتْ
تِلْكَ خِيَانَةً فَظِيعَةً". ثُمَّ نَظَرَ إِلَى نَيْلِ. "لَكِنْ هَلْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تَلُومِي
شَابًّا عَلَى صَدَقِ مَشَاعِرِهِ؟".

حدَّق في عينيها، وشعرت نيل بشيءٍ داخلها ينثني. أدركت أنه كان يسعى إلى الغفران منذ أمدٍ بعيد. قالت: "كَلَّا. كَلَّا. لا أستطيع".

تنهَّد، ثم تحدَّث بصوت خفيض حتى أن نيل اضطرتَّ إلى أن تميل برأسها نحوه لتصغي إليه. "أحيانًا يريد الجسد أشياء يعجز العقل عن تفسيرها، يعجز حتى عن قبولها. كانت أفكارني نحو إيليزا سخيفة، لم أتمالك نفسي، كانت مثل، مثل...".

"الإدمان؟".

"بالضبط. تخيلتُ أنني سأكون سعيدًا لو كنت معها".

"وهل شعرت هي بنفس الطريقة؟".

قطَّب جبينه وابتسم بحزن. "لبعض الوقت ظننتُ ذلك. كانت لها طريقة، حضور، تجعلك تشعرين أنها لن تتواجد في مكان أو مع شخص سواك". ضحك، بقسوة قليلًا. "وسرعان ما تبينتُ خطئي".

"ماذا حدث؟".

رَمَّ شفتيه، ولثانية مُفزعَةٍ ظنَّت نيل أن القصة انتهت. تنفَّست الصُّعداءَ حينما استأنف كلامه: "في ليلة من ليالي الربيع، لا بُدَّ وأنها كانت في عام 1908 أو عام 1909. كنت قد مررتُ بيومٍ عصيبٍ على القوارب، وجلبتُ حمولةً ضخمة، وكنت أحتفل مع الرجال الآخرين بالخارج. وفي طريقي إلى المنزل تحلَّيتُ بالشجاعة، ووجدت نفسي أنحرف نحو حافة الجُرف. كان عملاً مُتهوِّراً، كان مَمَرًا ضيقًا حينها، لم يتحوَّل بعدُ إلى طريق، ولا يسمح بمرور ماعزٍ جبليٍّ، لكنني لم أهتم. سيطرتُ على عقلي فكرةٌ واحدة وهي أن أطلب منها أن تتزوَّجني". ارتعش صوته ثم قال: "لكن حينما وصلتُ بالقرب من الكوخ رأيتُ من خلال النافذة...".

مالت نيل إلى الأمام.

رجع بظهره إلى الورااء. "لا بُدَّ وَأَنْكَ سمعت تلك القصة من قبل".
"كانت مع أحدهم؟".

"كلًا ليس مع أحدهم فحسب". ارتعشت شفتاه قليلاً حول الكلمات. "كانت مع شَخِصٍ من أفراد العائلة". فرك ويليام حافَّتَيْ عينيهِ، وضغط على أصبعه من الحماس الخيالي. "كانا...". اختلَسَ النظر إلى نيل. "يُمْكِنُكَ تَخْيُّلَ الوضع بشكلٍ كافٍ".

جلبة بالخارج، وهبَّةٌ من الهواء البارد. انجرف نحوهما صوتُ روبن من المدخل. قالت وهي تدخل غرفة الجلوس: "إن البرد يتزايد بالخارج. عُدْرًا على التأخير". نظرت إليهما بأمل، وهي تَمُرُّ يديها على شعرها الرطَّب. "هل كل شيء على ما يرام؟".

"في أحسن حال يا فتاتي" قال ويليام بنظرة سريعة نحو نيل.

أومأت نيل ببطء. لم تكن لديها نيَّةٌ في إفشاء سرِّ قديمٍ لرجُلٍ عجوز.

"كنتُ على وَشِكِّ صَبِّ الحساء الذي أعدَدْتُهُ. هَلُمَّي وساعِدي جَدِّكَ العجوز المَتَعَب".

"جَدِّي! أَخْبَرْتُكَ أَنْني سأعِدُّ الشاي. لقد أَحضَرْتُ معي كُلَّ شيء".

"أوف!" قال بتَبَرُّمٍ، وهو يدفع نفسه للنهوض من المقعد ويحاول التَّوازُن. "فور أن تذهبي أنتِ وخطيبك، لن تتذَكَّرِي جَدِّكَ العجوز. لو لم أَعَتَّنِ بنفسِي جيِّدًا سأموت جوعًا".

"جدي!" قالت بتوبيخ، وهي تحمل كيس المشتريات إلى المطبخ. "لا أصدِّق ما تقول حقًا! ومتى نسيْتُكَ؟".

"لستِ أنتِ يا عزيزتي" سار وراءها وهو يَجُرُّ قدميه. "إنه خطيبك. إنه مُتَبَجِّحٌ ثرثار مثل جميع المحامين".

وبينما شرع الاثنان يتجادلان كالمعتاد حول قُدرةِ ويليام على طبخ الحساء وتقديمه، أخذت نيل تتأمل في ذهنها كل ما قاله ويليام. فهمت الآن لماذا كان مُصِرًّا على أن الكوخ كان مُلوَّثًا بشكلٍ ما. لكن ويليام انحرف عن مسار القصة بسبب اعترافه، ويجب عليها الآن أن تقوده مُجَدِّدًا إلى الاتجاه الصحيح الذي تريده. ومهما اشتدَّ فضولها حول الشخص الذي كان مع إيليزا في تلك الليلة، عرفت أنها لو ألحَّت في السؤال ستجعل ويليام ينسحب. لم يكن باستطاعتها أن تُخاطِرَ بهذا، ليس قبل أن تعرف لماذا أَخَذَتْها إيليزا من روز وناثانيال وواكر، ولماذا أرسَلَتْها إلى استراليا وإلى حياةٍ مختلفة تمامًا.

"هيا" ظهَرت روبرن وهي تحمل صينيةً مُحمَّلةً بثلاثة أطباق يعلوهم بخارٌ ساخن.

تبعها ويليام، بارتباك بعض الشيء، ثم استراح على مقعده وهو يقول: "ما زِلْتُ أَعِدُّ أفضل حساء سمك في هذه المنطقة من بولبيرو"⁽¹⁾.

رفعت روبرن حاجبَيْها نحو نيل، وقالت، وهي تُناولُها طبقًا عبر منضدةِ القهوة: "لا أحد يُنكرُ ذلك يا جَدِّي".

"فقط مَقْدِرَتِي على حَمَلِهِ من المطبخ إلى المائدة".

تنهَّدت روبرن بتأثُرٍ: "دعنا نساعدك يا جدي، هذا كل ما نطلبه". جَزَّت نيل على أسنانها؛ إنها بحاجة إلى منع تصاعُد وتيرة الحوار، لا يُمكنُها أن تُخاطِرَ باستياء ويليام وفقدانه مُجَدِّدًا. قالت بصوتٍ عالٍ، وهي تتذوَّق الحساء: "الذيذ. المقدار المضبوط من صلصلة وسترشير".

نظر ويليام وروبن إليها، وقد تَوَقَّفا عن ارتشاف الحساء.

حرَّكت نيل عينيها بينهما: "ماذا؟ ما الأمر؟".

(1) قرية كبيرة ومرفأ صيد في جنوب كورنوال.

فَتَحَّتْ رُوبِنَ فَمَهَا، ثُمَّ أَغْلَقْتَهُ مُجَدِّدًا مِثْلَ سَمَكَةٍ. "صَلْصَلَةٌ وَسْتَرَشِيرٌ".

قال ويليام: "إنه مُكُونٌ سِرِّيٌّ احْتَفَظَتْ بِهِ الْعَائِلَةُ لِأَجْيَالٍ".
هَزَّتْ نَيْلَ كَتِفَيْهَا بِاعْتِذَارٍ. "اعْتَادَتْ أُمِّي أَنْ تُعِدَّ حَسَاءَ السَّمَكِ،
وَكَذَلِكَ أُمُّهَا. وَكَانَتْ دَائِمًا تَسْتَعْمِدُ صِلْصِلَةَ وَسْتَرَشِيرٍ. أَظُنُّ أَنَّهُ كَانَ
مُكُونًا سِرِّيًّا لَدِينَا أَيْضًا".

جَذِبَ وَيْلِيَامُ نَفْسًا بَطِيئًا عِبرَ مَنْخَارِيهِ الْوَاسِعِينَ، وَعَضَّتْ رُوبِنَ
شَفَتَهَا السُّفْلَى.

قَالَتْ نَيْلٌ وَهِيَ تَرْتَشِفُ مَلْعَقَةً أُخْرَى: "لَكِنَّهُ شَهِيٌّ. تَكْمُنُ الْخُدْعَةُ
فِي وَضْعِ الْمَقْدَارِ الْمُنَاسِبِ".

قَالَتْ رُوبِنٌ، وَهِيَ تَتَنَحَّجُ، وَتُحَاوِلُ تَجَنُّبَ عَيْنَيْ وَيْلِيَامٍ: "أَخْبِرْنِي
يَا نَيْلُ، هَلْ اسْتَفَدْتِ مِنْ تِلْكَ الْأَوْرَاقِ الَّتِي أُعْطِيْتَهَا لَكَ؟".

ابْتَسَمَتْ نَيْلٌ بِامْتِنَانٍ. لَقَدْ أَنْقَذَتْهَا رُوبِنٌ. "كَانَتْ مَثِيرَةً لِلْاهْتِمَامِ،
اسْتَمْتَعْتُ بِقِرَاءَةِ مَقَالِ صَحْفِي بِعَنْوَانِ (تَدَشِينِ لُوسِيْتَانِيَا)".

وَمَضَتْ عَيْنَا رُوبِنٍ. "لَا بُدَّ وَأَنَّهُ كَانَ حَدَثًا مُهِمًّا وَمُثِيرًا. مِنَ الْمُفْزِعِ
التَّفْكِيرِ فِيمَا حَدَثَ لَتِلْكَ السَّفِينَةِ الْجَمِيلَةِ".

قَالَ الْجَدُّ بِفَمٍ مَلِيٍّ بِالْحَسَاءِ: "كَانَ انْتِهَاكًا مِنَ الْأَمَانِ، وَعَمَلًا
بَرَبْرِيًّا".

تَخَيَّلَتْ نَيْلُ الْأَمَانَ وَهَمَّ يَشْعُرُونَ بِالشَّيْءِ ذَاتِهِ عِنْدَ تَفْجِيرِ
دَرَسْدَنِ⁽¹⁾، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ الزَّمَانُ وَلَا الْمَكَانُ مُنَاسِبَيْنِ لِلتَّفْكِيرِ فِي ذَلِكَ،
وَلَمْ يَكُنْ وَيْلِيَامُ الشَّخْصَ الَّذِي تَنَاقَشَ مَعَهُ تِلْكَ الْمَوْضُوعَاتِ. عَضَّتْ
لِسَانَهَا وَاسْتَمَرَّتْ فِي مُحَادَثَةِ لَطِيفَةِ تَافِهَةِ مَعَ رُوبِنٍ حَوْلَ تَارِيخِ الْقَرْيَةِ

(1) عاصمة ولاية ساكسونيا بشرق ألمانيا، قصفتها قوات التحالف في الحرب العالمية الثانية.

ومنزل بلاكهرست، حتى، نهضت روبن واستأذنت للذهاب لتنظيف الأطباق وإحضار المخفوق.

راقبته نيل وهي تنطلق من الغرفة، وقد أدركت أن هذه ربما تكون فرصتها الأخيرة للتحدث مع ويليام بمفرديهما، فبادرت قائلةً: "هناك شيء أريد أن أسألك عنه يا ويليام".

"سلي ما تشائين".

"أنت تعرف إيليزا...".

أخذ يمتص غليونه، وأوماً فوراً.

"... لذا لماذا تعتقد أنها أخذتني معها؟ هل تعتقد أنها أرادت إنجابَ طفل؟".

زفر ويليام فتطاير الدخان. ثبَّت الغليون في أسنانه الخلفية وتكلم وهو في فمه. "لا أعتقد ذلك. كانت روحًا حُرَّةً. لم تكن من النوع المُحبِّ للمسؤوليات العائلية، فما بالك بسرقتها".
"هل هناك أقاويل في القرية؟ هل ثمة نظرية مُعيَّنة؟".

"اعتقدنا جميعاً أن الطفلة، التي هي أنتِ، أصيبت بالحمى القرمزية. لم يُشكِّك أحدٌ في هذا الجزء". هَزَّ كتفيه. "أمَّا بالنسبة لاختفاء إيليزا، لم يُفكِّر أحدٌ كثيراً في ذلك الأمر أيضاً. لم تكن تلك المرة الأولى".

"حقاً؟".

"فعلت نفس الشيء منذ سنوات قليلة قبل ذلك". نظر بسرعة نحو المطبخ وأخفض صوته، وتحاشى عيني نيل. "كنتُ ألوم نفسي دائماً على هذا الأمر. فقد حدث ذلك بعد... بعد الشيء الذي أخبرتكِ به. لقد واجهتها، وأخبرتها بما رأيتُ، ونعَّتها بأسوأ الأوصاف. جعلتني أعدها ألا أخبر مخلوقاً، وأخبرتني أنني لا أفهم، وأن الأمر ليس كما

يبدو". ضحك بمرارة. "كل الأشياء المعتادة التي تقولها النساء حينما يُضَبَطْنَ في ذلك الموقف".

أومات نيل.

"لكنني فعلتُ مثلما طلبت مني، وحفظت سرّها. ولم يمُرَّ وقتٌ طويل بعد ذلك حتى علمت من القرية أنها رحلت بعيدًا".

"أين ذهبت؟".

هَزَّ رأسه وقال: "حينما عادت أخيرًا، بعد عام، سألتها مرارًا، لكنها لم تَبْسُ بنت شَفَّة".

"المخفوق جاهز" جاء صوت روبن من المطبخ.

مال ويليام إلى الأمام، وسحب غليونه من فمه وأشار به نحو نيل. "وهذا هو السبب الذي جعلني أطلب من روبن دعوتك هنا الليلة، هذا ما رغبت في أن أخبرك به: اكتشفي أين ذهبت إيليزا، وستقتربين من حلِّ لُغزِكِ. أوكد لك أنها حينما عادت كانت قد تَغَيَّرت".

"كيف تَغَيَّرت؟".

هَزَّ رأسه وهو يتذكّر. "لم تعد كما كانت من قبل". تشبّثت أسنانه بغليونه. "كان بها شيءٌ مفقودٌ، ولم تعد نفس الفتاة مُجددًا".

الجزء الثالث

(37)

عزبة بلاكهرست، 1907

في الصباح المُقرَّر لعودة روز من نيويورك، انطلقت إيليزا مُبَكَّرًا قاصِدةً الحديقة السرية. كانت شمس نوفمبر تبعث بأشعتها على استحياء، وكان الطريق مُعتمًا، وقد كشف ضوء الشمس الشَّحِيحُ عن أعشابٍ فضيَّة مُشَبَّعةٍ بالمطر. حثَّت الخطي، وهي تُحكِّمُ ذراعيها حول جسدها من البرد. ظلَّ المطر يهطلُ طيلة الليل، تاركًا بِرَكًّا صغيرة من الوحل في كل مكان، حاولت إيليزا تحاشيها بقدر الإمكان، ثم فتحت بؤابة المتاهة التي أصدرت صريرًا ودخلت. كان الظلام ما زال يُخيِّم على سياج الأشجار الكثيفة، لكن إيليزا كانت تستطيع المشي عبره وهي مغمضة العينين.

في العادة كانت تُحبُّ اللحظات القصيرة التي تسبق الفجر، والليل يتراجع مُفسحًا الطريق للشَّفَق، لكن اليوم كانت مُشتتةً الذهن حتى أنها لم تُعرِّه انتباهًا. لقد تركها خطاب روز الذي يعلن خطبتها فريسةً

للمشاعر المتضاربة. استقرت في قلبها شوكة الغيرة المُدبِّبة، وأبت أن تتزحزح. كل يوم، حينما تتجه أفكارها نحو روز، وتعيد قراءة الرسالة، وتشعر بأفكارها تنزلق نحو المستقبل، ينخر الخوف قلبها، ويملؤها بسُمّ زعاف.

بوصول رسالة روز، تغيرت ألوان عالم إيليزا، مثل المشكال الذي وجدته في غرفة الأطفال والذي أبهجها كثيراً حينما جاءت للمرة الأولى إلى بلاكهرست، دورة واحدة ويُعاد تشكيل القطع ذاتها لتكون صورة مختلفة تماماً. وبينما كانت ترفل في الأمان منذ أسبوعٍ مضى، يغمرها اليقين أنها هي وروز مرتبطتان إلى الأبد، عاودها الآن شعور الوحدة مُجدِّداً.

حينما دخلت الحديقة السرية، كان الشفق يتسلل عبر مظلة الخريف الخفيفة. أخذت إيليزا نفساً عميقاً. لقد جاءت إلى الحديقة لأنها المكان الوحيد الذي يمنحها الطمأنينة دائماً، وهي بحاجة إلى هذا الشعور الآن أكثر من أي وقت مضى لينجح سحرها.

مررت يدها على المقعد الحديدي الصغير، الذي تناثرت عليه قطرات المطر، وجلست على طرفه الرطب. كانت شجرة التفاح تُثمر، كرات لامعة من اللون البرتقالي والوردي. يمكن أن تقطف بعضها وتعطيها لكوك الطاهية، أو ربما يجدر بها ترتيب الحواف، أو تُشدب شجيرة زهر العسل. حاولت شغل نفسها ببعض الأعمال التي تمنع ذهنها من التفكير في وصول روز، تدرأ عنها خوفها من أن ابنة خالها ستتغير بطريقة ما حينما تعود.

في الأيام التي تلت رسالة روز، وبينما كانت مشاعر الغيرة تعتمل في نفس إيليزا، أدركت أنه لم يكن الرجل، ناثانيال وواكر، من كانت تخشاه، بل عشق روز له. يمكنها تحمّل الزواج، لكنها لا تطيق مشاعر

روز. جُلُّ ما تخشاه هو أن روز، التي أَحَبَّتها من سويداء قلبها، وجدت بديلاً، ولن تحتاج إلى ابنةٍ عَمَّتِها.

أَجَبَّتْ نفسها على التَّنْزُّه دون هدفٍ مُحدَّدٍ وتقييم النباتات. كانت شجرة الويستريا تُسْقِطُ أوراقها الأخيرة، وشجرة الياسمين فَقَدَتْ منذ زمنٍ زهورها، لكن الخريف كان معتدلاً، والورد الزهري ما زال يتفتَّح. اقتربت إيليزا، وأمسكت بِرُغْمِ نصف مفتوح بين أصابعها، وابتسمت لقطرة المطر المثالية التي عَلِقَتْ داخل بتلاته الداخلية.

وباغتها الفكرة كاملة. لا بُدَّ وأن تصنع باقةً وِردٍ، هدية لروز للترحيب بعودتها. لقد كانت ابنة خالها مُتِيمة بالورد، والأهم من ذلك، أن إيليزا ستختار زهوراً ترمز للرابطة التي تجمع بينهما: اللبلاب للصدّاقة، والورد الزهري للسعادة، وإبرة الراعي للذكريات...

اختارت إيليزا كُلَّ عُصَيْنٍ بعناية فائقة؛ فحرصت على قطف أفضل الجذور، وأنضرت الزهور، ثم ربطت الباقة الصغيرة بشريطٍ وِردِيٍّ حريري مَرَقَّته من طرف فستانها. كانت تربط الشريط حينما سمعت الصوت المألوف للعجلات المعدنية تُصلِّصُ على الطريق البعيد المُعبَّد بالحجارة.

لقد عادتا. روز عادت إلى المنزل.

وثبَ قلبُها إلى فمها، جذبت جونلتها ذات الأطراف الرطبة، وقبضت بيدها على الباقة، وشرعت تركض بشكلٍ مُتعرِّجٍ جيئةً وذهاباً عبر المتاهة. خاضت بِرَكَ الوحل الصغيرة في عَجَلَتِها، ونبضها يدقُّ بسرعة مع حوافر الجياد.

برزت من البوابات في الوقت المناسب لترى العربية تتوقَّف في المنعطف. توقَّفت هُنَيْهَةً تستجمع أنفاسها. كان الخال لينوس جالساً كعادته على مقعد الحديقة بجوار بوابة المتاهة، وكاميرته الصغيرة البُنْيَّة بجواره. ولكن حينما ناداها، تظاهرت بعدم سماعه.

وَصَلَّتْ عِنْدَ الْمُنْعَطِفِ بَيْنَمَا كَانَ نِيوتن يَفْتَحُ بَابَ الْعَرَبَةِ وَهُوَ
يَغْمِزُ بَعَيْنَهُ، وَلَوْحَتْ إِيلِيْزَا لَهُ. ضَغَطَتْ عَلَى شَفْتَيْهَا وَهِيَ تَنْتَظِرُ.
مِنذُ أَنْ اسْتَقْبَلَتْ رِسَالَةَ رُوزِ، جَلَبَ النَّهَارَ الطَّوِيلَ لِيَالِيَّ أَطْوَلَ، وَالْآنَ
حَانَتْ لِحِظَةَ اللَّقَاءِ أُخِيرًا. بَدَأَ الْوَقْتَ يَمْرُؤُ بِطِيئًا، تَسَارَعَتْ أَنْفَاسُهَا،
وَسَمِعَتْ دَقَّاتَ قَلْبِهَا الْعَالِيَةِ فِي أذْنَيْهَا.

هَلْ تَخَيَّلْتَ التَّغْيِيرَ فِي مَلَامِحِ رُوزِ، التَّغْيِيرَ فِي مِشْيَتِهَا؟

انزَلَقَتْ الْبَاقَةَ مِنْ أَصَابِعِهَا وَالتَّقَطَّتْهَا مِنَ الْمَرْجِ الرَّطْبِ.

لَا بُدَّ وَأَنَّ الْحَرَكَةَ جَذَبَتْ إِلَيْهَا الْأَنْظَارُ؛ فَقَدْ التَفَتَتْ رُوزُ وَزَوْجَتَا
خَالِهَا أَدَالِيْنَ، وَاحِدَةً تَبْتَسِمُ، وَالْأُخْرَى تَقْطُبُ.

رَفَعَتْ إِيلِيْزَا يَدَهَا بِبَطْءٍ وَلَوْحَتْ. ثُمَّ أَنْزَلَتْهَا مُجَدِّدًا.

ارْتَفَعَ حَاجِبَا رُوزِ بَانْدَهَاشَ: "حَسَنًا، أَلَنْ تُرْجَبِي بِمَجِيئِنَا يَا ابْنَةَ
الْعَمَّةِ؟".

شَعَرَتْ إِيلِيْزَا بِالرَّاحَةِ تَجْتَاكِهَا عَلَى الْفُورِ. لَقَدْ عَادَتْ صَدِيقَتَهَا
الْعَزِيْزَةَ مُجَدِّدًا، وَسَيَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يَرَامُ. شَرَعَتْ تَمْشِي إِلَى
الْأَمَامِ، ثُمَّ بَدَأَتْ تَرْكُضُ، وَذِرَاعَاهَا مَفْرُودَتَانِ. وَطَوَّقَتْ رُوزَ فِي عِنَاقِ.
"ابْتَعِدِي يَا فَتَاةَ" قَالَتْ زَوْجَةُ خَالِهَا أَدَالِيْنَ. "الطَّيْنُ يَغْطِي مَلَابِسَكَ.
سَتَفْسِدِيْنَ ثُوبَ رُوزِ".

ابْتَسَمَتْ رُوزُ وَشَعَرَتْ إِيلِيْزَا بِحَوَافِّ الْقَلْقِ الْمُدْبَّبَةِ تَنْسَحِبُ بَعِيدًا.
بِالطَّبَعِ لَمْ تَتَغَيَّرْ رُوزُ. كَانَتْ بَعِيدَةً عَنْهَا لِشَهْرَيْنِ وَنِصْفِ فَحَسِبَ. لَقَدْ
سَمَحَتْ إِيلِيْزَا لِلْخَوْفِ أَنْ يَتَأَمَّرَ مَعَ غِيَابِهَا وَيُوسُوسَانِ لَهَا بِتَغْيِيرِ غَيْرِ
مَوْجُودِ.

"كَمْ تَسْعُدُنِي رُؤْيُوتِكَ يَا ابْنَةَ عَمَّتِي إِيلِيْزَا!"

"وَأَنَا أَيْضًا يَا رُوزُ" قَدَّمَتْ لَهَا بَاقَةَ الْوَرْدِ.

"إنها رائعة" ثم رَفَعَتْهَا نحو أنفها. "من حديقَتِكَ؟".

"إنها اللباب للصدّاقة، وإبرة الراعي للذكريات...".

"أجل أجل والورد. أفهم. كم أنت عزيزة يا إيليزا" مَدَّت روز يدها بباقة الورد لنيوتن وهي تقول: "قُلْ للسَيِّدة هوبكنز أن تضعها في مزهريَّة يا نيوتن".

"لديّ الكثير لأخبرك به يا روز" قالت إيليزا "لن تُصدِّقي ما حدث. إحدى قصصي...".

ضحكت روز وهي تقول: "يا إلهي! لم نصل بعدُ للباب الرئيسي وعزيزتي إيليزا تُحدِّثني عن القصص الخيالية".

"كُفِّي عن إزعاج ابنة خالكِ" قالت أدالين بحدّة. "إن روز بحاجة إلى الراحة" نظرت نحو ابنتها وتهدّج صوتها مُتردِّدًا: "يجب أن ترتاحي".
"بالتأكيد يا ماما. سأذهب الآن".

كان التَّغْيِيرُ طفيفًا، لكن إيليزا لاحظته. اقترح أدالين كان يشوبه بعض التَّرَدُّد على غير العادة، ورَدُّ روز يشي بإذعانٍ قليل.

كانت إيليزا ما زالت تتمعَّن في هذا التَّغْيِيرِ الطفيف حينما شرَّعت زوجة خالها أدالين تتَّجه نحو المنزل، وانحنت روز على إيليزا وهمست في أذنها: "والآن اصعدي إلى الطابق الأعلى يا عزيزتي. لديّ كلامٌ كثيرٌ لأخبرك به".

وقد كان كلامًا كثيرًا بالفعل. قصَّت روز كلَّ لحظة قضتها في صُحبةِ ناثانيل وواكر، والأكثر إملالًا، عذاب كلَّ لحظة قَضَتْهَا بعيدًا عنه. بدأت قِصَّتْهَا الملحمية في مساء يوم وصولها واستمرَّت طيلة الليل والنهار. في البداية، نجحت إيليزا في تَصْنُوع الاهتمام، بل كانت حَقًّا

مُهْتَمَّةً، فالمشاعر التي كانت تَصِفُها روز لم تختبرها من قبل، ولكن بينما الأيام تمضي، والأيام تصير أسابيع، شرَّعت إيليزا تذوي. حاولت جذبَ اهتمام روز نحو أشياء أخرى، زيارة إلى الحديقة، أحدث قصة تكتبها، بل رحلة إلى الخليج الصغير، لكن روز لم تُصْغِ سوى إلى قصص الحُبِّ والصبر، ولا سِمْما حُبِّها وصبرِها...

وبينما أخذت الأسابيع تزحف بارِدَةً نحو منتصف الشتاء، لاذت إيليزا أكثرَ بالخليج الصغير، والحديقة السرية، والكوخ. ارتأت المكوثَ في أماكن يمكنها الاختفاء فيها، أماكن سيفكّر الخدمُ مرَّتين قبل ذهابهم إليها وإزعاجها بالرسائل التي تُخيفها، والتي كانت دومًا لا تتغيَّر: الآنسة روز تطلب حضور الآنسة إيليزا فورًا لأمر في غاية الأهمية. لم تَمَلَّ روز من تعذيبها وهي تأخذ رأيها في فساتين الزفاف. وفكَّرت إيليزا أن الأمور ستتحسَّن من تلقاء نفسها، وأن روز كانت مُتحمَّسَةً فحسب؛ فلطالما أحبَّت الموضة والزخارف، وعثرت على فرصتها الآن لِلْعِب دور الأميرات الجِنِّيَّات. إن إيليزا بحاجة إلى أن تكون صبورة وستعود الأمور إلى مسارها الطبيعي بينهما.

ثم جاء الربيع مُجدِّدًا. وعادت الطيور من رحلاتها، ووصل ناثانيل من نيويورك، واقترب موعد الزفاف، وفي النهاية وِجَدَت إيليزا أنها كانت تَلُوِّح إلى عربة نيوتن التي تندفع وبداخلها الزوجان السعيدان نحو لندن وسفينة مُبحِرة إلى أوروبا.

في تلك الليلة، وبينما هي مُستلقية في فراشها في المنزل الكئيب، أحسَّت إيليزا بوطأة غياب روز. عرفت أن روز لن تزور عُرفتها ليلاً، وهي لن تذهب إليها. لن تستلقيا مجدِّدًا وهما تقهقهان وتحكيان القصص بينما بقية المنزل غارق في النوم. فقد أمر بتجهيز غرفة خاصة للزَّوجين الجديدين في جناح بعيد من المنزل. غرفة شاسعة، بمنظر

يُطَلُّ على الخليج الصغير، تليق بالزوجين. تَقَلَّبَتْ إيليزا في فراشها. وفي الظلام أدركت أخيراً أن وجودها في مكانٍ واحدٍ مع روز لكنها لا تستطيع زيارتها كان أمراً لا يُطاق.

في اليوم التالي، بحثت إيليزا عن زوجة خالها. وجدتتها في غرفة الصباح، تجلس إلى مكتب ضيقٍ وتكتب. لم ترفع أداين عينيها عمّا تفعله، لكن إيليزا شرعت تتكلم.

"أودُّ أن أطلب يا زوجة خالي بعض الأشياء الموجودة بالعلية".

"أشياء؟" قالت أداين بدون أن تزيح انتباهها عن الرسالة التي كانت تخطها.

"أحتاج إلى مكتبٍ ومقعد وفراش...".

"فراش؟" ضاقت عيناها السوداوان وهي ترفع رأسها إلى إيليزا.

في صفاء الليل، أدركت إيليزا أنه من الأفضل أن يصنع المرء التغيرات عوضاً عن رتق الثقوب التي مزقتها قرارات الآخرين. "الآن وقد تزوجت روز، يبدو لي أنها لن تحتاج إلى وجودي في المنزل. وأني يمكن أن أقيم في الكوخ".

لم تتوقع إيليزا أن تقبل زوجة خالها طلبها؛ فهي تُحبُّ الاستمتاع بالرفض. راقبتها وهي تُوقع رسالتها بحرص، ثم تفرُّ بأظفار حادة رأس الكلب. انسحبت شفتها إلى الزوايا مكوّنة ما تخيلته إيليزا ابتساماً، لكنها باهتة، ثم نهضت وقرعت الجرس.

قَصَّت إيليزا الليلة الأولى في مسكنها الجديد جالسةً بجوار النافذة العلوية، وهي تراقب البحر يتقدّم وينحسر مثل قطرة زئبق كبيرة يسطع عليها نور القمر الساطع. وراء هذا البحر كانت روز في مكانٍ

ما على الناحية الأخرى. ها هي ابنة خالها تسافر مرةً أخرى بالسفينة وتركها. لكن يومًا ما ستبحر إيليزا في رحلتها الخاصة. إن المجلة لا تدفع أموالاً كثيرة لقصصها، لكن لو واطَّبت على الكتابة وادَّخرت لعام، حينها بالتأكيد ستمكَّن من تدبير نفقات الرحلة. ثم هناك دبوس الزينة بالطبع، ومجوهراته الملونة. لم تنسَ إيليزا قط دبوس الزينة الخاص بأُمها، المخبوء داخل مدفأة آل سويندل. يومًا ما، وبطريقة ما، سوف تسترجعه.

فكَّرت في الإعلان الذي قرأته في الصحيفة منذ أسبوعٍ مضى. كان يقول: الجميع يرغب في السفر إلى كوينزلاند. تعال وابدأ حياةً جديدة. لطالما قصت ماري حكاياتٍ عن مغامرات شقيقها في مدينة ماريبورو. كانت تسمع تلك الحكايات وتتخيَّل استراليا أرضًا ذات مساحات شاسعة مفتوحة تشرق عليها الشمس المحرقة، ومكانًا حيث الناس يضربون بقوانين المجتمع عرض الحائط، وبلادًا تُتاح فيها الفرص للجميع للبدء من جديد. لطالما تخيَّلت إيليزا أنها ستسافر هي وروز في يومٍ ما؛ كثيرًا ما تحدَّثتا حول ذلك. أم كانتا تتحدَّثتان؟ حينما أعادت النظر في الأحداث الماضية، أدركت أن صوت روز كان خافتًا حينما يأتي ذكُر هذه المغامرات الخيالية.

مكثت إيليزا في الكوخ كُلَّ ليلة. اشترت السِّلَع التي تحتاجها من سوق القرية، وكان ويليام صديقها الصياد الشاب يتأكَّد من تزويدها بسمك البياض الطازج، وكانت ماري تجلب معها، في المساء بعد انتهاء عملها في بلاكهرست، طبَّاقًا من حساء كوك الطاهية، وبعض اللحم البارد المتبقِّي من طعام الغداء، وأخبار البيت.

بعيدًا عن تلك الزيارات، كانت إيليزا للمرة الأولى في حياتها وحيدة. في البداية، كانت تُزعجها الأصوات الغريبة، والليلية. لكن مع مرور الأيام بدأت تألَّفها: ديب حيوانات ذات مخالب ناعمة على

الإفريز، تكتكّة الفرن الساخن، صرير ألواح الغرفة في الليالي الباردة. وجدت منافع غير متوقّعة في حياتها المنعزلة في الكوخ؛ فكتشفت أن الشخصيات في قصصها تصير أكثر جسارة. وجدت أن الجنّيات يمرحن في خيوط العنكبوت، والحشرات تهمس بتعاويد على عتبات النوافذ، وأشباح النيران تهسّ وتنفث في المدفأة. أحيانًا بعد الظهر، كانت إيليزا تجلس على الكرسي الهزاز تصغي لهذه الأصوات جميعًا. وفي وقت متأخر من الليل، حينما ينام الجميع، تغزل قصصهم في حكاياتها.

في صباح أحد أيام الأسبوع الرابع، أخذت إيليزا دفترها إلى الحديقة وجلست في بقعتها العشبية المفضّلة أسفل شجرة التفاح. استحوذت فكرة قصة على عقلها فشرعت تُدوّنها: أميرة شجاعة تتخلّى عن حقّها وتصحب خادمتها في رحلة طويلة، رحلة خطيرة إلى أرض بريّة وشريرة ترتع فيها الأخطار. كانت إيليزا على وشك إرسال بطّلتها إلى الكهف المغطّى بخيوط العنكبوت الذي تعيش فيه جيئةً شريرة، حينما حلّق طائر ليحطّ على الغصن أعلى منها وشرع في الزقزقة.

"حقًا؟" قالت إيليزا، وهي تضع قلمها.

غرّد الطائرُ مُجدّدًا.

"أتفقُ معك، أنا جوعانة" وانتزعت إحدى ثمار التفّاح القليلة المتبقية من غصن خفيض، ولممعتها بفستانها وأخذت قضمًا. "إنها شهيةٌ حقًا" قالت والطائر يطير بعيدًا. "إن أردتَ واحدةً على الرّحب والسّعة".

"سأقبل هذا العرض".

توقّفت إيليزا عن مضغ التفاحة وجلست بلا حراك، وهي تُحدّق في المكان الذي كان فيه الطائر.

"كان ينبغي عليّ أن أحضر طعامي، لكنني لم أعتقد أنني سأجلس هنا لفترة طويلة".

جاءت عيناها الحديقة، وطرقت حينما رأت رجلاً يجلس على المقعد الحديدي، كأنه بعيدٌ عن عالمها تماماً. ورغم التقائهما من قبل، استغرقت هنيهةً لتتذكره. الشعر الأسود والعينان السوداوان، الابتسامة السهلة... زفرت إيليزا بحدة. كان ناثانيال وواكر، الذي تزوج من روز، يجلس في حديقتهما.

"يبدو أنك تستمتعين بالتفاح. إن مُشاهدتكِ وأنتِ تتناولينها تضاهي مُتعةَ تناولِ الثمرة".

"لا أحبُّ أن يُراقِبني أحدهم".

ابتسم. "إذن سأحوّل بصري".

"ماذا تفعل هنا؟".

رفع ناثانيال روايةً أصليّةً. "لورد فونتليروي الصغير⁽¹⁾. هل قرأتها يوماً؟".

هزّت رأسها بالنفي.

"ولا أنا، برغم ساعات المحاولة. وجزء من السبب يعود إليك يا ابنة عمي إيليزا. فحديقتكِ تَبَعْتُ على التَّشْتُّت. لقد جَلَسْتُ هنا طيلة الصباح ولم أقرأ سوى الفصل الأول".

"ظننتُ أنكما في إيطاليا".

"كُنَّا بالفعل. عدنا منذ أسبوع".

زحفت قُشْعريرةً خفيفةً على جلد إيليزا. "هل روز هنا؟".

(1) رواية للكاتبة فرانسيس هودسون برنيت.

"بالطبع" ابتسم بوضوح. "لا تعتقدين أنني تركتُ زوجتي للايطاليين!".

"ولكن متى...؟" أزاحت إيليزا خُصَلَةً شَعْرٍ عن جبهتها، في محاولة للفهم. "متى عُدْتُمَا؟".

"أصبل يوم الاثنين. رحلة بحرية في بحر مُتلاطم".

ثلاثة أيام. لقد عادا منذ ثلاثة أيام، ولم تُرسل إليها برسالةٍ واحدة. شعرت إيليزا بضيقٍ في صدرها. "روز. هل روز بخير؟".

"في أفضل حال. إن مناخ البحر المتوسط يُناسبها للغاية. لقد مكثنا الأسبوع بأكمله، لكنها أرادت أن تنضمَّ إلى الحفلة التي ستقام في الحديقة". رفع حاجبَيْه بحرَكَةٍ دراميَّةٍ مُؤثِّرة. "ويبدو أنها ستكون حفلةً أدبية".

خَبَّأت إيليزا ارتباكها وراء قَضَمَةٍ أُخْرَى من التفاح، ثم أَلْقَتْ بِبُهَا بعيدًا. لقد سَمِعَتْ عن إقامة حفلة في الحديقة، لكنها افترضت أنها كانت واحدةً من حفلات أدالين، وليس لها علاقة بروز.

رفع ناثنيال الكتاب مُجدِّدًا. "لذلك اخترت هذا الموضوع للقراءة في الحفلة. السيدة هودسون برنيت⁽¹⁾ ستكون موجودة". اتَّسَعَتْ عيناه. "لا بُدَّ وأن تقابليها. أَظُنُّ أن هناك مُتَعَةً كبيرة من تَبَادُلِ الحديث مع مُؤلِّفَةٍ أُخْرَى".

لَقَّت إيليزا حافة ورقة الكتابة بين السبابة والإبهام، ولم تنظر إليه. "أجل... أعتقد كذلك".

(1) فرانسيس إيليزا هودسون برنيت (1849-1924) روائية إنجليزية أمريكية عُرفت باهتمامها بأدب الأطفال. من أشهر أعمالها (الحديقة السرية) و(الأميرة الصغيرة).

غَلَّفَ صَوْتَهُ الاعتذارُ وهو يقول: "سوف تأتَيْنِ بالطبع. واثقُ أن
روز تَحَدَّثتِ عن حضورك. ستقام الحفلة في المرحِج البيضاوي، في الساعة
الثانية يوم السبت".

أَخَذَتِ إيليزا ترسم دَالِيَّةَ عَنِيبٍ على هامش الصفحة. إن روز تُعرِفُ
أنها لا تُحِبُّ الحفلات، وهذا كل ما في الأمر. كم هو لطيف منها أن
تُبَعِدَها عن مجتمع زوجة خالها.

كان صوت ناثانيال رقيقًا وهو يقول: "روز تتحدَّث كثيرًا عنكِ يا
ابنة العم إيليزا. أشعر كأنني أعرفُكِ"، ثم أشار بيده. "حَدَّثتني عن
حديثك، وهذا سبب قدومي اليوم. كان عليَّ أن أرى بنفسِي إن كانت
تستحقُّ فعلًا ثناء روز".

تلاقت عيونهما لهنيهة وسألته "وماذا وجدتَ؟".

"إنها كما وَصَفْتها وتزيد. كما سبق وقُلْتُ، إنني ألوم الحديقة
لأنها شغلتنِي عن القراءة. ثَمَّةُ شيء في طريقة سقوط الضوء يدفعني
لنقله إلى الورق. لقد رَسَمْتُ في واجهة الكتاب". ابتَسَمَ ثم قال: "لا
تُخبري السيدة برنيت".

"قمت بزراعة الحديقة من أجلي ومن أجل روز" بدا صوتها غريبًا
على أذنيها، لقد اعتادت على أن تكون بمفردها. شعرت بالخجل أيضًا
من مشاعرها الصادقة، ومع ذلك لم يكن بوسعها منعها. "لكي نحظى
بمكانٍ سرِّيٍّ، لا نجدنا فيه أحد، مكان خارجي يمكن أن تَمَكُتَ فيه روز
حتى لو كانت مريضة".

"إنها محظوظة لأن لديها ابنة عمه مثلك تهتمُّ بأمرها. لا بُدَّ وأن
أَعَبَّرَ لكَ عن خالص امتناني على رعايتها من أجلي. إننا نشكُلُ فريقًا،
أنا وأنتِ، أليس كذلك؟".

كلًا، فَكَّرَتِ إيليزا، لسنا فريقيًا. أنا وروز فحسب روحان، فريقيًا. وأنت شخص إضافي، مؤقت.

نهض، ونفض سرواله وضمَّ الكتاب إلى صدره. "والآن يجب أن أودَّعَكَ. والدة روز تُحبُّ القواعد ولا أعتقد أنها ستغفر لي تأخُّري عن العشاء."

تَبَعَتْه إيليزا إلى البوابة، وراقبته وهو يذهب. أغلقت خلفه، ثم جلست على حافة المقعد، وتحاشت الجلوس في مكانه الدافئ. لم يكن بناثانيال شيء لتكرهه؛ ولهذا السبب كرهته. ترك لقاؤهما ثقلاً بارداً على صدرها. ذكَّره لحفل الحديقة وروز، وثقته في طبيعة مشاعرها، وامتنانه لإيليزا، برغم أنه عبر عنه بشكلٍ ملئم- جعلها تتيقن أنه يعتبرها شخصاً مُساعدًا إضافيًا. والآن يخترق حديقته، ويتنزَّه في متاهتها بسهولة...

نَفَضَتْ إيليزا الأفكار عن ذهنها. ستعود إلى قصتها الخيالية. الأميرة التي كانت على وشك اللحاق بوصيفتها المُخلِصة في كهف الجنيَّة. وبهذه الطريقة ستنسى هذا اللقاء المزعج.

لكنها حاولت كثيرًا، وفتت حماسها وأخذ معه الإلهام. وصارت الحكمة، التي ملأتها بالسرور حينما بدأت الكتابة، شفافاً وواهية. شَطَبَتْ إيليزا ما كتبه. لم تَكُنْ مُرضيةً. ومع ذلك، مهما حاولت معالجة الحكمة، لم تفلح، فكيف تُفضِّل أميرة الحكاية الخيالية وصيفتها على الأمير؟

ألقت الشمس بأشعتها البراقة الذهبية كما لو أن أداين اتَّفقت مع الرَّبِّ لتشرق بهذا الشكل. وصلت أزهار الزنبق الإضافية في موعدها، وأضاف ديثيس إلى المروج المزيد من الزهور الغريبة لكي

تمنح المكان المزيد من الزخرفة. وأضفى وإبل المطر الذي هطل بالليل، والذي أبقى أدالين مستيقظةً وقَلِّعةً، ألقًا على الحديقة، حتى بدا كأن كُلَّ ورقة من أوراق الشجر قد لُمِّعَت بشكل خاص. وتناثرت بأناقة في المرحج مقاعدٌ وُضِعَت عليها حشايا. واصطفَّ النُدُل الذين تمَّ استئجارهم بجوار الدَّرَج، في هدوء وانضباط، بينما في المطبخ كانت كوك والخادمت، يعملن على قدمٍ وساق.

ظلَّ الضيوف يتوافدون إلى المنعطف الدائري لمدة خمس عشرة دقيقة. وكانت أدالين تسرع لتحييهم وتقودهم نحو المَرَج. وكم بدت النساء رائعاتٍ في قُبَعَاتِهِنَّ البديعة، لكنها لم تَكُن تضاهاي قبعة روز، والتي اشترتها خِصِيصًا من ميلان.

وقَفَّت أدالين، تحجبها شجرة الورد العملاقة، تُعَايِنُ المدعوِّين. لورد وليدي أشفيلد يجلسان مع لورد إيرفينج براون، وسير آرثر مورنينجتون يرتشف الشاي بجانب مُعِدَّات لعبة الكروكيه، بينما الصغيران تشرشل يضحكان ويلعبان، وأخذت ليدي سوزان هيوسر تثرثر مع ليدي كارولين أسبلي.

ابتسمت أدالين في سرِّها. لقد أحسنت صنْعًا؛ فحفل الحديقة لم يكن طريقةً مناسبة للترحيب بعودة الزَّوجَيْنِ فحسب، بل وكذلك سنح بفرصة ممتازة لانتشار لوحات ناثانيال؛ إذ حرصت أدالين على اختيار مجموعة من الخبراء، والنَّمَامِين، ومُتَسَلِّقِي السُّلَمِ الاجتماعي. وأمرت توماس بتعليق ما رآته أفضل لوحاته على جدران المدخل، ولاحقًا، حينما قُدِّمَ الشاي، كانت تقود ضيوفًا بأعينهم إليها. بهذه الطريقة سيصير زوج ابنتها موضوعًا للأقلام الجاهزة لنُقَادِ الفن والألسنة السريعة لصُنَاعِ الموضة في المجتمع. كل ما على ناثانيال فعله إبهارُ الضيوف بنصف الطريقة التي أبهرَ بها روز. عاينت أدالين الحشد ووقعت عيناها على ابنتها تجلس مع ناثانيال والسيدة الأمريكية

هودسون برنيت. لم ترغب أدالين في دَعْوَةِ السيدة برنيت؛ بسبب طلاقها مرّتين. لكنّ الكاتبة كانت لها علاقات وطيدة بأوروبا؛ وبلا شكّ مُسَاعِدَتُهَا تفوق سوءَ سُمْعَتِهَا.

ضحكت روز على شيءٍ قالته السيدة؛ ففتجّرت في أدالين موجاتٌ دافئة من الارتياح. بدت روز فاتنةً ومتألّقةً اليوم، وأضفى جدارُ الورد عليها خلفةً رائعة. فكّرت أنها تبدو مسرورةً كما ينبغي لشابّةٍ مُتزوّجة حديثًا. ضحكت ابنتها مُجددًا وأشار ناثانيال باتجاه المتاهة. تمّنت أدالين ألاّ يُضَيِّعوا الوقت الثمين في مناقشة الحديقة المُسوّرة أو أشياء إيليزا التافهة في حين يُمكنهم التحدّث عن لوحاته. يا للهبة التي ألقتها السماء بغير توقُّع! لقد انزاحت إيليزا أخيرًا عن ناظريها! خلال الأسابيع التي انقضت في الإعداد للحفلة، كانت أدالين ترقد بالليل مستيقظة ليلة تلو الأخرى، تتساءل كيف تتجنّب أن تُفسد الفتاة ذلك اليوم. ويا لها من دهشة سعيدة حينما ظهرت في ذلك الصباح بجانب مكتب أدالين تطلّب انتقالها إلى الكوخ البعيد. نجحت أدالين في كُثمِ سعادتها؛ فلم تتمنّ شيئًا في حياتها قدّر رغبتها في ابتعاد الفتاة بشكل كامل. لم ترها منذ أن رحلت، وصار المنزلُ بأكمله أخفّ وزنًا وأكثر رحابة. أخيرًا، بعد ثماني سنوات، تحرّرت من جاذبيّتها الخانقة.

كانت أكبر نُقطةٍ شائكة واجهتها كيفية إقناع روز أن إبعاد إيليزا كان في مصلحة الجميع. إن روز المسكينة كانت دومًا تُعَضُّ الطّرفَ فيما يخضّ إيليزا، ولم تُدرِك قطّ ما مُثِّلُه من تهديد. أول شيءٍ فعَلته الفتاة العزيزة حينما عادت من شهر العسل كان السؤال عن غياب ابنة عمّتها. وحينما أخبرتها أدالين بتفسيرٍ حكيم لسبب انتقال إيليزا إلى الكوخ، قطّبت روز وقالت إن الأمر مُفاجئٌ، وأنها تعتزم زيارة إيليزا في صباح اليوم التالي.

بالطبع لو نَجَحَتْ خُطَّةُ أَدالين الصغيرة لن تكونَ تلك الزيارة وارِدَةً؛ لذا تَوَجَّهَتْ، في صباح اليوم التالي، إلى غرفة روز الجديدة، والتي وَجَدَتْها مشغولةً بتنظيم باقَّةِ رقيقةٍ من الزهور. وبينما كانت روز تنزعُ زهرةً ياسمين بلون القشدة من الزهور الأخرى، سألتها أدالين بهدوءٍ ودون تكلفٍ: "هل تعتقدين أنه من الضروري دعوة إيليزا لحضور حفل الحديقة؟".

التفتت روز، كانت المياه تتساقط من طرف ساق زهرة الياسمين. "لكنها بالتأكيد ستأتي يا أمي. إن إيليزا أعزُّ صديقاتي".

رَمَتْ أدالين شَفَتَيْها؛ فقد كان هذا هو الرُّدُّ الذي تَوَقَّعته، ونهيات له. إن إظهار الاستسلام مخاطرةً محسوبةً، وقد استخدمته أدالين عن عَمْدٍ. كانت قد جَهَّزَتْ مُسَبِّقًا مجموعةً من السطور، وكررتها مرارًا كي تخرجَ من شَفَتَيْها تلقائيًا، فقالت: "بالطبع يا عزيزتي، ولو شئتِ حضورها، ستأتي. لن نناقش الموضوع بعد الآن". ولكن بعد هذا الاستسلام السَّخِيَّ الجارف تنهَّدت تنهيدةً صغيرةً حزينة.

أدارت روز ظهرها، وهي مُمسِكٌ بيدها زهرة جاردينيا. "ما الأمر يا أمي؟".

مكتبة

t.me/t_pdf

"لا شيء البتَّة يا عزيزتي".

"أمي؟".

برويَّةٍ وحرص شديد قالت: "كنت أفكر في ناثانيال".

جذبت العبارة عيني روز، وتورَّدت وجنتاها وقالت: "ناثانيال يا أمي؟".

نهضت أدالين، وهي تُسوِّي جونغلتها. ابتسمت بإشراق نحو روز وقالت: "لا تشغلي بالك. أنا متأكَّدة أن الأمور ستمضي على ما يُرام بالنسبة له مع وجود إيليزا".

"بالتّبع ستكون ستكون كذلك" تَرَدَّدَت روز قبل أن تُعيدَ ترتيب الجاردينيا في الباقية. لم تنظر مُجَدِّدًا نحو أدالين. لكن أدالين لم تَحْتَجِجْ إلى نظرتها، بإمكانها تَحْيُلُ الشُّكَّ الذي ارتسم على وجهها الجميل. ثم نطقت روز بالسؤال الحَدِر الذي تنتظره أدالين: "ولماذا يستفيد ناتاليال من غياب إيليزا؟".

قالت أدالين: "كنت آمل أن أوجّه مزيدًا من الانتباه نحو ناتاليال وأعماله الفنية. وإيليزا، فتاةٌ محظوظة، تعرف كيف تخطف الانتباه. كنت آملُ أن ذلك اليوم يكون لناتاليال، ولكِ، يا عزيزتي، لكن بالطبع إن ارتأيت أنه من الأفضل حضور إيليزا سوف تأتي". ثم ضحكت ضحكةً خفيفة مَرِحَة، تدرّبت عليها حدّ الإتقان. "بالإضافة إلى أنه فور أن تعلم إيليزا أنكِ عُدتِ مُبَكَّرًا ستأتي إلى هنا مرارًا، وسيزلُ لسان إحدى الخادِمات بشأن الحفل. وبرغم أنها تمقّت حضور المناسبات الاجتماعية، إخلاصها لكِ يا عزيزتي، سيجعلها تُصرُّ على الحضور".

غادرت أدالين الغرفة، وابتسمت في سرّها حينما لاحظت تبيّس كَتَفِي ابنتها. علامة واضحة على أن الطلقة أصابت الهدف.

والواقع أن روز ذهبت إلى حجرة أدالين لاحقًا في نفس اليوم، واقترحت أنه طالما لم تكن إيليزا من هُواة حضور الحفلات. ستُجَنَّبها عبء حضور هذه المناسبة. استمرت تتحدّث بصوت هادئ، وهي تقول إنها ارتأت عدم زيارة ابنة عمّتها اليوم. وأنها ستنتظر إلى ما بعد حفل الحديقة، حينما تستقرُّ الأمور، ويتسنى لهما وقت أكبر للقاء.

انفجارٌ من التصفيق عند لعبة الكروكيه جذب انتباه أدالين. فصفقت بيديها المكسوّتين بالقفاز، وحشّدت ابتساماً اجتماعية، وشقّت طريقها عبر المَرَج. وبينما اقتربت من الأريكة، وجدت السيدة

هودسون برنيت واقفةً وقد فتحت مظلةً بيضاء. أومات بالوداع لروز وناثانيال، وشرعت تمشي نحو المتاهة. تمنت أدالين ألا يكون لديها نيّة في الدخول. كانت بؤابة المتاهة مُوصّدةً مُبكرًا كزجرٍ واضح، لكنها كانت أمريكيةً، ولديها أفكارها الخاصّة. حثت أدالين خطاها قليلًا، لتلحق بالضيقة الضائعة التي ليس لها مكان في خطّها لليوم، واعتضت سبيل السيدة برنيت قبل أن تنجح في قطع مسافة كبيرة. ورسمت على وجهها ابتسامةً أودعت فيها الكثير من اللطف. "طاب يومك يا سيدة هودسون برنيت".

"طاب يومك ليدي مونتراشيه. يا له من يوم رائع أيضًا".

يا لها من لهجة! ابتسمت أدالين بصبر. "لم نكن نتمنى أفضل من ذلك. أرى أنك التقيت بالزوجين السعيدين".

"بل احتكرت على وجه الدقّة. ابنتك مخلوقةٌ فاتنةٌ جدًّا".

"شكرًا لك. أنا مولعةٌ بها".

ضحك لبقٌ من كلا الطرفين.

"وزوجها بالتأكيد يحبها حبًّا جمًّا. أليس حبُّ الشباب عظيمًا؟".

"كانت زيجةٌ ممتازة. إنه رجل نبيل موهوب...". ثم توقّف ظيف. "بالطبع، ذكر ناثانيال لوحاته؟".

"لم يفعل. وأخشى أنني لم أمنحه فرصةً. انشغلت أكثر بسؤاله عن الحديقة السرية، يقولون إنها مُخبّأة في عزبتكم الفخمة".

"إنها شيء لا يُذكر" افترّ ثغرها عن ابتسامة واهنة. "قطعة أرض مزروعة بالأزهار ومُحاطة بجدار. تجدونها في جميع عزب إنجلترا".

"أنا متأكّدة أن حدائق العزب الأخرى تنقصها تلك الحكايات الرومانسية التي تدور حول الحديقة السرية هنا. حديقة تنهض من الحُطام لتساعد شابةً عليلّةً على استعادة صحتّها!".

ضحكت أدالين بابتهاج مريـر. "يا إلهي! يبدو أن ابنتي وزوجها أخبراك قصةً خيالية. إن روز تدين بصحتها لجهود طبيب ممتاز، وأؤكد لك أن الحديقة عادية للغاية. لوحات ناثانيال، من ناحية أخرى...".

"هراء. أحب أن أراها بنفسى.. أعني الحديقة، لقد أثارت اهتمامى".

لم تَنْبَسْ أدالين بكلمة. أومأت بأناقة وهي تُطَلِّقُ سُبَّةً تحت ابتسامتها.

كانت أدالين تستعدُّ لحوارٍ غاضِبٍ مع ناثانيال وروز، حينما لَمَحَتْ رفرفة قماش أبيض عبر بوابات المتاهة. التفتت في الوقت المناسب لترى إيليزا تفتح البوابة للسيدة برنيت.

قفزت يدها إلى فمها، لتمنع صرخةً من الانطلاق. من بين جميع الأيام ومن بين كل اللحظات، تظهر هذه الفتاة، بهذه الملابس المُوسِّفة، وصحتها الجيدة الوقحة، ووجنتيها المتوردتَيْن، وشعرها المتشابك، وقُبعتها الخرقاء، ولاحظت أدالين برُعبٍ أن يديها عاريتان. حمدًا لله أنها كانت ترتدي حذاء.

تصلب فمها كدُميَّة خشبية، ونظرت حولها، تحاول تقييم نطاق المصيبة. كان هناك خادم بجوار السيدة برنيت، يساعدها إلى مقعد قريب. أمَّا بقية الضيوف بدؤوا هادئين. لم يُفسد اليوم. كان لينوس، يجلس أسفل شجر القيقب مُتجاهلاً حوار اللورد ألباي العجوز. صوب كاميرته الفوتوغرافية الصغيرة العجيبة الشبيهة بالصندوق نحو إيليزا، والتي بدورها كانت تُحدِّقُ باتجاه روز، وقد بدا على وجهها التركيز. بلا ريب كانت تشعر بالاندهاش من رؤية ابنة خالها تعود من أوروبا سريعًا.

التفتت أدالين بسرعة، عازمةً على تجنب ابنتها الإزعاج. لكن روز وناثانيال كانا ذاهلين عن الأعين المُتطفلة. تحرك ناثانيال إلى حافة

مقعده وجلس حتى أوشكت ركبتاه على ملامسة ركبة روز (أم كانت تلامس بالفعل؟ لم تعرف أدالين). وكان يُمسك بين إصبعيه ساق فراولة، فطفت من دفيئة ديفيس، ويلفها هنا وهناك، ويُقربها من شفتي روز قبل أن يسحبها مُجدِّدًا. وفي كل مرة كانت روز تضحك، وقد مال ذقنها حتى أن ضوء الشمس المنقّط لاطف عنقها العاري.

احمرّت وجنتا أدالين، فرفعت مِرْوَحَتَهَا لتحجب عن عينيها المشهد. يا له من عَرَضٍ فاضح! ماذا سيعتقد الناس؟ يمكنها تَخْيُل النميمة التي ستكتبها كارولين أسبلي على الورق بمجرد وصولها إلى المنزل. تعلم أدالين أن من واجبها إيقاف هذا السلوك الخليع، ومع ذلك... أنزلت مِرْوَحَتَهَا مُجدِّدًا، ونظرت من فوق حافتها. وحاوَلت جَاهِدَةً، لكن لم تستطع أن تشيح بوجهها بعيدًا. هذا النضج! كانت نضارة الصورة ساحرة. ورغم أنها تعلم أن إيليزا كانت تُسبب الخراب خلفها، وزوجها كان يتصرّف دون لياقة، كان كأثما العالم قد أبطأ من دورانه، ووقفت أدالين وحدها في مَرَكزِهِ، تعي دَقَاتِ قَلْبِهَا فحسب. وَخَزَهَا جِلْدُهَا، وشعرت بالضعف غير المُتَوَقَّع في ساقَيْهَا، وتقطّعت أنفاسها. باغتها الفكرة قبل أن تجد الفرصة لتمنعها: تُرى ما هو شعور أن تكون محبوبًا للغاية؟

زَكَمَت رَائِحَةُ الزُّبُقِ أنف لينوس؛ فأخذ نَفَسًا عميقًا، حبسه، وشعر بذهنه يتوسّع، وطبلتي أذنيه تحترقان، قبل أن يُطَلِّقَهُ أخيرًا. وحيدًا في غرفته المُظْلِمَةِ، كان لينوس يبلغ طوله ستة أقدام، كل رِجْلٍ مُستقيمة وقويّة كالأخرى. باستخدام مِلْقَاطِهِ الفِضِّيِّ، حرّك الورقة الفوتوغرافية جيئةً وذهابًا، وراقب عن كثب ظهور ملامح الصورة. لن تُوافِقَ أبدًا على الوقوف. في البداية أصرّ، ثم تَوَسَّلَ، ثم أدرك طبيعة لُعبَتِهَا. إنها تستمتع بالمطاردة، وكان الأمر متروكًا إلى لينوس

ليعيد التفكير في مخططاته. وقد فعل. أرسل مانسيل إلى لندن لجلب كوداك إيسترمان براوني، وهي كاميرا صغيرة كريهة، تُناسب الهواة غير البارعين، لا تُضاهي كاميرته التوروجراف، لكنها كانت خفيفة ويمكن حَمْلُها؛ فكانت تفي بالغرض. عَلِمَ لينوس أنها كانت الطريقة الوحيدة لكي يُسِكَ بإيليزا طالما استمرَّت في لعبتها.

كان انتقالها إلى الكوخ خُطوةً جريئةً صدَّقَ لينوس عليها. أهداها الحديقة كي تُحِبَّها مثلما أَحَبَّها أمُّها من قبل. لم يُشعل البريقَ في عيني دُميته سوى الحديقة المُسوَّرة، لكن لينوس لم يتنبأ بأن يكون هذا هو الحال مع إيليزا. لم تقترب من المنزل لأسابيع. وطفق ينتظرها يوماً تلو اليوم بجانب بوابات المتاهة، لكنها ظلَّت تُعذِّبه بغيابها.

والآن، ولزيادة الأمور تعقيداً؛ اكتشف لينوس عدوًّا له. منذ ثلاثة أيام مضت، وكان يُراقب بيقظةٍ، واجهَ منظرًا بغيضًا. بدلاً من أن يرى إيليزا قادمةً عبر بوابات المتاهة، وجد الرِّسامَ، الزوج الجديد. شعر لينوس بالصدمة. كيف يجرؤ على المرور من تلك البوابات، ويطأ مكاناً لم يتجاسر لينوس نفسه على الذهاب إليه؟ وجاش ذهن لينوس بالأسئلة: هل رآها؟ تكلم معها؟ نظر في عينيها؟ كان أمراً لا يُصدَّق، الرِّسام يحوم حول كنزه.

لكن لينوس ربحَ في النهاية. اليوم، أخيراً نال جزاء صبره.

جذب نَفْسًا. وَضَحَت الصورة. انحنى لينوس عن كُتُب ولم يكن بالغرفة سوى ضوء أحمر شحيح. حواشٍ مُظلمة، سياج المتاهة، لكن شحوب في المنتصف حيث تَدَبَّدَت في الإطار. لقد لاحظته على الفور، وشعر لينوس بدفءٍ مُمتعٍ في عنقه. عيناها الواسعتان، شفاتها المنفرجتان، مثل حيوان مَمَّت محاصرته فجأة.

حدَّقَ لينوس في وعاء تحميض الأفلام. ها هي. بياض فستانها، خصرها النحيل، كم يتوق إلى لفِّ أصابعه حوله، والشعور بأنفاسها

الخفيفة تخفق بخوفٍ أسفل قفصها الصدري. وهذا العنق، هذا العنق الشَّاحِبُ، ذو العروق النافِرةِ كَعُنُقِ أُمَّهَا. أغمض لينوس عينيه لبرهة وتخيَّل عُنُقَ دُمَيْتِه ذي النَّدْبَةِ الحمراء. حاولت أن تتركه أيضًا.

كان في الغرفة المظلمة حينما جاءت للمرة الأخيرة. كان يقطع بطاقة من أجل عرض أحدث الصور؛ جراد من غرب البلاد. كان مُتحمِّسًا إزاء الصور، بل فكَّر في أن يطلب من أبيه السماح له بإقامة معرضٍ صغير. لم يكن يريد أن يُقاطِعَه أحد. لكن جورجيانا كانت الاستثناء لكل قاعدة.

كم بدت رقيقةً، كاملة، وهي تقف عند مدخل الباب، لهبُ المصباح ينعكس على وجهها. رفعت أصبعًا إلى شفَّتها ومنَعَتَه من التكلُّم، أغلقت الباب وراءها بهدوء. راقبها وهي تسير بخفة نحوه، ابتسامة خفيفة تتشكَّل على شفَّتها. كان تكلُّمها أحد الأشياء التي تثيره. أن يكون وحيدًا مع دميتِه كان يثير فيه شعورًا مُغريًا من التأمُر، قلَّما استشعره لينوس، الذي لم يكن لديه وقتٌ للآخرين، الذين بدورهم لم يَكنْ لديهم وقت له.

"سوف تساعدني، أليس كذلك يا لينوس؟" قالت بعينها المتسعَّتين الصافيتين. ثم شرعت تتكلَّم عن رَجُلٍ التَّقَّت به، بحار. وَقَعَا في الحب، وسوف يبقيان معًا، بعيدًا عن الأب والأم، سوف يساعدها، أليس كذلك؟ تلك العينان، المتوسَّلتان، اللتان لا تدریان أَلَمَه. امتدَّ الرَّمَنُ بينهما، كانت الكلمات تتأرجح في ذهنه، تكبر وتتضاءل، تعلقو وتنخفض. دهر من الوحدة احتشد في لحظة.

بدون تفكير، رفع يده، وهو مازال يُمسِكُ بالمدية، وجذبها بسرعة على بشرتها البيضاء، جعل أَلَمَه أَلَمَهَا...

استخدم لينوس ملقاطه الصغير ليمسك بالصورة قريبًا من الضوء. انحرف وطَرَفَت عينه. اللعنة! حيث كان يجب أن يكون وجه إيليزا رأى ضوءًا أبيض، مُنْقَطًا بلونٍ رمادي. لقد تحرَّكت في اللحظة المناسبة وهو يضغط زِرَّ الالتقاط. لم يكن سريعًا بشكل كافٍ وهي تلاشت من بين أصابعه. كَوَّر قبضته. واستحضر، كدأبه في المواقف الصَّعبة، الفتاة الصغيرة التي كانت تجلس بجواره على أرض المكتبة، وتَعْرِضُ دُمَيْتَهَا ومعها وَعَدُّ بعرض نفسها، قبل أن تُخَيَّبَ ظَنَّهُ.

لا مشكلة. مجرد هزيمة أخرى، هذا كل ما في الأمر، انحرافٌ مُوقَّتٌ في اللعبة التي كانا يلعبانها. اللعبة التي كان يلعبها مع أمِّها. لكنه خسر هذه المرة. بعد حادِثَةِ المُدَيَّة اختفت چورچيانا، ولم تُعَدِ قَطُّ. لكن هذه المرة سيكون أكثر حَذْرًا.

مَهْمًا تَطَلَّب الأمر، ومهما طال انتظاره، سينتصر لينوس.

أخذت روز تنتزع البتلات من زهرة الأقحوان البيضاء حتى انقضت فترة الظهرية: صبي، فتاة، صبي، فتاة، صبي، فتاة، صبي، فتاة. ابتسمت وهي تُغَلِقُ أصابعها حول قلب الأقحوان الذهبي. ابنة صغيرة لناثانيال ولها، ثم ربما ابنٌ، ثم وَلَدٌ وبنيت.

لَطالَمَا رغبت روز في إنجاب أطفال، وتكوين عائلة مختلفة تمامًا عن حياتها الباردة الوحيدة وهي طفلة، قبل مجيء إيليزا إلى بلاكهرست. سيكون هناك أُلْفَةٌ، وَحُبٌّ بين الأبوين، والكثير من الأطفال، صبية وفتيات يربطهم الحب والاهتمام. ورغم أن تلك هي رغباتها، أَطْلَعَت روز على مناقشات كافية بين السيدات الأكبر سنًّا أدركت منها أنه بينما كان الأطفال نعمة، كان إنجابهم مَشَقَّة كبيرة؛ لذا تَوَقَّعت الأسوأ في ليلة زفافها. حينما خلع ناثانيال عنها الفستان، وأزال الشريط الذي أَمَرَتْ به الأم خِصِيصًا، كَتَمَتْ روز أنفاسها، وراقبت وجهه بعناية.

كانت مُتَوَثِّرَةً للغاية. الخوف من المجهول مرتبط مع القلق من علاماتها. جَلَسَتْ تكتُم أنفاسها، منتظرةً أن يتحدَّث لكنها تخشى أن يفعل. تَفَحَّصَهَا ببطء وبقربٍ كما يتفحص المرءُ قطعةً فنيَّةً كان يتوق إلى رؤيتها. كانت عيناه السوداوان مُرَكَّزَتَيْنِ، وقد انفرجت شفتاه قليلاً. رفع يده وارتجفت روز مُرَقَّبَةً، مرَّ طرف إصبعه بخِفَّةٍ على علامتها الكبيرة. أرسَلتْ لمساته قشعريرة في بطنها، وفَخِذَيْهَا.

فيما بعد مارَسَا الحُبِّ، واكتشفت روز أن السيدات كُنَّ مُحَقَّاتٍ، كان أمراً مُؤَلِّماً. لكن روز لم تكن غريبةً على الأم، واستطاعت أن تخرج من نفسها، حتى أصبحت تُشَاهِدُ التَّجْرِبَةَ بدلاً من أن تشعر بها. عَوْضًا عن ذلك، رَكَّزَتْ على وجهه، القريب للغاية من وجهها، عيناه مُغْمَضَتَانِ، رموشه السوداء الناعمة، فمه مفتوح في وضعيَّةٍ قَلَّمَا تلمحها من قبل، أنفاسه تتزايد سرعةً وثِقَلًا، ولاحظت روز أنها كانت قَوِيَّة. لم تعرف طيلة سنوات مرضها أنها تمتلك القوة. كانت روز المسكينة، روز الرقيقة، روز الضعيفة. لكن في وجه ناتانيل قرأت روز الرغبة؛ وذلك جعلها قَوِيَّةً.

بينما كانا في شهر العسل، مرَّ الوقت ببطء. وما كان ذات يوم ساعاتٍ ودقائقٍ، صار الآن أيامًا وليالي، شمسًا وقمرًا. كانت صدمةً حينما عادًا إلى إنجلترا ووجدوا المزيد من الوقت في انتظارهما. كانت صدمةً أيضًا استئناف الحياة في بلاكهرست، بعدما تعودت روز على الخصوصية في إيطاليا، ووجَدت أنها الآن تستاء من وجود الآخرين. هناك الخَدْمُ وماما، وحتى إيليزا، شخص ما كان دومًا يتوارى في الزوايا، يسعى لكي يسرق انتباهها عن ناتانيل. كانت روز تتمنى أن يكون لديها منزل خاصُّ بها، حيث لا أحد يزعجها، لكنها عَلِمَتْ أن الوقت المناسب سيحين لذلك. وأدرَكت أن أمَّها كانت على صواب؛ من الأفضل لناتانيل أن يُقَابِلَ الأشخاص المناسبين وهو يعيش في بلاكهرست، والمنزل نفسه كان يَتَسَعُ بشكلٍ مُريحٍ لأن يَقْطُرَ فيه عشرون شخصًا.

وَصَعَت رُوز يدها برفق على بطنِها. كانت تعتقد أنهم لن يحتاجوا إلى غرفة أطفال إلا بعد وقت طويل. راودها طيلة الصباح شعورٌ غريب، كأنَّ شخصاً لديه سرٌّ. كانت مُتَيَقِّنَةً أن هذا الحدث الهام جداً يكون بهذا الشكل، سيِّدة تُدركُ على الفور وجودَ مُعْجِزَةٍ حياة جديدة داخل جَسَدِها. قبضت على القلب الذهبي للأقحوان، وانطلقت عائِدةً إلى المنزل، والشمس تبعث بأشعتها المتألِّقة على ظهرها. وتساءلت متى ستخبر ناثانيال بالسرِّ. ابتسمت من الفكرة. كم سيكون مُتحمِّساً! لأنه حينما ينبجان طفلاً، سوف يكتملان.

كوخ الجرف، 2005

وأخيراً أدرك الخريف قدوم شهر سبتمبر؛ فدفَع آخر أيام الصيف المتباطئة، وامتدَّت ظلالٌ طويلة في الحديقة السرية نحو الشتاء. واكتست الأرض بأوراق جافَّة، لونها برتقالي، وأخضر باهت، وتدلت الكستناء بقشورها الشائكة من أطراف الفروع الباردة.

عملت كساندرا مع كريستيان في الكوخ طيلة الأسبوع، يُفكِّان تَشابُكَ نباتات اللبلاب، ويفرکان الجدران، ويُصلِحان ألواح الأرضية المتآكلة. وحينما حلَّ يوم الجمعة، اتَّفقا على توجيه رعاية أكبر للحديقة السرية.

كان كريستيان يحفر عند البوابة الجنوبية، محاولاً الوصول إلى قاع المساند الحجرية الرملية الضخمة، بينما جثَّت كساندرا بجانب الجدار الشمالي لساعتين، تسحب السَّرخس والذي كان منذ سنوات بعيدة حوض زهور. وقد ذكرتها هذه المَهْمَّة بنهايات الأسابيع التي كانت

تقضيها وهي طفلة في مساعدة نيل في سحب الحشائش الضارة من حديقتها في بادينجتون؛ لذا شعرت بالألفة المريحة. تكدّست كومة كبيرة من الأوراق والجذور وراءها، لكنها كانت تعمل ببطء؛ فالدخول إلى الحديقة السرية كان يُشْتَت الانتباه، كأنها مكانٌ أفلت من الزمن. وظنّنت أن الجدران وراء ذلك الشعور؛ برغم أن شعور التطويق تجاوزَ الماديّة. إن الأشياء مختلفة هنا؛ فزققة الطيور أعلى، والهواء أنقى، والروائح أقوى، كانت مزيجاً من خصوبة رطبة وتُفّاح حلو المذاق. وكان النسيم يهمس في أوراق الشجر. كلما قضت كساندرا وقتاً أطول في الحديقة، تيقّنت أنها كانت على صواب. هذه الحديقة لم تكن غافيةً، بل كانت يقظى وحيّة.

تحركت الشمس بخفّة، وهي تلقي أشعة الضوء مُقلّمةً عبر نبات اللبلاب العلوي، وهطل وابلٌ من أوراق دقيقة صفراء اللون من شجرة قريبة. راقبتها كساندرا وهي تطير، ذهبية في الضوء، غمرتها حاجة ملحة لترسمها، لتأسر على الورق هذا التناقض السحري بين الضوء والظلام. اختلجت أصابعها، وهي تتخيّل الضربات التي تحتاجها لترسم خطوط الضوء، ودرجة الظل المطلوبة لتنقل الشفافية. وباغتتها هذه الرغبة للرسم.

"استراحة لتناول الشاي؟" قالها كريستيان وهو يلقي بمجرفته على الحائط على الجانب الآخر من الحديقة، ثم رفع طرف قميصه الباهت ومسح العرق عن جبينه.

"اقتراح ممتاز" نفّضت يديها الموضوعتين في القفاز على بنطلونها الـجـينز لتزيح التراب ويُبْقَع السرخس، وهي تتحاشى التحديق في بطنه العارية. "هل نستخدم غلايتي أم خاصتك؟".

"غلايتي". ركع في البقعة التي نظّفاها في منتصف الحديقة، وملاً طنجرة صغيرة بالمياه المتبقية من قنينته.

جَلَسَتْ كساندرا بحرص؛ فقد تَصَلَّبَتْ ساقاها وتَقَرَّحَ فِخْذَاهَا بعد أسبوع من التنظيف، وبرغم ذلك لم تَشْتَكِ. كانت تَجِدُ مُتَعَةً غاوية في جَسَدِهَا المُتَأَلِّمِ. كان دليلاً قاطعاً على مادِّيَّتِهَا. لم تَعُدْ تشعر بأنها غير مَرِيَّةٍ أو هَشَّةٍ، بل كانت أكثر ثِقَلًا، لا تطير من هَبَّاتِ النسيم. وفي الليالي كانت تَغْطُ بِسرعة في نوم عميق، وتستيقظ لتجد الليل يرقد خلفها كُتْلَةً مُمتدَّةً بلا أحلام.

"كيف حال المتاهة؟ هناك في الفندق؟" قالت وكريستيان يضع الطنجرة الصغيرة على موقد التخيم الصغير الذي جلبه.

"ليس الأمر سَيِّئًا. يَظُنُّ مايك أننا سننتهي من تنظيفها بحلول الشتاء".

"برغم قضائك وقت طويل هنا؟".

ابتسم كريستيان. "يبدو أن مايك لديه كلام كثير حيال هذا الأمر". ألقى برواسب شاي الصباح من الأكواب ووضع كيسين جديدين فيهما.

"أمل أن مُسَاعِدَتِي لا تُسَبِّبُ لكِ إزعاجًا... إن الأمور سهلة".

"إنني حَقًّا أَقْدِّرُ ما فعلته يا كريستيان".

"إنه ليس بشيء كبير. لقد قَطَعْتُ وَعَدًّا بالمساعدة وسأفي به".

"أعلم وأنا سعيدة حَقًّا" سَحَبَتْ فُفَّازِيهَا ببطء. "على كُلِّ حالٍ، سأنفهم لو كنت مُنْشَغَلًا بالقيام بأشياء أخرى".

ضحك وقال: "تقصدين وظيفتي الحقيقية. لا تقلقي. ما زلتُ أعمل لدى مايك".

وظيفته الحقيقية. ها قد فتح الموضوع الذي تساءلت عنه كساندرا، لكنها في كُلِّ مَرَّةٍ لم تستطع مُفَاتِحَتَهُ فيه. لكنها شعرت اليوم،

مع وجودها في الحديقة، بأنها مسكونة بروح من الجرأة غير عادية، كروح نيل. رسمت بعقبيها قوسًا في التراب. "كريستيان؟".
"كساندرا؟".

أضافت قوسًا آخر أسفل الأول. "ثمّة شيء أريد أن أسألكِ عنه، شيء ذكرته جوليا بينيت". التقت عيونهما، لكنها أبعدت عينيها بسرعة. "لماذا أنتِ هنا في تريجينا تعمل عند مايكل بدلًا من أن تكون طبييًّا في أكسفورد؟".

حينما لم يُجب كريستيان تجاسرت على النظر إليه مُجددًا. وجدت صعوبة في قراءة تعبيرات وجهه. هزّ كتفيه قليلًا، وعَلت شفثيه ابتسامةً باهتة. "لماذا أنتِ هنا في تريجينا تُرَمِّمين مَنْزلًا جديدًا بدون زوجكِ؟".

جذبت كساندرا نفسًا حادًا، وهي في غاية الاندهاش. بدون التفكير، شرعت أصابعها تتحسّس كالمعتاد خاتم زفافها. "أنا... أنا"، قفرت على طرف لسانها إجاباتٌ مُراوغة كالفقاعات، ثم سمعت صوتًا كأنه صوتها يقول: "ليس لديّ زوج. كان لديّ يومًا ما، أنا فقط... كانت هناك حادثة، ونيك...".

"أسف. اسمعي، ليس عليكِ أن تقولي شيئًا. لم أقصد...".

"لا بأس، أنا...".

"كلًا. ليس الأمرُ كذلك". عبت كريستيان في شعره، ورفع راحة يده. "ما كان ينبغي لي أن أسأل".

"لا بأس. لقد سألتُ أولًا". وبطريقة غريبة أدركت كساندرا بأن جزءًا صغيرًا منها شعر بالسعادة للتقوُّه بهذه الكلمات؛ فنطقتُها لاسم نيك حررّها، وحفّف من شعورها بالذنب بشكل ما، أنها ما زالت هنا وهو ليس كذلك. أنها كانت الآن هنا مع كريستيان.

كانت الطنجرة الصغيرة تهتزُّ أعلى الموقد، والمياه تنفثُ. أمالها كريستيان جانبًا لكي يملأ الكوبين، ثمَّ قذف بملعقة من السكر في كليهما وقلب بسرعة. ناوَل كساندرا كوبها.

"شكرًا". طوّقت أصابعها الكوب الساخن ونفخت برفق في سطحه.

أخذ كريستيان رشفةً، وأجفل من اللسعة التي أصابت لسانه.

امتدَّ بينهما صمتٌ ضاِحٌ، وحاوَلت كساندرا أن تقبض على خيوط موضوع لنسج حوار، لكنها لم تجِد أي شيء يبدو مناسبًا.

أخيرًا تحدّث كريستيان: "أعتقد أن جدّتك كانت محظوظةً لأنها لا تعرف ماضيها".

سحبت كساندرا بطرف أصبعها البنصر شذرةً ورقةً ساقطة في كوب الشاي.

"ألا تظنّين أن مضيَّ المرء إلى الأمام وليس إلى الوراء هو نعمة؟"

تظاهرت بالاهتمام بالشذرة التي استخلصتها. "أحيانًا".

"بل في أغلب الأحيان".

"ومع ذلك من العسير نسيان الماضي برُمته".

"لماذا؟".

رَمته بنظرة شكٍّ محاوَلةً التحقُّق إن كان يتحدّث بجديّة أم لا. لكنها لم تجد مُزاحًا في قسّامات وجهه، فقالت: "لأنه حينها سيكون الأمر كأنه لم يحدث أبدًا".

"لكنه حدث، ولا شيء يمكن أن يُغيّر ذلك".

"أجل، لكن لن تتذكّرهُ".

"إذن؟".

"إذن..." أَلقت بالشذرة بعيدًا وهزّت كتفيها قليلًا. "إننا بحاجة إلى الذكريات للإبقاء على أشياء من الماضي".

"هذا ما عَنَيْتُه بالضبط. بدون الذكريات يمكن للناس المُضِيُّ قُدْمًا".

تَخَضَّبَت وجنتاها، واختبأت وراء جرعة من الشاي، ثم جرعة أخرى. كان كريستيان يعلمها أهميَّة نسيان الماضي. لقد توقَّعت هذا الأمر من نيل وبين، وتعلَّمت أن تومئ بأدبٍ حينما تُعبِّر واحدة من شقيقات نيل عن آراء مُماثِلة، لكنَّ سماعه من كريستيان كان مُختلِفًا. كان يغمرها شعور بالثقة، بالخِفة أكثر من المعتاد، بالوضوح بدلًا من الغشاوة. كانت تستمتع. وتساءلت متى سيعتبرها حالةً ميؤوسًا منها تحتاج إلى الدعم. شعرت بالخجل، والأكثر من ذلك، بالإحباط.

أخذت رشفة أخرى من الشاي واختلست النظر إليه. كان مُستغرِقًا في عصا أخذ يكسوها بأوراق الخريف الجافَّة، كان من الصعب قراءة ملامح وجهه. كان مُنهمكًا تمامًا، لكن الأكثر من ذلك كان مُشتتًا، وبعيدًا، ووحيدًا.

"كريستيان..."

"أَتعلمين أنني قابلتُ نيل مرَّةً".

بوغيتت من تصريحه وسألته: "جدتي نيل؟".

"أعتقد أنها كانت هي، وليس شخصًا آخر، والتواريخ تبدو صحيحة. كنت في الحادية عشرة من عمري، لذا لا بُدَّ وأن ذلك حدث في عام 1975. كنت آتي إلى هنا لأهرب، وكنت على وشك الاختفاء أسفل الحائط حينما جذب أحدهم قدمي. في البداية لم أدرك أنها كانت إنسانًا، ظننتُ لوهلة أن أشقائي كانوا صادقين حينما أخبروني أن الكوخ مسكون، وأنها شبحٌ أو ساحرة ستُحوِّلني إلى ضفدع". ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة، وسَحَقَ الورقة في قبضته، وهو ينثر الفتات

على الأرض. "لكن لم يكن شبَّحًا، بل امرأة عجوز بلهجة غريبة ووجه حزين".

تخيَّلت كساندرا وجه نيل. هل كان حزينًا؟ بلا شكَّ كان صارمًا، لا يوحى بالدفء، لكن حزين؟ لا تعرف، إن اعتيادها عليه جعل الحكم مستحيلًا.

"شعرها فضي. معقود لأعلى".

"في عُقدَة".

أوماً وابتسم ابتسامَةً خفيفة، ثم قلب كوبه ليُفرِّغ الرواسب. رمى العصا المُجدولة بعيدًا. "هل اقتربت من حلِّ لغزها؟".

تَنفَّست كساندرا ببطء، إن كريستيان يبدو مُشوَّشًا اليوم، ومزاجه يُذكَرُها بأعمدة الضوء التي تَنسَلُّ عبر نبات اللبلاب؛ تستعصي على الفهم، ومُتَغَيِّرة، وجَدَّابة. "ليس بَعْدُ، لم أجد في كتب قصاصات روز التوضيح الذي أريده".

ابتسم قائلاً: "ليس هناك مُدخَل يقول: لماذا ستخطف إيليزا طفلي يومًا ما؟".

"كَلَّا، للأسف".

"على الأقل لديك شيء رائع تَقْرئينه وقت النوم".

"هذا إن لم أعط في النوم فور أن تلامس رأسي الوسادة".

قال كريستيان وهو ينهض ويجلب مجرثته مجدِّدًا: "إنه هواء البحر، غذاء الروح".

وكان هذا صحيحًا. نهضت كساندرا بدورها، وقالت وهي تهزُّ قُفَّازَيْها: "كريستيان. فيما يتعلَّق بِسِجِلِّ القصاصات".

"ماذا بها؟".

"ثُمَّ شَيْءٌ أَرْجُو أَنْ تَسَاعِدَنِي فِيهِ، أَمْرٌ مُلْغِزٌ".
"حَقًّا؟".

اختلفت إليه النظر ببعض الحذر نَظَرًا لَتَجَنُّبِهِ السَّابِقَ لِلْمَوْضُوعِ.
"إِنهَا مَسْأَلَةٌ طَبِئَةٌ".
"حَسَنًا".

"ذَكَرْتَ رَوْزَ أَنْ مَثَّةً خَطُوطًا كَانَتْ عَلَى بَطْنِهَا. وَقَهَمْتَ أَنَّهَا كَبِيرَةٌ
وَمَلْحُوظَةٌ حَتَّى أَنَّهَا سَبَّبَتْ لَهَا إِحْرَاجًا، كَمَا أَنَّهَا اسْتَشَارَتْ طَبِيبَهَا
أَبِينِيزَرَ مَاتِيوسَ بِخُصُوصِهَا".

هَزَّ كَتْفِيهِ بِاعْتِذَارٍ قَائِلًا: "لَمْ يَكُنِ الْجِلْدُ تَخْصُصِي".
"وَمَاذَا كَانَ تَخْصُصَكَ؟".

"عِلْمُ الْأَوْرَامِ. هَلْ كَتَبْتَ رَوْزَ أَيِّ شَيْءٍ يُمَكِّنُنَا مِنْ فَهْمِ طَبِيعَةِ هَذِهِ
الْعَلَامَاتِ؟ مِثْلَ لَوْنِهَا، حَجْمِهَا، نَوْعِهَا، كَمِّيَّتِهَا؟".

هَزَّتْ كَسَانِدْرَا رَأْسَهَا. "كَانَتْ تَكْتُبُ بِتَعْبِيرَاتٍ مُهَذَّبَةٍ فِي الْغَالِبِ".

"اِحْتِشَامُ الْعَصْرِ الْفِيكْتُورِيِّ الْمُبَالَغِ فِيهِ" أَخَذَ يَحْكُ الْمَجْرَفَةَ عَلَى
الْأَرْضِ وَهُوَ يَفْكُرُ. "مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ الْعَلَامَاتُ أَيُّ شَيْءٍ؛ نَدُوبًا، أَوْ
عَلَامَاتٍ تَصْبُغِيَّةً، هَلْ ذَكَرْتَ شَيْئًا عَنِ إِجْرَاءِ عَمَلِيَّاتِ جِرَاحِيَّةٍ؟".
"كَلَّا حَسْبَمَا أَذْكَرُ. أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الْجِرَاحَةِ؟".

رَفَعَ يَدَهُ جَانِبًا. "حَسَنًا، يَحْضُرُنِي الْآنَ التَّهَابُ الزَّائِدَةُ الدُّودِيَّةُ، رُبَّمَا
اِحْتِاجَتْ عَمَلِيَّةً فِي كَلِيتَيْهَا أَوْ رَتَّتَيْهَا"، ثُمَّ رَفَعَ حَاجِبِيهِ وَقَالَ: "رُبَّمَا دَاءُ
الْمَشُوكَاتِ⁽¹⁾. هَلْ كَانَتْ قَرِيبَةً مِنَ الْمَزَارِعِ؟".

"كَانَتْ هُنَاكَ مَزَارِعٌ بِالْعِزْبَةِ".

(1) مرض طفيلي تنقله ديدان شريطية تُسمى المشوكة.

"إنه بالتأكيد السبب الشائع لكي تُجرى لِطفْلِ من العصر
الثيكتوري جراحة في البطن".

"وما هو هذا الداء بالضبط؟".

"طُفيلِيَّات، ديدان شريطية تعيش في الكلاب يمكن أن تنتقل إلى
الإنسان أو الغنم، وتستقر غالبًا في الكليّة أو الكبد، لكن أحيانًا تَشقُّ
طريقها إلى الرئتين". نظر إليها ثم قال: "يمكن أن يكون السبب، لكن
أعتقد إن لم تجدي معلوماتٍ إضافيّةً في كتب القصصات، لن تعرفي
قَطُّ".

"سألقي نظرة أخرى هذا المساء، من الممكن أن أكون أَعفَلْتُ شيئًا".

"وسأفكر في الموضوع".

"شكرًا، لا داعي لأن تزعج نفسك، إنه الفضول يعتريني فحسب".
لبست قُفَّازَيْهَا، وضغطت على مفاصل الأصابع لكي تحكّهما.
دفع كريستيان مجرفته في التراب لعدّة مرّات. "كانت هناك وفياتٌ
كثيرة".

نظرت إليه كساندرا.

"في عملي بالأورام، وكان ذلك قاسيًا. المرضى، والعائلات، والخسارة.
ظننتُ أن بإمكانني التّعامل مع الأمر، لكنه بدأ يتراكم مع مرور
الوقت".

فكّرت كساندرا في أيام نيل الأخيرة، رائحة المُعقّم الكريهة في
المستشفى، وتحديق الجدران الفارغ البارد.

"لم يكن يُناسِبُنِي حقًا. وفكّرتُ في ذلك كثيرًا حينما كنت أدرس
بالجامعة".

"لماذا لم تُفكّر في تغيير تخصصك؟".

"لم أريد أن أخيب ظنَّ أمي".

"هل أرادت أن تكون طبيبًا؟".

"لا أعلم" التقت عيونهما. "ماتت حينما كنتُ طفلًا".

وفهممت كساندرا. "السرطان". فهممت أيضًا سبب حرقه على نسيان الماضي. "أنا آسفة يا كريستيان".

أومأ، وراقب طائرًا أسودًا يحلق على مستوى خفيض. "يبدو أنها ستُمطر. حينما ينقضُّ الغراب بهذا الشكل، سيهطل المَطَرُ قريبًا". ابتسم بخجل، كأنه يعتذر عن تغييره السريع للموضوع. "إن فلكلور كورنوال أفضل بكثير من علم الأرصاد الجَوِّيَّة".

التقطت كساندرا شوكة الحديدية. "أظنُّ أنه يُمكننا العمل لنصف ساعة أخرى".

نظر كريستيان فجأةً إلى الأرض، وحكَّ حذاه بها. "أتعلمين، كنت ذاهبًا لاحتساء مشروب في الحانة في طريقي إلى المنزل" نظر إليها. "أتساءل إن رغبتي بالقدوم؟".

سمعت نفسها تقول: "بالطبع. لِمَ لا؟".

ابتسم كريستيان وبدأ وجهه يسترخي. "عظيم. هذا رائع!". هبَّةٌ رطبةٌ طازجة من نسيمٍ ملحيٍّ جلبت ورقةً من شجرة الدرّدار لتستقرَّ على رأس كساندرا. أزاحتها وانتبهت إلى رُقعةِ السَّرخَس، حفرت قليلاً بالشوكة أسفل جذر نحيف طويل وحاوَلت نزعَه من الأرض. وابتسمت لنفسها، برغم أنها لم تعرف السبب.

كانت هناك فرقة غنائية تعزف في الحانة فمكَّنَّا، وطلَبَّا فطائر ورقائق البطاطس. حكى لها كريستيان قصصًا تهكميَّةً حول وجوده في

المنزل مع والده وزوجة أبيه، وباحت كساندرا ببعض غرائب طبع نيل؛ مثل رفضها استخدام مقشرة البطاطس لأنها تستطيع أن تفعل ذلك بشكل أفضل باستخدام السكين، وعادتها في تَبْنِي قَطَط الآخرين، وكيف أنها طَلَّت بالفضة ضروسَ العقل التي خلعتها كساندرا وحوَّلَتها إلى قلادة. قَهَّقَه كريستيان، وأطْرَبَ صوته كساندرا حتى أنها وجدت نفسها تضحك أيضًا.

خِيَمَ الظلام حينما أوصلها إلى الفندق، كان الهواء يعبق بالضباب، حتى أن مصابيح السيارة تَوَهَّجَت باللُّون الأصفر.

"شكرًا لك" قالتها كساندرا وهي تخرج من السيارة. "لقد حَظِيْتُ بوقتٍ مُمتِعٍ" وقد فعلت حَقًّا. وقت ممتِع غير مُتَوَقَّع. كان يرافقها -كالعادة- شبحاها، لكنهما لم يكونا قريبيْن منها.

"أنا مسرورٌ لقدومك".

"أجل وأنا أيضًا" ابتسمت كساندرا وانتظرت لبرهة، ثم أغلقت الباب. لَوَّحَت وسيارته تختفي في الضباب.

قالت سامانثا، وهي تُلَوِّح بِقُصَاصَةٍ ورقية حينما دخلت كساندرا من البهو: "لديكِ رسالة هاتفية. كنتِ بالخارج، أليس كذلك؟".

"أجل، بالحانة" أخذت كساندرا القصاصة، وتجاهَلت حاجِبِي سامانثا المرفوعَيْن.

كانت القصاصة تقول: اتصال هاتفي من روبي ديفيس. قَادِمَةٌ إلى كورنوال في يوم الاثنين. حَجَزْتُ للإقامة في فندق بلاكهرست. ثَمَّة أخبار جديدة!

شعرت كساندرا بموجةٍ من المُتَعَةِ الحقيقية. ستجعل روبي ترى الكوخ وكتب القصاصات والحديقة السَّرِيَّة. إنها تعلم أن روبي ستفهم مدى خصوصية هذه الأمور. ستُحِبُّ كريستيان أيضًا.

"إذن أحدهم أَوْصَلَكَ إلى المنزل؟ تبدو مثل سيارة كريستيان بلاك".

"شكرًا على الرسالة" قالت كساندرا بابتسامة.

"كأنَّ الأمر يعنيني!" صاحت سامانثا وكساندرا تختفي أعلى الدرج.
"لم أكن أتجسَّس أو شيئًا من هذا القبيل".

في غرفتها، أعدت كساندرا حمامًا عميقًا ساخنًا، وألقت في الماء
ملح اللاقندر الذي أعطته لها جوليا بينيت ليُخَفَّفَ عنها ألم العضلات.
أخذت كتب القصصات معها ووضعتها على منشفة جافةٍ فَرَشَتْهَا عبر
الأرضية المكسوَّة بالآجر. وحرصت على جفاف يدها اليسرى لتقليب
الصفحات. استراحت في المغطس، وهي تتنهَّد بِمُتَعَةٍ بينما المياه
الحريرية تُطَوِّقُهَا، ثم اتَّكَأَت على جانب البورسلين وفتحت الكتاب
الأول، آمِلَةً أن تجد بعض التفاصيل المفقودة حول علامات روز.

بمرور الوقت فترت المياه وشعرت كساندرا بأن قدَمَيْهَا مَنقوعَتان، لم
تجد شيئًا مهمًّا. بل نفس الكلمات المضمرة عن "علامات" تُخرج روز.

لكنها وجدَت شيئًا آخر مُثيرًا للانتباه. لا يتعلَّق بالعلامات، لكنه
يثير الفضول. لم تكن الكلمات فحسب التي أدهشت كساندرا، بل
وكذلك النغمة العامة. شعرت أن الكلمات تُخفي أكثر ممَّا تُفصح.

إبريل 1909. بدأ العمل في جدار الكوخ. شعرت ماما -وهي مُحِقَّة-
أنه كان من الأفضل أن يَتِمَّ ذلك وإيليزا بعيدة. إن الكوخ هَشٌّ للغاية.
ربما تحتم أن يظلَّ مكشوفًا منذ سنوات بعيدة حينما كان استخدامه
شائئًا، لكنه لم يَعد بحاجة إلى أن يُطلَّ على البحر. ولا يمكن للمرء
أن يكون في منتهى الحذر دائمًا، فحيث يوجد المكسب، يوجد أيضًا
الكثير من الخسارة.

(39)

عزبة بلاكهرست، 1909

كانت روز تَنَجِبُ. وجنتاها ساختان ووسادتها مُبْتَلَةٌ بالدموع، لكنها ما زالت تبكي. أغلقت عينيها بإحكام ضدَّ ضوء الشتاء المُتَسَلِّلِ، وبكت كما لم تَبِكِ منذ طفولتها. يا له من صباح خبيثٍ شرير! كيف تجرُّ الشمس على الشروق بهذه الثقة وتشمَّت في تعاستها؟ كيف يجرُّ الآخرون على الذهاب إلى أعمالهم كأنَّ الرَّبَّ في أعالي السماء، بينما كان على روز أن تستيقظ لترى نهاية آمالها مكتوبة بالدماء مرة أخرى؟ إلى متى سيستمرُّ هذا؟ وكم عدد المرات التي يجب أن تصطبر على هذا القنوط كل شهر؟

بطريقة كريهة بعض الشيء كان من الأفضل أن تعرف؛ لأنَّ أسوأ الأيام كانت تلك التي تنقضي بين البداية الوردية والنهاية التَّعَسَّة. الأيام الطوال التي تتخيَّل فيها روز، وتحلم، وتأمِّل. الأمل، لكم أصبحت مَمَّقَتْ هذه الكلمة! كانت بذرةً ماكِرَةً تُزْرَعُ في روح المرء، تحيي سرًّا

بقليل من الرعاية، ثم تنمو بشكل مُدهش حتى يتعلَّق المرء بها. لقد كان الأمل، أيضًا، من يمنع المرء من التعلم من التجربة. في كل شهر، بعد دورتها الشهرية، تشعر روز بانبعث البذرة الكريهة، وتنسى التجربة كأنها لم تَكُن. مهما وعدت نفسها أن هذه المرة لن تطول، تسقط فريسة للهمسات القاسية المبشرة، دومًا تفعل؛ فالقانون يتشبَّثون بالأمل كتشبَّث البَحَّارة بحطام سفينتهم.

خلال العام كانت هناك راحة مؤقتة صغيرة من الدائرة اللعينة. شهر لم تأتِها الدَّورة الشهرية. تَمَّ استدعاء د. ماثيوس، وأجرى الفحص، ونطق الكلمات المُبهِجَة: كانت حُبلى. يا لسعادة أن يسمع المرء أعلى أمنياته تُنطق بهذا الهدوء، وعدم تفكير في أشهر الخيبة السابقة، وبرسوخ وثِقَة أن كُلَّ شيء سيستمر. بطنها سينتفخ وسيولد الطفل. عاشت ثمانية أيام ترتشف من سعادة النبا الغالي، وتهمس بكلمات الحب لبطنها المُسطَّح، مَشَّت وتحدَّثت وحلَّمت بشكل مختلف. ثم، في اليوم التاسع...

قرع على الباب لكن روز لم تتحرك. اذهبوا بعيدًا، واتركوني لشأني.

فُتِح الباب بصرير ودخل شخصٌ، وحرص -بطريقة تُثير الغيظ- على أن يكون هادئًا. جلبة، شيء يوضع على الكومود، ثم صوت رقيق بجانب أذنها يقول: "جلبت لك طعام الإفطار".

ماري مُجددًا، كأنه لم يكفِها أن رأَت الملاءات، مُلطَّخةً بخزيتها الدَّاكن.

"لا تبتثني يا سيده وواكر".

سيِّدة وواكر. الكلمات جعلت مَعِدَة روز تتقلَّص. لكم تاقت لأن تكون السيدة وواكر. بعدما التقت بناثانيل في نيويورك، ووصلت إلى الرقصة تلو الرقصة وقلبها يدقُّ في صدرها، عايَّت الغرفة حتى

راقبته، كتمت أنفاسها إلى أن تلاقت أعينهما، وانفرجت الشفاه عن ابتسامة، من أجلها هي فقط.

والآن كان الاسم ملكها، لكنها أثبتت عدم جدارتها به. كانت زوجة عاجزة عن أداء الوظائف الأساسية للمرأة المتزوجة، عاجزة عن منح زوجها أهم الأشياء التي يجدر بالزوجات الطيبات فعلها. الأطفال أطفال سعداء بصحة جيدة يركضون في العزبة، ويقلبون عربات النقل على الرمال، ويختبئون من مربياتهم.

"لا تبكي يا سيدة وواكر. سوف تحملين في الوقت المناسب."

كل كلمة تُنطق بحسن نيّة كانت شوكة مُدبّبة. "حقًا يا ماري؟"

"بالطبع يا سيدتي."

"وما الذي يجعلك واثقة لهذا الحد؟"

"إنه مكتوب علينا. لا يمكن للمرأة تجنّبهُ مهما حاولت. ليس لوقت طويل. هناك نسوة كثيرات أعرفهنّ سيّسعدنّ بالهروب منه إن كانت هناك وسيلة معروفة."

"بائساتُ جاحدات بالنعمة" قالت روز ووجهها ساخنٌ مُبلّلٌ. "تلك النسوة لا يستأهلنّ نعمة الأطفال."

امتلات عينا ماري بشيءٍ حسبته روز شفقةً عليها. وبدلاً من صفح وجنتيها الممتلئتين اللَّتَيْن تَشيان بالصّحة، نظرت بعيداً وتكوّرت أسفل أغطية الفراش. أخذت تلوك حُزنها عميقاً في صدرها. وأحاطت نفسها بسحابةِ الفُقدانِ الخاوية المظلمة.

كان يمكن لناثانيال أن يرسم وجه زوجته في نومه. كان مألوفاً للغاية حتى أنه يعتقد أحياناً أنه يعرفه كباطن يده. أنهى الخطّ

الذي كان يرسمه ولَطَخَهُ قَلِيلًا بِإِبْهَامِهِ. أَدَارَ رَأْسَهُ. كَانَتْ جَمِيلَةً، كَان مُحِقًّا فِي هَذَا. الشَّعْرُ الْأَسْوَدُ وَالبَشْرَةُ الشَّاحِبَةُ، وَالثَّنْجَرُ الْجَمِيلُ. وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَمْتِعْ بِهِ.

وَضَعَ الرَّسْمَ فِي حَقِيْبَتِهِ. سَتَفْرَحُ بِهِ كَدَأْبِهَا. كَانَتْ تَطْلُبُ بِيَأْسٍ رَسُومَاتٍ جَدِيدَةً لَوَجْهِهَا، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الرَّفُضُ. لَوْ لَمْ يَقْدُمُ رَسْمًا جَدِيدًا كُلَّ أَيَّامٍ قَلَائِلٍ سَتَبْكِي وَتَتَوَسَّلُ لِتَأْكِيدِ حُبِّهِ. لَقَدْ رَسَمَهَا مِنَ الذَّاكِرَةِ الْآنَ، وَلَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ. فَالْحَيَاةُ كَانَتْ مُؤَلِّمَةً لِلْغَايَةِ. لَقَدْ تَلَاشَتْ عَزِيْزَتَهُ رُوزٍ دَاخِلٍ أَسَاها وَحُزْنِهَا. الْمَرْأَةُ الشَّابَّةُ الَّتِي قَابَلَهَا فِي نِيُويُورِكِ ذَبَلَتْ، وَكَشَفَتْ عَنِ هَذَا الشَّبِيحِ، ذِي الْعَيْنَيْنِ الدَّاكِنَتَيْنِ مِنْ قَلْبَةِ النَّوْمِ، وَالبَشْرَةَ الَّتِي جَعَلَهَا الْقَلْقُ أَكْثَرَ شُحُوبًا، وَالأَطْرَافَ شَدِيدَةَ الْانْفِعَالِ. هَلْ وَصَفَ أَحَدَ الشَّعْرَاءِ يَوْمًا بِشَكْلِ مَنَاسِبٍ قُبْحِ الْحَبِيْبَةِ الَّتِي يَظْهَرُ الْحُزْنَ؟

لَيْلَةٌ تَلُو اللَّيْلَةَ كَانَتْ تَعْرُضُ نَفْسَهَا عَلَيْهِ وَيُئَلِّبِي. لَكِنَّ رَغْبَتَهُ تَلَاشَتْ. مَا كَانَ يَمْلُؤُهُ بِالْإِثَارَةِ يَوْمًا مَلَأَهُ الْآنَ بِالْفَرْعِ، وَالأَسْوَأُ، بِالذَّنْبِ. الذَّنْبُ أَنَّهُ لَمْ يَعُدَّ يَحْتَمِلُ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَمَارِسَانِ فِيهَا الْحُبَّ، وَأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ مَنَحِهَا مَا تَرُغِبُ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَا يَرِيدُ إِجَابَةَ طِفْلِ بِيَأْسٍ مِثْلَمَا تَرِيدُ. بِالطَّبَعِ لَمْ تَكُنْ رُوزٌ تُصَدِّقُهُ. مَهْمَا أَكَّدَ لَهَا أَنَّهُ يَرِيدُهَا هِيَ فَقَطْ، لَمْ تَكُنْ تَقْتَنِعُ.

وَالْأَكْثَرُ إِيْلَامًا لِمُشَاعِرِهِ زِيَارَةَ أُمَّهَا لِمَرْسَمِهِ. أَخَذَتْ تَتَأَمَّلُ لُوحَاتِهِ بِشَكْلِ مُتَبَيِّنٍ إِلَى حَدِّ مَا، ثُمَّ جَلَسَتْ عَلَى الْمَقْعَدِ بِجَانِبِ مَسْنَدِ الرَّسْمِ، وَبَدَأَتْ خُطَابَهَا الرَّسْمِيَّ. قَالَتْ إِنَّ رُوزَ حَسَّاسَةَ بِطَبِيعَتِهَا، وَرَبْمَا كَانَتْ الدَّوَّافِعُ الْحَيَوَانِيَّةُ لِلرُّوْجِ تُسَبِّبُ ضَرَرًا بِالْغَا، وَمَنْ الأَفْضَلُ لِلْجَمِيعِ أَنْ يَمْتَنِعَ لِبَعْضِ الْوَقْتِ. أَرَعَجْتَهُ الْمُحَادَثَةَ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْعَثُورَ عَلَى الْكَلِمَاتِ لِتَفْسِيرِ مَوْقِفِهِ.

أوماً بموافقته، واعتاد الانسحاب إلى حديقة العزبة، بدلاً من مَرَسِمِهِ. صارت مقصورة الحديقة مكانَ عَمَلِهِ. كانت بارِدَةً في مارس، لكن ناثانيال لم يعبأ. الجَوْ جعل الآخرين لا يزورونه كثيراً. أخيراً، يُمكنه أن يعيش في هدوء وراحة. الوجود داخل المنزل طيلة الشتاء، مع والدَي روز واحتياجاتها الخانقة، كان يقمعه. حزنها وخَبِيثُهَا تَغَلَّغَتْ في الجدران والستائر والسجاد. كان منزل الموتى؛ لينوس يقبع في الغرفة المظلمة، وروز في غرفة نومها، وأدالين تتوارى في الدهاليز.

انحنى ناثانيال إلى الأمام، جذب انتباهه خيطٌ ضعيف من ضوء شمس عبر غصون شُجيرة الورد. توتَّرت أصابعه، تاق لِأَسْرِ الضوء والظُّل. لكن لم يكن هناك وقت. لوحة لورد ماكيلباي أمامه على المسند تنتظر، لحية مرسومة، خَدَّان مُتَوَرِّدان، جبهة مُقَطَّبة. فقط تَبَقَّت العينان. كانت العينان تخذلانه في اللوحات الزيتية.

اختار فرشاةً وأزال شَعْرَةً مَحْلُولَةً. وكان على وشك أن يضع اللون على القماش حينما شعر أن ذراعيه تستشعران وخزاً خفيفاً، الحاسة السادسة الغريبة لانسحاب العزلة. نظر من فوق كتفه. كان هناك خادم يقف بجواره بارتباك.

"يَحَقُّ السماء يا رجل، لا تَتَسَلَّلْ بهذا الشكل. لو كان هناك شيء تريد أن تخبرني إيَّاه، تعال، وقِفْ أمامي وقُلْهُ. ليس هناك حاجة بالتأكيد لهذا التَّسَلُّلِ."

"ليدي مونتراشيه تقول إن الغداء سيُقدَّم مُبَكَّرًا يا سيدي. العربة لقاعة تريمين سترحل في الساعة الثانية بعد الظهر."

أطلق سَبَّةً في سِرِّهِ. لقد نسي أمر قاعة تريمين. مجموعة أخرى من صديقات أدالين التُّرِّيَّات يرغبن في تزيين الجدران بِصُورِهِنَّ. ولو كان محظوظًا للغاية، ستُصِرُّ السيدة أيضًا على أن يرسم جِراءَها الثلاثة! كم كان مُتَحَمِّسًا يومًا ما لهذه المقابلات، وشعر بأن منزلته تصعد

مثل شراع سفينة جديدة. كان مُعَقِّلاً، جاهلاً فداحةً هذا النجاح. لقد ازدادت مُهَمَّاته، لكن إبداعه تضاعف في الوقت ذاته. كان ينتج لوحاته مثل أحد المصانع الجديدة التي تُنتِجُ بالجُمْلَةِ، تلك التي يتحدث عنها دومًا رجالُ الأعمال، وهم يفركون أيديهم البيضاء في حبور. لا يوجد وقت للتوقُّف؛ لتحسين أدائه، وتنويع أساليبه. لم يكن عمله حربي، لم تُعد ضربات فرشاته تتمتع بجلال أو إنسانية.

والأسوأ أنه بينما كان مُنهمكًا في إنتاج اللوحات، كان الوقت لرسم الرسومات التوضيحية، شغفه الحقيقي، ينزلق من بين أصابعه. منذ وصوله إلى بلاكهرست لم يرسم سوى رسَمٍ لَوحيٍّ واحد، ومجموعة من تأملات في المنزل وقاطنيه. لقد أُصِيبَت يداه، ومهاراته، وروحه المعنوية في مَقْتَلٍ. إنه يدرك الآن مدى سوء اختياره. تمنى لو أخذ أفكار روز على محمل الجدِّ، وسعى إلى العثور على منزل جديد لهما بعد زواجهما، ربما كانت الأمور ستختلف حينها. ربما ستغمرهما السعادة؛ الأطفال تحت قدميها، والإبداع رهنُ إشارته. وربما لا. ربما تَظَلُّ الأمور كما كانت. ويضطرَّان إلى تحمُّل نفس العذاب في ظروفٍ أقل. وكانت تلك هي المشكلة. كيف لرجُلٍ تَدوَّق الفقر أن يختار الطريق الأكثر فقرًا؟ والآن أدالين تهمس، كحواء، بجلسة رسم مُحتمَلة للملك. وبرغم أنه سئم من رسم اللوحات الزيتية، وكره نفسه لتخليه الكامل عن شغفه، شعر بالحماس من مجرد الاقتراح.

وضع فرشاته، وفَرَكَ لطفة الطلاء على إبهامه، وكان على وشك المُضيِّ إلى الغداء حينما جذبت حقيبتُه انتباهه. بنظرة مُختلِسة نحو المنزل، سحب الرسومات السريَّة من داخلها. كان يعمل عليها من حينٍ لآخر لأسبوعين حتى الآن، منذ أن عثر بالصدفة على القصة الخيالية لابنة العم إيليزا بين أشياء روز. برغم أنها كُتِبَت للأطفال، سحرته القصة التي تحكي عن الشجاعة والأخلاق. انسلَّت الشَّخصيات إلى عقله وصارت حَيَّةً، وغدَّت حكمتها البسيطة بلسمًا

شافياً لذهنه المضطرب، ولمشاكل المراهقة البغيضة. لقد وجد نفسه في لحظات التثنت يرسم خطوطاً صارت عجوزاً تقف عند عجلة غزل، ومملكة الجنّيات بجديلتها الطويلة الثخينة، والأميرة التي تحوّلت لطائرٍ حبيسةً قفصها الذهبي. وما بدأ شخبطةً صارت الآن رسوماتٍ توضيحية. يعتم درجة الظل، ويرسخ الخطوط، ويبرز ملامح الوجوه. كان يفحصهم سريعاً، مُحاولاً عدم ملاحظة الرقّ البارز الذي ابتاعته روز من أجله في مُستهلّ زواجهما، مُحاولاً عدم التفكير في الأوقات السعيدة.

لم تكن الرسومات مُكتملةً، لكنه كان مسروراً بها. كانت المشروع الوحيد الذي يجلب له السعادة، يلوذ به من ابتلاءات حياته. بدقات قلبٍ مُسرعة، شبك الرسومات أعلى مسند الرسم. بعد الغداء سيرسم ويخطّ بدون هدف كما كان يفعل وهو صبي. عينا اللورد ماكيلباي العابستان يمكنهما الانتظار.



أخيراً، بمساعدة ماري، ارتدت روز ملابسها. ظلّت تجلس على مقعد النقاها طيلة الصباح، لكنها قرّرت في النهاية أن تخرج من غرفتها. متى كانت آخر مرةٍ ترّكت فيها هذه الجدران الأربعة؟ ربما منذ يومين؟ ثلاثة؟ حينما نهضت كادت تسقط. كان رأسها يدور ومعدتها تؤلمها، الأحاسيس المألوفة منذ نعومة أظافرها. حينها كانت إيليزا ترفع من روحها المعنوية بقصصها الخيالية، وحكاياتها التي تستمد مادّتها من الخليج الصغير. لماذا لا يكون دواءً أحزان الكبار بسيطاً هكذا؟

لقد مرّ وقتٌ كبير منذ أن رأت إيليزا. كانت تُراقبها خلسةً من النافذة بين الحين والآخر، وهي تمشي في الحديقة، أو تقف على قِمة الجُرف الصخري، نقطة بعيدة بشعرٍ أحمرٍ طويلٍ يسترسل خلفها.

مرّة أو مرّتان جاءت ماري برسالة تقول إن الأنسة إيليزا كانت بالطابق السفلي تطلب مُقابَلَتَها، لكنّ روز دوّمًا ترفض. إنها تُحبُّ ابنة عمّتها، لكن معرّكتها مع الحزن والأمل استهلكت كلّ طاقتها. كانت إيليزا جريئة، شجاعَةً، مُفعمَةً بالحيوية، والإمكانية، والصّحة. وكان ذلك يفوق احتمال روز.

خفيفةً كشَبَحٍ، سارت روز في الرّدهة المفروشة بالسجاد، يدها تستريح على الحاجز البارز من الجدار لتحفظ توازنها. هذا المساء، حينما يعود ناثانيال من لقائه في قاعة تريمين، سوف تنضمُّ له في مقصورة الحديقة. سوف يكون الجوُّ باردًا بالطبع، لكنها ستطلب من ماري أن تُزوّدَها بملابس ثقيلة، ويمكن لتوماس أن يُحرّك الأريكة، ويجلب بطانية من أجل راحتها. لا بُدَّ وأن ناثانيال وحيدًا هناك، وسيفرح حينما يجدها بجواره مُجددًا. سوف يتمكّن من رسمها وهي مستلقية. يحب ناثانيال أن يرسمها، وكان واجبها كزوجة توفير الراحة لزوجها.

كادت أن تصل إلى الدَّرَج حينما سمعت أصواتٍ تطفو بطول الدّهليز المُعرّض للهواء.

"تقول إنها لن تنبس بكلمة، وأنه أمرٌ لا يخصُّ أحدًا سواها". كانت الكلمات تصحبها ضرباتُ رأسٍ مكنّسةٍ على حافة الحائط.

"لن تسعد السيدة حينما تكتشف الأمر".

"لن تعرف السيّدَةُ شيئًا".

"حينما تنظر إليها ستعرف. الكلُّ يعرف حينما يزداد وزن فتاةٍ حاملٍ".

وَصَعَت روز يَدًا باردة على فمها، وزحفت بهدوء بطول الردهة، لكي تسمع بشكل أوضح.

"تقول إن جميع النساء في عائلتها حملهنَّ ضعيفٌ. سوف تنجح في تخبيته أسفل زيتها الرسمي".

"لنأمل أن تكون مُحققة، وإلا ستطردُ شرَّ طردة".

وصَلت روز إلى أعلى الدَّرَج في الوقت المناسب لترى دايزي تختفي في قاعة الخدم. لكن سالي لم تنجح في الاختباء. شَهَقَت الخادمة، وتخصَّبت وجنتاها خَجَلًا في لطخات غير لائقة. "عذرًا يا سيدتي". انحناءة مضطربة، تشابكت عصا المكينة في جونلتها. "لم أرك".

"عمن كنت تتحدثين يا سالي؟".

امتدت اللطخات الحمراء إلى طرفي أذني الفتاة.

"سالي. أجيبيني. من هي الحُبلى؟".

قالت بهمسٍ: "ماري يا سيدتي".

"ماري؟".

"أجل يا سيدتي".

"ماري حُبلى".

أومات الفتاة سريعًا، خطوط وجهها تصف رغبتها اللحوح في الاختفاء.

"فهمتُ". انفتح ثقب أسود عميق في صدر روز، وهدد بابتلاعها داخله. تلك الفتاة الحمقاء بخصوبتها الشائنة الحقيرة، تتبجح بها أمام الجميع ليروها، بينما تهمس في أذن روز أن كل شيء سيكون على ما يُرام، ثم تسخر منها وراء ظهرها. وهي غير مُتزوِّجة! حسنًا، لن يحدث ذلك في هذا المنزل. لَطالَمَا كانت عِزبة بلاكهرست منزلاً عتيقًا تُراعى فيه الأخلاق والتقاليد. لقد كان الأمرُ متروكًا لروز لتتأكد من مُراعاة العمل بالقواعد.

مَشَّطَت أَدالين شعرها بالفرشاة، ضربة تلو الضربة تلو الضربة. لقد رحلت ماري؛ ممَّا أَدَّى إلى نَقْصٍ في عدد الخادِمات -للأسف-، ومع ذلك يجب تَدبُّر أمرِ غِياب الفتاة حتى تخرج حفلة نهاية الأسبوع القادمة بصورة مُشْرِقة. ورغم أن أَدالين لم تكن تُحَبِّد أن تُتَّخَذَ روز قراراتٍ بخصوص العُمال دون استشارتها، كانت تلك ظروف استثنائية وماري تستحقُّ. هذه الخائنة، غير المُتزوِّجة؛ ممَّا جعل الأمور مشينَةً أكثر. كَلَّا، كانت روز على حَقِّ في حَدْسِها، وقرارها كذلك.

روز العزيزة المسكينة. كان د. ماثيوس قد التقى بأَدالين في مستَهَلَّ الأسبوع، جلس قُبَالَتها في الغرفة الصباحية، وتكلَّم بصوتٍ خفيض كدأبه وقتَ القلق. قال إن روز لم تكن على ما يرام، (كأنَّ أَدالين لا ترى بنفسها)، وهو في غاية القلق عليها.

"للأسف يا ليدي مونتراشيه، مَخاوفي لا تقتصر على ذبولها الواضح. هناك..." سَعَلَ قليلًا في قبضته المُغلَّقة، "أشياء أخرى..."

"أشياء أخرى د. ماثيوس؟" ناوَلته أَدالين فنجان الشاي.

"مَسائِلُ عاطفيَّة يا ليدي مونتراشيه". ابتسم بتكَلُّفٍ وأخذ رشفَةً من الشاي. "حينما استفسرت عن النواحي الجسدية من زواجها، اعترَفَت السَيِّدة وواكر بما يُعْتَبَر، في رأيي المهني، اتجاهاً غيرِ صِحِّيِّ نحو زيادة النَّشاط الجَسديِّ".

شعرت أَدالين برئيتها تَتَسَعان، جَذَبَت نَفْسًا، وأجبرت نفسها على أن تُخْرِجَه بهدوء. تمَنَّت لو تقول أو تفعل شيئًا آخر؛ فقلَّبت قطعةً أخرى من السُّكَّر في فنجانها. بدون أن تلتقي أعينهما أمرته باستئناف كلامه.

"اطمئنِّي يا ليدي مونتراشيه. بالطبع المسألة خطيرة، لكنَّ ابنتكِ ليست الوحيدة. فهناك انتشار كبير للنشاط الجسدي المُفْرِط بين السيدات الشابات حاليًا، وأنا كُليَّ ثقة أنها ستتخلَّص منه مع مرور

الوقت. ما يُقْلِقُنِي أَكْثَرَ هُوَ شَيْءٌ أَنْ هَذِهِ الْمَيُولُ الْجَسَدِيَّةُ لَهَا دَوْرٌ فِي إِجْهَازِهَا الْمُتَكَرِّرِ".

تَنَحَّحَتْ أَدَالِينُ وَقَالَتْ. "اسْتَمِرِّي فِي الْكَلَامِ د. مَائِيوس".

"مَنْ رَأَيْي الطَّبَّيِّ يَجِبُ أَنْ تَكْفَيَّ ابْنَتُكَ عَنْ عِلَاقَتِهَا الْجَسَدِيَّةِ؛ حَتَّى يَجِدَ جَسَدُهَا الضَّعِيفُ الْوَقْتَ الْمُنَاسِبَ لِلِاسْتِشْفَاءِ؛ فَجَمِيعُ الْأُمُورِ مَرْتَبِطَةٌ يَا لِيَدِي مُونْتَرَاشِيَّةِ، جَمِيعُهَا مَرْتَبِطَةٌ".

رَفَعَتْ أَدَالِينُ فَنَجَّاهَا نَحْوَ فَمِهَا، وَتَذَوَّقَتْ مِرَارَةً الْخِزْفَ الصِّينِيَّ. وَأَوْمَاتٌ بِشَكْلِ لَا يَكَادُ يُذَكَّرُ.

"إِنَّ لِلرَّبِّ حِكْمَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَهَذَا يَنْطَبِقُ أَيْضًا عَلَى الْجَسَدِ الْبَشَرِيِّ. مِنَ الْمُنْطَقِيِّ افْتِرَاضُ أَنَّ السَّيِّدَةَ الشَّابَّةَ ذَاتِ... الشَّهْوَةِ الْمُفْرِطَةِ" ابْتَسَمَ مُعْتَذِرًا، وَضَيَّقَ عَيْنَيْهِ، "لَنْ تَكُونَ نَمُودَجًا مِثَالِيًّا لِلْأُمُومَةِ. الْجَسَدُ يَعْرِفُ هَذِهِ الْأُمُورَ يَا لِيَدِي مُونْتَرَاشِيَّةِ".

"هَلْ تَقْتَرِحِ د. مَائِيوسُ أَنَّهُ مَعَ مَحَاوَلَاتٍ أَقَلِّ، رُبَّمَا تَنْجَحُ ابْنَتِي بِشَكْلِ أَكْبَرَ؟".

"اقْتَرَاخٌ يَسْتَحِقُّ النَّظَرَ يَا لِيَدِي مُونْتَرَاشِيَّةِ. بِالإِضَافَةِ إِلَى فَوَائِدِ هَذَا الْإِعْتِدَالِ عَلَى الصَّحَّةِ الْعَامَّةِ وَالْعَافِيَةِ. تَخِيلِي، إِذَا سَمَحْتِ، يَا لِيَدِي مُونْتَرَاشِيَّةِ كُمْ الرِّيحِ".

عَقَدَتْ أَدَالِينُ حَاجِبَيْهَا، وَهِيَ تَتَسَاءَلُ -لَيْسَ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى- لِمَاذَا ظَلَّتْ تَسْتَعِينُ بِالطَّبِيبِ مَائِيوسُ طِيلَةَ هَذِهِ السَّنَوَاتِ.

"لَوْ تُرِكَ كُمْ الرِّيحُ مُعَلَّقًا لِسَنَوَاتٍ، بَدُونِ فُرْصَةٍ لِلرَّاحَةِ أَوْ التَّرْمِيمِ؛ سَوْفَ مُزَّقُّهُ الرِّيحُ الْقَاسِيَةُ حَتْمًا. كَذَلِكَ ابْنَتُكَ يَجِبُ أَنْ تَسْمَحَ بِوَقْتٍ لِلتَّمَاثُلِ لِلشِّفَاءِ. يَجِبُ أَنْ تُحْمَى مِنَ الرِّيحِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي تُهَدِّدُ بِإِهْلَاكِهَا".

مكتبة

t.me/t_pdf

نَحَّتْ أَدالين تشبيه د. ماثيوس جانِبًا، وَفَكَّرَتْ. ثُمَّةً مَنْطِقِ يَتَوَارَى خَلْفَ كَلِمَاتِهِ. كَانَتْ رُوزَ ضَعِيفَةً وَعَلِيلَةً، وَبِدُونِ إِتَاحَةِ الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِلتَّعَافِي لَنْ تَتَوَقَّعَ شِفَاءَهَا بِشَكْلِ كَامِلٍ. وَمَعَ ذَلِكَ اشْتِيَاقَهَا النَّهْمَ لِإِنْجَابِ طِفْلِ أَهْلَكِهَا. تَعَذَّبَتْ أَدالين وَهِيَ تُفَكِّرُ كَيْفَ تُقْنِعُ ابْنَتَهَا أَنْ تَضَعَ صِحَّتَهَا عَلَى قَائِمَةِ أَوْلِيَائِهَا، وَأَخِيرًا أَدْرَكْتَ ضَرُورَةَ تَجْنِيدِ نَاطَانِيَالِ فِي الْمَحَاوَلَةِ. بِالتَّأَكِيدِ سَتَكُونُ الْمُحَادَثَةَ مَعَهُ مُرِبِّگَةً، لَكِنَّ طَاعَتَهُ كَانَتْ أَكِيدَةً. فَخِلَالِ اثْنِي عَشَرَ شَهْرًا الْمَاضِيَةَ، تَعَلَّمَ نَاطَانِيَالُ أَلَّا يَتَعَدَّى حُدُودَهُ مَعَ أَدالين، وَالآنَ، وَاللُّوْحَةَ الْمَلِكِيَّةَ تَلُوحُ فِي الْأَفْقِ، لَيْسَ هُنَاكَ شَكٌّ أَنَّهُ يَرَى الْأُمُورَ مِنْ مَنظُورِهَا.

بِرِغْمِ أَنَّ أَدالين نَجَحَتْ فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَى هَدْوٍ سَاطِعٍ، كَانَتْ تَغْلِي غَضَبًا مِنَ الدَّخْلِ. لِمَاذَا تُرَزِّقُ السَّيِّدَاتِ الْأَخْرِيَاتِ بِالْأَطْفَالِ وَتُحْرَمَ رُوزٌ؟ لِمَاذَا تَمْرُضُ بَيْنَمَا الْأَخْرِيَاتِ قَوِيَّاتٌ؟ إِلَى مَتَى سَيَتَحَمَّلُ جَسَدُ رُوزِ الضَّعِيفِ؟ فِي أَسْوَأِ اللَّحْظَاتِ، تَتَسَاءَلُ أَدالين إِنْ كَانَتْ قَدْ ارْتَكَبَتْ جُرْمًا تُحَاسِبُ عَلَيْهِ ابْنَتَهَا نِيَابَةً عَنْهَا، إِنْ كَانَ الرَّبُّ يُعَاقِبُهَا عَلَى شَيْءٍ مَا. لَقَدْ كَانَتْ مُتَكَبِّرَةً مُتَعَجِّرِفَةً، تَتَبَاهَى بِمَلَاخَةِ رُوزِ وَجَمَالِهَا، وَأَسْلُوبِهَا الرَّاقِي، وَطَبِيعَتِهَا الْعَذْبَةَ. مَا أَقْسَى أَنْ يَكُونَ الْعِقَابُ رُؤْيَا طِفْلِكَ الْمَحْبُوبِ يَتَعَذَّبُ؟

وَالآنَ، مَارِي، تِلْكَ الْفَتَاةُ الْبَغِيضَةُ السَّلِيمَةُ، بِوَجْهِهَا الْعَرِيضِ اللَّامِعِ، وَشَعْرُهَا الْمَعْقُوصِ، هِيَ الَّتِي تَحْمَلُ طِفْلًا! طِفْلٌ غَيْرٌ مَرْغُوبٍ، بَيْنَمَا أُخْرَى لَا تَحْمَلُ أَبَدًا. هَذَا لَيْسَ عَدْلًا. لَا عَجَبُ أَنْ رُوزُ غَضِبَتْ؛ كَانَتْ دُورِهَا هِيَ. هَذِهِ الْأَنْبَاءُ السَّعِيدَةُ كَانَتْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مِنْ نَصِيبِهَا هِيَ. كَانَتْ يَجِبُ أَنْ يُزَفَّ نَبَأُ الْحَمْلِ إِلَى رُوزِ، وَلَيْسَ مَارِي.

لَوْ كَانَتْ هُنَاكَ طَرِيقَةٌ لَمَنْحِ رُوزِ طِفْلًا بِدُونِ ثَمَنِ جَسَدِيٍّ. كَانَتْ ذَلِكَ مُسْتَحِيلًا بِالطَّبْعِ. سَوْفَ تَصْطَفُ النِّسَاءُ فِي طَوَابِيرٍ لَوْ تَوَاجَدَتْ تِلْكَ الطَّرِيقَةَ...

توقفت أدالين عن تمشيط شعرها. ونظرت إلى انعكاسها لكنها لم تر شيئاً. غاب ذهنها في مكان آخر، يفكر في الصورة المشوشة لفتاة موفورة الصحة بدون غريزة أمومة، بجانب امرأة حساسة ذات جسد ضعيف...

وضعت الفرشاة. وضغطت يديها الباردتين على جحرها.

هل يمكن تشريع التجاوزات؟ لن يكون الأمر سهلاً. أولاً، يجب إقناع روز أن الأمر لصالحها. ثم إقناع الفتاة بأن ذلك كان واجبها. إنها تدين بذلك لعائلة مونتراشيه، بعد كل تلك السنين الطويلة من المعاملة الحسنة.

الأمر صعب بالتأكيد. لكن ليس مستحيلاً.

ببطء نهضت أدالين. وضعت الفرشاة بحفة على منضدة التزيين. وعقلها ما زال يشحذ الفكرة، شرعت تمشي في الردهة نحو غرفة روز.

كان السكين مفتاح تطعيم الورد. قال ديفيس إن الشفرة يجب أن تكون حادة للغاية لدرجة أنها يمكن أن تزيل شعر الساعد. وجدته إيليزا في الدفيئة، ورحب بمساعدتها في النباتات الهجينة التي كانت تخطط لزراعتها في الحديقة. أراها أين تُصنع القطع، وكيف تتأكد من عدم وجود شظايا أو نتوءات أو عيوب تمنع الطعم من الارتباط بالسلسلة الجديدة. في النهاية، مكثت طيلة الصباح وساعدت في نقل النباتات في الأوعية من أجل فصل الربيع. شعرت بمتعة وهي تغطس يديها في الأرض الساخنة، وأطراف أصابعها تتلمس إمكانيات فصل جديد.

حينما غادرت، سارت عائدة في الطريق الطويل. كان يوماً بارداً، ومرت سحُب قليلة بسرعة في السماء. تذوقت النسيم المنعش على

وجهها بعد يومها في الدفيئة الحارة. كانت قريبة جدًا من المنزل، وتحوّلت أفكارها كما تفعل دَوْمًا إلى ابنة خالها. أخبرتها ماري أن روز كانت حزينة ومعنوياتها متدنّية. وبرغم أن إيليزا علّمت أنهم لن يسمحوا لها بالدُخول، لم تَحْتَمِلْ أن تكون قريبةً لهذا الحدّ من المنزل دون مُحاوَلَة. قَرَعَت الباب الجانبي وانتظرت حتى انفتح.

"طابَ يومك يا سالي. جيئتُ لزيارة روز".

"لا يُمكنك يا آنسة إيليزا" قالت سالي وعلى وجهها تعبير مُتَجَهِّم. "السيدة وواكر مشغولة ولا تستقبل الضيوف" كانت تتكلّم كأنها تستظهر درسًا حفظته.

"برَبِّك يا سالي" قالت إيليزا وهي تُحاوِلُ الابتسام. "أنا لستُ ضَيْفَة. أنا واثقة لو أخبرت روز أنني هنا...".

من الظلال، جاء صوت أداين. "سالي مُحِقَّة تمامًا. السيدة وواكر مشغولة". خرّجت الساعة الرملية الدّاكِنَة إلى النور. "نحن على وشك تناول الغداء. لو حرّصتِ على تَرْكِ بطاقة زيارة، ستضمن سالي أن تعرفِ السَيِّدَة وواكر أَنَّكِ طَلَبْتِ مُقَابَلَتِهَا".

كان رأس سالي مَحْنِيًّا ووجنتها مُحَمَّرَتَيْن. لا ريب أن مَمَّة ارتبّاغًا قد حدث بين الخَدَم وإيليزا ستسمع عنه من ماري لاحقًا. بدون ماري وتقاريرها المنتظمة، لن تعرف إيليزا ما يحدث في المنزل.

"ليس معي بطاقة. فَقَطِ خَبْرِي روز أنني جيئتُ لزيارتها يا سالي. إنها تعرف أين تجدني" قالت إيليزا.

بإمَاءَةٍ بِاتِّجَاهِ زوجة خالها، انطلَقَتِ إيليزا مُجَدِّدًا على المَرَج، وتوقَّفت مرَّةً واحدةً للتحديق في نافذة غرفة نوم روز الجديدة، حيث ضوء الربيع المُبَكِّرُ أحال السطح إلى اللون الأبيض. ارتجَعَتِ وأفكارها

تتحوّل إلى سِكِّين التّطعيم، وكيف يمكن للنّصل الحادّ أن يفصل بهدوء الثّبات حتى أنه لا يوجد دليل على رابطةٍ سابقة.

كانت الشمس تفتّرش المَرَج، حينما بلّغَت إيليزا مقصورة الحديقة. كانت مُعدّات ناثانيال الخاصة بالرسم منصوبةً بالداخل كعادتها منذ ثلاثة أيام. لم يكن موجوداً، ربما ذهب إلى الداخل للغداء، لكن عمله مَترُوكٌ على مسندِ الرّسم...

هرَبَت أفكارُ إيليزا.

الرسوم المَثبّتة على قِمة مسند الرسم واضحةٌ بلا شكّ.

راوَدَها شعورٌ غريب بالعزل وهي ترى خيالاتها تتجسّد على أرض الواقع. شخصيات، تنتمي إلى مملكة عقلها، تتحوّل إلى صُورٍ كما لو كان بالسحر. مرّت أسفل جِلدها مَوْجَةٌ غير مُتوقّعة، ساخنة وباردة في آنٍ واحد. اقتربت أكثر، وصعدت دَرَج المَقصورة، وتفحصت الرسومات. لم تتمالك نفسها فابتسمت. كانت مثل اكتشاف صديقٍ خياليٍّ تجسّد في الواقع. كانت مُماثلَةً لما تصوّرتَه في مُخيّلَتها حتى أنها تعرّفت عليها على الفور، ومع ذلك كانت مُختلّفةً بعض الشيء. أدركت أن يده كانت أكثر إظلاماً من ذهنها، وأحبّت ذلك. بدون تفكير، انتزعَها.

أسرَعَت عابِدةٌ بطول المتاهة، ثم عَبَرَت حديقَتها، ودخلت من الباب الجنوبي، تتأمّل طوال الطريق الرسوم وتُقلّبها في ذهنها. تتساءل متى رسمها، ولماذا، وماذا ينوي أن يفعل بها. حينما علّقت معطفها وقُبِعَها في مدخل الكوخ تحوّلت أفكارها إلى الخطاب الذي تلقّته مؤخّراً من الناشر في لندن. أثنى السيّد هوبينز على قصصها، وقال إن ابنته الصغيرة تنتظر حكاياتها بفارغ الصبر. ثم اقترح عليها التفكير في نشر مجموعة مُزوّدة برسوماتٍ، وأنه في انتظارها لو حان الوقت.

شعرت إيليزا بالإطراء لكنها لم تقتنع؛ فلسببٍ ما لم تتطوّر الفكرة في خيالها. لكن الآن، بعدما رأت رسومات ناثانيال، أحسّت أنها تتصوّر

وجود هذا الكتاب، بل ويمكنها الشعور بثقله في يديها. نسخة مربوطة تحوي قصصها المفضلة، مُجلّد للأطفال يُحدّقون به. مثل الكتاب الذي اكتشفتَه منذ سنواتٍ بعيدةٍ في محلّ خردوات آل سويندل.

ورغم أن خطاب السيد هوبينز لم يكن واضحًا حوّل المكافأة، بالتأكيد توقّعت إيليزا أن تكون الأموال أكثر مما تلقتَه حتى الآن؛ فكتابٌ بأكمله لا بُدَّ وأنه يساوي أكثر من قصةٍ واحدة. وهكذا ستمكّن من تدبير الأموال الكافية للإبحار...

طَرَقَةٌ عَنيفَةٌ عَلَى الْبَابِ جَذَبَتْ انْتِبَاهَهَا.

دفعت إيليزا جانبًا الشُّعورَ اللا عقلاي أنه كان ناثانيال، الذي ستره ينتظرها على الجانب الآخر، جاء من أجل رسوماته. بالتأكيد لم يَكُن هو. لم يَأْتِ قَطُّ إِلَى الْكُوخِ، بِجَانِبِ أَنَّهُ سَيَسْتَغْرِقُ سَاعَاتٍ قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَ أَنَّهَا مَفْقُودَةٌ. عَلَى كُلِّ حَالٍ، طَوَّهْتُمْ إِيلِيزَا وَوَضَعْتَهُمْ دَاخِلَ جَيْبِ مَعْطَفِهَا. فَتَحَتِ الْبَابَ. وَوَجَدَتْ مَارِي وَاقِفَةً هُنَاكَ، وَخَدَّاهَا مُلْطَخَانَ بِالْدموعِ.

"أرجوكِ يا آنسة إيليزا ساعديني".

"ما الأمر يا ماري" قادت إيليزا الفتاة إلى الداخل، وهي تنظر من فوق كتفها قبل أن تُغْلِقَهُ مُجَدِّدًا. "هل أصابك مكروهٌ؟".

"كلًا يا آنسة إيليزا" شَهَقَتْ ثُمَّ قَالَتْ "ليس الأمر كذلك".

"أخبريني إذن، ماذا حدث؟".

"إنها السيدة وواكر".

"روز؟" دَقَّ قَلْبُ إِيلِيزَا.

"لقد طَرَدْتَنِي" جَذَبَتْ مَارِي نَفْسًا مِنْ بَيْنِ دَمُوعِهَا. "أخبرتني أن أتركَّ العمل فورًا".

شعرت بالرَّاحَةِ لِعَدَمِ إصَابَةِ رُوزِ بِأَذَى، لَكِنهَا دُهِشَتْ. "لَكِن لِمَاذَا يَا مَارِي؟".

تَهَاوَتْ مَارِي عَلَى الْمَقْعَدِ، وَمَسَحَتْ ظَهْرَ مَعْصَمِهَا عَلَى عَيْنَيْهَا. "لَا أُدْرِي كَيْفَ أُخْبِرُكَ بِهَذَا يَا آنَسَةَ إِيلِيْزَا".

"إِذْنِ تَكَلِّمِي بِوُضُوحٍ يَا مَارِي. أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تُخْبِرَنِي مَاذَا حَدَثَ بِحَقِّ السَّمَاءِ".

بَدَأَتْ دَمُوعٌ جَدِيدَةٌ تَسِيلُ. "إِنِّي حُبَلَى يَا آنَسَةَ إِيلِيْزَا. سَوْفَ أَنْجِبُ طِفْلاً، وَبِرَغْمِ أَنَّي أَخْفَيْتُ الْأَمْرَ، عَرَفْتَ السَّيِّدَةَ وَوَاكِرَ، وَالْآنَ تَقُولُ أَنَّهُ لَا مَكَانَ لِي بِالْمَنْزَلِ".

"أُوهِ مَارِي" قَالَتْ إِيلِيْزَا وَهِيَ تَغُوصُ إِلَى الْمَقْعَدِ الْآخَرَ، وَتُمْسِكُ يَدَيْ مَارِي. "هَلْ أَنْتِ وَاثِقَةٌ مِنْ هَذَا الْحَمْلِ؟".

"لَا شَكَّ هُنَاكَ يَا آنَسَةَ إِيلِيْزَا. لَمْ أَقْصِدُ أَنْ يَحْدُثَ، لَكِنهُ حَدَثَ".

"وَمَنْ يَكُونُ الْأَبُ؟".

"رَجُلٌ يَعِيشُ فِي الشَّارِعِ الْقَرِيبِ مِنْ شَارِعِنَا. أَرْجُوكِ يَا آنَسَةَ إِيلِيْزَا، لَيْسَ رَجُلًا سَيِّئًا، وَيَقُولُ إِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي، لَكِنِّي أَحْتَاجُ إِلَى أَنْ أَكْسِبَ بَعْضَ النُّقُودِ أَوَّلًا، وَإِلَّا لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ طَعَامٌ أَوْ كَسْوَةٌ مِنْ أَجْلِ الطِّفْلِ. لَا يُمْكِنُ أَنْ أَفْقِدَ وَظِيفَتِي، لَيْسَ بَعْدُ يَا آنَسَةَ إِيلِيْزَا، أَعْرِفُ أَنْ يُمْكِنَ الْقِيَامُ بِهَا جَيِّدًا".

كَانَ وَجْهُ مَارِي يَأْتِسُّ، حَتَّى إِنْ إِيلِيْزَا لَمْ يَكُنْ أَمَامَهَا سِوَى أَنْ تَقُولَ: "سَأَفْعَلُ مَا بَوَسَعِي".

"هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَحَدَّثِي مَعَ السَّيِّدَةِ وَوَاكِرِ".

جَلَبَتْ إِيلِيْزَا كُوبَ مَاءٍ مِنَ الْإِبْرِيْقِ وَنَاوَلَتْهُ إِلَى مَارِي. "سَأُحَاوِلُ". رَغْمَ أَنَّكَ تَعْلَمِينَ مِثْلَمَا أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ الْحَصُولَ عَلَى مِقَابِلَةٍ مَعَ رُوزِ".

"أرجوكِ يا آنسة إيليزا، أنتِ أملي الوحيد".

ابتَسَمَتِ إيليزا بالثِّقَّة التي لم تشعر بها. "سننتظر أيامًا قلائل، وقتًا مناسبًا كي تهدأِ روز، ثم سأحدِّث معها نيابةً عنكِ. أنا واثقة من أني سأقنعها".

"شكرًا لكِ يا آنسة إيليزا. تعلمين أنني لم أرغب في حدوث هذا. لقد ارتكبت خطأً جسيمًا. أتمنئ لو يعود بي الزمن ولا أفعل ذلك".

"جميعنا نتمنئ حدوث ذلك أحيانًا. اذهبي إلى المنزل الآن يا عزيزتي ماري، ولا تقلقي. أنا واثقةٌ أننا سنجد حلاً. سأرسلُ لكِ خطابًا بعدما أتحدِّث مع روز".

قَرَعَت أدالين بخفَّةِ بابِ غرفة النوم وفتحتها. كانت روز جالِسةً على مقعد النافذة، انتباهها مُركَّزٌ على الأرض أسفلها. ذراعها ضئيلتان، ووجهها هزيلٌ. بَدَتِ الغرفة تتعاطفُ مع صاحبتهَا، الحشايا مُسطَّحة، والستائر تسترخي في يأسٍ، حتى الهواء بدا راكِدًا في تياراتٍ من الضوء الضعيف. لم تُبَدِ روز أيَّ إشارةٍ لملاحظتها أو اهتمامها بالتطُّفل؛ لذا ذَهَبَتِ أدالين لتقف وراءها. نظرت عبر النافذة لترى ما يستأثر باهتمام ابنتها. كان ناثانيل جالسًا إلى مسند الرِّسم في المقصورة، يُنقَب في حقيبته الجليديَّة. كان هناك انفعالٌ في طريقته، كأنه فَقَدَ شيئًا مهمًّا. "سوف يَتْرُكُنِي يا أمي" صوت روز كان شاحِبًا كضوء الشمس. "فلماذا يظلُّ معي؟".

التفتت روز وحاوَلت أدالين ألا تَدَعَ وجهها يعكس حالة ابنتها القائمة المُفْرِعة. وَصَّعَت يَدَهَا على كتف روز النَحيل. "سوف تكون الأمور على ما يُرام يا عزيزتي روز".

"حقًا؟".

كانت نَبْرَةٌ صَوْتَهَا قَاسِيَةً حَتَّى أَنْ أَدَالِينَ أَجْفَلْتِ. "بِالطَّبْعِ".

"لَا أَظُنُّ ذَلِكَ. فَأَنَا عَاجِزَةٌ عَنْ أَنْ أَجْعَلَ مِنْهُ رَجُلًا. مَرَّةً تَلُو الأُخْرَى أَفْشَلُ فِي مَنْحِهِ وَرِيثًا، طِفْلًا مِنْ صُلْبِهِ". التَّفَتَّتْ رُوزَ إِلَى النَافِذَةِ مُجَدِّدًا. "بِالطَّبْعِ سِيرِحَل. وَبِدُونِهِ سَوْفَ أَنْزُوي إِلَى لَاشِيءٍ".

"لَقَدْ تَحَدَّثْتُ مَعَ نَاطَانِيَالِ يَا رُوزَ".

"أُمِّي...".

رَفَعَتْ أَدَالِينَ أَصْبَعًا نَحْوَ شَفَتَيْ رُوزَ. "تَحَدَّثْتُ مَعَ نَاطَانِيَالِ وَأَنَا وَاثِقَةٌ أَنَّهُ -وَأَنَا أَيْضًا- لَا نَرِيدُ سِوَى أَنْ تَسْتَرِدِّي عَافِيَتَكَ. سَتُنَجِّبِينَ الأَطْفَالَ حِينَما تَكُونِينَ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ تَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ. امْنَحِي نَفْسَكَ الوَقْتَ لِاسْتِعَادَةِ الصِّحَّةِ".

كَانَتْ رُوزَ تَهَزُّ رَأْسَهَا، وَعُنُقُهَا كَانَ نَحِيلاً لِلغَايَةِ، حَتَّى أَنْ أَدَالِينَ أَرَادَتْ أَنْ تَمْنَعَهَا خَشِيَّةً أَنْ تَوْذِي نَفْسَهَا. "لَا يُمْكِنُنِي الْإِنْتِظَارُ يَا أُمِّي. بَدُونَ طِفْلٍ لَا يُمْكِنُنِي المُضِي قُدَمًا. سَأَفْعَلُ أَي شَيْءٍ مِنْ أَجْلِ الحِصُولِ عَلَى طِفْلٍ، حَتَّى لَوْ كَانَ الثَّمَنُ حَيَاتِي. إِنِّي أَفْضَلُ المَوْتَ عَلَى الْإِنْتِظَارِ".

جَلَسَتْ أَدَالِينَ بِهَدْوٍ عَلَى مَقْعَدِ النَافِذَةِ، وَأَمْسَكَتْ يَدِي ابْنَتَهَا الشَاحِبَتَيْنِ. "لَنْ تَصِلَ الأُمُورُ إِلَى هَذَا الحَدِّ".

نَظَرَتْ رُوزَ إِلَى أَدَالِينَ بَعِينِينَ مُتَّسِعَتَيْنِ، رَفَرَفَتْ دَاخِلَهُمَا بَارِقَةٌ أَمَلٍ؛ أَنْ أُمَّهَا سَتُعِيدُ الأُمُورَ إِلَى نِصَابِهَا الصَّحِيحِ.

"أَنَا أُمُّكَ وَمَنْ وَاجِبِي الِاعْتِنَاءَ بِصِحَّتِكَ، حَتَّى لَوْ لَمْ تَرِيدِي ذَلِكَ؛ لَذَا فَكَّرْتُ كَثِيرًا فِي مِحْنَتِكَ. وَأَظُنُّ أَنَّ هُنَاكَ طَرِيقَةً كِي تَحْصِلِي عَلَى طِفْلٍ دُونَ تَعْرِيزِ نَفْسِكَ لِلخَطَرِ".

"أُمِّي؟".

"رُبَّمَا يُصِيبُكَ التَّرْدُّدُ فِي الْبَدَايَةِ، لَكِنْ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تُتْلِيَ الشُّكُوكَ جَانِبًا"، ثُمَّ أَخْفَضَتْ صَوْتَهَا. "أَرْجُو أَنْ تُصْغِي بِحَرِصٍ يَا رُوزَ لِكُلِّ مَا سَأَقُولُهُ".

فِي النِّهَايَةِ، كَانَتْ رُوزَ هِيَ مَنْ زَارَتْ إِيلِيزَا. بَعْدَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ مِنْ زِيَارَةِ مَارِي، تَلَقَّتْ إِيلِيزَا خَطَابًا تَطْلُبُ فِيهِ رُوزَ أَنْ تُقَابِلَهَا. وَالْأَكْثَرُ إِثَارَةٌ لِلدَّهْشَةِ، أَنَّ خَطَابَهَا يَقْتَرِحُ الْمَقَابَلَةَ فِي الْحَدِيقَةِ السَّرِّيَّةِ.

عِنَّمَا رَأَتْ إِيلِيزَا ابْنَةَ خَالِهَا، شَعُرَتْ بِالسَّرُورِ لِأَنَّهَا أَحْضَرَتْ الْحَشَايَا لِلْمَقْعَدِ الْحَدِيدِيِّ. فَقَدْ كَانَتْ رُوزَ فِي أَسْوَأِ حَالٍ. لَقَدْ لَمَّحَتْ لَهَا مَارِي تَدَّهْوَرُ صِحَّتِهَا، لَكِنْ إِيلِيزَا لَمْ تَتَّصُورْ قَطُّ أَنَّهَا انْتَهَتْ إِلَى هَذَا التَّدَّهْوَرِ الشَّدِيدِ. وَبِرْغَمِ أَنَّهَا حَاوَلَتْ أَلَّا تَبْدُو مَصْدُومَةً، عَرَفَتْ أَنَّهَا فَشَلَتْ.

"أَنْتِ مُنْذَهَشَةٌ مِنْ مَظْهَرِي يَا ابْنَةَ الْعَمَّةِ" قَالَتْ رُوزَ وَهِيَ تَبْتَسِمُ حَتَّى أَنْ عِظَامَ وَجَنَّتَيْهَا تَحْوَلْتَا إِلَى نَضَلَيْنِ.

"كَلَّا عَلَى الْإِطْلَاقِ" قَالَتْ إِيلِيزَا بِسُرْعَةٍ. "بِالطَّبْعِ لَا، أَنَا فَقَطْ، وَجْهِي...".

"أَنَا أَعْرِفُكَ جَيِّدًا يَا إِيلِيزَا. يُمَكِّنُنِي قِرَاءَةَ أَفْكَارِكَ كَأَنَّهَا أَفْكَارِي. لَا بَأْسَ. كُنْتُ مَرِيضَةً وَضَعِيفَةً. لَكِنِّي سَأَسْتَعِيدُ صِحَّتِي مِثْلَمَا أَفْعَلُ دَوْمًا".

أَوْمَأَتْ إِيلِيزَا، وَشَعُرَتْ بِوَخْزِ إِبْرَةٍ سَاخِنَةٍ خَلْفَ عَيْنِهَا.

ابْتَسَمَتْ رُوزَ ابْتِسَامَةً حَزِينَةً لِمُحَاوَلَتِهَا الظُّهُورَ بِمَظْهَرِ الْوَائِقَةِ. "تَعَالِي"، وَأَشَارَتْ "اجْلِسِي بِجَانِبِي يَا إِيلِيزَا. هَلْ تَتَذَكَّرِينَ الْيَوْمَ الَّذِي جَلَبْتُنِي فِيهِ إِلَى الْحَدِيقَةِ السَّرِيَّةِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَزَرَعْنَا سَوِيًّا شَجَرَةَ التَّفَاحِ؟".

أَمَسَّكَتْ إِيلِيْزَا يَدَ رُوْزِ النَّحِيْلَةِ. "بِالطَّبْعِ أَتَذْكَرُ. انظُرِي إِلَيْهَا الْآنَ يَا رُوْز، انظُرِي إِلَى الشَّجَرَةِ".

كَانَ الْجَذْعُ قَدْ مَآ حَتَّى وَصَلَتْ الشَّجَرَةُ الْآنَ إِلَى أَعْلَى السُّورِ تَقْرِيْبًا. غُصُونُ رَشِيْقَةٍ بِلَا أَوْرَاقٍ اَمْتَدَّتْ إِلَى جَمِيْعِ الْاِتْجَاهَاتِ، وَكَانَتْ فُرُوعُهَا الْمَرْنَةُ تُشِيرُ إِلَى السَّمَاءِ.

"إِنَّهَا جَمِيْلَةٌ" قَالَتْ رُوْزُ بِحُزْنٍ. "كُلُّ مَا اِحْتَجْنَا فِعْلَهُ هُوَ زِرَاعَتُهَا فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ قَامَتْ بِعَمَلِ الْبَاقِي".

اِبْتَسَمَتْ إِيلِيْزَا بِرَفْقَةٍ. "إِنَّهَا تَفْعَلُ فَقَطْ مَا تُمْلِيهِ عَلَيْهَا الطَّبِيْعَةُ".

عَضَّتْ رُوْزُ شَفَتَيْهَا، تَرَكَتْ عِلَامَةً حُمْرَاءَ. "الْجُلُوسُ هُنَا يَجْعَلُنِي أَشْعُرُ أَنَّيْ أَعُودُ مُجَدِّدًا إِلَى الثَّامِنَةِ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِي، وَعَلَى وَشْكَ الْاِنْتِلَاقِ إِلَى رِحْلَتِي إِلَى نِيُويُورْكَ. مُمْتَلِئَةٌ بِالْحِمَاسِ وَالتَّرَقُّبِ". اِبْتَسَمَتْ لِإِيلِيْزَا. "يَبْدُو أَنَّهُ مَرَّ دَهْرٌ مِنْذُ أَنْ جَلَسْنَا مَعًا، أَنَا وَأَنْتِ فَقَطْ، مِثْلَمَا كُنَّا نَفْعَلُ وَنَحْنُ طِفْلَتَانِ".

مَوْجَةٌ مِنَ الْحَنِينِ طَرَدَتْ عَامًّا مِنَ الْغِيْرَةِ وَالْخَيْبَةِ. ضَغَطَتْ إِيلِيْزَا عَلَى يَدِ رُوْزِ بِاِحْكَامٍ. "لَقَدْ مَرَّ وَقْتُ طَوِيْلٍ حَقًّا يَا ابْنَةَ الْخَالِ".

سَعَلَتْ رُوْزُ قَلِيْلًا، وَارْتَجَفَ جَسَدُهَا الْهَشُّ مِنَ الْمَجْهُودِ. كَانَتْ إِيلِيْزَا عَلَى وَشْكَ تَقْدِيْمِ شَالٍ لِكِتْفَيْهَا حِيْنَمَا اسْتَأْنَفَتْ رُوْزَ حَدِيثَهَا: "هَلْ وَصَلْتِكِ أَيُّ اْأَخْبَارِ مِنَ الْمَنْزَلِ مُؤَخَّرًا؟".

أَجَابَتْ إِيلِيْزَا بِحُرْصٍ، مُنْدَهَشَةً مِنَ التَّغْيِيْرِ الْمَفَاجِئِ لِلْمَوْضُوعِ. "زَارْتَنِي مَارِي".

"إِذْنًا أَنْتِ تَعْلَمِيْنَ"، وَنَظَرَتْ إِلَى عَيْنَيْهَا لِهَيْبَةٍ قَبْلَ أَنْ تَهَزَّ رَأْسَهَا بِحُزْنٍ. "لَمْ تَتْرُكِي لِي خِيَارًا آخَرَ يَا ابْنَةَ الْعَمَّةِ. أَعْلَمُ أَنَّكُمْ صَدِيْقَتَانِ، لَكِنْ بَقَاءَهَا فِي بِلَاكَهْرَسْتِ بَتَلِكِ الْحَالَةِ كَانَ أَمْرًا غَيْرَ وَارِدٍ. لَا بُدَّ وَأَنْ تَفْهَمِي ذَلِكَ".

"إنها فتاة طَيِّبة ومُخْلِصة يا روز" قالت إيليزا بِرِقَّةٍ. "لا أنكر أنها تَصَرَّفَت بتهوُّر. لكن بالتأكيد يُمكنك أن تُسامِحِها؟ إنها بدون دَخَلٍ، والطفل سيكبر وسيكون بحاجة إلى مُتَطَلِّبات. من فضلك فَكِّرِي في ماري يا روز. تَخَيَّلِي مِحْنَتَهَا".

"أوْكَدْ لِكِ، لم يكن يَشْغَلُ ذهني سوى هذا الموضوع".

"إذن ربما ستعيدين...".

"هل رَغَبْتِ يَوْمًا في شيء يا إيليزا، شيء تَمَنِّيْتِه بشِدَّةٍ، حتى أنه بدونه لا تستطيعين العيش؟".

فَكَّرَتِ إيليزا في رحلتها البحرية المُتَخَيَّلَةَ، وَحُبَّهَا لسامي، واحتياجها لروز.

"لا أريد في حياتي سوى طفلٍ. قلبي يتمرِّقُ، وذراعاي تتوقان لاحتضان طفل. أحيانًا أشعر بثِقَلِه وأنا أهدِهْهُ. الرأس الدافئ على ساعِدَيَّ".

"وبالتأكيد يومًا ما...".

"أجل، أجل. يومًا ما" ابتسامة روز الشاحبة تناقَضت مع كلماتها المُتَفَائِلَةَ. "لكنني حاولتُ، وبلا جدوى لفترةٍ طويلة. اثنا عشر شهرًا يا إيليزا. اثنا عشر شهرًا، والطريق كان مليئًا بالخيبة والرفض. الآن د. ماثيوس يقول إن صِحَّتِي لن تَتَحَمَّل. يجب أن تَتَخَيَّلِي يا إيليزا شعوري وأنا أعرف سِرَّ ماري الصغير. أن يَحْدُثَ لها بالصدفة الشيء الذي أتحرقُ إليه. بدون أن تبذل تَضَحِيَّاتٍ، ستحصل على ما حُرِمْتُ أنا منه برغم كلِّ تَضَحِيَّاتي. بالتأكيد ترين أنه ليس عدلًا؟ بالتأكيد الرَّبُّ لم يُحَطِّطْ عشوائيًا هَدْيَيْنِ الحَدَثَيْنِ المُتَنَاقِضَيْنِ؟".

كان أَلْمُ روز في ذروته، ومظهرها الضَّعيف يتناقض مع رغبتها الشَّرِسة، حتى أن مصير ماري كان الأقلَّ في اهتمامات إيليزا، فقالت: "كيف يُمكنني أن أساعدك يا روز؟ أخبريني، ماذا عليَّ أن أفعل؟".

"هناك شيء يا ابنة عمَّتي أحتاج منك أن تفعله لأجلي، شيء سيضُبُّ في مصلحة ماري أيضًا".

أخيراً أدركت روز أنها تحتاج لها، وأنها وحدها من يُمكنها أن تُساعدَها.

قالت إيليزا: "بالطَّبَع يا روز. أيَّ شيءٍ. أخبريني ماذا تحتاجين وسوف أنفِّذه".

(40)

تريجيننا، 2005

في وقتٍ مُتأخِّرٍ من ليلة يوم الجمعة، طَلَّ الضَّبَابُ عَابِسًا بِلَوْنِ رماديٍّ على القرية، وظلَّ كذلك طيلة اليوم التالي. اعتزمت كساندرا إراحة جَسَدِهَا المُتَعَبِ، وعدم الذهاب إلى الكوخ. قَضَت يوم السبت مُتَكَوِّرَةً في حُجْرَتِهَا بجانبها أقداح الشاي ومُفَكَّرَةٌ نيل، مُتَحَمِّسَةً برواية جَدَّتِهَا عن المُحَقِّق الخاص الذي استشارته في ترورو، رجلٌ يُدعى نيد موريش، انتزعت اسمه من دليل أرقام الهاتف المحلي، بعدما نصحتها ويليام مارتن بالعثور على مكان اختفاء إيليزا في عام 1909، وحينها ستحلُّ اللغز.

في يوم الأحد التقت بچوليا لتناولِ شاي الظهيرة. ظلَّ المطر يهطل بثباتٍ طوال الصباح، لكن في الأصيل تضاءلَ إلى رذاذٍ خفيف، وسكن الضباب الفراغات. عبر النوافذ المزوّدة بقضبان، رأت كساندرا المَرَجَ الأخضرَ مُخَضَّلًا بالماء، وكان الضباب يلفُّ كُلَّ شيء، وأحيانًا تظهر فروعٌ

عاريّةٌ مثل كسورٍ رفيعة في جدار أبيض. ابتسمت كساندرا وهي تتذكّر أن نيل كانت تُحبُّ هذا الطقس؛ كان الحماسُ يدبُّ في أوصال جدّتها؛ فتسحب معطفها الواقى من المطر وحذاءها المطاطي. ربما كان إرث نيل في أعماقها يُناديها.

اتّكأت على حشايا المقعدِ ذي الذراعين وراقبت اللهب يتأجج في المدفأة. كان النزلاء يتناثرون في جوانب غرفة الجلوس، بعضهم يلعب ألعاباً مُمِلَّةً، وآخرون يقرؤون أو يأكلون، وقد ضجّت الغرفة بأصوات خفيفة مريحة تبعث على الدفء والجفاف.

وضعت جوليا ملء ملعقة من الكريمة في الكعكة المحمّلة بمربي الفاكهة وقالت: "لماذا هذا الاهتمام المفاجئ بجدار الكوخ؟".

أحاطت أصابع كساندرا بالقدح الدافئ وقالت: "ظنّنت نيل أنها لو اكتشفت أين ذهببت إيليزا في عام 1909، ستعرف حلّ لغزها".
"ولكن ما علاقة هذا بالجدار؟".

"لا أعلم، ربما ليس هناك علاقة. لكن ثمة شيء في كتب قصاصات روز يجعلني أفكّر".
"أي جزء؟".

"مدخل في إبريل من عام 1909 يبدو أنه يربط بين رحلة إيليزا وبناء الجدار".

لَعَقَت جوليا الكريمة من على طرف إصبعها وقالت: "تذكّرتُ. كُتبت أنها حَذِرَةٌ لأنه حينما يوجد مَكْسَبٌ، يوجد أيضًا الكثير من الخسارة".

"بالضبط. ليتني أعلم ماذا كانت تقصد".

عَضَّتْ چوليا على شَفَتِهَا وهي تقول: "كيف تجرؤ على عَدَمِ الإسهاب في التفاصيل، وتترك الذين يقرؤون كلماتها بعد تسعين عامًا تقريبًا مُتَخَبِّطِينَ!".

ابْتَسَمَتْ كساندرا بشرود، وأخذت تلعب بخيطٍ مَحْلُولٍ من ذراع المقعد. "لكن لماذا قالت ذلك؟ ما الذي كانت ستكسبه، وما الذي خَشِيتِ خَسَارَتَهُ؟ وما علاقة ذلك بتأمين الكوخ؟".

أخذت چوليا قضمَةً من الكعكة وَمَضَعَتْهَا على مَهْلٍ، مفكَّرَةً. ثم مسحت شفيتها بمنديل المائدة الخاص بالفندق. "ألم تكن روز حُبْلَى وقتذاك؟".

"بلى، طَبَقًا لِلْمُدْخَلِ فِي كِتَابِ الْقِصَاصَاتِ".

"إذن ربما كان السبب هو الهرمونات. ألا يحدث ذلك؟ تصير مُتَقَلِّبَةً وانفعالية؟ ربما كانت تفتقد إيليزا وتخشى أن يسرق أحدهم الكوخ أو يُخْرِبَهُ. ربما شعرت بالمسؤولية تجاهه. كانت الفتاتان مَقْرَبَتَيْنِ لهذه الدرجة".

فَكَّرَتْ كساندرا في ذلك. ربما يُفَسِّرُ الحَمْلُ بعضَ تَقَلُّبَاتِ المزاج، لكن هل كانت تلك هي الإجابة الشافية؟ حتى لو فرضت أن الأمر راجع إلى الهرمونات، ما زال هناك شيءٌ فضوليٌّ حول المُدْخَلِ. ما الذي كان يحدث في الكوخ وجعل روز تشعر بهذه الهشاشة والضعف؟

"يقولون إن الجوَّ سَيَتَحَسَّنُ غَدًا" قالت چوليا وهي تضع السكين على طبق مليء بفتات الكعك. ثم عَادَتْ بظهرها إلى المقعد، وسحبت حافَّةَ الستارة جانبًا، وحادَّتْ في الضباب الساطع. "أظنُّ أَنَّكَ ستعاودين العمل في الكوخ؟".

"كَلَّا في الواقع. ستأتي صديقةٌ لَتَمَكُّتْ مَعِي".

"هنا في الفندق؟".

"رائع! خَبَّريني لو احتَجَبَتِ أيُّ مساعدة".

كانت جوليا مُحِقَّةً، بعد ظهيرة يوم الاثنين انقشع الضباب أخيراً، وظهرت الشمس على استحياء. كانت كساندرا تنتظر في حجرة الجلوس حينما قادت روبي سيارتها إلى المرآب بالخارج. ابتسمت حينما رأت السيَّارة البيضاء الصغيرة ذات الباب الخلفي، فحزمت كُتَبَ القُصاصات وهرعت إلى البهو.

"أف!" دخلت روبي وأسَقَطَتِ حقائبها، ثم خلعت قُبَّعة المطر وهَزَّتِ شعرها. "يا لترحيب كورنوال القديم! ليست هناك قطرة مطر واحدة ومع ذلك تَشَبَعْتُ بالبلل". وَقَفَّت بلا حراكٍ، ونظرت إلى كساندرا وقالت: "كم تَغَيَّرتِ!".

"ماذا" ربتت كساندرا على شعرها. "ما الخَطْبُ بي؟".

ابتَسَمَتِ روبي ابتسامَةً عريضة، حتى أن عيناها انسحبتا للزوايا. "لا شيء البتَّة، وهذا ما أقصده تمامًا. تبدين رائعة".
"شكرًا لك".

"هواء كورنوال يُناسِبُكِ تمامًا، لكم تَغَيَّرتِ عن أول مرة منذ أن قابلتُكِ في مطار هيثرو".

شرَعَتِ كساندرا تضحك؛ الأمر الذي أدهش سامانثا، التي كانت تسترق السَّمْعَ من مكتب الاستقبال. قالت، وهي ترفع إحدى الحقائق: "تُسَعِدُنِي رؤيتك يا روبي. دعينا نتخلَّص من هذه، ونذهب للشمسية، ونلقي نظرة على الخليج الصغير بعد كُلِّ هذا المطر".

أغمضت كساندرا عينيها، وأدارت وجهها نحو السماء تاركة نسيم البحر يدغدغ جفنيها. انخرطت التوارس في مُحادثَةٍ بعيدة على الساحل، وحلقت حشرة بالقرب من أذنها، وانحسرت موجات رقيقة عن الشاطئ. غمرها شعورٌ بالهدوء، وهي تُوافق بين أنفاسها وأنفاس البحر: شهيق زفير، شهيق زفير، شهيق زفير. كان المطر الحالي قد أثار مُلوحةً البحر، فعبقت الريح برائحة قوية. فتحت عينيها ونظرت ببطء إلى الخليج الصغير. صَفُّ من الأشجار القديمة الممتدة فوق التلال، والصخرة السوداء في نهاية الخليج، والتلال المُعشوشبة الطويلة التي تُخفي كوخها. تنفَّست بمتعة عميقة.

"أشعر كأنني في أجواء قصّة (المغامرون الخمسة في منزل المهرب)!"⁽¹⁾، صاحت روبي من بعيد على الساحل. "ما زلتُ أتوقّع أن يركض الكلب تامي على الرمال مُمسكًا بِقِمِهِ زجاجةً فيها رسالة... اتسّعت عيناها. "أو عظمة آدمية، حَفَرَ وأخرجها!".

ابتسمت كساندرا. "أحببتُ هذا الكتاب" شرّعت تمشي على الحصى نحو روبي والصخرة السوداء. "كنت أقرؤه في طفولتي في أيام بريزبن الحارّة، كنتُ على استعدادٍ أن أدفع أيّ شيءٍ ثمنًا لأترعرع على ساحلٍ يكتنّفه الضبابُ وبه خُلجانٌ مُهربين".

حينما وصَلتا إلى نهاية الشاطئ حيث التقى الحصى بالعشب، ظهر أمامهما التلُّ الساحلي المنحدر الذي يطوّق الخليج الصغير.

قالت روبي وهي تميل لترى القمة. "'يا إلهي! هل سنتسلّق هذا حقًا؟".

"ليس مُنحدرًا للغاية كما يبدو".

(1) الكتاب الرابع من سلسلة (المغامرون الخمسة) لكاتبة الأطفال الشهيرة إنيد بليتون.

أبلى الزمن وكثرة الأقدام الممَرَّ الضَّيِّق، والذي وضع بالكاد بين الأعشاب الطويلة الرمادية والأزهار الصفراء الصغيرة. كانت مسيرتهما بطيئة؛ بسبب توقُّف روبي مراراً لالتقاط أنفاسها.

تذوّقت كساندرا الهواء الصافي الذي يعبق برائحة المطر. كان الهواء يصير أكثر برودةً كلّما صعدتا إلى الأعلى، وقد تناثر على وجهيهما ندى البحر الذي حملته النسائم. اقتربت كساندرا من القمة، فمدّت يدها لتمسك بجذائِلَ باهتةٍ طويلة من العشب، شعرت بها تنزلق عبر يدها المضمومة. صاحت نحو روبي: "كِدْنَا نَصِل. إنه وراء هذه القمّة".

"أشعر أنني مثل أحدِ أفراد عائلة فون تراب"⁽¹⁾ قالت روبي بين لهاثها. "لكن أكثر امتلاءً، وأكبر سنًا، وبلا طاقةٍ للغناء".

وصَلَّت كساندرا إلى القِمَّة. ومرّت فوقها غيومٌ قليلة مُسرِّعة في السماء، تطاردها رياح الخريف القوية. مَشَتْ نحو قِمَّة الجرف ونظرت إلى البحر الشاسع المُتقلِّب.

جاءها صوت روبي من الخلف. "حمدًا لله. أنا على قَيْد الحياة!". كانت تسند يديها على ركبتيها، تُحاولُ التقاط أنفاسها. "لم أَكُنْ واثِقَةً حتى هذه اللحظة أننا سنصل أبدًا".

اعتدلَّت، وفركت أسفل ظهرها، وسارت لتقف بالقرب من كساندرا. أشرق وجهها حينما وقعت عيناها على الأفق.

"أليس رائعًا؟" قالت كساندرا.

كانت روبي تهزُّ يدها. "إنه مدهش! هذا بالتأكيد ما تشعر به الطيور حينما تجلس في أعشاشها". ثم تراجعت خطوةً عن قِمَّة

(1) آل فون تراب عائلةٌ مساوية حَقَّقَتْ شهرةً كبيرة في مجال الغناء، وقد استوحى قِصَّتْهم فيلم (صوت الموسيقى).

الجُرف الصَّخري. "باستثناء أنه أكثر أمانًا؛ لأن الأجنحة ستسعفها عند السقوط".

"كان الكوخ يُستخدَم كُبرجٍ مُراقِبَةٍ في زمن المهْرَبين".

أومأت روبي. "أعلم. سوف ترين كثيرًا من هنا" ثم التفتت، وتوقَّعت أن ترى الكوخ. لكنها قَطَّبَت ثم قالت: "يا لضخامة هذا السور؛ إنه يحجب الرؤية".

"أجل، من الأسفل. لكنه لم يَكُن هنا منذ البداية، لقد بُني في عام 1909".

مَشَت روبي نحو البوابة. "لماذا يبني أحدُهم سورًا كهذا بِحَقِّ السماء؟".

"الأمان".

"مِمَّ؟".

تَبِعَت كساندرا روبي. "صدَّقيني أودُّ أن أعرف أنا أيضًا". دَفَعَت البوابة الحديدية التي انفتحت وهي تُصدِرُ صريرًا.

قالت روبي وهي تشير إلى اللافتة التي تُهدِّد المُعتدين: "يبدو كوخًا وِدودًا".

ابتسمت كساندرا مُفكِّرة. ابتعدت أو ستخاطر بحياتك. لقد مررت من أمام اللافتة كثيرًا في الأسابيع الأخيرة حتى أنها كَفَّت عن رؤيتها. لكن الكلمات الآن اكتسبت مغزىً جديدًا، بعد قراءتها مُدخِلِ كتاب القصاصات.

"هيا يا كاس" كانت روبي تقف على الطرف الآخر من الممرِّ بجانب باب الكوخ، تضرب على الأرض بقدميها الصغيرتين. "لم أفتح فمي بكلمة تَذمُّرٍ واحدة خلال النزهة، لكن لا تتوقَّعي أن أتسلق الأسوار وأعثر على نافذةٍ لأدخل منها؟".

ابتسمت كساندرا ورفعت المفتاح النحاسي. "لا تقلقي. لا مزيد من التحديات البدنية. ليس اليوم على كل حال. سوف نُؤجّل زيارة الحديقة السرية إلى الغد". أولجّت المفتاح في القفل، وأدارته ناحية اليسار؛ فأصدر دويًا مكتومًا، ثم دفعت الباب.

عبرت روبي العتبة وقطعت الردهة مُتَّجِهَةً نحو باب المطبخ. كان الجوُّ أخفّ في الداخل الآن، بعدما نظّفت كساندرا وكريستيان النوافذ من اللباب، وأزالا سنواتٍ من السُّخام.

"يا إلهي!" همست روبي بعينين مُتَّسِعَتَيْن وهي تتمعّن في المطبخ. "لم يتغيّر!".
"أجل".

"لم يُدمره أحدٌ بدافع الحداثة. يا له من اكتشافٍ نادر لا يُصدّق" التفتت إلى كساندرا. "إنّه يوحى بشعور رائع. إحساس غامر ودافئ بشكلٍ ما. يُمكنني تخيّل أشباح الماضي تتحرّك بيننا".

ابتسمت كساندرا. عرفت أن روبي ستشعر بذلك أيضًا. "أنا سعيدة لأنكِ جيئتِ يا روبي".

قالت وهي تعبر الغرفة: "ما كنت لأفوت ذلك. إنني لم أُكفّ عن الحديث عن الكوخ مع جراي، حتى أن الرجل كاد يضع سدّادات أذن! بالإضافة إلى أنه لديّ عمَلٌ في بولبيرو؛ لذا فالأمر برُمّته ممتاز". مالت روبي على الكرسيّ الهزاز لتنظر عبر النوافذ الرئيسية. "هل هذه برّكة؟".

"أجل، بركة صغيرة".

"تمثالٌ فاتِنٌ، أتساءل هل يشعر بالبرد؟" ترّكت الكرسي الهزاز فأخذ يتأرجح في حركة لطيفة. كانت الخطوات تصرُّ برفق على الألواح

الأرضية. استمرت روبي في تفحصها للغرفة، وهي تُمرّر أصابعها بخفّة فوق حافة رَفِ الموقد.

"ما الذي ستفعلينه في بولبيرو؟" تساءلت كساندرا وهي تجلس واطئة ساقاً فوق ساقٍ إلى طاولة المطبخ.

"انتهى معرضي الأسبوع الماضي، وسأعيد رسومات ناثانيال وواكر إلى المالِكة. إن قلبي ينفطر للابتعاد عنهم."

"ألا تُفكر في إعطائها للمتخف في إعارّة دائمة؟"

"أتمنى ذلك". اختفى رأس روبي في فجوة الموقد المصنوع من الطوب وخرج صوتها مكتوماً: "ربما يمكنك أن تتكلم معي بالنيابة عني".

"أنا؟ لم ألتق بها من قبل".

"ليس بعد. لكنني أتيت على ذكرك حينما كنت هناك. وأخبرتها كل شيء عن جدتك سليلة آل مونتراشيه، التي وُلدت هنا في بلاكهرست، وكيف عادت وابتاعت الكوخ. وأثار ذلك اهتمام كلارا".

"حقاً؟ ولماذا تهتم؟"

نهضت روبي؛ فاصطدم رأسها برَفِ الموقد. "اللعنة!" فركت البقعة بغضب. "دوماً الرأس اللعين!".

"هل أنت بخير؟"

"أجل، أجل، بخير. مجرد ألم رهيب". كفت عن الفك، وطرقت بعينها. "كانت والدة كلارا تعمل في بلاكهرست، هل تتذكرين؟ تعمل خادمة؟ ماري، تلك التي انتهى بها الحال إلى صنع السُجق الأسود مع زوجها الجزار؟"

"أجل أتذكرها الآن. إذن كيف علمت أن كلارا كانت مُهتمةً بنيل؟ ماذا قالت؟"

استأنفت روبي تفحصها للموقد، وهي تفتح باب المِقْضَب. "قالت إنها تريد إخبارك بشيء قالت له والدتها قبل أن تموت".
شعرت كساندرا بتوترٍ في جلد عنقها. "ما هو؟ هل قالت أي شيء آخر؟".

"لم تقل لي، ولا تتحمسي كثيراً. من الاحترام الذي تُكُنُّه لوالدتها أعتقد أنها ستحكي لك كيف قضت ماري سنواتٍ خدَمَتِها في المنزل القديم الكبير، أو أنْ روز مدحت مرّةً تلميعها للفضة". أغلقت روبي باب المِقْضَب، والتفتت إلى كساندرا. "لا أظنُّ أن الموقد ما زال يعمل؟".

"بلى. لم نُصدِّق".

"نُصدِّق؟".

"أنا وكريستيان".

"مَن هو كريستيان؟".

مررت كساندرا أطراف أصابعها على حافة الطاولة. "إنه صديق، شخصٌ ساعدني كثيراً في التنظيف".

زوت روبي ما بين حاجبيها. "صديق؟".

"أجل" هزت كساندرا كتفيها، وهي تُحاولُ أن تُظهرَ لا مُبالاتها.

ابتسمت روبي بتعمد. "جميل أن تحظي بأصدقاء". توجهت نحو الزاوية الخلفية من المطبخ، مُتجاوزةً النَّافذة ذات الإطار الزجاجي المكسور، وتوقفت عند عجلة العزل العتيقة. "تري هل سأقابله؟" مدت يدها وأدارت العجلة.

"حذارٍ من أن تتقبي أصبعك".

"أجل" لمس أصبغ روبي قِمة عجلة الدوران. "لا أريد أن أكون المتسببة في غرقنا بالنوم لمئات السنين". عَضَّت شَفْتَهَا السُّفلى، وومضت عيناها. "برغم أنه سيمنح صديقك الفرصة لإنقاذك".

شعرت كساندرا بوجنتيها تتوردان. تظاهرت بالامبالاة بينما انهمكت روبي في تفحص الروافد الخشبية المكشوفة في السقف، والقرميد الأزرق والأبيض حول الموقد، وألواح الأرضية الواسعة. قالت في النهاية: "إذن، ما رأيك؟".

أدارت روبي عينيها. "تعلمين رأبي تمامًا يا كاس، إنني أحمق عليك! إنه خرافي!" ثم استندت على الطاولة. "هل ما زلت تخططين لبيعه؟".
"أعتقد أجل".

هزت روبي رأسها: "إذن أنت أقوى مني. لن أستطيع الافتراق عنه لو كنت مكانك".

قمت كساندرا شعورًا بالفخر. "يجب عليّ. لا يمكنني أن أتركه هكذا. ستكلفتني صيانته أموالًا باهظة، ولا سيما وأنا في الناحية الأخرى من العالم".

"يمكنك الاحتفاظ به كمنزل تقضين به العطلات، تؤجّرينه حينما لا تستخدمينه؛ حينها سيكون لدينا مكانٌ نقيم فيه حينما نحتاج إلى بقعة بالقرب من البحر". ضحكت. "ما رأيك؟ سيكون لديك مكان للإقامة". دفعت بكتفها كساندرا برفق. "هيا، أريني الطابق العلوي. أراهن أن هناك منظرًا مذهشًا".

قادت كساندرا إلى الدّرج الضيّق، وحينما وصلتا إلى غرفة النوم اتكأت روبي على عتبة النافذة. "يا إلهي يا كاس!" قالت، بينما الرياح تنتزع أطرافًا بيضاء على سطح البحر. "سيصطف الناس في طوابير من أجل رؤية هذا المنظر. إنه مكانٌ ممتاز؛ فهو قريب للغاية من القرية

لشراء ما يلزم من الاحتياجات، وفي الوقت ذاته بعيد جداً ويعطي الشعور بالخصوصية. لا بُدَّ وأن منظر الغروب هنا رائع، وبالليل تتلألأ من بعيد أضواء قوارب الصيد كنجوم صغيرة".

أثارت تعليقات روبي الحماس والتخوُّف في كساندرا؛ لأنها عبَّرت عن رغبتها الدفينة، إحساس لم تُدرك أنها تشعر به إلا حينما سمعته من أحدهم. إنها ترغب في الاحتفاظ بالكوخ، برغم كل الأسباب المنطقية التي تدفعها إلى بيعه. لقد تَسرَّبَ جَوْ المكان إلى أسفل جلدها، وهناك الرابطة التي تربطه بنيل. لكنَّ ثَمَّةَ شيءٍ آخر، شعورٌ أن كلَّ شيء سيكون على ما يرام حينما تكون في الكوخ والحديقة. شعورٌ بالسَّلام مع العالم وداخلَ نفسها. شعورٌ بالاكتمال والصَّلابَة للمرة الأولى منذ عشر سنوات. مثل دائرة مُكتمِلة، أو فكرة دون أطراف سوداء.

"يا إلهي!" صاحت روبي وهي تلتفُّ ومُمسِكُ بمعصم كساندرا.

"ماذا!" تقلَّصت مَعِدَةُ كساندرا. "ماذا حدث؟".

"لقد راوَدتني الآن أروعُ فكرةٍ" ابتلَعَت ريقها وحرَّكت يدها وهي تلتقط أنفاسها. هتَفَّت أخيراً وهي تقول: "سنيبتُ الليلةَ أنا وأنتِ هنا في الكوخ!".

ذهبت كساندرا إلى السُّوق، وكانت على وشك مُغادرةٍ متجرِ الخردوات بصندوق كرتونيٍّ مليءٍ بالشموع والثُّقَاب، حينما التقت بكريستيان مُصادفَةً. لقد مرَّ ثلاثةَ أيَّامٍ منذ تناولَهما العشاء بالحانة، ومنع المطر الغزير التفكير في العودة إلى الحديقة السرية في نهاية الأسبوع، ولم تُكَلِّمه أو تره منذ تلك الفترة. شعرت بالتوتُّر بشكل غريب، وتورَّدت وجنتاها.

"هل ستذهبن للتخييم؟".

"شيءٌ من هذا القبيل. جاءت صديقةٌ لزيارتي وتريد قضاء ليلة في الكوخ".

رفع حاجبيه وقال: "لا تدعي الأشباح تُخيفكما".
"سأحاول".

"أو الفئران تعضُّكما" ثم ابتسم بزاوية فمه.

ابتسمت أيضًا، ثم زممت شفثتها. امتد الصمتُ بينهما كحبلٍ مطاطيٍّ، مهَّددًا بالهجوم تارةً أخرى. شرعت تقول بخجلٍ: "بالمناسبة، يمكنكُ القدوم وتناول العشاء معنا؟ لن يكون شيئًا كبيرًا، لكن سيكون أمرًا ممتعًا، أقصد لو لم تكن مشغولًا؟ ستحبُّ روبي التَّعرُّفَ عليك". اشتعلت وجنتاها ولعنت في سرِّها خيطَ السؤال الذي دَّبل نهايةَ عباراتها. "سوف يكون أمرًا ممتعًا"، قالت مُجددًا.

أومأ، وبدا أنه يفكِّر. "أجل. بالطبع. يبدو اقتراحًا جيّدًا".

"عظيم" شعرت كساندرا بموج أسفل جلدها. "الساعة السابعة؟ ولا تجلب معك شيئًا؛ فكما ترى، تكفّلتُ بكلِّ شيء".

"مهلاً، أعطني هذا" أخذ كريستيان الصندوقَ الكرتونيَّ. نقلت مقبضي حقيبة التَّسوق البلاستيكية من حول معصمها، ودلّكت الأثار الحمراء التي تركتها. "سوف أوصلك إلى طريق الجرف".

"لا أريد أن أزعجك".

"لست كذلك. كنت في طريقني لأراك على كل حال، لأتحدّث معك عن روز وعلاماتها".

"لم أستطع العثور على شيء آخر في كتاب...".

"لا يهمُّ. أعلم ماهيةَ هذه العلامات، وأعلم سبب حصولها عليها".
أشار نحو سيارته. "هيا، يمكننا أن نتكلّم وأنا أقود".

ناوَرَ كريستيان بعربته ليخرج من مَوْقف السيارات الضيِّق بجانب حافَّة المياه، وسار على الطريق الرئيسي.

"إذن ما الأمر. ماذا وَجَدتَ؟" قالت كساندرا.

امتلات النَّوافِذُ بالضباب، ومَدَّ كريستيان ليمسح الحاجب الزجاجي بكفِّ يده. "حينما أَخْبَرْتَنِي عن روز في ذاك اليوم، بدا لي اسمُ الطَّبيب، أبنينزر ماثيوس، مألوفًا. لم تُسْعِفْنِي ذاكرتي أين سَمِعْتُ بهذا الاسم من قبل، ثم تذكَّرْتُ في صباح يوم السبت. لقد درست في الجامعة مُقرَّرًا عن أخلاقيَّات الطب، وطُلِبَ مِنَّا إجراء بحث عن استخدامات التكنولوجيا الحديثة قديمًا".

أبطأ من سرعة السيارة عند تقاطعٍ، وعبث بِقُرْصِ الحَرارة. "أسف أحيانًا يعطل. ستكون العربة دافئة بعد برهة قصيرة". أدار القرص من الأزرق إلى الأحمر، ودَلَّف يسارًا، وشرع يصعد طريق الجرف المنحدر. "إحدى فوائد العيش في الناحية الخلفية من منزلي هو سرعة وصولي لصناديقي القديمة التي عبَّأتُ فيها أشياءي حينما حَوَّلْتُ زوجةُ أبي غرفتي إلى قاعةٍ رياضية".

ابتسَمَت كساندرا، وهي تتذكَّر الصناديق المُحرَّجة التي كانت تحتفظ بها منذ سنوات المدرسة الثانوية، والتي كشفت عنها حينما انتقلت للعيش مع نيل بعد الحادثة.

"نَقَبْتُ فيها لفترة، لكني أخيرًا وجدت المقال، وبالتأكيد كان هناك اسمه، أبنينزر ماثيوس. ذكرته في المقال لأنه كان من نفس القرية التي نشأت فيها".

"وهل ذكر المقال شيئًا عن روز؟".

"كلًا، لكن بعدما أدركتُ أن د. ماثيوس هو مُعالِجُ روز، راسَلْتُ بالبريد الإلكتروني صديقةً تعمل في المكتبة الطبية بجامعة أكسفورد.

إنها تدين لي بصنيع، ووافقت على إرسال أي شيء تجده عن المرضى الذين عالجهم الطبيب بين عامي 1889 و1913، أي الفترة التي عاشت فيها روز".

صديقة. أزاحت كساندرا جانبًا موجةً غير متوقَّعة من الغيرة. "ثم؟"

"كان د. ماثيوس رجلاً في غاية النشاط. ولكن ليس في بداية عمله؛ فقد جاء من أصول متواضعة. طبيب في مدينة صغيرة في كورنوال، يفعل كل الأشياء التي يفعلها الأطباء الصغار في المدن الصغيرة أيضًا. وفهمتُ أن فرصته العظيمة وافته حينما التقى بأدالين مونتراشيه من عزبة بلاكهرست. لا أعرف ما الذي دفعها إلى اختيار طبيب شابٍ مثله حينما كانت طفلتها مريضةً، كان الأرستقراطيون يستعينون بنفس الطبيب الهرم الذي عالج جدودَ جدودهم. ومهما كان السبب، تمَّ استدعاءُ أيبينزر ماثيوس. ولا بُدَّ أنه نال ثقة أدالين أيضًا؛ فبعد الاستشارة الأولى صار طبيبَ روز المعتاد. وظلَّ كذلك طيلة طفولتها، وحتى بعدما تزوجت".

"لكن كيف علمت؟ كيف علمت صديقتك هذه المعلومات؟"

"كان الكثير من الأطباء وقتذاك يحتفظون بسجلات الجراحات التي أجروها، وسجلات المرضى الذين عالجهم، ومن يدينون لهم بالمال، والعلاجات التي وصفوها، ومقالات نشرها، إلخ... إن المكتبة تعجُّ بهذه النوعية من السجلات، والتي وهبها أو باعها عائلات الأطباء غالبًا".

وصلاً إلى نهاية الطريق حيث ينتهي الحصى ويبدأ العشب، وقاد كريستيان السيارة جانبًا في شريط التوقف الضيق بجانب بُرج المراقبة. كانت الريح بالخارج تصفح الجُرف الصخري، وقد احتشدت طيورٌ صغيرة بوجوم. أطفأ المحرك، والتفت يواجه كساندرا وهو يقول: "في

العقد الأخير من القرن التاسع عشر، ذاع صيت د. ماثيوس. ويبدو أنه لم يكن راضيًا بمنصب مُمارِسٍ عام، برغم أن قائمة مرضاه كانت تعجُّ بأسماء شهيرة من المنطقة. بدأ ينشر في موضوعات طبيّةٍ شتّى. وبمقارنة منشوراته وسجلاته كان اسم روز يظهر تحت عنوان الأنتة ر. م. فقد صارت مُدخلاً مُتكرراً بعد عام 1897".

"لماذا؟ ماذا حَدَثَ حينها؟". لاحظت كساندرا أنها كانت تكتُمُ أنفاسها، وحلَّقها يتقلَّص.

"حينما كانت روز في الثامنة من عمرها ابتلعت كشتبان خياطة".
"لماذا؟".

"لا أعرف، أَظُنُّ أنها حادثة، وهذا موضوع لا يهْمُنَا الآن. لم تكن حادثة كبيرة، نصف عملات بريطانيا تستقرُّ في بطون الأطفال بطريقة أو بأخرى. إنها تخرج بدون صعوبة كبيرة لو تُرِكت وشأنها".

جذبت كساندرا نَفْسًا قَوِيًّا. "لكنها لم تُترك وشأنها. د. ماثيوس أجرى عملية".

هزَّ كريستيان رأسه. "بل أسوأ من ذلك".

تقلَّصت معدتها. "ماذا فعل؟"

"أمر بعمَلِ فَحِصٍ بالأشعة السِّينِيَّة، ثم نشر الصور في جريدة ذا لانسيِت الطَّبِيَّة". مدَّ كريستيان يده إلى المقعد الخلفي، وسحب ورقة مطبوعة، وناولها لها.

ألقت نظرة سريعة على المقال، وهزَّت كتفيها. "لا أفهم، ما الخطير في الموضوع؟".

"إنها ليست الأشعَّة السِّينِيَّة نفسها، بل التَّعْرُضُ لها". أشار إلى سَطْرٍ أعلى الصفحة. "لقد أمرَ د. ماثيوس المَصَوِّرَ بأن يأخذ عَرْضًا مُدَّتُهُ سِتُّون دقيقة. أعتقد أنه أراد التأكُّد من جودة الصورة".

شعرت كساندرا بالبرد خارج النافذة الزجاجية، يومضُ على خَدَّها.
"ولكن ما معنى هذا؟ التَّعْرُضُ لمدَّةٍ سِتِّينَ دقيقة؟".

"الأشعَّةُ السينية عبارة عن طاقة إشعاعية، ألم تلحظي يومًا كيف
يهرع طبيب الأسنان للخروج من العُرْفَةِ قبل الضغط على الأشعة
السينية؟ لقد أحرق د. ماثيوس والمُصوِّرُ مِبيضيَّ روز، وكُلُّ شيءٍ بداخلهما
خلال السُّتِّينَ دقيقة التي تعرَّضت فيها إلى تلك الأشعَّة".

"مبيضاها؟" حَمَلَت كساندرا فيه. "كيف حَمَلتِ إذن؟".

"هذا ما أحاول أن أقوله. لا يُمكنها أن تَحْمَلَ. وبالتأكيد لم تَحْمَلَ
في أحشائها يومًا طفلًا سليمًا. لقد كانت روز مونتراشيه عاقِرًا في عام
1897".

(41)

كوخ الجرف، 1975

برغم تأخر تبادل العقود لعشرة أيام، كانت الشابة جوليا بينيت في غاية اللطفِ والدِّمَاءَةِ. حينما طلبت نيل الدُخُولَ إلى الكوخ مُبَكَّرًا، سُلِّمَت المفتاح بمعصم تزيّنه الحليُّ. "لا يزعجني الأمر على الإطلاق" قالتها والأساور تُصَلِّصُ. "تصرّفي كما شئت. يعلم الله كم كان هذا المفتاح ثقيلًا للغاية، وسأكون سعيدةً للتخلُّص منه!".

كان المفتاح ثقيلًا بالفعل. كان كبيرًا ونحاسيًّا، بدوَامَاتٍ مُتَشَابِكَةٍ في طرفه، وسنون مُحَرَزَةٌ في الطرف الآخر. نظرت نيل إليه، كان طوله يقارب كف يدها تقريبًا. وضعتَه على المنضدة الخشبية في مطبخ كوخها. حسنًا، كوخها تقريبًا. بقيت عشرة أيام.

لن تكون نيل في تريجينيا حينما يتمُّ تبادلُ العقود. ستقلع رحلتها من لندن بعد أربعة أيام. حينما حاولت تغيير موعد الحجز قيل لها إن تلك التعديلات الأخيرة مُمكِنَةٌ ولكن بتكلفة باهظة؛ لذا قررت

الذهاب إلى استراليا كما كان مُخطّطًا. وافق المُحاميان المُحلّيَّان اللذان يباشران عملية الشراء على الاحتفاظ بالمفتاح لأجلها حتى تعود. أُكِّدَت لهما أن الأمر لن يطول، هي فقط بحاجة إلى الوقت لتنظّم بعض الأشياء ثم ستعود.

فقد اعتزمت نيل على الذهاب إلى بريزبن للمرة الأخيرة. ما الذي يُبقيها هناك؟ أصدقاء يُعدُّون على أصابع اليد الواحدة، ابنة ليست بحاجة إليها، شقيقات سببت لهنّ الحيرة والارتباك. سوف تفتقد جناح التُّحف، لكن ربما يمكنها أن تبدأ من جديد في كورنوال؟ وحينما تكون هنا، وأمامها المزيد من الوقت، ستصل إلى حلٍّ لغزها. سوف تعلم السبب الذي دفع إيليزا إلى اختطافها ووضعها على متن سفينة مُتَّجِهَةٍ إلى استراليا. كل البشر بحاجة إلى غاية، وتلك ستكون غايتها. وإلا كيف ستعرف نفسها؟

تجوّلت نيل ببطء في المطبخ، وهي تُعدُّ في ذهنها قائمةً بالجرّد. أول شيء تعتزم فعله حينما تعود سيكون تنظيف الكوخ بشكل كامل. إن التراب والقذارة يُغطيان كلَّ شيء. وسيكون هناك إصلاحات أيضًا: إزار الحائط بحاجة إلى الاستبدال في الأجزاء التي تَعَفَّن فيها الخشب، كما أن المطبخ بحاجة إلى تنظيم...

بالطبع قرية مثل تريجينا سيكون بها العديد من التُّجار المُحلّيّين المُتاجين لتقديم العون والمساعدة، لكن نيل رفّضت فكرةً توظيف غرباء للعمل في كوخها. رُغم أنه مصنوعٌ من الحجر والخشب، لم يكن مُجرّد منزلٍ بالنسبة لنيل. ومثلما كانت ترعى بمفردها ليل وهي تحتضر، رفّضت تترك المسؤولية إلى أيدي غريبة. تعرف أنها لا بُدَّ وأن تعتني بالكوخ بنفسها، مُستعينةً بالمهارات التي علّمها إياها هيو منذ سنوات بعيدة حينما كانت طفلةً، تتسّع عيناها بالحب لأبيها.

توقفت نيل بجوار الكرسي الهزاز. جذب انتباهها صندوق صغير في الزاوية. اقتربت منه. وجدت زجاجة مياه نصف فارغة، وعلبة من البسكويت المساعد على الهضم، ومجلة هزلية تُدعى (ويزر آند تشيبس). لم تكن تلك الأشياء موجودة حينما قامت بمعاينة الكوخ عند الشراء؛ مما يعني أن شخصًا كان هنا. تصفحت نيل المجلة الهزلية، يبدو أنه صبي.

نسيم رطب مَسَّ وجه نيل فنظرت إلى خلفية المطبخ. لوح زجاجي كان مفقودًا من أحد إطارات النافذة الأربعة. دوّنت في ذهنها ضرورة جلب البلاستيك وشريط لاصق لتسد مكان الإطار قبل مغادرة تريجينا، حدقت نيل من خلاله. كان هناك سياج ضخم من الأشجار بالتوازي مع المنزل، كان سياجًا فجًا، لكنه متساوٍ مثل جدار. لاح بريق لون وظننت نيل أنها رأَت حركة، وحينما نظرت مجددًا لم يكن هناك شيء. ربما كان طائرًا، أو سنجابًا.

لاحظت على الخريطة التي أرسلها لها المحامي أن الملكية تمتد بعد المنزل بمسافة بعيدة. وربما يعني هذا أن ما يقع على الناحية الأخرى وراء هذا السياج الطويل الكثيف كان ملكها أيضًا. اعتزمت على إلقاء نظرة.

كان الممر المنعطف حول جانب المنزل ضيقًا ومُعتمًا نتيجة عدم دخول أشعة الشمس إليه. سارت نيل بحذر، وهي تدفع الحشائش الطويلة جانبًا. خلف الكوخ، نما العليق بين المنزل والسيّاح؛ فكان عليها أن تشق طريقها عبر هذا التشابك.

في منتصف الطريق، شعرت بحركة مُجددًا، بجانبها تمامًا. نظرت نيل إلى الأرض، وأبصرت قدمين ترتديان حذاءً، ورجلين نحيلتين تبرزان من أسفل الجدار. إمّا أن الجدار سقط من السماء، كما في قصة

ساحر أوز⁽¹⁾، وسحق تحته قِزْمًا مسكينًا سيئَ الحَظِّ، أو أنها وَجَدَتِ الصَّبِيَّ الذي اقتحم كوخها.

أَمَسَّكَتْ نِيلَ بالكاحل النحيف. كانت القدمان باردتين. قالت: "تعال هنا. اخرج".

لحظة أخرى من الصمت، ثم شرعت الساقان تَزْحَفَانِ نحو الخارج. خَمَّنَتْ نِيلَ أن عُمُرَهُ عشر سنوات، رغم أنها لم تَكُنْ بَارِعَةً فِي تخمين أعمار الأطفال. كان صَبِيًّا هزِيلًا بِشَعْرٍ بُنِّيٍّ خفيف ورُكْبَتَيْنِ بَارِزَتَيْنِ، وقد امتلأت قَصَبَةَ ساقه النحيفة بالكدمات.

"أظنُّ أَنَّكَ القرد الصغير الذي كان يقتحم كوشي وقتما يشاء؟".

نظر الصبي إليها بعينين بُنِّيَّتَيْنِ دَاكِنَتَيْنِ قبل أن ينظر إلى الأرض تحت قدميها.

"ما اسمُكَ إذن؟ هيا تكلم".

"كريستيان".

نطقها بصوتٍ خَافِيٍّ حتى أنها سمعته بالكاد.

"كريستيان مَنْ؟".

"كريستيان بلاك. لم أَقْمِ بِأَيِّ ضَرَرٍ. أَبِي يعمل في العزبة الكبيرة هناك، وأحيانًا أَحِبُّ زيارة الحديقة المُسَوَّرَةَ... حديقتك المُسَوَّرَةَ".

نظرت نِيلَ نحو السور المَغْطَى بالعَلْيِيقِ. "إذن هناك حديقة وراء هذا الجدار هناك، أليس كذلك؟ لَطَّالَمَا تَسَاءَلْتُ". نَظَرَتْ إِلَى الصبي مجدِّدًا. "أخبرني يا كريستيان، هل تعلم أُمَّكَ بِمَكَانِكَ؟".

تَدَلَّتْ كَتْفَاهُ. "ليس لديَّ أُمٌّ".

(1) رواية الأطفال الشهيرة التي كتبها الروائي الأمريكي ليمان فرانك بوم.

ارتفع حاجباها.

"ذهبت إلى المستشفى في الصيف، ثم...".

تنهّدت نيل وقد برّدَ سُخْطُهَا. "فَهِمْتُ. وكم عُمرُك؟ تسعُ سنواتٍ؟
عشرة؟".

"أوشكتُ على إتمام أحد عشر عامًا"، قالها الصَّبِيُّ بسخْطٍ واضح
ووضع يديه في جيبه، ومرفقيه جانِبًا.

"بالطبع، أرى ذلك الآن. لديّ حفيدهُ في مثل عُمرِك".

"وهل تُحبُّ الحقائق أيضًا؟".

نظرت نيل إليه وقالت: "لستُ واثقةً".

أمال كريستيان رأسه جانِبًا، وقطّب من إجابتها.

"أقصد ربّما تُحبُّها" وجدت نيل أنها تتحاشى تقديم اعتذار. وبخّت
نفسها. لم تكن بحاجة إلى الندم لأنها لا تعرف ما يدور في ذهن ابنة
لِزلي. "لا أراها كثيرًا".

"هل تعيش بعيدًا عنك؟".

"كلًا، في الواقع".

"إذن لماذا لا ترينها كثيرًا؟".

حدّقت نيل في الصبي، وهي تحاول أن تُحدّد إن كانت وقاحاته
مقبولة أم لا. "هكذا تسير الأمور أحيانًا".

بنظرة لوجه الصبي، بدا هذا التفسير واهيًّا بالنسبة له كما هو
بالنسبة لها. لكن ثمة أشياء لا تحتاج إلى شرح أو تفسير، ولا سيّما
للصبيّة الصغار الغُرباء الذين يعتدون على أملاك الآخرين.

ذَكَرَتْ نَيْلَ نَفْسِهَا أَنْ هَذَا الْوَعْدَ الصَّغِيرِ فَقَدَ أُمَّهُ مُؤَخَّرًا. تَعْرِفُ جَيِّدًا أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ أَحَدٌ مُحَصَّنٌ مِنَ الْحُكْمِ السَّيِّئِ، وَلَا سِيَّما حِينَما يَفْقَدُ مَرَسَاتَهُ. الْحَيَاةُ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ قَاسِيَةً لَعَيْنَةً. لِمَاذَا يَجِبُ أَنْ يَنْشَأَ هَذَا الصَّبِيُّ بَدونِ أُمِّ؟ وَلِمَاذَا تُوَارَى تِلْكَ السَّيِّدَةُ الْمَسْكِينَةُ الثَّرَى مُبَكَّرًا؟ تَارِكَةً وَلَدَهَا يَشُقُّ طَرِيقَهُ فِي الْعَالَمِ بَدونِهَا؟ نَظَرْتُ نَيْلَ إِلَى جَسَدِ الْوَلَدِ النَّحِيلِ، وَشَعَرْتُ بِشَيْءٍ دَاخِلِهَا يَتَقَلَّصُ. كَانَ صَوْتِهَا فَظًّا لَكِنَّهُ حَنُونٌ: "مَاذَا قَلَّتْ إِنَّكَ تَفْعَلُهُ فِي حَدِيقَتِي عَلَى كُلِّ حَالٍ؟".

"لِمَ أَقْتَرِفُ أَيَّ ضَرَرٍ حَقًّا. إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَجْلِسَ بِالْداخِلِ فَحَسَبٌ."
"وَهَلْ تَدْخُلُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ؟ تَحْتَ الْقَرْمِيدِ؟".

أومأ.

حَدَّقَتْ نَيْلَ فِي الْحَفْرَةِ. "لَا أَظُنُّ أَنَّ مَقْدُورِي الدَّخُولَ هُنَاكَ. أَيْنَ الْبَوَابَةِ؟".

"لَيْسَتْ هُنَاكَ بَوَابَةٌ. عَلَى الْأَقْلِ لَيْسَ فِي هَذَا الْجِدَارِ".

قَطَّبَتْ نَيْلَ. "لَدَيَّ حَدِيقَةٌ بَدونِ مَدْخَلٍ؟".

أومأ مُجَدِّدًا. "كَانَتْ هُنَاكَ بَوَابَةٌ، يُمْكِنُ أَنْ تَرَى مِنَ الدَّاخِلِ أَنَّهَا سُدَّتْ".

"لِمَاذَا يَسُدُّ أَحَدُهُمُ الْمَدْخَلَ؟".

هَزَّ الصَّبِيُّ كَتْفِيهِ، وَأَضَافَتْ نَيْلَ إِلَى قَائِمَتِهَا الذَّهْنِيَّةِ بَعْضَ التَّحْسِينَاتِ الضَّرُورِيَّةِ بِالنَّسْبَةِ لِهَذِهِ الْحَدِيقَةِ. "إِذْنِ أَخْبِرْنِي مَا الْمَوْجُودُ هُنَاكَ، بِمَا إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ إِلقاءَ نَظْرَةٍ بِنَفْسِي. مَا الَّذِي جَعَلَكَ تَقْطَعُ كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ إِلَى هُنَا؟".

"إِنَّهَا بُقَعَتِي الْمُفَضَّلَةَ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ". نَظَرَ كَرِيسْتِيانَ بِعَيْنِيهِ الْبُنَيْتَيْنِ الْجَادَّتَيْنِ. "أَحِبُّ الْجُلُوسَ بِالْداخِلِ وَالتَّحَدُّثَ إِلَى أُمِّي. كَانَتْ تَحِبُّ

الحدائق، كانت تحب حديقَتِكَ المُسَوَّرَةَ بشكلٍ خاصٍّ. لقد علَّمتني كيفية الدخول إليها، كُنَّا سنحاول إصلاحها. ثم مَرِضْتُ".

زَمَّت نيل شفيتها. "سأعود إلى بيتي في استراليا بعد أيام، لكنني سأرجع بعد شهر أو شهرين. هل يمكنك أن تراقب حديقتي يا كريستيان؟".

أوما برصانَةَ قائلاً: "سأفعل".

"يسعدني أن أعرف أني تركتها بين يدين أُمِينَتَيْنِ".

شدَّ كريستيان قامته، قائلاً: "وحينما تعودين سأساعدك في إصلاحها. مثلما يفعل أبي في الفندق".

"سألزِمُكَ بهذا الوعد. إنني لا أقبل المُسَاعَدَةَ من أي شخص فحسب، لكن يراودني شعور أنك الرجل المناسب لهذه المهمة".

(42)

عزبة بلاكهرست، 1913

أحكمت روز الشال حول كتفيها وعقدت ذراعيها وقايةً من برد مُقيم. حينما اعتزمت أن تنعم بأشعة الشمس في الحديقة، كانت إيليزا آخرَ شخصٍ توقَّعت أن تراه. كانت جالسةً تدوّن ملحوظات في كتاب القصاصات، وهي ترفع عينيها بين الفينة والفينة لترى أيثوري تركض وتحوم حول أحواض الزهور. لم يكن هناك إشارة أن سلام اليوم سيفسدُ بهذا الشكل البشع. استشعرت شيئاً غريباً جعلها تنظر نحو بوابات المتاهة، ثم المشهد الذي جمّد الدماء في عروقتها. كيف عرفت إيليزا أنها ستجد روز وأيثوري وحدهما في الحديقة؟ هل كانت تُراقبُ مُنتظرةً الوقت المناسب ريثما تُباغت روز؟ ولماذا الآن؟ لماذا بعد ثلاث سنوات جاءت اليوم؟ كشبحٍ خارجٍ من كابوس عبرت المرج، وبيدها حزمةً بائسةً.

نظرت روز جانبًا. ها هي الحزمة ترقد كشيء بريء مُسالِم، لكنها تعرف أنها ليست كذلك. ليست بحاجةٍ إلى النظر أسفل الورقة البُنِّيَّة التي تلفُ الحزمة لتعرف ما يكمن داخلها، شيء يمثُل المكان والزمان، وحدة مَمَّنَّت روز أن تنساها كثيرًا.

لَمَلَمَت أطراف جونلتها وَسَوَّتْها على رُكْبَتَيْها، محاولَةً أن تخلق بعض المسافة بينها وبين الحزمة.

حَلَّق سِرْبٌ من الزرزور، ونظرت روز نحو المَرَجِ كُلوِيِّ الشكل. أَبْصَرَتْ أُمَّها قَادِمَةً نحوها، وكلب الصيد الجديد، هيلمسلي، يطوف قريبًا من جونلتها السوداء. غَمَرَ الارتياحُ قلب روز. كانت الأم سَنَدًا متينًا يمنحها الشعور بالأمان الآن. وبينما اقتربت أدالين، لم تستطع روز أن تكتُم جَزَعَهَا، قالت بسرعة: "أمي. كانت هنا، إيليزا كانت هنا." "رَأَيْتُ كُلَّ شيء من النافذة. ماذا قالت؟ هل سَمِعْتَ الطَّفْلَةَ أَيَّ شيء لا يجب أن تسمعه؟".

استرَجَعَتْ روز اللقاء في ذهنها، لكنَّ القَلَقَ تَأَمَّرَ مع الخوف لِيُجَعَّدَ حوافٌ ذاكرتها، ولم تعرف الكلمات الدقيقة التي قيلت. هزَّت رأسها ببؤس. "لا أعلم".

نظَرَتْ أدالين إلى الحزمة، ثم رفعتها من المقعد، بحذر، كما لو كان مَلَمَسُها سَاخِنًا.

"لا تفتحها يا أمي، أرجوك. لن أتحمَّل رؤية ما بداخلها" صوت روز كان همسة تقريبيًا.

"هل هو...؟".

"أنا واثقة من ذلك". ضغطت روز أصابع باردة على وجنتها. "قالت إنه كان من أجل أيثوري". نظَرَتْ روز إلى أُمَّها، واجتاحت أسفل جِلْدِها مَوْجَةً جديدة من الهلع. "لماذا تجلبه يا أمي؟ لماذا؟".

زَمَّتِ الأمُّ شَفْتِيهَا.

"ماذا تقصد بهذا الفعل؟"

"أعتقد أن الوقت قد حان لوضع مسافة بينك وبين ابنة عَمَّتِكَ".
جلست أدالين بجانب روز، ووضعت الحزمة على حِجْرِهَا.

"مسافة يا أمي؟" بَرَدَت وَجَنَّتَا روز، وصار صوتها هَمْسَةً مذعورة.
"لا تعتقدي أنها رُبَمَا... ربما تأتي مُجَدِّدًا؟".

"لقد أثبتت اليوم أنها لا تحترم القواعد التي وُضِعَت".

"لكن يا أمي، بالتأكيد لا تظني...".

"كل ما أعرفه أنني أتمنى لكِ كل السعادة". وبينما رفرفت ابنة
روز أسفل الضوء المنقُط، انحنت أدالين لتقترب منها حتى شعرت روز
بشفتها العليا الناعمة على أذنها وهي تهمس قائلة: "يجب أن نتذكَّر
يا عزيزتي أن السَّرَّ لا يصبح كذلك إذا عرفه الآخرون".

أومات روز قليلاً. كانت أمُّها مُحِقَّةً بالطبع. كان من الحُمقِ التفكير
أن كل شيء سيستمرُّ إلى الأبد.

وقفت أدالين وكَوَّرَت معصمها، وهي تومئ لهيلمسلي أن يتبعها.
"توماس على وشك أن يقدم طعام الغداء. لا تتأخري. لا تزيدي
بشاعة اليوم بإصابتك بالبرد". أعادت الحزمة إلى المقعد وقالت بصوتٍ
خفيض: "واطلبي من ناثانيال أن يتخلَّص من هذا".

سَمِعَت أدالين خطوات أقدامٍ تتسابقُ في كل مكانٍ فوقها فأجفلت.
مهما تَفَوَّهت مرارًا وتكرارًا بانتقادات لاذعة حول الشابات الصغيرات
وآداب السلوك، لا تتعلَّم الطفلة. وكان هذا مُتَوَقَّعًا بالطبع، مهما
ألبستها روز وزَيَّنْتَهَا، كانت الفتاة سَوِيقِيَّة، لا مَفَرَّ من هذا. الوجنتان

المُتَوَرِّدَتَانِ، والضحك الذي يتردّد في الردّهات، والشعر المعقوص الذي يفلت من شرائطه، لم تكن تشبه روز في شيء.

ومع ذلك، كانت روز تعشق الطفلة. وكان على أَدالين أن تتقبَّلها، وتتعلم أن تبتسم لها، وتصطبر على نظرتها الثاقبة، وتتغاضى عن جلبتها. ما الذي لن تفعله أَدالين من أجل روز، ما الذي لم تفعله بالفعل؟ لكن أَدالين فهمت أيضاً أن من واجبها المحافظة على الصَّرامة؛ فالطفلة بحاجة إلى توجيه حازم لو أرادت السُّموَّ على وضاعة أصلها. كانت دائِرةٌ مَنْ يعرفون الحقيقة صغيرةً، ويجب أن تبقى كذلك، وإذا حدث عكس ذلك ستكون فضيحة؛ لذلك تحتمُّ التَّعاملُ مع ماري وإيليزا بشكلٍ شديد.

في البداية خَشِيَت أَدالين ألا تفهم روز؛ فالفتاة البريئة ربما تتخيَّل أن تستمرَّ الأوضاع كما كانت في السابق. لكنها دُهِّشَتْ. في اللحظة التي وُضِعَتْ فيها أَيْفوري بين ذراعي روز، طرأ عليها تَغْيُرٌ؛ تملَّكتها رغبة شرسة من الأمومة لحماية طفلتها. وافقَّت روز مع أَدالين على ابتعاد ماري وإيليزا، مسافة كافية تحوُّل دون وجودهما اليومي، لكن قريبة بما يكفي لتبقيًا داخل منطقة نفوذ أَدالين. وبتلك الطريقة ستضمن عدم إفشائهما لِسِرِّ طفلة عزبة بلا كهرباء. ساعدت أَدالين ماري على شراء منزل صغير في بولبيرو، وسُمِحَ لإيليزا حيازة الكوخ. وبرغم أن أَدالين أصابها الغمُّ بسبب قرب إيليزا الدائم، كان ذلك أقلَّ الضَّرَرَيْنِ، وكانت سعادة روز بالغة.

العزيزة روز. كانت تبدو شاحِبَةً للغاية، تجلس بمفردها على مقعد الحديقة. لم تتناول طعامها بعد ذلك، بل أخذت تُحرِّكه في الطبق هنا وهناك. كانت مستريحة الآن، تتجنَّب عودة الصداع النصفي الذي هاجمها طيلة الأسبوع.

فتحت أدالين قبضتها المضمومة في حجرها، وطوت أصابعها مُفَكَّرَةً. لقد قامت بوضع الشروط بوضوح تام حينما رُتِبَ كُلُّ شيء؛ لن تطأ الفتاتان مُجَدِّدًا عزبة بلاكهرست. كان الشرط بسيطاً، وقد امتثلتا له حتى هذا اليوم. وأُسدِلَ الستار على السِّرِّ، وعادت الحياة في بلاكهرست إلى هدوئها.

بِمَ كانت إيليزا تفكر وهي تنكث بوعداها الآن؟

في النهاية، انتظر ناثانيال حتى استلقت روز على الفراش لتريح أعصابها، وكانت أدالين بالخارج في إحدى زياراتها. ظنَّ بتلك الطريقة أنه سيضمن ابتعاد إيليزا دون الحاجة إلى معرفتهما بذلك. منذ سماعه بما حدث، استغرق في التفكير مُحاوِلاً تصحيح الأمور. ذكَّرته رؤية زوجته في تلك الحالة أنه برغم المسافة التي قطعها، والتَّغْيُرُ السعيد بعد ميلاد أيقوري، روز الأخرى المتوترة الشاردة، التي ينهشها القلق، لم تكن بعيدةً قَطُّ. عرف أنه يجدر به التَّحدُّثُ مع إيليزا، والعثور على طريقة تجعلها تفهم أنها لا يجب أن تأتي مُجَدِّدًا.

مَرَّ بعض الوقت منذ قدومه هنا. نسي كيف كان الجَوُّ مُظْلِمًا داخل جدران العُلَيْقِ، وكيف أن أشعة الشمس لا تمكث إلا فترة وجيزة. ذهب مُحاذِرًا، مُحاوِلاً تذكُّر أي المنعطفات يمشي فيها. تذكَّر حينما اندفع محمومًا في المتاهة، منذ أربع سنوات، يبحث عن رسوماته. وصل إلى الكوخ، دمه ينتفض، وكتفاه ترتفعان وتهبطان من الإجهاد غير العادي، وطالبَ بعودة الرسومات. قال إنها كانت ملكه، ومُهمَّة بالنسبة له، وإنه بحاجة إليها. ثم، حينما لم يُعَد لديه ما يقول، وقف، يلتقط أنفاسه، منتظرًا ردَّ إيليزا. لم يكن مُتأكِّدًا ماذا يتوقَّع، اعتراف، اعتذار، تسليم الرسومات، ربما جميع تلك الأشياء، لكنها لم تفعل شيئًا. بالأحرى أدهشته. بعد لحظةٍ قَصَّتْها في تأمُّله بالطريقة التي

يتأمل بها المرء بفضولٍ صغير، طَرَفَتْ بعينها المْتَقَلَّبَتَيْنِ الشَّاحِبَتَيْنِ اللتين تَلَهَّف لرسومهما، وسألته إن كان مُهْتَمًّا بالإسهام برسوماتٍ في كتابٍ للقصص الخيالية...

جلبة وهَرَبَت الذكرى. دَقَّ قلب ناثانيال عاليًا. التفت ونظر إلى المساحة المَعْتَمَة خلفه. طائر أبو الحنَّاء نظر إليه قبل أن يَفِرَّ بعيدًا. لماذا كان مُتَوَتِّرًا وَعَصِيًّا؟ إن أعصابه مُنْهَكَة كأنه رجل مُذْنِب، شعورٍ سخيِّف كأن أفعاله غير لائقة. إنه يعتزم فقط التَحَدُّثُ مع إيليزا، ويطلب منها الامتناع عن اقتحام بوابات المتاهة. ومَهْمَّتُه، في النهاية، كانت من أجل روز. كانت صِحَّة -زوجته- وعافيتها الهَدَفُ الأسمى في ذهنه. حتَّى خطواته، وهو يُطْمئنُّ نفسه أنه كان يصطنع القلق وليس هنالك شيء. ربما تكون مَهْمَّتُه سِرِّيَّة، لكنها كانت مشروعة. كان هناك فرق.

لقد وافق على رسم الكتاب. وكيف يقاوم، ولماذا حتى يفعل ذلك؟ الرسومات كانت أغلى أمنيته، ورَسْمُ قَصِصِهَا الخيالية يسمح له بالانزلاق إلى عالمٍ لا يعرف الندم الذي تَذَوَّقُه في حياته. لقد كانت حَبَلُ الإِنْقَاذ، مَهْمَّةٌ سِرِّيَّة جعلته يحتمل أَيَّامَ لوحاته الطويلة. في لقاءاته مع الأغنياء، المَغْفَلين ذوي الألقاب، حينما تضغط عليه أَدالين، وكان مَطْلُوبًا منه الابتسام والتظاهر بالمرح مثل كلب صيد مُدْرَب، كان يُصَبِّرُ نفسه بأنه كان يجلب الحياة للعالم السُّحْرِيَّ لحكايات إيليزا.

لم يكن لديه نُسخة كاملة من الرسومات. تأجَّل النُّشْر، لسبب أو لآخر، وبحلول الوقت الذي طُبِع فيه الكتاب أخيرًا شعر بالحزن لأن الكتاب لم يَجِدْ مَوْضِعَ تَرْحِيْبٍ في بلاكهرست. ذات مرة، في الأيام الأولى من المشروع، ارتكب أكبر أخطائه وذكر الكتاب لروز. ظَنَّ أنها ربما سَتَسُرُّ، وتُقدِّرُ الارتباط بين زوجها وابنة عَمَّتِهَا الغالية، لكنه كان مُخْطِئًا. لم يَنْسَ تعبيرات وجهها قَطُّ، الصدمة والغضب يختلطان معًا

بالحزن. قالت إنه خانها، وأنه لا يُجِبُّها، وأنه يريد أن يهجرها. أُسْقِطَ في يده. قام بما يفعله كُلَّ مَرَّةٍ في تلك الظروف، طَمَأَنَ روز وسألها إن كانت تريد أن يرسم لها لوحةً لمجموعته. واحتفظ بالمشروع سرًّا من ذاك اليوم فصاعدًا. لكنه لم يتخلَّ عنه. لم يستطع.

بعدما وُلِدَت أَيُّورِي واستعادت روز صِحَّتَها، انتظمت حياته ببُطءٍ. غريبة تلك القوة التي جلبتها الطفلة إلى المكان الميَّت، كأنها رَفَعَت الغطاء الأسود الذي غَطَّى كُلَّ شيء: روز، وزواجهما، وروحه. بالطبع لم يحدث ذلك بين عيشة وضحاها. كان ناثنياي يتصرَّف بحَذَرٍ فيما يَخُصُّ الطفلة في البداية، ويأخذ المبادرة من روز، مُحاذِرًا دائِمًا من أن حاجِرَ أَصْلِ الطُّفْلَةِ رُبَّمَا لا يمكن تَخْطِيه. فقط حينما رأى أنها تحبُّ الفتاة كابتنتها، وليست مُجرَّدَ طائر، سمح لجدران قلبه أن تضعف. سمح لبراءة الطفلة الساحرة أن تتغلغل في روحه المتعبَّة الجريحة وتنفذ فيها، واحتضن كمالَ عائِلَتِه الصغيرة، القوة التي اكتسبتها وأعضاؤها يتزايدون من فردين إلى ثلاثة.

شيئًا فشيئًا، نسي أمر الكتاب والفرحة التي تجلبها الرسومات. كَرَسَ نفسه ليسير على خُطى عائلة مونتراشيه. تجاهلَّ وجود إيليزا، وحينما طلبت منه أدالين تغييرَ لوحةِ چون سينجر سارچنت، تلاعب، برضا، إن لم يكن بسعادة، بعمل الرجل العظيم. شعر ناثنياي وقتذاك أنه تعدَّى على خطوط كثيرة ومبادئ كانت ذات يومٍ لا تُنتَهَكُ، وأن انتهاكَ خَطِّ آخر لن يَضُرَّ...

وصل ناثنياي إلى منتصف المتاهةِ وأبصر أمامه طاووسين قَيَّماه سريعًا قبل استئناف طريقهما. سار بحرص ليتجنَّبَ الناقوس المعدنيّ الذي يُهدَّد بتعَثُّر المرء، ثم دخل الممرَّ الضيّق الذي يُفضي نحو الحديقة السريَّة.

تَجَمَّد ناثانِيال. سَمِعَ صَوْتَ تَحَطُّمِ فُرُوعِ شَجَرٍ، وَوَقَعَ أَقْدَامِ خَفِيفَةٍ، أَثْقَلَ مِنْ أَقْدَامِ الطَّوَاوِيسِ.

تَوَقَّفَ، وَالتَفَتَ بِسُرْعَةٍ. أَبْصَرَ وَمِضَّةً مِنَ اللَّوْنِ الْأَبْيَضِ. ثَمَّةَ شَخْصٍ يَتَّبَعُهُ.

"مَنْ هَذَا؟" كَانَ صَوْتُهُ خَشِينًا أَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ. أَرْدَفَ بِصَوْتِ قَاسٍ: "أَصِرُّ عَلَى أَنْ تَخْرُجَ مِنْ مَخْبِئِكَ".

لِحِظَةٍ مِنَ الصَّمْتِ، ثَمَّ انْكَشَفَ الْمُتَعَقِّبُ.

"أَيْفُورِي!" رَاحَةَ تَلَاهَا الدُّعْرُ. "مَاذَا تَفْعَلِينَ هُنَا؟ لَيْسَ مَسْمُوحًا لَكَ الذَّهَابُ إِلَى مَا وَرَاءَ بَوَابَاتِ الْمَتَاهَةِ".

"أَرْجُوكَ يَا بَابَا" قَالَتِ الطِّفْلَةُ. "خُذْنِي مَعَكَ. يَقُولُ دِيثِيسُ إِنَّ هُنَاكَ حَدِيقَةَ فِي نَهَايَةِ الْمَتَاهَةِ يَبْدَأُ عِنْدَهَا كُلُّ أَقْوَاسِ قُزْحِ فِي الْعَالَمِ".
أَعْجَبَ نَاثَانِيالُ بِالصُّورَةِ. "حَقًّا؟".

أَوْمَأَتْ أَيْفُورِي بِجَدِّيةٍ طِفْولِيَّةٍ حَرَّكَتْ مِشَاعِرَ نَاثَانِيالِ. أَلْقَى نَظْرَةً عَلَى سَاعَةِ الْجَيْبِ. سَتَعُودُ أَدَالِينَ فِي غُضُونِ سَاعَةٍ، مُتَحَمِّسَةً لَتَفْحُصَ تَقْدُومَهُ فِي مَهْمَّةٍ لُورْدِ هَايْمَارِكْتِ. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وَقْتُ إِعَادَةِ أَيْفُورِي إِلَى الْمَنْزَلِ ثَمَّ الرَّجُوعِ مُجَدِّدًا، وَمَنْ يَدْرِي مَتَى سَتَسْنَحُ الْفُرْصَةَ مَرَّةً ثَانِيَةً. حَكَ أُذُنَهُ وَتَنَهَّدَ. "تَعَالَى إِذْنِ يَا صَغِيرَتِي".

سَارَتْ بِالْقَرْبِ مِنْهُ، وَهِيَ تَدْنِدُنُ بِلِحْنٍ تَعَرَّفَ عَلَيْهِ نَاثَانِيالُ، كَانَتْ أَغْنِيَةَ "الْبَرْتِقَالِ وَاللِيمُونِ". الرَّبُّ وَحْدَهُ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَعَلَّمَتْهُ. لَيْسَ مِنْ رُوزٍ؛ فَذَاكَرْتَهَا سَيِّئَةً فِيمَا يَخْصُ الْأَغَانِي وَالْأَلْحَانَ، وَلَيْسَ مِنْ أَدَالِينَ، الَّتِي لَا تَعْنِي الْمَوْسِيقَى لَهَا شَيْئًا. بِالتَّأَكِيدِ إِحْدَى الْخَادِمَاتِ. إِنْ ابْنَتُهُ بِحَاجَةٍ إِلَى مُرَبِّيَّةٍ مَنَاسِبَةٍ، إِنَّهَا تَقْضِي وَقْتًا كَبِيرًا مَعَ خَدَمِ بِلَاكِهْرَسْتِ. تُرَى مَا الْمَهَارَاتُ الْأُخْرَى الَّتِي اكْتَسَبَتْهَا نَتِيجَةً لِذَلِكَ.

"بَابَا؟"

"نَعَمْ".

"صَنَعْتُ صُورَةً أُخْرَى فِي عَقْلِي".

"حَقًّا؟" دَفَعَ نَاتَانِيَال فِرْعَ عُلَيْقِ شَائِكِ جَانِبًا حَتَّى تَمُرَّ أَيْفُورِي.

"كَانَتْ سَفِينَةٌ كَابِتْنِ آهَابِ⁽¹⁾. وَالْحَوْتِ يَسْبَحُ بِالْقُرْبِ مِنْهَا".

"وَمَاذَا كَانَ لَوْنُ الشَّرَاعِ؟".

"أَبْيَضٌ بِالطَّبْعِ".

"وَالْحَوْتِ؟".

مكتبة

t.me/t_pdf

"رَمَادِيًّا كَعَيْمِ عَاصِفَةٍ".

"وَكَيْفَ هِيَ رَائِحَةُ السَّفِينَةِ؟".

"مِيَاهُ مَالِحَةٌ وَحِذَاءُ دِيْقِيْسِ الْقَدْرِ".

رَفَعَ نَاتَانِيَال حَاجِبِيَهُ مُسْتَمْتِعًا. "أُظُنُّ أَنَّهَا كَذَلِكَ". كَانَتْ وَاحِدَةً مِنْ أَلْعَابِهِمَا الْمُفَضَّلَةِ، يَلْعَبَانَهَا كَثِيرًا فِي الْأَصِيلِ، حِينَمَا كَانَتْ تَجْلِسُ أَيْفُورِي فِي مَرَسِمِهِ. لَقَدْ انْدَهَشَ نَاتَانِيَالُ عِنْدَمَا اكْتَشَفَ أَنَّهُ يَسْتَمْتِعُ كَثِيرًا بِصُحْبَةِ الطِّفْلِ. إِنَّهَا تَجْعَلُهُ يَرَى الْأَشْيَاءَ بِشَكْلِ مُخْتَلَفٍ، أَكْثَرَ بَسَاطَةً، بِطَرِيقَةٍ جَلَبَتْ حَيَاةَ جَدِيدَةً إِلَى لُوحَاتِهِ. أَسْأَلْتُهَا الْمُتَكَرِّرَةَ عَمَّا كَانَ يَفْعَلُهُ وَمَاذَا، تَطَلَّبَتْ مِنْهُ أَنْ يَشْرَحَ لَهَا الْأَشْيَاءَ الَّتِي نَسَاهَا مِنْذُ أَمَدٍ طَوِيلٍ وَاسْتَمْتَعَ بِهَا: إِنْ الْمَرْءُ يَجِبُ أَنْ يَرَسُمَ مَا يَرَاهُ، وَلَيْسَ مَا يَتَخَيَّلُهُ مَوْجُودًا، وَأَنْ كُلَّ صُورَةٍ تَتَكَوَّنُ مِنْ خَطُوطٍ وَأَشْكَالٍ فَحَسَبِ، وَأَنَّ اللَّوْنَ يَنْبَغِي أَنْ يَكْشِفَ وَيُخْفِي.

"لَمَاذَا نَذْهَبُ عِبرِ الْمَتَاهَةِ يَا بَابَا؟".

"هَنَّاكَ أَحَدُهُمْ عَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ يَجِبُ أَنْ أَرَاهُ".

"اسْتَوْعَبْتَ أَيْفُورِي ذَلِكَ. "هَلْ هُوَ شَخْصٌ يَا بَابَا؟".

(1) إحدى الشخصيات الرئيسية في رواية (موي ديك) للكاتب الأمريكي هيرمان ملفيل.

"بالتّبع شخص. هل تعتقدين أن أباك ربما يقابل وحشًا؟".

انعطفًا في زاوية، ثم أخرى، وذكّرَه هذا بالكرة الزجاجية التي تنزلق، دون تحكّمٍ في مصيرها، في منحنيات ومُنعطقات المجرى الذي سيّدته أيثوري في غرفة الأطفال. فكرة سخيّة بالطبع؛ فتصرّفات اليوم تصرّفات رَجُلٍ يُسيطرُ على مصيره. سارا في منعطفٍ أخير، ووصلت إلى باب الحديقة السريّة. توقّف ناثانيل، ثم جثًا، واحتضن كَتِفِهَا النحيلتين برفق. قال بحذر: "لقد جَلَبْتُكِ عبر المتاهة اليوم يا أيثوري".
"أجل يا بابا".

"لكن لا يجدر بكِ المجيء هنا مُجَدِّدًا، وبالطبع لا تأتي وحدك". زَمَّ ناثانيل شفّيته. "وأظنُّ أنه لو كان من الأفضل لو... لو كانت رحلتنا هذه اليوم...".

"لا تقلق يا بابا. لن أخيرِ ماما".

اختلّطت راحته بشعور غير مريح أنه تأمّر مع طفلته ضدّ زوجته.
"ولا جدّتي أيضًا يا بابا".

أوما ناثانيل وابتسم بوهن. "الأفضل أن يظلّ كذلك".
"سرّ".

"أجل... سرّ".

دفع ناثانيل الباب فانفتح على الحديقة السرية، وقاد أيثوري عَبرَهَا. توقّع أن يرى إيليزا، تجلس مثل ملكة الجنّيات على بُقَعَةٍ من العشب أسفل شجرة التفاح، لكن الحديقة كانت صامتة ساكنة. الحركة الوحيدة جاءت من طائر أبي الجنّاء -هل كان نفس الطائر السابق؟- والذي أمال رأسه وراقب ناثانيل، وهو يشقُّ طريقه على الممرّ المتعرّج، كأنه يخطو في مملكته.

"عجبًا يا بابا!" قالت أيقوري وهي تُبَحِّلُ بدهشةٍ في الحديقة. حَدَّقَتْ إلى أعلى، وهي تستوعب نبات اللبلاب الذي زحف جيئةً وذهابًا، من أعلى جدار إلى قِمةٍ آخر. "إنها حديقةٌ سحريةٌ".

كم كان غريبًا أن تشعر طفلةٌ بهذا الشيء. وتساءل ناثانيل ما الأمر الذي يجعل المرء يشعر بهذه العظمة غير الطبيعية في حديقة إيليزا؟ ربما هناك مُقايضةٌ مَّتَّ مع أرواح الموتى وتَسَبَّت في هذه الوفرة الجامحة.

قاد أيقوري عبر الباب الجنوبي وإلى الممر الذي يحتضن جانبًا من الكوخ. برغم أن الوقت لم يتأخر، كان الجو باردًا ومُظلمًا في مُقدِّمة الحديقة، بسبب الجدار الحجري الذي أمرت أدالين ببنائه. وضع ناثانيل يده بين عَظْمَتَيْ ظهر أيقوري البارزَتَيْن، جناحيها السُّحْرِيَّيْن. "اسمعي. بابا سيدخل لكن يجب أن تنتظري هنا في الحديقة".

"أجل يا بابا".

تردَّد ثم قال. "لا تتجوَّلي".

"كلًا يا بابا" قالت ببراءة، كأنَّ التَّجوُّل في مكانٍ مَمْنوعٍ كان أبعدَ شيئًا عن ذهنها.

بإيماءةٍ، ذهب ناثانيل إلى الباب. قرع وانتظر قدوم إيليزا، وعدل من ثنية كُفِّه.

انفتح الباب وكانت هناك. كأنه رآها البارحة آخر مرة. كأنَّ السنوات الأربع لم تُمرَّ.

جلس ناثانيل على مقعد بجوار الطاولة، ووقفت إيليزا على الجانب الآخر، أصابعها تستريح خفيًا على حافَّتِها. كانت تنظر إليه

بطريقتها الفريدة. فارِغَة من التأنق الاجتماعي المُعتاد الذي يشير إلى أنها كانت مسرورة لرؤيته. هل كان الغرور هو الذي جعله يظنُّ أنها كانت مسرورةً لرؤيته؟ شيء في ضوء الكوخ تأمر ليجعل شعرها أكثر احمرارًا ولمعانًا عن المعتاد. تسلَّل ضوء الشمس في خُصلاته المتشابكة، وجعله يبدو كأنه عُزْلٌ من ذهب الجِئِيَّات. وبَّخ ناثانيال نفسه؛ لأن قراءته لقصصها أثَّرت على حُكمه عليها. إنه يعرف أفضل من ذلك.

امتدَّ بينهما شعور من الغرابة. كان هناك الكثير ليُقال إلا أنه لم يستطع التفكير في شيء ينطق به. كانت المرة الأولى التي رآها منذ الاتفاق. تنحج، ومدَّ يده كأنه سيمسك بيدها. لم يستطع تمألك نفسه. رفعت أصابعها فجأة، وحوَّلت انتباهها إلى الموقد.

تراجَع ناثانيال إلى مقعده. وتساءل كيف يبدأ، ما الكلمات التي سيُغْلَف بها رسالته. "تعلمين سبب زيارتي" قال أخيرًا.

قالت دون أن تلتفت إليه: "بالطبع".

راقبَ أصابعها النحيلة، وهي تضع إبريق الشاي على الموقد. "تعلمين إذن ما سأقوله".

"أجل".

تسلَّل صوتٌ عذبٌ من النافذة حمله النسيم بخفة: "برتقال وليمون، تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت..."⁽¹⁾

تصلَّب ظهر إيليزا حتى أن ناثانيال كان بمقدوره رؤية الفقرات الصغيرة في عنقها. مثل عمودٍ فقري لطفل. التفتت بحدَّة وهي تقول: "الفتاة هنا؟".

(1) من أغاني المهدي الإنجليزية، تشير إلى أجراس العديد من الكنائس الواقعة في محيط مدينة لندن.

شعر ناثانيال بالسرور للتعبير الذي ارتسم على وجهها، تعبیر حيوانٍ يُوشِكُ أن يَقَعَ في الشُّبَاك. تاق لرسمها: العينين المتَّسَعَتَيْنِ، الوَجْنَتَيْنِ الشَّاحِبَتَيْنِ، الفم المشدود. وعلم أنه سيحاول أن يفعل ذلك بمجرد عودته إلى مرسمه.

"لقد جَلَبَتِ الطُّفْلَةَ إلى هنا؟"

"لقد تَبِعْتَنِي. لم أدرك الأمرَ إِلَّا مُتَأَخِّرًا."

غَادَرَت وَجْهَهَا النُّظْرَةَ السَّقِيمَةَ، وتحوَّلت إلى ابتسامةٍ ضعيفة. "إنها تُحِبُّ التَّسَلُّلَ."

"يقول البعض إنها شَقَاوَةٌ."

جَلَسَتْ إيليزا بخفَّةٍ على المقعد. "يَسْرُنِي أن الفتاة تُحِبُّ الألعاب."

"لا أدري إن كانت أمُّها مسرورةً بهذه المغامرات."

كانت ابتسامتها مُسْتَحِيلَةَ القراءة.

"وبالتأكيد جَدُّتها كذلك."

اتَّسَعَتِ الابتسامة. وقابلها ناثانيال سريعًا، ثم أشاح بِبَصَرِهِ. تنهَّد اسمها. "إيليزا"، وهزَّ رأسه. بدأ بما جاء ليقوله: "البارحة...".

"سُعِدْتُ البارحةَ لرؤية أن الطفلة بخير" تكلمت سريعًا وبقلق، لتمنع استكمال حوارهِ.

"بالطبع هي بخير، ولا ينقصها شيء."

"مظهر الثَّراءِ ربما يكون خادِعًا، إنه لا يعني دومًا أن المرء بخير. سَلْ زَوْجَتَكَ."

"هذه قسوة ليست ضروريةً."

إيماءة حادة. اتفاق بسيط، وليس نَدَمًا. تساءل ناثانيال في قرارة نفسه إن كانت تفتقر إلى الأخلاق، لكنه يعلم أنها ليست كذلك. حدّقت فيه دون أن يطرف لها جفنٌ. "لقد جئتُ بخصّوص هديّتي". خفض ناثانيال صوته "كان تصرّفًا أحمقٌ منك أن تجلبّيها. تعرّفين كيف تشعر روز".

"أعرف. لكن ما الضّرر الذي تُوقّعه هديّة كهذه؟".

"تعرّفين جيّدًا الضّرر، وأنا أعرف أنه بصفتك صديقةً لروز، لا ترغبين في أن تُسبّبي لها ألمًا. وبصفتك صديقة لي... "شعر فجأةً بالحُمق، ونظر إلى الأرض، كأنه ينظر إليها لتدعّمه. "أتوسّل لكِ ألاّ تأتي مُجدّدًا يا إيليزا. لقد عانت روز بشدّة بعد زيارتك. إنها لا تُحبُّ أن تتذكّر".

"الذاكرة سيّدةٌ قاسيةٌ يجبُ علينا جميعًا تعلّم الرّقص معها".

قبل أن يعثر ناثانيال على ردّ مناسب، حوّلت إيليزا انتباهها إلى الموقد. "هل تُحبُّ أن تتناول الشاي؟".

"كلّا" قال وهو يشعر بالانتصار بعض الشيء، برغم أنه لم يكن واثقًا كيف. "يجب أن أعود".

"روز لا تعرف أنك هنا".

"يجب أن أعود" أعاد قُبّعته إلى رأسه ومشى نحو باب المطبخ.

"هل رأيته؟ أظنُّ أنه جيّد".

توقّف ناثانيال لكنه لم يلتفت. "وداعًا يا إيليزا. لن أراك مُجدّدًا". دفع ذراعيه إلى معطفه، وأزاح جانبًا الشُكوك المجهولة الصغيرة. كان على وشك بلوغ الباب حينما سمعها في الردهة وراهه تقول: انتظري". قالت وقد اهتزّت بعض من رباطة جأشها: "اسمح لي بالقاء نظرة قريبة على الطّفلة، على ابنة روز".

ضغط ناثانيال أصابعه على المقبض البارد للباب المعدني. وجَزَّ على أسنانه الخلفية وهو يتمعن في طلبها.
"سوف تكون الأخيرة".

كيف يمكنه أن يرفض هذا التوسُّلَ البسيط؟ "نظرة. ثم سأرجعُها، سأخذها إلى المنزل".

سارا معًا عبر الباب الأمامي إلى الحديقة. كانت أيثوري تجلس بجوار حافة البركة الصغيرة، أطراف أصابعها العارية التفت على الحافة حتى أنها قبَّلت الماء، تُغني لنفسها وهي تدفع ورقة شجر على السطح.

وحيثما رفعت الطفلة عينيها، وضع ناثانيال يده برقة على ذراع إيليزا ودفعها إلى الأمام.

اشتدت الرياح، واضطرَّ لينوس إلى الاتكاء على عصاه ليتجنَّب التعثُّر. أسفل الخليج الصغير، اضطرب البحرُ الوديع المعتاد، حتى أن أمواجًا صغيرةً ذات قِمَمٍ بيضاء اندفعت نحو الشاطئ. كانت الشمس تختفي وراء سُحُبٍ من الغمام، ذكَّره ذلك بأيام الصيف الجميلة التي قضاها يومًا في الخليج الصغير مع دُمَيْتِه منذ أمدٍ بعيد.

كان القارب الخشبي الصغير هديَّةً من الأب إلى جورجيانا، لكنها سعدت بمشاركته معه. لم يظن للحظة أن قدَّمه الضعيفة تُقلِّل من رجولته، لم يعبأ بما قاله الأب. في الأمسيات حينما كان الهواء دافئًا وجميلًا، كانا يُجدِّفان معًا إلى منتصف الخليج الصغير. يجلسان، بينما تحتضن الأمواجُ برقةً قاعدةً القارب، لا أحد منهما كان يهْمُه شيء سوى الآخر. أو هكذا اعتقد لينوس.

حينما رحلت، أخذت معها شعورَه الهَشَّ بالثَّماسُك. شعور أن لديه شيئاً ليقدمه، برغم أن الأب والأم اعتبراه صبيّاً أحمرّ بلا جدارةٍ أو استحقاق. بدون چورچيانا عاد عديم الجدوى مُجدِّداً، بلا هدف؛ لذا اعتزم على إعادتها. قام باستئجار رَجُلٍ يُدعى هنري مانسيل، شخص غامض مُبهم يتردّد اسمه في حانات كورنوال، وسَمِعَ به لينوس من خادم يعمل لدى أحد نبلاء المنطقة. قيل إنه يعرف كيف يهتمُّ بالأمر. أخبره بأمر چورچيانا والشخص الذي سرقها منه والضَّرَر الذي أصابه جرّاء ذلك. وأخبره أيضاً أن الرَجُل يعمل في السُّفن الخارجة والقادمة من وإلى لندن. الشيء التالي الذي عرفه لينوس، أن البَحَّار لقي مصرعه. قال مانسيل، وملامح وجهه خالية من التعبير، إنها كانت حادثةٌ مأساويةٌ.

راققَ لينوس شعورٌ غريبٌ ذاك المساء. حياة رَجُلٍ انطفأت بكلمةٍ منه. كان قوياً، قادراً على فرض رغباته على الآخرين، أشعرَه ذلك بالسعادة. منح مانسيل أموالاً سخيةً، ثم انصرف الرجل وانطلق يبحث عن چورچيانا. امتلأ قلبه بالأمل؛ بالتأكيد ليس هناك حدودٌ لإمكانات مانسيل. ستعود دُميَّتُه إلى المنزلِ عمّاً قريب، مُمتنّةٌ لإنقاذها. وستعود الأمور لسالف الأيام...

بَدَت الصَّخْرَةُ السوداء غاضبةً اليوم. شعر لينوس بقلبه يترنّح وهو يتذكّر چورچيانا تجلس على قِمَّتِها. مدّ يده نحو جيبه وسحب الصورة الفوتوغرافية، ملّس عليها برفقٍ بإبهامه.

"دُميَّتِي" قالها هامساً بشرود. طاردها مانسيل كثيراً، لكنه لم يعثر عليها قط. طاف أوروبا، وتعبها في لندن، بدون جدوى. لم يسمع لينوس شيئاً إلا في عام 1900، حينما وصله خطاب من مانسيل يُخبرُه أنه عثر على طفلةٍ في لندن. طفلة ذات شعر أحمر وتمتلك عينيَّ أمِّها.

رفع لينوس نظرتة المَحَدَّقَة من البحر، وانحرفت نحو قِمَّةِ الجُرْفِ الحجري الذي يربط الجانب الأيسر من الخليج الصغير. تَبَيَّنَ زاوية الجدار الحجري الجديد من مكانه.

فرح بأخبار العثور على الطفلة. لقد تأخَّر في استرجاع چورچيانا، لكنَّها ستعود خلال هذه الفتاة. ومع ذلك تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. قاوَمَتِه إيليزا، لم تفهم أنه أرسل وراءها، وأحضرها إلى هنا حتى تعرف أنها تنتمي له. والآن حضورها يُعَدِّبُه، وهي محبوسة في ذلك الكوخ اللعين. قريبة للغاية، ومع ذلك... مرَّت أربع سنوات. أربع سنوات منذ أن حَطَّت إلى هذا الجانب من المتاهة. لماذا كانت بتلك القسوة؟ لماذا تُنكِرُه مرَّةً تلو المرَّة؟

هَبَّةٌ مُفاجِئَةٌ من الرياح وشعر لينوس أن قُبَعَتِه رُفَعَت عن الجوانب. مَدَّ يده، غريزيًّا، ليمنعها، وبينما كان يفعل، تراخت قبضته عن الصورة الفوتوغرافية.

على تَيَّارٍ من نسيم قِمَّةِ التل، بينما وقف لينوس بعجز، كانت دُمَيْتُه تطير بعيدًا عن متناول يده. إلى أعلى وإلى أسفل، تخفُّق في الرياح، تلمع بلونٍ أبيض أسفل وهج السُّحب، تُرْفِرِفُ، تغيظه، قبل أن تنجرف بعيدًا، وتهبط أخيرًا على سطح المياه ليحملها البحر في طريقه.

بعيدًا عن لينوس، تنزلق من بين أصابعه مُجَدِّدًا.

منذ زيارة إيليزا، كانت روز تشعر بالقلق. أنهكَّت ذهنها وهي تسعى لإيجاد حَلٍّ لهذه المعضلة. حينما ظَهَرَت إيليزا قادمَةً من بَوَابات المتاهة، شعرت روز بالصُّدمة؛ إذ فهمت أخيرًا أنهم في خطر. الأسوأ أنهم كانوا في خطرٍ لبعض الوقت دون أن يدركوا ذلك. في

البداية شعرت بالصداع والهلوع. ارتاحت لأنه لم يحدث شيء حتى الآن، وراودها يقينٌ مُخيفٌ أن هذا الحَظُّ لن يدومَ طويلًا. تمعَّنت في جميع الخيارات، مَمةً شيء واحد تعرفه على وجه التأكيد: كانت أمُّها مُحِقَّةً، إنهم بحاجة إلى وضع مسافة بينهم وبين إيليزا.

سحبت الخيط بِرُقَّةٍ من العُرْوَة، ودرَّبت صَوْتَهَا على نبرةٍ لا مُبَالِيَةٍ مِثَالِيَّةٍ: "لقد كنتُ أفكِّرُ مُجَدِّدًا في زيارة المؤلِّفة".

رفع ناثانيال عينيه عن الخطاب الذي كان يكتبه. وطَرَدَ بِسُرْعَةٍ القلقَ من نَظَرِته. "كما قُلْتُ من قبل، يا عزيزتي، لا تُفكِّري في هذا الأمر كثيرًا. لن يحدث مُجَدِّدًا".

"لا يمكن أن تكون واثقًا من ذلك، مَنْ كان يتنبأ بهذه الزيارة؟".
قال بلهجة أكثر صرامة الآن: "لن تأتي مُجَدِّدًا".
"وكيف تعرف؟".

تَوَرَّدت وجنتاه. كان التَّغْيُرُ طفيفًا للغاية، لكن روز لاحظته. "نيت؟ ما الأمر؟".

"لقد تحدَّثتُ معها".

دقَّ قلب روز أسرع. "رأيتها؟".

"كان عليَّ أن أفعل ذلك، من أجلك يا عزيزتي. كنتِ مُستاءةً للغاية من زيارتها، فَعَلْتُ ما كان ضروريًا لأضمن عدم تكرارها ثانية".

"لكنني لم أُرِدْ مِنْكَ أن تراها". كان هذا أسوأ ممَّا تَخَيَّلْتُ روز. اندفَعَت مَوْجَةً من الحرارة أسفل جلدِها، وامتلات بيقينٍ أَشَدَّ بِضُرُورَةِ الِابْتِعَادِ. جميعهم. ويجب أن تتعد إيليزا إلى الأبد عن حياتهم. أبطأت روز من أنفاسها، ودرَّبت وجهها على الاسترخاء. لن يُفِيدَ أن تجعل ناثانيال يفكِّر أنها مريضة، وأنها تتخَذُ قرارات بدون منطق. "التَّحَدُّثُ معها ليس كافيًا يا نيت. لم يَعُدْ كذلك".

"ما الذي يمكن فعله؟ بالتأكيد لا تقترحين أن نحبسها في الكوخ؟"
حاول أن يجعلها تضحك، لكنها لم تحرك ساكناً.

"كنت أفكر في نيويورك".

ارتفع حاجباه.

"لقد تحدثنا من قبل حول قضاء وقتٍ عبر الأطلسي. أظن أنه
يجب أن نشرع في تحقيق خططنا".

"ترك إنجلترا؟"

أومات روز، قليلاً ولكن بتأكيد.

"لكن لدي مهام. لقد تحدثنا عن تعيين مربيّة من أجل أيفوري".

"أجل، أجل" قالت بنفاد صبر. "لكنه لم يعد أميناً".

لم يقل ناتانيل شيئاً في المقابل، لكنه لم يحتاج إلى ذلك؛ باحت
تعبيرات وجهه بكل شيء. تصلّبت الرقاقة الجليديّة الصغيرة داخل روز.
سيحاول أن يلبّي رغباتها، دوماً يفعل، ولا سيّما حينما يخشى انزلاقها
إلى اليأس. شعرت بالأسف لاستخدام إخلاص ناتانيل ضده، لكن لم يكن
أمامها حلٌّ آخر. لطالما حلمت بالأمومة وحياةٍ أسيّة، وهي لا تنوي
خسارتها الآن. حينما وُلدت أيفوري، ووُضعت بين ذراعيها، شعرت
كأنهم منحوها بدايةً جديدة. شعرت هي وناتانيل بالسعادة مجدّداً،
لم يتحدثوا قط عن الوقت السابق، كأنه لم يكن. وسيظلُّ هذا الوضع
قائماً إذا ظلّت إيليزا بعيدة عنهم.

قال ناتانيل: "لديّ مهمّة في كارلايل⁽¹⁾. لقد بدأت بالفعل". أدركت
روز التشفّقات في صوته، والتي سوف تُوسّعها حتى تنهار مقاومته.

(1) بلدة تقع في مقاطعة كمبريا بانجلترا.

قالت: "بالطبع ستنجزها. وبمجرد الانتهاء منها، سنُبحر على الفور بعدما نعود. معي ثلاث تذاكر لسفينة كارمانيا".

"لقد حَجَزتِ بالفعل". كانت جُمْلَةً أَكْثَرَ مِنْ كَوْنِهَا سَوْأَلًا.

قالت بصوتٍ جعلته رقيقًا: "تلك هي أفضل طريقة يا نيت. لا بُدَّ وأن تفهم ذلك. تلك هي الطريقة الوحيدة التي سنكون بها آمنين. فَكَّر في المُمَيِّزَات التي ستعود على مستقبلك المهني من هذه الرحلة. ربما تنشر جريدة نيويورك تايمز تقريرًا عن ذلك. العودة المجيدة لواحد من أبرع أبناء المدينة".

مُكْوَمَةٌ أسفل الكرسي الهَزَّاز المِفْضَل لِلجَدَّة، همست أَيْشوري بالكلمات لنفسها: "نيويورك". تعرف أَيْشوري أين تقع نيويورك. ذات مرة، حينما سافروا شمالاً إلى اسكتلندا، هي وماما وبابا توقَّفوا لفترة في يورك، في منزل أحد أصدقاء جَدَّتِها. سَيِّدَةٌ مُسِنَّةٌ لِلغَايَةِ ترتدي نَظَّارَةً سِلْكِيَّةً، وعيناها تبدوان دَوْمًا باكِتَيْنِ. لكن ماما لم تكن تتكلم عن يورك، أَيْشوري سَمِعَتْها بوضوح. قالت يجب أن يذهبوا قريبًا إلى نيويورك. وأَيْشوري تعلم أين تقع هذه المدينة. كانت وراء البحر، المكان الذي وُلِدَ فيه بابا، والذي كان يحكي عنه دَوْمًا حكاياتٍ مليئةً بناطحات السَّحاب والموسيقى والسيارات. مدينة يلمع فيها كل شيء.

كتلة من شعر الكلب دَغَدَغَت أنفَ أَيْشوري فقاوَمَت لتكتم عطستها. كان أحد أهم مهاراتها، القدرة على وَقْفِ العطس، وهذا جزءٌ من كَوْنِهَا أَفْضَلَ لِاعِبَةٍ في لعبة العُغْمِيضَةِ. كانت تستمتع بالاختباء حتى أنها كانت تفعله أحيانًا دون سبب سوى المُتَعَّة. وحدها في غرفةٍ تخبئُ من أجل المتعة الخالصة لمعرفة أن الغرفة نفسها نسيت وجودها.

لكن اليوم، اختبأت عمداً. كان الجَدُّ في مزاجٍ غريب. عادةً كان يُعتمدُ عليه لإبعاد نفسه بنفسه، لكن مؤخراً كان يظهر أينما كانت موجودة، ويناديهما أنها ملكه. يلاحقها دائماً بكاميرته البنيّة الصغيرة، محاولاً التقاط صورةٍ لها مع دُميتّه المكسورة. لم تُحبّ أيقوري الدُميّة المكسورة بعينيها البشعَتَيْن اللَّتَيْن تظرفان. وبرغم أن أمّها أخبرتها أن تطيع أوامر الجَدِّ، وأن التقاط صورتها كان شرفاً كبيراً، فَضَلَّت أيقوري الاختباء.

شعرت بالقشعريرة حينما فكّرت في الدُميّة؛ فحاولت التفكير في شيء آخر، شيء يجعلها سعيدة، مثل مغامرتها مع بابا، عبر المتاهة. كانت أيقوري بالخارج تلعب حينما رأت بابا يبرز من الباب الجانبي من المنزل. سار بسرعة، في البداية ظنّت أنه زُجماً يأخذ العربة ليرسم صورةً أحدهم. لكن لم يكن معه أدواته، ولم يكن يرتدي ملابسَه المعتادة التي يلبسها حينما يكون لديه لقاء مهمٌ. راقبته أيقوري يمشي عبر المَرَج، وهو يتّجه نحو بوابة المتاهة، حينها عَلِمَت بالضبط ماذا سيفعل، لم يكن بارعاً في التّظاهر. وبلا تردّدٍ هُرِعَت وراءه، وتبعته عبر بوابات المتاهة إلى الأنفاق الضيقة المظلمة. كانت أيقوري تعلم أن السيدة ذات الشعر الأحمر، تلك التي أحضرت معها الحزمة من أجلها، تعيش على الناحية الأخرى.

والآن، بعد زيارتها مع الأب، تعلم مَنْ هي هذه السيدة. كان اسمها المؤلّفة، ورغم أن أبها أخبرها أنها كانت شخصاً، كانت أيقوري تَعْلَمُ حقيقتها. راودتها الشكوك في اليوم الذي جاءت فيه عبر المتاهة، لكن بعد النظر في عينيها في حديقة الكوخ، عرفت أيقوري على وجه اليقين مَنْ تكون. كانت المؤلّفة كائناً سحرياً. ساحرة أو جِنِّيّة، لم تكن متيقّنة، لكن أيقوري عَلِمَت أن المؤلّفة لم تكن تشبه شخصاً آخر رآته من قبل.

(43)

كوخ الجرف، 2005

بالخارج، تَخَلَّتْ الرِّيحُ قِمَمَ الشَّجَرِ، وَتَنَفَّسَ الْبَحْرُ بِثِقَلٍ فِي الْخَلِيجِ الصَّغِيرِ. تَسَلَّلَ ضَوْءُ الْقَمَرِ عِبْرَ زَجَاجِ النَافِذَةِ، مُلْقِيًا بِأَرْبَعَةِ مُرَبَّعَاتِ فُضِيَّةٍ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ الْخَشْبِيَّةِ، وَعَبَقَتْ الْجِدْرَانِ، وَالْأَرْضُ، وَالْهَوَاءُ بِرَائِحَةِ حَسَاءِ الطَّمَاظِمِ السَّاخِنِ وَالْخَبْزِ الْمُحَمَّصِ. جَلَسَتْ كَسَانْدْرَا وَكْرِيسْتِيَانُ وَرُوبِي حَوْلَ الْمَائِدَةِ فِي الْمَطْبَخِ، وَالْمَوْقِدُ يَتَوَهَّجُ مِنْ جَانِبِ، وَسَخَّانُ الْكَيْرُوسِينَ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ. اصْطَفَّتِ الشَّمُوعُ بِطُولِ الْمَائِدَةِ وَتَنَاطَرَتْ حَوْلَ الْغُرْفَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ هُنَاكَ مَسَاحَاتُ فِي الْأَرْكَانِ الْمَنْزُويَّةِ الْمُظْلِمَةِ لَمْ يَصِلْهَا الضَّوُّ.

"ما زلتُ لا أفهم. كيف عرفتَ أن روز كانت عاقراً من مقال الصحيفة هذا؟" قالت روبي.

غرف كريستيان ملاء ملعقة من الحساء. "التعرُّضُ إلى الأشعة السَّيْنِيَّةِ. مُسْتَحِيلٌ أَنْ تَظَلَّ بُوِيضَاتُهَا سَلِيمَةً".

"ولكن ألم تكن تعرف؟ أقصد، بالتأكيد ظهرت علامة تدلُّ على أن الأمور لم تكن على ما يرام."

"مثل ماذا؟"

"ألم تكن... الدورة الشهرية مُنْتَظَمَةً؟"

هزَّ كريستيان كتفيه. "بلى، أعتقد ذلك. وظيفة جهاز التكاثر لديها لم تتأثر، كانت تُطَلِقُ بُوَيْضَةً كُلَّ شهر، لكن البويضات نفسها تَضَرَّتْ."

"دُمِرَتْ لدرجة أنها لم تستطع أن تَحْمَلَ؟"

"أو لو حدث حَمْلٌ، لن يكون الجنين سليمًا، ومن المُحْتَمَلِ أن تُجَهَضَ. أو تَلِدَ طفلاً بتشوُّهاتٍ كبيرةً."

دفعت كساندرا بقايا حسائها جانِبًا. "هذا أمر فظيع. لماذا فعل ذلك؟"

"ربما رغب في أن يكون من أوائل المستفيدين من هذه التقنية الجديدة البرّاقة، والتمتّع بمجد النشر. ما من سَبَبٍ طِبِّيٍّ يدفع للتعرُّض إلى الأشعّة السينية، لقد ابتلعت الطفلة كشتبانًا فحسب."

"ومَن لم يفعل؟" قالت روبي، وهي تمسح قطعة خبز بطبقها الخالي بالفعل.

"ولكن لماذا تعرّضت إلى الأشعّة لمدة ساعة كاملة؟ بالتأكيد لم يكن هذا ضروريًا؟"

قال كريستيان: "بالطبع لم يكن ضروريًا. لكن الناس لم يعرفوا حينها ذلك الأمر، كان من الشائع التعرُّض لها كثيرًا."

"ربما ظنُّوا أنهم لو حصلوا على صورة واضحة خلال خمسين دقيقة، سيحصلون على صورة أفضل منها في ساعة" قالت روبي.

"وكان ذلك قبل أن يعرفوا أخطارها. اكتشفت الأشعة السينية في عام 1895؛ لذا كان د. ماثيوس من أوائل من استخدموا هذه التقنية الحديثة وقتذاك. في البداية اعتقد الناس أنها كانت مفيدة، وربما تشفيهم من السرطان والآفات الجلدية وغيرها من الأمراض. كانت حروقها واضحة، لكن استغرق الأمر سنوات قبل إدراكهم نطاق آثارها السلبية".

"وتلك كانت شكل علامات روز. ندوب الحرق" قالت كساندرا.

أوما كريستيان. "بجانب مبيضها المحترقين، التعرض إلى الأشعة السينية بالتأكيد أحرق جلدها".

هبة من الريح دفعت فروع شجر رفيعة للنقر على الألواح الزجاجية، وخفقت أضواء الشموع بينما شريط بارد من الهواء انسل أسفل إزار الحائط. وضعت روي طبقها داخل طبق كساندرا، ومسحت فمها بمنديل. "إذن لو كانت روز عقيمة، من كانت والدة نيل؟".

"أعرف إجابة هذا السؤال" قالت كساندرا.

"حقًا؟".

أومات. "كُل شيء موجود في كتب القصصات. وأظن أن هذا ما أرادت كلارا أن تُخبرني به".

"من كلارا؟" قال كريستيان.

جذبت روي نفسًا. "هل تعتقد أن نيل كانت ابنة ماري؟".

"من ماري؟" نظر كريستيان بينهما.

قالت كساندرا: "صديقة إيليزا. والدة كلارا. خادمة بمنزل بلاكهرست طردت في بداية عام 1909 حينما اكتشفت روز أنها كانت حُبلى".

"روز طردتها؟".

أومات كساندرا. "في كتب القصصات كتبت أنها لا تحتمل التفكير أن شخصاً لا يستحقُّ يُنجبُ طفلاً وتُحرَم هي".

ابتلعت روبي جرعةً كبيرةً من النبيذ "ولكن لماذا أعطت ماري طفلتها إلى روز؟".

"أشكُّ في كلمة (أعطت)".

"هل تعتقدين أن روز اشترت الطفلة؟".

"أليس ذلك مُحتملاً؟ يقترف الناسُ أموراً سيئةً للحصول على طفل".

"هل تعتقدين أن إيليزا تعرف؟" قالت روبي.

"بل أسوأ من هذا. أعتقد أنها ساعدت في الأمر. وربما كان ذلك هو سبب رحيلها" قالت كساندرا.

"الإحساس بالذنب؟".

"بالضبط. لقد ساعدت روز في استخدام نفوذها لتأخذ طفلاً من شخص يحتاج إلى الأموال، وبالتأكيد كان يؤرِّقها ذلك. كانت هي وماري مُقرَّبَتَيْن، تقول روز هذا".

"أنتِ تفترضين أن ماري أرادت الطفلة. لم ترغب في التَّخْلِ عنها" قالت روبي.

"افتَرِضْ أن قرار التَّخْلِ عن الطفلة لم يَكُنْ بالترَّاضي. لقد احتاجت ماري إلى المال، وربما ظنَّت أن إنجابَ الطفلة سيُمثِّل مشكلة، وربما فكَّرت أن طفلتها ستحصل على منزل أفضل، لكنني ما زِلْتُ أعتقد أن الأمر بالتأكيد كان مُولِماً بالنسبة لها".

رفعت روبي حاجبَيْها قائلةً "وإيليزا ساعدتها".

"ثم رحلت بعيداً. وهذا ما يجعلني أفترض أن قرار تسليم الطفلة لم يكن قراراً سعيداً. أظن أن إيليزا رحلت لأنها لم تُطَق البقاء ومُشاهدةً روز مع طفلة ماري. أعتقد أنه حينما فُصِلت الأم عن الطفلة سَبَب الأمرُ صَدَمَةً، وشعرت إيليزا بتأنيب الضمير".

أومات روبي ببطء. "وهذا يُفسّر سبب رفض روز لرؤية إيليزا كثيراً بعد ميلاد أيثوري، وسبب ابتعاد الاثنين. لا بُدَّ وأن روز عَلِمَت بشعور إيليزا وخَشِيت أن تقترب شيئاً يُكَدِّر صَفْوَ سعادَتِها الجديدة".

"مثل استرداد أيثوري" قال كريستيان.

"وهو الأمر الذي فعلته بنهاية المطاف".

"أجل، الأمر الذي فعلته في النهاية" قالت روبي وهي ترفع حاجبيها نحو كساندرا. "إذن متى نرى كلارا؟".

"لقد دعّنتي لزيارتها غداً، في الحادية عشر صباحاً".

"اللعنة! سوف أرحل في الساعة التاسعة تقريباً. لديّ عَمَلٌ لَعِينٌ. كنت أتمنى أن أرافقك، يمكن أن أوصلك".

"سوف أصطحبك" قال كريستيان. كان يلعب في مقبضي السّخّان، وهو يرفع اللهب، وفاحت رائحة الكيروسين.

تحاشّت كساندرا ابتسامَةً روبي العريضة. "حقاً؟ هل أنت متأكّدة؟".

ابتسم وهو يلتقي بعينيها لُبْهَةً، قبل أن يشيخ بنظره بعيداً. "أنتِ تعرفينني. أرحّب بالمساعدة دوماً".

ابتسمت كساندرا رَدّاً على ذلك، وحوّلت انتباهها نحو سطح الطاولة وخدّاهما يتوردان. شيء في كريستيان جعلها تشعر بأنها عادت صَبِيَّةً مُجَدِّداً؛ شعوراً تاقّت للتشبُّث به، وأثار فيها الحنين إلى الماضي، ونقلها إلى زمانٍ ومكانٍ حيث كانت أبواب الحياة تفتح لها ذراعيها.

حاولت أن تتخّي جانبًا إحساسها بالذنب، أنّها باستمتاعها بصحبة كريستيان كانت تخون نيك وليو.

"إذن لماذا تعتقدين أن إيليزا انتظرت حتى عام 1913؟" نظر كريستيان من روبي إلى كساندرا. "أقصد استرجاع نيل، لماذا لم تستردها مُبكرًا؟".

مرّت يدُ كساندرا بخفّةٍ على طرف الطاولة. وراقبت ضوء الشموع يسقطُ على جلدها في نقاط صغيرة. "أعتقد أنها فعلت ذلك لأن روز وناثانيال لقيّا حتفهما في حادثة اصطدام القطار. أظن أنها برغم مشاعرها المختلطة فضّلت أن تنسحب وهي ترى سعادة روز".

"لكن فور أن ماتت روز...".

"بالضبط" التقت عيناها بعينه. شيءٌ في جدية ملامح وجهه جلبت لها رجفةً في عمودها الفقري. "فور أن ماتت روز، لم تُطق أن تطلّ أيفوري في بلاكهرست. ربّما أخذت الطفلة الصغيرة ونوت أن تُرجعها إلى ماري".

"إذن لماذا لم تفعل؟ لماذا وضعتها على سطح سفينة مُتجهّة إلى استراليا؟".

زفرت كساندرا وتذبذبَ لهبُ الشمعة. "لم أتوصّل لِحلّ هذا الأمر".

كما أنها لم تتوصّل إلى إجابة شافية عن سؤال هل عرف ويليام مارتن حينما قابل نيل في عام 1975 أنها كانت ابنة شقيقته؟ لقد كانت ماري شقيقته، أم يكن يعرف إن كانت حُبلى؟ ولو أنجبت طفلةً أَلَمْ تُربّها إذن؟ وبالتأكيد لو كان يعرف أنها حُبلى، لكان قد عرف الدور الذي لعبته إيليزا في موضوع التّبني غير الرّسمي، وأخبر نيل بالكثير؟ بالنهاية، لو كانت ماري هي والدة نيل، إذن ويليام هو خالها. لم تستطع كساندرا أن تتخيّل أنه ظلّ صامتًا وابنة شقيقته على

عتبة باب داره. إلا أن مُفَكَّرَةً نيل لم تذكُر شيئاً من هذا القبيل. لقد انكبت كساندرا على الصفحات، تبحث عن لمحاتٍ ربما عَقَلت عنها. لكن لم يَقُلْ ويليام ولم يفعل شيئاً يشير إلى أن نيل كانت من أقاربه.

ربما لم يعرف ويليام أن ماري كانت حُبلى. سَمِعَت كساندرا عن هذه الأمور، في الصُّحُف وفي البرامج التلفزيونية الأمريكية، الفتيات اللاتي يُحَبِّئْنَ حَمَلَهُنَّ لتسعة أشهر كاملة. وبالطبع مفهوم لماذا فَعَلَت ماري هذا. مُقَابِلَ وظيفتها، أَصْرَت روز على التَّكْتُم. بالتأكيد لم تكن تريد أن تعرف القرية الصغيرة أن طِفْلَتَهَا لم تكن من صُلْبِهَا.

ولكن هل من المحتمل أن تحمل فتاة، وتُخَطَبَ لحبيبها، وتفقد عملها، وتُسَلِّمَ طفلتها، وتستأنف حياتها، ولا أحد يعرف شيئاً عن ذلك؟ ثَمَّة شيءٌ لا بُدَّ وأنه غاب عن ذهن كساندرا.

"أليس هذا شبيهاً بقصص إيليزا الخيالية؟".

نظرت كساندرا إلى كريستيان وقالت: "ما هو؟".

"الأمر كله: روز وإيليزا وماري والطفلة. ألا تُذَكِّرُكِ بقصَّة (البيضة الذهبية)؟".

هزَّت كساندرا رأسها. لم يكن الاسم مألوفاً.

"إنها موجودة في كتاب (القصص الخيالية للفتية والفتيات)".

"ليس في نُسختي، لا بُدَّ وأن النُسخَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَانِ".

"هناك نسخة واحدة فقط؛ وذلك ما يجعل الكتاب نادراً".

رَفَعَت كساندرا كَتِفَيْهَا وهي تقول "لم أرها قط".

خبطت روبي بيدها وهي تقول: "كفى، مَنْ يهتم بعدد النسخ؟ اخبرنا عن القصة يا كريستيان. ما الذي يجعلك تعتقد أنها عن ماري والطفلة؟".

"إنها قصّة غريبة حقًّا، (البيضة الذهبية)، لطالما شعرتُ بذلك. مختلفة عن باقي القصص الخيالية، وأكثر حزنًا، وليس لها مغزى مُعيّن. إنها عن ملكة شريرة تُجبر فتاةً على تسليم بيضة ذهبية سحرية لتشفى أميرة البلاد العليلة. في البداية تُقاوم الفتاة لأن عملها هو حراسة البيضة، حقّها الشرعي، أظنُّ أنها وَصَفَتْه بتلك الكلمة، لكن الملكة أخذت تُضيق عليها الخناق، وفي النهاية ترضخ لأنها اقتنعت لو لم تفعل، ستعاني الأميرة من حزن أبديٍّ، وستُلعن المملكتُ لشتاءٍ مُقيمٍ. هناك شخصية تلعب دور الوسيطة في الصفقة، الخادمة. إنها تعمل لدى الأميرة والملكة، ولكنها تحاول أن تقنع الفتاة بعدم تسليم البيضة، كأنّها أدركت أن البيضة هي جزء من الفتاة، وأنها بدونها لن يكون للفتاة هدف، ولا سبب للعيش. وهذا ما حدث بالفعل؛ لقد سلّمت البيضة ودَمَّر ذلك حياتها".

"هل تعتقد أن الخادمة هي إيليزا" تساءلت كساندرا.

"دورها مُناسبٌ، أليس كذلك؟".

أسندت روبي ذقنها على قبضتها. "دعوني أفهم الأمر، تقول إن البيضة كانت الطفلة؟ نيل؟".

"أجل".

"وإيليزا كتبت القصة كطريقة لتخفيف وطأة الذنب؟".

هزّ كريستيان رأسه وهو يقول: "ليس ذنبًا. القصة لا تبدو أنها مُتعلّقة بالذنب. بل عن الحزن، على نفسها وعلى ماري، وعلى روز بطريقةٍ ما. جميع الشخصيات في القصة تعتقد أنها تفعل الصواب، لكن بعضهم لا يحصل على نهاية سعيدة".

عَضَّت كساندرا شَفَتَهَا مُفَكِّرَةً "هل تعتقد أن قصص الأطفال الخيالية ربما تكون سيرة ذاتية؟".

"ليس بالضبط، ليس بالمعنى الحرفي، إلا إذا كان لديها تجارب مجنونة بعض الشيء"، رفع حاجبيه للفكرة. "أظن أن إيليزا ربما حاولت أن تفهم بعض الجوانب من حياتها الخاصة عن طريق تحويلها إلى قصص. أليس هذا ما يفعله الكتاب؟".

"لا أعلم. هل يفعلون ذلك؟".

قال كريستيان: "سأحضر قصة (البيضة الذهبية) غدًا معي. ويؤكد الحكيم بنفسك". أبرز اللون الأصفر المائل إلى البني لضوء الشمعة عظام وجنتيه، وجعل بشرته تتوهج. ابتسم بخجل وهو يقول: "إن قصص إيليزا الخيالية هي صوتها الوحيد الباقي. ترى ماذا كانت تحاول أن تخبرنا به غير ذلك؟".

بعدما غادر كريستيان عائداً إلى القرية، افترشت روبي وكساندرا حقيبتَي النوم على الحشيتين الأسفنجيتين اللتين جلبهما معه. قررا البقاء بالأسفل للتمتع بدفء الموقد الساخن، ودفعتا الطاولة جانباً لإضفاء مساحة في الغرفة. هبَّت الرياح من البحر برفقٍ عبر الشقوق أسفل الأبواب، حتى بين الفجوات في ألواح الأرضية. لاحظت كساندرا أن المنزل كان يعبقُ برائحة تربةٍ رطبة، أقوى ممَّا كانت في النهار.

"حان وقت قصِّ حكايات الأشباح"، همست روبي، وهي تدور بثقلٍ لتواجه كساندرا. ثم ابتسمت، ووجهها ظليلٌ في الضوء المَهْتَزُّ. "يا له من أمرٍ مُمتِعٍ! هل أخبرتكِ كم أنتِ محظوظة لامتلاكِ كوخٍ مسكونٍ بالأشباح يُطلُّ على قمةٍ جُرفٍ صخريٍّ؟".

"مرة أو مرتين".

ابتسمت بوجنتينٍ مُمتلئتين. "ماذا عن كم أنتِ محظوظة لأن لديك صديقاً مثل كريستيان، وهو وسيم وذكيٌّ وعطوف؟".

رَكَزَتْ كساندرا على سَحَابٍ حَقِيبةِ نومها، وَسَحَبَتْهَ بِدَقَّةٍ وَاِتِّبَاهٍ أَكْثَرَ مِنَ الْإِجْزَاءِ.

"صديق يفكر أن الشمس تُشرق منك".

"أوه روبي" هَزَّتْ كساندرا رَأْسَهَا. "إنه لا يُفَكِّرُ هَكَذَا. إنه فقط يُحِبُّ مُسَاعَدَتِي فِي الْحَدِيقَةِ".

رَفَعَتْ روبي حَاجِبَيْهَا، وَهِيَ مُسْتَمْتِعَةٌ. "بالطبع، يُحِبُّ حَدِيقَتَكَ. وَهَذَا دَفْعُهُ إِلَى التَّخَلِّيِ عَنِ أَسْبُوعَيْنِ تَقْرِيْبًا لِيَعْمَلَ مُقَابِلَ لَأَشْيَاءٍ".
"وهذا حقيقي!".

"بالطبع هو حقيقي".

ابْتَلَعَتْ كساندرا ابْتِسَامَةً، وَقَالَتْ بِنَبْرَةٍ مُسْتَاءَةٍ قَلِيْلًا. "سواء صَدَقْتَ أَوْ لَمْ تُصَدِّقِي، الْحَدِيقَةُ السَّرِيَّةُ مُهِمَّةٌ لِلْغَايَةِ بِالنَّسْبَةِ لَهُ. لَقَدْ اعْتَادَ أَنْ يَلْهُو فِيهَا وَهُوَ طِفْلٌ".

"وهذا الشَّغْفُ الْكَبِيرُ بِالْحَدِيقَةِ لَا بُدَّ وَأَنَّهُ يُفَسِّرُ سَبَبَ اصْطِحَابِكِ غَدًا إِلَى بُولْبِيرو".

"إنه يتصرَّف بطريقتي لطيفة فحسب، إنه شخص ودودٌ. وهذا ليس له علاقة بي، ولا بكيف يشعر حيالي. إنه بالتأكيد غير مُعْجَبٍ بي".

أومأت روبي برزانة. "أنتِ مُحِقَّةٌ بِالطَّبَعِ، وَمَا الَّذِي سِيُحِبُّهُ فِيكَ؟".

نَظَرَتْ كساندرا بِشَكٍّ، وَابْتَسَمَتْ رَغْمًا عَنْهَا، ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ تَعْضُ شَفْتَيْهَا السُّفْلَى: "إِذْنًا، هَلْ تَعْتَقِدِينَ أَنَّهُ وَسِيمٌ؟".

ابْتَسَمَتْ روبي "أحلام سعيدة يا كساندرا".

"طابَتْ لَيْلَتُكَ يَا روبي".

أَطْفَأَتْ كساندرا الشَّمْعَةَ، لَكِنَّ الْبَدْرَ افْتَرَشَ الْغُرْفَةَ؛ فَلَمْ تَكُنْ مُظْلِمَةً بِشَكْلِ كَامِلٍ. انْسَكَبَتْ غَلَالَةُ فَضِيَّةً عَلَى الْأَسْطَحِ، نَاعِمَةً

وباهتة كشمعٍ بارد. استلقت كساندرا في العتمة تدير في ذهنها قطع اللغز: إيليزا وماري وروز، ثم، في غير مَوْضِعِهِ، كريستيان، وهو يلتقي بنظرتها قبل أن يشيخ بعينه بعيدًا.

في غضون دقائق، غَطَّت روبي في نومٍ عميق. وابتسمت كساندرا. لقد خَمَّنت أن روبي تنام بسرعة. أغمَضت عينيها وثَقُلَ جَفَنَاهَا. وبينما البحر يَمُوج عند أسفل الجرف، والأشجار بالأعلى تهمس في ريح منتصف الليل، راحت كساندرا أيضًا في النوم...

... كانت في الحديقة السرية، تجلس أسفل شجرة التفاح على العشب الطَّرِيّ. كان النهار حارًّا، والنحلة تطنُّ حول زهور التفاح، تُحَلِّق بالقرب قبل أن تطير بعيدًا مع النسيم.

كانت عَطَشِي، تتوق لكأسٍ من الماء، لكن لم يكن هناك أي شيء قريب. مَدَّت يدها، وحاوَلت أن تدفع نفسها للنهوض لكنها لم تستطع. كانت بطنها صُخْمَةً ومُنْتَفِخَةً، والثوب الضيّق يحَتِّكُ أسفل فُستانها. كانت حُبَلِي.

بمجرد أن لاحظت، أصبح الشعور مألوفًا. يمكن أن تشعر بثقلِ دَقَّاتِ قلبها، ودفء جلدها، ثم الطفل يشرع في الرِّفْس...
"كاس"

... يَرْفُسُ بقوة، قوّة كافية حتى أن بطنها مالَت جانبًا، وضَعَت يدها عليها، محاولة تحسُّس القَدَمِ الصَّغِير...
"كاس"

انفتحت عيناها. انسدل ضوء القمر على الجدران. طَقَطَقَ المَوْقِد. كانت روبي مُسْتَنِدَةً على ذراعٍ واحد، وتُرَبَّت على كتفها. "هل أنتِ بخير؟ كنتِ تَنِينِ".

"أنا بخير" اعتدلت كساندرا فجأة. وتحسست بطنها. "يا إلهي! راودني أغرب حلم. كنتُ حُبلى، في شهوري الأخيرة. وكانت بطني كبيرة ومشدودة، وكلُّ شيء كان واضحًا للغاية". فركت عينيها. "كنت في الحديقة المُسوَّرة والطفل شرع يرفس".

"إنه كُُلُّ ذلك الحديث السابق، عن طفلة ماري وروز، والبيضة الذهبية، كله مُختلِط".

"بالإضافة إلى النيذ" تئاءبت كساندرا. "لكنَّ الحلمَ بدا حقيقيًا للغاية، حتى إنني شعرت أنه واقعي. لم أكن مُرتاحةً، كنت أشعر بالحرارة، وحينما كان الجنين يرفُسُ كان الأمل لا يُطاق".

"لقد رسمتِ صورةً جميلةً للحمل. يسرُّني أنني لم أحاول قطُّ".

ابتسمت كساندرا. "ليس أمرًا مُمتعًا في الشهور الأخيرة، لكنه يستحقُّ في النهاية. هذه اللحظة حينما تمسكين أخيرًا بحياةٍ جديدة صغيرة بين ذراعيك".

بكى نيك في غرفة الولادة، لكن كساندرا لم تبك. كانت حاضرةً للغاية، كان اندماجها في اللحظة أقوى من التفاعل بهذه الطريقة. كان البكاء يتطلَّب مستوى ثانيًا من المشاعر، قُدرةً على الخطو خارج الأحداث ورؤيتها في سياقٍ أكبر. وكانت تجربة كساندرا فوريَّةً للغاية. لقد شعرت بأنها مفصولة من الداخل بنوعٍ من الابتهاج المُدَوِّخ. بإمكانها سماع دقات قلبها، وأزيز المصابيح بالأعلى، وأنفاس طفلها الجديد.

"في الواقع، كنتُ حُبلى ذات مرَّة. ولكن لمدة خمس دقائق تقريبًا" قالت روبي.

"أوه روبي" شعرت كساندرا بموجَّةٍ من التعاطف. "هل فقدتِ طفلك؟".

"إذا جاز التعبير. كنتُ صغيرةً في السن، وكانت غَلَطَةً، ووافقنا أنا وهو أنه كان من الغباء الاستمرار. وفكَّرتُ أن الوقت سيسمح لاحقًا بهذا الأمر" رفَعَت كتفيها، ثم سوَّت سطح كيس النوم على رجليها. "كانت هناك مشكلة، بحلول الوقت الذي استعددتُ فيه لم أمتلك المكوّنات الضرورية تحت تصرُّفي".

أمالت كساندرا رأسها جانبًا.

"السَّائِلُ المَنوِيُّ يا عزيزتي. لا أعرف إن كنتِ قد قَضَيْتُ فترة الثلاثينيات أعاني من متلازمة ما قبل الطَّمث، لكن مهمًا كانت الأسباب، لم أتَّفِق مع معظم معشر الرجال. بحلول الوقت الذي قابَلْتُ فيه رَجُلًا يَمَكِنني العيش معه، كانت سفينة الطفل قد غادرت. حاولنا لفترةٍ ولكن..". هَزَّت كَتْفَيْهَا، "للأسف، لا يُمَكِّنُك أن تُحارِبِ الطبيعة". "أنا آسفة يا روبي".

"لا تتأسَّفي. إنني بخير. لديّ وظيفةٌ أحبُّها، وأصدقاء طيِّبون". وغَمَزَتْ. "بِرَبِّكَ، لقد رأيتِ شَقَّتِي. إنني الفائزة. ليست هناك مساحة لأرْجَحَةَ قِطَّة، لكن مهلاً... ليس لديّ قِطَّة لكي أُرْجِحَهَا!".

ابتسَمَت كساندرا.

"المرءُ يَصْنَعُ الحياة من الأشياء التي بين يديه، وليس من الأشياء التي يفتقدُها". اضطجعت روبي مُجدِّدًا، واستكانت في حقيبة النوم. سَحَبَتْهَا لأعلى حول كتفيها. "تُصبحين على خير".

جلَسَت كساندرا لفترة، وهي تُراقِبُ الظلال تتراقص على الجدران، وتُفكِّر فيما قالته روبي، حول الحياة التي بَنَتْها من الأشياء والناس الذين تفتقدُهم. هل هذا ما فعلته نيل أيضًا؟ التَّخَلُّي عن الحياة والعائلة التي رُزِقَتْ بها، والتركيز على الحياة التي لم تُكْتَب لها؟ اضطجعت كساندرا، وأغمضت عينيها. وتركت أصوات الليل تجرف

أفكارها المضطربة. تَنفَّسَ البحر، وتَحَطَّمت الأمواج على الصخرة السوداء، ووشوشت قَمَمَ الأشجار الرِّيحُ...

كان الكوخ مكانًا موحشًا، معزولًا بالنهار، ولكنه أكثر انعزالًا بالليل. لا يمتدُّ الطريق بالكامل لأعلى الجرف، ومدخل الحديقة السريّة كان مُغلقًا، ووراءه متاهة صعب اختراقها. كان مكانًا يعيش فيه المرء ولا يرى روحًا أخرى.

فكرة مُباغِثَة، وشهقت كساندرا. ثم اعتدلت. "روبي"، ثم بصوتٍ أعلى "روبي".

"نائمة" غمغمت روبي.

"لكني حَلَلْتُ اللُّغْزَ".

"ما زِلْتُ نائمة".

"أعرف سبب بناء الجدار، وسبب ابتعاد إيليزا. وهذا هو سبب الحلم، لقد حَلَّ عقلي الباطنُ اللُّغْزَ وحاول أن يُعرِّفني".

تنهيدة. تقلَّبت روبي واستندت على ذراعٍ مَحْنِيٍّ. "لقد فُزْتُ. استيقظتُ للثَّوْ".

"هذا هو المكان الذي مكثت فيه ماري حينما كانت حُبلى بأيقوري، بنيل. هنا، في الكوخ. وذلك هو سبب عَدَمِ معرفة ويليام بذلك". انحنَّت كساندرا قريبًا من روبي. "وهذا هو سبب ذهاب إيليزا بعيدًا؛ كانت ماري هنا عَوْضًا عنها. لقد أخفوها في الكوخ وبنوا السُّور حتى لا يلمحها أحدٌ مُصادفَةً".

فَرَّكَت روبي عينيها ونهضت.

"لقد حَوَّلوا هذا الكوخ إلى سجنٍ حتى وُلِدَت الطفلة، وصارت رُوز هي الأم".

(44)

تريجيننا، 1975

في اليوم السابق لمغادرة تريجيننا، ذهبَت نيل في الأصيل للمرّة الأخيرة إلى كوخ الجرف الصخري. أخذت معها الحقيبة البيضاء، المَكْتَنَظَّة بالوثائق والأبحاث التي جَمَعْتها خلال زيارتها. رَغِبْت في تَفْحُص الملاحظات التي دَوَّنْتها بشكل سريع، وارتأت أن الكوخ مكانٌ مُناسِب. على الأقل هذا ما أَقْنَعْت به نفسها وهي تسير على الطريق المنحدر المُقْضِي للكوخ. لم يكن ذلك صحيحًا بالطبع، ليس بشكل دقيقٍ. برغم أنها أرادت استعراض الملاحظات، لم يَكُن ذلك هو السبب الذي دفعها للذهاب إلى الكوخ. لقد ذهبت لأنها لم تستطع البقاء بعيدًا.

عَالَجَت القُفْلَ ثم فَتَحَت الباب. كان الشتاء يقترّب والكوخ بارد. كان المدخل مُحمَّمًا بهواء راكِدٍ كثيفٍ وثقيل. أَخَذَت حقيبة السفر إلى غرفة النوم بالطابق العلوي. وأسعدها أن تنظر من النافذة على

البحر الفُضِّيُّ. في زيارتها الأخيرة كانت قد لمحت مقعدًا صغيرًا في زاوية الغرفة سيُفي بالغرض. كان الخيزران قد انخلع من ظهره لكنها لم تهتم. وضعت المقعد بجوار النافذة، وجلست بتردُّدٍ، وفتحت الحقيبة البيضاء.

تصَفَّحت الأوراق بالداخل: ملحوظات روبن عن عائلة مونتراشيه، وبيانات الاتصال الخاصة بالمُحقِّق الذي عَيَّنَّته للبحث عن الأماكن التي ذهبت إليها إيليزا، ووثائق بحث ورسائل من المحامين المحليين خاصة بشراء كوخ الجرف. وجدت نيل الخطاب الذي يخصُّ حدود الملكية وفتحته لدراسة خريطة خبير المعاينة. رأت بوضوح الآن أن المنطقة التي حدَّتها عنها الصبي الصغير كريستيان كانت حديقة. وتساءلت مَنْ بحقِّ السماء يبني سورًا حجريًا ويسدُّ البوابة، ولماذا.

وبينما استغرقت في التفكير، انزلقت الورقة من يدها وطارَت لِتَحطَّ على الأرض. وعندما مَدَّت يدها لتلتقطها جذبَ شيءٌ أنظارها. جَعَدَت الرُّطوبَةُ لَوْحًا أرضيًّا فَتَخَلَّخَلَ من الأرض، وانحشرت وراءه ورقة. أمسكت نيل بالحافة بين أصابعها وشدَّتها.

بطاقة صغيرة تَلَطَّخت بِبُقَعٍ بُنيَّة، مرسوم عليها وجه امرأة، مُطَوَّق بقوسٍ من العُليق. تعرَّفت نيل على الصورة من اللوحة التي رأتها في صالة العرض بلندن. كانت إيليزا ماكيبس، لكن ثمة شيءٌ مُختلِفٌ في هذا الرسم. على النقيض من لوحة ناثانيال وواكر في لندن الذي جعلتها بعيدةً لا تُمسُّ، هذا الرسم كان أكثرَ حَميميةً بطريقة ما. ثمة شيءٌ في العينين يشير إلى أن الفنان الذي رسمها قد تعرَّف على إيليزا بشكلٍ أفضل ممَّا فعل ناثانيال. الخطوط الجريئة، والمُنحنيات المُعيَّنة، والتعبير على وجهها. شيءٌ في عينيها جذب نيل وواجهها.

مَلَّست نيل على قِمة البطاقة، وتعجَّبت كيف ظلَّت هناك تنتظر طوال تلك الفترة. سحبت كتاب القصص الخيالية من حقيبة السفر.

لم تكن تعرف لماذا جلبته معها إلى الكوخ، شعرت أن إحصار القصص إلى الكوخ، إلى المكان الذي كُتبت فيه كان انسجامًا لطيفًا. بلا شك كان شعورًا سخيًا، ومُحرِّجًا. لكنه حدث. أحسَّت نيل الآن بالسعادة لإحصارها الكتاب. فتحت الغلاف ووضعت الرسم بالداخل. سيُحفظ بهذه الطريقة.

تراجعت بظهرها إلى المقعد ومَرَّرت أصابعها على غلاف الكتاب، الجلد الناعم ورسم الفتاة والغزال في المنتصف. كان كتابًا جميلًا، كالتَّحَف في متجر نيل. وكان محفوظًا بطريقة جيِّدة، عقود قضاها في رعاية هيو لم تُلحق به الضَّرر.

رغم أنها حاولت استعادة ذكرياتها القديمة، كان ذهنها يعود مرارًا إلى هيو. وبالأخص، الليالي التي كان يقرأ فيها من كتاب القصص الخيالية قبيل النوم. خَشِيت ليل أن تخيف القصص الطُفْلَةَ، لكن هيو فهم. في الأمسيات، بعد العشاء، حينما كانت ليل ترفع الأطباق من الطاولة، كان يجلس على مقعد الخيزران وتتكوَّر نيل في حجره، ويُطوِّفها ذراعاه ليُمسكا بحواف الكتاب، كانت رائحة التبغ على قميصه مُدَوِّخَةً، والشعيرات الخشنة على خَدَّيه الساخين كانت تلامس شعرها.

تنهَّدت نيل بثبات. لقد أحسن هيو وليل صُنْعًا معها. غير أنها أزاحتها من تفكيرها وحاولت التركيز على فترةٍ أبعد من ذلك. فهناك زمنٌ قبل هيو، قبل رحلة السفينة إلى ماريبورو، زمن بلاكهرست والكوخ والمؤلِّفة.

هناك، مقعدٌ حديقةٍ لونه أبيضٌ مصنوعٌ من الخيزران، وشمس، وفراشات. أغلقت نيل عينيها وقبضت على أثيرِ الذُّكْرِ، وتركتها تجذبها إلى يومٍ مُشمِسٍ دافئ، وحديقة تفتش فيها الظلال الباردة المَرَجِ الواسع، والهواء الذي يعبق برائحة زهورٍ حَمَّصتها الشمس...

كانت الطفلة تتظاهر بأنها فراشة، وعلى رأسها إكليل مجدول من الزهور، وقد فردت ذراعيها جانبًا، وأخذت تجري في دوائر، وترفرف وتحوم بينما ضوء الشمس يدفئ جناحيها. شعرت بأنها كبيرة والشمس تحوّل فستانها القطني الأبيض إلى لون فضي.

"أيقوري".

في البداية لم تسمع الطفلة؛ لأن الفراشات لا تتحدّث بلغات البشر. إنها تغني أعذب الألحان بكلمات جميلة للغاية لا يمكن لأذان الكبار سماعها. الأطفال فحسب هم من يلاحظونها حينما يهتفون.

"أيقوري، تعالي بسرعة".

كانت هناك قسوة في صوت الأم، حتى أن الطفلة طارت ورفرفت نحو مقعد الحديقة الأبيض.

"هيا تعالي" قالت ماما وهي تمدُّ ذراعَيْها، وتلوح بأطراف أصابعها الشاحبة.

بسعادةٍ دافئةٍ تكتسح جلدِها، تسلّقت الطفلة المقعد. طوّقت ماما خصرَها بذراعَيْها، وقبّلتها بشفتَيْنِ باردَتَيْنِ أسفل أذنها.

قالت الطفلة: "أنا فراشة. وهذا المقعد شرنقتي...".

"صه. اصمتي الآن" كان وجه ماما قريبًا منها، ولاحظت الطفلة أنها كانت تنظر نحو شخصٍ ما في الخلف. التفتت الطفلة لترى ما يجذب انتباهها.

كانت هناك سيّدة قادمة نحوهما. مالت الطفلة إلى الشمس لتبيّن هذا السراب. فقد كانت تلك السيدة مُختلِفَةً عن الأخرى اللاتي كُنَّ يَزُرْنَ ماما والجَدَّةَ، اللاتي كُنَّ يتناولن الشاي ويلعبن البريدج. هذه السيدة تبدو بشكل ما فتاةً لها قامَةٌ الكِبَار. كانت ترتدي فستانًا من القطن الأبيض وقد استرسل شعرها الأحمر.

بَحَّتْ الطفلة بعينها عن العربة التي جَلَبَت السيدة، لكن لم تبصر شيئاً. يبدو أنها ظهرت فجأة بطريقة سحرية. ثم أدركت الطفلة، وكتمت أنفاسها، وامتلات بالدهشة. لم تكن السيدة تمشي من اتجاه المدخل، بل جاءت من داخل المتاهة.

كان مُحَرَّمًا عليها دخول المتاهة. كانت أول قاعدة وأكثرها صرامة، وكانت ماما والجدة يُذَكِّرانها دائماً أن الطريق مُظْلِمٌ وَتَحْفُهُ الأخطار المجهولة. وكان التحذير خطيراً وجاداً، حتى أن بابا، الذي تستطيع أن تعتمد عليه عادةً، لم يجرؤ على العصيان.

كانت السيدة تهرع تجاههما، تارةً تمشي وتارةً تَثْبُ. وكان تحت ذراعها حزمة ملفوفة بورقٍ بُنْيٍ. تصلبت ذراعا الأم على خصرِ الطفلة؛ والتي تحوَّلت مُتَعَثًّا إلى قلق. وقفت السيدة أمامهما.

"مرحبًا يا روز".

كانت الطفلة تعرف أن هذا هو اسم أمها، لكن الأم لم تنبس بكلمة.

قالت السيدة بصوت فُضِيٍّ، كخيوط العنكبوت، والتي تُحِبُّ الطفلة أن تمسكها بين أصابعها: "أعلم أنه لم ينبغ عليّ أن آتي".
"إذن لماذا جِئتِ؟"

مدت السيدة يدها بالحزمة، لكن ماما لم تأخذها. تصلبت قبضتها مُجَدِّدًا وقالت: "لا أريد منك شيئاً".

"لم أحضره من أجلك". وضعت السيدة الحزمة على المقعد. "إنه من أجل طفلتك".

تذكّرت نيل الآن أن الحزمة كان بها كتاب القصص الخيالية. فيما بعد، دارت مناقشة بين ماما وبابا. أصرت الأم على إبعاد الكتاب، وفي النهاية وافق، وأخذه معه. لكنه لم يُلقِ به. وضعه في مرسمه، بجانب

النسخة البالية من رواية مويي ديك. كان يقرؤه على نيل، حينما تجلس معه، حينما كانت أمها مريضةً وغافلةً.

أشعلت الذكرى حماس نيل فملست على الغطاء الأمامي مُجددًا. كان الكتاب هديةً من إيليزا. فتحته بحرصٍ على المكان الذي وُضعت فيه علامة الكتاب الشريطية لستين عامًا. كان الشريط مُتهرئًا بلونٍ أرجوانيٍّ غامق، وقد وضع على بداية قصة بعنوان (عينا العجوز). شرعت نيل تقرأ عن الأميرة الصغيرة التي لم تعرف أنها أميرة، والتي عَبرت البحر في رحلةٍ إلى أرض الأشياء المفقودة لتعيد بَصَرَ السَّيدة العجوز. كانت مألوفةً بشكل بعيد، كما ينبغي لقصةٍ مفضَّلة من الطفولة. وُضعت الشريط في بُقعته الجديدة وأغلقت الكتاب، ووضعت على عتبة النافذة.

قطبت ومالت. كانت هناك فجوة في ظهر الكتاب حيث كان الشريط. فتحت نيل الكتاب مُجددًا، انفتحت الصفحات تلقائيًا مرة أخرى على قصة (عينا العجوز). مررت أصبعها على ظهر الكتاب من الداخل. كانت هناك صفحات مفقودة. لم تكن كثيرةً، بل خمس أو ست صفحات، بالكاد ملحوظة، لكنها مفقودة. كان استئصالها أنيقًا؛ فلا توجد حوافٌ خَشنة، والصفحات مشدودة على التجليد. ربما أزيلت باستخدام سكينٍ فَتَحِ الكُتُب؟ تفحصت نيل أرقام الصفحات. كانت من صفحة أربع وخمسين إلى صفحة واحد وستين. كانت فجوة تقع بين قِصَّتَيْن.

مكتبة
t.me/t_pdf

البَيْضَةُ الذَّهَبِيَّةُ

بقلم إيليزا ماكبيس

يُحكى أن فتاة صغيرة عاشت في كوخ صغير على حافة مملكة كبيرة يعمُّها الرخاء. كانت الفتاة فقيرة وكوخها مُخبَّأً عميقًا داخل الغابة المظلمة ومَحجوبًا عن العيون. وكان هناك أناسٌ يعرفون بأمر هذا الكوخ الصغير ذي المدفأة الحجرية منذ زمن بعيد، لكنهم ماتوا منذ فترة طويلة، وأسدَلَ الزَّمَنُ حجابَ النسيان على الكوخ. كانت الفتاة بمفردها، ولم يكن يُؤنسها سوى الطيور التي تُحلِّقُ وتُغني على عتبة نافذتها، وحيوانات الغابة التي تبحث عن دفاء النيران. وبرغم هذا لم تشعر بالوحدة أو الحزن؛ ففتاة الكوخ كانت مشغولةً للغاية حتى أنها لم تفتقد الصُّحبة.

في قلب الكوخ، وراء بابٍ خاصٍّ ذي قُفلٍ لامع، كان يقبع شيءٌ مُميِّنٌ ونَفيسٌ، بيضة ذهبية، يُقال إن وهَجها كان باهرًا جميلًا، حتى أن مَنْ يروه يفقدوا البصر على الفور. كانت البيضة الذهبية قديمةً جدًّا، ولا

أحد يتذكّر عمرها على وجه الدقّة، ولأجيالٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى تعهّدت عائلة الفتاة بحمايتها.

تقبّلت الفتاة هذه المسؤولية؛ لأنها تعرف أنها مُقدّرة لها. يجب الحفاظ على سلامة البيضة وإخفائها جيّداً. والأهم من ذلك، لا يجب أن يعلم أحدٌ بوجودها. منذ سنوات عديدة مَضت، حينما كانت المملكة جديدة، نشبت حروبٌ عظيمة بسبب البيضة الذهبية، فالأسطورة تقول إنّ لها قوى سحريةً تُلبّي رغبات مَنْ يملكها.

لذا تعهّدت الفتاة بحراستها. كانت تجلس بالنهار إلى عَجَلَة الغزل الصغيرة عند نافذة الكوخ، تُغني بسعادة مع الطيور التي تتجمّع وتُراقبُ عمَلها. وبالليل كانت تأوي أصدقاءها من الحيوانات لكي يناموا في الكوخ الذي تُدْفئُه من الداخل وَهَجُ البيضة الذهبية. كانت الفتاة تدرك أن حماية حقّها الشرعي هو أهم الأمور.

أثناء ذلك، في مكان ناءٍ وبعيد، في قلعة المملّكة العظيمة، عاشت أميرةٌ شابةٌ حسناء طيِّبة القلبِ لكنّها كانت حزينَةً بسبب صِحَّتِها المُعتلّة. فَتَشَتُّ أمُّها الملكة كثيراً عن سحر أو دواء. لكنها لم تعثر على شيء يُعيد لها صِحّة ابنتِها. وكان هناك مَنْ يهمس أن الفتاة حينما كانت مُجرّد رضيعة لعنها رجلٌ شريرٌ يبيع العقاقير وجعلها مريضةً إلى الأبد، لكن لم يجرؤ أحدٌ على التّفوُّه بهذا الرأي بصوتٍ عالٍ؛ لأن الملكة حاكِمةٌ قاسيةٌ يخشى الرعايا غضبها.

لكنّ الأميرة كانت قُرّة عينِ الملكة. وكل صباح كانت تزور فراشها، لكن وا أسفاه، لم يتغيّر حال الأميرة، كانت شاحِبَةً وضعيفةً ومُتعبَةً. كانت تهمس: "كلُّ ما أتمناه يا أمي أن أتنزّه في حدائق القلعة، وأرقص في حفلاتها، وأسبح في مياهها. أمنيته أن أستردّ عافيتي".

كانت الملكة تمتلك مرآةً مسحورة تعرف منها ما يحدث في أرجاء المملكة، وكانت تسألها كل يوم: "مرآتي، يا صديقتي المفضلة، أظهري لي مَنْ يُمكنه أن يشفي ابنتي ويُنهي هذا العذاب".

لكنَّ المرأة كانت تجيبها كل يوم بنفس الجواب: "ما من أحدٍ في الأرض كلها يمكن أن يشفيها يا مولاتي".

وفي أحد الأيام كانت الملكة في غاية الغضبِ بسبب حال ابنتها، فَتَسَيَّتْ أن تسأل المرأة السُّؤالَ المعتاد. وِعَوَضًا عن ذلك أخذت تبكي وتنشج وهي تقول: "مرآتي التي أحبُّها كثيرًا، أظهري لي كيف أُلبي أمنيَّة ابنتي". صمَّت المرأة لِبُرْهَةٍ، لكن داخل مركزها الزجاجي بدأت تتشكَّل صورة كوخٍ صغير في منتصف غابَةِ مُظْلِمَةٍ عميقة، ودخان ينبعث من مدخنةٍ حَجْرِيَّة، ومن النافذة ظهرت فتاةٌ شَابَةٌ جالِسةٌ تغزل على عجلة الغَزْل وتُغْنِي مع الطيور الواقفة على عتبة النافذة.

شَهَقَت الملكة: "ما هذا؟ هل هذه الشَّابَّة ستشفي ابنتي؟".

قالت المرأة بصوتٍ خفيضٍ كئيب: "في الغابة المظلمة على طرف المملكة يقع كوخٌ بداخله بيضة ذهبية تُلبي أُمْنِيات مَنْ يملكها. والفتاة التي رأيتهَا هي حاميَّة البيضة الذهبية".

"كيف أحصل على البيضة منها؟" سألت الملكة.

قالت المرأة: "إنها تفعل ما تفعله لصالح المملكة. ولن تُوافِق بسهولة".

"إذن ماذا يجب أن أفعل؟".

لم تُجِب المرأة المسحورة، وتلاشت صورة الكوخ وعاد الزجاج كما هو. رفعت الملكة ذقنها وحدَّقَت عبر أنفها الطويل، وظلَّت تُحْمِلُ حَتَّى ارتسمت على شفيتها ابتسامةٌ خفيفة.

مُبَكَّرًا في صباح اليوم التالي، استدعت المَلِكَةُ الوصيفةَ الأقرب
للأميرة. فتاة عاشت في المملكة طيلة حياتها، والتي تَأْمَنُهَا الملكة على
أداء المهام الضرورية من أجل صِحَّةِ الأميرة وسعادتها. أَمَرَتِ الملكةُ
الوصيفةَ باسترجاع البيضة الذهبية.

انطَلَقَتِ الوصيفةُ عبر المملكة في اتجاه الغابة المظلمة. وظَلَّت
تسير ناحية الشرق لثلاثة أَيَّامٍ وليالٍ. وحينما حَلَّ الغسق في الليلة
الثالثة وصلت إلى طرف الغابة، وَخَطَّتْ على الفروع الساقطة وَشَقَّتْ
طريقها عبر الأوراق. وأخيراً وجدت أمامها كوخًا صغيرًا ينبعث من
مدخنته دخانٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ.

طَرَقَتِ الخادِمةُ البابَ وانتظرت. وحينما فُتِحَ أبصرت فتاةً شابةً،
والتي برغم دهشتها من رؤية زائرة على عتبة بيتها، اتَّسَعَتِ على
وجهها ابتسامة. تراجعت إلى الداخل ورَحَّبَتِ بالخادمة من العتبة
وهي تقول: "أنتِ مُرَهَقَةٌ. لقد قَطَعَتِ مسافةً طويلة. تعالي وانعمي
بالدفا بجانب النيران".

تَبِعَتِ الوصيفةُ الفتاةَ إلى الداخل، وجلست على الحشية بجوار
المدفأة. جلبت فتاة الكوخ طبقًا من الحساء الساخن، وجَلَسَتِ تنسج
بصمْتٍ بينما ضيفتها تتناول الطعام. طقطقت النيران في المدفأة،
وتَسَلَّلَ دِفءُ الغرفةِ إلى الخادِمةِ فداعب جفنيها النعاس. شعرت
برغبة قوية في النوم حتى أنها نسيت مَهْمَّتَهَا، لكن فتاة الكوخ
قالت: "مرحبًا بكِ أَيَّتُهَا الغريبة، لكن اغفري لي سُؤالي ما هو الغرض
من زيارتك؟".

قالت الوصيفة: "أرسلتني مَلِكَةُ البلاد. إنها تطلب مُسَاعَدَتَكَ في
شفاء ابنتها المريضة".

كانت طيور الغابة تُغَرِّدُ أحيانًا بما يحدث في المملكة، وقد سمعت
الفتاة بقصة الأميرة الطيبة الحسنة التي تعيش داخل أسوار القلعة.

"سأفعل كل ما بوسعي، برغم أنني لا أعرف لماذا أرسلت الملكة لطلب مساعدتي، فأنا لا أعرف العلاج".

"أرسلتني الملكة لطلب شيء تحرّسينه، شيء له قُوّة تُلبّي أمنيات مالِكِه".

حينها أدركت الفتاة أن الخادمة تتحدّث عن البيضة الذهبية. هزّت رأسها بحزن وقالت: "سأفعل أي شيء لمساعدة الأميرة، عدا إعطاءك البيضة الذهبية؛ فحمايتها كان حقّي الشرعي، وليس هناك أهمّ من ذلك. يمكنك البقاء هنا الليلة تحتمين من البرد والغابة الموحّشة، لكن يجب أن تعودني إلى المملكة غدًا، وتخبري الملكة أنني لا أستطيع التخلّي عن البيضة الذهبية".

في اليوم التالي، انطلقت الخادمة إلى القلعة. وسافرت لثلاثة أيام وليالٍ حتى وصلت أخيراً إلى أسوار القلعة حيث كانت الملكة بانتظارها.

سألتها الملكة وهي تنظر إلى يديها الخاويتين: "أين البيضة الذهبية؟".

"لقد فُشلتُ في مهمّتي؛ ففتاة الكوخ لا تريد التخلّي عن حقّها الشرعي للأسف".

شدّت الملكة قامتها واحمرّ وجهها، ثم قالت وهي تشير بأصبع مخبّيّ طويل نحو الخادمة: "يجب أن تعودني، وتخبري الفتاة أن مهمّتها خدمة البلاد. ولو لم تفعل، سأحوّلها إلى حجرٍ يُنصبُ في ساحة المملكة إلى الأبد".

وهكذا اتّجهت الخادمة ناحية الشرق مُجدّداً، وظلّت تسير لثلاثة أيام وليالٍ، حتى وجدت نفسها مرّةً أخرى أمام باب الكوخ المخبّيّ. قرّعت الباب، ففتحت الفتاة، ورحّبت بها إلى الداخل، وجلبت لها

طبقًا من الحساء. جلست الفتاة تغزل بينما الخادمة تأكل عشاءها، وأخيرًا قالت: "مرحبًا بك أيتها الغريبة، لكن اغفري لي سؤالًا ما هو الغرض من زيارتك؟".

"أرسلتني مُجددًا الملكة. إنها تطلب منك المساعدة في شفاء ابنتها المريضة. إن واجبك هو خدمة البلاد. تقول الملكة إنه إذا رفضت ستحوّلُك إلى حجرٍ يُنصب في ساحة المملكة إلى الأبد".

ابتسمت الفتاة بحزن وقالت: "إن حماية البيضة الذهبية هو حقّي الشرعي. ولا يمكن أن أسلمها لك".

"هل تريدن التحوّل إلى حجر؟".

"كلًا ولن أكون؛ فأنا أخدم مملكتي بحمايتي للبيضة الذهبية".

لم تُجادل الخادمة؛ لأنها رأت أن ما تقوله فتاة الكوخ كان صحيحًا. في اليوم التالي، انطلقت الخادمة نحو القلعة، وحينما وصلت، كانت الملكة بانتظارها مُجددًا عند أسوار القلعة.

سألتها الملكة وهي تنظر إلى يديها الخاويتين: "أين البيضة الذهبية؟".

"لقد فشلت في مهمّتي مرّةً أخرى؛ فتاة الكوخ للأسف لن تتخلّى عن حقّها الشرعي".

"ألم تقولي للفتاة إن واجبها هو إنقاذ المملكة؟".

"بلى يا مولاتي. وقالت إنه بحمايتها للبيضة الذهبية كانت تخدم المملكة".

شدهت الملكة وشحب وجهها. احتشّدت الغيوم في السماء وحلّقت الغربان. في تلك اللحظة تذكّرت الملكة كلمات المرأة: "إنها تفعل ما تفعله من أجل المملكة". لَوّت شفيتها في ابتسامة، ثم قالت للخادمة: "يجب أن تعودى على الفور. وهذه المرة ستخبرين الفتاة أنها إذا لم

تَخَلَّ عن البيضة الذهبية ستكون مسؤولةً عن حزن الأميرة إلى الأبد، والذي سيجلب للمملكة شتاءً من الحُزنِ لا ينتهي".

وهكذا توجَّهت الخادمة نحو الشرق للمرة الثالثة، وسارت لثلاثة أيام وليال، حتى وجدت نفسها مجدِّدًا أمام باب الكوخ المخبأ. قرَّعت الباب، وفتحت الفتاة، ورحبت بها إلى الداخل، وجلبت لها طبقًا من الحساء. جلست الفتاة تغزل، بينما الخادمة تتناول عشاءها، وأخيرًا قالت: "مرحبًا بك أيتها الغريبة، لكن اغفري لي سُؤالي ما هو الغرض من زيارتك؟".

"أرسلتني مجدِّدًا الملكة. إنها تطلب مساعدتك في شفاء ابنتها المريضة. إن واجبكِ هو خدمة البلاد، تقول الملكة إن لم تتخلى عن البيضة، ستكونين مسؤولةً عن حزن الأميرة إلى الأبد، والذي سيجلب للمملكة شتاءً من الحزن لا ينتهي".

لم تنبس فتاة الكوخ بكلمة لوقت طويل. وأخيرًا أومأت ببطء وهي تقول: "سأتخلى عن البيضة الذهبية لأجنب الأميرة والمملكة هذا المصير".

ارتجفت الخادمة بينما ران صمْتٌ مُطبِقٌ على الغابة المُظلمة، وتسَلَّت ریحٌ شَرِّيرة من أسفل الباب أثارَت نيران المدفأة. قالت الخادمة: "لكن ليس هناك أهم من حماية حَقِّكِ الشرعيِّ. إنها مَهْمَّتُكِ من أجل الملكة".

ابتسمت الفتاة وقالت: "ولكن ما فائدة هذا الواجب لو غرقت المملكة في شتاءٍ أبديٍّ بسببي؟ ستتجمد الأراضي، ولن يكون هناك طيورٌ أو حيوانات أو نباتات. من واجبي الآن التَّخلى عن البيضة الذهبية".

نظرت الخادمة بحُزنٍ إلى الفتاة وقالت: "لكن ليس هناك أهم من حماية حَقِّكِ الشرعيِّ. البيضة هي جزءٌ منك، ويجب أن تحميها".

لكن الفتاة خَلَعَتْ من حول عُنُقِهَا مَفْتاحًا ذَهَبِيًّا كَبِيرًا، وَأَوْلَجَتْهُ فِي قُفْلِ البَابِ الخَاصِ، ثم أدارته. تَأَوَّهَتْ أَعْمَاقُ أَرْضِ الكُوخِ، وَطَقَّطَقَتْ أَحجارِ المَدْفَأَةِ، وَصَرَّتْ عَوَارِضُ السَّقْفِ الخَشْبِيَّةِ. حَبَّأَ النورِ فِي الكُوخِ وَتَأَلَّقَ وَهَجٌ فِي الغَرَفَةِ السَّرِيَّةِ. اخْتَفَتِ الفتاةُ ثم ظَهَرَتْ مُجَدِّدًا، وَهِيَ تَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهَا شَيْئًا مَلْفُوفًا، ثَمِينًا لِلغَايَةِ، حَتَّى أَنَّ الهَوَاءَ حَوْلَهُ بَدَأَ يَطِنُ .

سارت الفتاة مع الخادمة إلى خارج الكوخ، وحينما وصلتا إلى حافة بعيدة، سَلَّمَتْهَا حَقَّهَا الشرعي. حينما عَادَتْ إلى الكوخ، وَجَدَتْهُ أَكْثَرَ إِظْلَامًا. تَلَاشَى النورَ، غَيْرَ قَادِرٍ فَجَاءَةً عَلَى اخْتِرَاقِ الغَايَةِ المُحِيطَةِ الكَثِيفَةِ. بِالداخِلِ، تَزَايَدَ البَرْدُ فِي الغَرَفِ، لَمْ تَعُدْ المَدْفَأَةُ بِالداخِلِ تُدْفِئُ بِوَهْجِ البِيضَةِ الذَهَبِيَّةِ.

مع مرور الوقت، تَوَقَّفَتْ الحَيَوَانَاتُ عَنِ المَجِيءِ، وَحَلَّقَتْ الطيُورُ بَعِيدًا، وَجَدَتْ الفتاةُ أَنَّهَا بِلَا هَدَفٍ. نَسِيَتْ كَيْفَ تَغْزُلُ، وَتَحَوَّلَ صَوْتُهَا إِلَى مُجَرَّدِ هَمْسٍ. وَأخِيرًا، شَعَرَتْ بِتَيْبُوسِ جَسَدِهَا وَثِقَلِهِ وَجُمُودِهِ. حَتَّى جَاءَ يَوْمٌ مِنَ الأَيَّامِ لَاحَظَتْ أَنَّ الترابَ غَطَّى الكُوخَ وَجَسْمَهَا المُنْتَجِمِدَ. أَغْلَقَتْ عَيْنَيْهَا، وَسَقَطَتْ فِي هَاوِيَةِ البَرْدِ وَالصَمْتِ.

تَعَاقَبَتِ الفِصُولُ، وَفِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ كَانَتْ أَمِيرَةُ البِلَادِ تَتَجَوَّلُ عَلَى حِصَانِهَا مَعَ خَادِمَتِهَا فِي طَرَفِ الغَايَةِ المُظْلِمَةِ. فَقد اسْتَعَادَتِ الأَمِيرَةُ عَافِيَتَهَا بِمَعْجَزَةٍ، وَتَزَوَّجَتْ مِنْ أَمِيرٍ وَسِيمٍ، وَعَاشَتْ حَيَاةً سَعِيدَةً هَانِيَةً. كَانَتْ تَمْشِي وَتَرْقُصُ وَتَغْنِي، وَظَهَرَتْ عَلَيْهَا مَعَالِمُ الصِّحَّةِ. أَنْجَبَتْ فَتَاةً عَزِيزَةً أَحَبَّهَا حُبًّا جَمًّا، كَانَتْ تَأْكُلُ الشَّهْدَ، وَتَشْرَبُ النَدَى مِنْ بَتَلَاتِ الوَرْدِ، وَتَلْهُوُ مَعَ الفِرَاشَاتِ.

وَبَيْنَمَا كَانَتْ الأَمِيرَةُ وَالخَادِمَةُ تَتَنَزَّهَانِ بِجَانِبِ الغَايَةِ المُظْلِمَةِ فِي هَذَا اليَوْمِ، شَعَرَتْ الأَمِيرَةُ بِدَافِعٍ مُلِحٍّ غَرِيبٍ لِدُخُولِ الغَايَةِ. تَجَاهَلَتْ اعْتِرَاضَاتِ الخَادِمَةِ، وَقَادَتْ حِصَانَهَا عِبرَ الحُدُودِ إِلَى الغَايَةِ

الباردة المُظلمة. كان الصمت يُخَيِّم على كل شيء في الغابة، لم يكن هناك طيور أو حيوانات أو نسيم يحرك الهواء البارد الساكن. كان الصوت الوحيد المسموع هو حوافر الخيل. أخيراً، وصلنا إلى كوخ صغير ابتلعته النباتات. قالت الأميرة: "يا له من منزل صغير. تُرى مَنْ يعيش هناك؟".

أشاحت الخادمة بنظرها بعيداً، وهي ترتعش من البرودة الغربية: "لا أحد يا أميرتي. لم يَعد أحد يعيش به. إن المَمْلَكَةَ تَزْدَهَرُ، لكن ليس هناك حياة في الغابة المظلمة".

(45)

كوخ الجرف، 1913

تَعَلَّمُ إيليزا أنها ستفتقدُ السَّاحِلَ والبحر حينما ترحل. ستعرف بحرًا آخر، لكنه سيكون مختلفًا. طيور أخرى ونباتات أخرى، وأمواج تهمس بقصص بلسان غريب. لكن حان الوقت. لقد انتظرت طويلاً ودون طائل. قُضي الأمر، لم يكن أمامها سوى المُنْضِي قُدُمًا برغم شعورها الحالي، والندم الذي زحف عليها في الظلام، وحرَمَ عينيها من النوم وهي تتلوى وتتقلب وتلعن دورها في الخداع.

نزلت إيليزا الدرجات الحجرية الضيقة المفضية إلى الرصيف البحري. كان أحد الصيادين يُحمّل قاربه ويكدس سلالاً مجدولة ولفائف من الحبال استعدادًا ليوم شاق. وبينما هي تقترب، بانَت الأطراف الهزيلة الرُّجوليَّة لِوَجْهِ لَوَّحَتِهِ الشمس، وأدركت إيليزا أنه كان ويليام، شقيق ماري. الأصغر في طابورٍ طويل من صيَّادي كورنوال،

وأحد الشُّجعان والمجازفين حتى أن حكاياته البطولية انتشرت كالنار في الهشيم.

كان صديقَ إيليزا ذات يوم، وقد أَسْرَهَا بحكاياته الجامحة عن حياة البحر، لكنَّ الفُتور نما بينهما لبعض السنوات. منذ أن رأى ويل ما لا يجب رؤيته، وواجه إيليزا وأصرَّ أن تشرح ما لا يمكن شرحه. لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن تكَلَّمَا، اشتاقت إيليزا إلى صحبته. وحيث أنها سترحل قريبًا وتترك تريجينَا عزمت على وضع الماضي خلف ظهرها. وبأنفاس ثابتةٍ اقتربت منه. "لقد تأخَّرتَ هذا الصباح يا ويل".

رفع رأسه، وعدل فُجَعَتَه، واحمرت وجنتاه، التي قَسَت واخشوشنت بمناخ البحر، وأجاب بغلظة: "وأنتِ مُبَكِّرةٌ".

"أنا أبدأ يومي" كانت إيليزا بجانب القارب الآن، الذي طَوَّقَت المياه جوانبه برفق. كان الهواء مُفَعَمًا بالملوحة. "هل توجد رسالة من ماري؟".

"كلًا منذ الأسبوع الأخير. إنها سعيدة هناك في بولبيرو، كما يجدر بزوجة جزَّارٍ".

ابتسمت إيليزا. أسعدها سماع أن ماري كانت على ما يرام. إنها تستحقُّ أكثر من هذا بَعْدَ كُلِّ ما عانتَه. "هذه أنباء سارة يا ويل. لا بُدَّ وأن أكتب لها رسالةً هذا المساء".

قطَّب ويليام قليلًا. ثم نظر إلى حذائه وهو يحكُّ الجدار الصخري لرصيف الميناء.

"ما الأمر؟ هل قُلْتُ شيئًا غريبًا" قالت إيليزا.

طرد ويليام نَوْرَسَيْنِ شَرِهَيْنِ، يحومان على طُعْمِهِ.

"ويل؟".

نظر بشكٍ إلى إيليزا. "لا شيء غريب يا آنسة إيليزا، فقط... يجب أن أقول، بينما تُسعدني رؤيتك، إلا أنني مُندهشٌ قليلاً".
"ولماذا؟".

"أصابنا جميعنا الحُزنُ حينما سمعنا الأنباء" رفع ذقنه وحكَّ شعيرات فكّه الحاد. "عن السيد والسيدة وواكر، أنهم... رحلوا عنّا".

"نيويورك، أجل. سيغادران الشهر القادم". كان ناتانيل هو مَنْ أخبر إيليزا. جاء ليراها مُجدِّدًا في الكوخ، وأيقوري وراءه مرة أخرى. كان يومًا مُمطرًا؛ فانتظرت الطُفلة بالداخل. ذهبت إلى الطابق العلوي حيث غرفة إيليزا. حينما أخبر ناتانيل إيليزا عن خُطِطهما، هو وروز، والبدء من جديد على الجانب الآخر من الأطلسي، استشاطت غضبًا. شعرت بالهجران، والاستغلال. أكثر من قبل. فجأة بدا الكوخ أكثر مكانٍ مُوحشٍ مهجور في العالم، وإيليزا، أتعسَّ إنسانة على وجه الأرض.

بعدما غادر ناتانيل تذكَّرت إيليزا على الفور نصيحة أمِّها، إنقاذ نفسها، وقرَّرت أن الوقت قد حان لتحقيق أحلامها. قامت بحجز رحلة على متن سفينة ستأخذها من بلاكهرست وحياتها في الكوخ إلى مُغامرتها الخاصة. كتبت أيضًا إلى السيدة سويندل تقول إنها ستأتي إلى لندن الشهر القادم وتساءلت إن كان بإمكانها زيارتها. لم تذكُر دُبُوسَ الزينة الخاصَّ بأمِّها -تمنت أنه ما زال موضوعًا بأمان في الآنية الفخَّارية داخل المدخنة المهجورة- لكنها نوت أن تسترجعه.

وباستخدام إرث أمِّها ستبدأ حياةً جديدة، حياة من صنيعها هي.

تنحنح ويليام.

"ما الأمر يا ويل؟ تبدو كأنك رأيت شبحًا".

"لا شيء يا آنسة إيليزا. الأمر فقط..." نظر بعينيه الزرقاوين إلى عينيها. كانت الشمس تتوسّط السماء ثقيلةً في الأفق؛ فاضطرَّ إلى أن يميل. "ربما لا تعرفين".

"ما الذي لا أعرفه؟" هزّت كتفها قليلاً.

"عن السيّد والسيّدة وواكر... القطار من كارلايل".

أومأت إيليزا. "كانا في كارلايل في الأيام الماضية. وسعودان غداً".

استوت شفتا ويليام بوقارٍ. "سوف يعودان غداً يا آنسة إيليزا، لكن ليس بالطريقة التي تعتقدينها". تنهّد ثم هزّ رأسه. "الخبر مُنتشرٌ في كل أنحاء القرية، في الصحف. لو كنت أعرف أن أحداً لم يُخبرِك، لَجِئْتُ بنفسِي...". أخذ بيديها، في حركةٍ غير مُتوقَّعة، جعلت قلبها يدقُّ بسرعة من هذا الدنوّ. "لقد وقع حادثٌ يا آنسة إيليزا. قطارٌ اصطدم بأخر. وبعضٌ من الرُكَّاب، السيد والسيّدة وواكر...، جذب نَفْسًا ونظر في عينيها. "للأسف قَصِيًا نَحْبِيَهُمَا يا آنسة إيليزا. في مكان يُدعى آيس جيل".

استمرَّ في كلامه، لكن إيليزا لم تكن تصغي. انتشرَ داخلَ رأسها ضوءٌ أحمر صاخِبٌ غَطَى كُلَّ شيء؛ الأحاسيس والضجّة والأفكار. أغلقت عينيها وسقطت مَغشِيًا عليها، في بئرٍ سحيقٍ بلا قرار.

فعلت أدالين كل ما في استطاعتها لكي تواصل التَّنَفُّسَ. ملأ الحُزْنُ الكثيف رِتْنِيهَا بالسواد. جاءت الأنباء عن طريق الهاتف ليلاً في يوم الثلاثاء. كان لينوس يُغَلِّقُ عليه الباب في الغرفة المُظلمة؛ لذلك ذهبت دايزي لاستدعاء ليدي مونتراشيه. شُرْطِيٌّ على الطرف الآخر، كان صوته يتقطّع بسبب أميال الهواء التي تفصل كورنوال عن كامبرلاند، أخبرها بالنبا المُفجِع.

فَقَدَّتْ أَدَالِينَ وَعَيْهَا. عَلَى الْأَقْل، افْتَرَضَتْ أَنْ هَذَا حَتْمًا مَا حَدَثَ؛
لأن ذكرياتها التالية كانت الاستيقاظ في فراشها، وفي صدرها حملٌ
ثقيل. شعرت بالارتباك لهنيهة، ثم تذكّرت، ووُلِدَ الرَّعْبُ مِنْ جَدِيد.
لِحُسْنِ الْحَظِّ كَانَتْ هُنَاكَ جِنَازَةٌ سُرَّتَّبٌ، وَإِجْرَاءَاتٌ تُتَّخَذُ، وَإِلَّا
لَنْ تُبْعَثَ أَدَالِينَ مَرَّةً أُخْرَى. فَبِرْغَمِ أَنْ قَلْبُهَا صَارَ خَاوِيًا، وَصَارَ قِشْرَةً
جَافَةً لَيْسَ لَهَا قِيَمَةٌ، كَانَتْ هُنَاكَ أَشْيَاءٌ يُتَوَقَّعُ أَنْ تَقُومَ بِهَا. بِصَفَتِهَا
أَمَّا فِي حِدَادٍ عَلَى ابْنَتِهَا، لَا يُمْكِنُهَا التَّمَلُّصُ مِنْ وَاجِبَاتِهَا. إِنَّهَا تَدِينُ
بِهَذَا لِرُوزٍ، لِابْنَتِهَا الْغَالِيَةِ.

"دايزي" كان صوتها باردًا. "أحضري بعض أوراق الكتابة. أحتاج إلى
إعداد قائمة".

وبينما هرعت دايزي من الغرفة المُعْتَمَةِ، شرعت أَدَالِينَ تَرْتَّبُ
القائمة في ذهنها. بالطبع يجب دعوة آل تشرشل، ولورد وليدي
هكسلي، وآل أستور، وآل هوسير... سوف تخبر عائلة ناثنيل لاجًا.
يعلم الربُّ أنها لا تملك القُوَّةَ لدعوة أمثالهم لحضور جنازة روز.
أيضًا، لن تسمح للطفلة بالحضور؛ هذه المناسبة الجليلة ليست
مكانًا لطفلةٍ تملك طباعها. كان من المُفْتَرَضِ أَنْ تَكُونَ عَلَى مَتْنِ
القطار، لولا إصابتها بنزلة بردٍ جعلتها تلزم الفراش. فماذا ستفعل
أَدَالِينَ بِالْفَتَاةِ؟ إِنْ آخِرَ شَيْءٍ تَحْتَاجُهُ تَذْكَارٌ يُذَكِّرُهَا أَنْ رُوزٌ قَدْ رَحَلَتْ.
حَدَّقَتْ خَارِجَ النَّافِذَةِ إِلَى الْخَلِيجِ الصَّغِيرِ. صَفُّ الْأَشْجَارِ، وَالْبَحْرِ
وراءه. يمتدُّ دَائِمًا وَأَبَدًا.

رَفَضَتْ أَدَالِينَ أَنْ تَدَعَ عَيْنَيْهَا تَتَحَرَّكَانِ شِمَالًا. كَانَ الْكُوخُ مَحْجُوبًا
عَنِ الْأَنْظَارِ، لَكِنِهَا تَعْرِفُ أَنَّهُ هُنَاكَ، وَهَذَا أَمْرٌ كَافٍ. إِنْ جَاذِبَتْهُ
البغيضة تفرض نفسها، وتجمد الدماء في عروقها.

ثُمَّ شَيْءٌ وَاحِدٌ مُؤَكَّدٌ. لَنْ تُخَيَّرَ إِيلِيزَا إِلَّا بَعْدَ الْجَنَازَةِ. مُسْتَحِيلٌ أَنْ تَحْتَمِلَ رُؤْيَا تِلْكَ الْفَتَاةِ حَيَّةً بَيْنَمَا رُوزَ مَيِّتَةٍ.

بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، بَيْنَمَا اجْتَمَعَتِ أَدَالِينُ وَلِينُوسُ وَالخُدْمُ فِي الْمَقْبَرَةِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى النَّاحِيَةِ الْبَعِيدَةِ مِنَ الْعِزْبَةِ، شَرَعَتْ إِيلِيزَا فِي نَزْهَةٍ أُخِيرَةٍ حَوْلَ الْكُوخِ. كَانَتْ قَدْ أَرْسَلَتْ بِالْفِعْلِ حَقِيبَةً إِلَى الْمِينَاءِ حَتَّى لَا يَكُونَ مَعَهَا الْكَثِيرُ لِتَحْمِلِهِ. فَقَطَّ حَقِيبَةَ سَفَرٍ صَغِيرَةٍ بِهَا مُفَكَّرُهَا وَبَعْضَ الْأَشْيَاءِ الشَّخْصِيَّةِ. غَادَرَ الْقَطَارُ تَرِيغِينَا فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ. وَعَرَضَ عَلَيْهَا دِيْفَيْسُ، الَّذِي كَانَ ذَاهِبًا لِإِحْضَارِ طُرُودِ نَبَاتَاتٍ جَدِيدَةٍ مِنَ قَطَارِ لَنْدُنِ، أَنْ يُقْلِعَهَا إِلَى الْمَحْطَّةِ. كَانَ الشَّخْصُ الْوَحِيدَ الَّذِي أَخْبَرْتَهُ أَنَّهَا رَاحِلَةٌ.

تَفَحَّصَتْ سَاعَةً جَيْبِهَا الصَّغِيرَةَ. مَا زَالَ الْوَقْتُ سَائِحًا لِزِيَارَةِ وَاحِدَةٍ أُخِيرَةٍ لِلْحَدِيقَةِ السَّرِيَّةِ. أَدَخَرَتْ زِيَارَتَهَا إِلَى النِّهَايَةِ، وَهِيَ تُقَلِّلُ عَمْدًا الْوَقْتَ الْمُنْتَهَى أَمَامَهَا لِإِلْقَاءِ نَظْرَةٍ أُخِيرَةٍ عَلَيْهَا. خَشِيَتْ أَنَّهَا لَوْ مُنِحَتْ وَقْتًُا أَطْوَلَ لَنْ تَسْتَطِيعَ انْتِشَالَ نَفْسِهَا مِنْ سَحَرِهَا أَبَدًا.

لَكِنْ هَكَذَا سَيَكُونُ الْأَمْرُ. وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ.

ذَهَبَتْ إِيلِيزَا حَوْلَ الْمَمَرِّ وَاتَّجَهَتْ نَحْوَ الْمَدْخَلِ. صَارَ الْبَابُ الْجَنُوبِيِّ، الَّذِي كَانَ قَائِمًا ذَاتَ يَوْمٍ، جُرْحًا مَفْتُوحًا، فَتْحَةً فِي الْجِدَارِ، وَكَوْمَةً مِنْ كُتْلِ الْأَحْجَارِ الرَّمْلِيَّةِ تَنْتَظِرُ الْاسْتِخْدَامَ.

حَدَثَ ذَلِكَ خِلَالَ الْأَسْبُوعِ. كَانَتْ إِيلِيزَا تَقُومُ بِإِزَالَةِ الْحَشَائِشِ الضَّارَّةِ حِينَمَا فُوجِئَتْ بِعَامِلَيْنِ صَخْمِيَّيِ الْبِنْيَانِ يَسِيرَانِ مِنْ مُقَدَّمَةِ الْكُوخِ. فِي الْبَدَايَةِ ظَنَّتْ أَنَّهَامَا ضَلَّاهُ الطَّرِيقَ، ثُمَّ أَدْرَكَتْ سَخَافَةَ الْفِكْرَةِ. لَا يَمُرُّ النَّاسُ مُصَادَفَةً بِالْكُوخِ.

"لَيْدِي مُونْتَرَاشِيهِ أَرْسَلْتَنَا" قَالَ أَطْوَلُهُمَا.

وقفت إيليزا وهي تمسح يديها في جونلتها. لم تَقُل شيئاً مُنتظرةً
أن يستأنف كلامه.

"تقول إن هذا الباب بحاجة إلى الإزالة".

"حقًا؟ لم يُقَل لي هذا".

ضحك العامل الأصغر، وبدا الأطول مُرتبِّكًا.

"ولماذا سيُهدم الباب؟ هل هناك باب آخر سيحلُّ محلَّه؟" قالت

إيليزا.

"سوف نقيم جدارًا. ليدي مونتراشيه تقول إنه لن يكون هناك
حاجة لأن يأتي أحدٌ من الكوخ بعد الآن. سوف نحفر حُفرةً ونضع
أساساتٍ جديدة" قال الأطول.

بالطبع. لا بُدَّ وأن تتوقَّع إيليزا ردَّ فعلٍ بعد رحلتها عبر المتاهة
منذ أسبوعين. حينما قَرَّروا كُُلَّ شيء منذ أربع سنوات، ووضعوا القواعد
بوضوح. أُعطيَت ماري أموالاً لبدءِ حياةٍ جديدة في بولبيرو، ومُنِعت
إيليزا من اجتياز ما وراء الحديقة السَّرِيَّة والمتاهة. لكنها في النهاية
عَجَزَت عن المقاومة.

لحُسْنِ الحَظِّ لن تعود إيليزا إلى الإقامة بالكوخ بعد الآن. فكَرَّت
أنه بدون الوصول إلى حديقتهَا لن تتحمَّل الحياة في بلاكهرست.
وبالتأكيد ليس الآن بعدما ماتت روز.

شَقَّت طريقها بين الحُطام حيث انتصب الباب يومًا، ودارت حول
طرف الحفرة، وعبرت إلى الحديقة السَّرِيَّة. كانت رائحة الياسمين
تفوح في الجَوِّ، وشجرة التفاح ما زالت تطرح ثمارها، ونبات اللبلاب
تفرَّع إلى قِمَّة الحديقة وتشابكت أغصانه فكَوَّن مظلةً مُورقةً.

تعرف أن ديفيس سيهتّم بالحديقة، لكن لن تعود مثلما كانت. إن لديه ما يكفيه من الواجبات التي تشغله، والحديقة استغرقت كثيراً من وقتها ومحبّتها. قالت إيليزا برقةً "ماذا سيحدث لك؟".

نظرت إلى شجرة التفاح وشعرت بألمٍ حادٍّ يستقرُّ داخل صدرها، كأنّ جزءاً من قلبها اقتُلِع. تذكّرت اليوم الذي زرعت فيه الشجرة مع روز. كانتا حينئذٍ مُفعمّتين بالأمل لتحليان باليقين أن الأمور ستسير على ما يُرام. لم تُطِق إيليزا فكرةً أن روز لم تُعدّ موجوداً بالعالم.

جذبَ شيءٌ عينيها. قطعةٌ من القماش تبرز أسفل أوراق شجرة التفاح. هل تزكّت منديلاً هنا في آخر مرّة جاءت فيها؟ جثت ونظرت عبر الأوراق.

على العشب الطري أبصرت طفلةً، طفلة روز، غافية. تحركت الطفلة كأن تعويذةً سحريةً زالت من عليها. فتحت عينيها وأخذت تطرفُ بهما حتى ركزت نظرتها المُحدّقة على إيليزا. لم تثب أو تجفل أو تتصرف بطريقةٍ متوقّعة من طفلةٍ أمسكها دون قصدٍ شخصٌ كبير لا تعرفه. ابتسمت، بارتياح. ثم تئاءبت. ثم زحفت خارج فرع الشجرة.

"مرحباً" قالت وهي تقف أمام إيليزا.

حدّقت فيها إيليزا، مُندهشةً ومسرورة من قولِ الطفلة بصرف النظر عمّا تُمليه آدابُ السلوك الخائفة. "ماذا تفعلين هنا؟".

"أقرأ".

ارتفع حاجب إيليزا. الطفلة لم تبلغ الرابعة بعد. "يُمكنك القراءة؟".

تردّد صغير، ثم إيماءة.

"أريني".

جثت الطفلة على يديها وركبتيها وهُرعت أسفل فرع شجرة التفاح. سحبت كتابَ القصص الخيالية، الكتاب الذي أخذته إيليزا

عبر المتاهة. فَتَحَتْه وَشَرَعَتْ تَضَعُ إِصْبَعَهَا عَلَى كَلِمَاتِ قِصَّةِ (عينا العجوز) بحماسٍ وهي تستظهرها.

أخفت إيليزا ابتساماً؛ فقد كان أصبع الطفلة وصوتها لا يتماشيان. تذكّرت قُدْرَتَهَا عَلَى اسْتَظْهَارِ الْقِصَصِ الْمُفْضَلَةِ فِي طِفُولَتِهَا. "ولماذا أنتِ هنا؟" سألت.

توقّفت الفتاة عن قراءتها. "الجميع ذهبوا. رأيتهم من النافذة، عربات سوداء لامعة تزحف على الممرّ كسربٍ من النمل النشط. ولم أرغب في أن أكون بمفردي في المنزل؛ لذا جئتُ إلى هنا. أحبُّ المكان هنا، أكثر من أي شيء. في حديقتك". وهبطت نظرتها إلى الأرض. تعرف أنها تعدّت الحدّ المسموح.

"هل تعرفين من أكون؟" قالت إيليزا.

"أنتِ المؤلّفة".

ابتسمت إيليزا ابتساماً خفيفةً.

دبّت الشجاعة في الطفلة، وأمالت رأسها جانباً فتدلّت جديلتها الطويلة على كتفها. "لماذا أنتِ حزينة؟".

"لأنني ألقى تحيةً الوداع".

"على من؟".

"على حديقتي. على حياتي القديمة". كانت هناك قوّة في نظرة الفتاة سحرت إيليزا. "سوف أنطلق في مُغامرةٍ. هل تُحبّين المغامرات؟".

أومأت الطفلة. "إنني ذاهبةٌ إلى مغامرةٍ أيضاً قريباً مع بابا وماما. سنذهب إلى نيويورك على سفينةٍ ضخمةٍ، أضخم من سفينة كابتن أهاب".

"نيويورك؟" تساءلت إيليزا بصوتٍ خفيض. هل الطفلة لا تعرف أن والديها ماتا؟

"سنذهب عبر البحر وجَدِّي وجَدَّتِي لن يأتيا معنا. ولا الدُميمة المكسورة المُخيفة".

هل كانت تلك هي نقطة اللا عودة؟ وبينما رَكَزَت عينيها على عيني الفتاة التي لم تعرف أن والديها ماتا، فَكَّرَت مَنْ سيواجه الحياة مع خالها لينوس وزوجته أدالين كوصيَّين؟

فيما بعد، حينما تذكَّرت إيليزا، وجدت أن ذلك كان أفضل قرارٍ اتَّخَذته. وبشعورٍ غريبٍ كأنه سحر، تَيَقَّنَت على الفور أنها لا يمكن أن تترك الطفلة وحدها في بلاكهرست.

مَدَّت يدها، وراقَبَت كَفَّها ينبسط نحو الطفلة، كأنه يعلم تمامًا ما يفعله. ضَعَطَت على شَفَتَيْها وعثرت على صوتها: "سَمِعْتُ عن مُغامرَتِكَ. في الواقع، أُرْسِلْتُ لكي أُحْضِرِكَ" كانت الكلمات سهلةً الآن، كأنها جزءٌ من خُطَّةٍ رُبِّت منذ زمن بعيد، كأنها كانت الحقيقة. "سوف أقودك إلى الطريق".

طرفت الطفلة بعينيهما.

"لا بأس. تعالي. أمسكي يدي. سنذهب من طريقٍ خاص، طريق سِرِّي لا يعرفه أحدٌ سوانا".

"هل ستكون ماما هناك حينما نصل إلى المكان الذي سنذهب إليه؟".

"أَجَل" قالت إيليزا دون تردُّدٍ. "ستكون أُمُّك هناك".

فَكَرَّت الطفلة في الكلام. أومأت برأسها مُوافِقةً. ذقن صغير مُدبَّب في منتصفه نَقْرَةٌ. "يجب أن أحضر كتابي".

شعرت أدالين بحوافِّ عَقْلِهَا تَتَمَدَّد. كان وقت العصر حينما دَوَّى الإنذار. جاءت الفتاة الحمقاء دايزي إلى حُجْرَةِ نَوْمِهَا، وتساءلت، وهي تتحسَّس كلماتها، وتمشي بتردُّد، إن كانت رأَتْ أيْثُوري.

كانت الحفيدة معروفةً بِتَسَكُّعِهَا وتجوَّالِهَا؛ لذا شعرت أدالين بالسُّخْط على الفور، كأن يَنْقُصَهَا أن تختار هذه الخبيثةُ هذا الوقت بالذَّات. اليوم من دون الأيام، وارت عزيزتها روز الثُّرى، دَفَنْت طفلتها في الأرض، والآن يلزُمُهَا أن تقوم بالبحث عن هذه الطفلة. كَنَمَت أدالين بصعوبةٍ صراخًا وسبَّة.

أرسلت الخَدَمُ للبحث في جميع أرجاء المنزل لتفحص الزوايا المعتادة، ولكن بلا جدوى. حينما مرَّت ساعةً من البحث غير المُجدي، فكَّرت أدالين أن أيْثُوري ربما كانت في مكان بعيد عن المنزل. لقد حدَّرتها، وروز أيضًا، من الخليج الصغير ومناطق أخرى في العزبة، لكن الطفلة لم تتعلَّم الطاعة على النقيض من أمِّها. كان هناك تَصَلُّبٌ وعنادٌ، سِمَةٌ بائسةٌ شَجَّعَتْهَا روز بعدم توجيه عقابٍ لها. لكن أدالين لم تُكُن مُتساهلةً، وحينما ستعثر على الطفلة، ستجعلها تعرف خطأها، ولن تُزَعِّجَهَا بوقاحةٍ مُجدِّداً.

"عذراً سيدتي".

التفت أدالين، وثنايا تُنُورُهَا تَفْحُحُ. عادت دايزي أخيراً من الخليج الصغير.

"أين هي؟" تساءلت أدالين.

"لم أرها يا سيديتي".

"هل فَتَّشْتِ في كل مكان؟ الصخرة السوداء؟ التلال؟".

"كلًّا يا سيديتي، لم أذهب بالقرب من الصخرة السوداء".

"ولماذا؟".

"إنها ضَخْمَةٌ وَزَلِقَةٌ و... " تَخَضَّبَ وَجَهَ الفتاة السخيف كَثْمَرَةَ خَوْخٍ نَاضِجَةً. " يقولون إنها مسكونة، الصُّخْرَةَ الكُبْرَى".

شَعَرَتْ أَدالين بِرَغْبَةٍ عَارِمَةٍ فِي صَفْعِ الفتاة إِلَى أَنْ تُصَابَ بِالكدمات. لو فَعَلْتَ مِثْلَ مَا أَمَرْتَهَا مِنَ البِدَايَةِ، وَحَرَصْتَ عَلَى أَنْ تَظَلَّ الطِفْلَةَ فِي الفِرَاشِ! لِاشْكَ أَنَّهَا ذَهَبَتْ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، رُبَّمَا كَانَتْ تَتَحَدَّثُ مَعَ الخَادِمِ الجَدِيدِ فِي المَطْبَخِ... لَكِنْ لَا فَائِدَةَ مِنَ مُعَاقَبَةِ دَايْزِي. لَيْسَ بَعْدُ. سَيَبْدُو أَنَّ أَوْلِيَّاتِ أَدالين مُتَنَاقِضَةٌ.

عِوَضًا عَنِ ذَلِكَ، أَشَاحَتْ بِنَظَرِهَا بَعِيدًا، وَجَمَعَتْ تَتَوَرَّثَهَا وَرَاءَهَا وَذَهَبَتْ إِلَى النَافِذَةِ. وَنَظَرَتْ إِلَى المَرْجِ المُظْلِمِ. فِي العَادَةِ كَانَتْ أَدالين تَتَكَيَّفُ بِسَهُولَةٍ مَعَ وَاجِبَاتِهَا الاجْتِمَاعِيَّةِ، لَكِنْ اليَوْمَ شَعَرَتْ بِعَجْزِهَا عَنِ القِيَامِ بِدَوْرِ الجَدَّةِ الجَزَعَةِ. تَمَنَّتْ لَوْ اسْتَطَاعَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَعْثُرَ عَلَى الطِفْلَةَ، حَيَّةً أَوْ مَيِّتَةً، مُصَابَةً أَوْ سَلِيمَةً، وَيَحْضُرَهَا. حِينَهَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَسْتَرِيحَ وَتَعُودَ إِلَى حَزْنِهَا عَلَى رُوزِ.

لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ هَذَا الحَلَّ السَهْلَ لَنْ يَحْدُثَ. سَيَحِلُّ الغُرُوبُ فِي غُضُونِ سَاعَةٍ، وَمَا مِنْ أَثَرٍ لِلطِفْلَةِ. وَلَنْ تِيَأَسَ أَدالين إِلَّا بَعْدَ اسْتِنْفَادِ جَمِيعِ الاحْتِمَالَاتِ. كَانَ الخَدْمُ يَرِاقِبُونَهَا، بَلَا شَكٍّ يَنْقَلِبُونَ رَدُودَ أَفْعَالِهَا وَيُحَلِّلُونَهَا فِي قَاعَتِهِمْ؛ لِذَا عَلَيْهَا الاسْتِمْرَارُ فِي المِطَارِدَةِ. كَانَتْ دَايْزِي لَا نَفْعَ فِيهَا، وَالخَدْمَ الآخَرُونَ لَيْسُوا بِأَفْضَلِ مِنْهَا. إِنَّهَا بِحَاجَةٍ إِلَى دِيثِيسِ. أَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ الفَطْطُ حِينَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ؟

"إنها فترة راحته يا سيدتي" قالت دايزي حينما سألتها أَدالين عنه.

بِالطَّبَعِ. كَانَ الخَدْمُ رَهْنِ إِشَارَتِهِمْ، لَكِنْ عِنْدَ الحَاجَةِ لَا يَجِدُونَهُمْ أَبَدًا.

"أظنُّ أَنَّهُ فِي مَنزَلِهِ، أَوْ يَزُورُ القَرْيَةَ، يَا سَيِّدَتِي. أَعْتَقِدُ أَنَّهُ قَالَ شَيْئًا عَنِ إِحْضَارِ بَعْضِ الطَّرُودِ مِنَ القِطَارِ".

هناك شخصٌ آخر يعرف العزبة مثل ديفيس.

"استدعوا الآنسة إيليزا إذن" قالت أدالين وقمها يؤلمها وهي تلفظ الاسم. "وأحضروها لي على الفور".

نظرت إيليزا إلى الطفلة الغافية. أهداب طويلة، وجنتان ناعمتان مغبرتان بالتراب، شفتان ورديتان ممتلئتان وبارزتان، قبضتان صغيرتان مضمومتان في حجرها. كيف ينام الأطفال بكل ثقة في هذه المواقف؟ شعرت إيليزا بالرغبة في البكاء وهي ترى هذه الثقة والهشاشة.

ما الذي فكّرت فيه؟ ماذا كانت تفعل هنا، على متن قطارٍ مُتّجِهٍ نحو لندن، مع طفلة روز؟

لا شيء، لم تُفكّر في شيء على الإطلاق، وهذا هو السبب الذي جعلها تفعل ذلك. التفكير سيجعلها تغمس فرشاةً مُحمّلةً بطلاء الشك في مياه اليقين النقيّة. أدركت أنها لا تستطيع أن تترك الطفلة بمفردها في بلاكهرست بين أيدي الخال لينوس وزوجته أدالين، وعلى هذا الأساس تصرّفت. لقد خذلت سامي من قبل، لكنها لن تفشل مجدداً.

أمّا فيما يخص أيقوري فكانت مسألةً أخرى، بالطبع لا يمكنها الاحتفاظ بها. إن الطفلة تستحق أفضل من ذلك. لا بُدَّ وأن يكون لها أبٌ وأمٌّ، أشقاء، منزلٌ سعيد يملؤه الحب ويمنحها ذكريات جميلة طيلة حياتها. وبرغم ذلك لم تعرف إيليزا أيّ خيار أمامها. كان لا بُدَّ أن تُبعدَ الطفلة عن كورنوال، وإلا كانت هناك مُجازفة كبيرة بالعثور عليها وأخذها مباشرة إلى بلاكهرست.

كلّا، ريثما تُفكّر إيليزا في بديل أفضل، يجب أن تظّلَ الطفلة معها. على الأقل الآن. تبقت خمسة أيام على إبحار السفينة المتّجهة إلى استراليا، إلى ماريبورو، حيث يعيش شقيق ماري، وعمّتها إيانور. كانت

ماري قد أعطتها العنوان. وحينما تصل إيليزا إلى هناك، ستتصلُ بعائلة مارتن. بالطبع سترسل خطابًا إلى ماري تخبرها بما فعلته.

كانت إيليزا قد حجزت بالفعل تذكرةً تحت اسم زائفي. حينما قامت بالحجز تملّكها فجأةً إحساسٌ جارِفٌ أن البداية الجديدة تتطلب اسمًا جديدًا. لم ترغب في أن تترك أثرًا يَدُلُّ عليها في مكتب الحجز، ممّرٌ بين هذا العالم وذاك؛ لذا استخدمت اسمًا مُستعارًا، والذي كان ضربةً حَظًّا كما تَبَيَّن؛ لأنهم سيبحثون. إن إيليزا تعرف الكثير عن أصل طفلة روز، ولن تدعها أداين تُفَلِّتُ بسهولةٍ بعيدًا. يجب أن تستعدَّ للاختباء. ستعثر على فندقٍ صغيرٍ بالقرب من الميناء، وتقوم بحجز غرفةٍ وتظاهر بأنها أرملةٌ فقيرةٌ في طريقها هي وطفلتها للانضمام إلى العائلة في العالم الجديد. وتساءلت هل تقوم بشراء تذكرةٍ للطفلة في آخر لحظة، أم ستمكّن من العثور على طريقةٍ لكي تصعد الطفلة على متيّ السفينة دون جذب الانتباه.

نظرت إلى الطفلة الهاجعة في زاوية العربة. هشة للغاية. مدت يدها وداعبت وجنتها. ثم سحبتها حينما أجفلت الطفلة، وجعدت أنفها الصغير، وتراجعت برأسها. مرّت بذهنها فكرةٌ سخيفة؛ أن أيفوري تشبه روز وهي طفلة، حينما عرفتها إيليزا أوّل مرّة.

سوف تسأل الطفلة عن أبيها وأمها، وستخبرها إيليزا يومًا ما. برغم أنها لا تعرف كيف ستمكّن من ذلك. لاحظت أن القصة الخيالية التي ربما تنفع لهذا الغرض غير موجودة في كتاب الطفلة. أزالها أحدهم. وساورتها الشكوك أن ناثانيال هو الفاعل. روز وزوجة خالها أداين كانتا ستدّمران الكتاب بأكمله. لكن ناثانيال سينزعُ القصة الوحيدة المتورّط فيها، وسيحفظ الباقي.

سوف تتصل بآل سويندل في اللحظة الأخيرة. نعلمُ أنها لا يجب أن تضع ثقتها المفرطة بهم، رغم أنها لم تفهم كيف يمكن أن يشكّلوا

تهديدًا. لو لمح آل سويندل فرصةً للرَّبْح، سوف ينقضُّون عليها. وفكَّرت إيليزا لهنيهة أن تنسى أمر الزيارة، وتساءلت إن كانت النتيجة تستحقُّ المجازفة. لكنها قرَّرت أن تغامر. ستحتاج إلى مجوهرات دبوس الزينة من أجل الحياة في العالم الجديد، والجزء المجدول فيه كان ثمينًا؛ كان ما يربطها بعائلتها، وماضيها، وذاتها.

بينما انتظرت أدالين عودةً ديفيس، سار الزمن بطيئًا ثقيلًا كطفلٍ مُشاكسٍ عند جونلتتها. كانت وفاة روز ذنبَ إيليزا. زيارتها إلى المتاهة، والتي كانت محظورةً وفقًا للاتفاق، عَجَلت بِخَطِّ نيوويورك، وأدَّت إلى الرحلة إلى كارلايل. لو ظَلَّت إيليزا على الناحية الأخرى من العزبة كما وعدت، ما كانت روز لتركب ذاك القطار.

انفتح الباب وجذبت أدالين نَفْسًا. أخيرًا رجعت الخادمة، أوراقٌ على شعرها، طينٌ على جونلتتها، ومع ذلك كانت مُفردَها.

"أين هي؟" قالت أدالين. هل كانت تبحث بالفعل؟ هل استخدمت دايزي لمرةً واحدةً عَقَلها، وطلبت من إيليزا الذهاب إلى الخليج الصغير لتبحث عن الطفلة؟

"لا أعرف يا سيدتي".

"لا تعرفين؟".

"حينما وصلتُ وجدْتُ الكوخ موصدًا. نظَّرتُ عبر النوافذ لكن لا أثرَ على وجودها بالداخل".

"كان عليكِ الانتظار لفترة. ربما كانت في القرية وستعود عمَّا قريب".

مكتبة

t.me/t_pdf

هزّت الفتاة رأسها الوقح. "لا أظن يا سيدتي. فالنيران كانت مُطْفَأَةً والرفوف فارغة" طرّفت دايزي بعينيها البليدتين. "أعتقد أنها رحلت أيضًا يا سيدتي".

حينها فهمت أدالين. وقذف الفهمُ بحممِ الغضب التي أخذت تلفحها أسفل جِلدها، وامتلاً رأسها بطلقات حادّةٍ حمراء من الألم. "هل أنتِ على ما يُرام يا سيدتي؟ هلأُ جلستِ؟".

كلّا، لم تكن أدالين بحاجةٍ إلى الجلوس. بل كانت بحاجةٍ إلى أن ترى بسرعة وبأمّ عينيها جحود الفتاة. "خُذيني عبر المتاهة يا دايزي".

"لا أعرف الطريق يا سيدتي. لا أحدَ يعرف سوى ديثيس. لقد ذهبّت من الطريق الرئيسي، درب الجُرف".

"إذن أحضري نيوتن والعربة".

"لكن الليل سيحلُّ قريبًا يا سيدتي".

صَيَّقت أدالين عينيها ورفعت كتفيها. وتكلّمت بوضوح: "أحضري نيوتن الآن واجلبي لي مصباح".

كان الكوخ نظيفًا لكن ليس خاويًا. في المطبخ ما زالت أدوات الطبخ المختلفة مُعلّقة، لكن الطاولة نظيفة. وكان المشجَبُ بجوار الباب عاريًا. عانت أدالين موجةً من السُّقم، وشعرت برئيتها تتقلّصان. كان حضور الفتاة المتباطئ، كثيفًا وطاغيًا. أخذت المصباح وشرعت تصعد الدَرَجَ الضيّق. كانت هناك غرفتان، الكبرى بسيطة ولكن نظيفة، تحوي فراش العليّة، ولحافًا قديمًا مُكوّمًا على سطحه. والصغرى بها مكتب ومقعدٌ ورَفٌّ مليء بالكتب. الأشياء على المكتب كانت مُرتّبة في

كوماتٍ. ضغطت أدالين أصابعها على سطح المكتب الخشبي، وانحنت إلى الأمام قليلاً لتنظر إلى الخارج.

انسكب اللون الأخير من اليوم على البحر، وفارت المياه البعيدة وسقطت، ذهبيةً وأرجوانيةً.

لقد ماتت روز.

جاءتها الفكرة سريعةً ومُدبَّبةً.

هنا، وحدها، أخيراً، دون رقيب، أمكنها أن تتوقَّف عن التظاهرِ قليلاً. أغلقت عينيها وتهدَّل كتفاها.

تأقَّت لأن تتكوَّر على الأرض، مَنَّت أن تضع وجنتها على الألواح الخشبية الناعمة والباردة، ولا تنهض أبداً، أن تنام لمائة عام، ولا تدع أحدهم يتَّخذها عبرة. أن تتنَفَّس...

"ليدي مونتراشيه؟" جاء صوت نيوتن من الدرج. "إن الليل توغَّل يا سيدتي. ستجد الجيادُ صعوبةً في العودة إن لم تغادر حالاً".

جذبت أدالين نفْسًا حادًا. وعاد كتفاها إلى موقعهما مُجدِّدًا. "لحظة".

فتحت عينيها وضغطت بيدها على جبهتها. لقد ماتت روز ولن يندمل جُرْحُها قَطُّ، ولكن هناك خطر آخر الآن. برغم أن جزءًا من أدالين رغب بشدَّة في ترك إيليزا والطفلة تختفيان من حياتها إلى الأبد، كانت الأمور أعقدَ بكثير من هذه الرغبة. بغياب إيليزا وأيقوري، معًا بالطبع، فكَّرت أدالين أن الناس ربما يكتشفون الحقيقة. أن إيليزا ربما تتكلَّم عمَّا فعلوه، وهو ما يجب منعه بأيِّ مَن؛ من أجل روز وذكرها، ومن أجل سُمعةِ عائلة مونتراشيه، يجب أن تعثُر على إيليزا، وتعيدها وتُخرسها.

اكتسحت نظرة أدالين مُجدِّدًا سطحَ المكتب، ولمعت عيناها حينما رأت حافَّةَ ورقةٍ تبرزُ من أسفل كومة كتب. أبصرت كلمةً عرفتُها برغم أنها لم تدرِ كيف. انتزعت الورقة من مكانها. كانت قائمةً من الأشياء التي أعدتها إيليزا؛ أشياء ستفعلها قبيل رحيلها. وفي أسفل القائمة كُتبت كلمة سويندل. وظننت أنه اسمٌ.

تصاعدت دقات قلبها وهي تثني الورقة وتضعها في جيبها. لقد عثرت على طرف الخيط. إن فتاةً مثلها تلفت الانتباه والأنظار، ومن السهل العثور عليها، وستعود الطفلة، ابنة روز، إلى حيث تنتمي.

وعرفت أدالين مَنْ ستستعين بمساعدته من أجل هذه المهمة.

(46)

بولبيرو، 2005

كان كوخ كلارا الأبيض صغيراً، مُعلّقاً من حافة منحدرٍ صخريٍّ، على مسافةٍ قصيرةٍ من حائَةٍ تُسمّى بكانير. سألتها كريستيان حينما وصلا: "هل ستقومين بهذا الشرف؟". أومأت بالإيجاب، لكنها لم تَقْرَعُ الباب. غَمَرَتْهَا فجأةً مَوْجَةٌ من الحماس المتوتّر؛ فشقيقةٌ جَدَّتْهَا تقبع على الناحية الأخرى. وفي غضون لحظاتٍ قليلةٍ، سيَحُلُّ اللغز الذي قلب حياة نيل رأساً على عَقِب. نظرت كساندرا إلى كريستيان، وشعرت بالسَّعادة لقدمه معها.

بعدما غادرت روبي هذا الصباح عائِدةً إلى لندن، انتظرته كساندرا على الدرجات الأمامية للفندق، وهي تقبض على كتاب القصص الخيالية. جلب كريستيان معه النُسخةَ خاصَّتَه، واكتشفا وجود قصة مفقودة من كتاب كساندرا. كانت الفجوة في التجليد ضيقّة، وكان القطع مُحكِّمًا، حتى أن كساندرا لم تلاحظه من قَبْل. بل إن

ترقيم الصفحات المفقودة لم يجذب انتباهها. كانت الأرقام مُتَمَوِّجَةً ومُزَخْرَفَةً؛ حتى يتطلَّب الأمر أن يكون المرء مُتَمَرِّسًا في قَنِّ الخط لِيُمَيِّزَ الاختلاف بين رقمي 56 و61.

في الطريق إلى بولبيرو، قرأت كساندرا (البيضة الذهبية) بصوت عالٍ. وبينما تُطالعُها، ازداد يقينها أنَّ كريستيان كان على صواب، وأن القِصَّة كانت استعارةً للطريقة التي حصلت بها روز على ابنتها؛ ممَّا جعلها مُتَيَقِّنَةً ممَّا ستقوله كلارا.

لقد أُجِبرَت ماري المسكينة على التَّخْلِي عن أوَّلِ طفل لها وإخفاء الأمر. لا عَجَبَ أنها باحت لابنتها في أَيَّامها الأخيرة. إن الطِّفْلَ المفقود لا يغيب عن ذهن الأم طيلة حياتها.

لو كان ليو على قَيْدِ الحياة، لكان عُمرُه الآن اثنتي عشرة سنة.

"هل أنتِ بخير؟" كان كريستيان يراقبها، وقد ضَيَّقَ عينيه وقَطَّبَ جبهته قَلْبًا.

"أجل" قالت كساندرا وهي تطوي ذكرياتها بعيدًا. "أنا بخير"، وبينما كانت تبتسم له، لم تشعر بأنها كذبة كالمعتاد.

رفعت كساندرا يدها وكانت على وَشِكِ قَرَعِ المطرَقَةِ حينما انفتح الباب. وَقَفَت في الإطار الضيِّق الخفيض امرأةً مُمْتَلِئَةً، ملفوفٌ حول خصرها مئزرٌ منزليٌّ؛ ممَّا أعطى الإيحاءَ بِجَسَدٍ مُشَكَّلٍ من كُرَتَيْنِ من العجين. قالت وهي تبتسم، وتشير إليهما بأصبعها المُجَعَّد: "رأيتُ أنكما تقفان هنا، وقلتُ لنفسي لا بُدَّ وأنهما الضيفان، والآن تَفَضَّلَا، وسأعدُّ الشاي".

جلس كريستيان بجانب كساندرا على الأريكة المُزَخْرَفَةِ بالزهور، ووَضَعَا وسائدَ ذاتِ سَطْحٍ مُتَعَدِّدِ الألوان لترك مسافة بينهما. بدا

حَجْمُهُ أَكْبَرَ مِنْ الْمَعْتَادِ بِشَكْلِ بَائِسٍ بَيْنَ تِلْكَ الزَّخَارِفِ الْجَمِيلَةِ حَتَّى أَنْ كَسَانَدْرَا كَتَمَتْ ضَحْكَتَهَا بِصُعُوبَةٍ.

تَوَسَّطَ إِبْرِيْقُ شَايٍ أَصْفَرِ اللَّوْنِ صَنْدُوقًا بَحْرِيًّا فِي غُرْفَةِ الْجُلُوسِ، مُحَاطًا بِغَطَاءٍ شَايٍ مَحْبُوكٍ عَلَى شَكْلِ دَجَاجَةٍ. فَكَّرَتْ كَسَانَدْرَا أَنَّهُ يُشْبِهُ كَلَارَا بِشَكْلِ كَبِيرٍ، عَيْنَانِ يَقِظَتَانِ صَغِيرَتَانِ، وَجَسَدٌ مَمْتَلِئٌ، وَقَمٌّ دَقِيقٌ صَارِمٌ.

جَلَبَتْ كَلَارَا فَنجَانًا ثَالِثًا، وَوَضَعَتْ أَوْرَاقَ الشَايِ فِي كُلِّ فَنجَانٍ. قَالَتْ: "خَلِيطِي الْخَاصِ. ثَلَاثُ حَصِصٍ مِنْ شَايِ بَرِيكَفَاسْتِ، وَحِصَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ شَايِ إِيرْلِ جَرَايٍ" نَظَرَتْ مِنْ فَوْقِ نَظَّارَتِهَا نَصْفِيَّةَ الْإِطَارِ. "شَايِ بَرِيكَفَاسْتِ الْإِنْجَلِيزِي". وَبَعْدَمَا أَضَافَتْ اللَّبْنَ، اسْتَرَاحَتْ عَلَى كُرْسِيِّ بِمَسْنَدَيْنِ بِجَوَارِ الْمَدْفَأَةِ. "أَخِيرًا أُرِيحُ قَدَمِي الْمَسْكِينَتَيْنِ. ظَلَلْتُ وَاقِفَةً طِيلَةَ الْيَوْمِ أَقُومُ بِتَنْظِيمِ الْأَجْنَحَةِ مِنْ أَجْلِ احْتِفَالِ الْمِينَاءِ".

"شُكْرًا عَلَى دَعْوَتِكَ. هَذَا صَدِيقِي كَرِيسْتِيَانُ" قَالَتْ كَسَانَدْرَا.

مَدَّ كَرِيسْتِيَانُ يَدَهُ عِبْرَ الصُّنْدُوقِ الْبَحْرِيِّ لِيُصَافِحَ يَدَ كَلَارَا الَّتِي أَحْمَرَّتْ وَجْهَهَا خَجَلًا.

"تَسْرُنِي رُؤْيُكَ بِالتَّأَكِيدِ" أَخَذَتْ رَشْفَةً مِنَ الشَايِ ثُمَّ أَوْمَأَتْ نَحْوَ كَسَانَدْرَا. "السَّيِّدَةُ الَّتِي تَعْمَلُ بِالْمُتَحَفِ، رُوبِي، حَكَّتْ لِي عَنْ جَدِّكَ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ مَنْ يَكُونُ وَالِدَاهَا".

"اسْمُهَا نَيْلٌ. جَدِّي الْأَكْبَرُ هِيَ وَجَدُّهَا حِينَمَا كَانَتْ طِفْلَةً، تَجَلَسُ عَلَى حَقِيبَةِ سَفَرٍ بِيضَاءٍ عَلَى رَصِيفِ مِينَاءِ مَارِيْبُورُو. كَانَ رَئِيسَ الْمِينَاءِ وَسَفِينَةٌ...".

"تَقُولِينَ مَارِيْبُورُو؟"

أَوْمَأَتْ كَسَانَدْرَا.

"هَذِهِ مُصَادَفَةٌ. لَدَيَّ عَائِلَةٌ فِي مَكَانٍ يُسَمَّى مَارِيْبُورُو. فِي كُوِينزْلَانْدِ".

"كوينزلاند. أي عائلة؟" قالت كساندرا وهي تميل إلى الأمام.

"خالي انتقل إلى هناك في فترة شبابه، وربّي أطفاله. اعتادت أمّي أن تقول إنهم استقرّوا هناك بسبب اسمها".

اختلّست كساندرا النّظرَ إلى كريستيان. هل كان ذلك هو السبب الذي جعل إيليزا تَضَعُ نيل على تلك السّفينةِ بالذّات؟ هل كانت تُعيدُها إلى عائلة ماري، إلى عائلة نيل الحقيقية؟ عوضًا عن أخذ الطفلة إلى بولبيرو والمخاطرة بأن يتعرّف عليها أهالي القرية ويعرفون أنها أيثوري مونتراشيه، آثرت الذهاب إلى شقيق ماري البعيد؟ شعرت كساندرا أن كلارا تمتلك الجواب، كل ما تحتاجه هو دفعها برفقٍ نحو الاتجاه الصّحيح.

" كانت والدتكِ، ماري، تعملُ بعزبة بلاكهرست، أليس كذلك؟".

عبّت كلارا جرعة كبيرة من الشاي وقالت: "عملت هناك إلى أن فُصلت من العمل في عام 1909. لقد كانت تعمل هناك منذ أن كانت فتاةً صغيرة، في العاشرة من عمرها تقريبًا. فُصلت لأنها سبّبت مشكلةً للعائلة". أخفضت كلارا من صوتها حتى صار همسًا: "لم تكن متزوجة، ولم يكن هذا صائبًا وقتذاك. لكن أمي لم تكن فتاةً سيئةً. كانت سويةً كاستقامة الشموع. تزوّجت من أبي في النهاية، بطريقةٍ صحيحةٍ وشرعيّة. وكانت ستفعل ذلك من قبل لولا إصابته بالتهاب رئويّ، حتى أنه كاد يُفوّت زفافه. وحينما انتقلًا إلى هنا إلى بولبيرو، استطاعا تدبّر أموالٍ قليلةٍ وشرعًا في العمل بالجزارة".

التقطت كتاب مستطيل صغير بجانب صينية الشاي، زُخرف غُلافه بورق التغليف والقماش والأزرار، وحينما فتحته كلارا أدركت كساندرا أنه ألبومٌ صور. قلبت كلارا حتى وصلت إلى صفحة علّمت بشريطٍ وناولته إلى كساندرا: "أمي".

نظرت كساندرا إلى الشابة ذات الشعر المعقوص البرّي والقوام الرائع، وهي تحاول أن ترى نيل في ملامحها. ربما كان هناك شيء من نيل في الفم، أو الابتسامة التي تتلاعب على الشفاه. لكن كانت تلك طبيعة الصُور؛ كلما أطالت كساندرا النظر، بدأت ترى شيئاً من الخالة فيلي في الأنف والعينين!

ناولت الألبوم إلى كريستيان وابتسمت إلى كلارا. "كانت حسناء، أليس كذلك؟".

قالت كلارا وهي تغمز بأناقية: "أجل. كانت أمي محط الأنظار. من يراها لا يصدق أنها خادمة".

"هل كانت سعيدة في بلاكهرست؟ هل كانت تشعر بالأسف لرحيلها؟".

"كانت مسرورة لأنها تزكت المنزل، لكنها حزنّت لترك سيدتها".

كانت تلك معلومة جديدة. "هل كانت هي وروز مقربتين؟".

هزت كلارا رأسها قائلة: "لا أعرف مدى علاقتها بروز. بل اعتادت التحدّث عن إيليزا. الآنسة إيليزا فعلت كذا وكذا".

"لكن إيليزا لم تكن سيّدة عزيّة بلاكهرست".

"ليس من الناحية الرسمية، كلّاً، لكنها دوّمًا كانت قرّة عين أمي. كانت تقول إن الآنسة إيليزا هي الشرارة التي أذكت الحياة في المكان الميّت".

"ولماذا اعتقدت أنه مكان ميّت؟".

"كانت أمي تقول إن الذين يسكنون هناك كانوا كالأموات. جميعهم عابسون واجمون لسبب أو لآخر. كلهم بانتظار أشياء لا يجب أن يحصلوا عليها أو عاجزون عن امتلاكها".

تأمّلت كساندرا هذه اللّمْحة من الحياة في عزبة بلاكهرست. لم يكن ذلك هو الانطباع الذي كوّنته من قراءة كُتُب قُصاصات روز، برغم أن روز كانت بالتأكيد مجردَ صوتٍ واحد، بتركيزها على الفساتين الجديدة ومغامرات ابنة عمّتها إيليزا، في مَنْزِلٍ يعجُّ بصدى أصوات آخرين. وكانت تلك هي طبيعة التاريخ: انطباعيٌّ، ومُتَحَيِّزٌ، ومجهول، سِجِلٌّ يكتبه المنتصرون.

"تقول أمي إن السيد والسيدة مالكي العزبة كانوا بغيضين. ولقد استحقًا ما نالاه في النهاية".

قطّبت كساندرا وهي تقول. "مَنْ؟".

"هو وهي. لورد وليدي مونتراشيه. ماتت السيدة بعد وفاة ابنتها بشهر أو اثنين، بتَسَمُّمٍ في الدَّم". هَزَّتْ كلارا رأسها، وخفضت صوتها بطريقة مُتأمِرة، وهي تقول بجذَلٍ تقريبًا: "ميتة بِشِعة. سمعت أمي الخَدَم يقولون إنَّها كانت مُخيفةً في أيامها الأخيرة. وجهها كُلُّه تَشوُّهٌ حتى بَدَت كالغول، وتهرب من فِراش المرض لتطوف في الدهاليز وبِيديها حلقة كبيرة من المفاتيح، تُغلقُ كُلَّ الأبواب وتهذي عن سرِّ لا يجب أن يعرفه أحد. لقد فَقدت عقلها وجُنَّتْ بالنهاية، ولم يكن هو في وضعٍ أفضل".

"لورد مونتراشيه حدث له تَسَمُّمٌ دمايًّا أيضًا؟".

"كلَّا، كلَّا، ليس هو. بل فَقد ثروته بسبب أسفاره الكثيرة إلى أماكن غريبة" خَفَضَتْ صوتها وهي تقول: "أماكن تُمارِسُ السَّحر. يقولون إنه جَلَبَ معه هدايا مُرعبة. وفاقت غرابته كُلَّ التَّوَقُّعات. غادرَ جميع الخَدَم، عدا خادمة في المطبخ وبستاني كان هناك طيلة حياته. تقول أمي أنه عُثِرَ على جُثَّة العجوز بعد أيَّامٍ من وفاته، ولم يكن هناك أحدٌ في المنزل" ابتسمت كلارا فضاقت عينها حتى انغلقتا.

"لكن إيليزا نَجَتْ. تقول أُمِّي إنَّها سافَرتَ عبرَ البحرِ. كانتِ دوَمًا سعيدةً لذلك".

"لكن ليس إلى استراليا" قالت كساندرا.

"الحقيقة لا أعرف أين. أخبرتني أُمِّي أن إيليزا ابتعدت عن البيت البغيض في الوقت المناسب. سافَرتَ بعيدًا كما خَطَّطتَ ولم تُعَدِ مُطْلَقًا" ثم رَفَعَتَ أصبعها عاليًا. "وهذا هو السبب في وصول تلك الرسومات لنا، تلك التي أُعجِبَتَ بها سيِّدَةُ المُتَحَفِ. كانت رسوماتٍ خاصَّةً بإيليزا. كانت بين أشياءها".

كانت كساندرا على وَشَكٍ على أن تسألها هل أخذتهم ماري من إيليزا، لكنها أَحَجَمَتَ، مُدْرِكةً أنها رُبَّمَا تُسيءُ فَهَمَّها، وتظنُّ أنها تَتَّهَمُ أُمَّها الراحلة العزيزة بسرقة أعمالٍ فَنِّيَّةٍ قِيَمَةٌ من سيِّدتها.

"أي أشياء؟"

"الصناديق التي اشترتها أُمِّي".

الآن شعرت كساندرا بالارتباك. "هل اشتَرَتَ بعض الصناديق من إيليزا؟"

"ليس من إيليزا. بل أشياء خاصَّةً بإيليزا. بعدما رحلت".

"ومِمَّنَ اشتَرْتهم؟"

"كانت صفقةً بِبِيعٍ كبيرة. أتذكُّرها جيِّدًا. أخذتني أُمِّي معها وكنت حينها في الخامسة عشرة من عمري. كان ذلك في عام 1935. بعدما تُوفِّيَ اللورد العجوز، قَرَّرَ أقاربُ بعيدون من اسكتلندا بيع العزبة، آمِلين بالتأكيد في جمع بعض الأموال خلال فترة الكساد العظيمة. على كل حال، عَلِمَتِ أُمِّي بأمر البيع من الصحف، كانوا يُخَطِّطون لبيع بعض الأشياء التي لم تُكُنْ ذاتَ قيمة كبيرة أيضًا. اعتقد أنها فَكَّرَتَ في امتلاك قطعة صغيرة من المكان الذي تَلَقَّتَ فيه معاملة

سَيِّئَةٌ. أَخَذْتَنِي مَعَهَا لِأَنَّهَا قَالَتْ إِنَّهَا تُسَدِّي لِي مَعْرُوفًا لِكَيْ أَرَى أَيْنَ
بَدَأَتْ، لِأَشْعُرَ بِالِامْتِنَانِ أُنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَادِمَةً، وَتَشَجَّعْنِي عَلَى الْاجْتِهَادِ
أَكْثَرَ فِي الْمَدْرَسَةِ حَتَّى أَحْصَلَ عَلَيَّ مَا لَمْ تَحْصَلْ هِيَ عَلَيْهِ. لَا أَقُولُ إِنَّ
الْأَمْرَ أَفْلَحَ، لَكِنِ بِالتَّأَكِيدِ صَدَمْنِي. كَانَتْ الْمَرَّةَ الْأُولَى الَّتِي رَأَيْتُ فِيهَا
شَيْئًا كَهَذَا. لَمْ أَعْرِفْ أَنَّ هُنَاكَ بَعْضَ النَّاسِ يَعِيشُونَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ.
لَا تَرَيْنَ مَنَازِلَ فَخْمَةً كَثِيرَةً فِي الْأَنْحَاءِ الْمَجَاوِرَةِ". أَوْمَأَتْ لِتَشِيرَ إِلَى
مُؤَافَقَتِهَا عَلَى الْوَضْعِ الرَّاهِنِ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ وَحَدَّقَتْ نَحْوَ السَّقْفِ. "الآن
أَيْنَ كُنْتُ؟".

أَسْرَعَ كَرِيسْتِيَانُ يَقُولُ: "كُنْتُ تَتَحَدَّثِينَ عَنِ الصَّنَادِيقِ الَّتِي ابْتَاعْتَهَا
أُمُّكَ مِنْ بِلَاكَهْرَسْتِ".

رَفَعَتْ أَصْبَعًا مُرْتَجِفًا وَقَالَتْ: "هَذَا صَحِيحٌ، مِنْ الْعِزْبَةِ حَتَّى طَرِيقِ
تْرِيجِينَا. لَيْتَكَ تَرَيْنَ وَجْهَهَا حِينَمَا رَأَيْتَهَا. كَانَتْ عَلَى الْمُنْضَدَةِ مَصَابِيحُ،
وَتَقَالَاتُ وَرَقٍ، وَكُتُبٌ وَأَشْيَاءٌ أُخْرَى. لَمْ تَبْدُ لِي الْكَثِيرَ، لَكِنَّ أُمِّي عَرَفَتْ
عَلَى الْفُورِ أَنَّهَا كَانَتْ تَخْصُ إِيْلِيْزَا. أَمْسَكْتُ يَدِي، أَظُنُّ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى
فِي حَيَاتِي، وَكَانَتْ أَنْفَاسَهَا مُتَقَطِّعَةً. اعْتَرَانِي الْقَلْقُ عَلَيْهَا، وَفَكَّرْتُ فِي أَنْ
أُحْضِرَ لَهَا مَقْعَدًا لِتَجْلِسَ عَلَيْهِ، لَكِنَهَا رَفَضَتْ. انْقَضَتْ عَلَى الصَّنَادِيقِ،
كَأَنَّهَا خَافَتْ أَنْ يَشْتَرِيهَا شَخْصٌ آخَرَ. لَمْ تَبْدُ لِي حَقًّا صَّنَادِيقُ قِيَمَةٍ،
لَكِنَّ الْجَمَالَ فِي عَيْنِ الرَّائِي، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟".

"وَرَسُومَاتُ نَاطَانِيَالِ وَوَاكِرِ كَانَتْ فِي الصَّنَدُوقِ؟ مَعَ أَشْيَاءِ إِيْلِيْزَا؟"
تَسَاءَلَتْ كَسَانْدْرَا.

أَوْمَأَتْ كَلَارَا. "الآن أَتَذَكَّرُ أَنَّهُ كَانَ أَمْرًا غَرِيبًا. طَارَتْ أُمِّي مِنْ
الْفَرْحَةِ لِشِرَائِهِمْ، لَكِنِ حِينَمَا عُدْنَا إِلَى الْبَيْتِ أَمَرَتْ أَبِي أَنْ يَحْمِلَهُمْ
إِلَى الْأَعْلَى، وَوَضَعَتْهُمْ فِي الْعَلِيَّةِ، وَكَانَتْ تِلْكَ آخِرَ مَرَّةٍ أَسْمَعُ عَنْهُمْ.
لَمْ أَفَكَّرْ فِيهِمْ كَثِيرًا حِينَهَا. كُنْتُ فِي الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِي، وَرَبَّمَا
وَضَعْتُ عَيْنِي عَلَى صَبِيٍِّّ وَلَمْ أَهْتَمَّ بِصَّنَادِيقِ قَدِيمَةِ ابْتَاعَتِهَا أُمِّي. إِلَى أَنْ

انتقلت إلى هنا معي، ولاحظتُ أنها جَلَبَت معها الصناديق. وكان هذا أمرًا عجيبيًا، ولقد بيّن هذا التّصرف مدى أهميّة تلك الصناديق؛ لأنها لم تحضر معها الكثير من الأشياء الأخرى. ونحن هنا أخبرتني أخيرًا قصّة هذه الصناديق، ولماذا كانت في غاية الأهميّة".

تذكّرت كساندرا ما حكته روبي عن الغرفة العلويّة، المليئة بأشياء شخصيّة تخصُّ ماري. تُرى ما الخيوط الأخرى الثمينة القابعة الآن في الصناديق ولم تَرَ النُّورَ بعدُ؟ ابتلعت ريقها وسألتها: "هل نظرت بالداخل؟".

أخذت كلارا رشفةً من الشاي، الذي بالتأكيد بردَ الآن، وعبّئت في مَقْبِضِ الفنجان. "لا بُدَّ وأن أعترف أنني فعلت".

دقَّ قلب كساندرا، وانحنت إلى الأمام. "وماذا وجدتِ؟".

"الكثير من الكتب، ومصباحًا، مثلما قلتُ" توقّفت عن الكلام، وتخصّبت وجنتاها بتورُّدٍ قُرْمِزِيٍّ.

"هل كان هناك شيء آخر؟" سألتها كساندرا برفق وهدوء.

حرّكت كلارا أصبع قَدَمِها في الخُفِّ على السجّاد. وراقبت زحفه، قبل أن ترفع رأسها. "وجدتُ خطابًا أيضًا، على القمّة. كان موجهًا إلى أمي، كتبه ناشِرٌ في لندن. وقد صدّمني للغاية. لم أظنَّ أن أمي كانت كاتبته. وبالطبع لم تكن".

"ماذا كان الخطاب إذن؟ ولماذا أرسله الناشر إلى والدتك؟" تساءلت كساندرا.

طرّفت كلارا بعينها. "ما فهمته من الخطاب أن أمي وجدت في الصندوق، بين أشياء أخرى، إحدى قصص إيليزا التي ظننت أنها تستحقُّ القراءة، فأرسلتها إلى هذا الناشر. وتبيّن أن إيليزا كتبتها قبل

انطلاقها في مُغامرتِها. كانت قِصَّةً جميلةً، مُفعمَةً بالأمل والنهيات السعيدة".

فكَّرت كساندرا في نسخة المقال المصوَّرة في مُفكِّرة نيل. وقالت: "فرار طائر الوقواق".

"أجل"، قالت كلارا مسرورةً كأنها هي مَنْ كتَّبت القِصَّة. "إذن قرأتِها؟".

"قرأتُ عنها، لكنِّي لم أقرأ القِصَّة نفسها. نُشِرت بعد البقيَّة بأعوام".

"هذا صحيح، في عام 1936 طبقًا للخطاب المرسل. فَرِحَت أُمِّي للغاية من الخطاب. لا بُدُّ وأنها شعرت بأنها يجب أن تفعل شيئًا من أجل إيليزا. لقد افتقدتها بعدما رحلت وهذا حقيقي".

أومأت كساندرا، كان بإمكانها تَدوُّقُ حَلِّ لُغز نيل تقريبًا. "بينهما رابطة قويَّة، أليس كذلك؟".

"بالفعل".

"لماذا برأيكِ كانت الرابطة قويَّة بهذا الشكل؟" عَضَّت شَفَتَها، ومَهَلَّت.

شَبَّكَت كلارا أصابعها المتجعِّدة وخَفَضَت صوتها: "كلتاها كانتا طرفًا في اتِّفاقٍ سرِّي".

تحرَّرَ شيءٌ حبيسٌ داخل كساندرا. وقالت بصوتٍ واهنٍ: "ما هو؟ ماذا أخبرتك والدتك؟".

"في أيَّامها الأخيرة، طَفِقَت أُمِّي تهذي بكلامٍ عن شيءٍ مُريعٍ حَدَثَ، ومَنْ فعلوه اعتقدوا أنهم أفلتوا من العقاب. ظلَّت تُردِّد ذلك مرارًا وتكرارًا".

"وبرأيك ماذا كانت تقصِدُ؟".

"في البداية لم أفكر كثيرًا في كلامها. كانت تقول أشياء غريبة في النهاية. تسبُّ أصدقاءنا القدامى الأعرَاء. كانت تغيّرت. لكنها استمرت تقول مرارًا كله موجود بالقصة. لقد أخذوه من الفتاة الشابة وجعلوها ترحل بدونه. لم أفهم عمّن كانت تتحدّث، وما هي هذه القصة. وفي النهاية أخبرتني مباشرةً". جذبت كلارا نفسًا، وهزت رأسها بحزن: "لم تكن روز مونتراشيه والدة الطفلة، جدّتك".

تنهّدت كساندرا بارتياح. أخيرًا حانت لحظة الحقيقة. قالت: "أعلمُ" وهي تأخذ بيد كلارا. "كانت نيل طفلة ماري، الحمل الذي جعلهم يطردونها من العزبة".

كان من الصعب قراءة التعبير الذي ارتسم على وجه كلارا. أخذت تنظر بين كريستيان وكساندرا، وزاويتا عينيها ترتعشان، وطرقت بارتباك ثم شرعت في الضحك.

"ماذا؟" قالت كساندرا ببعض الفزع. "ما المضحك؟ هل أنت بخير؟".

"لقد كانت أمي حُبلى فعلاً، لكنها لم تلد الجنين. أجهضت بعد اثني عشر أسبوعاً".

"ماذا؟".

"هذا ما أحاول أن أخبرك به. لم تكن نيل ابنة أمي، بل كانت ابنة إيليزا".

"إيليزا كانت حُبلى" خلعت كساندرا وشاحها ووَضَعته على قِمة حقيبتها على أرضية السيارة.

"إيليزا كانت حُبلى!" خَبَطَ كريستيان يديه الموضوعتين في القفاز على المقوود.

كان نظام التسخين على وضع التشغيل، طَقَطَقَ مُرَدُّ السَّيَّارة، وهما يغادران بولبيرو. حَلَّ الضباب أثناء زيارتهما، وبطول طريق الساحل كانت أضواء قوارب محجوبة تتمايل مع المدِّ الخفيِّ.

حدَّقت كساندرا بدهشة إلى الأمام، كان ذهنها ضابئًا كالعالم بالخارج. "كانت إيليزا حُبلى. كانت والدة نيل. ولهذا أخذتها إيليزا" رَما لو قالت ذلك مرَّاتٍ كثيرة، ستستوعبه بشكل أكبر. "هذا ما يبدو عليه الأمر."

أحنت رأسها جانبًا وفَرَكَت عُنُقَهَا. "لكنني لا أفهم. كان كُلُّ شيءٍ مفهومًا حينما كانت ماري. الآن الأم هي إيليزا... لا أفهم كيف انتهت أيثوري مع روز. ولماذا تَرَكَتها إيليزا تحتفظ بها؟ وكيف لم يعرف أحدٌ قَطُّ؟".

"باستثناء ماري."

"باستثناء ماري."

"أظنُّ أنهم أبقوا الأمرَ سرًّا."

"عائلة إيليزا؟".

أومأ. "كانت امرأةٌ عَزِباءَ وشابَّةً، وتحت حمايتهم، ثم تحمَل. لم يَبْدُ الأمر صحيحًا."

"ومَن كان الأب؟".

هَزَّ كريستيان كَتْفَيْهِ. "رُما شخصٌ من القرية؟ هل كان لديها حبيب؟".

مكتبة

t.me/t_pdf

"لا أعرف. كانت صديقةً وويليام شقيق ماري، هكذا تقول مُفَكِّرةً
نيل. كانوا مُقَرَّبين إلى أن تَجَادَلَا. رُبَّمَا هو الأب".

"مَنْ يعرف؟ أظنُّ أنه لا يهم حَقًّا" ورمَقَها بنظرةٍ. "أقصد، أنه
مُهِّمٌ بالطبع لنيل ولكِ، ولكن على سبيل الجَدَل، كُلُّ ما يهمُّ أنها
كانت حُبلى وليس روز".

"لذا أقنعوا إيليزا أن تعطي طفلَها إلى روز".

"كان الحَلُّ الأمثل للجميع".

"هذا أمرٌ يَحْتَمِلُ الجَدَل".

"أقصد من الناحية الاجتماعية. ثم ماتت روز...".

"وأخَذَت إيليزا الطَّفَلَةَ معها. هذا يبدو منطقيًّا". راقَبَت كساندرا
الضَّبَابَ يَمُوجُ بين العُشْبِ الطويل على جانبي الطريق. "لكن لماذا
لم تذهب في السفينة المتَّجِهَةَ إلى استراليا مع نيل؟ لماذا تسترِدُّ امرأةً
طِفْلَها ثم تُرسلُها وحدها في رحلة طويلة إلى أرض غريبة، بمفردها؟"
تنهَّدت كساندرا بصوت مسموع. "كلما اقتربنا من حَلِّ اللُّغز، ازداد
تشابُكًا وتعقيدًا".

"رُبَّمَا ذهبت معها. ربما حدث لها شيء في الطريق، مرَّضت. كانت
كلارا واثقةً من أمر ذهابها".

"لكن نيل تتذكَّر أن إيليزا وضعتها على متن السفينة وأخبرتها
أن تنتظر، وتركتها ولم تُعَد. كانت من بين الأشياء القليلة التي هي
مُتأكِّدة حيالها" قرضت كساندرا ظُفْرَ إبهامها. "يا له من أمرٍ مُحِيطٍ
للغاية. ظننْتُ أننا سنحصل على إجابات اليوم، وليس المزيد من
علامات الاستفهام".

"ثُمَّ شيءٌ واحدٌ مُؤكِّدٌ، (البيضة الذهبية) لم تُكُنْ بخصوص ماري،
بل كتَبَها إيليزا عن نفسها. كانت هي فتاة الكوخ".

"مسكينة إيليزا" قالت كساندرا، والعالم العابسُ ينجرف بالخارج.
"كانت حياة الفتاة بعدما تنازلت عن البيضة...".
"موحشة للغاية".

"أجل" ارتجفت كساندرا. إنها تفهم الخسارة التي تُجرّد المرء من
الغاية، وتركه باهتًا، خفيًا، خاويًا. "لا عجب أنها استرجعت نيل
حينما وائتها الفرصة". ما الذي لن تفعله كساندرا لو سنحت لها
فرصة ثانية؟

"وهذا ما يجعل الدائرة مُغلقة: لو كانت استعادت ابنتها، لماذا
لم تُسافر معها؟".

هزت كساندرا رأسها قائلة: "لا أعرف. هذا أمر غير منطقي".

مرًا على اللافتة التي تُرحب بزوّار تريجينا، وانعطف كريستيان إلى
الطريق الرئيسي. "هل تعرفين ما أفكر به؟".
"ماذا؟".

"علينا تناولُ غداءٍ متأخّرٍ في الحانة، والتحدّث باستفاضة حول
الموضوع. ونرى لو استطعنا التوصل إلى حلّ. أنا واثق أن الجعّة
ستساعدنا".

ابتسمت كساندرا. "أجل، إنني أعتبر الجعّة الشيء المناسب لتوقّد
الدّهْن. هل يمكنك التوقّف عند الفندق كي أجلب معطفي؟".

أخذ كريستيان الطريقَ الرئيسيَّ عبر الغابات، ثم انعطف نحو
مدخلِ فندق بلاكهرست. كان الضباب ما زال مُخيّمًا، وسكّنت الرطوبةُ
فجواتِ طريق القيادة، فمشى بحذر.

"لن أتأخّر" قالت كساندرا وهي تُغلقُ باب السيارة وراءها.
ركّضت على الدَرَجَات ودخلت البهوّ. قالت وهي تُلوّح لموظفة
الاستقبال: "مرحبًا يا سام".

"مرحبًا يا كاس. ثَمَّة شخص هنا جاء لرؤيتك".

توقَّفت كساندرا في منتصف الدَّرَج.

"روبن چيمسون تنتظرك في حجرة الجلوس منذ نصف ساعة أو أكثر".

نظرت كساندرا إلى الخارج. كان انتباه كريستيان مُنصَّبًا على تشغيل مذياع السيارة. لن يُمانِع الانتظار لدقائق إضافية.

لم تعرف ماذا ستقول روبن، لكنها لم تتخيَّل أن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا.

"مرحبًا" قالت روبن، حينما لاحظت اقتراب كساندرا. "طائرٌ صغير أخبرني أنك قَصِيَت الصَّبَاح تُثَرِّين مع قريبتى كلارا".

يبدو أن شبكة التَّميمة في القرية كانت بارِعَةً حقًا. "أجل".

"وأظنُّ أنكِ حَظِيَتِ بوقتٍ جميل".

"أجل، شكرًا لك. هل انتظرتني لفترة طويلة؟".

"كلًا على الإطلاق. لديَّ شيءٌ لك. كان يمكنني أن أتركه في مكتب الاستقبال، لكن ظننتُ أنه رُبَّمَا يحتاج إلى قليل من التوضيح".

رفعت كساندرا حاجبيها بينما استأنفت روي الكلام.

"زُرتُ أبي في نهاية الأسبوع، في منزل المُسنِّين. إنه يُحبُّ أن يعرف أحوال القرية، تعلمين أنه كان ذات يوم رئيسَ البريد، وذكُرتُ له أنكِ كنتِ هنا، تستعيدين الكوخ الذي تَرَكَته لكِ جدُّتك. وأبصرتُ نظره غريبةً علَّت وجهه. ربَّما كان عجوزًا، لكنَّه مُتوقِّدُ الدَّهن، مثل أبيه من قبله. أمسك بذراعي وأخبرني أن هناك خطابًا يجب أن يُعاد إليك".

"خطابٌ لي؟".

"بالأدقّ خطابٌ مُرسَلٌ إلى جدّتكِ، ولكنه لكِ الآن بعد وفاتها".

"ما نوع هذا الخطاب؟".

"حينما غادرتِ جدّتكِ تريجينا، ذهبت ل ترى أبي وأخبرته أنها ستعود وتقيم بكوخ الجرف، وأوصته بالاحتفاظ بأيّ بريدٍ لها. يقول إنها كانت صارمةً للغاية حيال هذا الموضوع؛ لذا حينما وصل خطابٌ فعَلَ ما طلبتَه واحتفظ به في مكتب البريد. وكان كُلاً بضعة شهور يأخذ الخطاب إلى التل، لكن الكوخ القديم كان مهجوراً دوماً. فما العُليق وسكّنه الثُرابُ وبدا المكان غيرَ مأهول. في النهاية كَفَّ عن الذهاب إلى هناك. كانت ركبته تُؤلمانه وظنّ أن جدّتكِ ستزوره حينما تعود. في العادة كان يردُّه إلى المُرسِل، لكن جدّتكِ كانت قاطعةً؛ لذا احتفظ به طوال هذه السنوات. أخبرني أن أذهب إلى القبو حيث نحتفظ بالأشياء، وأن أسحب صندوق الخطابات المفقودة، وبينها سأجد خطاباً مُوجَّهاً إلى نيل أندروز، فندق تريجينا، استُقبِل في نوفمبر 1975. وكان مُحِقاً. كان الخطاب ينتظر".

مدّت يدها في حقيبة اليد وسحبت مظروفاً رمادياً صغيراً وأعطته إلى كساندرا. كان الورق رخيصاً ورفيعاً للغاية حتى أنه يبدو شفافاً. كان مكتوباً بطريقة كتابة قديمة، فوضويّة نوعاً ما. كان مُوجَّهاً في البداية إلى فندق بلندن، ثم أُعيد توجيهه إلى فندق تريجينا. نَقَرَت كساندرا المظروف. وهناك بنفس الخطّ كُتِبَ: المُرسِل، الأنسة هاريت سويندل، 37 شارع كنيسة باترسي، لندن، رقم بريدي 11 جنوب غرب لندن.

تذكّرت كساندرا مُدخلاً في مُفكّرة نيل. كانت هاريت سويندل المرأة التي زارتها في لندن، المرأة العجوز التي وُلِدَت وقصّت حياتها في نفس البيت الذي نشأت فيه إيليزا. لماذا كتبت خطاباً لنيل؟

بأصابعٍ مُرْتَجِفَةٍ فتحت كساندرا المظروف، انفصلت الورقة الرقيقة بنعومة. بسطت الخطاب وشرعت تقرأه.

3 نوفمبر 1975

عزيزتي السيدة أندروز

لا أخفي عليكِ سرًّا أنه منذ زيارتك التي سألتني فيها عن السيِّدة التي تكتب القصص الخيالية، لم أفكر في أي شيء آخر. سوف تفهمين ما أقوله حينما تصلين إلى نفس عمري. الماضي يتحوّل إلى صديقٍ قديم، صديقٌ مُتَطَفِّلٌ يأبى الانصراف. إنني أتذكرها جيّدًا، لكنك باغتتني بزيارتك، حينما ظهرتِ على عتبة بابي كأنه لم يكن وقت تناوُل الشاي. ترددتُ أن أتحدّث عن الأيام الخوالي مع امرأةٍ غريبة. لكن ابنة أخي نانسي أخبرتني أنني يجب أن أفعل، وأن ما حدث قد حدث منذ أمدٍ بعيد، حتى أنه لا يهمُّ الآن؛ لذا قرّرتُ أن أكتب لكِ مثلما طلبتِ. لقد عادت إيليزا ماكبيس لزيارة أمي، وبرغم أنها كانت مرّةً واحدةً فقط، أتذكرها جيّدًا. كنت حينها في السادسة عشرة من عمري، وهكذا عرفت أن ذلك حدث في عام 1913.

أتذكر أن ثمة شيئًا غريبًا حولها منذ البداية. برغم أنها كانت ترتدي ملابسَ نظيفةً وتبدو سيِّدةً راقيةً، بها شيء لم يتناسب جيّدًا. بل كان هناك شيئًا حيالها يُناسِبُنَا نحن القاطنين في 35 شارع كنيسة باترسي، شيئًا يفصلُها عن السيِّدات الأنيقات الأخريات اللاتي كنُ أراهنُ في الشارع. جاءت عبر الباب إلى المحلِّ، بدت لي مُتحمّسةً قليلًا، كأنها في عجلةٍ من أمرها ولا ترغب في أن يراها أحد. مُرتابة. أومأت نحو أمي كأنهما على سابقِ معرفةٍ، وأمي بدورها ابتسمت لها ابتسامَةً لم أرها من قبل. قلتُ لنفسِي مهما كانت هويّة هذه السيدة لا بُدَّ وأن أمي ستكسب منها أموالًا.

حينما تحدّثت كان صوتها واضحًا وموسيقياً، وتلك كانت العلامة الأولى التي جعلتني أشعر أنني أعرفها من قبل. كان صوتًا مألوفًا بطريقةٍ ما. هذا صوتٌ يُحبُّ الأطفالُ الإصغاءَ له، صوت يتحدّث عن الجنّيات والأرواح، ويجعلك تؤمن بوجودها.

شكرت أمي على رؤيتها، وقالت إنها ستُغادرُ إنجلترا، ولن تعودَ قبل سنوات. أتذكّر مدى حرصها على الذهاب إلى الطابق العلوي لزيارة الغرفة التي اعتادت على العيش فيها، الغرفة المُرعِبة الصغيرة أعلى المنزل. كانت باردةً مُظلمةً بلا نوافذ، وبها مدفأة لا تعمل قط. لكنها قالت إنّه لأجل الأيام الخوالي.

لم يكن لدينا مُستأجرٌ للغرفة حينئذ، نزاعٌ بغيضٌ حول الإيجار مُستحقّ الدّفع، لذا تركتها تصعد إلى الأعلى، وأخبرتها أن تقضي الغرفة ما تشاء من الوقت، بل وضعت إبريق الشاي ليغلي. ولم يكن ذلك من طباعِ والدتي كما ستعرفين.

راقبت أمي السيّدة وهي تصعد الدرج، ثم أشارت لي بسرعة، وطلبت مني الصعود وراءها، والتأكد من عدم نزولها قريبًا. كنت أطيع أوامر أمي، مثلما أطيع عقوباتها لو رفضتُ، لذا امتثلتُ لما أمرتني به، وتبعْتُ السيّدة إلى الأعلى.

في الوقت الذي وصلت فيه إلى بسطةِ الدّرج، كانت قد جدّبت بابَ الغرفة وأغلقتَه وراءها. كان يمكن أن أجلس حيث أنا، وأتأكد من عدم نزولها بسرعة، لكن اعتراني الفضول، وتساءلتُ عن السبب الذي دفعها إلى غلقِ الباب وراءها. مثلما قلْتُ لم يكن هناك نوافذ في تلك الغرفة والباب كان المنفذ الوحيد لدخول الضوء.

كانت هناك فتحةٌ أسفل باب الغرفة قرّصتها الفئران؛ لذا استلقيتُ على بطني مُسطحةً بقدر ما أستطيع وراقبتها. كانت تقف في منتصف الغرفة وتتلقّت حولها لتستوعبها مرّةً واحدة، ثم ذهبَت إلى

المدفأة المَحَطَّمة القديمة. جلست على الإفريز ومَدَّت ذراعها بالداخل وجلست في هذا الوضع لفترةٍ بَدَتْ لي أنها دهر. أخيراً سَحَبَتْ ذراعها، ووجدتُ بيدها آنية فخَّارِيَّة صغيرة. لا بُدَّ وأن صوتًا بدر مني، إذ كنتُ مُنْدهِشَةً للغاية، رَفَعَتْ رأسها وعيناها مُتَسَعَتَان. كَتَمْتُ أنفاسي وبعد بُرْهَةٍ انشَغَلْتُ بالآنية، قَرَّبْتُها من أذنها وهَزَّتْها. وقرأتُ في وجهها أمارات السرور بما سَمِعْتَه. ثم وَضَعْتُها في جيبٍ خاصٍّ مُحَاكٍ بفسطانها بطريقةٍ ما، وَشَرَعْتُ تمشي باتجاه الباب.

هرعت إلى الأسفل حينها وأخبرتُ أمي أنها قادمة. ودُهَشْتُ لوقوف شقيقي الأصغر توم بجوار الباب، كان يتنَفَّس بصوتٍ عالٍ كأنه جرى مسافةً بعيدة، لكن لم يكن لديَّ وقت لأسأله أين كان. كانت أمي تُراقِبُ الدَّرَج، وكذا فَعَلْتُ. شَرَعَتْ السَيِّدَةُ تنزل الدَّرَج وهي تشكر أمي على الزيارة، واعتذرت عن عدم المكوث لتناولِ الشاي، فالوقت كان يمضي.

ثم وصلتُ إلى الأسفل، ورأيت رَجُلًا يقبع في الظلِّ بجانب الدَّرَج. كان يرتدي نظارةً مُضْحِكَةً صغيرة، مُجَرَّدَ قطعةٍ بلا ذراعين تُحَطُّ على قسبة أنفه. كان يمسك بقطعة أسفنجية في يده، دفعها تحت أنفها حينما وصلت إلى الدرجة السفلية، وتهاوت. على الفور تكوَّمت بين ذراعيه. لا بُدَّ وأنني صرخت حينها لأنني تلقَّيتُ صفعَةً من أمي.

تجاهلني الرجل وجَرَّ السيدة نحو الباب. وبمساعدة أبي رفعها إلى العربة، ثم أوماً لأمي، وناولها مظروفًا من جيبه ومضى بعيدًا.

فيما بَعُدُ حينما أخبرتُ أمي بما شاهدته لطمَنتني على أذني، وصاحت لماذا لم تخبريني أيتها الفتاة الحمقاء، ربما كان شيئًا نفيسًا، وكُنَّا حصلنا عليه ليساعدنا في مشاكلنا. لم يَكُنْ يُجدي مع أمي أن أذكرها أن الرجل صاحب العربة التي تجرُّها الجيادُ السوداء قد دفع

لها بالفعل مبلغًا مُعْتَبَرًا من أجل السيدة. نَهَمُ أُمِّي للمال لم يَهْمَدُ قَطُّ.

لم أَرِ السَّيِّدَةَ مُجَدِّدًا، ولا أعرف ما حدث لها بعدما رحَلت. منعطف النهر يشهد أُمُورًا لا تُعَدُّ ولا تُحصى من الصَّعب تَذَكُّرُهَا.

لا أعلم إن كان هذا الخطاب سِيُسَاعِدُكَ في بحثك أم لا، لكن نانسي تقول إنَّه من الأفضل التَّحَدُّثُ إِلَيْكَ كَأَنَّكَ غير موجودة. وهذا ما فَعَلْتُهُ. أتمنَّى أن تَجِدِي ما تَبْحَثِينَ عنه.

بإخلاص...

الآنسة هاريت سويندل.

(47)

بريزبن، 1976

كانت المزهرية البراقة التي رُسِمَت عليها جَنِيَّاتٌ وكائِنَاتٌ سحريةٌ المفضَّلةَ دومًا لدى نيل. وَجَدَتَهَا في معرضٍ للتُّحفِ القديمةِ والمُسْتَعْمَلَةِ منذ عقود. أي تاجر تُحَفٍ مُخَضَّرٍ سيعرف قيمتها على الفور، لكن هذه المزهرية كانت مُخْتَلِفَةً. لم تكن بسبب قيمتها المادِّيَّةِ فحسب، برغم أنه سبب كافٍ، بل أيضًا بسبب ما تُمَثِّلُهُ. كانت أوَّلُ عُنصرٍ ثمينٍ تَعَثَّرُ عليه نيل للمرة الأولى في مكانٍ يَصْعَبُ فيه العثور على أشياء قيِّمة. وكعامل المنجم الذي يحتفظ بأول قطعة ذهبية مهما كانت قيمتها، لم تستطع نيل الافتراق عن المزهرية.

لَفَّتَهَا في منشَفَةٍ، وحفظتها بأمانٍ في الرُّكنِ المُظْلِمِ أعلى خِزانَةِ الملابسِ الكِتَائِنِيَّةِ. كانت أحيانًا تَسْحَبُهَا وتُرِيْلُ المنشَفَةَ، لتُلْقِي نظرةً خاطِفةً عليها فحسب. كانت مزهريةً جميلة، وقد رُسِمَت على جوانبها أوراق خضراء غامِقة، وأحاطت بها خطوطٌ ذهبيَّةٌ، وبين

الزخارف اختبأت الجِئِيَّاتُ، اللاتي رُسِمْنَ بأسلوب الفنِّ الحديث. كانت المزهرية ورسوماتها تُشعرها بالهدوء.

وبرغم ذلك اعتزمت نيل على الافتراق عن مزهريتها بعدما وصلت إلى نقطةٍ يُمكنها العيشُ من دونها. يمكنها العيشُ من دون جميع أشيائها الثمينة. اتخذت قرارها وقضت الأمر. لفت المزهرية بطبقة أخرى من ورقة جديدة، ثم وصّعتها برفقٍ في صندوقٍ بجانب أشياء أخرى، جاهزة للإرسال إلى المتجر يوم الاثنين لكي تُباع. ولو شعرت بتأنيب الضمير أو الندم، عليها أن تتذكّر الغرض؛ وهو أن تتوافر معها أموالٌ كافيةٌ لتبدأ من جديد في تريجينا.

كانت تتحرّق شوقاً للعودة إلى هناك. إن اللغز يصير أكثر تعقيداً. أخيراً وصلتها أخبارٌ من المحقّق نيد موريش، والذي أجرى تحقيقاته وأرسل لها تقريراً. كانت نيل بالمثل حينما وصل زبون جديد، يدعى بين، جلب معه الخطاب. تسارعت دقات قلبها حينما رأت الطوابع الأجنبية والخَطَّ الأنيق المستقيم بالأسفل، كأنه كتب بطول حافة مسطرة. تمالكت نفسها من تمزيقه بأسنانها. واستعادت رباطة جأشها، واعتذرت بأدب في الوقت المناسب، ثم أخذت الخطاب إلى المطبخ الصغير الخلفي.

كان التقرير مُختصراً، لم تستغرق قراءته سوى بضع دقائق، لكن محتوياته تركتها في حيرة أكبر. طبّقاً لاستطلاعات السيد موريش، لم ترحل إيليزا ماكبيس إلى أي مكان في عامي 1909 أو 1910. بل كانت في الكوخ طيلة تلك الفترة. وأدرج عدّة وثائق لدعم مزاعمه: مقابلة مع شخص ادّعى أنه كان يعمل في بلاكهرست، ورسائل مُختلفة مُتبادلة بينها وبين أحد الناشرين في لندن، تم إرسالها واستقبالها عبر كوخ الجرف، لم تقرأها نيل إلا فيما بعد. فوجئت من عدم رحيل إيليزا إلى أي مكان. كانت هناك طيلة هذه الفترة في الكوخ. لكن ويليام

كان واثقًا. لقد قال إنه لم يَرها أحدٌ، اثني عشر شهرًا تقريبًا. وحينما عادت كانت مُخْتَلِفَةً، انطفأت فيها الشرارة. لم تستطع نيل التوفيق بين ذكريات ويليام وبين اكتشاف السيد موريش. بمجرد عودتها إلى كورنوال ستتحَدَّث مع ويليام مُجَدِّدًا. وترى إن كان لديه تفسيرٌ.

مَسَحَت نيل ظهر يَدِها بجبينها. يا له من يومٍ كريه، لكن هكذا كانت بريزبن في يناير. ربما كانت السماء زرقاء لأمعة كقُبَّة زُجاجِيَّة مَلْسَاء، لكن لا رَيْبَ أَنَّ هناك عاصِفة ستأتي لاجئًا الليلة. تعرف نيل في هذا العمر ماذا يحدث حينما تتكاثف السُحُب الغاضِبَة في الجوانح.

تناهى إلى سَمْعِها من الشارع سيارة تُهدِّئ من سُرْعَتِها. لم تكن سيارَةً من سيَّارات الجيران؛ فقد كان صوتها أعلى من صوت السيارة الميني التي يمتلكها هوارد، وأكثر صَخَبًا من السيارة الفورد الكبيرة التي يمتلكها آل هوجان. سَمِعَت جلبة مُفْرِعَةً والسيارة تصعد حافة الرصيف بعنف. هزَّت نيل رأسها، مسرورةٌ لأنها لم تتعلَّم يومًا القيادة، لم تَحْتَج قَطُ إلى سيارة. يبدو أنها تُخرِجُ أسوأ ما في البشر.

انتصَبَت القِطَّة ويسكرز وقوَّست ظهرها. سوف تفتقد نيل القِطَط. مَمَّنَّت لو تأخذهم معها، لكن إطعام قِطَط الآخرين كان شيئًا، وخطْفُهم كان شيئًا آخر.

"مرحبًا أيُّها الفضولية" قالت نيل وهي تُدغِدغُ أسفل ذقن القِطَّة. "لا تفزعي من تلك السيارة القديمة الصَّاخِبَة".

ماتت القِطَّة وقفزت من الطاولة وهي تنظر إلى نيل.

"ماذا؟ هل تظنِّين أن أحدهم جاء يزورنا؟ تُرى مَنْ يكون يا عزيزتي. لسنا سنترالًا عامًّا".

انسَلَّت القِطَّة بخفَّةٍ على الأرض، وخرجت من الباب الخلفي. وضَعَت نيل كومة الصُّف وهي تقول: "حسنًا يا سيدتي، أنتِ

تفوزين. سألقي نظرة"، ثم فرّكت ظهر القِطّة بينما تعبران الممرّ الأسمنتيّ الضيّق. "تعتقدين أنكِ ذكيّة، تُلمين عليّ ما يجب أن أفعله..."

توقّفت نيل عند الزاوية الخلفية من المنزل. هناك سيارة سَفَرٍ متوقّفة بالفعل خارج منزلها. ولاح من الطريق الأسمنتي امرأة تتردي نظّارات برونزيّة كبيرة وسروالاً قصيراً. تتلّكأ خلفها طفلةٌ نحيفةٌ بكتفين متهدّلتين.

وقفوا جميعاً هناك، يتأمّلون بعضهم حيناً.

أخيراً عَثَرَت نيل على صوتها، وإن لم تكن الكلمات التي رَغِبَت في النُطق بها: "ظَنَنْتُ أَنَّكِ وافَقْتِ على الاتّصال أوّلاً في المستقبل".

"تسرّني رؤيتك أيضاً يا أمّي" قالت ليزلي، ثم أدارت عينها بالطريقة التي كانت تفعلها حينما كانت في الخامسة عشرة من عمرها. كانت عادةً مُغيظةً حينها، مثلما هي الآن.

شعرت نيل بالشكاوى القديمة تُعاوِدُ الظهور مُجدّداً. تعرف أنها كانت أمّاً سيّئة، ولكن فات أوانُ إصلاح الأمور، وفازت ليزلي. قالت وهي تَبَلَعُ ريقها: "أنا مشغولة بتصنيف صناديق المزاد". لم يكن وقتاً مناسباً لِذِكْرِ انتقالها إلى إنجلترا. "الأشياء في كل مكان، ولا توجد غرفة للجلوس فيها".

"سنتدبّر أمورنا" فرقّعت ليزلي أصبَعَيْهَا وهي تشير باتجاه الفتاة قائلةً: "حفيدتك عطشى، الجوُّ حارٌّ جدّاً هنا".

نظّرت نيل إلى الفتاة، حفيدتها. أوصال طويلة، وركبتان بارزتان، ورأس محنيّ لتفادي الملاحظة. ليس هناك شكٌّ في الموضوع، بعض الأطفال أرسلوا إلى العالم بنصيب أكبر من المعاناة.

وقَفَزَتْ فجأةً إلى ذهنها صورة كريستيان، الصبي الصغير الذي اكتشفتَه في حديقتهَا بكورنوال. الصبي ذو العَيْنَيْنِ البُنِّيَّتَيْنِ الصَّادِقَتَيْنِ الذي فَقَدَ أُمَّه، والذي سألها هل تُحِبُّ حفيدَتُكَ الحقائق؟ ولم تعرف كيف تجيب.

قالت: "حسنًا. من الأفضل أن تَدْخُلَا".

(48)

عزبة بلاكهرست، 1913

دَوَّت حوافِرُ الخيل كالرَّعد على الأرض الجافَّة الباردة، متوجَّهَةً غربًا نحو بلاكهرست، لكن إيليزا لم تسمعها؛ فقد غرقت في غشاوة البِنج الذي حَدَّرها به السيد مانسيل، وتكوَّم جَسَدُها في زاوِيَةٍ مُعْتَمَةٍ من العربة...

صوت روز الناعم والمُحطَّم يقول: "أحتاج شيئًا منك، شيء لا يمكن لأحد القيام به سواك. إنَّ جسدي يَخْدُنني كعادته، لكنَّ جَسَدَك قَوِيٌّ يا ابنة العَمَّة. أريدك أن تُنجِبي طفلًا من أجلي، طفل ناثانيال."

بدون تفكير قالت إيليزا، التي انتظرت طويلًا وبشدة احتياج روز إليها، والتي تعرف أنها دائمًا نصفًا يبحث عمَّن يكمله: "بالطبع سأساعدك يا روز".

ظُلَّ ناثانيل يتردّد عليها كلَّ ليلة لمُدَّة أسبوع. قامت أداين، بعد تشاورٍ مع د. ماثيوس، بحساب المواعيد، وفعل ناثانيل المطلوب منه. شقَّ طريقه إلى المتاهة، وانعطفَ ناحية الكوخ، ووصل إلى الباب الرئيسي.

في الليلة الأولى، انتظرت إيليزا بالداخل، وأخذت تذرّع المطبخ ذهابًا وإيابًا، وهي تتساءل هل سيأتي؟ هل يجب أن تُعدَّ شيئًا؟ كيف يتصرف الناس في هذه المواقف؟ لقد لبَّت مطلب روز دون تردّد، وفي الأسابيع التالية لم تُساورها أفكارٌ كثيرة حيال النتائج. غمَّرها الامتنانُ لأنَّ روز احتاجتها أخيرًا. ولكن حينما اقترب اليوم الموعود أدركت أن الفكرة صارت واقعا. وبرغم ذلك كانت مُستعدةً لفعل أيَّ شيء من أجل روز. أفتعت نفسها مرارًا أن ما ستفعله سيُعزِّد الرابطة بينهما للأبد، مهما كانت شناعة هذا الفعل المجهول. لقد صار كأنه تعويذة. ستتوطد العلاقة بينها وبين روز بطريقةٍ لم تحدث من قبل، وستحُبُّها روز أكثر من قبل، ولن تفترق عنها بسهولة مرة أخرى. كان الأمر كله من أجلها.

حينما سمعت الطرقة في الليلة الأولى، كررت إيليزا التعويذة، فتحت الباب ودعت ناثانيل إلى الدخول. ظلَّ واقفًا لبرهة عند المدخل، وبدا أكبر مما تتذكَّره، وأكثر غموضًا، إلى أن أشارت إيليزا إلى المشجب. خلَّع معطفه الخارجي، ثم ابتسم لها بامتنانٍ، ولاحظت حينها أنه كان قلقًا مثلها. ثم تبعها إلى المطبخ، مُنجذبًا نحو أمان الطاولة وصلابتها، وجلس مُسندًا ظهره إلى المقعد.

وقفت إيليزا على الناحية الأخرى، ومسحت يديها النظيفتين على جونلتها، ولم تعرف ماذا ستقول وكيف تبدأ. بالطبع حريٌّ بهما فعلُ المطلوب والانتهاء منه؛ فلا جدوى من هذا القلق والتباطؤ. فتحت فمها لتقول هذا، لكن ناثانيل كان يتكلَّم بالفعل...

"...ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَوَدِّينِ رُؤْيَيْتَهُمْ. عَكَفْتُ أَعْمَلُ عَلَيْهِمْ طِيلَةَ الشَّهْرِ".

حينها لاحظت أنه يحمل حقيبةً جَدِيدَةً. وضعها على الطاولة وسحب من داخلها كومةً من الأوراق. أدركت إيليزا أنها رسومات. دَفَعَ بورقةً أمامها وهو يقول: "بدأتُ بقِصَّةِ (مطاردة الجِنِّيَّة)".
وحيثما أخذتها منه، أبصرت يديه ترتجفان.

التفتت إلى الرسومات التوضيحية؛ ضربات قائمة بالقلم، وظلال متقاطعة. امرأة نحيلة شاحبة استلقت على فراشٍ واطئٍ في برُجٍ صغير مُظْلِمٍ بارد، وقد غُزِلَ وجهُ المرأة من خطوطٍ طويلةٍ مائلَّة. كانت جميلةً، وساحرة، ومراوغةً، مثلما وصفتها قِصَّةُ إيليزا. ومع ذلك، ثمة شيءٌ آخر في وجه الجِنِّيَّةِ أثار دهشتها. إن المرأة في الصورة تُشبهُ أمَّها. ليس بشكلٍ حُرْفِيٍّ، بل هو شيءٌ في زاوية شفيتها، في عينيها المسحوبتين الهادئتين، في عَظْمَتَيْ وجنتيها البارزتين. لقد تمكَّن ناثانيال، بطريقةٍ سحريةٍ لا يمكن وصفها، من رسم جورجيانا في تصويره لأوصالها الجامدة، وضجرتها، والاستكانة غير المعهودة في قسَماتها. والأغرب من هذا كلُّه، أن إيليزا أدركت لأول مرة أنها كانت تصفُ أمَّها في قصة (مطاردة الجِنِّيَّة).

حدقت في عينيه السوداوين والتي أطلت بطريقةٍ ما على روحها. فجأةً صار ضوء النار أكثر دَفْنًا بينهما.

صَعَدَ الوَضْعُ من حِدَّةِ كُلِّ شيء. كانت أصواتُهما عاليَّةً، وحركاتُهما سريعة، والهواء أكثر إنعاشًا. لم يَكُنِ الفعلُ بَشِعًا كما خَشِيت، لكنه لم يكن عاديًا. ثمة شيءٌ غير مُتَوَقَّع في الأداء استمتعت به. دُنُوٌّ وحميميةٌ حُرِمَتَ منهما طويلًا. شعرت أنها جزءٌ من كُلِّ.

كلًا، لم تشعر بهذا بالطبع. إن الفكرة ذاتها، مهما كانت وجيزةً،
تعدُّ خيانةً لروز. ولكن... أنامله على ظهرها، وخصرها، وفخذها،
والدفع حيث التقى جسديهما، وأنفاسه على عنقها...

فتحت عينيها وراقبت وجهه، والتعبيرات والقصص التي تشكّلت
على ملامحه. وحينما فتح عينيه، تلاقت عيونهما. فجأةً وبشكل غير
متوقَّع، شعرت أنها كيانٌ ماديٌّ. كيانٌ مُرتكزٌ وصلبٌ وحقيقي.

وبعد ذلك انتهى كلُّ شيءٍ وابتعدا، وتبخَّرت رابطة العلاقة
الجسدية. ارتديا ملابسهما وقادته إلى الطابق السفلي. وقفت بجانبه
عند الباب الرئيسي تتحدَّث عن ارتفاع المدِّ الأخير، والطقس السيئ
المُرتقَّب خلال الأسابيع المقبلة. كانت ثرثرةً لطيفةً، كأنه عابِرُ سبيلٍ
توقَّف عند كوخها لاستعارة كتاب.

في النهاية مدَّ يده ورفع المزلاج وامتدَّ بينهما صمتٌ ثقيلٌ، وطأه
ما فعَّلاه. سحب الباب ليفتحه، ودفعه ليُغلق ثانية. التفت إليها
يواجهها وهو يقول: "شكرًا لك".

أومات.

"إن روز تريد... حاجتها..."

أومات مُجددًا، وعلت شفيتها ابتسامةً خفيفة. فتح الباب واختفى
في عتمة الليل.

مرَّت الأيام وصارت أسبوعًا، وصار غيرُ العادي عاديًا ورتيبًا. كان
يأتي ومعه أحدث رسوماته؛ فيناقشان سويًا القصص والرسومات
التوضيحية. وكان يحضر أقلامه أيضًا، ويعدل ويغيِّر وهما يتحدَّثان.
وحينما تكتمل الرسومات، كثيرًا ما تتطرَّق مُحادثتهما موضوعاتٍ
أخرى.

كانا يتحدّثان كذلك وهما راقدان في الفراش الصَّيق. ذكر ناثانيال أشياء عن عائلته، والتي اعتقدت إيليزا أنهم ماتوا، والمصاعب التي واجهها في صباه، وعمل والده على رصيف الميناء، ويَدَيُّ أُمِّه المُتَشَقِّقَتَيْنِ من الغسيل. وباحت إيليزا بأشياء لم تَحَدِّثَ عنها من قبل، أشياء سَرِيَّة من الماضي؛ عن أُمِّها وأبيها الذي لم تعرفه، وحُلْمِها بأن تتبعه عَبْرَ البحار العالية. كان الحوار مُفَعِّمًا بحميميَّةٍ غريبة وغير مُتَوَقَّعة، حتى أنها حَكَّت له عن سامي.

وهكذا انسلخ الأسبوع، وفي الليلة الأخيرة وصل ناثانيال مُبَكَّرًا. وتردَّد إزاء ما يجب أن يفعلاه. جَلَسَا مُتَقَابِلَيْنِ على الطاولة مثلما فعلاً في أول ليلة، ولكن هذه المرة دون كلمات. ثم فجأة، دون تحذير، مدَّ ناثانيال يده وأمسك بِخُصَلَةٍ من شعرها الطويل الأحمر الذي تحوَّل إلى لون ذهبي في ضوء الشموع. كان يُحَدِّقُ في الخصلات بين أصابعه بتركيز. وقع شَعْرُهُ الأسود ووجنتاه في الظلِّ، واتَّسَعَتَ عيناه السوداءوان بأفكار غير منطوقة. شعرت إيليزا بدفء مفاجئٍ في صدرها.

أخيراً قال برقّة: "لا أريد لهذا الأمر أن ينتهي. أعلم أن هذا سخيِّفٌ، ولكنني أشعر...".

توقَّف حينما وضعت إيليزا أصبعها على شَفَتَيْهِ، تُسَكِّتُهُ.

كان قلبها يَدُقُّ كالطبل، وممَّنَّتْ أَلَا يقول شيئاً. لا يجب أن تسمح له بإنهاء جملته، برغم أن جزءاً خائناً منها أراد سماعها؛ فَلِلْكَلماتِ سَطوَةٌ، وإيليزا تعرف هذا جيِّدًا. لقد تَمَادَيَا بالفعل في مشاعرهما، وليس هناك مكانٌ للشعور في اتفاقهما.

هزَّتْ رأسها هزَّةً خفيفةً وأخيراً أوماً. لم ينظر إليها لفترة، ولم يَنْبَسْ بكلمة. وبينما جلس يرسم في صمت، قمَعَتِ إيليزا رغبتها لإخباره أنها غَيَّرَتْ رأيها.

حينما غادر في تلك الليلة وذهبت إيليزا إلى الداخل، بدت جدران الكوخ صامتة وميتة بشكل غير مألوف. وجدت بطاقة على المنضدة حيث كان ناثانيل جالسًا، وقلبتّها ورأت وجهها مرسومًا. ولمرة واحدة لم تمنع أن يرسم على الورق.

علّمت إيليزا أنّها حُبلى قبل انتهاء الشهر الأول. شعور عسير على التفسير بأن لديها صُحبة، حتى وهي تعلم أنها بمفردها. وتيقّنت من هذا الشعور حينما توقّف النزيف الشهري. أُعيدت ماري، التي فقدت جنينها، مُجددًا إلى بلاكهرست بشروط، وكانت همزة الوصل بين المنزل والكوخ. حينما أخبرتها إيليزا بأن رُوحًا صغيرة تلتصق بجسدها في الداخل، تنهّدت ماري وهزّت رأسها، ثم نقلت النبأ إلى زوجة الخال أدالين.

أمّرت أدالين ببناء سورٍ حول الكوخ حتى لا يعرف أحدٌ شيئًا. وانتشرت شائعة تقول أنها سافرت وأوصد الكوخ. إن أقوى الأكاذيب أوضّحها، وقد تمّت تلك الأكذوبة بشكل مثاليّ. فرغبة إيليزا في السفر كانت معروفةً في الأنحاء. ولم يتعجّب الناس أنها رحلت دون أن تترك خبرًا، وستعود في الوقت المناسب. كانت ماري تذهب إلى الكوخ ليلاً ومعها المُستلزمات الضرورية، وكان د. ماثيوس يحضر كلّ أسبوعين، تحت جُنح الليل، ليطمئنّ على صحة الحمل.

خلال شهور الاحتجاز، لم ترَ إيليزا الكثير من الناس، لكنها لم تشعر بالوحدة قطّ. كانت تُغني لبطنها المنتفخة، وتهمس لها بالقصص، وتحلم أحلامًا غريبة نابضةً بالحياة. بدا أن الكوخ يتقلّص حولها كمعطفٍ باردٍ ودافئ. وأضحّت الحديقة -المكان الذي كان قلبها يشدو فيه دومًا- أكثرَ جمالًا، والزهر أكثرَ تَضوُّعًا، وأجمل تألُّقًا، وأسرع مُوًا. وفي يوم ما، بينما كانت جالسةً أسفل شجرة التفاح، والهواء المُشمس

الدفئ يتحرك بثقلٍ حولها، غاصت في نومٍ عميق، وراودتها قصة، واضحة كأن عابراً غريباً جثاً بجوار أذنها وهمس بها. حكاية عن فتاة تتغلب على مخاوفها وتجتاز مسافةً شاسعةً من أجل الكشف عن الحقيقة لعجوز عزيزة عليها.

استيقظت إيليزا فجأة، يملؤها اليقين أن هذا الحلم كان مهمًا، وأنها يجب أن تحوِّله إلى حكاية خيالية. وعلى النقيض من معظم إلهام الأحلام، كانت هذه القصة تتطلب بعض المعالجة. شعرت أن الجنين داخلها أساسيٌّ في القصة أيضًا. لم تعرف كيف علّمت، لكن سَكَنَ قلبها يقينٌ غريبٌ أنَّ هذا الطفل كان مُرتبِّطًا بالقصة بطريقةٍ ما، وساعدها على استقبال القصة بوضوح واكتمال شديدين.

دَوَّنت إيليزا القصة في ظهيرة ذلك اليوم، وأطلقت عليها (عينا العجوز). وفي الأسابيع التالية وَجَدَت نفسها تتساءل عن المرأة العجوز الحزينة التي سُرقت منها حقيقتها. وبرغم أنها لم ترَ ناثانيل منذ ليلة لقاءهما الأخيرة، علّمت إيليزا أنه ما زال يعمل على الرسومات التوضيحية لكتابها، وتاقت لرؤية رسوماته لقصتها الجديدة. وفي إحدى الليالي المُعتمّة، حينما جَلَبَت ماري مُستلزماتِها، سألت عنه إيليزا، وطلّبت من ماري بنبرةٍ عاديةٍ أن تُخبره أن بإمكانه زيارتها في وقتٍ ما قريبًا. هَزَّت ماري رأسها، ثم قالت وهي تخفض من صوتها، برغم أنهما كانتا بمفردتيهما في الكوخ: "لن تَسْمَحَ بذلك السيدة وواكر. أسمعها تبكي وتشكو للسيدة حول هذا الأمر، وكانت السيدة تقول إنه ليس مُناسبًا له الذهاب إلى المتاهة، وزيارتك. ليس بعد الآن، ليس بعدما حدث" ثم نظرت إلى بطن إيليزا المنتفخ وهي تقول: "تقول إن الأمور ربما تُصبحُ مُختلطةً".

قالت إيليزا: "لكن هذا سُخْفٌ. ما تَمَّ كان من أجل روز. أنا وناثانيل نُحبُّها، وفعلنا ما طلبته مِنَّا، ما تاقت إليه أكثر من أيِّ شيءٍ آخر".

صمتت ماري، التي أوضّحت رأيها حول ما فعلته إيليزا، وما اعتزّمت فعله بعد ميلاد الطفل. تنهّدت إيليزا مُحَبّطَةً وقالت: "أرغب في التحدّث معه حول الرُسومات التوضيحية للقصص الخيالية". قالت ماري: "وهذا شيءٌ آخر السيدة وواكر ليست مسرورةً به. إنها لا تُحِبُّ أن يرسمَ قصصك".

"ولماذا ترفض؟".

"إنها تشعُرُ بالغيرة. لا تحتمل التفكير أنه يقضي وقته وطاقته يفكّر في قصصك".

كفّت إيليزا عن انتظار ناثانيال بعد ذلك، أرسلت نُسختها المكتوبة بخطّ يدها من قصة (عينا العجوز) إلى بلاكهرست مع ماري، التي وافقت على تسليمها برغم رأيها. لاحقًا بعد عدّة أيام، وصلتها هديّة؛ مَثالٌ لحديققتها، صبيٌّ صغير ذو وجهٍ ملائكي. علّمت إيليزا، حتى قبل قراءة الرسالة المُرفّقة، أن ناثانيال أرسله وفي ذهنه سامي. في الرسالة اعتذر أيضًا عن عدم زيارته، وتساءل عن صحّتها، ثم انتقل بسرعة إلى إعجابه الشديد بالقصة الجديدة، وكيف أنها سحرت لُبّه، حتى أن أفكاره للرسومات التوضيحية غطّت على أي شيء آخر.

أمّا روز فكانت تزورها مرّةً في الشهر، لكن إيليزا بدأت تأخذ حذرًا من هذه الزيارات. في البداية كانت الأمور تسير على ما يُرام، تبتسم روز ابتسامهً عريضةً حينما ترى إيليزا، وتتساءل عن صحّتها، وتنتهز الفرصة لتتخسّس الطّفل في بطنها. لكن فجأةً، تنقلّب بشكلٍ لا يمكن تفسيره، تشبّك يديها، وترفض لمس بطن إيليزا، بل وتأبى النّظر في عينيها. بدلًا من ذلك تفركُ أصابعها على بطنها كأنها حُبلى.

بعد ستّة شهور، كفّت روز عن زيارتها. في اليوم المُحدّد انتظرت إيليزا بلا جدوى، وهي تتساءل بارتباكٍ إن كانت قد أخطأت في التاريخ. لكن ها هو موجود في مُفكّرتها. في البداية ظنّت أنها مريضة.

بالتأكيد لا شيء أقل من هذا يمنعها عن الزيارة. وحينما جاءت ماري ومعها سَلَّة المُوْن، انهالت إيليزا عليها بالأسئلة. وضعت ماري السَلَّة وحَطَّت إبريق الشاي على الموقد. ولم تُجِبها لفترة.

قالت إيليزا وهي تُقَوِّس ظهرها لِتُحَرِّكَ الطِّفْل الذي كان يضغط على جانبِها. "ماري. يجب أن تُخبريني. لو كانت روز مريضةً...".

التفتت ماري من الموقد وهي تقول: "إنها ليست مريضةً يا أنسة إيليزا. أصبحت السيدة وواكر تشعر بالانزعاج من هذه الزيارات".
"تشعر بالانزعاج؟".

استمرَّت تقول دون النظر في عيني إيليزا: "إنها تجعلها تشعر بالفشل، أكثر من ذي قبل. إنها مَمرَّةٌ عقيمة، أمَّا أنتِ فتبدين كثمرَّة ناضِجة. كانت تتوعَّك لعدَّة أيَّام بعد كُلِّ زيارة. لم تكن ترى السيد وواكر، وتنفجر غَضَبًا في السيدة، ولا تأكل طعامها".

"إنني أنتظر بفارغ الصبر وصول الطفل. حينما أنجب، وحينما تصير روز أمًّا، ستنسى هذه المشاعر".

هزَّت ماري رأسها وإيليزا تدافع عن قرارها. "هذا ليس صائبًا يا أنسة إيليزا. لا يجب على الأمِّ التَّخَلِّي عن طفلها".

"إنه ليس طفلي يا ماري. إنه طفل روز".

"ربما تشعرين بالاختلاف حينما يحين الوقت".

"لن يحدُث ذلك".

"أنتِ لا تعرفين...".

"لن أشعر بالاختلاف، لأنني لا أستطيع. لقد وعدتُها. ولو غَيَّرْتُ رأيي، لن تتحمَّل روز".

رفَعَت ماري حاجِبَيْها.

قالت إيليزا بحزم أكبر: "سأعطيها الطفل، وستكون في غاية السرور. وسنسعد سوياً كما كُنَّا من قبل. ألا تفهمين يا ماري؟ هذا الطفل الذي أَحْمَلُهُ في أحشائي سيعيد عزيزتي روز لي".

ابتسمت ماري بحزن وهي تقول: "رَبِّمَا أَنْتِ عَلَى صَوَابٍ يَا آنَسَةَ إِيلِيزَا!". لكنها بَدَتْ أَنهَا لَا تُصَدِّقُ حَرْفًا مِمَّا تَقُولُ.

بعد شهور بَدَتْ كدهر، جاءت النهاية. قبل أسبوعين من المُوَعِدِ المَتَوَقَّعِ، دَاهَمَتِ إِيلِيزَا آلامٌ عَارِمَةٌ، وصار الجَسَدُ آلَةً يَفْعَلُ مَا خُلِقَ لِأَجْلِهِ. حرصت ماري، والتي تَعَرَّفَتْ عَلَى عِلْمَاتِ الوَضْعِ الوَشِيكِ، عَلَى الوجودِ هُنَاكَ لِلْمُسَاعَدَةِ؛ فَقَدْ كَانَتْ أُمُّهَا تَسَاعِدُ مِنْ قَبْلِ فِي الكَثِيرِ مِنْ عَمَلِيَّاتِ الوِلَادَةِ طِيلَةَ حَيَاتِهَا، وَمَارِي تَعَلَّمَتْ مِنْهَا.

كَانَتْ عَمَلِيَّةُ الوَضْعِ سَهْلَةً وَكَانَ المَوْلُودُ أَجْمَلَ طِفْلَةٍ رَأَتْهَا إِيلِيزَا فِي حَيَاتِهَا، بِأُذُنَيْهَا الدَّقِيقَتَيْنِ المَضْغُوطَتَيْنِ عَلَى رَأْسِهَا، وَأَصَابِعِهَا الشَّاحِبَةِ الصَّغِيرَةِ وَالَّتِي كَانَتْ تَجْفَلُ بِانْتِظَامٍ إِثْرَ مُرُورِ الهَوَاءِ بَيْنَهُمْ.

بِرِغْمِ أَنْ مَارِي أَمِرَتْ بِإِبْلَاحِ بِلَاكِهْرِسْتِ عَلَى الفُورِ بِأَيِّ عِلْمَةٍ عَلَى الوِلَادَةِ الوَشِيكِ، لَمْ تَنْبَسْ بِكَلِمَةٍ فِي الأَيَّامِ التَّالِيَةِ. لَمْ تَتَحَدَّثْ إِلَّا مَعَ إِيلِيزَا، وَهِيَ تَحُثُّهَا عَلَى التَّفْكِيرِ مُجَدِّدًا فِي الصَّفَقَةِ البَغِيضَةِ؛ فَهَذَا الأَمْرُ لَمْ يَكُنْ صَوَابًا. ظَلَّتْ تَهْمَسُ فِي أُذُنَيْهَا مَرَارًا أَنْ تَخْلِي الأُمَّ عَنِ طِفْلِهَا لَيْسَ أَمْرًا صَائِبًا.

وَمُدَّةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَليَالٍ، تُرِكَتْ إِيلِيزَا بِمُفْرَدِهَا مَعَ طِفْلِهَا. كَمْ كَانَ غَرِيبًا لِقَاءَ شَخْصٍ صَغِيرٍ عَاشَ وَمَا دَاخَلَ جَسَدَهَا. مُلَاطَقَةُ اليَدَيْنِ وَالقَدَمَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ الَّتِي كَانَتْ تَتَمَسَّكُ فِيهَا وَهِيَ تَتَدَفَعُ مِنَ الدَّاخِلِ. مِرَاقِبَةُ الشُّفَاهِ الصَّغِيرَةِ المَضْمُومَةِ كَأَنَّهَا عَلَى وَشِكِ التَّحَدُّثِ. تَعْبِيرُ

الحكمة المطلق الذي ارتسم على وجهها، كأنَّ الطفل في تلك الأيام الأولى من الحياة يمتلك حِكْمَةً عُمُرٍ مَرَّ تَوًّا.

ثم في منتصف الليلة الثالثة، وصلت ماري إلى الكوخ، ووقفت عند المدخل ونقلت إليها الخبر المُخِيف. سيزورها د. ماثيوس في اليوم التالي. أخَفَّضَتْ ماري صوتها وَقَبَّضَتْ على يَدَيْ إيليزا وهي تخبرها أنه لو كانت هناك ذرَّة واحدة فيها تفكَّر في الاحتفاظ بالطفلة، يجب أن تغادر الآن، لا بُدَّ أن تأخذ الطفلة وتهرب.

برغم أن اقتراح الهروب راوَدَ قَلْبَ إيليزا، سرعان ما تخلَّصت منه. تجاهلت الألم الحاد في صدرها، وأكَّدت لماري مُجَدِّدًا أنها تعرف ما تريده جيِّدًا. نظرت إلى طفلتها مرَّةً أخيرة، وأخذت تُحدِّقُ بإمعانٍ في الوجه الصغير، وهي تستوعب أنها خَلَقَتْ هذا الشيء البديع. وبالنهاية لم تحتمل الألم في رأسها وقلبها وروحها. في هذه اللحظة، وبطريقة ما، كما لو كانت تُراقب نفسها من بعيد، وَفَّت بوعدِها؛ سلَّمت الطفلة الصغيرة وسمحت بأن تُؤخَذَ بعيدًا عنها. أغلقت الباب وراء ماري، وعادَتْ وحيدةً إلى الكوخ الصَّامِتِ الميَّت. وبينما تباشيرُ الصباح تفتش الحديقة الباردة، وجدران الكوخ تتقلَّص مُجَدِّدًا، أدركت إيليزا أنها لم تتذوَّق مرارة الوحدة السوداء إلا الآن.

برغم أن أدالين تمَّقت مانسيل، رجل لينوس، ولَعَنَتْه حينما جلب إيليزا إلى حياتهم، اعترفت أن الرجل بارِعٌ في العثور على الناس. لقد مرَّت أربعة أيام منذ أن أرسلته إلى لندن، واليوم، وهي تتظاهر بالتطريز في الغرفة الصباحية، استُدعيت إلى الهاتف.

سمعت مانسيل، على الطرف الآخر، يقول بحذرٍ بِالْبَغِ (فالمرء لا يعرف مَنْ يصغي على طرف آخر): "لقد اتَّصَلْتُ يا ليدي مونتراشيه لكي أعرِّفك أنني جَلَبْتُ الآن بعض البضائع التي طلبتها".

كَمَمَتِ أَدالين أنفاسها. بهذه السرعة؟ جعلها التَّرقُب والأمل والتَّوَتُّر تستشعر وخرًا في أطراف أصابعها. "وهل في حيازتك الصَّنْف الكبير أم الصغير؟".

"الكبير".

أغَلَقَتِ أَدالين عينيها، وحاوَلَتِ طَرَدَ الارتياح والفرحة من صوتها وهي تقول: "ومتى سَتَسَلَّمُهُ؟".

"سنگادر لندن على الفور. وسأصل إلى بلاكهرست مساء غدٍ".

وهكذا انتظرت أَدالين. وكانت ما تزال تنتظر. أَخَذَتِ تَذَرَعُ العُرْفَةَ ذهابًا وإيابًا على السجاد التركي، وتُسَوِّي جونلَّتْها، وتُوبِّخُ الخَدَمَ. وأثناء هذا كُلِّه كانت تَحْبُكُ حُطَّةً للتَّخْلُص من إيليزا.

تَعَهَّدَتِ إيليزا بَعَدَمِ الذهاب إلى المنزل، وقد وَفَّتِ بوعدِها. لكنها راقِبَتِ. كانت تَدَّخِرُ بعض الأموال الكافية لحجز رحلة على سفينة، والسفر إلى أراضٍ بعيدة، وبرغم ذلك ثَمَّةَ شيءٍ مَنَعَهَا، كأنَّ المَرَساة التي كانت تسعى إليها طوال حياتها استقرَّت في تَرَبَةِ بلاكهرست مع ميلاد الطفلة.

كانت جاذبية الطفلة لا تُقاوَمُ؛ ولذلك بَقِيَتِ في العزبة. لكنها بَرَّتِ بوعدِها لروز وتحاشت المنزل. وجدت أَمَاكِنَ أخرى للاختباء من المُرَاقَبَةِ. مثلما كانت تفعل وهي طفلة، مُسْتَلْقِيَةً على رَفِّ في الغرفة العلوية الضيِّقَةِ في منزل السيدة سويندل. تُراقِبُ العالم يتحرك من حولها وهي هامدة، مُجَرَّدَةٌ من الفعل والحركة.

بفقدان الطفلة، سَقَطَتِ إيليزا في دَوَامَةِ حياتها القديمة، ذاتها القديمة. لقد تَخَلَّتِ عن حَقِّها، وخسرت بذلك الهدف في حياتها. لم تكتب الكثير. وأدرَجَتِ قِصَّةً خياليَّةً واحدة وجدتها تَسْتَحِقُّ في

المجموعة. حكاية عن شابةٍ تعيش بمفردها في غابةٍ مُظلمةٍ، تقوم بخياراتٍ خاطئةٍ لأسبابٍ منطقيّةٍ وتُدْمِرُ نفسها أثناء ذلك.

تحوّلت الشهور الشاحبة إلى أعوامٍ طويلةٍ، ثم في صبيحة يومٍ صيفيٍّ من عام 1913 وصلها كتاب القصص الخيالية من الناشر. أخذته إيليزا إلى الدّاخل على الفور، ومَرَّقت الحزمة لتكشف عن الكنز المُطوّق بالجلد. جلست على المقعد الهزاز، وفتحت الكتاب وتركته ينغلق على وجهها. هبّت عليها رائحةُ الحبر الطّازج وغراء التجليد. كان كتابًا حقيقيًّا، وبداخله قصصها، مخلوقاتها العزيزة. قلبت الصفحات الجديدة السميقة، قصّة تلو القصّة، حتى انتهت إلى قصة (عينا العجوز). قرأتها وبينما كانت تتصفّحها، تذكّرت الحُلَمَ الغريب في الحديقة، الشعور المُتغلغل أن طفلتها كانت مُهمّة في القصة.

فجأة أدركت أن طفلتها يجب أن تمتلك نسخةً من القصة؛ لأنها هي والقصة مرتبطتان. علّقت الكتاب في ورَقٍ بُنيٍّ، مُنتظرةً الفرصة، ثم نقّضت وعدّها؛ فاخرقت البوابة في نهاية المتاهة واقتربت من المنزل.

رقصت المئات من دَرّات الغبار في ضوء الشمس الفضيّ المُتسلّل بين برميلين. ابتسمت الطفلة ونسيت السيّدة، والجُرف الصخري، والمتاهة، وماما. مدّت أصبعها تحاول الإمساك ببقعة من الغبار، وضحكت من طريقة تجمّع الدَرّات قبل انحرافها بعيدًا.

تغيّر الآن الضجيج خلف البقعة التي تخبئ فيها. سمعت جلبة حركةٍ، ولغط أصواتٍ مليئة بالانفعال. مالت نحو ستار الضوء، وضغطت وجهها على الخشب البارد للبراميل. وبعينٍ واحدة نظرت إلى سطح السفينة، أبصرت أَرْجُلَ وأحذيةً وأطراف تنانير، وقصاصات ورَقٍ

مُلَوَّن رَفِيع يَتَطَايِر هُنَا وَهُنَاكَ، وَنَوَارِس تَنْقُضُ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ تَلْتَقُطُ الْفَتَاتِ.

مَالَتِ السَّفِينَةُ الضَّخْمَةَ فَدَوَّى صَرِيرٌ طَوِيلٌ خَفِيفٌ قَادِمٌ مِنْ أَحْشَائِهَا، وَعَبِرَتِ الذَّبْذَبَاتُ أَلْوَاحَ السَّطْحِ إِلَى أَنْامِلِ الطِّفْلِ. تَرَقَّبَتْ وَحَبَسَتْ أَنْفَاسَهَا، وَفَرَدَتْ رَاخَتَيْهَا بِجَانِبِهَا، ثُمَّ ارْتَفَعَتْ السَّفِينَةُ وَابْتَعَدَتْ عَنِ رَصِيفِ الْمِينَاءِ. نَفِيرَ الْبُوقِ، وَدَوَّتْ مَوْجَةٌ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالصَّيْحَاتِ تَهْتَفُ "رَحْلَةَ سَعِيدَةٍ". كَانُوا فِي طَرِيقِهِمْ.

وَصَلَّتَا إِلَى لَنْدُنَ بِحُلُولِ اللَّيْلِ. تَدَلَّى الظَّلَامُ ثَقِيلًا وَكَثِيفًا فِي ثَنَائِي الشَّارِعِ وَهَمَا تَشُقَّانِ الطَّرِيقَ مِنْ مَحَطَّةِ الْقَطَارِ مُتَّجِهَتَيْنِ نَحْوَ النَّهْرِ. كَانَتِ الطِّفْلَةُ مُتَعَبَةً، اضْطَرَّتْ إِيلِيْزَا إِلَى إِيقَازِهَا حِينَمَا وَصَلَّتَا إِلَى الْوَجْهَةِ الْمَقْصُودَةِ، لَكِنَّمَا لَمْ تَشْكُ. أَمْسَكَتْ يَدَ إِيلِيْزَا وَتَبِعْتَهَا.

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ تَشَارَكَتِ الْاِثْنَتَانِ عِشَاءً مُكَوَّنًا مِنَ الْحَسَاءِ وَالْخَبْزِ فِي الْغُرْفَةِ. كَانَتَا مُرَهَقَتَيْنِ مِنَ السَّفَرِ وَلَمْ تَتَكَلَّمَا كَثِيرًا، فَقَطِ تَبَادَلَتَا النِّظَرَاتِ الْفَضُولِيَّةَ بَعْضُ الشَّيْءِ. سَأَلَتِ الطِّفْلَةَ مُجَدِّدًا عَنْ أَبِيهَا وَأَمَّهَا، وَأَجَابَتْهَا إِيلِيْزَا أَنَّهُمَا سَتَلْتَقِيَانِ بَعْدَهَا عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ. كَانَتِ كَذِبَةً، لَكِنَّمَا ضَرُورِيَّةٌ؛ احْتَاجَتْ وَقْتًا لِتُقَرَّرَ كَيْفَ تَنْقَلُ إِلَيْهَا بِطَرِيقَةٍ مَنَاسِبَةٍ خَبَرَ وَفَاةَ رُوزٍ وَنَاثَانِيَالِ.

بَعْدَ الْعِشَاءِ، غَطَّتْ أَيْشُورِي فِي نَوْمٍ سَرِيعٍ عَلَى الْفَرَاشِ الْوَحِيدِ فِي الْغُرْفَةِ، وَجَلَسَتْ إِيلِيْزَا عَلَى مَقْعَدِ النَّافِذَةِ. وَأَخَذَتْ تَنْقَلُ بِصَرِّهَا بَيْنَ الشَّارِعِ الْمُعْتَمِ الْغَاصِّ بِالْعَابِرِينَ، وَبَيْنَ الطِّفْلِ الْغَافِيَّةِ، تَتَحَرَّكُ قَلِيلًا أَسْفَلَ الْغَطَاءِ. بَعْدَ فِتْرَةٍ اقْتَرَبَتْ مِنَ الطِّفْلِ، وَرَاقَبَتْ الْوَجْهَ الصَّغِيرَ، ثُمَّ رَكَعَتْ بِرَفْقٍ بِجَوَارِ الْفَرَاشِ، قَرِيبًا جَدًّا مِنَ الطِّفْلِ حَتَّى أَنْهَا شَعُرَتْ بِأَنْفَاسِهَا عَلَى شَعْرِهَا، يُمَكِّنُهَا أَنْ تُحْصِيَ النَّمَشَ الدَّقِيقَ عَلَى وَجْهِهَا النَّائِمِ. مَا أَجْمَلُهُ مِنْ وَجْهِ! مَا أَجْمَلُ هَذِهِ الْبَشْرَةَ وَالشَّفَاهَ

الشبيهة ببرعم زهر رائع! ولاحظت إيليزا أنه كان نفس الوجه، ونفس الملامح الرزينة، التي رأتها في الأيام الأولى من حياة الطفلة. نفس الوجه الذي رآته كثيراً في أحلامها.

في هذه اللحظة مَلَكْتَهَا حَاجَةً مُلِحَّةً، احتياجٌ كاسح، ظننت أنه حُبٌّ، حتى أن كُلَّ ذَرَّةٍ من ذاتها كانت مُتَخَمَّةً باليقين، كأنَّ جَسَدَهَا تَعَرَّفَ بسهولة على هذه الطفلة التي وَهَبَتْهَا الحِياةَ مثلما تَعَرَّفُ يَدَهَا، ووجهها في المرآة، وصَوْتَهَا في العَتَمَةِ. وبمنتهي الحرص، استلقت إيليزا على الفراش وتكوَّرت بجانب الطفلة الغافية. مثلما فعلت في زمن آخر، وغرفة أخرى، بجانب الجسد الدافئ لشقيقها سامي.

أخيراً، شعرت إيليزا أنها في بيتها.

في اليوم المُحدَّد لمغادرة السفينة، انطلقت هي والطفلة مُبَكِّراً لشراء بعض المستلزمات. ابتاعت إيليزا بعض الملابس القليلة، وفرشاة شعر، وحقيبَةً سَفَرٍ لتضع هذه الأشياء فيها. وفي قاع الحقيبية وضعت مظلوماً يحتوي على بعض الأموال وورقةً بها عنوان ماري في بولبيرو، كان من الضروري وضعه في أمان. كانت حقيبَةُ السَّفَرِ تُناسِبُ أن تَحْمِلَهَا أيثوري التي كانت مُتَحَمِّسَةً. قَبَضَتْ عليها بإحكام وإيليزا تمشي بها عبر الرصيف المزدهم. كانت هناك حركة وضجَّة في كل مكان؛ قاطرات تصفر، وبخار يموج، ورافعات تحمل عربات أطفال ودرَّاجات وفونغرافات إلى سطح السفينة. ضحكت أيثوري حينما مرَّا بقطيع من الماعز والخرفان التي تتغو وهي تُساقُ إلى عنبر السفينة. كانت ترتدي أجملَ فُستائِنِ ابتاعتهما إيليزا من أجلها، وتبدو كأنها طِفْلَةٌ ثَرِيَّةٌ جاءت لتودِّعَ عَمَّتَهَا في رحلة بحرية طويلة. حينما وصلتا إلى الممشى، سلَّمت إيليزا بطاقة الصعود إلى الضابط.

قال وهو يومئ حتى أن قبعتة الرسمية مالت: "مرحبًا بكِ على سطح السفينة يا سيّدي".

هزّت إيليزا له رأسها بدورها وقالت: "إنه مُمتِعُ السَّفَرُ على متن سفينتكم الرائعة. ابنة أخي مُتحمّسة لسَفَرِ عَمَّتِهَا. انظر، لقد أَحضرتُ لها حقيبتها الصغيرة الخادِعة".

نظر الضابط إلى الطفلة وسألها: "هل تُحبِّين السُّفْنَ الكبيرة يا آنسة؟".

أومأت أيثوري وابتسمت بعذوبة، لكنها لم تَقُل شيئًا. مثلما أمرتها إيليزا.

لَوَحَت إيليزا إلى الحشد المُتزايد وقالت: "أخي وزوجته ينتظران بعيدًا عند الرصيف. هل تُمانِعُ أيُّها الضابط إن أَخَذتُ ابنة أخي على سطح السفينة لدقيقة لأُريها حُجرتي؟".

اختلس الضابطُ النَّظَرَ إلى صَفٍّ من الرُّكَّاب الذين يتقدّمون على الرصيف.

"لن نتأخّر. سيّعني هذا الكثير للطفلة" قالت إيليزا.

"لا بأس. فقط احرصي على إرجاعها" وغمَزَ إلى أيثوري. "لديّ شعورٌ أنّ والديّها سوف يفتقدانها لو غادرت بدونهما".

أمسكت إيليزا بيّد أيثوري واتّجّهت إلى الممشى.

كان هناك أناسٌ في كُلِّ مكان، وأصوات حركة، وتناثر مياه، وصفارات الضباب. وكانت الجوقة الموسيقيّة تعزف لحناً مَرِحًا على سطح السفينة، بينما الخادِمات يهرعن في كُلِّ الاتجاهات، وصبيان البريد يُسَلِّمون البرقيّات، والنُدُلُ المُعتدُّون بأنفسهم يحملون الشيكولاتة والهدايا للركاب الراحلين.

لكن إيليزا لم تتبع رئيسَ الخَدَمِ داخلَ السفينة، بل قادت أيثوري إلى سطح السفينة، وتوقَّفت حينما وَصَلتا إلى مجموعة من البراميل الخشبية. دفعت إيليزا الطُفلةَ وراءهم، ورَكَعت بِالقُرْبِ منها، حتى أن جَوْنَلَتَهَا تَجَعَّدَت. ارتبكت الطفلة وأخَذَت تَتَلَفُّتُ حولها؛ فهي لم تَرَ هذا النشاط من قبل.

قالت إيليزا: "انتظريني هنا، ولا تَتَحَرَّكي. سأعود بسرعة". تَرَدَّدَت، ونظرت إلى السماء. كانت النُّوَارِسُ تطير بالأعلى، بعينين سوداوين يَقْطِئِينَ. "انتظريني هنا، هل تفهمين؟".

أومأت الطفلة.

"هل تعرفين كيف تختبئين؟"

"بالطبع".

"سنلعب لُعبَةً" وبينما قالت إيليزا هذه الكلمات، قفزت صورة سامي إلى ذَهِنِهَا وَبَرَدَ جِلْدُهَا. "أنا أَحِبُّ الألعاب".

أزاحت إيليزا الصورة جانبًا. هذه الطفلة لم تُكُنْ سامي. لم تكونا تلعبان لُعبَةً چاك السَّفَاح. سيكون كلُّ شيءٍ على ما يُرام. "سأعود من أَجْلِكَ".

"أين تذهبين؟"

"عليَّ أن أزور شخصًا. هناك شيءٌ لا بُدَّ أن أجلبه قبل مغادرة السفينة".

"ما هو؟".

قالت: "ماضيٌّ. مُسْتَقْبَلِي". ثم ابتسمت ابتسامةً صغيرةً: "عائلتي".

وبينما تنطلق العَرَبَةُ بسرعة نحو بلاكهرست، بدأت الغشاوة تنزاح عن إيليزا، وتَسْرَبُ إليها الوَعْيُ ببطءٍ: اهتزاز، ضربات حوافر، رائحة كريهة.

فَتَحَّتْ عينيها، وطَرَقَتْ. ظلال سوداء ذابت في بَقَعٍ من الضوء المُغْبِرِّ. شعور بالإغماء وهي تُرَكِّزُ بصرها.

كان هناك شخصٌ معها، رجل يجلس أمامها، مألٍ رأسه على المقعد الجلدي، وارتفع صوت أنفاسه المنتظمة. كان يعلو وجهه شاربٌ كَثُّ، ويرتدي نظارةً بلا حاملين حطَّت على قسبة أنفه.

جذبت إيليزا نَفْسًا. كانت في الثانية عشرة من عمرها، حينما هربت من كُلِّ ما تعرفه نحو مستقبل مجهول، وحُبِسَتْ في عَرَبَةٍ مع الرجل الشرير الذي حَذَّرَتْهَا أمُّها منه. مانسيل.

ومع ذلك... ثمة شيءٌ خاطئ، شيءٌ نَسِيَتْه، غمامة سوداء تُظَلِّلُ ذهنها. هناك شيءٌ مُهِمٌّ، شيءٌ كان عليها أن تفعله.

شَهَقَتْ. أين سامي؟ يجب أن يكون معها، كان يجب عليها أن تحميه...

حوافر الخيل ترتطم بالأرض بالخارج. أفرزها الصَّوتُ وأَسَقَمَها، رغم أنها لا تدري السبب. بدأت الغمامة السوداء تدور وتقترب.

نظرت إلى جونلَّتْها، ويديها المعقودتين على حجرها. بالتأكيد هذه ليست يدها مُطْلَقًا.

ضوء ساطعٌ اخترق الغمامة: لم تكن في الثانية عشرة من عمرها، بل امرأة بالغة...

ولكن ماذا حدث؟ أين هي؟ ولماذا كانت مع مانسيل؟

كوخٌ على جُرْفٍ صَخْرِيٍّ، حديقة، البحر...

أنفاسها كانت أعلى الآن، حادّة في حَلِقِهَا.

امرأة، رجل، طفل...

ألمٌ كاسِحٌ يجتاح جسدها.

المزيد من الضوء... الغمامة تنقشع، تتفكّكُ....

كلمات، شَذراتٍ معانٍ؛ ماريبورو... سفينة... طفل، لم يكن سامي،
بل طفلة صغيرة...

جفٌّ حَلِقُهَا. اتَّسَعَتْ بداخلها فجوة امتلأت سريعًا بخوفٍ أسود.

الطفلة كانت طِفَلَتْهَا.

وضوحٌ ساطع حتى أنه أحرقَهَا؛ ابنتها كانت وحيدةً على سطح
سفينةٍ راجلةٍ.

تَخَلَّلَ الهَلَعُ مَسَامَ جَسَدِهَا، ودَقَّ قَلْبُهَا كالطبل في صدرها. إنها
بحاجة إلى الرحيل، إلى العودة.

نظرت نحو الباب.

العَرَبَةُ تطوي الأرض طَيًّا لكنها لم تعبأ. ستُغَادِرُ السفينةُ الميناء
اليومَ والطفلة كانت على مَتْنِهَا. طِفَلَتْهَا، بمفردها.

شَعَرَتْ بألمٍ في صدرها، وضربات في رأسها، مَدَّت يدها.

تحركَ مانسيل، وفتح عينيه المُجْهَدَتَيْنِ، وَحَدَّقَ بسرعة في ذراع
إيليزا، المقبض أسفل أصابعها.

ابتسامة قاسية ارتسمت على شفثيه.

قَبَضَتْ على الرافعة، اندفع لِيَمْنَعَهَا، لكنَّ إيليزا كانت أسرع،
وحاجَّتُهَا كانت أكبر، في النهاية.

وبينما كانت تسقط، انفتح باب القفص وأخذت تهوي وتهوي نحو الأرض المُعْتَمَةِ الباردة. انطوى الزمن، وصارت كُلُّ اللحظات وَاحِدَةً، كان الماضي هو الحاضر هو المستقبل. لم تُغْلِقِ إيليزا عينيها، راقبت الأرض وهي تقترب، رائحة الطين والعشب والأمل...

... وكانت تطير، جناحها مفرودان في السماء، يَحْمِلُهَا النَّسِيمُ لأعلى، وجهها هادئ، وذهنها صافٍ. وَعَلِمَتْ إيليزا وجهتها. إنها تطير نحو ابنتها، نحو أيقوري، التي قَضَتْ حياتها بِرُمْتِهَا تسعى إليها، نصفها الآخر. ها قد اكتملت في نهاية المطاف، وها هي تَنْجُهِه نحو بَيْتِهَا.

(49)

كوخ الجرف، 2005

أخيراً، كانت في الحديقة مُجدِّداً. مَرَّتْ أَيَّامٌ بين المناخ السيئ، ووصول روبي، وزيارة منزل كلارا، حتى استطاعت كساندرا أن تنزلق أسفل الجدار. كانت عُرْضَةً لقلق غريب لم يتبدَّد إلا الآن. شعرت بالدهشة وهي تُريح القُقَّاز في أصابع يدها اليمنى؛ لم تعتبر نفسها قَطُّ أنها بستانية، لكن هذا المكان كان مُختلِّفاً. شعرت بأنها مُضطرة إلى العودة، ودَبَّ يديها في الأرض وإحياء الحديقة مرَّةً أخرى. توقَّفت لتُسوي أصابع القُقَّاز الآخر، ولاحظت مُجدِّداً حلقة الجلد الأبيض حول إصبعها الخنصر. مَرَّرَتْ إبهامها عليه. كان في غاية النعومة، وأكثر مرونةً عن بقيَّة الجلد، كما لو كان منقوعاً في مياهٍ ساخنة. كانت تلك الحلقة البيضاء أصغر عُمرًا، أصغر من باقي الجلد بخمسة عشر عامًا. مُخبَّأة منذ أن وضع نيك الخاتم في إصبعها، كانت الجُزء الوحيد الذي لم يتغيَّر، لم يكبر، لم يمض قُدِّمًا. حتى الآن.

"هل البرودة تُناسِبُك؟" قالها كريستيان، الذي ظهر تَوًّا من أسفل الجدار، وهو يدفع يديه في جيبي سرواله الجينز. أحكمت كساندرا القفاز على يدها وابتسمت له. "لم أظنُّ أنَّ الجَوَّ يصير باردًا في كورنوال. كل الكتيبات التي قرأتها تقول إن مُناخها مُعتدِل".

"مُعتدِل مُقارَنَةً بِمقاطعة يورك". ابتسم ابتسامَةً مائلةً بدوره. "إنه لحظة من الشتاء المُقبِل. على الأقل لن تُضطرُّ إلى التَّعامل معه".

خيَّم الصَّمْتُ عليهما. وبينما عمَد كريستيان إلى تَفحُّص الحفرة التي حفرها الأسبوع المُنصرِم، تظاهرت كساندرا بالانشغال بشوكة الحديدية التي تُزيل الحشائش الضارَّة. لقد تَجَنَّبَا الحديث عن عودتها إلى استراليا. في الأيام القليلة الأخيرة، حينما توشكُ المحادَّةُ على الاقتراب من المسألة، كان أحدهما يُغَيِّرُ الموضوع سريعًا.

"كنتُ أفكر كثيرًا في رسالة هاريت سويندل"، قال كريستيان.

"حقًّا؟" دفعت كساندرا جانبًا أفكارًا مُزعِجَةً للماضي والمستقبل.

"مهمًا كان الوجود في الآنيَّة الفخَّاريَّة، تلك التي سَحَبَتْها إيليزا من المدخنة، لا بُدَّ وأنها كانت مُهمَّة. كانت نيل بالفعل على السفينة؛ لذا خاطرت إيليزا بشكلٍ كبير حينما عادت إليها".

كانا قد تكلَّما في هذا الموضوع البارحة. في رُكنٍ صغيرٍ دافئ بالحانة، والنيران تَتَرُّ في الزاوية، ناقشا مرارًا التفاصيل التي يعرفانها، وحاوَلًا التَّوصُّلَ إلى خاتمةٍ باديَّةٍ للعيان.

"أظنُّ أنها لم تضع في حسابها الرَّجُلَ الذي كان هناك لاختطافها، أيًا كان"، دفعت كساندرا الشُّوكَةَ في حوض الزهور. "أتمنى لو خَبَرْتنا هاريت باسمه".

"لا بُدَّ وأنه شخصٌ أرسلته عائلة روز".

"هل تعتقد ذلك؟".

"وَمَنْ غَيْرَهُمْ حَرِيصٌ لِلْغَايَةِ عَلَى اسْتِرْجَاعِهِمَا؟"

"استرجاع إيليزا".

"ماذا؟".

نظرت كساندرا من فوق كتفها إليه، وقالت: "لم يسترجعوا نيل، فقط إيليزا".

توقّف كريستيان عن حفره. "هذا صحيح، وإنه لأمر غريب. أظن أنها لم تُخبرهم بمكان نيل".

وهو الأمر الذي لم تفهمه كساندرا. باتت مُستيقظةً مُعظمَ الليل تُحلّل الخيوط في ذهنها، وتصل دائماً إلى النتيجة ذاتها. ربما لم تُرد إيليزا أن تظن نيل في بلاكهرست، لكن بالتأكيد حينما علمت أن السفينة أبحرت بدونها لا بُدَّ وأنها كانت تريد أن تفعل شيئاً لمنعها. كانت أمها، وقد أحببتها للغاية حتى أنها أرادت أن تأخذها معها قبل كل شيء. ألم تستطع تحذيرهم من وجود نيل على متن السفينة وحدها؟ لكنها لم تقل شيئاً وتركت ابنتها الغالية تُسافر بمفردها إلى استراليا. ضربت الشوكة جذراً مُتشبّثاً بالأرض. "لا أظن أنه كان بإمكانها إخبارهم".

"ماذا تقصدين؟".

"أعني لو استطاعت لفعلت، أليس كذلك؟".

أوما كريستيان ببطء، وهو يرفع حاجبيه محاولاً استيعاب تضمينات هذه النظرية. ألقى بمجرّفته في الحفرة.

كان الجذر سميكاً. سحبّت كساندرا الحشائش الأخرى جانباً وتتبعته لأعلى قليلاً. ابتسمت لنفسها. برغم أن النبات كان ذائباً، وخاليًا من الأوراق في معظم أجزاءه، تعرّفت عليها؛ فقد كانت هناك عيّنات مُماثلة منه في حديقة نيل الخلفيّة في بريزبن. كانت

شُجِيرَةٌ وَرِدٍ قَدِيمَةٌ مُتَشَابِكَةٌ، رُبَّمَا ظَلَّتْ موجودَةً لعشرات السنين. كان الجذر سميكًا كساعِدِهَا، مُغَطَّى بالأشواك الغاضبة، لكنه ما زال حَيًّا، وبالرعاية سيعيش لِيُزْهِرَ مُجَدِّدًا.

"يا إلهي!"

رفعت كساندرا نظرها عن شجيرة الورد. كان كريستيان يَجْتُمُّ بالأسفل، مُنْحَنِيًّا على الحفرة. "ماذا؟ ماذا هناك؟" قالت.

"وَجَدْتُ شيئًا" كانت نَبْرَةٌ صوته غريبة، وصعبة التفسير.

انطَلَقَت الكهرباء كالنَّارِ سَاخِنَةً أسفل جِلْدِ كساندرا. "شيءٌ مُخِيفٌ أم شيءٌ مُثِيرٌ؟"

"أحسب أنه مُثِيرٌ."

ذهبت كساندرا لتركع بجواره وتُحَدِّقُ في الحفرة. وتَبِعَتِ الاتجاه الذي كان يشير إليه.

وسط التُّرْبَةِ الرُّطْبَةِ، برز شيءٌ من القاعدة الطينية. شيءٌ صغير، بُنِّيٌّ، أَمَلَسٌ.

مدَّ كريستيان يَدَهُ وَحَرَّرَ الشيء، وسحب آنيَّةً فَخَّارِيَّةً، كانت من الأواني المألوفة لتخزين الخَرْدَلِ وغيرها من الأطعمة المحفوظة. مَسَحَ الطِّينَ عن جوانبها وناولها لكساندرا. "أعتقد أن حديقَتَكَ كَشَفَتْ عن سرِّها."

كان الفَخَّارُ باردًا على أصابعها، والآنية ثَقِيلَةٌ بِشَكْلِ مُدْهِشٍ. تعالَّت دَقَّاتُ قلب كساندرا.

قال كريستيان: "لا بُدَّ وأنها دَفَنْتَها هنا، بعدما اختطفها الرجل في لندن، لا بُدَّ وأنه جلبها إلى بلاكهرست".

لكن لماذا تدفن إيليزا الآنيّة الفخاريّة بعدما خاطرت لاسترجاعها؟
لماذا تُغامرُ بخسارتها مُجدِّداً؟ ولو توافرَ لديها الوقت لِدفنِ الآنيّة،
لماذا لم تذهب إلى السفينة؟ وتستردّ أيقوري الصغيرة؟

هَبَطَ عليها الإدراكُ بشكلٍ مُباغِتٍ. ثَمَّةُ شيءٍ كان هناك طيلةَ الوقتِ
وصار واضحاً. سَحَبَتِ كساندرا نَفْسًا عَنيفًا.

"ماذا؟"

"لا أَظُنُّ أن إيليزا دَفَنَتِ الآنية" همست كساندرا.

"ماذا تقصدين؟ مَنْ فعل؟"

"لا أحد، أقصد أن الآنية دُفِنَت معها"، ولمدّة تزيد عن التسعين
عامًا رَقَدَت هنا، بانتظار شخصٍ يَعْتُرُّ عليها. بانتظار كساندرا لكي
تعثر عليها وتكشف سرّها.

حدّق كريستيان في الحفرة، وعيناه مُتسعَتين. وأوماً ببطء. "هذا
يُفسِّر سببَ عَدَمِ عَوَدَتِها إلى أيقوري، إلى نيل."

"لم تَسْتَطِعِ، كانت هنا طيلةَ الوقتِ."

"لكن مَنْ دَفَنَها؟ الرجل الذي اختطفها؟ خالها؟ زَوْجَتُهُ؟"

هَزَّتِ كساندرا رأسها. "لا أعرف. لكن الشيء المُوَكَّد أن مَنْ فعل
ذلك عزم على كتمان الأمر. لا يوجد شاهدٌ قَبيرٍ، لا شيء على الإطلاق
يُمَيِّز البقعة. أرادوا أن تَخْتَفِيَ إيليزا، وأن تَظَلَّ وَفائِها مُخبَّأَةً إلى الأبدِ،
مَنسِيَّةً مثل حديقَتها."

(50)

عزبة بلاكهرست، 1913

التفتت أدالين من المدفأة، أخذت نَفَسًا فجأة حتى أن خصرها تقلص. "ما الذي تقصده بقولك إن الأمور لم تَسِرْ وفقًا للخُطَّة؟".

خيم الليل، ودنت الغابات المحيطة من المنزل. ارتمت الظلال في أركان الغرفة، وداعب ضوء الشمعة أطرافها الباردة.

عدل السيد مانسيل نظرًا رتته الأنفية وهو يقول: "لقد أَلقت بنفسها من العربة. وفقدت الخيول السَّيطرة".

قال لينوس: "طبيب. لا بُدَّ من استدعاء طبيب".

"لا فائدة منه" جاء صوت مانسيل الثَّابت. "لقد ماتت".

شهقت أدالين. "ماذا؟".

قال مُجدِّدًا: "ماتت. السيدة، ابنة شقيقة زَوْجِكِ، مَيِّتة".

أغَلَقَتْ أَدالين عينيها وانثنت رُكبتَها. كان العالمُ يَدور، كانت خفيفةً، بلا أَلَمٍ، حُرّة. كيف انزاح هذا العِباءُ، هذا الثَّقَل، بسرعة؟ سَقَطَةٌ واحدة خَلَصَتْها من عَدَوْتِها القديمة اللدود، وريثة جورجيانا؟ لم تَعَبْ أَدالين. أخيراً، اسْتُجِيبَ لصلواتها، وعاد العالم إلى مَسارِه الصحيح. لقد ماتت الفتاة. وهذا ما يهْمُ. للمرّة الأولى منذ وفاة روز يمكنها أن تتنَفَّس الضُّعاء. غَزَتِ السَّعَادَةُ كُلَّ عروق جَسَدِها. سمعت نفسها تقول: "أين... أين هي؟".

مكتبة

t.me/t_pdf

"في العَرَبَةِ...".

"هل جَلَبَتْها إلى هنا؟".

"الفتاة...". خرج صوت لينوس من الكرسيّ ذي المسندين الذي تكوّر عليه. كانت أنفاسُه سريعةً خفيفة. "أين الفتاة الصغيرة ذات الشعرِ النَّارِيّ الأَصْهَب؟".

"غَمَّعَتِ المرأةُ بكلماتٍ قليلةٍ قبل سقوطها. كانت مُتَرَنِّحَةً والكلمات خافِتة، لكنها تكَلَّمَت عن سفينة. كانت مُشَوَّشَة، وحريصة على العودة في الوقت المناسب لرحيل السفينة".

قالت أَدالين بحدّة: "اذهب وانتظر بجوار العربية. سوف أقوم بالترتيبات، ثم أُرسِلُ في طَلَبِك".

أوما مانسيل بسرعة وغادر، وهو يأخذ معه الدَّفء القليل من الغرفة.

"ماذا عن الطفلة؟ قال لينوس بخفوتٍ.

تجاهلته أَدالين، كان ذِهنُها مُسْتَعْرِقاً في العثور على حَلِّ. بالطبع لا يمكن لأحد من الخدم أن يعرف ما حدث. بالنسبة لهم، غادرت إيليزا بلاكهرست حينما عَلِمَت أن روز وناثانيال كانا سينتقلان إلى نيويورك. أَحَسَّتْ صُنْعاً الفتاةُ بحديثها المُتكرِّر عن رغبتها في السفر.

"ماذا عن الطفلة؟" قال لينوس مُجدِّدًا، وأصابعه ترتجف حول ياقة قميصه. "يجب أن يجدها مانسيل، ويجد السفينة. يجب أن نستعديها، يجب أن نعثر عليها".

نظرت نحوه أدالين بمقتٍ كبير وهي تتطلع إلى هيئته المتغضنة. "لماذا؟" سألته، وجلدها يستحيل باردًا. "لماذا يجب أن نعثر عليها؟ ما الذي مُثِّله لنا؟" ثم همست وهي تميل نحوه قائلة: "ألم تفهم؟ لقد تحررنا".

"إنها حفيدتنا".

"لكنها ليست من دمننا".

"إنها من دمي أنا".

تجاهلت أدالين عبارته الباهتة. لم تكن بحاجةٍ للتعليق على هذا الشعور العاطفي. ليس الآن بعدما أصبحت أمنيئ في النهاية. دارت على عقبيها ومشت على السجاد. "سنخبر الناس أننا عثرنا على الطفلة في العزبة لكنها كانت مُصابةً بالحمى القرمزية. ولن يتم التشكيك في ذلك، هم بالفعل يعتقدون أنها طريحة الفراش. وسنأمر الخدم أنني فحسب من سيتولى رعايتها، وأن روز أوصتني بها. ثم بعد حين، حينما نستنفد كل مظاهر المعاونة مع المرض، سنقيم جنازة".

وبينما ستتلقى أيقوري الدفن الذي يليق بحفيدة محبوبه، ستأكد أدالين من التخلص من إيليزا في سرعةٍ وسريّة. بالتأكيد لن تُدفن في مقبرة العائلة. لن تلوّث التربة المباركة المحيطة بروز. بل يجدر دفنها في مكانٍ لا يخطر ببال مخلوق... مكان لا يجرؤ أحد على البحث فيه.

في صباح اليوم التالي، أمرت أدالين ديفيس بأن يقودها إلى المتاهة. مكان رطبٍ مُروّع. كانت رائحة طبقة الأعشاب التحيّة المتعفنة التي

لم تَرَ الشَّمْسَ قَطُّ تَضَعُ عَلَى أَدَالِينَ مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ. جَوْنَلَةُ الْجِدَادِ
السُّودَاءُ تُصَدِّرُ حَفِيفًا عَلَى الْأَرْضِ الْمُمَشَّطَةِ، وَالْأَوْرَاقُ الْمُتَسَاقِطَةُ تَلْتَصِقُ
كَتَوَاتٍ فِي طَرْفِ الثُّوبِ. كَانَتْ تُشْبِهُ طَائِرًا أَسْوَدَ كَبِيرًا، يَنْتَفِشُ حَوْلَهَا
الرَّيْشُ لِيَطْرُدَ بَرُودَةَ شِتَاءِ وَفَاةِ رُوزِ.

حِينَمَا وَصَلَا آخِرًا إِلَى الْحَدِيقَةِ السَّرِيَةِ، أَزَاحَتْ أَدَالِينَ دَيْفِيسَ جَانِبًا
وَمَضَتْ عَلَى الْمَمَرِّ الضَّيِّقِ. حِينَمَا مَرَّتْ فَرَّ سِرْبُ طَيُورٍ صَغِيرَةٍ مِنْ
أَغْصَانِهَا الْخَبِيئَةِ وَهِيَ تَزَعُقُ بِجَنُونِ. حَثَّتِ الْخَطَى، مُتَلَهِّفَةً لِلتَّحَرُّرِ
مِنْ هَذَا الْمَكَانِ الْمَسْحُورِ، وَالرَّائِحَةُ الْخَصْبَةُ الْمُسْكِرَةُ الَّتِي جَعَلَتْ
رَأْسَهَا يَدُورَ.

فِي نَهَايَةِ الْحَدِيقَةِ تَوَقَّفَتْ أَدَالِينَ.

وَارْتَسَمَتْ عَلَى شَفَتَيْهَا ابْتِسَامَةٌ حَادَّةٌ. كَانَتْ مِثْلَمَا تَمَنَّتْ.

قَشْعَرِيرَةٌ بَارِدَةٌ وَدَارَتْ فَجَاءَتْ عَلَى عَقْبِهَا. "لَقَدْ رَأَيْتُ مَا يَكْفِي.
حَفِيدَتِي مَرِيضَةٌ لِلغَايَةِ وَيَجِبُ أَنْ أَعُودَ إِلَى الْمَنْزَلِ".

نَظَرَ لَهَا دَيْفِيسَ لِحْزٍ مِنَ الثَّانِيَةِ، لَكِنْ نَظَرْتَهُ بَدَتْ طَوِيلَةً جَدًّا،
وَأَنْزَلَتْ عَلَى عَمُودِهَا الْفَقْرِي رِعْدَةً خَوْفٍ. سَحَقَتْهَا أَدَالِينَ. مَاذَا
يَعْرِفُ عَنْ خُطِّهَا الْخَادِعَةِ؟ "عُدْ بِي الْآنَ".

وَبَيْنَمَا تَبِعَتْ هَيْئَتَهُ الْمُتَثَاقِلَةَ الضَّخْمَةَ عِبْرَ الْمَتَاهَةِ، حَافِظَتْ عَلَى
مَسَافَةٍ بَيْنَهَا وَبَيْنِهِ. كَانَتْ يَدَاهَا فِي جَيْبِ فِسْتَانِهَا، وَأَطْرَافُ أَصَابِعِهَا
تَبْرُزُ بِانْتِظَامٍ لِنَسْقِطِ حَصَى أَبْيَضٍ صَغِيرًا مِنْ لُغْبِ أَيْفُورِي، مِنَ الْجَرَّةِ
الصَّغِيرَةِ فِي غُرْفَةِ الْأَطْفَالِ.

جَاءَتْ الظُّهْرِيَّةُ، ثُمَّ مَرَّتْ سَاعَاتُ اللَّيْلِ الطَّوِيلَةِ، وَأَخِيرًا حَلَّ
مُنْتَصَفُ اللَّيْلِ. نَهَضَتْ أَدَالِينَ مِنْ فِرَاشِهَا، وَارْتَدَّتْ فِسْتَانِهَا وَرَبَطَتْ

حذاءها. وعلى أطراف أصابعها تَسَحَّبَت على الرِّدْهَةِ، ونزلت الدرج إلى الخارج في الليل.

كان القَمَرُ بَدْرًا. سَارَت مُسْرِعَةً عبر المَرَجِ الواسِعِ، وهي تحرص على مُلازِمَةِ الرُّقْعِ البَارِدَةِ الظُّلِّيَّةِ بجانب الأشجار والشجيرات. كانت بَوَابَةُ المِتَاهَةِ مُوَصَّدَةً، لكن سرعان ما عَالَجَت القُفْلَ. وانسَلَّت نحوَ الداخل، وابتَسَمَت حينما رأت الحِصَاةَ الصَّغِيرَةَ الأُولَى تَلَمَّعُ كالفِضَّةِ. تَتَبَّعَت الحِصَى، حتى انتهت أخيرًا إلى البَوَابَةِ الثَّانِيَةِ، التي تُفْضِي إلى الحديقة السَّرِيَّةِ.

هَمَّهَمَت الحديقة داخل جدرانها الحجرية العالية، وأحال ضوء القمر أوراق الشَّجَرِ إلى لونٍ فَضِّيٍّ، بينما النسيم الهامِسُ جَعَلَهَا تُخْشِخِشُ بخفوتٍ، كقِطْعِ مَعْدِنٍ نَقِيٍّ... كَوَتَرٍ مُرْتَجِفٍ في قيثارة. راوَدَ أدالين شعورُ أنها مَئِمَّةٌ رَقِيبٌ صَامِتٌ يُرَاقِبُهَا. حَدَّقَت في المعالم الطبيعية التي أحالها نورُ القمرِ إلى اللون الأبيض، شَهَقَت حينما أَبْصَرَت عَيْنين واسِعَتَيْنِ في انْفِرَاجَةٍ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ. هُنِيهَةً وَأَبْصَرَت البَقِيَّةَ، ريش بومَةٍ، جسمها المُسْتَدِيرُ ورأسها، ومنقارها الحاد.

ومع ذلك لم تشعر بالاطمئنان كثيرًا. مَئِمَّةٌ شَيْءٌ غَرِيبٌ في نظرة الطائر الثَّابِتَةِ. نظرة لا تَمُتُّ لعالم الطيور بِصِلَةٍ. بل كانت نظرة تُرَاقِبُ وتحكم.

نظرت بعيدًا، رافِضَةً أن تمنح طائر القوَّةَ لِيُزَعِجَهَا.

ثم سمعت جلبة، قَادِمَةً من الكوخ. جَثَمَت بجانب مقعد الحديقة وراقبت بينما ظَهَرَت للعيانِ هِيتانِ مُكَلَّلَتانِ بالسواد. تَوَقَّعَت أن يكون مانسيل، لكن مَنْ الذي جلبه معه؟

سار الجَسَدان بُطءٍ، وهما يمسكان بشيءٍ كبيرٍ يتأرجح بينهما.
وضعاها إلى الأسفل على الجانب الآخر من السور، ثم تجاوزَ أحدهما
الحُفْرَةَ ذاهِبًا إلى الحديقة السَّرِيَّة.

أشعل مانسيل عودَ ثِقَابٍ فَأزَّ بِوَهَجٍ من اللهب الساخن؛ قلب
برتقالي يُطَوِّقه اللون الأزرق. قَرَّبَه من فتيل المصباح ولفَّ القُرْصَ
حتى يشتدَّ الضوء.

نهَضت أدالين واقترَبَت.

"مساء الخير ليدي مونتراشيه" قال مانسيل.

أشارت إلى الرَّجُل الثاني وتكلَّمت بصوتٍ مُرتَجِفٍ: "مَن هذا؟".

"سلوكم. الحوذِيُّ".

"ولماذا هو هنا؟".

"الجُرف شديد الانحدار، والحمولة ثقيلة"، نظَرَ إلى أدالين، وانعكس
لَهَبُ المصباح على زُجاج نظَّارته الأنفية. "أنا واثقٌ من أنه لن يتفوَّه
بأيِّ كلمة". ثم أمال المصباح جانِبًا وبان الجانب السفلي من وجه
سلوكم. كان فَكُّهُ السُّفْلِيُّ مُشوَّهًا بِشكْلِ بَشَع، ومكان الفم كانت
هناك عُقْدٌ مُنتَفِخة وجِلْدٌ ناتئ.

بينما شرعا في الحفر، وهما يُوسَّعان الحفرة التي قام بها العُمَّالُ
بالفعل، تحوَّل انتباه أدالين إلى الكفن الأسود الملقى على الأرض أسفل
شجرة التفاح. أخيرًا، ستُدْفَن الفتاة... ستختفي وتُنسى، كأنها لم توجد
قَطُّ. ومع الوقت سينسى الناس أنها كانت موجودةً.

أغلَقَت عينيها، وصَمَّت أذُنَيْها عن ضَجَّة الطيور التعيسة التي
شَرَعَت تُزْقِرُ بِشِدَّة، وحفيف الأوراق المتزايد. بدلًا من ذلك أصغَت
لصوت التُّراب الجميل الذي يسقط على السطح المتين بالأسفل.

سَيَنْتَهِي الْأَمْرُ سَرِيعًا. لَقَدْ رَحَلَتِ الْفَتَاةُ، وَبِمَكَانِ أَدَالِينَ أَنْ تَتَنَفَّسَ مُجَدِّدًا...

تَحْرَكُ الْهَوَاءُ الْبَارِدُ عَلَى وَجْهِهَا. فَتَحْتُ جَفْنَيْهَا.
اتَّجَهَتْ نَحْوَهَا هَيْئَةً سُودَاءَ، بِالْقَرَبِ مِنْ رَأْسِهَا.
طَائِرٌ؟ وَطَوَاطُ؟

جَنَاحَانِ سُودَاوَانِ يَضْرِبَانِ سَمَاءَ اللَّيْلِ.
تَرَاجَعَتِ أَدَالِينَ إِلَى الْخَلْفِ.

شَعَرَتْ بِوَخْزٍ مُبَاغِتٍ، وَصَارَ دَمُهَا بَارِدًا ثُمَّ سَاخِنًا ثُمَّ بَارِدًا مَرَّةً أُخْرَى.

بَيْنَمَا طَارَتِ الْبُومَةُ بَعِيدًا، عَلَى الْجِدَارِ، أَخَذَتْ رَاحَةَ يَدِهَا تَخْفُقَ.

لَا بُدَّ وَأَنْهَا صَرَخَتْ؛ لِأَنَّ مَانَسِيلَ تَوَقَّفَ عَنِ الْحَفْرِ لِكِي يُمِيلَ الْمِصْبَاحَ بِالْقَرَبِ مِنْهَا. فِي الضَّوِّ الْأَصْفَرَ الْمُتْرَاقِصَ، أَبْصَرَتْ أَدَالِينَ فَرَعًا طَوِيلًا لَوْرِدَةً شَائِكَةً تَحْرَّرَ مِنْ حَوْضِ الزَّهْوَرِ لِيَتَشَبَّثَ بِهَا. وَقَدْ اسْتَقَرَّتْ شَوْكُتُهَا السَّمِيكَةَ فِي رَاحَةِ يَدِهَا.

بِيَدِهَا الْأُخْرَى اقْتَلَعَتْهَا مِنْ جِلْدِهَا. انْسَلَّ خَيْطٌ مِنَ الدَّمَاءِ عَلَى الْجِلْدِ، قَطْرَةً صَغِيرَةً لِامِعَةٍ مِثَالِيَّةٍ.

سَحَبَتْ أَدَالِينَ مَنَدِيلًا قُمَاشِيًّا مِنْ كُمَّهَا وَضَعَطَتْ بِهِ عَلَى الْجُرْحِ، وَرَاقَبَتْ الْبُقْعَةَ الْحَمْرَاءَ وَهِيَ تَنْزُ عِبْرَهُ.

كَانَتْ مُجَرَّدَ شَوْكَةٍ. لَمْ تَكْتَرِثْ لِذِمِّهَا الَّذِي صَارَ بَارِدًا لِلْغَايَةِ أَسْفَلَ جِلْدِهَا، سَيَنْدَمِلُ الْجُرْحُ، وَسَتَكُونُ عَلَى مَا يَرَامُ.

لَكِنْ شُجَيْرَةُ الْوَرْدِ تَلِكِ سَتَكُونُ أَوَّلَ شَيْءٍ يُزَالُ حِينَمَا تَأْمُرُ أَدَالِينَ بِتَدْمِيرِ الْحَدِيقَةِ.

مَا جَدْوَى الْوَرْدِ الْآنَ فِي حَدَائِقِ بَلَكَهْرَسْتِ؟

(51)

تريجيننا، 2005

بينما راحت كساندرا تُحدِّق في الحُفرة العميقة، في قَبر إيليزا، شعرت بهدوءٍ غريبٍ يكتنفها، كأنَّ بهذا الاكتشاف أطلقت الحديقةُ تنهيدةً ارتياحٍ عميقة. كانت الطيور أكثر هدوءًا، وكفَّت الأوراق عن الحفيف، وانقشع القَلْقُ الغريب. أميط اللثام عن السِّرِّ الذي طواه النسيان وحفظته الحديقة.

صوت كريستيان الهادئ، يأتي كأنه من مكانٍ بعيد: "ألن تفتحيها؟".

الآنية الفخارية، ثَقِيلَةٌ الآن بين يَدَيْهَا. مرَّرت كساندرا أصابعها على الشَّمع القديم الذي يَسدُّ الحافَّة. نظَّرت سريعًا نحو كريستيان، الذي أوما لها مُشجِّعًا، ثم ضَغَطت وأدارت، وانتزعت الختم الشمعيَّ فانفتح الغطاء بقوة.

بالدّاخل كانت هناك ثلاثة أشياء: صُرّة جلدية، وضميرة من شعرٍ أحمرٍ ذهبيٍّ، ودَبُّوس زينة.

كان بالصُّرّة الجلدية عُمَلتان قَدِيمَتان، لَوْنُهُما أَصْفَرُ باهِتٌ، طُبِعَت عليهما الصُّورَةُ الجانبيّة المألوفة ذات اللُّغْد للمَلِكَة فيكتوريا. كانت التواريخ 1897 و1900.

كان الشَّعْرُ مَرْبُوطًا بِخَيْطٍ مَجْدُولٍ وَمَلْفُوفٍ كَصَدْفَةِ حَلَزُونٍ يَيناسب الآنيّة. بقاؤه فيها طيلة هذه السَّنوات تَرَكَه ناعِمًا رقيقًا وفي حالةٍ مُمتازة. وتساءلت كساندرا من تكون صاحبة هذا الشَّعر، ثم تَذَكَّرَت إحدى يوميات مُفكِّرة روز القديمة، والتي كتبتها حينما جاءت إيليزا لأوّل مرة إلى بلاكهرست. شكّوى عديدة عن الفتاة الصغيرة التي وصفتها روز بأنها "ليست سوى هَمجيّة". الطفلة ذات الشعر القصير كشَّعِر الصُّبيان.

آخر شيءٍ تَأَمَّلْتَه كساندرا كان دَبُّوس الزَّينة، والذي بدا أنيقًا في راحة يَدِها. كان مستديرًا، وحافَّته مُزَخرفَة، ومُرصَّعة بالجواهر، وفي منتصفه شكْلٌ يُشبه النسيج. لكنه لم يَكُن كذلك. وبخبرة كساندرا الطويلة في التُّخفِ عرفت ماذا يكون هذا الدَّبُّوس. قَلْبَتَه ومَرَّتْ بطرف إصبعها على النُّقش الموجود على الظَّهر والذي يقول بخطِّ دقيق: إلى چورچيانا مونتراشيه، في مُناسِبَة عيد ميلادها السادس عشر. الماضي. المستقبل. العائلة.

كان ذلك هو الكنز الذي من أجله عادت إيليزا إلى منزل آل سويندل، وكان ثَمُّه لقاءً مع رجلٍ غريب. لقاء نجم عنه انفصالٌ إيليزا وأيقوري، وكل ما حدث بعد ذلك، وصارت أيقوري نيل. "ما هذا؟".

رَفَعَت كساندرا رأسها. "دَبُّوسُ حداد".

قَطَّبَ جبينه.

"اعتاد الإنجليز في عصر الملكة فيكتوريا على صنْع هذه الدبايس ليحفظوا فيها شَعَرَ نِسَاءِ العائِلة. وهذا الدُّبوس كان يَحُصُّ چورچيانا مونتراشيه، والدة إيليزا".

أوما كريستيان ببطء. "هذا يُفسِّر لماذا كان مُهِمًّا للغاية بالنسبة لها. ولماذا ذَهَبَتْ لاستعادته".

"وسبب عدم عودتها إلى السفينة" تأمَّلت كساندرا الأشياء العزيزة الخاصَّة بإيليزا في جِبرها. "تمنَّيتُ أن تراهم نيل. لَطالَمَا شعرت أنها مَهجورة، لم تَعْلَمَ قَطُّ أن إيليزا كانت أُمِّها، وأنها كانت محبوبَةً. لم ترغب في شيءٍ قَدَرَ رَغْبَتِها في معرفة مَنْ تكون".

قال كريستيان: "لكنها كانت تعرف مَنْ تكون. كانت نيل، التي أَحَبَّتْها حفيدَتُها كساندرا حتى أنها عَبَرَتْ المحيطَ لِحَلِّ لُغزِها من أَجلِها".

"هي لا تعرف أنني جِئتُ إلى هنا".

"وكيف تعرفين ما تعرفه أو ما لا تعرفه؟ ربِّمًا تُراقِبُنَا الآن". رفع حاجِبَيْه. "على كُلِّ حال، بالطبع تعرف أنك ستأتين. لماذا تَرَكَتِ لكِ الكوخ؟ والملاحظة على الوصيَّة، ماذا تقول؟".

كم بَدَتِ الملاحظة غريبةً، ولم تفهم فحواها حينما أعطاهَا بين الخطاب. "إلى كساندرا، التي ستفهم السَّبَب".

"وهل فَهَمَّتِ؟".

بالطَّبَعِ فَهَمَّت. نيل، التي كانت في أَمْسِ الحاجة لِتَواجِه ماضيها من أَجلِ المُضِيِّ قُدِّمًا، رأت في كساندرا توأمَ رُوحِها. كانت مِثْلَها صَحِيَّةَ الظروف. "كانت تعلم أنني سوف آتي".

كان كريستيان يومئذٍ. "كانت تعرف أنك تُحبينها حتى أنكِ ستُنهنين ما بدأته. مثلما جاء في قصة (عينا العجوز)، حينما أخبرَ الغزالُ الأميرةَ أن العجوز ليست بحاجةٍ إلى عينيها، وأنها كانت تعلم من هي بحُبِّ الأميرة لها".

دَمَعَت عينا كساندرا. "لقد كان الغزال في غاية الحكمة".

"بالإضافة إلى وسامته وشجاعته".

لم تتمالك نفسها فابتسمت. "والآن نعرف من كانت والدة نيل. والسبب الذي دفعها لتتركها بمفردها على متن السفينة. وما حدث لإليزا". كما تعرف أيضاً لماذا كانت الحديقة في غاية الأهمية بالنسبة لها، ولماذا شعرت بأن جذورها مُرتبطة بترتيبها. وفي كل لحظة كانت تقضيها بين جدرانها كانت تشعر أنها في بيتها. كانت تشعر أن نيل كانت هنا أيضاً، وكذلك إليزا، وكانت هي، كساندرا، صائنة أسرارهما. بدا على كريستيان أنه يقرأ عقلها، فقال: "والآن، هل تُخططين لبيعها؟".

راقبت كساندرا النسيم وهو يُلقي إلى الأسفل بأوراق صفراء كثيرة. "في الواقع أظن أنني سأمكث فترة أطول قليلاً".

"في الفندق؟".

"كلًا، هنا في الكوخ".

"ألن تشعرني بالوحدة؟".

لم يكن ذلك من طبيعتها، لكنها في تلك اللحظة فتحت فمها لتقول بالضبط ما تشعر به. لم تتردد لثانية واحدة ولم تقلق. "لا أعتقد أنني سأكون وحيدةً. ليس طيلة الوقت". شعرت بإحساسٍ ساخنٍ وباردٍ لخبَلٍ وشيكٍ وأسرعت تقول: "إنني أريد أن أنهي ما بدأنا فيه".

رفع حاجبته.

تورَدَت وجنتاها. "أقصد هنا، في الحديقة".

"أعلم ما تقصدين". نظر إلى عينيها طويلاً. وبينما شرَعَ قلبُ كساندرا يَدُقُّ مُجَدِّدًا كالطبل بين ضلوعها، أسقط مجرَفَتَه، ومدَّ يده ليحتضن وجنتها بكفِّه. اقترب منها أكثر فأغلقت عينيها. أفلتت منها تنهيدةً مُنْقَلَةٌ بسنوات التَّعب. ثم قَبَّلها، ودُهَشَت من قُرْبِه وقُوَّتِه ورائحته. كانت من الحديقة والأرض والشمس.

حينما فَتَحَت كساندرا عينيها، أدركت أنَّها كانت تبكي. لم تَكُن حزينه، كانت تلك دموع العثور عليها، دموع عودتها إلى بيتها بعد سفر طويل. أحكمت قَبْضَتَها على دُبُوس الزينة. الماضي، والمستقبل، والعائلة. كان ماضيها مليئًا بالذكريات الحزينة، والغالية، والجميلة. طيلة عشر سنوات كانت تتحرَّك بينهم، وتنام معهم، وتمشي بجوارهم. لكنَّ شيئًا تَغَيَّرَ. لقد تَغَيَّرَت. لقد جاءت إلى كورنوال لتكشف ماضي نيل، وعائلتها، وبطريقةٍ ما وَجَدَت مستقبلها كذلك. هنا، في هذه الحديقة الجميلة التي صَنَعَتها إيليزا واستصلحتها نيل، وَجَدَت كساندرا نفسها.

ملَّس كريستيان على شعرها، ونظر إلى وجهها بيقينٍ جعلها ترتعش. "لقد كنتُ أُنْتَظِرُكَ" قال أخيراً.

أمسكت كساندرا بيده. كانت في انتظاره أيضًا.

خاتمة

مستشفى جرينسلوبس، بريزبن، 2005

برودة على جفنيها، تخزها كأرجل النمل الدقيقة، تمشي ذهابًا وإيابًا.

صوت مألوف، لحسن الحظ. "سوف أجلب ممرضة...".

"كلًا" مدت نيل يدها، كانت عاجزة عن الرؤية، تعلقت بأي شيء يمكنها أن تتشبث به. "لا تركيني" كان وجهها رطبًا نتيجة مكيف الهواء البارد.

"أعدك أني سأعود سريعًا".

"كلًا...".

"لا بأس يا جدتي. سأطلب المساعدة".

جَدَّتِي. إنها جَدَّة، الآن تتذكَّر. لقد كان لديها أسماء كثيرة في حياتها، كثيرة جدًا حتى أنها نسيت بعضها، لكنها تعرَّفت على الاسم الأخير، جَدَّتِي؛ هكذا عرفت من تكون حقًّا.

إنها حَفِيدَتُهَا، الفرصة الثانية، المُنقِذَة، النُّعْمَة المَيْمُونَة.

والآن كساندرا ستجلب المساعدة.

انغَلَقَت عينا نيل. عَادَت على متن السفينة مُجَدِّدًا. يمكنها الشعور بالمياه أسفل منها، سطح السفينة يتأرجح يمينًا ويسارًا. براميل، ضوء الشمس، تراب، ضحكات، ضحكات بعيدة.

كان كُلُّ شيء يتلاشى. أُغْلِقَت الأضواء. كانت هناك عَتَمَة، كالأضواء الخافِئَة لمسرح البلازا قبل العرض الرئيسي. والمتفَرِّجون يَتَمَلَّمون في مقاعدهم، يتهاَمسون، ينتظرون...

سواد.

صمت.

ثم كانت في مكانٍ ما، مكان بارد ومُظْلِم. وحيدة. أشياء حادَّة، فروع، من الناحيتين. شعور بأن جدران طويلة ومُظْلِمَة كانت تضغط عليها من كل الجوانب. عاد الضوء قليلًا، لكنه كان كافيًا لكي تدير عُنُقَهَا وترى السماء البعيدة.

كانت قدماها تتحرَّكان. كانت تمشي، يداها مفرودتان جانِبًا مَمْرًا على أوراق الشجر وأطراف الفروع.

مُنْعَطَف. فدارت معه. جدران مُغطَّاة بأوراق كثيفة. رائحة الأرض قَوِيَّة ورطبة.

فجأة عَلِمَت أين هي. جاءت إليها الكلمة، قديمة ومألوفة. متاهة. كانت في متاهة.

إدراكٌ فوريٌّ تشكَّلَ كاملاً: في نهايتها يَقَعُ أروعُ مكان. مكانٌ تحتاج
أن تكون فيه. مكانٌ آمِنٌ يمكنها أن تستريح فيه.
وصلت إلى مَفْرِقٍ.

انعطفت.

إنها تعرف الطريق. تذكَّرت. لقد كانت هنا من قبل.

الآن حثَّت الخُطى. كانت تدفعها الحاجة، اليقين. لا بُدَّ وأن تصل
إلى النهاية.

كان أمامها ضوءٌ. لقد اقتربت.

لم يتبقَّ سوى خطوات قليلة.

ثم فجأةً، برز جَسَدٌ من الظلال إلى الضوء. المؤلِّفة، كانت تَمُدُّ
يدها. صوتٌ فضيٌّ يقول: "لقد كنت أنتظركِ".

تنحَّت المؤلِّفة جانباً ورأت نيل أنها وصلت إلى البوابة.

نهاية المتاهة.

"أين أنا؟"

"أنتِ في بيتكِ".

وبنفسٍ عميق، تبعَّت نيل المؤلِّفة عبر العتبة. نحو أجمل حديقةٍ
وقَعَت عليها عيناها.

مكتبة

t.me/t_pdf

وأخيراً، انكسرت تعويذة الملكة الشريفة، وتحررت الفتاة، التي
حُبست في جسم طائر، من قفصها. انفتح باب القفص، ووقع طائرُ
الوقواق وأخذ يسقطُ ويسقطُ، حتى انبسطَ جناحاه غير المكتملين
أخيراً، طارت الفتاة. ونسيمُ البحرِ الباردِ لوطنها يضربُ أطرافَ
جناحيها، حلقت فوق حافةِ الجرفِ وعبر البحر، نحو أرضٍ جديدةٍ
يملؤها الأملُ والحريّة والحياة. نحو نصفها الآخر. نحو الوطن.

من قصة (فرار طائر الوقواق)

بقلم إيليزا ماكبيس.

نبذة عن الكتاب

طفلة منبوذة على متن سفينة متجهة صوب أستراليا في عام 1913. يتبناها رئيس المرفأ وزوجته وتنشأ في كنفهما. في عيد ميلادها الحادي والعشرين يكشف لها والدها السر القديم الذي أضناه. بنفس محطة ومعلومات ضئيلة تنطلق (نيل) في رحلة طويلة لاقتفاء أثر هويتها الحقيقية، تنتهي بها إلى عزبة بلاكهرست الواقعة على ساحل كورنوال والأسرار التي تحيط بآل مونتراشيه. لكن قطع الأحجية لا تتجمع كلها إلا بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً حينما تستأنف حفيدتها، كساندرا، عملية البحث. الحديقة المنسية هي قصة خلافة، مثيرة للأحاسيس والمشاعر، عن الماضي والأسرار والعائلة والذكريات واكتشاف الذات.

"قراءة طويلة شهية تحلق بنا بعيداً عن الواقع"

ذا ديلي نيوز.

نبذة عن الكاتبة

كيت مورتن

كاتبة أسترالية من مواليد 1976. ولدت في جنوب استراليا ثم تنقلت مع أسرتها عدة مرات إلى أن استقر بهم المطاف في جبل تامبورين. وقعت في غرام الكتب منذ نعومة أظافرها، خاصة روايات إيند بلايتون. حصلت على شهادتين جامعتين في الدراما والأدب الإنجليزي من جامعتي ترينتي كولييج وكوينزلاند. صدر لها حتى الآن ست روايات وهي (المنزل في ريفرتون) أو (الضباب المتبدل) (2006)، و(الساعات البعيدة) (2010)، و(حافظ السر) (2012)، و(منزل البحيرة) (2015)، و(ابنة صانع الساعات) (2018)، بالإضافة إلى (الحديقة المنسية) (2008). تُرجمت رواياتها إلى أكثر من 34 لغة، وتصدرت قوائم أكثر الكتب مبيعاً.

نبذة عن المترجمة

رفيدة جمال ثابت

باحثة ومترجمة مصرية من مواليد 1987. حاصلة على ليسانس اللغة الإنجليزية من جامعة أسيوط. تدرس حالياً الماجستير في كلية الآداب بجامعة حلوان. ترجمت العديد من النصوص الأدبية والمقالات التي نُشرت في صحف ومجلات ومنصات مصرية وعربية.

مكتبة
t.me/t_pdf

telegram @t_pdf

"صمًا" ... رفع يده الشاحبة، والسيجارة محشورة
 ياصبعه تُهدد بالتخلي عن طرفها الرمادي.
 انحسرت كلمات نيل في حلقها. لقد كان بلا ريب
 أَوْقَحَ إنسانٍ تُعامَلت معه لسوء الحظ، وبالنظر
 إلى طبيعة بعض زملائها من نُجار الأشياء
 المستعملة، كان هذا ينمُّ عن شيء. لكنه كان
 فرصتها الأفضل للعثور على معلومات هي في
 أمْس الحاجة إليها. فلم يكن أمامها سوى
 الجلوس، كالمُعاقبة، تراقب وتنتظر، بينما
 السيارة البيضاء استحالت أسطوانة من الرماد.
 أخيرًا، انفصل الرماد وسقط بحقِّه على الأرض،
 وانضمَّ إلى الأشياء الترابية الأخرى التي ماتت
 بصمِّ مُمائِلٍ منذ أمدٍ بعيد. ارتجفت نيل التي
 كانت رَبَّةَ بيتٍ حريصة على النظافة.

الحديقة المنسية

"كتابة مذهلة.. أفضل قراءة لهذا العام"
 وومانز داي

"طويلة، خصية، مذهلة للهروب من
 العالم"

نيويورك ديلي نيوز

الغلاف عمر مصطفى

ISBN 978-977-313-834-9



9 789773 138349



المكرسة
 للنشر و الخدمات الثقافية و المعلومات